الرافدين على الجلالين

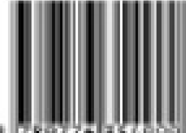
بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٣٦هـ-٢٠١٥م

رقم الإيداع: ٨٣٤٠/ ٢٠١٣م

الترقيم الدولي: ٩٧٨-٩٧٧-٦٢٥٤-٢٥-٨



الدار العلمية للنشر والتحقيق

العالمية للثقافة الدولية

 002-0122-165-3339

Email: abdallaelnady@gmail.com

الرافدين على الجلالين

تأليف

محمد بن نصر أبي جبل

الجزء السابع عشر





بسم الله الرحمن الرحيم

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ (٩٩).

{فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُف} فِي مَضْرِبه {آوَى} ضَمَّ {إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} أَبَاهُ وَأُمّه أَوْ خَالَته {وَقَالَ} لَهُمْ {أُدْخُلُوا مِصْر إِنْ شَاءَ الله آمِنِينَ} فَدَخَلُوا وَجَلَسَ يُوسُف عَلَى سَرِيره.

وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠).

{وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ} أَجْلَسَهُمَا مَعَهُ {عَلَى الْعَرْش} السَّرِير {وَخَرُّوا} أَيْ أَبَوَاهُ وَإِخْوَته {لَهُ سُجَّدًا} سُجُود انْحِنَاء لَا وَضْع جَبْهَة وَكَانَ تَحِيَّتهمْ فِي ذلك الزمان {وقال يا أبت هَذَا تَأْوِيل رُؤْيَايَ مِنْ قَبْل قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي} إلَيَّ {إذْ أَخْرَجَنِي مِنْ السِّجْن} لَمْ يَقُلْ مِنْ الْجُبّ تَكَرُّمًا لِئَلَّا تَخْجَل إخْوَته {وَجَاءَ بِكُمْ مِنْ الْبَدْو} الْبَادِيَة {مِنْ بَعْد أَنْ نَزَغَ} أَفْسَدَ {الشَّيْطَان بَيْنِي وَبَيْن إخْوَتِي إنَّ رَبِّي لَطِيف لِمَا يَشَاء إنَّهُ هُوَ الْعَلِيم} بِخَلْقِهِ {الْحَكِيم} فِي صُنْعه وَأَقَامَ عِنْده أَبُوهُ أَرْبَعًا وَعِشْرِينَ سنة أو سبع عشرة سنة وكان مُدَّة فِرَاقه ثَمَانِي عَشْرَة أَوْ أَرْبَعِينَ أَوْ ثَمَانِينَ سَنَة وَحَضَرَهُ الْمَوْت فَوَصَّى يُوسُفَ أَنْ يَحْمِلهُ وَيَدْفِنهُ عِنْد أَبِيهِ فَمَضَى بِنَفْسِهِ وَدَفَنَهُ ثَمَّةَ ثُمَّ عَادَ إلَى مِصْر وَأَقَامَ بَعْده ثَلَاثًا وَعِشْرِينَ سَنَة وَلَمَّا تَمَّ أَمْره

وَعَلِمَ أَنَّهُ لَا يَدُوم تَاقَتْ نَفْسه إِلَى الْمُلْك الدائم فقال[١].

---

(١) قوله تعالى: {فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَى يُوسُفَ آوَى إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ} [يوسف: ٩٩]، أي:"فلما دخل يعقوب وأبناؤه وأهلوهم على يوسف ضمَّ إليه أبويه واعتنقهما، وفي الكلام محذوفا مقدرا، وهو: فرحل يعقوب وأولاده وأهله إلى مصر، فلما دخلوا على يوسف".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: فلما دخل يعقوب وولده وأهلوهم على يوسف، ضم إليه أبويه".

عن السدي:"{فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه}، وإخوته وهما أبوه وخالته".

قتادة، قوله: " {آوى إليه أبويه} [يوسف: ٩٩] قال: أبوه وأمه ضمهما".

وقال القرطبي:"يعني: بـ «أبويه»: أباه وخالته، وكانت أمه قد ماتت في ولادة أخيه بنيامين. وقيل: أحيا الله له أمه تحقيقا للرؤيا حتى سجدت له، قاله الحسن".

قوله تعالى: {وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [يوسف: ٩٩]، أي:"وقال لهم: ادخلوا «مصر» بمشيئة الله، وأنتم آمنون من الجهد والقحط، ومن كل مكروه".

قال أبو العالية:"يعني به مصر فرعون".

وفي قوله تعالى: {وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [يوسف: ٩٩]، وجوه:

أحدهما: آمنين من فرعون، وهذا معنى قول أبي العالية.

الثاني: آمنين مما كنتم فيه في باديتكم من الجدب والقحط. قاله الطبري.

الثالث: آمنين من الخوف. قاله مقاتل.

وفي قوله تعالى: {إِنْ شَاءَ اللَّهُ آمِنِينَ} [يوسف: ٩٩]، وجهان:

أحدهما: إن يعقوب إنما دخل على يوسف هو وولده، وآوى يوسف أبويه إليه =

=

قبل دخول مصر. قالوا: وذلك أن يوسف تلقَّى أباه تكرمةً له قبل أن يدخل مصر، فآواه إليه، ثم قال له ولمن معه: {ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين}، بها قبل الدخول. وهذا قول السدي.

قال الماوردي: أنه" يعود إلى استيطان مصر، وتقديره استوطنوا مصر إن شاء الله".

قال ابن كثير: وقد أشكل قوله (آوى إليه أبويه) وقال ادخلوا مصر على كثير من المفسرين.

فقال بعضهم: هذا من المقدم والمؤخر، ومعنى الكلام وقال ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين وآوى إليه أبويه ورفعهما على العرش.

ورد ابن جرير هذا، وأجاد في ذلك، ثم اختار ما حكاه عن السدي أن يوسف آوى إليه أبويه لما تلقاهما، ثم لما وصلوا باب البلد قال: ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين.

وفي هذا نظر أيضا، لأن الإيواء إنما يكون في المنزل، كقوله (آوى إليه أخاه) وفي الحديث (من آوى محدثا)

وما المانع أن يكون قال لهم بعد ما دخلوا عليه وآواهم إليه: ادخلوا مصر، وضمنه اسكنوا مصر إن شاء الله آمنين، أي مما كنتم فيه من الجهد والقحط، ويقال-والله أعلم-.

قال السدي:"فحملوا إليه أهلهم وعيالهم، فلما بلغوا مصر، كلَّم يوسف الملك الذي فوقه، فخرج هو والملوك يتلقَّونهم، فلما بلغوا مصر قال: {ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين} {فلما دخلوا على يوسف آوى إليه أبويه}".

قال فرقد السبخي: "لما ألقي القميص على وجهه ارتد بصيرًا، وقال: {ائتوني بأهلكم أجمعين}، فحمل يعقوب وإخوة يوسف، فلما دنا أخبر يوسف أنه قد دنا منه، فخرج يتلقاه. قال: وركب معه أهلُ مصر، وكانوا يعظمونه. فلما دنا أحدهما

=

=

من صاحبه، وكان يعقوب يمشي وهو يتوكأ على رجل من ولده يقال له يهوذا. قال: فنظر يعقوب إلى الخيل والناس، فقال: يا يهوذا، هذا فرعون مصر؟ قال: لا هذا ابنك! قال: فلما دنا كل واحد منهما من صاحبه، فذهب يوسف يبدؤه بالسلام، فمنع من ذلك، وكان يعقوب أحقّ بذلك منه وأفضل، فقال: السلام عليك يا ذاهب الأحزان عني، هكذا قال: «يا ذاهب الأحزان عني»".

قال حجاج:"بلغني أن يوسف والملك خرجا في أربعة آلاف يستقبلون يعقوب وبنيه".

الثاني: أنه راجع إلى قول يعقوب: سوف أستغفر لكم ربي إن شاء الله آمنين إنه هو الغفور الرحيم}، ويكون اللفظ مؤخراً، وهو قول ابن جريج.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله السدي، وهو أن يوسف قال ذلك لأبويه ومن معهما من أولادهما وأهاليهم قبل دخولهم مصر حين تلقَّاهم، لأن ذلك في ظاهر التنزيل كذلك، فلا دلالة تدل على صحة ما قال ابن جريج، ولا وجه لتقديم شيء من كتاب الله عن موضعه أو تأخيره عن مكانه إلا بحجّة واضحةٍ".

قوله تعالى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ} [يوسف: ١٠٠]، أي:"وأجْلَسَ أباه وأمه على سرير ملكه بجانبه؛ إكرامًا لهما".

قال الثعلبي:"يعني: أجلسهما عليه".

قال ابن إسحاق:"يعني: رفع اسمهما".

قال الزجاج:"{العرش}، السرير".

قال ابن عباس:"يقول: رفع أبويه على السرير". وروي عن مجاهد، والضحاك، وقتادة، وسفيان، والسدي، مثل ذلك.

وروي عن ابن زيد:"{ورفع أبويه على العرش}، قال: مجلسه".

=

=

قال ابن عمر:"اهتز العرش لحب لقاء الله سدا، قال: إنما يعني السرير ورفع أبويه على العرش".

وفي أبويه قولان:

أحدهما: أنهما أبوه وخالته راحيل، وكان أبوه قد تزوجها بعد أمه فسميت أُمـًا، وكانت أمه قد ماتت في نفاس أخيه بنيامين، قاله وهب، والسدي، وابن زيد.

أخرج ابن ابي حاتم بسنده عن وهب، قال:"ورفع أبويه على العرش قال: أبوه وخالته وكانت توفيت أم يوسف في نفاس أخيه بنيامين".

عن عمرو بن أبي سلمة، قال: "سألت زيد بن أسلم، عن قول الله تعالى: {ورفع أبويه على العرش}، فقلت: أبلغك أنها خالته؟ قال: قال ذلك بعض أهل العلم، يقولون: إن أمّه ماتت قبل ذلك، وإن هذه خالته".

الثاني: أنهما أبوه وأمه وكانت باقيه إلى دخول مصر، قاله الحسن، وابن إسحاق.

قال الطبري:"وأولى القولين في ذلك بالصواب ما قاله ابن إسحاق ؛ لأن ذلك هو الأغلب في استعمال الناس والمتعارف بينهم في «أبوين»، إلا أن يصح ما يقال من أنّ أم يوسف كانت قد ماتت قبل ذلك بحُجة يجب التسليم لها، فيسلّم حينئذ لها".

قوله تعالى: {وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} [يوسف: ١٠٠]، أي:"وحيَّاه أبواه وإخوته الأحد عشر بالسجود له تحية وتكريمًا، لا عبادة وخضوعًا".

قال ابن عباس:"يقول: رفع أبويه على السرير، وسجدا له، وسجد له إخوته".

وفي قوله تعالى: {وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا} [يوسف: ١٠٠]، وجوه:

أحدها: أنهم سجدوا ليوسف تعظيماً له.

قال قتادة: كانت تحية من قبلكم، كان بها يحيِّي بعضهم بعضًا، فأعطى الله هذه الأمة السلام، تحية أهل الجنة، كرامةً من الله تبارك وتعالى عجّلها لهم، ونعمة

=

=

منه".

قال محمد بن إسحاق: "تحمّل - يعني يعقوب- بأهله حتى قدموا على يوسف، فلما اجتمع إلى يعقوب بنوه، دخلوا على يوسف، فلما رأوه وقعوا له سجودًا، وكانت تلك تحية الملوك في ذلك الزمان، أبوه وأمه وإخوته".

وقال قتادة أيضا:"وكانت تحية الناس يومئذ أن يسجد بعضهم لبعض".

قال سفيان:"كانت تحيةً فيهم".

قال ابن جريج:"كانت تلك تحيّتهم، كما تصنع ناسٌ اليوم".

قال ابن زيد:"ذلك السجود لشرَفه، كما سجدت الملائكة لآدم لشرفه، ليس بسجود عبادةٍ".

عن عدي بن حاتم:"{وخروا له سجدا}، قال: كانت تحية من كان قبلكم، فأعطاكم الله السلام مكانها".

قال الفراء:"سجود تحية وطاعة لا لربوبية".

قال الزجاج:"كان من سنة التعظيم في ذلك الوقت أن يسجد للمعظم".

قال الحارث بن أسد المحاسبي:"إنما سجدوا له تحية وإكراما لا عبادة له ثم رفعهما على سريره بعدما سجدوا له وأجلسهم معه على فراشه كذلك فسرها المفسرون".

قال النحاس:"هو سجود على غير عبادة وإن كان قد نهي المسلمون عن هذا فإنه على ماروي أنها تحية كانت لهم".

قال الثعلبي:"كانت تحية الناس يومئذ السجود، ولم يرد بالسجود وضع الجباه على الأرض، لأن ذلك لا يجوز إلا لله تعالى وإنما هو الانحناء والتواضع على طريق التحية والتعظيم والتسليم إلا على جهة العبادة والصلاة، وهذا قول الأعشى بن ثعلبة:

=

=

فلمـــا أتانـــا بعيـــد الكـــرى سـجدنا لـــه ورفعنـــا العمـــارا

وقال آخر:

فـضول أزمتهـا لأمهـا أسـجدت سـجود النـصارى لأربابهـا

وقيل: السجود في اللغة الخضوع كقول النابغة:

بجَمْـع تـضل البُلْـقُ في حَجَراتـه ترى الأكْـم منـه سـجدا للحـوافر

أي متطامنة ذليلة".

وقال الحسن: "بل أمرهم الله تعالى بالسجود له لتأويل الرؤيا".

قال الطبري:"وإنما عنى من ذكر بقوله:"إن السجود كان تحية بينهم"، أن ذلك كان منهم على الخُلُق، لا على وجه العبادة من بعضهم لبعض. ومما يدل على أن ذلك لم يزل من أخلاق الناس قديمًا قبل الإسلام على غير وجه العبادة من بعضهم لبعض، قول أعشى بني ثعلبة:

فَلَمَّـــا أَتَانَـــا بُعَيْـــدَ الكَـــرَى سَـــجَدْنَا لَـــهُ وَرَفَعْنَـــا عَمَـــارَا"

والقول الثاني: أنهم سجدوا لله ﷻ، والمعنى: خرّوا لله سجدا، فقوله: {له}، كناية عن الله تعالى. حكاه الثعلبي والماوردي عن ابن عباس.

قال الماوردي:"وكان يوسف في جهة القبلة فاستقبلوه بسجود، وكان سجودهم شكراً، ويكون معنى قوله: {وخروا}، أي: سقطوا، كما قال تعالى: {فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِم} [النحل: ٢٦]، أي: سقط".

قال الجصاص:"قيل إنهم سجدوا لله شكرا له على ما أنعم به عليهم من الاجتماع مع يوسف على الحال السارة وأرادوا بذلك التعظيم ليوسف فأضاف السجود إلى يوسف مجازا كما يقال صلى للقبلة وصلى إلى غير القبلة يعني إلى تلك الجهة".

قال ثعلبة: "خروا يعني مروا، ولم يرد الوقوع والسقوط على الأرض، نظيره قوله

=

=

تعالى: {لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا} [الفرقان: ٧٣]، إنما أراد لم يمروا كذلك، [قال] مجاهد: بمعنى المرور".

والقول الثالث: أن السجود ها هنا الخضوع والتذلل، ويكون معنى قوله تعالى: {خروا}، أي: بدروا. ذكره الماوردي.

قوله تعالى: {وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا} [يوسف: ١٠٠]، أي:"وقال يوسف لأبيه: هذا السجود هو تفسير رؤياي التي قصصتها عليك من قبل في صغري، قد جعلها ربي صدقًا".

قال الثعلبي:"قال يوسف عند ذلك -واقشعر جلده-: {هذا تأويل رءياي من قبل قد جعلها ربي حقا}، وهو قوله: {إني رأيت أحد عشر كوكبا}".

واختلفوا في مدة غيبة يوسف عن يعقوب-عليهما السلام-، ومدة تحقيق الرؤيا، على أقوال:

أحدها: أنه كان بينهما مائتان وعشرون سنة. حكاه الثعلبي عن الكلبي.

الثاني: ثمانين وسبعة أعوام. حكي ذلك عن ابن إسحاق بن يسار.

الثالث: أنه كان بينهما ثلاث وثمانون سنة. قاله الحسن-في إحدى الروايات-.

الرابع: أنه كان بينهما ثمانون سنة، قاله الحسن أيضا، وقتادة، وجسر بن فرقد، وفضيل بن عياض.

قال الحسن:"كان منذ فارق يوسف يعقوب إلى أن التقيا، ثمانون سنة، لم يفارق الحزن قلبه، ودموعه تجري على خديه، وما على وجه الأرض يومئذ عبدٌ أحبَّ إلى الله من يعقوب".

وقال الحسن ايضا:"ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشرة سنة، وكان بين ذلك وبين لقائه يعقوب ثمانون سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثًا وعشرين سنة، ومات وهو ابن عشرين ومائة سنة".

=

=

الخامس: سبعون سنة. حكي عن عبد الله بن شداد.

السادس: سبع وسبعون سنة. حكاه الثعلبي.

السابع: كان بينهما أربعون سنة، قاله سليمان، وعثمان، وعبد الله بن شداد-وهو المشهور عنه-.

قال عبد الله بن شداد: "وقعت رؤيا يوسف بعد أربعين سنة، وإليها ينتهي أقصى الرؤيا".

الثامن: خمسة وثلاثون سنة. قاله قتادة.

التاسع: ست وثلاثون سنة، قاله سعيد بن جبير.

العاشر: اثنتان وعشرون سنة. ذكره الماوردي.

الحادي عشر: أنه كان بينهما ثماني عشرة سنة، قاله ابن إسحاق.

قال ابن إسحاق:"ذكر لي، والله أعلم، أن غيبة يوسف عن يعقوب كانت ثمان عشرة سنة. قال: وأهل الكتاب يزعمون أنها كانت أربعين سنة أو نحوها، وأنّ يعقوب بقي مع يوسف بعد أن قدم عليه مصر سبع عشرة سنة، ثم قبضه الله إليه".

فإن قيل: فإن رؤيا الأنبياء لا تكون إلا صادقة فهلاّ وثق بها يعقوب وتسلى؟ ولم: {قال يا بُني لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيداً}، وما يضر الكيد مع سابق القضاء؟

قيل عن هذا جوابان:

أحدهما: أنه رآها وهو صبي فجاز أن تخالف رؤيا الأنبياء المرسلين.

الثاني: أنه حزن لطول المدة في معاناة البلوى وخاف كيد الإخوة في تعجيل الأذى.

قوله تعالى: {وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ} [يوسف: ١٠٠]، أي:"وقد تفضَّل عليَّ حين أخرجني من السجن، وجاء بكم إليَّ من البادية".

=

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه، مخبراً عن قيل يوسف: وقد أحسن الله بي في إخراجه إياي من السجن الذي كنت فيه محبوسًا. وفي مجيئه بكم من البدو. وذلك أن مسكن يعقوب وولده، فيما ذكر، كان ببادية فلسطين".

قال عمرو: "أخبرنا شيخ لنا أن يعقوب كان ببادية فلسطين".

قال قتادة:"وكان يعقوب وبنوه بأرض كنعان، أهل مواشٍ وبرّية".

قال ابن جريج:"كانوا أهل بادية وماشية".

قال ابن إسحاق:"كان منزل يعقوب وولده، فيما ذكر لي بعض أهل العلم، بالعَرَبات من أرض فلسطين، ثغور الشأم. وبعضٌ يقول بالأولاج من ناحية الشِّعْب، وكان صاحب بادية، له إبلٌ وشاء".

قال عبد الله بن شداد: "اجتمع آل يعقوب إلى يوسف بمصر وهم ستة وثمانون إنسانًا، صغيرهم وكبيرهم، وذكرهم وأنثاهم. وخرجوا من مصر يوم أخرجهم فرعون وهم ست مائة ألف ونَيّف".

قال عبد الله:"خرج أهل يوسف من مصر وهم ست مائة ألف وسبعون ألفًا، فقال فرعون: {إِنَّ هَؤُلاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ} [سورة الشعراء: ٥٤]".

قال مسروق:"دخل أهل يوسف مصر وهم ثلاث مائة وتسعون من بين رجل وامرأة".

قوله تعالى: {مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي} [يوسف: ١٠٠]، أي:"من بعد أن أفسد الشيطان رابطة الأخوة بيني وبين إخوتي".

قال الطبري:"يعني: من بعد أن أفسد ما بيني وبينهم، وجَهِل بعضنا على بعض".

قال قتادة:"ونزع من قلبه نزغ الشيطان وتحريشه على إخوته".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ} [يوسف: ١٠٠]، أي:"إن ربي لطيف التدبير لما يشاء".

رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ

=

قال الطبري: "يقول: إن ربي ذو لطف وصنع لما يشاء، ومن لطفه وصنعه أنه أخرجني من السجن، وجاء بأهلي من البَدْوِ بعد الذي كان بيني وبينهم من بُعد الدار، وبعد ما كنت فيه من العُبُودة والرِّق والإسار".

قال البيضاوي: أي: "لطيف التدبير له إذ ما من صعب إلا وتنفذ فيه مشيئته ويتسهل دونها".

قال قتادة: "لطف بيوسف وصنع له حتى أخرجه من السجن، وجاء بأهله من البدو، ونزع من قلبه نزغ الشيطان، وتحريشه على إخوته".

قوله تعالى: {إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ} [يوسف: ١٠٠]، أي: "إنه هو العليم بمصالح عباده، الحكيم في أقواله وأفعاله".

قال الطبري: "{إنه هو العليم}، بمصالح خلقه وغير ذلك، لا يخفى عليه مبادي الأمور وعواقبها، {الحكيم}، في تدبيره".

قال البيضاوي: " {إنه هو العليم} بوجود المصالح والتدابير. {الحكيم} الذي يفعل كل شيء في وقته وعلى وجه يقتضي الحكمة".

عن محمد بن إسحاق، قوله: " {عليم}، أي: عليم بما تخفون"، "قوله: {حكيم}، في عذره وحجته إلى عباده".

روي: "أن يوسف طاف بأبيه عليهما الصلاة والسلام في خزائنه فلما أدخله خزانة القراطيس قال: يا بني ما أعقك عندك هذه القراطيس وما كتبت إلي على ثمان مراحل قال: أمرني جبريل عليه السلام قال: أو ما تسأله قال: أنت أبسط مني إليه فاسأله فقال جبريل: الله أمرني بذلك. لقولك: وأخاف أن يأكله الذئب قال فهلا خفتني".

(١٠١).

{رَبّ قَدْ آتَيْتنِي مِنْ الْمُلْك وَعَلَّمْتنِي مِنْ تأويل الأحاديث} تعبير الرؤيا {فاطر} خالق {السماوات والأرض أنت وليي} مُتَوَلِّي مَصَالِحِي {فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَة تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} مِنْ آبَائِي فَعَاشَ بَعْد ذَلِكَ أُسْبُوعًا أَوْ أَكْثَر وَمَاتَ وَلَهُ مِائَة وَعِشْرُونَ سَنَة وَتَشَاحَّ الْمِصْرِيُّونَ فِي قَبْره فَجَعَلُوهُ فِي صُنْدُوق مِنْ مَرْمَر وَدَفَنُوهُ فِي أَعْلَى النِّيل لِتَعُمّ الْبَرَكَة جَانِبَيْهِ فَسُبْحَان مَنْ لَا انْقِضَاء لملكه[1].

---

(١) قوله تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ} [يوسف: ١٠١]، أي:"ثم دعا يوسف ربه قائلا ربِّ قد أعطيتني من ملك «مصر»".

قال الشوكاني: من " للتبعيض، أي: بعض الملك، لأنه لم يؤت كل الملك، إنما أوتي ملكا خاصا، وهو ملك مصر في زمن خاص.

وفي قوله تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ} [يوسف: ١٠١]، وجوه:

أحدها: أن الملك هو احتياج حساده إليه، قاله ابن عطاء.

الثاني: أراد تصديق الرؤيا التي رآها.

الثالث: أنه الرضا بالقضاء والقناعة بالعطاء.

الرابع: أنه أراد مُلْك الأرض. قال الماوردي:"وهو الأشهر، وإنما قال من الملك لأنه كان على مصر من قبل فرعون".

قال الطبري:"يعني: من ملك مصر".

قوله تعالى: {وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} [يوسف: ١٠١]، أي:"وعلمتني من تفسير الرؤيا".

قال الطبري:"يعني من عبارة الرؤيا، تعديدًا لنعم الله عليه، وشكرًا له عليها".

وفي قوله تعالى: {وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ} [يوسف: ١٠١]، وجهان:

=

=

أحدهما: عبارة الرؤيا. قاله مجاهد.

الثاني: الإخبار عن حوادث الزمان، حكاه ابن عيسى.

عن أبي الأعيس قال: "لما قال يوسف: {رب قد آتيتني من الملك}، حتى بلغ {توفني مسلما}، شكر الله له فزاده في عمره ثمانين عاما".

قوله تعالى: {فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يوسف: ١٠١]، أي:"يا خالق السموات والأرض ومبدعهما".

قال ابن عباس:"بديع السموات والأرض".

قال قتادة:"خالق السموات والأرض".

قال الطبري:"يقول: يا فاطر السموات والأرض، يا خالقها وبارئها".

قوله تعالى: {أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ} [يوسف: ١٠١]، أي:"أنت متولي جميع شأني في الدنيا والآخرة".

قال الطبري:"يقول: أنت وليي في دنياي على من عاداني وأرادني بسوء بنصرك، وتغذوني فيها بنعمتك، وتليني في الآخرة بفضلك ورحمتك".

قوله تعالى: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا} [يوسف: ١٠١]، أي:"توفني إليك مسلمًا".

قال الطبري:"يقول: اقبضني إليك مسلمًا".

وفي قوله تعالى: {تَوَفَّنِي مُسْلِمًا} [يوسف: ١٠١]، وجهان:

أحدهما: يعني: توفني على طاعتك، واغفر لي إذا توفَّيتني، قاله الضحاك.

الثاني: على ملة الإسلام.

روي الحسن، قال:"لما أن جاء البشير إلى يعقوب فألقى عليه القميص، قال: على أي دين خلفت يوسف؟ قال: على الإسلام، قال: الآن تمت النعمة".

قوله تعالى: {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١]، أي:"وألحقني بعبادك الصالحين من الأنبياء الأبرار والأصفياء الأخيار".

=

=

قال الطبري:"يقول: وألحقني بصالح آبائي إبراهيم وإسحاق ومن قبلهم من أنبيائك ورسلك".

وفي قوله تعالى: {وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ} [يوسف: ١٠١]، وجهان:

أحدهما: بأهل الجنة، قاله عكرمة.

الثاني: بآبائه إبراهيم وإسحاق ويعقوب، قاله وهب بن منبه، والضحاك.

قال ابن عباس:"اشتاق إلى لقاء ربه، وأحبَّ أن يلحق به وبآبائه، فدعا الله أن يتوفَّاه ويُلْحِقه بهم. ولم يسأل نبيّ قطّ الموتَ غير يوسف".

قال ابن عباس:"أول نبي سأل الله الموت يوسف".

قال قتادة:"ولم يتمنَّ الموت أحد قطُّ، نبي ولا غيره إلا يوسف".

قال قتادة:"لما جَمَع شمله، وأقرَّ عينه، وهو يومئذ مغموس في نَبْت الدنيا وملكها وغَضَارتها، فاشتاق إلى الصالحين قبله. وكان ابن عباس يقول: ما تمنى نبي قطّ الموت قبل يوسف".

قال مجاهد:"أن يوسف النبي ﷺ، لما جمع بينه وبين أبيه وإخوته، وهو يومئذ ملك مصر، اشتاق إلى الله وإلى آبائه الصالحين إبراهيم وإسحاق، فقال: {رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلمًا وألحقني بالصالحين}".

قال ابن إسحاق:"قال يوسف حين رأى ما رأى من كرامة الله وفضله عليه وعلى أهل بيته حين جمع الله له شمله، وردَّه على والده، وجمع بينه وبينه فيما هو فيه من الملك والبهجة: {يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقًّا}، إلى قوله: {إنه هو العليم الحكيم}. ثم ارعوى يوسف، وذكر أنّ ما هو فيه من الدنيا بائد وذاهب، فقال: {رب قد قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السموات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفّني مسلمًا وألحقني

=

=

بالصالحين}".

عن أبي عمران الجوني، قال: "والله لو كان قتلُ يوسف مضى لأدخلهم الله النارَ كُلَّهم، ولكن الله جل ثناؤه أمسك نفس يوسف ليبلغ فيه أمره، ورحمة لهم. ثم يقول: والله ما قصَّ الله نبأهم يُعيّرهم بذلك إنهم لأنبياء من أهل الجنة، ولكن الله قصَّ علينا نبأهم لئلا يقنط عبده".

عن سعيد بن عبد العزيز:"أن يوسف ﷺ لما حضرته الوفاة قال: يا إخوتاه إني لم أنتصر من أحد ظلمني في الدنيا، وإني كنت أحب أن أظهر الحسنة وأخفي السيئة، فذاك زادي من الدنيا، يا إخوتاه: إني أشركت آبائي في أعمالهم فأشركوني معهم في قبورهم، وأخذ عليهم بالميثاق، فلم يفعلوا حتى بعث الله موسى ﷺ فسأل، عن قبره فلم يجد أحدا يخبره إلا امرأة يقال لها شارح بنت شير بن يعقوب، فقالت: أدلك عليه على أن أشترط عليك قال: ذلك لك، قال: أصير شابة كلما كبرت قال: ذلك لك، قالت: وأكون معك في درجتك يوم القيامة فكأنه امتنع فأمر أن يمضي لها ذلك ففعل. فدلته عليه فأخرجه قال: فكانت كلما كانت مثل بنت خمسين سنة صارت مثل ابنة ثلاثين سنة حتى عمرت نسرين: ألف وستمائة سنة أو ألف وأربعمائة وحتى أدركها سليمان بن داود عليهما السلام فتزوجها".

عن أنس بن مالك، قال: "إن الله تبارك وتعالى لما جمع ليعقوب شمله، وأقر عينه، خَلا ولده نَجِيًّا، فقال بعضهم لبعض: ألستم قد علمتم ما صنعتم، وما لقي منكم الشيخ، وما لقي منكم يوسف؟ قالوا: بلى! قال: فيغرُّكم عفوهما عنكم، فكيف لكم بربكم؟ فاستقام أمرهم على أن أتوا الشيخ فجلسوا بين يديه، ويوسف إلى جنب أبيه قاعدٌ، قالوا: يا أبانا، أتيناك في أمر لم نأتك في أمرٍ مثله قط، ونزل بنا أمر لم ينزل بنا مثله! حتى حرّكوه، والأنبياء أرحم البرية، فقال: مالكم يا بَني؟ قالوا: ألستَ قد علمت ما كان منا إليك، وما كان منا إلى أخينا يوسف؟ قال: بلى!

=

=

قالوا: أفلستما قد عفوتُما؟ قالا بلى! قالوا: فإن عفوكما لا يغني عنّا شيئًا إن كان الله لم يعفُ عنا! قال: فما تريدون يا بني؟ قالوا: نريد أن تدعو الله لنا، فإذا جاءك الوحي من عند الله بأنه قد عفا عمّا صنعنا، قرّت أعيننا، واطمأنت قلوبنا، وإلا فلا قرّةَ عَين في الدنيا لنا أبدًا. قال: فقام الشيخ واستقبل القبلة، وقام

يوسف خلف أبيه، وقاموا خلفهما أذلةً خاشعين. قال: فدعا وأمَّن يوسف،، فلم يُجَبْ فيهم عشرين سنة، قال صالح المرِّي: يخيفهم. قال: حتى إذا كان رأس العشرين، نزل جبريل ﷺ على يعقوب عليه السلام، فقال: إن الله تبارك وتعالى بعثني إليك أبشرك بأنه قد أجاب دعوتك في ولدك، وأنه قد عفا عما صنعوا، وأنه قد اعتَقَد مواثيقهم من بعدك على النبوّة".

قال السدي:"لما حضر الموتُ يعقوبَ، أوصى إلى يوسف أن يدفنه عند إبراهيم وإسحاق، فلما مات، نُفِخ فيه المُرّ وحمل إلى الشأم. قال: فلما بلغوا إلى ذلك المكان أقبل عيصا أخو يعقوب فقال: غلبني على الدعوة، فوالله لا يغلبني على القبر! فأبى أن يتركهم أن يدفنوه. فلما احتبسوا، قال هشام بن دان بن يعقوب، وكان هشامٌ أصمَّ لبعض إخوته: ما لجدّي لا يدفن! قالوا: هذا عمك يمنعه! قال: أرونيه أين هو؟ فلما رآه، رفع هشام يده فوجأ بها رأس العيص وَجْأَةً سقطت عيناه على فخذ يعقوب، فدفنا في قبر واحد".

- وبهذا الدعاء الجامع الذي توجه به يوسف إلى ربه تعالى يختتم القرآن الكريم قصة يوسف مع أبيه ومع إخوته ومع غيرهم ممن عاشرهم والتقى بهم وهو دعاء يدل على أن يوسف - عليه السلام - لم يشغله الجاه والسلطان ولم يشغله لقاؤه عن طاعة ربه، وعن تذكر الآخرة وما فيها من حساب..

وهذا هو شأن المصطفين الأخيار الذين نسأل الله تعالى أن يحشرنا معهم، ويلحقنا بهم، ويوفقنا للسير على نهجهم...

=

=

مسألة: قال ابن كثير: هذا دعاء من يوسف الصديق، دعا به ربه ﷻ لما تمت نعمة الله عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما من الله به عليه من النبوة والملك سأل ربه ﷻ كما أتم نعمته عليه في الدنيا أن يستمر بها عليه في الآخرة، وأن يتوفاه مسلما حين يتوفاه، قاله الضحاك: وأن يلحقه بالصالحين وهم إخوانه من النبيين والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وقال رحمه الله:... وهذا الدعاء: يحتمل أن يوسف - عليه السلام -، قاله عند احتضاره.

كما ثبت في الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ جعل يرفع أصبعه عند الموت ويقول: «اللهم في الرفيق الأعلى» ثلاثا.

ويحتمل أنه سأل الوفاة على الإسلام واللحاق بالصالحين إذا جاء أجله، وانقضى عمره، لا أنه سأله ذلك منجزا.

كما يقول الداعي لغيره: أماتك الله على الإسلام، ويقول الداعي: اللهم أحينا مسلمين، وتوفنا مسلمين، وألحقنا بالصالحين، ويحتمل أنه سأل ذلك منجزا.

وكان ذلك سائغا في ملتهم، كما قال قتادة قوله: توفني مسلما وألحقني بالصالحين لما جمع الله شمله وأقر عينه، وهو يومئذ مغمور في الدنيا وملكها ونضارتها، اشتاق إلى الصالحين قبله.

- قوله (توفني مسلما). هل هو طلب منه للوفاة أو لا؟.

ذكر العلماء في توجيه كلام يوسف أقوالا كثيرة منها:

١ - أن المراد: توفني إذا توفيتني مسلما، وهو قول جمهور العلماء.

قال القرطبي: (وقيل: إن يوسف لم يتمن الموت، وإنما تمنى الوفاة على الإسلام، أي: إذا جاء أجلي توفني مسلما، وهذا قول الجمهور).

فليس في الآية تمني الموت وهذا هو المراد من التوجيه.

=

وعبر عنه بعضهم بقولهم: إن المراد من قول يوسف: الثبات على الإسلام والوفاة عليه. كما قال تعالى: {ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون (١٠٢)} [آل عمران:١٠٢]، أي: اثبتوا على هذا الدين حتى الممات.

وهذا هو الأرجح كما قال ابن عطية عنه: (وهو الأقوى عندي).

وقال القرطبي في التذكرة ص ٦: (وهذا هو القول المختار في تأويل الآية عند أهل التأويل).

٢ - أن هذا التمني من يوسف يجوز أن يكون عند الاحتضار، كما جاء عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أن رسول الله ﷺ كان يقول عندما نزل به الموت: " اللهم في الرفيق الأعلى ثلاثا".

٣ - وقيل إن المراد: وفاة الرفعة لا توفي الموت.

قال الراغب في المفردات ص ٦٠٢: (وقد قيل: توفي رفعة واختصاص لا توفي موت، كما قال الله تعالى: {ياعيسى إني متوفيك ورافعك إلي} [آل عمران:٥٥]).

وقال في موضع آخر ص ٢٧٠: (وقوله: {توفني مسلما} أي: اجعلني ممن استسلم لرضاك، ويجوز أن يكون معناه اجعلني سالما عن أسر الشيطان).

٤ - أن تمني الموت جائز في شريعة يوسف عليه السلام، وقد ذهب إلى هذا بعض العلماء، قال ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (أول نبي سأل الله الموت يوسف).

قال ابن عطية: (وذكر كثير من المفسرين أن يوسف عليه السلام لما عدد في هذه الآية نعم الله عنده تشوق إلى لقاء ربه ولقاء الجلة وصالحي سلفه وغيرهم من المؤمنين، ورأى أن الدنيا كلها قليلة فتمنى الموت في قوله: {توفني مسلما}).

ومن أضعف الأجوبة التي ذكرها العلماء في توجيه تمني يوسف للموت:

٥ - أن هذه الآية منسوخة، أشار إليه النحاس ورد هذا القول، حيث قال: (رأيت بعض المتأخرين ذكر في قوله تعالى إخبارا عن يوسف عليه السلام: {توفني

=

مسلما وألحقني بالصالحين (١٠١)} [يوسف:١٠١] قال: نسخه قول النبي ﷺ: " لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به.. " وهذا قول لا معنى له، ولولا أنا أردنا أن يكون كتابنا متقصيا لما ذكرناه؛ لأنه ليس معنى توفني مسلما توفني الساعة، وهذا بين جدا لا إشكال فيه، ولو صح أن قول يوسف ﷺ: {توفني مسلما} أنه يريد في ذلك الوقت لما كان منسوخا؛ لأن النبي ﷺ إنما قال: " لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به " فإذا تمناه إنسان لغير ضر فليس بمخالف النبي ﷺ، وقد يجوز أن يتمنى الموت من له عمل صالح متخلصا به من الكبائر).

وبعد التأمل في هذه الإجابات يتضح لي أن حكم تمني الموت يختلف باختلاف الأحوال، فيقال:

أ/ تمني الموت على الإطلاق لا يجوز؛ لما فيه من الإعتراض على قضاء الله وقدره، وعليه يحمل النص الصريح في النهي.

ب/ تمني الموت لضر نزل به في الدنيا لا يجوز، لنص النبي ﷺ على النهي عن هذه الصفة.

قال ابن حجر في شرح حديث النهي عن تمني الموت: (حمله جماعة من السلف على الضر الدنيوي، فإن وجد الضر الأخروي بأن خشي فتنة في دينه لم يدخل في النهي، ويمكن أن يؤخذ ذلك من رواية ابن حبان: " لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به في الدنيا " على أن [في] في هذا الحديث سببية، أي: بسبب أمر من الدنيا).

ج/ تمني الموت لمن خاف ضياع دينه جائز، ويدخل في ذلك وقت ظهور الفتن وغلبتها، وكذلك لمن قيده بما إذا كان الموت خيرا له، فإن هذا فيه تسليم لقضاء الله وقدره.

قال ابن عطية: (فيشبه أن قول النبي ﷺ لضر نزل به، إنما يريد ضرر الدنيا كالفقر والمرض ونحو ذلك، ويبقي تمني الموت مخافة فساد الدين مباحا، ويدلك على

=

=

هذا قول النبي ﷺ: " يأتي على الناس زمان يمر فيه الرجل بقبر الرجل فيقول يا ليتني مكانه، ليس به الدين، لكن ما يرى من البلاء والفتن).

ويدل على هذا قوله تعالى عن مريم: {فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا (٢٣)} [مريم:٢٣]، حينما خافت أن يظن بها السوء في دينها، فيفتنها ذلك.

وكذلك قوله ﷺ: " إن ربي أتاني فقال: قل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات وترك المنكرات وحب المساكين وأن تغفر لي وترحمني، وإذا أردت فتنة قوم فتوفني غير مفتون".

وهذا التفصيل لا بد منه في هذه المسألة؛ لما فيه من الجمع بين الأدلة، وهذا أمر مطلوب، فيحمل التمني على ما جاز، وهو فيما إذا كان الموت خيرا له، ويتأكد ذلك عندما يخاف المرء على دينه، وهذا مستفاد من نص الحديث.

ومن الأمثلة التي يمكن حملها على هذا التفصيل:

- تمني يوسف للوفاة على قول من قال: إنه يريد الوقت الحاضر، فهو خير له من البقاء في الدنيا.

- فعل جماعة من الصحابة، كما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: (اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط).

- قال ابن كثير: وأما إذا كان فتنة في الدين فيجوز سؤال الموت.

- قال ابن رجب: وأما تمني خوف فتنة في الدين، فإنه يجوز بغير خلاف.

- وقال في موضع آخر: هو جائز عند أكثر العلماء.

كما قال الله تعالى إخبارا عن السحرة لما أرادهم فرعون عن دينهم وتهددهم بالقتل (قالوا ربنا أفرغ علينا صبرا وتوفنا مسلمين).

=

=

وقالت مريم لما أجاءها المخاض، وهو الطلق، إلى جذع النخلة (يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا) لما علمت من أن الناس يقذفونها بالفاحشة، لأنها لم تكن ذات زوج.

وفي الحديث أن النبي ﷺ قال (... وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون) رواه أحمد.

وقال ﷺ (والذي نفسي بيده لا تذهب الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين إلا البلاء) رواه مسلم.

فقوله ﷺ (وليس به الدين) يقتضي إباحة ذلك أن لو كان عن الدين.

قال عمر (اللهم كبرت سني، وضعفت قوتي، وانتشرت رعيتي، فاقبضني إليك غير مضيع ولا مفرط).

وتمنت زينب بنت جحش لما جاءها عطاء عمر فاستكثرته وقالت: اللهم لا يدركني عطاء لعمر بعدها، فماتت قبل أن يدركها عطاء ثان لعمر.

وسأل عمر بن عبد العزيز من ظن به إجابة الدعاء أن يدعو له بالموت، لما ثقلت عليه الرعية، وخشي العجز عن القيام بحقوقهم.

وطلب كثير من السلف الصالح إلى بعض الولايات، فدعوا لأنفسهم بالموت فماتوا.

واشتهر بعضهم واطلع على بعض عمل أحدهم أو معاملته مع الله فدعا لنفسه بالموت فمات.

وكان سفيان الثوري يتمنى الموت كثيرا فسئل عن ذلك فقال: ما يدريني لعلي أدخل في بدعة، لعلي أدخل فيما لا يحل لي، لعلي أدخل في فتنة أكون قد مت فسبقت هذا.

=

وفي المسند عن محمود بن لبيد. عن النبي ﷺ قال (اثنتان يكرههما ابن آدم: الموت، والموت خير للمؤمن من الفتنة، ويكره قلة المال، وقلة المال أقل للحساب).

قال ابن عطية: فيشبه أن قول النبي ﷺ : لضر نزل به - إنما يريد ضرر الدنيا كالفقر والمرض ونحو ذلك ويبقى تمني الموت مخافة فساد الدين مباحا.

قال ابن القيم: جمعت هذه الدعوة الإقرار بالتوحيد والاستسلام للرب وإظهار الافتقار إليه، والبراءة من موالاة غيره سبحانه وكون الوفاة على الإسلام أجل غايات العبد، وأن ذلك بيد الله لا بيد العبد، والاعتراف بالمعاد وطلب مرافقة السعداء.

(منبهة): قال الله تعالى - حكاية عن يوسف عليه السلام -: (رب قد آتيتني من الملك وعلمتني من تأويل الأحاديث فاطر السماوات والأرض أنت وليي في الدنيا والآخرة توفني مسلما وألحقني بالصالحين (١٠١)) [يوسف: ١٠١].

وقال تعالى - عن مريم عليها السلام -: (فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت يا ليتني مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا (٢٣)) [مريم: ٢٣].

وفي الحديث عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: "لا يتمنى أحدكم الموت؛ إما محسنا فلعله يزداد، وإما مسيئا فلعله يستعتب". أخرجه (٧٢٣٥).

وعن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: "لا يتمنى أحدكم الموت، ولا يدع به من قبل أن يأتيه، إنه إذا مات أحدكم انقطع عمله، وإنه لا يزيد المؤمن عمره إلا خيرا". أخرجه مسلم (٢٦٨٢).

وعن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: قال النبي ﷺ : "لا يتمنين أحدكم الموت من ضر أصابه؛ فإن كان لا بد فاعلا فليقل: اللهم أحيني ما كانت الحياة خيرا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرا لي". أخرجه البخاري(٥٦٧١)، ومسلم (٢٦٨٠).

=

* ظاهر الآيتين الكريمتين جواز تمني الموت والدعاء به، وأما الأحاديث ففيها النهي عن ذلك، وهذا يوهم التعارض بين الآيات والأحاديث.

* مسالك العلماء في دفع التعارض بين الآيات والأحاديث:

أجمع العلماء على كراهة تمني الموت والدعاء به؛ عند وجود ضرر دنيوي، من مرض أو فاقة أو محنة، أو نحو ذلك من مشاق الدنيا؛ لما في ذلك من الجزع وعدم الرضا بالقضاء.

وأما إذا خاف ضررا في دينه، أو فتنة فيه؛ فلا كراهة في تمني الموت والحالة هذه، في مذهب جمهور العلماء.

وذهب أبو العباس القرطبي إلى المنع مطلقا، أخذا بإطلاق حديث أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -.

وحجة الجمهور:

١ - أن النبي ﷺ أطلق - في حديث أبي هريرة - النهي عن تمني الموت، وقيده في حديث أنس، بأن يكون تمنيه له لضر نزل به؛ فيحمل المطلق على المقيد.

٢ - أن مطلق حديث أنس يشمل الضر الدنيوي والأخروي، لكن المراد إنما هو الضر الدنيوي فقط، بدليل رواية: "لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به في الدنيا"، حيث قيد الضر كونه في الدنيا..

٣ - أنه قد روي عن النبي ﷺ ما يدل على جواز الدعاء بالموت عند خوف الفتن:

ففي الحديث القدسي أن الله تعالى قال لنبيه ﷺ: "يا محمد إذا صليت فقل: اللهم إني أسألك فعل الخيرات، وترك المنكرات، وحب المساكين، وإذا أردت بعبادك فتنة فاقبضني إليك غير مفتون"..

وعن أبي هريرة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ: "والذي نفسي بيده لا تذهب

=

الدنيا حتى يمر الرجل على القبر فيتمرغ عليه ويقول: يا ليتني كنت مكان صاحب هذا القبر، وليس به الدين إلا البلاء".

فقوله ﷺ : "وليس به الدين" يقتضي إباحة ذلك أن لو كان عن الدين.

وأما الآيات التي يوهم ظاهرها التعارض مع الأحاديث؛ فإن للعلماء في دفع التعارض بينها وبين الأحاديث مسلكين:

الأول: مسلك الجمع بينها:

وهذا مسلك الجمهور من المفسرين والمحدثين، حيث ذهبوا إلى توجيه الآيات ودفع التعارض بينها وبين الأحاديث، وقالوا في توجيه الآيات:

إن يوسف عليه السلام إنما دعا ربه أن يتوفاه مسلما عند حضور أجله، ولم يسأل الموت منجزا، وهذا الذي فعله يوسف عليه السلام لا محذور فيه، ولا يعارض الأحاديث التي فيها النهي عن تمني الموت والدعاء به؛ فإن كل أحد يسأل ربه أن يتوفاه على الإسلام.

قالوا: ولو سلمنا بأن يوسف عليه السلام دعا بالموت منجزا؛ فإن هذا لا يعارض الأحاديث؛ لأن فعله هذا ليس من شرعنا، وإنما من شرع من قبلنا، وشرع من قبلنا إنما يؤخذ به إذا لم يرد في شرعنا ما يخالفه.

وأما مريم عليها السلام فإنما تمنت الموت لوجهين:

أحدهما: أنها خافت أن يظن بها السوء في دينها وتعير، فيفتنها ذلك.

الثاني: لئلا يقع قوم بسببها في البهتان والزور، والنسبة إلى الزنا، وذلك مهلك لهم.

قالوا: وهذان الوجهان لا مانع من تمني الموت بسببهما؛ لأنهما من الفتنة في الدين، وقد تقدم أن تمني الموت والحالة هذه لا مانع منه، ولا يخالف أحاديث النهي.

الثاني: مسلك الترجيح بين الآيات والأحاديث:

=

ولأصحاب هذا المسلك مذهبان:

الأول: أن النهي في الأحاديث منسوخ بالآيات، وبقول النبي ﷺ لما حضرته الوفاة: "اللهم في الرفيق الأعلى".

حكى هذا القول ابن بطال ولم ينسبه لأحد.

وتعقبه: بأن الأمر ليس كذلك؛ لأن هؤلاء إنما سألوا ما قارب الموت، ولا مانع من ذلك.

كما أن أحاديث النهي قد جاء فيها ما يفيد جواز الدعاء عند حضور الأجل، وذلك في قوله ﷺ: "ولا يدع به من قبل أن يأتيه"، فظاهر هذه الرواية جواز الدعاء عند حضور الأجل.

المذهب الثاني: أن الآيات منسوخة بالأحاديث. نقل هذا المذهب النحاس ورده.

وعند حكاية أقوال المفسرين - في تفسير آيتي يوسف ومريم عليهما السلام - يظهر أن الجميع متفق على أن معنى الآيتين لا يخالف أحاديث النهي عن تمني الموت؛ ذلك أن يوسف عليه السلام سأل ربه الوفاة على الإسلام، وهذا لا محذور فيه، ومريم عليها السلام خافت الفتنة في دينها فتمنت الموت، وهذا أيضا لا محذور فيه، وكلا المعنيين المنقولين في تفسير الآيتين لا يعارض أحاديث النهي عن تمني الموت.

وما نقلته عن الجمهور في تفسير الآيتين يكاد يكون محل اتفاق بين المفسرين، لولا ما نقل عن ابن عباس - رضي الله عنهما -، وقتادة أنهما قالا في تفسير آية يوسف: "ما تمنى نبي قط الموت قبل يوسف".

والحق أن يوسف - عليه السلام - لم يتمن، ولم يسأل الموت منجزا، وسياق الآية واضح في هذا المعنى؛ وإنما سأل ربه الوفاة على الإسلام، واللحوق بالصالحين، وهذا لا محذور فيه، ولا يخالف أحاديث النهي.

=

ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢).

{ذَلِكَ} الْمَذْكُور مِنْ أَمْر يُوسُف {مِنْ أَنْبَاء} أَخْبَار {الْغَيْب} مَا غَابَ عَنْك يَا مُحَمَّد {نُوحِيهِ إِلَيْك وَمَا كُنْت لَدَيْهِمْ} لَدَى إِخْوَة يُوسُف {إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرهمْ} فِي كَيْده أَيْ عَزَمُوا عَلَيْهِ {وَهُمْ يَمْكُرُونَ} بِهِ أَيْ لَمْ تَحْضُرهُمْ فَتَعْرِف قِصَّتهمْ فَتُخْبِر بِهَا وَإِنَّمَا حَصَلَ لَك عِلْمهَا مِنْ جِهَة الْوَحْي[1].

=

وأما دعوى النسخ - إن للآيات وإن للأحاديث - فضعيفة جدا؛ لأن النسخ إنما يصار إليه عند تعذر الجمع، أو عند وجود دليل على النسخ، وكلا الأمرين معدومان، فدل على بطلان دعوى النسخ، والله تعالى أعلم.

(١) قوله تعالى: {ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ} [يوسف: ١٠٢].

اسم الإشارة في قوله سبحانه ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك.... يعود على ما ذكره الله- تعالى- في هذه السورة من قصص يتعلق بيوسف وإخوته وأبيه وغيرهم، أي: ذلك الذي قصصناه عليك- أيها الرسول الكريم- في هذه السورة، وما قصصناه عليك في غيرها من أنباء الغيب.

(من أنباء الغيب) أي: من الأخبار الغيبية التي لا يعلمها علما تاما شاملا إلا الله تعالى وحده.

قال الطبري:"هذا الخبر الذي أخبرتك به من خبر يوسف ووالده يعقوب وإخوته وسائر ما في هذه السورة من أخبار الغيب الذي لم تشاهده، ولم تعاينه، ولكنا نوحيه إليك ونعرّفكه، لنثبِّت به فؤادك، ونشجع به قلبك، وتصبر على ما نالك من الأذى من قومك في ذات الله، وتعلم أن من قبلك من رسل الله -إذ صبروا على ما نالهم فيه، وأخذوا بالعفو، وأمروا بالعُرف، وأعرضوا عن الجاهلين- فازوا

=

=

بالظفر، وأيِّدوا بالنصر، ومُكِّنوا في البلاد، وغلبوا من قَصَدوا من أعدائهم وأعداء دين الله. يقول الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ: فبهم، يا محمد، فتأَسَّ، وآثارهم فقُصَّ".

قال ابن كثير:"يقول تعالى لعبده ورسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه، لما قص عليه نبأ إخوة يوسف، وكيف رفعه الله عليهم، وجعل له العاقبة والنصر والملك والحكم، مع ما أرادوا به من السوء والهلاك والإعدام: هذا وأمثاله يا محمد من أخبار الغيوب السابقة، {نُوحِيهِ إِلَيْكَ} ونعلمك به لما فيه من العبرة لك والاتعاظ لمن خالفك".

قال الحسن: " الغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه".

قوله تعالى: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ} [يوسف: ١٠٢]، أي:"وما كنت حاضراً مع إخوة يوسف حين تآمروا على أخيهم وأجمعوا أمرهم على إلقائه في الجب".

قال الطبري:"يقول: وما كنت حاضرًا عند إخوة يوسف، إذ أجمعوا واتفقت آراؤهم، وصحت عزائمهم، على أن يلقوا يوسف في غيابة الجب".

قال البغوي:"أي: ما كنت يا محمد عند أولاد يعقوب، {إذ أجمعوا أمرهم} أي: عزموا على إلقاء يوسف في الجب".

قال ابن كثير:"حاضرا عندهم ولا مشاهدا لهم، {إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ} أي: على إلقائه في الجب".

قال القرطبي:"أي: مع إخوة يوسف {إذ أجمعوا أمرهم} في إلقاء يوسف في الجب".

عن قتادة: " {وما كنت لديهم}، يعني: محمدا ﷺ، يقول: ما كنت عندهم"، {إذ أجمعوا أمرهم}، أي: ألقوه في غيابة الجب".

=

=

وفي رواية عن قتادة:"عن قتادة، قوله: {وما كنت لديهم}، يعني محمدًا -ﷺ-، يقول: ما كنت لديهم وهم يلقونه في غيابة الجب".

قوله تعالى: {وَهُمْ يَمْكُرُونَ} [يوسف: ١٠٢]، أي:"وهم يحتالون ويمكرون بيوسف وبأبيه ليرسله معهم".

قال قتادة:"أي: بيوسف".

عن ابن عباس: " {وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون}، الآية، قال: هم بنو يعقوب".

قال عطاء الخراساني:"فهم بنو يعقوب إذ يمكرون بيوسف".

قال البغوي: أي: "بيوسف".

قال القرطبي:"أي: بيوسف في إلقائه في الجب. وقيل: {يمكرون}، بيعقوب حين جاءوه بالقميص ملطخا بالدم، أي: ما شاهدت تلك الأحوال، ولكن الله أطلعك عليها".

قال ابن كثير: أي:"به، ولكنا أعلمناك به وحيا إليك، وإنزالا عليك، كما قال تعالى: {وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ} [آل عمران: ٤٤] وقال تعالى: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَى مُوسَى الأمْرَ وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ} [القصص: ٤٤] إلى أن قال: {وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ} [القصص: ٤٦] وقال {وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ} [القصص: ٤٥] وقال {مَا كَانَ لِيَ مِنْ عِلْمٍ بِالْمَلإِ الأعْلَى إِذْ يَخْتَصِمُونَ إِنْ يُوحَى إِلَيَّ إِلا أَنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِ} [ص: ٦٩، ٧٠]، يقرر تعالى أنه رسوله، وأنه قد أطلعه على أنباء ما قد سبق مما فيه عبرة للناس ونجاة لهم في دينهم ودنياهم".

قال البيضاوي:"المعنى: أن هذا النبأ غيب لم تعرفه إلا بالوحي لأنك لم تحضر

=

وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣).

{وَمَا أَكْثَر النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة {وَلَوْ حرصت} على إيمانهم {بمؤمنين}[(١)].

=

إخوة يوسف حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الجب، وهم يمكرون به وبأبيه ليرسله معهم، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك أنك ما لقيت أحدا سمع ذلك فتعلمته منه".

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ} [يوسف: ١٠٣]، أي:"وما أكثر الناس المعاصرين لك يا محمد، أو أكثر الناس على العموم، ولو حرصت على هدايتهم وبالغت في ذلك بمؤمنين بالله لتصميمهم على الكفر الذي هو دين آبائهم".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: وما أكثر مشركي قومك، يا محمد، ولو حرصت على أن يؤمنوا بك فيصدّقوك، ويتبعوا ما جئتهم به من عند ربك، بمصدِّقيك ولا مُتَّبِعيك.

قال الزجاج:"معناه: وما أكثر الناس بمؤمنين ولو حرصت على أن تهديهم لأنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء".

قال النسفي:"أراد العموم أو أهل مكة، أي: وما هم بمؤمنين ولواجتهدت كل الاجتهاد على إيمانهم".

عن سعيد بن جبير، قوله: " {بمؤمنين}، قال: مصدقين".

قال الخازن:"الخطاب للنبي ﷺ والمعنى وما أكثر الناس يا محمد لو حرصت على إيمانهم بمؤمنين وذلك أن اليهود وقريشا سألوا رسول الله ﷺ عن قصة يوسف فلما أخبرهم بها على وفق ما عندهم في التوراة لم يسلموا فحزن رسول الله ﷺ لذلك فقيل له إنهم لا يؤمنون ولو حرصت على إيمانهم ففيه تسلية له".

قال ابن الأنباري: "إن قريشا واليهود سألت رسول الله ﷺ عن قصة يوسف

=

وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤).

{وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ} أَيْ الْقُرْآن {مِنْ أَجْر} تَأْخُذهُ {إِنْ} مَا {هُوَ} أَيْ الْقُرْآن {إِلَّا ذكر} عظة للعالمين(١).

=

وإخوته، فشرحها شرحا شافيا وهو يؤمل أن يكون ذلك سببا لإسلامهم، فخالفوا ظنه، فحزن رسول الله ﷺ، فعزاه الله تعالى بهذه الآية".

ومثل هذه الآية قوله تعالى (وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله).

وقال تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون).

وقال تعالى (حتى إذا جاء أمرنا وفار التنور قلنا احمل فيها من كل زوجين اثنين وأهلك إلا من سبق عليه القول ومن آمن وما آمن معه إلا قليل).

وقال تعالى (ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون).

وقال تعالى (ولكن أكثر الناس لا يؤمنون).

وقال تعالى (ولقد ضل قبلهم أكثر الأولين).

وقال تعالى (إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين).

وقال تعالى (قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث).

وقال تعالى (إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يؤمنون).

وقال تعالى (وإن كثيرا من الناس لفاسقون).

وقال تعالى (وإن كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون).

وقال تعالى (وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين).

وقال ﷺ (عرضت على الأمم فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ليس معه أحد) متفق عليه.

(١) قوله تعالى: {وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ} [يوسف: ١٠٤]، أي:"ما تسألهم يا

=

=

محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي من جعالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله ونصحا لخلقه".

قال تعالى عن الأنبياء: عن نوح ، وهود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب عليهم وعلى نبينا الصلاة والسلام (وما أسألكم عليه من أجر إن أجري إلا على رب العالمين).

وقوله تعالى عن رسل القرية المذكورة في «يس» (اتبعوا المرسلين اتبعوا من لا يسألكم أجرا).

- قال أبو حازم -رحمه الله -: لا تكون عالما حتى تكون فيك خصال: لا تبغ على من فوقك ولا تحقر من دونك ولا تأخذ على علمك دنيا. (المداراة).

جلس الحسن -رحمه الله - يحدث فأهدي له فرده، وقال: إن من جلس هذا المجلس ثم قبل ، فليس له عند الله خلاق ، أو قال: فليس له خلاق (الزهد لأحمد).

- قال يوسف بن زكريا -رحمه الله: كان محمد بن يوسف، لا يشتري من خباز واحد، ولا من بقال واحد، وقال: لعلهم يعرفوني فيحابوني، فأكون ممن أعيش بديني؟ (حلية الأولياء).

قال الزجاج:"أي: وما تسالهم على القرآن وتلاوته وهدايتك إياهم من أجر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لمحمد ﷺ: وما تسأل، يا محمد، هؤلاء الذين ينكرون نبوتك، ويمتنعون من تصديقك والإقرار بما جئتهم به من عند ربك، على ما تدعوهم إليه من إخلاص العبادة لربك، وهجر عبادة الأوثان وطاعةِ الرحمن من ثواب وجزاء منهم، بل إنما ثوابك وأجر عملك على الله. يقول: ما تسألهم على ذلك ثوابًا، فيقولوا لك: إنما تريد بدعائك إيّانا إلى اتباعك لننزلَ لك عن أموالنا إذا سألتنا ذلك. وإذ كنت لا تسألهم ذلك، فقد كان حقًّا عليهم أن يعلموا أنك إنما تدعوهم إلى ما تدعوهم إليه، اتباعًا منك لأمر ربك، ونصيحةً منك لهم،

=

=

وأن لا يستغشُّوك".

قال ابن كثير:"أي: وما تسألهم يا محمد على هذا النصح والدعاء إلى الخير والرشد من أجر، أي: من جُعَالة ولا أجرة على ذلك، بل تفعله ابتغاء وجه الله، ونصحا لخلقه".

عن ابن عباس، قوله: " {عليه من أجر}، يقول: عرض من أعراض الدنيا".

قوله تعالى: {إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ} [يوسف: ١٠٤]، أي:"إن الذي أُرسلتَ به من القرآن والهدى عظة للناس أجمعين يتذكرون به ويهتدون".

قال الزجاج:"أي: ما هو إلا تذكرة لهم، بما هو صلاحهم ونجاتهم من النار ودخولهم الجنة، وإنذارهم وتبشيرهم، فكل الصلاح فيه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ما هذا الذي أرسلك به ربك، يا محمد، من النبوة والرسالة إلا عظة وتذكير للعالمين، ليتعظوا ويتذكَّروا به".

قال الثعلبي:"يعني: القرآن والوحي {إلا ذكر}: عظة وتذكير للعالمين.

قال ابن كثير:"أي: يتذكرون به ويهتدون، وينجون به في الدنيا والآخرة".

قال القرطبي:"يعني القرآن والوحي، {إلا ذكر}، أي: عظة وتذكرة {للعالمين}".

وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وسمي القرآن ذكرا:

أولا: لما فيه من التذكير والموعظة.

ثانيا: لما فيه من الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب).

ثالثا: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة ، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعا: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم ، كما قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون).

=

وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥).

{وَكَأَيِّنْ} وَكَمْ {مِنْ آيَة} دَالَّة عَلَى وَحْدَانِيَّة الله {فِي السماوات وَالْأَرْض يَمُرُّونَ عَلَيْهَا} يُشَاهِدُونَهَا {وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} لَا يَتَفَكَّرُونَ بِهَا[1].

=

قال أبو العالية:"الإنس عالم والجن عالم، وسوى ذلك ثمانية عشر ألف عالم من الملائكة على الأرض والأرض أربع زوايا، ففي كل زاوية منها أربعة آلاف وخمسمائة عالم، خلقهم الله لعبادته تبارك وتعالى".

(١) قوله تعالى: {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [يوسف: ١٠٥]، أي:"وكم من الآيات والعلامات الدالة على وجود الله جل وعلا ووحدانيته، الكائنة في السماوات والأرض كالشمس والقمر والنجوم، والجبال والبحار والأشجار، وسائر ما فيهما من العجائب".

يخبر تعالى عن غفلة أكثر الناس عن التفكر في آيات الله ودلائل توحيده بما خلقه الله في السموات والأرض من كواكب زاهرات ثوابت، وسيارات وأفلاك دائرات، والجميع مسخرات، وكم في الأرض من قطع متجاورات، وحدائق وجنات، وجبال راسيات، وبحار زاخرات، وأمواج متلاطمات، وقفار شاسعات، وكم من أحياء وأموات، وحيوان ونبات، وثمرات متشابهة ومختلفات في الطعوم والروائح والألوان والصفات، فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية للأسماء والصفات، وغير ذلك.... (ابن كثير)

وآيات الله الكثيرة تدل على وحدانيته وعظمته كثيرة ومتنوعة.

قال تعالى (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون ومن رحمته جعل

=

=

لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون).
وقال تعالى (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب).
وقال تعالى (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون) أي: لعلامات واضحة جازمة قاطعة بأن من خلقها هو رب هذا الكون، وهو المعبود وحده.
- وسبب تكثير الأدلة أن عقول الناس متفاوتة.
قال تعالى (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دآبة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون).
- قال ابن القيم: الرب تبارك وتعالى يدعو عباده في القرآن إلى معرفته من طريقين:
أحدهما: النظر في مفعولاته، والثاني: التفكر في آياته وتدبرها، فتلك آياته المشهودة، وهذه آياته المسموعة.
فالنوع الأول كقوله (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس...). وقوله (إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب) وهو كثير في القرآن.
والثاني كقوله (أفلا يتدبرون القرآن) وقوله (أفلم يدبروا القول) وقوله (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته).

=

=

قال الطبري:"يقول جل وعز: وكم من آية في السموات والأرض لله، وعبرةٍ وحجةٍ، وذلك كالشمس والقمر والنجوم ونحو ذلك من آيات السموات، وكالجبال والبحار والنبات والأشجار وغير ذلك من آيات الأرض".

قال الزجاج:"أي: من علامة ودلالة تدلهم على توحيد الله، من أمر السماء وأنها بغير عمد لا تقع على الأرض، وفيها من مجرى الشمس والقمر ما فيها، وفيها أعظم البرهان والدليل على أن الذي خلقها واحد، وأن لها خالقاً، وكذلك فيما يشاهد في الأرض من نباتها وبحارها وجبالها".

قال ابن ابي زمنين:"أي: وكم من علامة ودليل {في السماوات والأرض} أي: في خلق السموات والأرض تدلهم على توحيد الله".

قوله تعالى: {يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ} [يوسف: ١٠٥]، أي:"يشاهدونها وهم عنها معرضون، لا يفكرون فيها ولا يعتبرون".

قال الطبري:"يقول: يعاينونها فيمرُّون بها معرضين عنها، لا يعتبرون بها، ولا يفكرون فيها وفيما دلت عليه من توحيد ربِّها، وأن الألوهةَ لا تنبغي إلا للواحد القهَّار الذي خلقها وخلق كلَّ شيء، فدبَّرها".

قال الزجاج:"أي: لا يفكرون فيما يدلهم على توحيد الله ﷻ".

قال ابن ابي زمنين:"أي: لا يتعظون بها".

قال ابن كثير:"وقد ذم الله سبحانه وتعالى من لا يعتبر بمخلوقاته الدالة على ذاته وصفاته وشرعه وقدره وآياته فقال: {وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ}، ومدح عباده المؤمنين الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض قائلين: {رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ}".

عن قتادة: " {وكأين من آية في السموات والأرض يمرون عليها}، وهي في

=

وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦).

{وَمَا يُؤْمِن أَكْثَرهمْ بِاَللهِ} حَيْثُ يُقِرُّونَ بِأَنَّهُ الخالق الرزاق {إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} بِهِ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَام وَلِذَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي تَلْبِيَتهمْ لَبَّيْكَ لَا شَرِيك لَك إِلَّا شَرِيكًا هُوَ لَك تَمْلِكهُ وَمَا ملك يعنونها[1].

=

مصحف عبد الله: «يَمْشُونَ عَلَيْهَا»، السماء والأرض آيتان عظيمتان".

(١) قوله تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦].

أي: وما يؤمن أكثر هؤلاء الضالين بالله في إقرارهم بوجوده، وفي اعترافهم بأنه هو الخالق، إلا وهم مشركون به في عقيدتهم وفي عبادتهم وفي تصرفاتهم، فإنهم مع اعترافهم بأن خالقهم وخالق السموات والأرض هو الله لكنهم مع ذلك كانوا يتقربون إلى أصنامهم بالعبادة ويقولون ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى.

والآية تشمل كل شرك سواء أكان ظاهرا أم خفيا، كبيرا أم صغيرا.

- قال ابن كثير: قوله تعالى (وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون) قال ابن عباس: من إيمانهم أنهم إذا قيل لهم: من خلق السموات، ومن خلق الأرض، ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله، وهم مشركون به.

وكذا قال مجاهد وعطاء وعكرمة والشعبي وقتادة والضحاك وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وفي الصحيحين: أن المشركين كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك. وفي صحيح مسلم أنهم كانوا إذا قالوا: لبيك لا شريك لك، قال رسول الله ﷺ: «قد قد» أي حسب حسب، لا تزيدوا على هذا.

وقال الله تعالى: إن الشرك لظلم عظيم وهذا هو الشرك الأعظم يعبد مع الله غيره، كما في الصحيحين عن ابن مسعود قلت: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: «أن تجعل لله ندا وهو خلقك.

=

=

- قال السمرقندي: مقرون أن الله خالقهم وهم مع ذلك يجعلون لله شريكا.

وقال الحسن البصري في قوله: وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون قال: ذلك المنافق يعمل إذا عمل رياء الناس، وهو مشرك بعمله ذلك.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما يُقِرُّ أكثر هؤلاء - الذين وصَفَ ﷻ صفتهم بقوله: {وكأين من آية في السموات والأرض يمرُّون عليها وهم عنها معرضون} بالله أنه خالقه ورازقه وخالق كل شيء- {إلا وهم مشركون}، في عبادتهم الأوثان والأصنام، واتخاذهم من دونه أربابًا، وزعمهم أنَّ له ولدًا، تعالى الله عما يقولون".

وفي قوله تعالى: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: عني به المشركون، إذ أنهم يجمعون بين الإيمان بالله، أي: بوجوده، وأنه الخالق الرزاق المحيي المميت، ثم مع ذلك يشركون في عبادته فسرها بذلك ابن عباس، وعكرمة، وعامر، وعطاء، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وابن زيد، وغيرهم.

قال مجاهد:"إيمانهم قولهم: الله خالقُنا، ويرزقنا ويميتنا"، "فهذا إيمان مع شرك عبادتهم غيرَه".

قال ابن عباس:"إذا قيل لهم: مَن خلق السماء؟ ومن خلق الأرض؟ ومن خلق الجبال؟ قالوا: الله. وهم مشركون".

قال عامر وعكرمة:"يعلمون أنه ربُّهم، وأنه خلقهم، وهم يشركون به".

قال عكرمة:"تسألهم: مَن خلقهم؟ ومن خلق السماوات والأرض، فيقولون: الله. فذلك إيمانهم بالله، وهم يعبدون غيره".

وقال عكرمة أيضا:"فإذا سئلوا عن الله وعن صفته، وصفوه بغير صفته، وجعلوا له

=

ولدًا، وأشركوا به".

عن جابر، عن عكرمة، ومجاهد، وعامر: "أنهم قالوا في هذه الآية: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}، قال: ليس أحد إلا وهو يعلم أن الله خلقه وخلق السموات والأرض، فهذا إيمانهم، ويكفرون بما سوى ذلك".

عن قتادة، قوله: " {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}، في إيمانهم هذا. إنك لست تلقى أحدًا منهم إلا أنبأك أن الله ربه، وهو الذي خلقه ورزقه، وهو مشرك في عبادته".

وقال قتادة أيضا:"لا تسأل أحدًا من المشركين: مَنْ رَبُّك؟ إلا قال: ربِّيَ الله! وهو يشرك في ذلك".

وعن ابن عباس:"قوله: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}، يعني: النصارى يقول: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ}، [سورة لقمان: ٢٥/ سورة الزمر:٣٨]، {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللهُ} [سورة الزخرف: ٨٧]، ولئن سألتهم من يرزقكم من السماء والأرض؟ ليقولن: الله، وهم مع ذلك يشركون به ويعبدون غيره، ويسجدون للأنداد دونه".

قال النضر بن عربي: "فمن إيمانهم أن يقال لهم من ربكم فيقولون: الله ومن يدبر السموات والأرض؟ فيقولون الله. ومن يرسل عليهم المطر فيقولون الله ومن ينبت الأرض؟ فيقولون الله، ثم هم بعد ذلك مشركون فيقولون: إن لله ولدا ويقولون: ثالث ثلاثة".

وقال الضحاك:"كانوا يشركون به في تلبيتهم".

قال عطاء:"يعلمون أن الله خالقهم ورازقهم، وهم يشركون به".

قال ابن زيد:"ليس أحدٌ يعبد مع الله غيره إلا وهو مؤمن بالله، ويعرف أن الله ربه، وأن الله خالقه ورازقه، وهو يشرك به. ألا ترى كيف قال إبراهيم: {أَفَرَأَيْتُمْ مَا كُنْتُمْ

=

تَعْبُدُونَ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [سورة الشعراء: ٧٥ – ٧٧]؟ قد عرف أنهم يعبدون رب العالمين مع ما يعبدون. قال: فليس أحد يشرك به إلا وهو مؤمن به. ألا ترى كيف كانت العرب تلبِّي تقول:"لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك، إلا شريك هو لك، تملكه وما ملك"؟ المشركون كانوا يقولون هذا".

الثاني: أنه في المنافقين يؤمنون في الظاهر رياء وهم في الباطن كافرون بالله تعالى، قاله الحسن.

سئل الحسن، عن هذه الآية: {وما يؤمن أكثرهم بالله، إلا وهم مشركون}، قال: "ذاك المنافق يعمل إذا عمل رياء للناس، وهو مشرك بعمله ذاك".

عن محمود بن لبيد، أن رسول الله ﷺ قال: "إن أَخْوَف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر". قالوا: وما الشرك الأصغر يا رسول الله؟ قال: "الرياء، يقول الله يوم القيامة إذا جزى الناس بأعمالهم: اذهبوا إلى الذين كنتم تراءون في الدنيا، فانظروا هل تجدون عندهم جزاء".

وعن أبي سعيد بن أبي فضالة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إذا جمع الله الأولين والآخرين ليوم لا ريب فيه، ينادي مناد: من كان أشرك في عمل عمله لله فليطلب ثوابه من عند غير الله، فإن الله أغنى الشركاء عن الشرك".

الثالث: هو أن يشبه الله تعالى بخلقه، قاله السدي.

الرابع: أنه يشرك في طاعته كقول الرجل لولا الله وفلان لهلك فلان، وهذا قول أبي جعفر.

عن زكريا بن زرارة ثنا أبي، قال: "سألت أبا جعفر محمد بن علي، عن قوله: {وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون}، قال أبو جعفر: شرك طاعة، قول الرجل: لولا الله وفلان، لولا الله وكلب بني فلان".

=

=

الخامس: أنه تعليق الحلقة والخيط ونحوهما لرفع البلاء أو دفعه.

روي عن عاصم الأحول، عن عزرة قال: "دخل حذيفة على مريض فرأى في عضده سيرا، فقطعه أو انتزعه، ثم قال: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلا وَهُمْ مُشْرِكُونَ}".

و «السّير»: من الجلد ونحوه، ما يشقّ منه مستطيلاً

قال ابن كثير:"وثمَّ شرك آخر خفي لا يشعر به غالبًا فاعله، كما روى حماد بن سلمة...". ثم ذكر الأثر.

عن ابن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الرُّقَى والتَّمائِم والتِّوَلة شرْك".

عن زينب امرأة عبد الله بن مسعود قالت: "كان عبد الله إذا جاء من حاجة فانتهى إلى الباب تنحنح وبزق كراهية أن يهجم منا على أمر يكرهه، قالت: وإنه جاء ذات يوم فتنحنح وعندي عجوز ترقيني من الحُمْرَة فأدخلتها تحت السرير، قالت: فدخل فجلس إلى جانبي، فرأى في عنقي خيطا، قال: ما هذا الخيط؟ قالت: قلت: خيط رُقِى لي فيه. قالت: فأخذه فقطعه، ثم قال: إن آل عبد الله لأغنياءٌ عن الشرك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: "إن الرقى والتمائم والتِّوَلة شرك". قالت، قلت له: لم تقول هذا وقد كانت عيني تقذف، فكنت أختلف إلى فلان اليهودي يرقيها، فكان إذا رقاها سكنت؟ قال: إنما ذاك من الشيطان. كان ينخسها بيده، فإذا رقيتها كف عنها: إنما كان يكفيك أن تقولي كما قال رسول الله ﷺ: "أذهب البأس رب الناس، اشف وأنت الشافي، لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سَقَمًا".

عن عيسى بن عبد الرحمن قال: "دخلنا على عبد الله بن عُكَيْم وهو مريض نعوده، فقيل له: تَعَلَّقت شيئا؟ فقال: أتعلق شيئا! وقد قال رسول الله ﷺ: "من تَعَلَّق شيئا وُكِلَ إليه".

=

أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧).

{أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيهِمْ غَاشِيَة} نِقْمَة تَغْشَاهُمْ {مِنْ عَذَاب الله أَوْ تَأْتِيهِمْ السَّاعَة بَغْتَة} فَجْأَة {وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} بِوَقْتِ إتْيَانهَا قَبْله[1].

=

عن عقبة بن عامر قال: قال رسول الله ﷺ: "من علَّق تميمة فقد أشرك" وفي رواية: "من تَعَّلق تميمة فلا أتم الله له، ومن تعلق ودَعَةً فلا ودع الله له".

عن أبي هريرة، رضي الله عنه، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "قال الله: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، ومن عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشِرْكه".

وفي الحديث: "الطيَرة شرك، وما منَّا إلا ولكن الله يذهبه بالتوكل".

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: "من ردته الطيرة عن حاجة، فقد أشرك". قالوا: يا رسول الله، ما كفارة ذلك؟ قال: "أن يقول أحدهم: اللهم لا خير إلا خيرك ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك".

والسادس: أنهم كانوا يؤمنون بالله تعالى ويكفرون بمحمد-ﷺ-، فلا يصح إيمانهم حكاه ابن الأنباري.

(١) قوله تعالى: {أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ} [يوسف: ١٠٧]، أي:"أفأمن هؤلاء المشركون بالله أن يأتيهم أمر يغشاهم من حيث لا يشعرون".

قال الطبري:"أفأمن هؤلاء الذين لا يقرُّون بأن الله ربَّهم إلا وهم مشركون في عبادتهم إياه غيرَه {أن تأتيهم غاشية من عذاب الله} تغشاهم من عقوبة الله وعذابه، على شركهم بالله".

قال الزجاج:"أي: أن يأتيهم ما يعجزهم من العذاب".

قال الشوكاني: الاستفهام للإنكار، والغاشية ما يغشاهم ويغمرهم من العذاب كقوله تعالى (يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم) وقيل: هي

=

=

الساعة، وقيل: هي الصواعق والقوارع، ولا مانع من للحمل على العموم.
كما قال تعالى (أفأمن الذين مكروا السيئات أن يخسف الله بهم الأرض أو يأتيهم العذاب من حيث لا يشعرون أو يأخذهم في تقلبهم فما هم بمعجزين أو يأخذهم على تخوف فإن ربكم لرؤف رحيم).
وقوله (أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون أوأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا ضحى وهم يلعبون أفأمنوا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون).
عن قتادة، قوله: " {أفأمنوا أن تأتيهم غاشية من عذاب الله}، أي: عقوبة من عذاب الله". وفي رواية:"وقيعة تغشاهم".
قال مجاهد:"يعني: عذابا يغشاهم فيهلكهم".
قوله تعالى: {أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ} [يوسف: ١٠٧]، أي:"أو تأتيهم القيامة بأهوالها فجأة من حيث لا يشعرون ولا يتوقعون؟".
قال الطبري:"أو تأتيهم القيامة فجأةً وهم مقيمون على شركهم وكفرهم بربِّهم، فيخلدهم الله ﷻ في ناره، وهم لا يدرون بمجيئها وقيامها".
قال الزجاج:"{بغتة}، أي: فجأة، و {بغتة} مصدر منصوب على الحال، تقول لقيتة بغتة وفجأة، ومعناه: من حيث لم أتوقع أن ألقاه".
عن مجاهد قوله: {بغتة}، قال: فجأة. آمنين".
عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "تقوم الساعة على رجل أكلته في فيه يلوكها لا يسيغها، ولا يلفظها، وعلى رجلين قد نشرا ثوباهما يتبايعانه، فلا يطويانه ولا يتبايعانه".
قال عكرمة:"لا تقوم الساعة حتى ينادي مناد: يا أيها الناس أتتكم الساعة، أتتكم الساعة ثلاثا".

قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨).

{قُلْ} لَهُمْ {هَذِهِ سَبِيلِي} وَفَسَّرَهَا بِقَوْلِهِ {أَدْعُو إِلَى} دِين {الله عَلَى بَصِيرَة} حُجَّة وَاضِحَة {أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} آمَنَ بِي عُطِفَ عَلَى أَنَا الْمُبْتَدَأ الْمُخْبَر عَنْهُ بِمَا قَبْله {وَسُبْحَان الله} تَنْزِيهًا لَهُ عَنْ الشُّرَكَاء {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} مِنْ جُمْلَة سَبِيله أَيْضًا(١).

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي} [يوسف: ١٠٨].

يقول تعالى لرسوله ﷺ إلى الثقلين: الإنس والجن، آمرا له أن يخبر الناس أن هذه سبيله.

أي طريقته ومسلكه وسنته، وهي الدعوة إلى شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل، يا محمد، هذه الدعوة التي أدعو إليها، والطريقة التي أنا عليها من الدعاء إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له دون الآلهة والأوثان، والانتهاء إلى طاعته، وترك معصيته {سبيلي}، وطريقتي ودعوتي".

وفي قوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي} [يوسف: ١٠٨]، وجهان:

أحدهما: هذه دعوتي، قاله ابن عباس، والربيع بن أنس.

الثاني: هذه هذا أمري وسنّتي ومنهاجي، قاله عبد الرحمن بن زيد. والمراد بها تفسيران:

أحدهما: الإخلاص لله تعالى بالتوحيد.

الثاني: التسليم لأمره فيما قضاه.

قوله تعالى: {أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف: ١٠٨]، =

=

أي:"أدعو إلى عبادة الله وحده، على حجة من الله ويقين، أنا ومن اقتدى بي".

قال الطبري: "أي:"أدعو إلى الله وحده لا شريك له {على بصيرة}، بذلك، ويقينِ عليمٍ منّي به أنا، ويدعو إليه على بصيرة أيضًا من اتبعني وصدقني وآمن بي".

وفي قوله تعالى: {أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي} [يوسف: ١٠٨]، وجهان:

أحدهما: على هدى، قاله قتادة.

الثاني: على حق، وهو قول عبد الرحمن بن زيد.

قال ابن زيد:"وحقٌّ والله على من اتّبعه أن يدعو إلى ما دعا إليه، ويذكِّر بالقرآن والموعظة، ويَنْهَى عن معاصي الله".

الثالث: معناه: أبلغ الرسالة ولا أملك الهداية. حكاه الماوردي.

قوله تعالى: {وَسُبْحَانَ اللهِ} [يوسف: ١٠٨]، أي:"وأنزِّه الله سبحانه وتعالى عن الشركاء".

قال الزمخشري:"وأنزهه من الشركاء.

قال الطبري: " يقول له تعالى ذكره: وقل، تنزيهًا لله، وتعظيمًا له من أن يكون له شريك في ملكه، أو معبود سواه في سلطانه".

قال ابن كثير:"أي: وأنزه الله وأجلّه وأعظّمه وأقدّسه، عن أن يكون له شريك أو نظير، أو عديل أو نديد، أو ولد أو والد أو صاحبة، أو وزير أو مشير، تبارك وتعالى وتقدس وتنزه عن ذلك كله علوا كبيرا، {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا} [الإسراء: ٤٤].

عن ميمون بن مهران: {سبحان الله} : اسم يعظم الله به ويحاشى به من السوء".

عن الحسن قال: " {سبحان الله} : اسم لا يستطيع الناس أن ينتحلوه".

=

=

قوله تعالى: {وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يوسف: ١٠٨]، أي:"ولستُ من المشركين مع الله غيره".

قال الطبري:"يقول: وأنا بريءٌ من أهل الشرك به، لست منهم ولا هم منّي".

قال ابن وهب: "سمعت مالكا إذ جاءه بعض أهل الأهواء، يقول: أما أنا فعلى بينة من ربي، وأما أنت فشاك، فاذهب إلى شاك مثلك فخاصمه، ثم قرأ: {قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة} الآية".

قال الشاطبي:"فهذا شأن من تقدم، من عدم تمكين زائغ القلب أن يسمع كلامه".

مسألة: أهل السنة والجماعة، هم أتباع النبي ﷺ، فهم المعنينون بقوله تعالى (وَمَنِ اتَّبَعَنِي)

ولقب أهل السنة ظهر في أواخر أيام الصحابة رضي الله عنهم وإن كان المذهب قديما فهو مذهب النبي ﷺ وأصحابه، يروى عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: في تفسير قوله تعالى: {يوم تبيض وجوه وتسود وجوه}: " فأما الذين ابيضت وجوههم فأهل السنة والجماعة وأولوا العلم، وأما الذين اسودت وجوههم فأهل البدع والضلال " أخرجه اللاكائي (١/ ٧١) برقم (٧٤) لكن في إسناده مجاشع بن عمرو قال عنه البخاري منكر مجهول.

وقال مسلم في مقدمة صحيحه (١/ ١٥): (حدثنا أبو جعفر محمد بن الصباح حدثنا إسماعيل بن زكرياء عن عاصم الأحول عن ابن سيرين قال لم يكونوا يسألون عن الإسناد فلما وقعت الفتنة قالوا سموا لنا رجالكم فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم)

قال أبو محمد بن حزم: (وأهل السنة الذين نذكرهم أهل الحق ومن عداهم فأهل البدعة فإنهم الصحابة رضي الله عنهم وكل من سلك نهجهم من خيار التابعين رحمه الله عليهم ثم أصحاب الحديث ومن إتبعهم من الفقهاء جيلا فجيلا إلى يومنا هذا أو

=

=

من اقتدى بهم من العوام في شرق الأرض وغربها رحمة الله عليهم) الفصل (٢/ ١١٣)

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: (فلفظ أهل السنة يراد به من أثبت خلافة الخلفاء الثلاثة فيدخل في ذلك جميع الطوائف إلا الرافضة وقد يراد به أهل الحديث والسنة المحضة فلا يدخل فيه إلا من يثبت الصفات لله تعالى ويقول إن القرآن غير مخلوق وإن الله يرى في الآخرة ويثبت القدر وغير ذلك من الأصول المعروفة عند أهل الحديث والسنة) منهاج السنة النبوية (١/ ٢٠٤) يؤيد ذلك الكتب التي ألفت في السنة كالسنة للإمام أحمد عبد الله بن أحمد والسنة للخلال والسنة لأبي داود والسنة لابن أبي عاصم والسنة لابن أبي حاتم والسنة لأبي بكر بن ا لأثرم والسنة لابن خزيمة والسنة للالكائي وغيرها، وقد تلقب بعض علماء الإسلام بلقب إمام أهل السنة كالإمام أحمد رحمه الله.

ومذهب أهل السنة هو ما كان عليه النبي ﷺ وأصحابه لكن التسمية بأهل السنة ظهرت في مقابلة البدع والأهواء قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: (ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم معروف قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم ومن خالف ذلك كان مبتدعا عند أهل السنة والجماعة فإنهم متفقون على أن إجماع الصحابة حجة ومتنازعون في إجماع من بعدهم وأحمد بن حنبل وإن كان قد اشتهر بإمامة السنة والصبر في المحنة فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولا بل لأن السنة التي كانت موجودة معروفة قبله علمها ودعا إليها وصبر على من امتحنه ليفارقها وكان الأئمة قبله قد ماتوا قبل المحنة فلما وقعت محنة الجهمية نفاة الصفات في أوائل المائة الثالثة على عهد المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق ودعوا الناس إلى التجهم وإبطال صفات الله تعالى وهو المذهب الذي ذهب إليه متأخروا الرافضة

=

=

وكانوا قد أدخلوا معهم من أدخلوه من ولاة الأمور فلم يوافقهم أهل السنة والجماعة حتى تهددوا بعضهم بالقتل وقيدوا بعضهم وعاقبوهم وأخذوهم بالرهبة والرغبة وثبت الإمام أحمد بن حنبل على ذلك الأمر حتى حبسوه مدة ثم طلبوا أصحابهم لمناظرته فانقطعوا معه في المناظرة يوما بعد يوم ولم يأتوا بما يوجب موافقته لهم بل بين خطأهم فيما ذكروه من الأدلة وكانوا قد طلبوا له أئمة الكلام من أهل البصرة وغيرهم مثل أبي عيسى محمد بن عيسى برغوث صاحب حسين النجار وأمثاله ولم تكن المناظرة مع المعتزلة فقط بل كانت مع جنس الجهمية من المعتزلة والنجارية والضرارية وأنواع المرجئة فكل معتزلي جهمي وليس كل جهمي معتزليا لكن جهم أشد تعطيلا لأنه ينفى الأسماء والصفات والمعتزلة تنفى الصفات دون الأسماء وبشر المريسى كان من المرجئة لم يكن من المعتزلة بل كان من كبار الجهمية) منهاج السنة (٢/ ٤٨٢).

قال سفيان بن عيينه: (السنة عشرة فمن كن فيه فقد استكمل السنة ومن ترك منها شيئا فقد ترك السنة:

اثبات القدر وتقديم أبي بكر وعمر والحوض والشفاعة والميزان والصراط والإيمان قول وعمل، والقرآن كلام الله وعذاب القبر والبعث يوم القيامة ولا تقطعوا بالشهادة على مسلم) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٥٥-١٥٦).

وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: (اصول السنة عندنا التمسك بما كان عليه أصحاب رسول الله ﷺ والاقتداء بهم وترك البدع وكل بدعة فهي ضلالة وترك الخصومات والجلوس مع أصحاب الأهواء وترك المراء والجدال والخصومات في الدين والسنة عندنا آثار رسول الله ﷺ والسنة تفسر القرآن وهي دلائل القرآن وليس في السنة قياس ولا تضرب لها الامثال ولا تدرك بالعقول ولا الأهواء إنما

=

=

هي الاتباع وترك الهوى ومن السنة اللازمة التي من ترك منها خصلة لم يقلها ويؤمن بها لم يكن من أهلها الإيمان بالقدر خيره وشره والتصديق بالاحاديث فيه والايمان بها لا يقال لم ولا كيف إنما هو التصديق بها والإيمان بها ومن لم يعرف تفسير الحديث ويبلغه عقله فقد كفى ذلك وأحكم له فعليه الإيمان به والتسليم له مثل حديث الصادق والمصدوق وما كان مثله في القدر ومثل أحاديث الرؤية كلها وإن نبت عن الاسماع واستوحش منها المستمع فإنما عليه الإيمان بها وان لا يرد منها جزءا واحدا وغيرها من الاحاديث المأثورات عن الثقات لا يخاصم أحدا ولا يناظره ولا يتعلم الجدل فإن الكلام في القدر والرؤية والقرآن وغيرها من السنن مكروه منهي عنه ولا يكون صاحبه إن اصاب بكلامه السنة من أهل السنة حتى يدع الجدل ويسلم ويؤمن بالآثار والقرآن كلام الله وليس بمخلوق ولا تضعف أن تقول ليس بمخلوق فإن كلام الله منه وليس منه شيء مخلوق وإياك ومناظرة من أحدث فيه ومن قال باللفظ وغيره ومن وقف فيه فقال لا أدري مخلوق أو ليس بمخلوق وإنما هو كلام الله وليس بمخلوق والايمان بالرؤية يوم القيامة كما روي عن النبي ﷺ من الأحاديث الصحاح....) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ١٥٦ - ١٦٤).

وروى اللالكائي (١/ ١٨٣) عن سهل بن عبدالله التستري: (قيل له متى يعلم الرجل أنه على السنة والجماعة؟ قال إذا عرف من نفسه عشر خصال: لا يترك الجماعة ولا يسب أصحاب النبي ﷺ ولا يخرج على هذه الأمة بالسيف ولا يكذب بالقدر ولا يشك في الايمان ولا يماري في الدين ولا يترك الصلاة على من يموت من أهل القبلة بالذنب ولا يترك المسح على الخفين ولا يترك الجماعة خلف كل وال جار أو عدل).

وقال أيوب السختياني رحمه الله: (إني أخبر بموت الرجل من أهل السنة وكأني

=

=

أفقد بعض أعضائي) شرح أصول اعتقاد أهل السنة للالكائي (١/ ٦٠ - ٦١).

وقال الثوري (استوصوا بأهل السنة خيرا فإنهم غرباء) وقال: (ما أقل أهل السنة والجماعة) شرح آصول اعتقاد أهل السنة (١/ ٦٤).

والنصوص عن السلف بذكر هذا اللقب كثيرة توجد في مظانها من كتب العقيدة والمقصود أن هذا اللقب معروف عند السلف.

التعريف بأسماء أهل السنة.

أولا: السلف:

قال ابن فارس في معجم مقاييس(٣/ ٩٥): "سلف": السين واللام والفاء أصل يدل على تقدم وسبق، من ذلك السلف الذين مضوا، والقوم السلاف: المتقدمون ا.هـ

هذا هو أصل هذه الكلمة لغويا، ولذا قال في العباب الزاخر في حرف الفاء، مادة: "سلف": " وسلف يسلف سلفا- بالتحريك- مثال طلب يطلب طلبا أي: مضى قال الله تعالى: {فَلَهُ مَا سَلَفَ} [البقرة: ٢٧٥]، والقوم السلاف: المتقدمون، وسلف الرجل: آباؤه المتقدمون، والجمع أسلاف وسلاف "، ثم نقل عن أبي عبيد الهروي معاني السلف ومنها: القرض، والسلم، ثم قال: " وللسلف معنيان آخران: أحدهما كل عمل صالح قدمه العبد أو فرط فرط له، والسلف من تقدمك من آبائك وذوي قرابتك " ا.هـ

وهذان المعنيان ذكرهما أهل غريب الحديث، ففي مشارق الأنوار (٢/ ٢١٩): "والسلف: كل عمل صاع تقدم للعبد، ومنه قوله في الدعاء للطفل: (اجعله لنا فرطا وسلفا) أي خيرا متقدما نجده في الآخرة، والسلف أيضا: من تقدمك من آبائك وقرابتك ا.هـ، ومثله في النهاية(٢/ ٣٩٠)، ومجمع بحار الأنوار (٣/ ١٠٠).

=

=

ويشهد للمعنى الأخير: من تقدمك من آبائك وقرابتك، حديث فاطمة- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- أن النبي ﷺ قال لها (... ولا أراني إلا قد حضر أجلي وأنك أول أهلي لحوقا بى، ونعم السلف أنا لك)، أي المتقدم. وكذا لما ماتت ابنته قال: (الحقي بسلفنا الصالح الخير، عثمان بن مظعون)، ومنه الدعاء لأهل القبور: (أنتم سلفنا ونحن بالأثر)، أي: المتقدمون.

ونستخلص من هذا أن من معاني السلف: التقدم والسبق سواء كان بالعمل الصالح، أو من تقدم من الآباء وذوي القرابة وغيرهم، ومن هذا المعنى سمي الصدر الأول من التابعين السلف الصالح.

ولما حدث الافتراق ونشأت البدع بدأ يتحدد مصطلح السلف في عرف المتأخرين بأنهم الصحابة والتابعون لهم بإحسان. وسيأتي مزيد إيضاح ومناقشة لهذا بعد التعريف بالمصطلحات المرادفة لمصطلح: " السلف "، مثل: أهل السنة، والجماعة، وأهل الحديث، والأثر، لأن هذه المصطلحات اشتهرت وكثر استعمالها، وخاصة في مجال أصول العقائد.

ثانيا: أهل السنة:

السنة لغة: السيرة والطريقة، قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة (٣/ ٦٠-٦١): " سن ": السين والنون أصل واحد مطرد، وهو جريان الشيء واطراده في سهولة، والأصل قولهم: سننت الماء على وجهي أسنه سنا، إذا أرسلت إرسالا ....، ومما اشتق منه السنة، وهى السيرة، وسنة رسول الله عليه السلام سيرته ا.هـ

فالسنة هي الطريقة، محمودة كانت أو مذمومة، وهي مأخوذة من السنن وهو الطريق، ومنه الحديث: (من سن في الاسلام سنة حسنة، فله أجرها، وأجر من عمل بها بعده، من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الاسلام سنة سيئة كان عليه وزرها، ووزر من عمل بها من بعده، من غير أن ينقص من أوزارهم

=

=

شـيء)، يقـول ابـن الأثيـر في النهايـة (٢/ ٢٢٣): " وقـد تكـرر في الحـديث ذكـر " السنة " وما تصرف منها، والأصل فيها الطريقة والسيرة ا.هـ

وفي الحديث: (لتتبعن سنن من كان قبلكم)، أي طريقهم، وقولهم: (هي السنة) أى الطريقة التي سنها النبي عليه الصلاة والسلام وأمر بها، ولذلك صار لفظ السنة يطلق على ما كان محمودا فيقال: فلان من أهل السنة، معناه، من أهل الطريقة المستقيمة المحمودة.

أما السنة في الاصطلاح فلها عدة إطلاقات:

أ- ففى اصطلاح المحدثين: عرفها ابن حجر في الفتح (١٣/ ٢٤٥) بأنها: " ما جاء عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله وتقريره وما هم بفعله " ا.هـ

وعرفها البعض بأنها: " كل ما أثر عن النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة خلقية أو خلقية، أو سيرة، سواء كان ذلك قبل البعثة أو بعدها "، فهي بهذا مرادفة للحديث.

ب- وفي اصطلاح علماء أصول الفقه يطلق لفظ السنة على ما جاء منقولا عن النبي ﷺ على الخصوص، مما لم ينص عليه في الكتاب العزيز، بل إن ما نص عليه من جهته عليه الصلاة والسلام، كان بيانا لما في الكتاب أولا "، فهي مختصة بما صدر عن النبي ﷺ من غير القرآن مما يصلح أن يكون دليلا شرعيا.

ج- وفي اصطلاح الفقهاء فهي: ما ثبت عن النبى ﷺ ولم يكن من باب الفرض ولا الواجب. فهى مرادفة للمندوب.

د- وقد تطلق السنة على كل ما دل عليه دليل شرعي، سواء كان ذلك في الكتاب العزيز أو مأثورا عن النبى ﷺ، أو اجتهد فيه الصحابة كجمع المصحف، وتدوين الدواوين...، ودخول ما اجتهد فيه الصحابة يدل عليه حديث: (عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين)، وقول على في الخمر:

=

=

(جلد النبي ﷺ أربعين، وجلد أبو بكر أربعين، وجلد عمر ثمانين، وكل سنة).
هـ- كما تطلق السنة في مقابل البدعة كما في الموافقات (٤/ ٣):"فيقال: فلان على سنة، إذا عمل على وفق ما عمل عليه السلام، كان ذلك مما نص عليه الكتاب أو لا " ا.هـ

هذه أهم إطلاقات السنة عند العلماء، والذي يهمنا هنا اصطلاح "السنة" حينما يقال: "أهل السنة" في مجال العقائد، خاصة لما حدث الافتراق في الأمة الإسلامية. قال ابن رجب كما في كشف الكربة (ص: ١٩-٢٠): " وعن سفيان الثوري قال: " استوصوا بأهل السنة خيرا فإنهم غرباء "، ومراد هؤلاء الأئمة بالسنة طريقة النبي ﷺ التي كان عليها هو وأصحابه، السالمة من الشبهات والشهوات، ولهذا كان الفضيل بن عياض يقول: " أهل السنة من عرف ما يدخل في بطنه من حلال "، وذلك لأن أكل الحلال من أعظم خصال السنة التى كان عليها النبي ﷺ وأصحابه رضى الله عنهم. ثم صار في عرف كثير من العلماء المتأخرين من أهل الحديث وغيرهم: السنة عبارة عما سلم من الشبهات في الاعتقادات خاصة في مسائل الإيمان بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وكذلك في مسائل القدر، وفضائل الصحابة، وصنفوا في هذا العلم تصانيف وسموها كتب السنة، وإنما خصوا هذا العلم باسم السنة لأن خطره عظيم، والمخالف فيه على شفا هلكة، وأما السنة الكاملة فهي الطريقة السالمة من الشبهات والشهوات " ا.هـ.

وهذا الذي ذكره ابن رجب رحمه الله استقر عليه مصطلح أهل السنة، ولذلك لما وصل السمعاني في الأنساب (٧/ ١٧٥) إلى ذكر من نسب إلى السنة فقيل: "السني" قال: " السني: بضم السين المهملة، وتشديد النون المكسورة، هذه النسبة إلى السنة التي هي ضد البدعة، ولما كثر أهل البدع خصوا بها جماعة بهذا

=

=

الانتساب" ا.هـ

ولما سأل عمر بن عبد العزيز رجل عن القدر أجابه بجواب طويل أوله: (أما بعد، أوصيك بتقوى الله والاقتصاد في أمره، واتباع سنة نبيه ﷺ وترك ما أحدث المحدثون بعد ما جرت به سنته، وكفوا مؤنته، فعليك بلزوم السنة، فإنها لك- بإذن اللهـ عصمة...) فأمره وهو يجيبه عن موضوع القدر وما أحدث فيه أهل البدع- بلزوم السنة وأن فيها وحدها العصمة من الانحراف.

ثا لثا: الجما عة:

يقال: "أهل السنة والجماعة "، وقد ورد الأمر بلزوم الجماعة في عدة أحاديث، منها ما رواه ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (خطب بالجابية، فقال: قام فينا رسول ﷺ مقامي فيكم فقال: " استوصوا بأصحابي خيرا، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يفشو الكذب، حتى إن الرجل ليبتدىء بالشهادة قبل أن يسألها، فمن أراد منكم بحبوحة الجنة فليلزم الجماعة، فإن الشيطان مع الواحد وهو من الإثنين أبعد)، وفي بعض روايات حديث الافتراق (أن الفرقة الناجية: الجماعة)، وعن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول ﷺ (الصلاة المكتوبة إلى الصلاة المكتوبة التي بعدها كفارة لما بينهما، قال: والجمعة إلى الجمعة، والشهر إلى الشهر- يعني رمضان إلى رمضان كفارة لما بينهما- قال: ثم قال بعد ذلك: إلا من ثلاث- قال: فعرفت أن ذلك لأمر حدث- إلا من الاشراك بالله، ونكث الصفقة، وترك السنة، قال: أما نكث الصفقة أن تبايع رجلا ثم تخالف إليه تقاتله بسيفك، وأما ترك السنة فالخروج من الجماعة).

وعن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا عن النبي ﷺ قال: (من رأى من أميره شيئا فليصبر، فإنه من فارق الجماعة شبرا فمات إلا مات ميتة جاهلية)، وغيرها من الأحاديث التي وردت بالأمر بلزوم الجماعة، والنهي عن الخروج عليها.

=

=

وقد اختلف العلماء في المقصود بالجماعة على أقوال أهمها:

١- أن الجماعة هم الصحابة دون من بعدهم، " فإنهم الذين أقاموا عماد الدين، وأرسوا أوتاده، وهم الذين لا يجتمعون على ضلالة أبدا "، وهذا القول مروى عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله فمما روى عنه أنه قال: (سن رسول الله ﷺ وولاة الأمر من بعده سننا، الأخذ بها تصديق بكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، من عمل بها مهتدى، ومن استنصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى وصلاه جهنم وساءت مصيرا)، قال مالك: (فأعجبني عزم عمر على ذلك)، فعلى هذا القول فلفظ الجماعة مطابق للرواية الأخرى لحديث الافتراق حيث قال: (وتفترق أمتي على ثلاث وسبعبن ملة كلهم في النار الا ملة واحدة قالوا: ومن هي يارسول الله؟، قال: ما أنا عليه وأصحابي)، والصحابة لهم خصوصيات كثيرة، فهم الذين شاهدوا التنزيل،- وسمعوا من الرسول، فلهم من العلم والفضل، والاقتداء ما ليس لغيرهم ممن جاء بعدهم.

٢- وقيل: إن الجماعة هم أهل الحديث، أو أهل العلم المجتهدون " لأن الله جعلهم حجة على الخلق، والناس تبع لهم في أمر الدين"، وهذا رأى الإمام البخاري قال كما في الفتح (١٣/ ٣١٦): " باب {وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا} [البقرة:١٤٣]، وما أمر النبي ﷺ بلزوم الجماعة، وهم أهل العلم "، وهو رأى الإمام أحمد رحمه الله، فإنه قال عن الجماعة كما في شرف أصحاب الحديث (ص٢٥): " إن لم يكونوا أصحاب الحديث فلا أدري من هم ؟ "، وهو رأي الترمذي الذي قال في سننه (٤/ ٤٦٥): " وتفسر الجماعة عند أهل العلم: هم أهل الفقه والعلم والحديث "، وهو أيضا رأي ابن المبارك وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان الذي قال كما في شرف أصحاب الحديث (ص٢٥): " هم أهل العلم وأصحاب الآثار".

=

=

فعلى هذا القول فالجماعة هم أهل السنة العالمون المجتهدون، فيخرج منهم المبتدعة، – والعامة المقلدة تبع لعلمائهم.

٣- وقيل: إن الجماعة هم السواد الأعظم، وعليه رواية الافتراق التي أخبر النبي ﷺ فيها (أن الفرقة الناجية هم السواد الأعظم)، قال في النهاية (٦/ ٤١٩): " عليكم بالسواد الأعظم: أى جملة الناس ومعظمهم، الذين يجتمعون على طاعة السلطان وسلوك النهج القويم "، قال عبد اللة مسعود رضي الله عنه في إحدى خطبه: (يا أيها الناس عليكم بالطاعة والجماعة، فإنهما السبيل في الأصل الى حبل الله الذى أمر به، وإن ما تكرهون في الجماعة خير مما تحبون في الفرقة)، وقال أبو غالب كما في الاعتصام (٢/ ٢٦٠): " إن السواد الأعظم هم الناجون من الفرق، فما كانوا عليه من أمر دينهم فهو الحق، ومن خالفهم مات ميتة جاهلية سواء خالفهم في شيء من الشريعة أو في إمامهم وسلطانهم فهو مخالف! للحق "، وقال أبو مسعود الأنصاري رضي الله عنه حين خرج ونزل في طريق القادسية وقال له أصحابه: اعهد إلينا، فإن الناس قد وقعوا في الفتنة فلا ندري أنلقاك بعد اليوم أم لا. فقال: (اتقوا الله واصبروا حتى يستريح بر أو يستراح من فاجر، وعليكم بالجماعة فإن الله لا يجمع أمته على الضلالة)، يقول الشاطبي في الاعتصام (٢/ ٢٦١) معقبا: فعلى هذا القول يدخل في الجماعة مجتهدو الأمة وعلماؤها، وأهل الشريعة العاملون بها، ومن سواهم داخلون في حكمهم لأنهم تابعون لهم ومقتدون بهم، فكل من خرج عن جماعتهم فهم الذين شذوا وهم نهبة الشيطان، ويدخل في هؤلاء جميع أهل البدع؟ لأنهم مخالفون لمن تقدم من الأمة، لم يدخلوا في سوادهم بحال " ا.هـ

وقال الآجري في الشريعة (ص: ٤٤): " فمن أراد الله تعالى به خيرا فتح له باب الدعاء، والتجأ إلى مولاه الكريم وخاف على دينه، وحفظ لسانه، وعرف زمانه،

=

ولزم الحجة الواضحة السواد الأعظم...".

٤- وقيل: إن الجماعة هم جماعة أهل الإسلام إذا أجمعوا على أمر من أمور الشرع سواء في أمور الأحكام أو المعتقدات، يقول الكرماني في شرحه على البخاري (٢٥/ ٧٥): " يلزم على المكلف متابعة حكم الجماعة والاعتصام به، وهو اتفاق المجتهدين من الأمة في عصر على أمر ديني. فهذا القول يفسر الجماعة بأهل الإجماع، ولذا فهو قريب من القول الثاني.

٥- إن الجماعة: هم جماعة المسلمين إذا اجتمعوا على أمير، وهذا رأي الطبري الذي ذكر الأقوال السابقة، ثم قال كما في الفتح (١٣/ ٣٧): " والصواب أن المراد من الخبر لزوم الجماعة الذين في طاعة من اجتمعوا على تأميره، فمن نكث بيعته خرج عن الجماعة، قال: وفي الحديث أنه متى لم يكن للناس إمام فافترق الناس أحزابا فلا يتبع أحدا في الفرقة ويعتزل الجميع إن استطاع ذلك خشية من الوقوع في الشر، وعلى ذلك يتنزل ما جاء في سائر الأحاديث، وبه يجمع بين ما ظاهره الاختلاف منها ا.هـ

وفي حديث عرفجة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عند مسلم (١٨٥٢) قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (إنه ستكون هنات وهنات فمن أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع فاضربوه بالسيف كائنا من كان)، فأمر عليه الصلاة والسلام بلزومه، ونهى عن فراق الأمة فيما اجتمعوا عليه من تقديمه عليهم.

قال الطبري: فهذا معنى الأمر بلزوم الجماعة.

قال الطبري: فهذا معنى الأمر بلزوم الجماعة.

قال: وأما الجماعة التي إذا اجتمعت على الرضى بتقديم أمير، كان المفارق لها ميتا ميتة جاهلية، فهي الجماعة التي وصفها أبو مسعود الأنصاري، وهم معظم الناس وكافتهم من أهل العلم والدين وغيرهم، وهو السواد الأعظم.

=

قال: وقد بين ذلك عمر بن الخطاب ﵁، فروي عن عمرو بن ميمون الأودي قال: قال عمر -حين طُعن- لصهيب: صَلِّ بالناس ثلاثا وليدخل عليَّ عثمان وعلي وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف، وليدخل ابن عمر في جانب البيت، وليس له من الأمر شيء، فقم يا صهيب على رءوسهم بالسيف فإن بايع خمسة ونكص واحد فاجلد رأسه السيف، وإن بايع أربعة ونكص رجلان فاجلد رءوسهما حتى يستوثقوا على رجل.

قال: فالجماعة التي أمر رسول ﷺ بلزومها وسمى المنفرد عنها مفارقا لها نظير الجماعة التي أوجب عمر الخلافة لمن اجتمعت عليه وأمر صهيبا بضرب رأس المنفرد عنهم بالسيف، فهم في معنى كثرة العدد المجتمع على بيعته، وقلة العدد المنفرد عنهم.

قال: أما الخبر الذي ذكر فيه: "أن لا تجتمع الأمة على ضلالة" فمعناه: أن لا يجمعهم على إضلال الحق فيما نابهم من أمر دينهم حتى يضل جمعهم عن العلم ويخطئوه، وذلك لا يكون في الأمة.

هذه أهم الأقوال في الجماعة.

قال الشيخ صالح آل الشيخ في شرح الواسطية (ص٤٥): وتحقيق المقام أن الأقوال الثلاثة الأُوَلْ:

* وهي القول بأن الجماعة هم السواد الأعظم.
* أو أن الجماعة هم أهل العلم والحديث والأثر.
* أو أن الجماعة هم صحابة رسول ﷺ.

هذه الأقوال متقاربة وهي من اختلاف التنوع لأن الجماعة الذين هم السواد الأعظم كما فسرها ابن مسعود وأبو مسعود ﵄ هذا يعنون به صحابة رسول الله ﷺ.و من فسرها - وهم أكثر أهل العلم - بأن الجماعة هم أهل العلم والأثر

=

=

والحديث هؤلاء لأنهم تمسكوا بما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد، والجماعة المراد بها أصحاب رسول ﷺ.

فتحصل إذن أن هذه الأقوال الثلاثة ترجع إلى معنىً واحد وأن أهل السنة والجماعة هم الذين تابعوا صحابة رسول الله صلى عليه وسلم وتابعوا أهل العلم والحديث والأثر في أمورهم.

أما قول ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى فهذا صحيح وهو أن الجماعة هم عصبة المؤمنين الذين اجتمعوا على الإمام الحق وتبيان ذلك-مما يبين حصيلة هذا الكلام ويقرره أتم تقريرٍ وأوضح تقرير- أن الجماعة مقابلة للفرقة والافتراق يقابله الاجتماع. وقد ذكر الخطابي رحمه الله تعالى في كتابه (العزلة) كلمة فائقة فيها تحرير هذا المقام، قال إن الافتراق ينقسم إلى افتراق في الآراء والأديان.

و افتراق في الاجتماع والأبدان أو بالأشخاص والأديان.

افتراق تارةً يكون في الآراء والأديان وتارةً يكون في الأشخاص والأبدان.

هكذا قال وهذا كلامٌ دقيقٌ متين. قال والاجتماع يكون اجتماع بمقابل ذلك بالآراء والأديان ويكون اجتماع بالأشخاص الأبدان. والاجتماع في الأشخاص والأبدان هذا ينقسم إلى آخر ما يحصله كلامه رحمه الله. نأخذ من هذا أنه لفهم معنى الجماعة فهماً دقيقاً لأنه ينبني على هذا فهم معنى أهل السنة والجماعة حتى لا يُدخل فيهم من ليس منهم، تحريره أن الجماعة تطلق باعتبارين:

*جماعةٌ باعتبار العقائد والأديان، باعتبار الآراء والأديان.

فإذا نظرت إلى هذا المعنى في الاجتماع فإنه مأمورٌ به.

والاجتماع على الآراء والأديان، الأقوال في الدين وعلى الأحكام وعلى العقائد وعلى المنهج ونحو ذلك فهذا لا بد أن يكون له مرجع، ومرجعه في فهم نصوص الكتاب والسنة هم صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

=

=

وبهذا يلتقي هذا الفهم مع أقوال أهل العلم الذين قالوا إن الجماعة هم صحابة رسول الله صلى عليه وسلم. وعلى هذا فالذين أخذوا بما قالته الصحابة وما بينته الصحابة من أحكام الشرع من الأحكام الخبرية -يعني من العقائد- فإنه على الحق وهو الذي لم يكن مع الفرق التي فارقت الجماعة. وهؤلاء الذين هم مع صحابة رسول الله صلى عليه وسلم هم مع السواد الأعظم قبل أن يفسد السواد الأعظم.

ومعلومٌ أنه لا يحتج بالسواد الأعظم في كل حال وإنما السواد الأعظم الذي يحتج به هو السواد الأعظم لصحابة رسول الله ﷺ هذه مسألةٌ في غاية الأهمية إذ الاحتجاج بالسواد الأعظم إنما يراد به السواد الأعظم للمهتدين وهم صحابة رسول ﷺ ومن تابعهم في أمور الدين. فصار إذن هاهنا قولان رجعا إلى هذا المعنى، كذلك من قال إن الجماعة هم أهل العلم والحديث والأثر ومن سار على نهجهم من الفقهاء وأهل اللغة ونحو ذلك هؤلاء إنما أخذوا بأقوال الصحابة رضوان الله عليهم وساروا على ما قرروه فإذن هم مع الجماعة قبل أن تفسد الجماعة ومع السواد الأعظم قبل أن يتفرق الناس عنه. لهذا جاء ما جاء في أن الجماعة ما كان على الحق وإن كنت وحدك.

الجماعة ما كانت عليه الجماعة قبل أن تفسد الجماعة كما قاله طائفة من علماء السلف وهذا يريدون به ما كان عليه صحابة رسول ﷺ قبل أن يفسد الناس لأنه حصلت فتن وحصلت للناس أمورٌ منكرة وافتراءٌ في الدين.

فكيف تُضبَط هذه المسألة وهي أعظم المسائل التي هي مسألة الاعتقاد وما يجب اعتقاده وما ينهج بالحياة.

قال أهل العلم إن الجماعة يعني التي من تمسك بها فهو على الجماعة ومن حاد عنها فهو من أهل الفرقة قالوا هم صحابة رسول الله صلى عليه وسلم وهذا ظاهرٌ

=

=

كما ترى.

* المعنى الثاني للاجتماع اجتماعٌ بالأبدان - اجتماع في الأشخاص والأبدان - كما عُبِرَ عنه وهذا هو الذي فهمه ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى. ولا شك أن هذا مأمورٌ به في نصوصٍ كثيرة: النبي ﷺ أمر بالجماعة بهذا المعنى - الاجتماع على الإمام - وعدم التفرق عليه وترك الخروج عليه والبعد عن الفتن التي تفرق المؤمنين، وهذا مما تميز به صحابة رسول ﷺ وتميز به أهل السنة في كل عصر. فنظَرَ ابن جرير رحمه الله تعالى في هذا المعنى إلى ما فعله الإمام أحمد رحمه الله تعالى مع ما حصل من المأمون والمتوكل والواثق فإنه لم ينزع يداً من طاعة لأنه رأى أن الاجتماع إنما يحصل بذلك فأخذ بما جاء في النصوص بهذا المعنى وهكذا أهل السنة والجماعة هم على هذين الأمرين.

فإذن أهل السنة والجماعة تحصل على أن معنى الجماعة- وإن تعددت الأقوال - فإن هذه الأقوال كاختلاف التنوع لأن جميعها صحيح دلت عليه نصوص الشرع.

فباجتماع هذه الأقوال يحصل لنا المعنى الصحيح لأهل السنة والجماعة.

فغلط من غلط في معنى أهل السنة والجماعة فأدخل في أهل السنة والجماعة بعض الفرق الضالة كالأشاعرة والماتريدية.

ومن أمثال من غلط من المتقدمين السَفَّاريني في شرحه (لوامع الأنوار البهية) فقال أهل السنة والجماعة ثلاث فرق:

* الأولى الأثرية أتباع الأثر.
* والثانية الأشعرية أتباع أبي الحسن الأشعري.
* والثالثة الماتريدية أتباع أبي منصور الماتريدي.

وإذا كان كذلك فإنه على هذا الكلام إن الأشعرية والماتريدية وأهل الأثر هم جميعاً من الجماعة.

=

=

وهذا باطل لأن أهل الأثر هم الذين تمسكوا بما كانت عليه الجماعة وأما الأشاعرة والماتريدية فإنهم يقولون قولتهم المشهورة يقولون كلام السلف أسلم ولكن كلام الخلف أعلم وأحكم. وهذا لا شك أنه فيه افتراق وفرقة وخلافٌ واختلاف عما كانت عليه الجماعة قبل أن يَذِرَ نجم الابتداع في هذه الأمة.

فإذن هذا الكلام من الكلام الذي هو غلط على أهل السنة والجماعة ولم يقل به أحد أئمة أهل السنة الذين يفهمون كلام أهل السنة وكلام المخالفين.

فإذن أهل السنة والجماعة فرقةٌ واحدة طائفةٌ واحدة لا غير وهم الذين يعتقدون هذا الاعتقاد الذي سيبينه المصنف رحمه الله تعالى في هذا الكتاب ا.هـ كلام الشيخ صالح.

رابعا: أهل الحديث تقدم في القول الثاني من الأقوال في المقصود بالجماعة: أنهم أهل الحديث، وأن هذا قال به جماعة من أهل العلم كالبخاري والإمام أحمد، والترمذي، وابن المبارك، وابن المديني، وأحمد بن سنان، وغيرهم. ولذلك صار عند كثير من العلماء أن الفرقة الناجية والتي يجب السير على منهاجها هم أهل الحديث. ولذلك فسنعرف بهم هنا:

الحديث في اللغة ضد القديم، وفي الاصطلاح: عرفه بعضهم بأنه: " ما أضيف إلى النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو وصف خلقي أو خلقي "

وعلم الحديث قسمان:

١ – علم الحديث رواية: وهو: " علم يشتمل على أقوال النبي ﷺ وأفعاله وتقريراته، وصفاته، وروايتها وضبطها وتحرير ألفاظها".

٢ – علم الحديث دراية: وهو: " علم بقوانين يعرف بها أحوال السند والمتن "، وهو ما يعرف بمصطلح الحديث.

واذا قيل: " أهل الحديث " فالمقصود بهم الذين يعنون بحديث رسول ﷺ رواية

=

ودراية، ولكن لابد لهؤلاء- حتى يكونوا من أهل الحديث حقا- أن يكونوا عالمين وعاملين، وأن يكونوا مطبقين لما يتعلمونه، متبعين للسنة مجانبين للبدعة، وبهذه الأمور يتميزون عن أهل الأهواء، أما إذا كانوا لا يعملون بعلمهم- كا يحدث من بعض من ينتسب إلى الحديث- فقد اشتد نكير العلماء على مثل هؤلاء. وقد روى عن هارون الرشيد كما في شرف أصحاب الحديث (ص: ٥٥) أنه قال: " طلبت أربعة فوجدتها في أربعة: طلبت الكفر فوجدته في الجهمية، وطلبت الكلام والشغب فوجدته في المعتزلة، وطلبت الكذب فوجدته عند الرافضة، وطلبت الحق فوجدته مع أصحاب الحديث" ويروى الخطيب في المصدر السابق (ص: ٥٦) عن أحمد بن سنان قال: " كان الوليد الكرابيسى خالي، فلما حضرته الوفاة قال لبنيه: تعلمون أحدا أعلم بالكلام مني؟ قالوا: لا، قال: فتتهموني؟، قالوا: لا، قال: فإني أوصيكم أتقبلون؟، قالوا: نعم، قال: عليكم بما عليه أصحاب الحديث فإني رأيت الحق معهم...".

فأهل الحديث مرادف لأهل السنة، يقول اللالكائي في شرح أصول السنة (١/ ٢٢): " فلم نجد في كتاب الله وسنة رسوله وآثار صحابته إلا الحث على الاتباع، وذم التكلف والاختراع، فمن اقتصر على هذه الآثار كان من المتبعين، وكان أولاهم بهذا الاسم، وأحقهم بهذا الوسم، وأخلصهم بهذا الرسم " أصحاب الحديث " لاختصاصهم برسول ﷺ واتباعهم لقوله، وطول ملازمتهم له، وتحملهم علمه... "، ثم يعلل وجه تسميتهم بأهل الحديث بأن اسمهم مأخوذ من الكتاب والسنة لاتباعهم ما فيهما، فهم حملة القرآن وأهله وقراؤه وحفظته، وهم نقلة حديث رسول ﷺ وحملته.

هذه تعريفات للمصطلحات التي تطلق على السلف، أصحاب المذهب الحق، والمنهج الحق، وهى كلها تدل على معنى واحد، ولذلك يمكن أن يفسر بعضها

=

بما تدل عليه معاني البعض الآخر، فهم الجماعة، وهم أهل السنة، وهم أيضا أهل الحديث، وهم الطائفة المنصورة التى قال فيها رسول الله ﷺ (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم، حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس) وفي لفظ (لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك).

المبحث الثاني: من المقصود بالسلف؟ ونشأة التسمية بأهل السنة والجماعة.

من المقصود بالسلف؟

لقد تنوعت الآراء والمذاهب حول المقصود بمذهب السلف، وعلى من ينطبق وصف "السلف" الذين يجب اتباع مذهبهم والسير على منهاجهم، والسبب أن كل فئة تنطلق من وضعها الخاص بها وتدعى أن ما معها هو المذهب الحق؟ لذلك نجد هذه الفئة تحدد المقصود بالسلف بما يتم مع ما عندها من أصول عقائدية، أو منهج ارتضته للوصول إلى ما يجب اعتقاده.

١ - فأحيانا يتجه البعض من أهل الزيغ- من المحدثين- إلى حصر مذهب السلف بفترة معينة لا يتعداها، ثم يزعم أن الفكر الإسلامي قد تطور بعد ذلك على يد رجاله، وهذا التطور لا ينحصر عنده في نطاق فئة معينة، وإنما كل ما ظهر من الآراء والفرق منتسبا بعمومه إلى الإسلام فهو جزء منه، ولو خالف ما كان عليه السلف في المنهج والفهم والاعتقاد، وعلى هذا فالمعتزلة والرافضة بل والجهمية والباطنية هم نتاج مذهب السلف بعد تطويره وبعثه، وتجريده من ثوبه التقليدي البسيط إلى لباس العقل الفلسفى والتأويل الكلامي والباطني.

ولذلك فكثيرا ما يزعم بعض هؤلاء أن عقيدتهم هي التعبير الصحيح عن مذهب السلف، وأن مذهب السلف- بشكله المعروف- إنما ناسب الزمن الذي نشأ فيه، وأن رجاله الأوائل لو عاشوا إلى الزمن الذي بعدهم لطوروه إلى المستوى الذي

=

=

وجد عليه فيما بعد.

٢- وبعضهم يفهم أن السلف نصيون، يعتمدون على النصوص فقط، أما العقل فلا يعتمد عليه في شيء أبدا، فهم يسلمون فقط لظاهر النصوص دون فهم لها، ويكلون علمها- معانيها وكيفيتها- إلى الله تعالى، ولذلك فقد شغلوا أنفسمهم بما يرون أنه أنفع، من العبادة والجهاد في سبيل الله، وإقراء القرآن، ونقل الحديث وروايته.

والعجيب أن مفهوم هؤلاء عن السلف ومنهجهم منتشر بين جمهرة كبيرة من العلماء الذين نحوا منحى كلاميا- في عقائدهم أو في كتبهم حول العقيد ة- وأيضا من الذين كتبوا حول الفلسفة وعلم الكلام، أو أية قضية من قضاياه، ولذلك انتشرت بين هؤلاء-جميعا عبارة: أن مذهب السلف هو التفويض، أو عبارة بعض السلف: " أمروها كا جاءت "، أو أن مذهب السلف أسلم ومذهب الخلف أعلم وأحكم.

أما العقل عند السلف- على رأي هؤلاء- فلا يعتمد عليه مطلقا، ولا أدري ما يصنع هؤلاء بالدلائل العقلية التى جاء بها القرآن والسنة، والتى استخدمها علماء السلف في العصر الأول؟.

ويعلل هؤلاء نشوء ما يسمى بمذهب "الخلف" أو "علم الكلام" بأنه لما كثرت الشبهات التي تثار ضد العقيدة الإسلامية، رأى علماء الإسلام أنه لا يكفى للرد عليها وإبطالها وحماية الناس- وخاصة العامة منهم- من شرورها وآثارها لا يكفي في ذلك الاعتماد على مذهب السلف النصي، فنشأ علم الكلام بمباحثه العقلية والكلامية ليرد الشبهات ويثبت العقيدة ويظهر الحجاج لها في أجواء سادت فيها مذاهب الفلاسفة والجهمية والمعتزلة والقرامطة.

فهل فهم هؤلاء لمذهب السلف كان صحيحا؟ حين قصروه على الإيمان

=

=

بالنصوص والتسليم دون فهم أو اقتناع؟.

٣- وتأتي فئة أخرى تزعم أن ما نشأ من الدراسات العقلية في علم الكلام لم ينشأ من المؤثرات الخارجية والشبهات التى أثارها أعداء العقيدة- وإن كان قد تطور بسببها- وإنما نشأ من مذهب السلف نفسه وأن بواكير الفلسفة الاسلامية وعلم الكلام إنما جاءت من القرآن الكريم، ففيه المجادلة للمخالفين من أهل الديانات الأخرى وغيرهم، وفيه ذكر الحكمة التي كانت معروفة عند العرب وكان يفتخر بأصحابها، وأن ما نشأ من البحث حول الاجتهاد في الأحكام الشرعية، وذلك بما يسمى بأصول الفقه إنما هو بداية ظهور الاتجاه العقلي عند المسلمين، فالذي يفهم من هذا أن السلف- رحمهم الله تعالى- كانوا يحترمون النصوص، ولكن من خلال منظار عقلي استخدموه ونشأ على أثره علم الكلام، فكيف يصح هذا على إطلاقه مع ما هو متواتر عن السلف من الإيمان والتسليم والثقة المطلقة بما جاءت به النصوص، وأن هذه الثقة توجد على أتمها حين ترد على النفس أو يورد بعض الناس- شبهات أو وساوس حولها؟.

٤- وإذا كانت الآراء السابقة تنحو منحى خاصا في فهم المقصود بمذهب السلف، فإن هناك اتجاها آخر يزعم أصحابه أن مذهب السلف يشتمل على عدة اتجاهات وتيارات، وأن هذه التيارات وإن تباينت في المنهج- إلأ أنها تلتقى في أنها قامت ونشأت على يد علماء الإسلام ممن هم من أهل الدين والفضل والعلم بالأحكام، يقول ابن السبكي في شرح عقيدة ابن الحاجب كما في إشارات المرام للبياضي- الحاشية- (ص: ٢٩٨): " اعلم أن أهل السنة والجماعة كلهم قد اتفقوا على معتقد واحد فيما يجب ويجوز ويستحيل وإن اختلفوا في الطرق والمبادى الموصلة لذلك، وبالجملة فهم بالاستقراء ثلاث طوائف:

الأولى: أهل الحديث، ومعتمد مبادئهم الأدلة السمعية: الكتاب والسنة

=

=

والإجماع.

الثانية: أهل النظر العقلي، وهم الأشعرية والحنفية، وشيخ الأشعرية أبو الحسمن الأشعري، وشيخ الحنفية: أبو منصور الماتريدي، وهم متفقون في المبادئ السمعية فيما يدرك العقل جوازه فقط، والعقلية والسمعية في غيرها، واتفقوا في جميع المطالب الاعتقادية إلا في مسائل.

الثالثة: أهل الوجدان والكشف، وهم الصوفية، ومبادئهم مبادئ أهل النظر والحديث في البداية والكشف والإلهام في النهاية " ا.هـ

فهكذا يخلط بين اتجاه أهل الحديث، والاتجاه التأويلي للأشعرية والماتريدية، واتجاه الكشف عند المتصوفة ليصبح كل اتجاه منها هو مذهب أهل السنة والجماعة.

وهذه الاتجاهات والآراء حول تحديد المقصود بالسلف نشأ الخطأ في كل واحد منها من جهة أنه لم ينطلق أصحابها من منطلق شرعي واضح، مبني على الكتاب والسنة اللذين أمرا بالاتباع ونهيا عن الابتداع، وحددا معالم المنهج والطريق الذي يجب السير فيه، ومن ثم يجب اتباع من سار على هذا الطريق المستقيم.

ومما ينبغي ملاحظته أنا إذا أردنا أن نبين القول الصحيح في تحديد من هم الذين يصدق علهم اسم السلف، تبرز بعض الملاحظات والاعتراضات:

أ- فمثلا: حين نقول: إن السلف هم الصحابة والتابعون والتابعون لهم للحديث الوارد: (خير القرون قرني ثم الذين يلونهم..)، يرد الاعتراض بأن التفرق والاختلاف نشأ في عهد هؤلاء، فالخوارج والشيعة والقدرية وجدوا في عهد الصحابة، وكذا بقية الفرق بعد هؤلاء بقليل، فهل وجود هؤلاء في هذه الفترة الزمنية التى هي خير القرون يعطيهم صفة السلفية المفضلة؟، وإذا كان الجواب قطعا بالنفي فلابد من التقييد لمثل هذا الاطلاق في تحديد من هم السلف بحيث

=

=

لا يقتصر على التحديد الزمني فقط.

ب- وكذلك حينما يقال: إن السلف هم الذين يعتمدون في أقوالهم على الكتاب والسنة، يبرز اعتراض خلاصته: من الذي يعتمد عليه في فهم الكتاب والسنة؟ خاصة وأن الفرق كلها تدعي الاعتماد على القرآن والسنة؟، فالإطلاق هكذا يحتاج إلى بيان وإيضاح.

ج- وكذلك حين يحصر البعض مذهب السلف! بالأئمة الأربعة: أبي حنيفة ومالك والشافعي وأحمد، فمن كان قبل هؤلاء من الصحابة والتابعين أليسوا أوفى بوصف السلف!؟. لذلك لابد من التحديد الدقيق للتعريف بالسلف بحيث يشمل:

أولا: التحديد الزمني: ليشمل الصحابة والتابعين والتابعين لهم بإحسان، وهذا لبيان المنطلق والبداية لمذهب السلف، وفائدة هذا التحديد الرجوع إلى أقوال رجال هذا الزمن وإلى فهمهم عند الاختلاف الذي قد ينشأ فيمن بعدهم. وهذه مسألة مهمة جدا؟ إذ الخلاف الحاصل بعد القرون المفضلة بين من يتمسك بمذهب السلف ومن عداهم من أهل الأهواء والبدع لا يمكن حسمه إلا بالاتفاق على مثل هذا التحديد التاريخي ليحتكم إلى إجماعهم- إذا أجمعوا- أو أقوالهم، أو فهمهم للنصوص.

ولا يعني هذا حصر مذهب السلف في هؤلاء، لأن كل من قال بقولهم فهو على السلف وإن تأخر.

ثانيا: ثم يأتي بعد ذلك بيان أن الفهم والمنطلق يجب أن يكون بما يوافق الكتاب والسنة، فمن ابتدع في أمر من الأمور واتخذ لبدعته منهاجا خاصا، لا يكون قوله قولا للسلف، ولو كان هذا في القرون الأولى، لأن وجوده في هذا الزمن لا يكفي للحكم عليه بأنه سائر على مذهب السلف.

=

=

ثالثا: بعد ظهور الافتراق يصبح مدلول " السلف " منطبقا على من حافظ " على العقيدة والمنهج الإسلامي، طبقا لفهم الأوائل الذين تلقفوه جيلا بعد جيل "، فمن سار على طريقة الصدر الأول من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، الذين اتبعوا ولم يبتدعوا فهو سائر على مذهب السلف، وهو أيضا بالنسبة لمن بعده من السلف.

والخلاصة أن مصطلح السلف صار له مدلولان:

* مدلول خاص: وهذا ينطق على مذهب الصحابة والتابعين، والتابعين لهم بإحسان، ممن لم يبتدعوا، وهذا فيه حصر تاريخي.

* ومدلول أعم: يشمل ما بعد هذه القرون المفضلة، وهذا شامل لكل من سار على طريقة ومنهج خير القرون، والتزم النصوص والفهم الذي فهموه.

مسألة: نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة. إذا كان مذهب أهل السنة والجماعة هو ما كان عليه رسول ﷺ وأصحابه، فإطلاق القول بنشأة أهل السنة كما يقال نشأة المعتزلة، الجهمية أو نشأة الرافضة؟ لا معنى له؟ لأنه واضح تمام الوضوح، ولذلك آثرنا أن يكون العنوان: نشأة التسمية بأهل السنة والجماعة كمصطلح عليهم، قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة (٢/ ٤٨٢): " ومذهب أهل السنة والجماعة مذهب قديم، معروف، قبل أن يخلق الله أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد، فإنه مذهب الصحابة الذين تلقوه عن نبيهم، ومن خالف ذلك كان مبتدعا عند أهل السنة والجماعة فإنهم متفقون على أن إجماع الصحابة حجة، ومتنازعون في إجماع من بعدهم " ا.هـ

والمتتبع لنشأة التسمية بأهل السنة يلاحظ أنها ربطت بالإمام أحمد-رحمه الله- وليس ذلك لأن الإمام أحمد هو الذي أنشأه، وإنما لأنه هو الإمام الذي امتحن فيه فصبر فصار إماما من أئمة أهل السنة يقول شيخ الاسلام ابن تيمية بعد الكلام

=

=

السابق: " وأحمد بن حنبل وإن كان قد اشتهر بإمامة السنة والصبر في المحنة، فليس ذلك لأنه انفرد بقول أو ابتدع قولا، بل لأن السنة التي كانت موجودة معروفة قبله علمها ودعا إليها، وصبر على من امتحنه ليفارقها، وكان الأئمة قبله قد ماتوا قبل المحنة، فلما وقعت محنة الجهمية نفاة الصفات في أوائل المئة الثالثة- عهد المأمون وأخيه المعتصم ثم الواثق- ودعوا الناس إلى التجهم وإبطال صفات الله تعالى، وهو المذهب الذى ذهب إليه متأخرو الرافضة، وكانوا قد أدخلوا معهم من أدخلوه من ولاة الأمور، فلم يوافقهم أهل السنة حتى تهددوا بعضهم بالقتل، وقيدوا بعضهم، وعاقبوهم، وأخذوهم بالرغبة والرهبة، وثبت الإمام أحمد على ذلك الأمر حتى حبسوه مدة، ثم طلبوا أصحابهم لمناظرته، فانقطعوا معه في المناظرة يوما بعد يوم... -وذكر المحنة- ثم قال: " ثم صارت هذه الأمور سببا في البحث عن مسائل الصفات وما فيها من النصوص والأدلة والشبهات من جانبي المثبتة والنفاة، وصنف الناس في ذلك مصنفات، وأحمد وغيره من علماء السنة والحديث ما زالوا يعرفون فساد مذهب الروافض والخوارج والقدرية والجهمية والمرجئة، ولكن بسبب المحنة كثر الكلام، ورفع الله قدر هذا الإمام، فصار إماماً من أئمة السنة، وعلما من أعلامها، لقيامه بإعلامها وإظهارها، واطلاعه على نصوصها وآثارها، وبيانه لخفي أسرارها، لا لأنه أحدث مقالة أو ابتدع رأيا، ولهذا قال بعض شيوخ المغرب: المذهب لمالك والشافعي، والظهور لأحمد، يعني أن مذاهب الأئمة في الأصول مذهب واحد، وهو كما قال".

فمن هذا النص يتبين أن مذهب أهل السنة والجماعة امتداد لما كان عليه الرسول ﷺ وأصحابه، فإذا ما قام إمام من الأئمة في زمن البدع بالدعوة إلى العقت ة السليمة وإلى منهج أهل السنة، ومحاربة ما يخالفها فهذا الإمام لم يأت بجديد،

=

وإنما جدد ما اندرس من مذهب أهل السنة وأحيا ما مات منه، وإلا فالعقيدة لم تتغير، فإذا ما نسب – في بعض الأزمان أو الأمكنة – مذهب أهل السنة إلى عا لم من العلماء، أو مجدد من المجددين فلأنه دعا اليه لا لأنه ابتدعه أو اخترعه.

ومما سبق يتبين أن طرح النشأة لمذهب أهل السنة ينبغي أن ينصب على التسمية، أما النشأة ذاتها فواضحة لأنها كانت مع مجيء الإسلام الذي وضح وكمل أتم كمال وأبينه في عهد الرسول ﷺ فمن جاء بعده إذا قيل عنه: إنه إمام أهل السنة– في زمنه أو بعد زمنه فلأنه دعا إلى الأصول الأولى لمذهب أهل السنة وجدد ما اندرس منها.

وبدء التسمية مرتبط بنشأة الفرق؟ لأن من الطبيعي أن يتميز أهل السنة عن بقية أهل الأهواء من أهل الفرق الذين انحرفوا عن المنهج السوي والذين ابتدعوا أقوالا وآراء مخالفة لما كان عليه أهل الصدر الأول.

والكلام حول بدء الفتنة ونشوء الفرق يطول، ولكن نشير إلى لمحات في هذا الأمر لنصل إلى حقيقة تميز أهل السنة عن غيرهم:

ا– من المعلوم أن الفتنة وقعت في آخر عهد عثمان بن عفان رضي الله عنه وكان من آثارها استشهاده، ثم نشأت على أثر ذلك الفرق، وكان أول بدعة نشأت بدعة الخوارج والروافض، فالخوارج كفروا عليا رضي الله عنه وخرجوا عليه، والروافض ادعوا إمامته وعصمته، أو نبوته أو إلهيته، ثم بعد ذلك أخذت البدع تتوالى في الظهور ف–" لما كان في آخر عصر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك حدثت بدعة المرجئة والقدرية، ثم لما كان في أول عصر التابعين– في أواخر الخلافة الأموية– حدثت بدعة الجهمية والمشبهة والممثلة، ولم يكن على عهد الصحابة شيء من ذلك".

٢– كانت بدعتا الروافض والخوارج– من أول البدع ظهورا– كما سبق– وكانتا من المعالم الرئيسة في تميز أهل السنة والجماعة أو أهل الحديث:

=

١ – ففي أجواء هذه الفتنة بدأ المسلمون يعنون بالبحث عن الإسناد، والكلام في الرجال، وذلك لأن السلف خافوا من الكذب على رسول الله ﷺ، خاصة وأن دواعي ذلك موجودة في مثل هذه الظروف، فقد روى الإمام مسلم في مقدمة صحيحه عن ابن سيرين أنه قال: (لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم)، وابن سيرين كان يقول كمفي الكفاية (ص١٦٢): " إن هذا الحديث دين فانظروا عمن تأخذون دينكم".

وهنا بدأ التميز لأهل السنة والجماعة، وذلك بتمييز من تقبل روايته ممن لا تقبل؟ فمن كان من أهل السنة والاتباع، ولم يقل بقول طائفة من الطوائف المنحرفة بل ثبت على الهدى الصحيح، هدي الصحابة والتابعين، فهذا له تميز عند علماء الحديث، وروايته مقبولة– مع الاعتراف بتفاوت الرجال الذين لهم هذه الصفة من ناحية الحفظ والضبط– وأما من كان من أهل البدعة فروايته مردودة إلا بشروط دقيقة.

ومما يلاحظ أن الكذب قد اشتهر عند الرافضة، ولذلك قال عنهم الإمام الشافعي-رحمه الله-: " لم أر من أهل الأهواء أشهد بالزور من الرافضة " وقال يزيد بن هارون: " يكتب عن كل مبتدع– إذا لم يكن داعية– إلا الرافضة فإنهم يكذبون "، ولما وقعت فتنة المختار الشيعي، اشتهر في زمنه الكذب ووضع الحديث على رسول الله ﷺ، ولهذا روى الإمام أحمد عن جابر بن نوح عن الأعمش عن إبراهيم [النخعي] قال: " إنما سئل عن الإسناد أيام المختار "، والمختار نفسه كان يأمر بأن توضع له الأحاديث المكذوبة، فقد أمر رجلا من أصحاب الحديث قائلا: " ضع لي حديثا عن النبي ﷺ أني كائن بعده خليفة "، فرفض الرجل، بل أمر محمد بن عمار بن ياسر أن يحدث عن أبيه بحديث كذب

=

=

فأبى فقتله. ولذلك فشا الكذب في عهده، كما روى شريك عن أبي إسحاق: سمعت خزيمة بن نصر العبسى- أيام المختار- وهم يقولون ما يقولون من الكذب- وكان من أصحاب علي- قال: " ما لهم قاتلهم الله، أي عصابة شانوا وأي حديث أفسدوا". وإذا كان الرافضة أهل كذب فقد ضموا إليه الطعن في أصحاب رسول الله ﷺ ورميهم بالكفر والردة إلا أعدادا قليلة.

وليس الغرض استقصاء هذه الأمور- فالموضوع فيها طويل- ولكن نشير هنا إلى أن تميز أهل السنة واكب ظهور الرافضة من جهتين:

الأول: انتشار الكذب عندهم، مما أثار علماء السنة للبحث عن الرجال والأسانيد، فبدأ بتميز أهل الحديث عن غيرهم، وسبق أن ذكرنا أقوال العلماء بأن الفرقة الناجية هم أهل الحديث.

الثانية: طعنهم في الصحابة، ونشوء البدع وكثرتها لديهم، حتى أصبح شعار " أهل السنة " كثيرا ما يستعمل في مقابل الرافضة، وسفيان الثوري رحمه الله فسر موافقة السنة بتقدمة الشيخين أبو بكر وعمر رضي الله عنهما.

٢- وفي مقابل فتنة الروافض جاءت فتنة الخوارج، والذي يلاحظ أن الخوارج اشتهر عنهم الصدق، ولعل مرد ذلك اعتقادهم أن مرتكب الكبيرة كافر، والكذب كبيرة من الكبائر، ولهذا روي عن أبي داود سليمان بن الأشعث أنه قال: " ليس في أصحاب الأهواء أصح حديثا من الخوارج". ولذلك روى البخاري وغيره عن دعاتهم، ولكن صدقهم وحماستهم لم يكن حائلا دون أن تكون فتنتهم وضلالهم شديدة الوطأة على المسلمين، لأنهم كفروا من عداهم، ولم يكتفوا بذلك، بل ميزوا صفوفهم عن صفوف غيرهم من المسلمين، وحاربوا وقاتلوا، فصارت بدعتهم وانحرافهم أشد من غيرها، ولذلك قاتلهم علي رضي الله عنه وأجمع الصحابة على قتالهم.

=

=

فالخوارج خرجوا على الجماعة الذين لهم إمام شرعي، ومع ظهور فتنة هؤلاء برز أهل السنة بحرصهم على الجماعة وعدم الخروج على الإمام الشرعي ولو كان جائرا وصاروا يذكرون هذا الاعتقاد ويدعون إليه ويحذرون من مخالفته، وحرص المسلمون على الجماعة ونبذ الفرقة، ولما اجتمعوا على معاوية رضى الله عنه عام إحدى وأربعين بعد تنازل الحسن رضى الله عنه سموا هذا العام عام الجماعة. فظهور بدعة الخوارج ميزت أهل السنة من جانبين:

الأول: خروج الخوارج عن المذهب الحق بالتكفير لمن عداهم من المسلمين، ولا شك أن هذه بدعة شنيعة، وقد حرص المسلمون على الرد على أصحابها، وتحذير الناس أشد التحذير منهم÷ وصار من معالم مذهب أهل السنة عدم التكفير لمرتكب الكبيرة.

والثاني: خروجهم على الجماعة وعلى الإمام الشرعي وقتالهم للمسلمين بناء على أصل مذهبهم التكفير، وقد قابل أهل السنة هذا بمقاتلتهم حتى يقضي عليهم أو يكفوا شرهم وبالتحذير منهم وإعلان وجوب اتباع النصوص التي حذرت من الخروج على أئمة المسلمين وإن جاروا وظلموا، ولذا كان أحد المعاني المهمة للجماعة أنها الجماعة الذين اجتمعوا على أمير.

٣- وبعد ظهور فتنة الروافض والخوارج أخذت بقية البدع تظهر بين المسلمين كبدعة القدر، والإرجاء، والتجهم، فقاومها أهل السنة وحذروا منها ومن أصحابها، حتى صار أهل البدع نشازا في المجتمع الإسلامي يأوي إليهم ويسمع أقوالهم إما أهل الزندقة والنفاق، ممن يكيدون لهذا الدين في الخفاء، وإما أصحاب الإيمان الضعيف ممن تؤثر فيهم وتستهويهم هذه البدع وما فيها من آراء وأفكار جديدة على المسلمين، أما السواد الأعظم من المسلمين فإنهم يتبعون علماء الآفاق من أهل السنة في كل مكان.

=

=

وحذر علماء أهل السنة من أصحاب الأهواء، حتى كان الحسن يقول: " لا تجالسوا أهل الأهواء ولا تجادلوهم ولا تسمعوا منهم "، ولما جاءه رجل فقال: " يا أبا سعيد أني أريد أن أخاصمك "، فقال الحسن: " إليك عني فإني قد عرفت ديني، وإنما يخاصمك الشاك في دينه". واستمر تحذير العلماء من أهل الكلام والبدع، وصار مذهب أهل السنة متميزا بالاتباع والسير على منهاج الصحابة رضي الله عنهم مع البعد عن أهل البدع والإنكار عليهم فصار لقب أهل السنة مقابل: أهل البدع والأهواء والكلام.

ولما وقعت محنة القول بخلق القرآن وصار للمعتزلة دولة وصولة امتحن أهل السنة وثبت الله الإمام أحمد رحمه الله فصار وقوفه وثباته مثالاً شامخاً للثبات على مذهب أهل السنة في مقابل أهل البدعة، فصار الإمام أحمد إمام أهل السنة لذلك.

هذه خطوط عريضة لعلها تكون قد أوضحت كيف نشأت التسمية بأهل السنة والجماعة، أو أهل الحديث، وإن ذلك كان مع ظهور البدع ونشوء الفرق، وما صاحب ذلك من الاستهانة بحديث رسول الله ﷺ، وبنقلته من الصحابة، فبدأ أهل السنة يعلنون تميزهم من خلال:

١ - العناية بالحديث رواية ودراية، والكلام في الرجال، والسبب في ذلك نشوء الكذب مع كثرة أهل الأهواء.

٢ - المحافظة على السنة وعلى ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه، من غير ابتداع في الدين أو اتباع لأهل الأهواء والكلام المذموم على اختلاف مذاهبهم وأقوالهم.

٣ - المحافظة على الجماعة التي تعني الاتباع والسير على المنهج الحق، وتعني أيضاً المحافظة على وحدة الأمة وعدم الخروج على الجماعة التي لها إمام

=

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩).

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلك إِلَّا رِجَالًا يُوحَى} وَفِي قِرَاءَة بِالنُّونِ وَكَسْر الْحَاء {إِلَيْهِمْ} لَا مَلَائِكَة {مِنْ أَهْل الْقُرَى} الْأَمْصَار لِأَنَّهُمْ أَعْلَم وَأَحْلَم بِخِلَافِ أَهْل الْبَوَادِي لِجَفَائِهِمْ وَجَهْلهمْ {أَفَلَمْ يَسِيرُوا} أَهْل مَكَّة {فِي الْأَرْض فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَة الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ} أَيْ آخِر أَمْرهمْ مِنْ إهْلَاكهمْ بِتَكْذِيبِهِمْ رُسُلهمْ {وَلَدَار الْآخِرَة} أَيْ الْجَنَّة {خَيْر لِلَّذِينَ اتَّقُوا} الله {أَفَلَا تعقلون} بِالْيَاءِ وَالتَّاء يَا أَهْل مَكَّة هَذَا فَتُؤْمِنُونَ(١).

=

شرعي.

أما التحديد الدقيق لنشأة التسمية بأهل السنة والجماعة، وربط ذلك بزمن محدد أو بعلم من أعلام أهل السنة، أو نشوء فرقة من الفرق، فلا أظن أن ذلك ممكن إلا من خلال خطوط عريضة كما أسلفنا والله أعلم.

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى} [يوسف: ١٠٩]، أي:"وما آرسلنا من قبلك يا محمد إلا رجالاً من البشر نوحي إليهم آياتنا للدعاء إلى طاعتنا من أهل المُدن والأمصار".

وفي الآية الكريمة أن الله تعالى لم يوح إلى امرأة من بنات بني آدم وحي تشريع، فليس في النساء نبية.

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: الأنبياء كانوا من الآدميين، ولم يكونوا من الملائكة، {من أهل القرى}، يعني: منسوبين إليها".

قال الزمخشري:"{إلا رجالا} لا ملائكة، لأنهم كانوا يقولون لو شاء ربنا لأنزل

=

=

ملائكة... {من أهل القرى}، لأنهم أعلم وأحلم، وأهل البوادي فيهم الجهل والجفاء والقسوة".

قال ابن عباس:"أي: ليسوا من أهل السماء كما قلتم".

قال قتادة:"وما نعلم أن الله أرسل رسولا قط إلا من أهل القرى، لأنهم كانوا أعلم وأحلم من أهل العمود".

قال الحسن: "لم يبعث الله نبيا من أهل البادية، ولا من النساء، ولا من الجن".

قال الواحدي:"قال المفسرون: أهل الأمصار أحدّ فطنًا وأعلم وأشدّ تيقظًا، إذ سكن البادية يغلب عليهم القسوة والجفاء، وقد قال النبي ﷺ: «من بدا جفا، ومن أَتبع الصيد غفل، ومن لزم أبواب الملوك افتتن»، وفي هذا رد لإنكارهم نبوته، يقول: لم يبعث قبلك إلا رجالاً، فكيف تعجبوا من إرسالنا إياك، ومن قبلك من الرسل كانوا على مثل حالك، ومن قبلهم من الأمم المكذبة كانوا على مثل حالهم، فأهلكناهم".

قال الشوكاني:"هذا رد على من قال: {لولا أنزل عليه ملك}، أي: لم نبعث من الأنبياء إلى من قبلهم إلا رجالا لا ملائكة، فكيف ينكرون إرسالنا إياك. وتدل الآية على أن الله سبحانه لم يبعث نبيا من النساء ولا من الجن، وهذا يرد على من قال: إن في النساء أربع نبيات: حواء، وآسية، وأم موسى، ومريم. وقد كان بعثة الأنبياء من الرجال دون النساء أمرا معروفا عند العرب، حتى قال قيس بن عاصم في سجاح المتنبئة:

أضحت نبيتنا أنثى نطيف بها وأصبحت أنبياء الله ذكرانا

فلعنة الله والأقوام كلهم على سجاح ومن باللوم أغرانا"

قرأ عاصم في رواية حفص: نوحي إليهم بالنون. وقرأ الباقون بالياء يوحى إليهم، ومعناهما واحد.

=

=

وقوله (من أهل القرى) المراد بالقرى المدن لا أنهم من أهل البوادي الذين هم من أجفى الناس طباعا وأخلاقا، وهذا هو المعهود المعروف أن أهل المدن أرق طباعا وألطف من أهل سوادهم، وأهل الريف والسواد أقرب حالا من الذين يسكنون في البوادي.

- فإن قيل: ما الجواب عن قوله تعالى (وجاء بكم من البدو)؟

قيل: أن المراد بقوله تعالى (وجاء بكم من البدو) موضع له يقال له: بدا. وقد ضعف هذا القول الشوكاني، والآلوسي.

- وقال الشنقيطي: ولا يخفى بعد هذا القول.

وقيل: أن يعقوب - عليه السلام - من الحضر ثم انتقل بعد ذلك إلى البادية وتحول إليها، ولم يكن قبل من أهلها، ويدل على ذلك حال والده إبراهيم - عليه السلام -، وسكناه الشام، ويبدو أنه أصابهم فقر وجدب أو ضائقة ما فخرجوا من حاضرتهم، فقد قالوا: "يا أيها العزيز مسنا وأهلنا الضر...

وقيل: أن البدو الذي جاءوا منه مستند للحضر فهو في حكمه.

وقيل: أن ذلك البدو لم يكن في أهل عمود، بل هو مستقر في منازل وربوع.

وقيل: أنه بدو بالنسبة لحاضرة مصر، كما القرية أحيانا للمدينة الكبيرة تبدو ليست بحاضرة. انظر: (المحرر الوجيز) لابن عطية.

وقيل: إن المراد بقول الله تعالى (من أهل القرى) أي: ليسوا من أهل السماء.

وذهب إليه ابن عاشور في (التحرير والتنوير): أن الآية لا تدل على الحصر، ومثل بيعقوب - عليه السلام - وأنه من أهل البدو.

قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [يوسف: ١٠٩]، أي:"أفلم يسر هؤلاء المكذبون في الأرض فينظروا نظر تفكر وتدبر ما حلَّ بالأمم السابقين ومصارع المكذبين فيعتبرون بذلك؟".

=

=

وهـذا الـسير يـشمل الـسير بالأبـدان والـسير بـالقلوب، والـسير بـالقلوب: أن يقـرأ ويتأمل ما وقع للأمم السابقة من العقوبات، وذلك بقراءة تاريخهم بما صح منهـا ، وأصـح شـيء مـا جـاء في كتـاب الله وسـنة نبيـه ﷺ ، والـسير بالأقـدام بـأن ينظـروا بأبـصارهم آثـار المكـذبين كـما في قولـه تعـالى (وإنكـم لتمـرون علـيهم مـصبحين. وبالليل أفلا تعقلون).

قـال الـشوكاني:"أي: أفلـم يـسر المـشركون هـؤلاء فينظـروا إلـى مـصارع الأمـم الماضية فيعتبروا بهم حتى ينزعوا عما هم فيه من التكذيب.

قال الواحدي:"يعني: المشركين المنكرين لنبوة محمد ﷺ ، يقول: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا} إلى مصارع الأمم المكذبة فيعتبروا بهم".

قـال البيـضاوي:"مـن المكـذبين بالرسـل والآيـات فيحـذروا تكـذيبك، أو مـن مـن المشغوفين بالدنيا المتهالكين عليها فيقلعوا عن حبها".

قال الحسن:"فينظروا كيف عذب الله قوم نوح، وقوم لوط، وقـوم صـالح، والأمـم التي عذب الله".

قولـه تعـالى: {وَلَـدَارُ الْآخِـرَةِ خَيْـرٌ لِلَّـذِينَ اتَّقَـوْا} [يوسـف: ١٠٩]، أي:"ولَثـواب الدار الآخرة أفضل من الدنيا وما فيها للذين آمنوا وخافوا ربهم".

قال البيضاوي:"الحياة الآخرة. خير للذين اتقوا الشرك والمعاصي".

قال الشوكاني:"المراد بهذه الدار: الجنة، أي: هي خير للمتقين من دار الدنيا.

عن ابن عباس، قوله: " {ولدار الآخرة خير} [يوسف: ١٠٩] يقول: باقية".

عن عكرمة، قوله: " {ولدار الآخرة} [يوسف: ١٠٩] يقول: الجنة".

وقرئ: «وللدار الآخرة».

قوله تعالى: {أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [يوسف: ١٠٩]، أي:"أفلا تتفكرون فتعتبروا؟".

قال البغوي:"فتؤمنون".

=

حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠).

{حَتَّى} غَايَة لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلك إِلَّا رِجَالًا} أَيْ فَتَرَاخَى نَصْرهمْ حتى {إذا اسْتَيْأَسَ} يَئِسَ {الرُّسُل وَظَنُّوا} أَيْقَنَ الرُّسُل {أَنَّهُمْ قَدْ كُذِّبُوا} بِالتَّشْدِيدِ تَكْذِيبًا لَا إيمَان بَعْده وَالتَّخْفِيف أَيْ ظَنَّ الْأُمَم أَنَّ الرُّسُل أُخْلِفُوا مَا وُعِدُوا بِهِ مِنْ النَّصْر {جَاءَهُمْ نَصْرنَا فَنُنَجِّي} بِنُونَيْنِ مُشَدَّدًا وَمُخَفَّفًا وَبِنُونٍ مُشَدَّدًا مَاضٍ {من نشاء ولا يرد بَأْسنَا} عَذَابنَا {عَنِ الْقَوْم الْمُجْرِمِينَ} الْمُشْرِكِينَ[١].

=

قال البيضاوي:"يستعملون عقولهم ليعرفوا أنها خير".

قال الآلوسي:"فتستعملوا عقولكم لتعرفوا خيرية دار الآخرة فتتوسلوا إليها بالاتقاء".

وقرأ نافع وعاصم ويعقوب: «أفلا تعقلون»، بالتاء الفوقية على الخطاب. وقرأ الباقون بالتحتية.

(١) قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} [يوسف: ١١٠].

في قوله: (كذبوا) قراءتان إحداهما بالتشديد قد كذبوا، وهذا قول الأكثر.

والمعنى عليها واضح أي: ظن الرسل بأن قومهم قد كذبوهم فيما وعدوهم به من العذاب، ويجوز في هذا أن يكون فاعل ظن القوم المرسل إليهم على معنى أنهم ظنوا أن الرسل قد كذبوا فيما جاءوا به من الوعد والوعيد.

وأما قراءة (التخفيف) فاختلف العلماء في تفسيرها على أقوال:

- قال ابن جزي: قوله تعالى (وظنوا أنهم قد كذبوا) قرئ بتشديد الذال وتخفيفها، فأما التشديد فالضمير في ظنوا وكذبوا للرسل، والظن يحتمل أن يكون على بابه، =

=

أو بمعنى اليقين: أي علم الرسل أن قومهم قد كذبوهم فيئسوا من إيمانهم.

وأما التخفيف، فالضميران فيه للقوم المرسل إليهم، أي ظنوا أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوه من الرسالة، أو من النصرة عليهم.

- والسعدي رحمه الله ذكر في تفسيره قولا رجحه بعض العلماء؛ فقال: يخبر تعالى أنه يرسل الرسل الكرام، فيكذبهم القوم المجرمون اللئام، وأن الله تعالى يمهلهم ليرجعوا إلى الحق، ولا يزال الله يمهلهم حتى إنه تصل الحال إلى غاية الشدة منهم على الرسل.

حتى إن الرسل - على كمال يقينهم، وشدة تصديقهم بوعد الله ووعيده - ربما أنه يخطر بقلوبهم نوع من الإياس، ونوع من ضعف العلم والتصديق، فإذا بلغ الأمر هذه الحال (جاءهم نصرنا فنجي من نشاء) وهم الرسل وأتباعهم (ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) أي: ولا يرد عذابنا، عمن اجترم، وتجرأ على الله (فما له من قوة ولا ناصر). (التفسير).

(جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين) أي: جاءهم نصرنا الذي وعدناهم به، بأن أنزلنا العذاب على أعدائهم، فنجا من نشاء إنجاءه وهم المؤمنون بالرسل، ولا يرد بأسنا وعذابنا عن القوم المجرمين عند نزوله بهم.

قال الطبري: أي:"الذين أرسلناهم إليهم منهم أن يؤمنوا بالله، ويصدِّقوهم فيما أتوهم به من عند الله".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أن نصره ينزل على رسله، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، عند ضيق الحال وانتظار الفرج من الله تعالى في أحوج الأوقات إلى ذلك، كما في قوله تعالى: {وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللهِ قَرِيبٌ} [البقرة: ٢١٤].

وفي قوله تعالى: {حَتَّى إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ} [يوسف: ١١٠]، ثلاثة وجوه:

=

=

أحدها: من قومهم أن يؤمنوا، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبو الصخر، وابن زيد.

قال ابن عباس وسعيد بن جبير:"من أن يسلم قومهم".

وقال ابن عباس:"لما أيست الرسل أن يستجيب لهم قومُهم".

قال مجاهد:"يعني: "من قومهم أن يستجيبوا لهم".

قال ابن زيد:"استيئس الرسل أن يؤمن لهم قومهم".

قال مقاتل:"من إيمان قومهم، أوعدتهم رسلهم العذاب في الدنيا، بأنه نازل بهم".

وقال ابو الصخر: "يقول: حتى إذا استيئس الرسل من إيمان ما وعدوا به، {جاءهم نصرنا} [يوسف: ١١٠] الآية".

الثاني: أن يعذب قومهم، قاله مجاهد.

والثالث: استيأسوا من نصر قومهم. وهذا مروي عن ابن عباس ايضا.

قوله تعالى: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} [يوسف: ١١٠]، أي:"وأيقنوا أن قومهم قد كذبوهم ولا أمل في إيمانهم".

قال ابن عباس:"ظن قومهم أنهم جاؤوهم بالكذب".

وقال ابن عباس ايضا:"وظنَّ قومُهم أن الرسل قد كَذَبوهم فيما وعدوا وكذبوا".

قال سعيد بن جبير:"وظنّ قوم الرسل أن الرسل قد كَذَبُوا".

روي أن مسلم بن يسار، سأل سعيد بن جبير ؛ فقال: "يا أبا عبد الله، آية بلغت مني كل مبلغ: {حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا}، فهذا الموتُ، أن تظنّ الرسل أنهم قد كُذِبوا، أو نظنّ أنهم قد كَذَبوا، مخففة! قال: فقال سعيد بن جبير: يا أبا عبد الرحمن، حتى إذا استيأس الرسل من قومهم أن يستجيبوا لهم، وظن قومُهم أن الرسل كذبتهم {جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين}. قال: فقام مسلم إلى سعيد، فاعتنقه وقال: فرّج الله عنك كما فرّجت

=

=

عني".

وفي قوله تعالى: {وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا} [يوسف: ١١٠]، وجوه من القراءة والتفسير:

الوجه الأول: {كُذِبُوا}، بضم الكاف وكسر الذال وتشديدها، قرأ بها الحرميّان وأبو عمرو وابن عامر، والمعنى: وتيقن الرسل أن قومهم قد كذبوهم، فيكون الظن ها هنا بمعنى «اليقين»، هذا قول الحسن، وعطاء، وقتادة.

وفي هذه القراءة تفسيران:

التفسير الأول: وظنوا أي أيقنوا- يعني الرسل- أن الأمم قد كذبوهم تكذيبا لا يرجى بعد إيمانه، والظن لمعنى اليقين. وهذا معنى قول قتادة.

التفسير الثاني: معناه: حتى إذا استيأس الرسل ممن كذبهم من قومه أن يصدقوهم، وظنوا أن من آمن بهم من قومهم قد كذبوهم وارتدوا عن دينهم لشدة المحنة والبلاء عليهم استبطاء النصر.

الوجه الثاني: «كذبوا» خفيفة، قرأ بها عاصم، وحمزة، والكسائي، والمعنى: ظن قومهم أن الرسل قد كذبوا فيما وعدوا به من النصر.

وذكروا في هذه القراءة وجهان:

الوجه الاول: أي: ظن قومهم أن الرسل قد كذبتهم في النصر ووعيد العقاب.

الوجه الثاني: معناه: أن الرسل كانوا بشرا فضعفوا ويئسوا وظنوا أنهم قد أخلفوا، قال تعالى: {حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متى نصر الله} [البقرة: ٢١٤].

وهذا القول منسوب إلى "ابن عباس، وابن مسعود، وابن جبير".

قال السمين الحلبي:"وهذا ينبغي ألا يصح عن هؤلاء فإنها عبارة غليظة على الأنبياء عليهم السلام، وحاشى الأنبياء من ذلك".

قال الزجاج:"وقد قال بعضهم: وظنوا أنهم قد أخلفوا، أي: ظن الرسل، وذلك

=

=

بعيد في صفة الرسل".

يروى عن عائشة أن النبي ﷺ "لم يوعد شيئا أخلف فيه".

عن عروة بن الزبير، " أنه سأل عائشة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها، قال: أرأيت قول الله تعالى: {حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا} أ «كذبوا»، أم «كذبوا» بالتخفيف؟ فقالت: بل «كذبوا»، تعني بالتشديد، فقلت: والله لقد استيقنوا أن قومهم قد كذبوهم، وما هو بالظن، فقالت: أجل لعمري لقد استيقنوا ذلك، فقلت: فلعلها: {وظنوا أنهم قد كذبوا} [يوسف: ١١٠]، فقالت: معاذ الله لم تكن الرسل لتظن ذلك بربها، قلت: وما هذه الآية؟ قالت: هم أتباع الرسل الذين آمنوا وصدقوهم، وطال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر، حتى إذا استيئس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظن الرسل أن أتباعهم عندما كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك".

عن عبد الرحمن بن معاوية، عن ابن عباس: " {وظنوا أنهم قد كُذِبوا}، خفيفة، وتأويلها عنده: وظن القومُ أن الرسل قد كذبوا".

والوجه الثالث: «كذبوا» بفتح الكاف والذال خفيفة، قرأ بها أبو رزين، ومجاهد، والضحاك، والمعنى: ظن قومهم أيضا أنهم قد كذبوا.

قال ابو حيان: أي:"وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما قالوا عن الله من العذاب و «الظن» على بابه".

قال ابن عباس:"وظن قوم الرسل أن الرسل قد كذبت فيما جاءت به".

عن يحيى بن سعيد، قال: " جاء رجل إلى القاسم بن محمد، فقال: إن محمد بن كعب القرظي، يقول: هذه الآية: " {حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا} فقال القاسم: فأخبره عني، إني سمعت عائشة زوج النبي ﷺ تقول: {حتى إذا استيئس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا} تقول: «كذبتهم أتباعهم»".

=

=

وقال ابن زيد:"ظن قومهم المشركون: إن قد كذبوا ما وعدهم الله من نصرهم إياهم عليهم وأخلفوا".

قال السمين الحلبي: قوله: {كذبوا} قرأ الكوفيون» كذبوا «بالتخفيف والباقون بالتثقيل، فأما قراءة التخفيف فاضطربت أقوال الناس فيها، وروي إنكارها عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت: «معاذ الله لم يكن الرسل لتظن ذلك بربها»، وهذا ينبغي أن لا يصح عنها لتواتر هذه القراءة.

وقد وجهها الناس بأربعة أوجه:

أجودها: أن الضمير في {وظنوا} عائد على المرسل إليهم لتقدمهم في قوله: {كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} [يوسف: ١٠٩]، ولأن الرسل تستدعي مرسلا إليه. والضمير في «أنهم» و «كذبوا» عائد على الرسل، أي: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا، أي: كذبهم من أرسلوا إليه بالوحي وبنصرهم عليهم.

الثاني: أن الضمائر الثلاثة عائدة على الرسل.

قال الزمخشري في تقرير هذا الوجه: «حتى إذا استيئسوا من النصر وظنوا أنهم قد كذبوا، أي: كذبهم أنفسهم حين حدثتهم أنهم ينصرون أو رجاؤهم لقولهم رجاء صادق ورجاء كاذب، والمعنى: أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار، وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط، وتوهموا ألا نصر لهم في الدنيا فجاءهم نصرنا» انتهى.

فقد جعل الفاعل المقدر: إما أنفسهم، وإما رجاؤهم، وجعل «الظن» بمعنى «التوهم» فأخرجه عن معناه الأصلي وهو ترجح أحد الطرفين، وعن مجازه وهو استعماله في المتيقن.

الثالث: أن الضمائر كلها أيضا عائدة على الرسل، و «الظن» على بابه من الترجيح، وإلى هذا نحا ابن عباس وابن مسعود وابن جبير، قالوا: والرسل بشر فضعفوا

=

=

وساء ظنهم، وهذا ينبغي ألا يصح عن هؤلاء فإنها عبارة غليظة على الأنبياء عليهم السلام، وحاشى الأنبياء من ذلك، ولذلك ردت عائشة وجماعة كثيرة هذا التأويل، وأعظموا أن تنسب الأنبياء إلى شيء من ذلك.

قال الزمخشري: «إن صح هذا عن ابن عباس فقد أراد بالظن ما يخطر بالبال ويهجس في القلب من شبه الوسوسة وحديث النفس على ما عليه البشرية، وأما الظن الذي هو ترجيح أحد الجائزين على الآخر فغير جائز على رجل من المسلمين، فما بال رسل الله الذين هم أعرف بربهم؟»

قلت (السمين): ولا يجوز أيضا أن يقال: خطر ببالهم شبه الوسوسة؛ فإن الوسوسة من الشيطان وهم معصومون منه.

وقال الفارسي أيضا: «إن ذهب ذاهب إلى أن المعنى: ظن الرسل الذين وعد الله أممهم على لسانهم قد كذبوا فيه فقد أتى عظيما [لا يجوز أن ينسب مثله] إلى الأنبياء ولا إلى صالحي عباد الله، وكذلك من زعم أن ابن عباس ذهب إلى أن الرسل قد ضعفوا فظنوا أنهم قد أخلفوا؛ لأن الله تعالى لا يخلف الميعاد ولا مبدل لكلماته».

وقد روي عن ابن عباس أيضا أنه قال: «معناه وظنوا حين ضعفوا وغلبوا أنهم قد أخلفوا ما وعدهم الله به من النصر وقال: كانوا بشرا وتلا قوله تعالى: {وزلزلوا حتى يقول الرسول} [البقرة: ٢١٤].

الرابع: أن الضمائر كلها ترجع إلى المرسل إليهم، أي: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما ادعوه من النبوة وفيما يوعدون به من لم يؤمن بهم من العقاب قبل، وهذا هو المشهور من تأويل ابن عباس وابن مسعود وابن جبير ومجاهد قالوا: ولا يجوز عود الضمائر على الرسل لأنهم معصومون. ويحكى أن ابن جبير حين سئل عنها قال: نعم إذا استيئس الرسل من قومهم أن يصدقوهم،

=

=

وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم» فقال الضحاك بن مزاحم وكان حاضرا: «لو رحلت في هذه إلى اليمن كان قليلا».

وأما قراءة التشديد فواضحة وهو أن تعود الضمائر كلها على الرسل، أي: وظن الرسل أنهم قد كذبهم أممهم فيما جاؤوا به لطول البلاء عليهم، وفي صحيح البخاري عن عائشة: «أنها قالت: هم أتباع الأنبياء الذي آمنوا بهم وصدقوا طال عليهم البلاء واستأخر عنهم النصر حتى إذا استيئس الرسل ممن كذبهم من قومهم، وظنت الرسل أن قومهم قد كذبوهم جاءهم نصر الله عند ذلك».

قلت (السمين الحلبي): وبهذا يتحد معنى القراءتين، والظن هنا يجوز أن يكون على بابه، وأن يكون بمعنى اليقين وأن يكون بمعنى التوهم حسبما تقدم.

وقرأ ابن عباس والضحاك ومجاهد «كذبوا» بالتخفيف مبنيا للفاعل، والضمير على هذه القراءة في «ظنوا» عائد على الأمم وفي {أنهم قد كذبوا} عائد على الرسل، أي: ظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوهم فيما وعدوهم به من النصر أو من العقاب، ويجوز أن يعود الضمير في «ظنوا» على الرسل وفي {أنهم قد كذبوا} على المرسل [إليهم]، أي: وظن الرسل أن الأمم كذبتهم فيما وعدوهم به من أنهم يؤمنون به، والظن هنا بمعنى اليقين واضح.

ونقل أبو البقاء أنه قرئ مشددا مبنيا للفاعل، وأوله: بأن الرسل ظنوا أن الأمم قد كذبوهم.

وقال الزمخشري: بعد ما حكى قراءة المبني للفاعل «ولو قرئ بهذا مشددا لكان معناه: وظن الرسل أن قومهم كذبوهم في موعدهم»، فلم يحفظها قراءة وهي غريبة، وكان قد جوز في القراءة المتقدمة أن الضمائر كلها تعود على الرسل، وأن يعود الأول على المرسل إليهم وما بعده على الرسل فقال: «وقرأ مجاهد «كذبوا» بالتخفيف على البناء للفاعل على: وظن الرسل أنهم قد كذبوا فيما حدثوا به

=

=

قومهم من النصرة: إما على تأويل ابن عباس، وإما على أن قومهم إذا لم يروا لموعدهم أثرا قالوا لهم: قد كذبتمونا فيكونون كاذبين عند قومهم أو: وظن المرسل إليهم أن الرسل قد كذبوا»".

قوله تعالى: {جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} [يوسف: ١١٠]، أي:"جاءهم نصرنا عند شدة الكرب".

عن ابن عباس:"{جاءهم نصرنا}، قال: العذاب".

وفي قوله تعالى: {جَاءَهُمْ نَصْرُنَا} [يوسف: ١١٠]، وجهان:

أحدهما: جاء الرسل نصر الله تعالى. قاله ابن عباس، ومجاهد، وابن زيد.

الثاني: جاء قومهم عذاب الله تعالى، وهو قول ابن عباس أيضا.

قال الزمخشري:"المعنى: أن مدة التكذيب والعداوة من الكفار وانتظار النصر من الله وتأميله قد تطاولت عليهم وتمادت، حتى استشعروا القنوط وتوهموا أن لا نصر لهم في الدنيا، فجاءهم نصرنا فجأة من غير احتساب".

قوله تعالى: {فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ} [يوسف: ١١٠]، أي:"فننجي من نشاء من الرسل وأتباعهم".

قال ابن عباس:"فننجي الرسل ومن نشاء".

وقرئ: «فننجى من نشَاء»، بنونين الأولى مَضْمُومَة والثانية سَاكِنة ووالياء التي في «فننجى»، سَاكِنة.

وروى نصر بن على عَن أَبِيه عَن أَبى عَمْرو «فنجي من نشَاء»، يدغم، قال ابو بكر: وَهَذَا غلط فى قَوْله يدغم لَيْسَ هَذَا موضعا يدغم فِيهِ إِنَّمَا أَرَادَ أَنَّهَا محذوفة النُّون الثَّانِيَة فى الْكتاب وهى فى اللَّفْظ بنونين الأولى متحركة وَالثَّانِيَة سَاكِنة وَلَا يجوز إدغام المتحرك فى السَّاكِن لِأَن النُّون الثَّانِيَة سَاكِنة والساكن لَا يدغم فِيهِ متحرك وَكَذَلِكَ النُّون لَا تُدْغَم فى الْجِيم فَمن قَالَ يدغم فَهُوَ غلط.

=

لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١).

{لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصهمْ} أَيْ الرُّسُل {عِبْرَة لِأُولِي الْأَلْبَاب} أَصْحَاب الْعُقُول {مَا كَانَ} هَذَا الْقُرْآن {حَدِيثًا يُفْتَرَى} يُخْتَلَق {وَلَكِنْ} كَانَ {تَصْدِيق الَّذِي بَيْن يَدَيْهِ} قَبْله مِنْ الْكُتُب {وَتَفْصِيل} تَبْيِين {كُلّ شَيْء} يُحْتَاج إلَيْهِ فِي الدِّين {وَهُدَى} مِنْ الضَّلَالَة {وَرَحْمَة لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} خُصُّوا بِالذِّكْرِ لِانْتِفَاعِهِمْ بِهِ دُون غَيْرهمْ[1].

=

وقرأ ابن عامر وعاصم فى رواية أبى بكر وحفص: «فنجي من نشاء»، مشددة الجيم مفتوحة الياء بنون واحدة على مالم يسم فاعله وروى الحسن بن اليتيم عن أبى حفص عمرو بن الصباح عن أبى عمر عن عاصم «فنجي» بنون واحدة، وروى هبيرة عن حفص عن عاصم فننجى بنونين مضمومة وخفيفة، قال أبو بكر: وهذا غلط.

وقرأ ابن محيصن: «فنجا»، والمراد ب من نشاء المؤمنون، لأنهم الذين يستأهلون أن يشاء نجاتهم. وقد بين ذلك بقوله {ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين}.

قوله تعالى: {وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ} [يوسف: ١١٠]، أي:"ولا يُردُّ عذابنا وبطشنا عن المجرمين إذا نزل بهم".

قال ابن عباس:"وذلك أن الله، بعث الرسل فدعوا قومهم وأخبروهم أنه من أطاع الله نجي، ومن عصاه عذب وغوى".

(١) قوله تعالى: {لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ} [يوسف: ١١١]، أي:"لقد كان في نبأ المرسلين الذي قصصناه عليك وما حلَّ بالمكذبين عظة لأهل العقول السليمة".

=

=

عن ابن عباس، في قوله: " {عبرة}، قال: معرفة، {لأولي الألباب}، قال: لذوي العقول".

عن مجاهد: " {عبرة لأولي الألباب}، يعني: ليوسف وإخوته".

قال الزمخشري:"الضمير في {قصصهم} للرسل، وينصره قراءة من قرأ: «في قصصهم» بكسر القاف. وقيل: هو راجع إلى «يوسف وإخوته»".

- قال أبو حيان: وإنما خص أولو الألباب لأنهم هم الذين ينتفعون بالعبر، ومن له لب وأجاد النظر، ورأى ما فيها من امتحان ولطف وإحسان، علم أنه أمر من الله تعالى، ومن عنده تعالى.

- قال الرازي: ووجه الاعتبار بقصصهم أمور:

الأول: أن الذي قدر على إعزاز يوسف بعد إلقائه في الجب، وإعلائه بعد حبسه في السجن وتمليكه مصر بعد أن كانوا يظنون به أنه عبد لهم، وجمعه مع والديه وإخوته على ما أحب بعد المدة الطويلة، لقادر على إعزاز محمد ﷺ وإعلاء كلمته.

الثاني: أن الإخبار عنه جار مجرى الإخبار عن الغيب، فيكون معجزة دالة على صدق محمد ﷺ .

الثالث: أنه ذكر في أول السورة (نحن نقص عليك أحسن القصص) ثم ذكر في آخرها (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب) تنبيها على أن حسن هذه القصة إنما كان بسبب أنه يحصل منها العبرة ومعرفة الحكمة والقدرة.

- قال القشيري: عبرة منها للملوك في بسط العدل كما بسط يوسف عليه السلام، وتأمينهم أحوال الرعية كما فعل يوسف حين أحسن إليهم، وأعتقهم حين ملكهم.

وعبرة في قصصهم لأرباب التقوى؛ فإن يوسف لما ترك هواه رقاه الله إلى ما رقاه.

وعبرة لأهل الهوى فيما في اتباع الهى من شدة البلاء، كامرأة العزيز لما تبعت

=

=

هواها لقيت الضر والفقر.

وعبرة للمماليك في حضرة السادة، كيوسف لما حفظ حرمة زليخا ملك ملك العزيز، وصارت زليخا امرأته حلالا.

وعبرة في العفو عند المقدرة، كيوسف - عليه السلام - حين تجاوز عن إخوته.

وعبرة في ثمرة الصبر، فيقعوب لما صبر على مقاساة حزنه ظفر يوما بلقاء يوسف - عليه السلام -.

قوله تعالى: {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى} [يوسف: ١١١]، أي:"ما كان هذا القرآن حديثًا مكذوبًا مختلَقًا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ما كان هذا القول حديثًا يختلق ويُتكذَّب ويُتَخَرَّص".

قال ابن ابي زمنين:"أي: يختلق ويصنع؛ هذا جواب لقول المشركين: {إن هذا إلا إفك افتراه}، أي: كذب اختلقه محمد".

قال الواحدي:"أي: ما كان هذا القرآن حديثا يتقوله بشر".

قال قتادة:"«الفرية»: الكذب".

وفي قوله تعالى: {مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى} [يوسف: ١١١]، وجهان:

أحدهما: يعني: القرآن، قاله قتادة، واختاره الزمخشري.

الثاني: لما كان قبله من الخبر عنه، قاله ابن إسحاق، واختاره السمعاني.

قال السمعاني:"يعني: قصة يوسف".

قوله تعالى: {وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [يوسف: ١١١]، أي:"ولكن أنزلناه مصدقًا لما سبقه من الكتب السماوية".

قال ابن ابي زمنين:"من التوراة والإنجيل".

قال الزمخشري:"أي: قبله من الكتب السماوية".

=

=

قال الواحدي:"أي: يصدق ما قبله من التوراة والإنجيل بموافقة الأخبار".

قال الطبري:"يقول: ولكنه تصديق الذي بين يديه من كتب الله التي أنزلها قبله على أنبيائه، كالتوراة والإنجيل والزبور، يصدِّق ذلك كله ويشهد عليه أنّ جميعه حق من عند الله".

وفي قوله تعالى: {وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ} [يوسف: ١١١]، وجهان:

أحدهما: أنه مصدَّق لما قبله من التوراة والإنجيل وسائر كتب الله تعالى، وهذا تأويل من زعم أنه القرآن.

قال قتادة:"فالقرآن يصدق الكتب التي قبله ويشهد عليها".

الثاني: يعني: ولكن يصدّقه ما قبله من كتب الله تعالى، وهذا قول من زعم أنه القصص.

قوله تعالى: {وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ} [يوسف: ١١١]، أي:"وبيانًا لكل ما يحتاج إليه العباد من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه وغير ذلك".

قال ابن ابي زمنين:"أي: تبيين {كل شيء} من الحلال والحرام والأحكام".

قال السمعاني:"يعني: من الحلال والحرام، والأمر والنهي، والوعد والوعيد".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وهو أيضًا تفصيل كل ما بالعباد إليه حاجة من بيان أمر الله ونهيه، وحلاله وحرامه، وطاعته ومعصيته".

قال الواحدي: أي: "يحتاج إليه من أمور الدين".

قال ابن كثير:"من تحليل وتحريم، ومحبوب ومكروه، وغير ذلك من الأمر بالطاعات والواجبات والمستحبات، والنهي عن المحرمات وما شاكلها من المكروهات، والإخبار عن الأمور على الجلية، وعن الغيوب المستقبلة المجملة والتفصيلية، والإخبار عن الرب تبارك وتعالى بالأسماء والصفات، وتنزيهه عن مماثلة المخلوقات".

=

=

عن قتادة، قوله: " {وتفصيل كل شيء}، حلاله وحرامه وطاعته ومعصيته"".

قوله تعالى: {وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ} [يوسف: ١١١].

(وهدى) أي: بيان ودلالة، أي: أي هاد لمن اتبعه وعمل بما فيه لكل خير وسعادة في الدنيا والآخرة.

- فالقرآن العظيم يطلق هداه على الهدى العام، ويطلق هداه على الهدى الخاص، فالهدى العام معناه بيان الطريق وإيضاح المحجة البيضاء، وبيان الحق من الباطل، والنافع من الضار، ومنه (وأما ثمود فهديناهم) أي: بينا الحق على لسان نبينا صالح، ومنه قوله تعالى (إنا هديناه السبيل). وأما الهدى الخاص فمعناه توفيق الله لعبده حتى يهتدي إلى ما يرضي ربه، ويكون سبب دخوله الجنة، ومنه قوله (من يهد الله فهو المهتدي).

(ورحمة) فإن العمل بكتاب الله رحمة وهداية ونور للبشرية، وبها تحصل السعادة والخير الكثير.

أي: تحصل للمؤمنين بهذا الكتاب الهداية من الضلال، وبيان الحق والباطل، والغي والرشد، ويحصل أيضا لهم به الرحمة، وهي: الخير والسعادة في الدنيا والآخرة، فينتفي عنهم بذلك الضلال والشقاء.

قال الواحدي: أي: " وهدى بيانا {ورحمة لقوم يؤمنون} يصدقون بما جاء به محمد ﷺ".

قال السمعاني:"معناه: بيان ونعمة لقوم يؤمنون".

قال ابن كثير:"تهتدي به قلوبهم من الغي إلى الرشاد، ومن الضلالة إلى السداد، ويبتغون به الرحمة من رب العباد، في هذه الحياة الدنيا ويوم المعاد".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وهو بيان أمره، ورشاده لمن جهل سبيل الحق فعمي عنه، إذا اتبعه فاهتدى به من ضلالته، {ورحمة} لمن آمن به وعمل بما فيه،

=

=

ينقذه من سخط الله وأليم عذابه، ويورِّثه في الآخرة جنانه، والخلودَ في النعيم المقيم {لقوم يؤمنون}، يقول: لقوم يصدِّقون بالقرآن وبما فيه من وعد الله ووعيده، وأمره ونهيه، فيعملون بما فيه من أمره، وينتهون عما فيه من نهيه".

عن أبي سعيد، في قوله: " {ورحمة} [يوسف: ١١١] أن جعلكم من أهل القرآن".

عن أبي العالية، في قوله: " {ورحمة} [يوسف: ١١١] قال: رحمته القرآن".

عن ابن إسحاق: " {وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} [الأعراف: ٢٠٣] أي: مغفرة لما ارتكبوا".

عن محمد بن إسحاق ايضا: " {وهدى ورحمة لقوم يؤمنون} [الأعراف: ٢٠٣] أي: مغفرة لما ارتكبوا فيه من الحدث ولما اختلفوا فيه من الحديث عنه، والقطيعة، ومعرفة بقدر الله ولطفه، وما خلص إلى يوسف ويعقوب من رحمته بعد البلاء الذي ابتلاهما به حتى رد كل واحد منهما إلى صاحبه، وعرف كل امرئ ممن بغى عليه ذنبه وجرمه، وإقرارا له بفضله وعلمه وتجاوزه وقلة تثريبه عليهم فيما صنعوا به".

- قال القرطبي: قوله تعالى (لقوم يؤمنون) خص المؤمنون لأنهم المنتفعون به.

كما قال تعالى (قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى أولئك ينادون من مكان بعيد)

وقوله (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا).

وقوله (وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيكم زادته هذه إيمانا فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون (١٢٤) وأما الذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجسا إلى رجسهم وماتوا وهم كافرون).

=

=
أما القوم الذين سبق لهم الشقاء فهو حجة عليهم يدخلون به النار.
كما قال تعالى (والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى).
(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها: غ - قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (يوسف: ٢)، وفي سورة الزخرف: (إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ) (الزخرف: ٣)، فورد (هنا) ((جعلناه)) موضع ((أنزلناه)) في الآية الأولى: فلسائل أن يسأل عن موجب هذا التخصيص لاتفاق الوارد في الآيتين لفظاً ومعنى في غير ما ذكر؟
والجواب عنه، والله أعلم: أن آية (سورة) يوسف لما كانت توطئة لذكر قصصه، عليه السلام، ولم تتضمن السورة غير ذلك إلا ما أعقب به في آخرها مما يعرف بعجيب ما تضمنته ما كان غيباً عند قريش والعرب، مستوفياً ما كان أهل الكتاب يظنون أنهم انفردوا بعلمه، فأنزل الله هذه السورة موفية من ذلك أتمة، ومعرفة من قصصه العجيب، ومؤدية أكمله وأعمه، ولا أنسب عبارة هنا من قوله تعالى: (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) ليعلم العرب والجميع أن نبينا محمداً ﷺ لم يتلق ذلك القصص من أحد من العرب، إذ لم يكن عندهم منه نبأ، ولا رحل في تعرفه إلى أحد، فكام قصصاً وآية معلماً بصحة رسالته عليه السلام، وعظيم تلك العناية، فالتعبير بالإنزال هنا (بين).
وأما آية الزخرف فلم تبن على أخبار بل أعقبت بآي الاعتبار والتلطف في التنبيه والتذكار قال تعالى: (أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحًا أَنْ كُنْتُمْ قَوْمًا مُسْرِفِينَ) (الزخرف: ٥)، وهذا أعظم التلطف، وقال تعالى بعد: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ) (الزخرف: ٩)، ثم مضت أكثر آي هذه السورة على نحو خذا الاعتبار وما يناسبه.
وقد ذكر سيبويه، رحمه الله، في أقسام جعل كونها بمعنى صير ملحقاً لها بظننت
=

=

وأخواتها ومنه وقلهم: جعل الطين خزفـًا، وذلك انتقال وتصيير فالمراد بالآية جعل الكتاب معتبراً هدى ونوراً والمنبهون به والمعتبرون بآياته المخاطبون به مخلوقون تقدمهم العدم، وإنما صح خطابهم به مشاهدة بعد وجودهم، فصح بانتقال حالهم التصيير، وجل عن التغيير والحدوث كلام الحكيم الخبير، فكرمه سبحانه قديم ليس بمخلوق فيبيد ولا صفة لمخلوق فينفد، فقد وضح معنى الجعل هنا ومسوغه، وأنه لا يناسب هنا غير ذلك، ولا يناسب الآية الأخرى غير (أنزل)، فجاء كل على ما يجب والله أعلم.

الآية الثانية من سورة يوسف عليه السلام، قوله تعالى: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (يوسف: ٢٢) وفي سورة القصص: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ) (القصص: ١٤)، للسائل أن يسأل عن ثبوت قوله: ((واستوى)) في سورة القصص ولم يثبت ذلك في سورة يوسف؟ وهل كان يمكن ورود العكس في الآيتين؟ والجواب عن ذلك: أن الأشد مختلف فيه من البلوغ إلى استكمال أربعين سنة، وقد قيل بالزيادة على الأربعين، وظاهر القرآن أن الأشد يقع على دون الأربعين لقوله تعالى: (حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً) (الأحقاف: ١٥)، فلو كان الأشد الأربعين لأدى إلى عطف الشيء على نفسه، فإنما الكلام في قوة أن لو قيل: حتى إذا بلغ أشده واستكمل وتم بالزيادة، والله أعلم، وإذا كان وقوع الأشد على ما ذكرنا، ولا يكون إلا على خال من العمر يحسن في الظبط والتدبير، والإحكام للأمور، والفهم للخطاب، وتحقيق مقادير الأمور، وهذا بِجَرْي العادة إنما ابتداؤه عند البلوغ أو قبل البلوغ، ثم يستحكم إلى الغاية التي إليها انتهاء تمام القوة واستحكام العقل، وتلك الأربعون، وعلى رأس الأربعين سنة بعث الله نبينا محمداً ﷺ، ثم أن الله سبحانه قال في قصة يحيى بن زكريا، عليه السلام: (وَآتَيْنَاهُ

=

=

الْحُكْمَ صَبِيًّا) (مريم: ١٢)، وهذا ولابد في غير (سن) الأربعين، وقال تعالى في قصة يوسف، عليه السلام، إنما ابتدئ بالوحي وسماع الكلام بعد فراره خوفاً من فرعون، قال تعالى: (فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ) (الشعراء: ٢١) وأفصحت آي القرآن أن ذلك كان بعد رجوعه وإنكاح شعيب عليه السلام إياه ابنته، ولم يخرج من مصر حتى ائتمر به للقتل وبعد وكز الذي كان من عدوه وقضائه عليه، ومجموع هذا إنما هو بخروجه، عليه السلام، عن سن الابتداء إلى استكمال الأشد وهو الاستواء، فقيل في قصته: (وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى) (القصص: ١٤) أي استكمل وانتهى إلى أحسن الحالات في السن، وأما يوسف، عليه السلام، في الوحي إليه في الجب فحاله وإن بلغ ما يسمى أشداً غير حالة الاستواء، فامتنع مجيء الاستواء في قصته وورد في قصة موسى، وكلام المفسرين إذا تؤمل وإن لم يكن إفصاحاً مشعر بهذا، فجاء كل على ما يجب، والله أعلم.

الآية الثالثة من سورة يوسف، عليه السلام، قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى) (يوسف: ١٠٩)، وفي سورة النحل (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ) (النحل: ٤٣)، وفي سورة الأنبياء: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (الأنبياء: ٧)، وفي سورة الفرقان: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) (الفرقان: ٢٠)، للسائل أن يسأل عن اختصاص هاتين الآيتين الأخيرتين بسقوط ((من)) منهما وثبوتها في الآيتين الأولين.

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية يوسف قد تقدمها قوله تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (يوسف: ١٠٦)، وقوله: (وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ

=

=

الْمُشْرِكِينَ) (يوسف: ١٠٨)، وقوة السياق في هذه الآي يدل على معنى القسم ويعطيه، فناسب ذلك زيادة ((من)) المقتضية الاستغراق، وكذلك قوله في سورة النحل: (وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ) (النحل: ٤١) يؤكد ذلك المعنى، فناسبه زيادة ((من)) لاستغراق ما تقدم من الزمان.

أما قوله تعالى في سورة الأنبياء (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (الأنبياء: ٧) فتقدم قبلها إنكار الكفار كون الرسل من البشر في قوله: (هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ) (الأنبياء: ٣)، واقتراحهم الآيات في قوله: (فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ) (الأنبياء: ٥)، فلما انطوى هذا الكلام على قضيتين: من اقتراحهم الآيات، وإنكارهم كون الرسل من البشر، وقد بين لهم حال المقترحين في قوله تعالى: (مَا آمَنَتْ قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا) (الأنبياء: ٦)، فلما تقدم هذا اتبع ببيان الطرف (الآخر) وهو التعريف بأن من تقدم من الرسل إنما كانوا رجالاً من البشر، مختصين بتخصيصه سبحانه، ولم يكونوا ملائكة، فقيل لنبينا محمد ﷺ: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ) (الأنبياء: ٧)، فقيل هنا: (قبلك) كما قيل في نظيرتها: (ما ءامنت قبلهم)، فلم تدخل هنا ((من)) كما لم تدخل في النظير (الآخر) لإحراز التناسب، والتام الجملة المنطوية على طرفي مقصدهم من الاقتراح وإنكار كون الرسل من البشر، وكذلك الوارد في سورة الفرقان في قوله تعالى: (وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِنَ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا إِنَّهُمْ لَيَأْكُلُونَ الطَّعَامَ وَيَمْشُونَ فِي الْأَسْوَاقِ) (الفرقان: ٢٠)، وإنما ورد جواباً لقولهم: (مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ) (الفرقان: ٧)، ولا داعي في هذا للقسم إذ هو جواب لقولهم، فلا داعي لورود ((من))، فورد هذا كله على أبدع نظام وأعلى تناسب، وإذا اعتبر الناظر استوضح أن كلاً من هذه الآي لا يمكن إتيانه في موضوع غيره

=

=

والله أعلـــم.

الآية الرابعة من سورة يوسف، عليه السلام، قوله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا) (يوسف: ١٠٩)، قلت: تكرر هذا الضرب من الاعتبار بأحوال من تقدم من الأمم وما أعقب المكذبين تكذيبهم في عدة مواضع، منها ما ورد فيه بعد همزة التقرير وفاء التعقيب، ومنها ما ورد بواو النسق، فأما تقديم الهمزة قبلها فلما لها من الصدرية، فلا يتقدم حرف العطف عليها، ولما جرت في هذه الآي على ما ذكرنا من تخصيص بعض هذه المواضع بالفاء المقتضية مع التشريك الترتيب والتعقيب، وبعضها بالواو المقتضية مجرد التشريك والجمع، كان ذلك مظنة سؤال، فللسائل أن يسأل عن تخصيص كل واحد من هذه المواضع بما اختص به في عطفه على ما قبله؟ فمن الوارد بالفاء آية يوسف المذكورة آنفاً وفي سورة الحج: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا) (الحج: ٤٦)، وفي آخر سورة غافر: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ...) (غافر: ٨٢)، وفي سورة القتال: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا) (محمد: ١٠)، فهذه أربع آيات مما ورد بالفاء. ومن الوارد بالواو قوله في سورة الروم: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا) (الروم: ٩)، وفي سورة الملائكة: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً)... (فاطر: ٤٤)، وفي سورة المؤمن: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ كَانُوا مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا هُمْ أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَآثَارًا فِي الْأَرْضِ) (غافر: ٢١)، فهـــــــــــــذه ثـــــــــــــلاث آيـــــــــــــات.

=

=

والجواب عن الضرب الأول: أما آية يوسف فقوله تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (يوسف: ١٠٩) مربوط بما قبله ومبني على ما تقدم كحال في جواب مبني على ما قبله، ألا ترى أن قبل الآية آيات تخويف وترهيب، كقوله تعالى: (وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ) (يوسف: ١٠٥)، ثم قال تعالى: (وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ) (يوسف: ١٠٦)، ثم قال تعالى: (أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ) (يوسف: ١٠٧)، ثم قال تعالى: (لْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي) (يوسف: ١٠٨)، ثم قال: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَى أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (يوسف: ١٠٩) فالكلام (بجملته في قوة أن لو قيل: ما أرسلنا من قبلك إلا رجالاً من البشر أمثالك فكذبوا فهلك مكذبوهم وأخذوا كل مأخذ، فإن شاء هؤلاء فليسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة (الذين من قبلهم) ممن تقدمهم، فالكلام من حيث معناه في قوة الشرط والجزاء فورد بالفاء، وليس موضع الواو، ويشهد لهذا الغرض ويبينه قوله تعالى: (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (النحل: ٣٦)، (أي) فإن شككتم فسيروا في الأرض، وعلى هذا المعنى كل ما ورد من هذا. ومن هذا القبيل آية سورة الحج، ألا ترى أن قبلها قوله تعالى: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) (الحج: ٤٢ – ٤٤)، ثم قال: ((فَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ فَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَشِيدٍ * أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (الحج: ٤٥ – ٤٦)، أي فهلا ساروا في (الأرض) قاصدين الاعتبار فعقلوا بقلوبهم وانتفعوا

=

بأسماعهم وأبصارهم، فعلى هذا المعنى لا مدخل لواو العطف هنا، وإنما الملائم الفاء لما تعطيه من السببيه والارتباط.

وأما الوارد في (آخر) سورة المؤمن فقد تقدم قبلها قوله تعالى: (وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَأَيَّ آيَاتِ اللهِ تُنْكِرُونَ) (غافر: ٨١)، ثم قال تعالى: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (غافر: ٨٢) أي فهلا ساروا في الأرض (فاعتبروا بما) في الأرض من الآيات، قال تعالى: (وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) (الذاريات: ٢٠)، فالمعنى على هذا وليس المعنى على العطف المجرد من معنى التسبب، فالموضع للفاء ولا لواو النسق.

وأما الوارد في سورة القتال فإن قبل الآية: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ (٧) وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ (٨) ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا مَا أَنْزَلَ اللهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ) (محمد: ٧ – ٩)، ثم قال: (أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (محمد: ١٠)، فالملائم هنا الفاء لما في الكلام من معنى التسبب والتخصيص المحرزين هنا ما يلائم ويناسب مرتكبهم من التوبيخ، فالموضع للفاء المقصود بها ربط الكلام بما قبله. وأما الضرب الثاني مما ورد بالواو فلعطف ذلك (على) ما قبله تشريكاً لا سببية فيه ولا معنى جوابيه ولا مقصود تعقيب ولا ربط مقصزدها من المعاني بما قبله سوى التشريك خاصة، ففي سورة الروم ورد متقدماً قبل الآية في قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى) (الروم: ٨)، فعطف على هذه عطف تشريك لا سببية فيه قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (الروم: ٩)، فتشاركت الآيتان في الحض على الاعتبار ومقصودهما واحد، فعطفت إحداهما على الأخرى بما يقتضي ذلك وليس إلا الواو، وأما الفاء وثم فلا مدخل لواحدة منهما هنا، والله أعلم.

وأما سورة الملائكة فتقدم فيها قوله: (فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ) (فاطر:

سُورَةَ الرَّعْد(١)

=

٤٣)، فأحيلوا على ما اطرد في من قبلهم من سنته تعالى فيهم، من أخذهم بتكذيبهم سنة الله التي خلت من قبل، ثم أعقب بإحالتهم على قرب منهم ممن شاهدوا آثاره وتعرفوا على قرب أخباره فقيل: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (فاطر: ٤٤)، فقوله: (فَهَلْ يَنْظُرُونَ) وقوله: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا) مسلك واحد في الاعتبار، فصل لهم بحسب بعد ما أمروا باعتبار حاله (أو قربه)، فعطف أحد السببين على الآخر مع اتحاد النوع المعتبر به، ولا يعطف مثل هذا إلا بالواو خاصة، وما سوى الواو لا يلائم ولا يناس، والله أعلم.

وأما الآية الأولى من سورة المؤمن فملحوظ فيها من نيطت به في معناها من قوله تعالى: (هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ آيَاتِهِ وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا وَمَا يَتَذَكَّرُ إِلَّا مَنْ يُنِيبُ) (غافر: ١٣)، وليس بعد هذه الآية من معناها إلا قوله تعالى: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) (غافر: ٢١)، فمن آياته تعالى التي رآها عباده ما أجراه من سنته فيمن خلا من الأمم، فوقعت الإحالة على ذلك بعطف الآية من قوله: (أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ) على ما به نيطت حسبما تقدم، ولا يناسب ذلك غير الواو. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٢٦٦-٢٧١).

(١) اختلف أهل التفسير في وقت نزول السورة على أقوال:

أحدها: أنها مكية كلها. قاله ابن عباس -في إحدى الروايات-، وابن زبير -في إحدى الروايات-، والحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وعطاء، وجابر، وقتادة - في إحدى الروايات-، وبه قال ابن قتيبة، والزمخشري، والفيروزآبادي، وابن كثير، وغيرهم.

والثاني: أنها مكية إلا آيتين منها، وهما: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا

=

=

قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَاد} [الرعد: ٣١]، وقوله: {{وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} [الرعد: ٤٣]. وهذا القول رواه أبو صالح عن ابن عباس.

الثالث: أنها مدنية كلها. وهذا قول ابن عباس -في رواية عطاء الخراساني-، وابن الزبير، و جابر بن زيد، ومقاتل، وبه قال السيوطي وعزاه القرطبي إلى الكلبي.

الرابع: أنها مدنية، إلا آية واحدة مكية، وهي قوله: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ} [الرعد: ٣١]. وهذا القول مروي عن قتادة.

الخامس: أنها مدنية، إلا آيتين منها، ثم اختلفوا في المكي منها على قولين:

أحدهما: أن الآيتين اللتين نزلتا بمكة، هما: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ} [الرعد: ٣١]، إلى آخر الآيتين. وهذا القول مروي عن ابن عباس، وقتادة.

والثاني: أن المكي منها قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} [الرعد: ١٢]، وقوله تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [الرعد: ١٤]. حكاه ابن الجوزي عن بعضهم.

قال ابن عطية:"الظاهر- عندي- أن المدني فيها كثير، وكل ما نزل في شأن عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة فهو مدني".

قال ابن عاشور:"أشبه آياتها بأن يكون مدنيا".

* عدد آياتها سبع وأَربعون عند الشاميّين، وثلاث عند الكوفيّين، وأَربع عند الحجازيّين، وخمس عند البصريّين. وكلماتها ثمان مائة وخمس وستون. وحروفها ثلاثة آلاف وخمسمائة وستَّة أَحرف.

=

=

والآيات المختلف فيها خمس: (جديد، النور، البصير، وسُوءُ الحساب، من كل باب).

وفواصل آياتها يجمعها قولك (نقر دِعْبل) منها على العين آية واحدة {إِلاَّ مَتَاعَ} وما على النون فقبل النون واوٌ، وسائر الآيات الَّتى على الباءِ فقبلها أَلف؛ نحو مآب، متاب، سوى (القلوب)؛ فقبلها واوٌ.

* تسمى «سورة الرعد» وهو الاسم الذي اشتهرت به من عهد السلف، وذلك يدل على أنها مسماة بذلك من عهد الرسول-ﷺ-، إذ لم يختلفوا في اسمها.

ووجه تسميتها بسورة «الرعد»، لورود ذكر الرعد فيها، وذلك في قوله تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [الرعد: ١٣].

قال ابن عاشور:"وإنما سميت بإضافتها إلى «الرعد» لورود ذكر الرعد فيها بقوله تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ} [الرعد: ١٣]، فسميت بالرعد، لأن الرعد لم يذكر في سورة مثل هذه السورة".

* مقصود السّورة: بيان حُجّة التوحيد فى تخليق السّماوات والأَرض، واستخراج الأَنهار والأَشجار والثمار، وتهديدُ الكفَّار، ووعيدُهم، وذكر تخليق الأَولاد فى أَرحام الأُمهات، على تباين الدّرجات، ومع النقصان والزِّيادات، فى الأَيّام والسّاعات، واطِّلاع الحقِّ تعالى على بواطن الأَسرار، وضمائر الأَخيار والأَشْرار، وذكر السّحاب، والرّعد، والبرق، والصّواعق، والانتظار. والرّدّ على عبادة الأَصنام، وقصّة نزول القرآن من السّماءِ، والوفاءُ بالعهد، ونقض المِيثاق، ودخول الملائكة بالتسليم على أَهل الجنان، وأُنْس أَهل الإِيمان، بذكر الرّحمة، وبيان تأْثير القرآن، فى الآثار والأَعيان، وكون عاقبة أَهل الإِيمان إِلى الجنَان، ومقرّ مرجع الكفَّار إِلى النِّيران، والمحو والإِثبات فى اللَّوح بحسب مَشيئة الديّان، وتقدير

=

=

الحقِّ فى أَطراف الأَرض بالزِّيادة والنقصان، وتقرير نبوّة المصطفى بنزول الكتاب، وبيان القرآن فى قوله: {وَيَقُوْلُ الَّذِيْنَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلاً} إلى آخر السّورة.

* المتشابهات: قوله: {كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُّسَمًّى}، وفى لقمان: {إِلَى أَجَلٍ} لا ثانى له، لأَنَّك تقول فى الزَّمان: جَرَى ليوم كذا، وإِلى يوم كذا، والأَكثر اللام؛ كما فى هذه السّورة، وسورة الملائكة. وكذلك فى يس {تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍ لَهَا}؛ لأَنَّه بمنزلة التَّاريخ؛ تقول: كتبت لثلاث بَقِين من الشهر، وآتِيك لخمس تبقى من الشَّهر. وأَما فى لقمان فوافق ما قبلها، وهو قوله: {وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللهِ}، والقياس: لله؛ كما فى قوله: {أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ للهِ} لكنَّه حُمل على المعنى، أَى يَقصد بطاعته إِلى الله، كذلك: يجرى إِلى أَجل مسمّى، أَى يجرى إِلى وقته المسمّى له.

قوله: {إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} وبعدها {إِنَّ فِي ذلك لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}؛ لأَنَّ بالتفكُّر فى الآيات يعقل ما جعلت الآيات دليلاً له؛ فهو الأَوّل المؤدّى إِلى الثَّانى.

قوله: {وَيَقُولُ الذين كَفَرُوا لولا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ} هاهنا موضعان. وزعموا أَنَّه لا ثالث لهما. ليس هذا بتكرار محض؛ لأَنَّ المراد بالأَوّل آية ممّا اقترحُوا؛ نحو ما فى قوله: {لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حتى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرض} الآيات وبالثانى آية مَّا، لأَنهم لم يهتدوا إِلى أَن القرآن آية فوق كلِّ آية، وأَنكروا سائر آياته ﷺ.

قوله: {وَللهِ يَسْجُدُ مَن فِي السماوات والأرض} وفى النحل {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السماوات وَمَا فِي الأرض مِن دَآبَّةٍ والملائكة} وفى الحجّ {أَنَّ الله يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السماوات وَمَن فِي الأرض والشمس والقمر والنجوم}؛ لأَنَّ فى هذه السّورة تقدّم آية السّجدة ذكرُ العُلْويّات: من البرق والسّحاب والصواعق، ثمّ ذِكر الملائكة وتسبيحهم، وذَكر بأَخرة الأَصنام والكفَّار، فبدأَ فى آية السّجدة بذكر من فى السّماوات لذلك، وذَكَر الأَرض تبعًا، ولم يذكر مَن فيها؛ استخفافًا بالكفَّار

=

=

والأَصنام. وأَمّا فى الحجّ فقد تقدّم ذكر المؤْمنين وسائر الأَديان، فقدّم ذكر مَن فى السّماوات؛ تعظيما لهم ولها، وذكر مَن فى الأَرض؛ لأَنهم هم الّذين تقدّم ذكرهم. وأَمّا فى النَّحل فقد تقدّم ذكرُ ما خلق الله على العموم، ولم يكن فيه ذكر الملائكة، ولا الإِنس تصريحـًا، فنصّت الآية ما فى السّماوات وما فى الأَرض؛ فقال فى كلِّ آية ما ناسبها.

قوله: {نَفْعـًا وَلاَ ضَرّاً} قد سبق.

قوله: {كذلك يَضْرِبُ الله} ليس بتكرار؛ لأَنَّ التقدير: كذلك يضرب الله للحقِّ والباطل الأَمثال، فلمّا اعترض بينهما (فأَمّا) و (أَمّا) وطال الكلام أَعاد، فقال: {كذلك يَضْرِبُ الله الأَمْثَالَ}.

قوله: {لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الأرض جَمِيعـًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لاَفْتَدَوْا بِهِ} وفى المائدة {لِيَفْتَدُوا بِهِ}؛ لأَن (لو) وجوابها يتَّصلان بالماضى، فقال: فى هذه السّورة {لاَفْتَدَوْا بِهِ} وجوابه فى المائدة {مَا تُقُبِّلَ مِنْهُمْ} وهو بلفظ الماضى، وقوله: {لِيَفْتَدُوا به} عِلَّة، وليس بجواب.

قوله: {مَآ أَمَرَ الله بِهِ أَن يُوصَلَ} فى موضعين: هذا ليس بتكرار؛ لأَنَّ الأَوّل متَّصل بقوله: (يَصِلُون) وعطف عليه (ويخْشَوْن)، والثَّانى متَّصل بقوله: (يقطعون) وعطف عليه (يفسدون).

قوله: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ} ومثله فى المؤمنين ليس بتكرار. قال ابن عباس: عَيّروا رسول الله ﷺ باشتغاله بالنِّكاح والتَّكثُّر منه فأَنزل الله تعالى {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجـًا وَذُرِّيَّةً} فكان المراد من الآية قوله: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجـًا وَذُرِّيَّةً} بخلاف ما فى المؤمنين؛ فإِنَّ المراد منه: لست ببدْع من الرسل {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ}.

=

مَكِّيَّة إِلَّا {وَلَا يَزَال الَّذِينَ كَفَرُوا} الْآيَة {ويقو الذين كفروا لست مُرْسَلًا} الْآيَة أَوْ مَدَنِيَّة إِلَّا {وَلَوْ أَنَّ قرآنا} الآيتين ٤٣ أو ٤٤ أو ٤٥ أو ٤٦ الآية.

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١).

{المر} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِذَلِك(٢). {تِلْكَ} هَذِهِ الْآيَات {آيَات الْكِتَاب} الْقُرْآن وَالْإِضَافَة بِمَعْنَى مِنْ {وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْك مِنْ رَبّك} أَيْ الْقُرْآن مُبْتَدَأ خَبَره {الْحَقّ} لَا شَكّ فِيهِ {وَلَكِنَّ أَكْثَر النَّاس} أَيْ أَهْل مَكَّة {لَا يُؤْمِنُونَ} بِأَنَّهُ مِنْ عِنْده تَعَالَى(٣).

=

قوله: {وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ} مقطوع، وفى سائر القرآن: (وإمّا) موصول. وهو من الهجاءِ: (إِن) و (ما) وذكر فى موضعين. بصائر ذوي التمييز (١/ ٢٦٢-٢٦٧).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

(٣) قوله تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} [الرعد: ١]، أي:"هذه آيات القرآن المعجز، الذي فاق كل كتاب".

وفي قوله تعالى: {المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} [الرعد: ١]، أربعة وجوه:

أحدها: الزبور، وهو قول مطر.

الثاني: التوراة والزبور. رواه أبو بكر عن الحسين.

الثالث: التوراة والإنجيل والزبور. قاله قتادة.

=

=

الرابع: التوراة والإنجيل، قاله مجاهد.

قوله تعالى: {وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ} [الرعد: ١]، أي:"والذي أوحي إليك يا محمد في هذا القرآن هو الحق الذي لا يلتبس بالباطل، ولا يحتمل الشك والتردّد".

قال الطبري:"القرآن، فاعمل بما فيه واعتصم به".

قال الزجاج:"أي: والقرآن المنزل عليك الحق".

قال الثعلبي:"يعني: وهذا القرآن الذي أنزل إليك من ربك هو الحق فاعتصم به واعمل بما فيه".

عن قتادة قوله: " {والذي أنزل إليك من ربك}، هذا القرآن". وروي عن مجاهد نحوه.

عن أبي بكر عن الحسين: " {والذي أنزل إليك من ربك الحق}، قال: القرآن الحق كله".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ} [الرعد: ١]، أي:"ومع وضوحه وجلائه كذّب به أكثر الناس".

قال الطبري:"ولكن أكثر الناس من مشركي قومك لا يصدقون بالحقّ الذي أنزل إليك من ربك، ولا يقرّون بهذا القرآن وما فيه من محكم آيه".

قال ابن كثير:"أي: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق".

وفي المراد بـ {أكثر الناس}، قولان:

أحدهما: أكثر اليهود والنصارى، لأن أكثرهم لم يسلم.

وقال مقاتل:"يعني: أكثر كفار".

الثاني: أكثر الناس في زمان رسول الله -ﷺ-.

=

اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢).

{الله الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَات بِغَيْرِ عَمَد تَرَوْنَهَا} أَيْ الْعَمَد جَمْع عِمَاد وَهُوَ الْأُسْطُوَانَة وَهُوَ صَادِق بِأَنْ لَا عَمَد أَصْلًا {ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْش} اسْتِوَاء يَلِيق بِهِ {وَسَخَّرَ} ذَلَّلَ {الشَّمْس وَالْقَمَر كُلّ} مِنْهُمَا {يَجْرِي} فِي فَلَكه {لِأَجَلٍ مُسَمًّى} يَوْم الْقِيَامَة {يُدَبِّر الْأَمْر} يَقْضِي أَمْر مُلْكه {يُفَصِّل} يُبَيِّن {الْآيَات} دِلَالَات قُدْرَته {لَعَلَّكُمْ} يَا أَهْل مَكَّة {بِلِقَاءِ رَبّكُمْ} بِالْبَعْثِ {توقنون}[1].

=

قال ابن عباس:"يريد أهل مكة، لا يؤمنون".

(١) قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} [الرعد: ٢].

" يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه أنه الذي بإذنه وأمره رفع السموات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعدا لا تنال ولا تدرك مداها".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الله، يا محمد، هو الذي رفع السموات السبع بغير عَمَد ترونها، فجعلها للأرض سقْفًا مسموكًا، و"العَمَد" جمع"عمود"، وهي السَّواري، وما يعمد به البناء، كما قال النابغة:

وَخَيِّسِ الجِنَّ إِنِّي قَدْ أذِنْتُ لَهُمْ ... يَبْنُون تَدْمُرَ بِالصُّفَّاحِ وَالعَمَدِ".

قال القرطبي:"لما بين تعالى أن القرآن حق، بين أن من أنزله قادر على الكمال، فانظروا في مصنوعاته لتعرفوا كمال قدرت".

قال ابن كثير:"يخبر الله تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذي بإذنه وأمره رَفَع السماوات بغير عمَد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بُعدًا

=

=

لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها في نفسها مسيرة خمسمائة عام. ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطة بالثانية، بما فيها، وبينها وبينها خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال الله تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الطلاق: ١٢] وفي الحديث: «ما السماواتُ السبع وما فيهنّ وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فَلاة، والكرسي في العرش كتلك الحلقة في تلك الفلاة»، وفي رواية: «والعرش لا يقدر قدره إلا الله، ﷻ، وجاء عن بعض السلف أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء»".

وفي قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا} [الرعد: ٢]، وجهان:

أحدهما: يعني بِعُمد لا ترونها، قاله ابن عباس، ومجاهد.

قال ابن عباس: "لها عمد على جبل قاف".

قال القرطبي:"على هذا القول: العمد قدرته التي يمسك بها السماوات والأرض، وهي غير مرئية لنا".

وقال ابن عباس:"هي توحيد المؤمن. أعمدت السماء حين كادت تنفطر من كفر الكافر، ذكره الغزنوي".

=

=

ومن تأوَّل ذلك كذلك، قصد مذهب تقديم العرب الجحدَ من آخر الكلام إلى أوله، كقول ابن هرمة:

وَلا أَرَاهَا تَزَالُ ظَالِمَةً   تُحْدِثُ لِي نَكْبَةً وتَنْكَؤُهَا

يريد: أراها لا تزال ظالمة، فقدم الجحد عن موضعه من "تزال"، وكما قال الآخر:

إِذَا أَعْجَبَتْكَ الدَّهْرَ حَالٌ مِنَ امْرِئٍ   فَدَعْهُ وَوَاكِلْ حَالَهُ وَاللَّيَالِيَا

يَجِئْنَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ صَالِحٍ بِهِ   وَإِنْ كَانَ فِيما لا يَرَى النَّاسُ آلِيَا

يعني: وإن كان فيما يرى الناس لا يألو.

الثاني: أنها مرفوعة بغير عمد، قاله قتادة، وإياس بن معاوية.

قال الخازن: في قوله: (ترونها) قولان:

أحدهما: أن الرؤية ترجع إلى السماء يعني: وأنتم ترون السماوات مرفوعة بغير عمد من تحتها يعني ليس من دونهما دعامة تدعمها ولا من فوقها علاقة تمسكها، والمراد نفي العمد بالكلية.

قال إياس بن معاوية: السماء مقبية على الأرض مثل القبة، وهذا قول الحسن وقتادة و جمهور المفسرين.

والعمد: جمع عماد، وهو ما تقام عليه القبة أو البيت.

والقول الثاني: إن الرؤية ترجع الى العمد، والمعنى أن لها عمدا ولكن لا ترونها أنتم.

والقول الأول أصح كما تقدم.

قال قتادة:"رفعها بغير عمد".

قال إياس بن معاوية:"السماء مقببة على الأرض مثل القبة".

قال الزجاج:"لما ذكر أنهم لا يؤمنون عرف الدليل الذي يوجب التصديق بالخالق

="

=

ﷻ - فقال: {الله الذي رفع السماوات بغير عمد}، وفي ذلك من القدرة والدلالة ما لا شيء أوضح منه أن السماء محيطة بالأرض متبرية منها، {بغير عمد}: والمعنى: بغير عمد وأنتم ترونها كذلك، ويجوز أن تكون: {ترونها} من نعت «العمد»، المعنى: بغير عمد مرئية، وعلى هذا تعمدها قدرة الله ﷻ".

وفي رفع السماء وجهان:

أحدهما: رفع قدرها وإجلال خطرها، لأن السماء أشرف من الأرض.

الثاني: سمكها حتى علت على الأرض.

قوله تعالى: (ثم استوى على العرش) أي: علا وارتفع على العرش، وأما كيفية ذلك فالله أعلم بكيفيته.

والعرش: ذلك السقف المحيط بالمخلوقات، وهو من أعظم المخلوقات.

وفي هذه الآية إثبات أن الله مستو على عرشه، وهذا معتقد أهل السنة والجماعة، استواء يليق بجلاله من غير تكييف.

وقد ذكر الله استوائه على العرش في سبع مواضع من القرآن.

قوله تعالى: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ} [الرعد: ٢]، أي:"وذلَّل الشمس والقمر لمنافع العباد".

قال الطبري:"يقول: وأجرى الشمس والقمر في السماء، فسخرهما فيها لمصالح خلقه، وذلَّلَهما لمنافعهم، ليعلموا بجريهما فيها عدد السنين والحساب، ويفصلوا به بين الليل والنهار".

- قال السعدي رحمه الله: وتسخيره للشمس والقمر، يجريان بتدبير ونظام، لم يختل منذ خلقهما، لقيم بذلك من مصالح العباد ومنافعهم في دينهم ودنياهم، ما به يعتبرون وينتفعون.

- والاقتصار على الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب وأعظم من غيرهما،

=

=

فتسخير غيرهما يكون بطريق الأولى. وقد جاء التصريح بتسخيرهما مع غيرهما في قوله تعالى (والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر).

قوله تعالى: {كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى} [الرعد: ٢]، أي:"كلٌّ منهما يدور في فلكه إلى يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: كل ذلك يجري في السماء لوقت معلوم، وذلك إلى فناء الدنيا وقيام القيامة التي عندها تكوَّر الشمس، ويُخْسف القمر، وتنكدر النجوم".

عن مجاهد: " {وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمّى}، قال: الدنيا".

قال عكرمة:"سعة الشمس سعة الأرض كلها، وزيادة ثلث، وسعة القمر سعة الأرض مرة، وإن الشمس إذا غربت دخلت تحت العرش، فسبحت لله، حتى إذا هي أصبحت استعفت ربها من الخروج، فقال لها الرب: «ولم ذاك والرب أعلم» فقالت: إني إذا خرجت عبدت، فقال لها الرب: «اخرجي فليس عليك من ذلك شيء حسبهم جهنم، أبعثها عليهم مع ثلاثة عشر ألف ملك يقودونها حتى يدخلوهم فيها»".

قوله تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ} [الرعد: ٢]، أي:"يدبِّر سبحانه أمور الدنيا والآخرة".

قال الزجاج: أي:"يحكمه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: يقضي الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها أمورَ الدنيا والآخرة كلها، ويدبِّر ذلك كله وحده، بغير شريك ولا ظهير ولا معين سُبْحانه".

قال ابن كثير:"أي: يدبر أمر الخلائق، {لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ} [سبأ: ٣]، ولا يشغله شأن عن شأن، ولا تغلّطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين ولا يلهيه تدبير الكبير عن الصغير، في الجبال والبحار والعمران

=

وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣).

{وَهُوَ الَّذِي مَدَّ} بَسَطَ {الْأَرْض وَجَعَلَ} خَلَقَ {فِيهَا رَوَاسِيَ} جِبَالًا ثَوَابِت {وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلّ الثَّمَرَات جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} مِنْ كُلّ نَوْع {يُغْشِي}

=

والقفار، {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [هود: ٦]. {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ} [الأنعام: ٥٩]".

عن مجاهد قوله: " {يدبر الأمر}، قال: يقبضه وحده".

قوله تعالى: {يُفَصِّلُ الْآيَاتِ} [الرعد: ٢]، أي:"يوضح لكم الآيات الدالة على قدرته وأنه لا إله إلا هو".

قال الزجاج:"أي: يبين الآيات التي تدل على قدرته على بعثكم".

قال الطبري:"يقول: يفصل لكم ربُّكم آيات كتابه، فيبينها لكم احتجاجًا بها عليكم، أيها الناس".

عن السدي: " {يفصل الآيات}، أما «نفصل»: فنبين".

قوله تعالى: {لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} [الرعد: ٢]، أي:"لتوقنوا بالله والمعاد إليه، فتصدقوا بوعده ووعيده وتُخْلصوا العبادة له وحده".

قال الطبري:"يقول: لتوقنوا بلقاء الله، والمعاد إليه، فتصدقوا بوعده ووعيده، وتنزجروا عن عبادة الآلهة والأوثان، وتخلصوا له العبادة إذا أيقنتم ذلك".

قال الزجاج:"لأنهم كانوا يجحدون البعث، فاعلموا أن الذي خلق السماوات وأنشأ الإنسان ولم يكن شيئا، قادر على إعادته".

عن قتادة: " {لعلكم بلقاء ربكم توقنون}، وإن الله تبارك وتعالى إنما أنزل كتابه وأرسل رسله، لنؤمن بوعده، ونستيقن بلقائه".

يُغَطِّي {اللَّيْل} بِظُلْمَتِهِ {النَّهَار إنَّ فِي ذَلِك} الْمَذْكُور {لَآيَات} دِلَالَات عَلَى وَحْدَانِيّته تَعَالَى {لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} فِي صُنْع الله.

وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤).

{وَفِي الْأَرْض قِطَع} بِقَاع مُخْتَلِفَة {مُتَجَاوِرَات} مُتَلَاصِقَات فَمِنْهَا طَيِّب وَسَبْخ وَقَلِيل الرِّيع وَكَثِيره وَهُوَ مِنْ دَلَائِل قُدْرَته تَعَالَى {وَجَنَّات} بَسَاتِين {مِنْ أَعْنَاب وَزَرْع} بِالرَّفْعِ عَطْفًا عَلَى جَنَّات وَالْجَرّ عَلَى أَعْنَاب وَكَذَا قَوْله {وَنَخِيل صِنْوَان} جَمْع صِنْو وَهِيَ النَّخَلَات يَجْمَعهَا أَصْل وَاحِد وَتَتَشَعَّب فروعها {وغير صنوان} منفردة {تسقى} بِالتَّاءِ أَيْ الْجَنَّات وَمَا فِيهَا وَالْيَاء أَيْ الْمَذْكُور {بِمَاءٍ وَاحِد وَنُفَضِّل} بِالنُّونِ وَالْيَاء {بَعْضهَا عَلَى بَعْض فِي الْأُكُل} بِضَمِّ الْكَاف وَسُكُونهَا فَمِنْ حُلْو وَحَامِض وَهُوَ مِنْ دَلَائِل قُدْرَته تَعَالَى {إنَّ فِي ذَلِك} الْمَذْكُور {لَآيَات لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} يتدبرون[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ} [الرعد: ٣]، أي:"وهو سبحانه الذي جعل الأرض متسعة ممتدة، وهيأها لمعاشكم".

أي: أن الله بسط الأرض طولا وعرضا إلى المدى الذي لا يدركه البصر، ليتيسر الاستقرار عليها.

وقد وصفها الله بصفات أخرى: كلها تدل على أن الله جعلها مستقرة ثابتة ممهدة فراشا.

فقال تعالى (الذي جعل لكم الأرض فراشا والسماء بناء وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون).

=

=

وقال تعالى (والأرض مددناها).

وقال تعالى (الذي جعل لكم الأرض مهدا).

وقال تعالى (والأرض فرشناها فنعم الماهدون).

وقال تعالى (الله الذي جعل لكم الأرض قرارا) والمراد بالقرار: أنها لا تميد بساكنيها، أي لا تضطرب كما قال تعالى (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا)

(قرارا) مستقرا بالدحو والتسوية. (مددناها) بسطناها ووسعناها (مهدا) كالفراش الذي يوطأ للصبي.

وهذه من أعظم النعم أن جعل سبحانه الأرض فراشا ومهادا.

- قال ابن القيم: وإذا نظرت إلى هذه الأرض وكيف خلقت؟ رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذللها لعباده.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله الذي مَدَّ الأرض، فبسطها طولا وعرضًا".

قال الزجاج:"روي في التفسير أنها كانت مدورة فمدت، ومعناه بسط الأرض".

عن الأوزاعي، قال: قال عبد الله بن عمرو: "الدنيا مسيرة خمسمائة عام أربع مائة خراب، ومائة عمران ، في أيدي المسلمين مدة ذلك مسيرة سنة".

قال وهب بن منبه: "ما العمارة في الدنيا في الخراب إلا كفسطاط في الصحراء".

قوله تعالى: {وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا} [الرعد: ٣]، أي:"وجعل فيها جبالا تُثبِّتُها وأنهارًا لشربكم ومنافعكم".

أي: وجعل في هذه الأرض جبالا ثوابت راسخات، لتمسكها من الاضطراب.

كما قال تعالى (وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون).

وقال تعالى (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم).

=

=

وقال تعالى (والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون).

وقال تعالى (أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل لها رواسي).

(وأنهارا) الأنهار: جمع نهر، وهو مجرى الماء الفائض، ويطلق على الماء السائل على الأرض.

أي: وجعل فيها -أيضا- أنهارا، لينتفع الناس والحيوان وغيرهما بمياه هذه الأنهار.

كما قال تعالى (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون).

قال الزجاج:"أي: جبالا ثوابت".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: وجعل في الأرض جبالا ثابتة... [و] أنهارًا من ماء، و «الرواسي»: جمع «راسية»، وهي الثابتة، يقال منه: أرسيت الوتد في الأرض: إذا أثبته، كما قال الشاعر:

بِهِ خَالِدَاتٌ مَا يَرِمْنَ وهَامِدٌ وَأَشْعَثُ أرْسَتْهُ الوَلِيدَةُ بِالفِهْرِ

يعني: أثبتته".

عن قتادة، قوله: " {رواسي}، أي: جبال".

عن عطاء، قال: "أول جبل وضع على الأرض أبو قبيس".

قوله تعالى: {وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ} [الرعد: ٣].

أي: وجعل فيها كذلك من كل نوع من أنواع الثمرات ذكرا وأنثى.

قال صاحب الكشاف: أي خلق فيها من جميع أنواع الثمرات زوجين زوجين حين مدها، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوعت.

وقيل: أراد بالزوجين: الأسود والأبيض، والحلو والحامض، والصغير والكبير،

=

=

وما أشبه ذلك من الأوصاف المختلفة.

قال الزجاج:"جعل فيها نوعين، والزوج الواحد الذي ليس له قرين".

قال الطبري:"عنى بقوله: {زوجين اثنين}، نوعين وضربين".

قال ابن عباس:"ليس في الأرض ماء إلا ماء نزل من السماء ولكن عروقا في الأرض تغير ممن أراه أن يعود الملح عذبا فليصعد الماء من الأرض".

قوله تعالى: {يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ} [الرعد: ٣]، أي:"وجعل الليل يغطي النهار بظلمته".

كما قال تعالى (يغشي الليل النهار يطلبه حثيثا).

- قال الآلوسي: وقوله تعالى (يغشي الليل النهار) أي: يغطيه به، يعني أنه تعالى يأتي بالليل على النهار، فيغطيه ويلبسه، حتى يذهب بنوره، ويصير الجو مظلما، بعد ما كان مضيئا.

- وقال ابن عاشور: والإغشاء والتغشية: جعل الشيء غاشيا، والغشي والغشيان حقيقته التغطية والغم.

أي: يذهب ظلام هذا بضياء هذا، وضياء هذا بظلام هذا، وكل منهما يطلب الآخر طلبا حثيثا، أي: سريعا لا يتأخر عنه، بل إذا ذهب هذا جاء هذا، وإذا جاء هذا ذهب هذا، كما قال تعالى (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم * والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم * لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون). قوله (ولا الليل سابق النهار) أي: لا يفوته بوقت يتأخر عنه، بل هو في أثره لا واسطة بينهما. (تفسير ابن كثير).

قال الشنقيطي: ومعنى (يغشي الليل النهار) العرب تقول: أغشاه الشيء يغشيه. إذا جعله غشاء له وساترا ومغطيا له. معناه: يجعل الليل مغشيا للنهار، أي: مغطيا

=

ضوء النهار بظلامه، يذهب بضوء النهار ويغطي ضوءه بظلام الليل.
وهذا من غرائب صنعه وعجائب آياته. وفي الآية محذوف دل المقام عليه، أي: ويغشي النهار الليل أيضا، فيأتي ضوء النهار ويغشى ظلام الليل فيذهبه ويحل محله، كما قال: (وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون (٣٧) والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم) فالإتيان بالليل بدل النهار والإتيان بالنهار بدل الليل من أعظم آيات الله – جل وعلا – الدالة على أنه المعبود وحده، وأنه الرب وحده، ومع كون الليل والنهار آيتين فهما أيضا نعمتان عظيمتان من أعظم نعم الله على خلقه، فهما جامعان بين كونهما آيتين وكونهما نعمتين، وبين أنهما آيتان بقوله (ومن آياته الليل والنهار) وبين أنهما نعمتان وآيتان في مواضع كثيرة من أصرحها سورة القصص حيث قال فيها: (قل أرأيتم إن جعل الله عليكم الليل سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بضياء أفلا تسمعون (٧١) قل أرأيتم إن جعل الله عليكم النهار سرمدا إلى يوم القيامة من إله غير الله يأتيكم بليل تسكنون فيه أفلا تبصرون) ثم بين أنهما نعمتان بعد بيان أنهما آيتان قال: (ومن رحمته جعل لكم الليل والنهار لتسكنوا فيه) يعني النهار.
فجعل الليل مظلما مناسبا للسكون والهدوء وعدم الحركة ليستريح الناس من كد الأعمال والتعب في النهار، ثم يجعل النهار مضيئا منيرا مناسبا لبث الناس في حوائجهم واكتساب معايشهم في نور ساطع من غير فتيلة ولا زيت ولا حاجة إلى مؤنة.
قال الطبري:"يقول: يجلِّل الليلُ النهارَ فيلبسه ظلمته، والنهارُ الليلَ بضيائه".
قال قتادة:"أي: يلبس الليل النهار".
قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ} [الرعد: ٣].
أي: إن في ذلك الذي فعله الله تعالى من بسط الأرض طولا وعرضا ومن تثبيتها

=

بالرواسي، ومن شقها بالأنهار... لآيات باهرة، ودلائل ظاهرة على قدرة الله تعالى ورحمته بعباده، لقوم يحسنون التفكر، ويطيلون التأمل في ملكوت السموات والأرض.

قال الطبري: أي:"إن فيما وصفت وذكرت من عجائب خلق الله وعظيم قدرته التي خلق بها هذه الأشياء، لَدلالات وحججًا وعظات، لقوم يتفكرون فيها، فيستدلون ويعتبرون بها، فيعلمون أن العبادة لا تصلح ولا تجوز إلا لمن خلقها ودبَّرها دون غيره من الآلهة والأصنام التي لا تقدر على ضر ولا نفع ولا لشيء غيرها، إلا لمن أنشأ ذلك فأحدثه من غير شيء تبارك وتعالى، وأن القدرة التي أبدع بها ذلك، هي القدرة التي لا يتعذَّر عليه إحياء من هلك من خلقه، وإعادة ما فني منه وابتداع ما شاء ابتداعَه بها".

عن سعيد بن جبير، قوله: {إن في ذلك لآيات}، قال: هو الرجل يبعث بخاتمه إلى أهله".

عن سالم بن عبد الله بن عمر عن أبيه قال: قال رسول الله ﷺ:"تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله".

قوله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ} [الرعد: ٤]، أي:"في الأرض بقاعٌ مختلفةٌ متلاصقات قريبٌ بعضها من بعض".

وليس هذا الوصف مقصودا لذاته، بل المقصود أنها مع تجاورها وتقاربها مختلفة في أوصافها مما يشهد بقدرة الله- تعالى- العظيمة.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وفي الأرض قطع منها متقاربات متدانيات، يقرب بعضها من بعض بالجوار، وتختلف بالتفاضل مع تجاورها وقرب بعضها من بعض، فمنها قِطْعة سَبَخَةٌ لا تنبت شيئًا في جوار قطعة طيبة تنبت وتنفع".

قال ابن كثير:"أي: أراضٍ تجاور بعضها بعضا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به

=

=

الناس، وهذه سَبَخة مالحة لا تنبت شيئا.. وكذا يدخل في هذه الآية اختلاف ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه".

عن قتادة قوله: " {متجاورات}، أي: قريب بعضها من بعض".

وفي قوله تعالى: {وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ} [الرعد: ٤]، وجهان:

أحدهما: أن المتجاورات المدن وما كان عامراً، وغير المتجاورات الصحارى وما كان غير عامر.

وقال قتادة:"قُرًى قَرُبت متجاورات بعضها من بعض".

عن أبي عياض: " {قطع متجاورات}، قال: قرى".

الثاني: أي متجاورات في المدى، مختلفات في التفاضل. وفيه وجهان:

أحدهما: أن يتصل ما يكون نباته مراً.

الثاني: أن تتصل المعذبة التي تنبت بالسبخة التي لا تنبت، قاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك.

قال ابن عباس:"يريد بذلك الطيبة العذبة التي تخرج نباتها بإذن ربها، تجاورها السبخة القبيحة المالحة التي لا تخرج وهما أرض واحدة وماؤهما شيء ملح عذب. ففضلت إحداهما على الأخرى في الأكل".

وعن مجاهد:"{وفي الأرض قطع متجاورات}، قال: ملح وعذوبة".

قوله تعالى: {وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ} [الرعد: ٤]، أي:"وفي الأرض الطيبة بساتين من أعناب".

قوله تعالى: {وَزَرْعٌ} [الرعد: ٤]، أي:"وجعل فيها زروعًا مختلفة".

=

=

قوله تعالى: {وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ} [الرعد: ٤]، أي:"ونخيلا مجتمعًا في منبت واحد، وغير مجتمع فيه".

وفي قوله تعالى: {وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ} [الرعد: ٤]، أربعة أقوال:

أحدها: أن «الصنوان»: المجتمع، و «غير الصنوان»: المفترّق (غير مجتمع). وهذا قول البراء، وسعيد بن جبير، وبه قال ابن جرير الطبري. قال الشاعر:

العلم والحلم خُلّتا كرَمٍ للمرءِ زين إذا هما اجتمعا

صنوانٍ لا يستتم حسنها إلا بجمع ذا وذاك معا

عن البراء: {صنوان} :النخلتين الملتزقتين"، " {وغير صنوان} : المتفرق".

الثاني: أن «الصنوان»: النخلات يكون أصلها واحداً، و «غير الصنوان»: أن تكون أصولها شتى، قاله ابن عباس، والبراء بن عازب، ومجاهد، والضحاك، وقتادة.

قال ابن عباس:"يعني: بالـ «صنوان»: النخلة يخرج من أصلها النخلات، فيحمل بعضه ولا يحمل بعضه، فيكون أصله واحدا ورءوسه متفرقة".

قال قتادة:"أما «الصنوان»: فالنخلتان والثلاث أصولُهن واحدة وفروعهن شتى، «وغير صنوان»: النخلة الواحدة".

قال ابن زيد:"«الصنوان»: النخلتان أو الثلاث يكنَّ في أصل واحد، فذلك يعدُّه الناس صنوانًا".

عن معمر قال: حدثني رجل: "أنه كان بين عمر بن الخطاب وبين العباس قول، فأسرع إليه العباس، فجاء عمر إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ألم تر عباسًا فعل بي وفعل! فأردت أن أجيبه، فذكرتُ مكانه منك فكففت: فقال: يرحمك الله، إنّ عمّ الرجل صِنْوُ أبيه".

عن مجاهد: أن النبي ﷺ قال: "لا تؤذوني في العباس فإنه بقية آبائي، وإنّ عمّ الرجل صنو أبيه".

=

=

الثالث: أن «الصنوان»: الأشكال، و «غير الصنوان»: المختلف، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين.

الرابع: أن «الصنوان»: الفسيل يقطع من أمهاته، وهو معروف، و «غير الصنوان»: ما ينبت من النوى، وهو غير معروف حتى يعرف، وأصل النخل الغريب من هذا، قاله علي بن عيسى.

وقرأ قرأ عاصم فى رواية أبى بكر ونافع وابن عامر وحمزة والكسائى: «وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صنوان غير صنوان» بالخفض عطفًا بذلك على «الأعناب»، بمعنى: وفي الأرض قطعٌ متجاوراتٌ، وجناتٌ من أعناب ومن زرع ونخيل.

قوله تعالى: {يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ} [الرعد: ٤]، أي:"يسقى كل ما ذكر من القطع والجنات والزرع والنخيل بماء واحد لا اختلاف في طبعه".

قال مجاهد:"ماء السماء، كمثل صالح بني آدم وخبيثهم أبوهم واحد".

قوله تعالى: {وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ} [الرعد: ٤]، أي:"ومع وجود أسباب التشابه نفضل بمحض القدرة بعضا منها على بعض فى الثمرات شكلا وقدرا، ورائحة وطعما، وحلاوة وحموضة".

قال سعيد بن جبير:"الأرض الواحدة يكون فيها الخوخ والكمثرى والعنب الأبيض والأسود، وبعضها أكثر حملا من بعض، وبعضه حلو، وبعضه حامض، وبعضه أفضل من بعض".

قال السعدي: أي:"لونا وطعما ونفعا ولذة؛ فهذه أرض طيبة تنبت الكلأ والعشب الكثير والأشجار والزروع، وهذه أرض تلاصقها لا تنبت كلأ ولا تمسك ماء، وهذه تمسك الماء ولا تنبت الكلأ وهذه تنبت الزرع والأشجار ولا تنبت الكلأ وهذه الثمرة حلوة وهذه مرة وهذه بين ذلك. فهل هذا التنوع في ذاتها وطبيعتها؟ أم ذلك تقدير العزيز الرحيم؟".

=

=

عن ابن عباس في قوله:"{ونفضل بعضها على بعض في الأكل}، قال: هذا حامض وهذا حلو، وهذا قل وهذا فارسي".

قال الضحاك:"بعضها أفضل من بعض حملا".

قال مقاتل: {وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ}، " يعني: في الحمل، فبعضها أكبر حملا من بعض".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرعد: ٤]، أي:"إن في ذلك لَعلامات لمن كان له قلب يعقل عن الله تعالى أمره ونهيه".

قال مقاتل:"يعني: ما ذكر من صنعه لعبرة {لقوم يعقلون}، فيوحدون ربهم".

قال السعدي:"أي: لقوم لهم عقول تهديهم إلى ما ينفعهم، وتقودهم إلى ما يرشدهم ويعقلون عن الله وصاياه وأوامره ونواهيه، وأما أهل الإعراض، وأهل البلادة فهم في ظلماتهم يعمهون، وفي غيهم يترددون، لا يهتدون إلى ربهم سبيلا ولا يعون له قيلا".

وفي قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} [الرعد: ٤]، وجهان:

أحدهما: أن في اختلاف ذلك اعتبار يدل ذوي العقول على عظيم القدرة، وهو معنى قول الضحاك.

الثاني: أنه مثل ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلهم واحد وهم مختلفون في الخير والشر والإيمان والكفر كاختلاف الثمار التي تسقى بماء واحد، قاله الحسن، ومجاهد.

- قال السعدي: والحاصل، أنه كلما تدبر العاقل في هذه المخلوقات، وتغلغل فكره في بدائع المبتدعات، وازداد تأمله للصنعة وما أودع فيها من لطائف البر والحكمة، علم بذلك، أنها خلقت للحق وبالحق، وأنها صحائف آيات، وكتب دلالات، على ما أخبر به الله عن نفسه ووحدانيته، وما أخبرت به الرسل من اليوم

=

وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥).

{وَإِنْ تَعْجَب} يَا مُحَمَّد مِنْ تَكْذِيب الْكُفَّار لك {فعجب} حقيق بالعجب {قولهم} منكرين البعث {أئذا كنا ترابا أئنا لَفِي خَلْق جَدِيد} لِأَنَّ الْقَادِر عَلَى

=

الآخر، وأنها مسخرات، ليس لها تدبير ولا استعصاء على مدبرها ومصرفها.

فتعرف أن العالم العلوي والسفلي كلهم إليه مفتقرون، وإليه صامدون، وأنه الغني بالذات عن جميع المخلوقات، فلا إله إلا الله، ولا رب سواه.

قال تعالى (ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون)

- قال الشوكاني: والمراد بالذين لا يعقلون: هم الكفار الذين لا يتعقلون حجج الله، ولا يتفكرون في آياته، ولا يتدبرون فيما نصبه لهم من الأدلة.

- يختم الله كثيرا من الآيات عندما يبين للعباد الأصول و الأحكام النافعة بقوله: لعلكم تعقلون وهذا يدل على أمور:

منها: أن الله يحب منا أن نعقل أحكامه و إرشاداته و تعليماته، فنحفظها و نفهمها و نعقلها بقلوبنا، ونؤيد هذا العقل ونثبته بالعمل بها.

ومنها: أنه كما يحب منا أن نعقل هذا الحكم الذي بينه بيانا خاصا، فإنه يحب أن نعقل بقية ما أنزل من الكتاب و الحكمة، وأن نعقل آياته المسموعة و آياته المشهودة.

ومنها: أن هذا أكبر دليل على أن معرفة ما أنزل الله إلينا من أعظم ما يربي عقولنا ويجعلها عقولا تفهم الحقائق النافعة والضارة، وترجح هذه على هذه، ولا تميل بها الأهواء و الأعراض و الخيالات و الخرافات المفسدة للعقول.

إنْشَاء الْخَلْق وَمَا تَقَدَّمَ عَلَى غَيْر مِثَال قَادِر عَلَى إعَادَتهمْ وَفِي الْهَمْزَتَيْنِ فِي الْمَوْضِعَيْنِ التَّحْقِيق وَتَحْقِيق الْأُولَى وَتَسْهِيل الثَّانِيَة وَإِدْخَال أَلِف بَيْنهمَا عَلَى الْوَجْهَيْنِ وَتَرْكهَا وَفِي قِرَاءَة بِالِاسْتِفْهَامِ فِي الأول والخبر في الثاني وأخرى وعكسه {أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون}(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} [الرعد: ٥].

قيل: إن تعجب يا محمد من تكذيبهم لك بعد ما كنت عندهم من الصادقين فأعجب منه تكذيبهم بالبعث.

وقيل: معناه وإن تعجب من اتخاذ المشركين ما لا يضرهم ولا ينفعهم آلهة يعبدونها مع إقرارهم بأن الله تعالى خالق السماوات والأرض، وهو يضر وينفع وقد رأوا من قدرة الله وما ضرب لهم به الأمثال ما رأوا فعجب قولهم.

وقيل: وإنك إن تعجب من إنكارهم النشأة الآخرة والبعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله فعجب قولهم وذلك أن المشركين كانوا ينكرون البعث بعد الموت مع إقرارهم بأن ابتداء الخلق من الله وقد تقرر في النفوس أن الإعادة أهون من الابتداء فهذا موضع التعجب.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وإن تعجب} يا محمد، من هؤلاء المشركين المتَّخذين ما لا يضرُّ ولا ينفع آلهةً يعبدونها من دوني، فعجب قولهم: {أئذا كنا ترابا} وبَلِينا فعُدِمنا {أئنا لفي خلق جديد} إنا لمجدَّدٌ إنشاؤنا وإعادتنا خلقًا جديدًا كما كنا قبل وفاتنا!! تكذيبًا منهم بقدرة الله، وجحودًا للثواب والعقاب والبعث بعد الممات".

قال قتادة:"إن عجبت يا محمد، {فعجب قولهم أئذا كنا ترابا أئنا لفي خلق =

=

جديد}، عجب الرحمن تبارك وتعالى من تكذيبهم بالبعث بعد الموت".
قال ابن زيد:"إن تعجب من تكذيبهم، وهم قد رأوا من قدرة الله وأمره وما ضرب لهم من الأمثال، فأراهم من حياة الموتى في الأرض الميتة، إن تعجب من هذه فتعجَّب من قولهم: {أئذا كنا ترابًا أئنا لفي خلق جديد} أو لا يرون أنا خلقناهم من نطفة؟ فالخلق من نطفة أشدُّ أم الخلق من ترابٍ وعظام؟".
عن السدي: " {أإذا كنا ترابا}: فكانت اللحوم رفاتا".
قال ابن كثير: " علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى (أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير)".
قوله تعالى: {أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ} [الرعد: ٥]، أي:"أولئك هم الجاحدون بربهم الذي أوجدهم من العدم".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين أنكروا البعث وجَحدُوا الثواب والعقاب وقالوا: {أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ} هم الذين جحدوا قدرة ربِّهم وكذبوا رسوله".
قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ} [الرعد: ٥]، أي:"وأولئك تكون السلاسل من النار في أعناقهم يوم القيامة".
والأغلال: جمع غل، وهو طوق تشد به اليد إلى العنق، أي: يغلون بها يوم القيامة. كما قال تعالى (إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون * في الحميم ثم في النار يسجرون).
قال الطبري:"وهم الذين في أعناقهم الأغلال يوم القيامة في نار جهنم".
قال الحسين:"إن الأنكال لم تجعل في أعناق أهل النار لأنهم أعجزوا الرب،
=

=

ولكنها جعلت في أعناقهم لكي إذا طفا بهم اللهب أرسبتهم في النار".

قوله تعالى: {وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [الرعد: ٥]، أي:"وأولئك يدخلون النار، ولا يخرجون منها أبدًا".

قال الطبري:"يقول: هم سكان النار يوم القيامة، {هم فيها خالدون}، يقول: هم فيها ماكثون أبدًا، لا يموتون فيها، ولا يخرجون منها".

قال ابن كثير:"أي: ماكثون فيها أبدا، لا يحولون عنها ولا يزولون".

عن أبي مالك قوله: " {أصحاب النار}: يعذبون فيها".

عن ابن عباس قوله: " {هم فيها خالدون}، أي: خالد أبدا". وروي عن السدي نحو ذلك.

* وقد تنوعت طرق إثبات البعث في القرآن، وجاءت على سبع طرق:

الطريقة الأولى: آيات صريحة في إثبات ذلك:

قال تعالى: (ثم إنكم يوم القيامة تبعثون).وقال تعالى: (والموتى يبعثهم الله).وقال تعالى: (ولا تخزني يوم يبعثون).وقال تعالى: (يوم نطوي السماء كطي السجل للكتب كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا إنا كنا فاعلين).وقال تعالى: (ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون. ليوم عظيم. يوم يقوم الناس لرب العالمين).

وأمر نبيه أن يقسم به على المعاد:

فقال تعالى: (وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم عالم الغيب).

وقال تعالى: (ويستنبئونك أحق هو قل إي وربي إنه لحق وما أنتم بمعجزين).

وقال تعالى: (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنبؤن بما عملتم وذلك على الله يسير).

وذم الله المكذبين بالمعاد:

=

=

فقال تعالى: (قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله وما كانوا مهتدين).

وقال تعالى: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت بلى وعدا عليه حقا).

الطريقة الثانية: التذكير بنشأة الإنسان الأولى:

قال تعالى: (فلينظر الإنسان مم خلق. خلق من ماء دافق. يخرج من بين الصلب والترائب. إنه على رجعه لقادر).

وقال تعالى: (وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم. قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم).

والذي أنشأها أول مرة هو الله، فإذا كان الله أنشأها أول مرة فهو قادر على إعادتها، لأن الإعادة أهون من الابتداء.

الطريقة الثالثة: الاستدلال بإنبات النبات على إحياء الأموات:

قال تعالى: (فانظر إلى آثار رحمت الله كيف يحيي الأرض بعد موتها إن ذلك لمحيي الموتى وهو على كل شيء قدير).

وقال تعالى: (وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج. ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من في القبور)

وقال سبحانه: (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير).

الطريقة الرابعة: الإشارة ولفت الانتباه إلى خلق السماوات:

قال تعالى: (أولم يروا أن الله الذي خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى بلى إنه على كل شيء قدير).

وخلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس كما قال تعالى (لخلق السماوات

=

وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ

=

والأرض أكبر من خلق الناس) وهذا أمر معلوم بالحس والمشاهدة، فالبشر كلهم لا يساوون كوكبا من الكواكب، فما بالك بهذه الكواكب والنجوم التي لا يحصيها إلا الله.

الطريقة الخامسة: تنزيه الله سبحانه عن العبث.

فلو فرضنا أنه لا جزاء ولا حساب ولا بعث، فما فائدة الأوامر والنواهي.

قال تعالى: (أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا وأنكم إلينا لا ترجعون. فتعالى الله الملك الحق).

وقال تعالى: (أيحسب الإنسان أن يترك سدى). أي: لا يؤمر ولا ينهى، وقيل لا يبعث.

الطريقة السادسة: تنزيه الله عن الظلم:

فلو لم يكن هناك بعث لا استوى الناس، فاستوى المؤمن الذي ترك كثيرا من الشبهات مخافة ربه، والكافر لا يعرف ربه أصلا.

قال تعالى: (أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لا يستوون).

الطريقة السابعة: ذكر وقائع وأحداث يستدل بها على البعث.

كما في قصة قتيل بني إسرائيل.

وقصة الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت.

وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها.

وقصة إبراهيم – عليه السلام – والطيور الأربعة.

وقصة أصحاب الكهف، فقد أماتهم الله في الكهف ثلاثمائة وتسع سنين، قال تعالى في قصتهم: (وكذلك أعثرنا عليهم ليعلموا أن وعد الله حق وأن الساعة لا ريب.

لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦).

وَنَزَلَ فِي اسْتِعْجَالهمْ الْعَذَاب اسْتِهْزَاء {وَيَسْتَعْجِلُونك بِالسَّيِّئَةِ} العذاب {قبل الحسنة} الرحمة {وقد خلت قَبْلهمْ الْمُثُلَات} جَمْع الْمَثُلَة بِوَزْنِ الثَّمُرَة أَيْ عُقُوبَات أَمْثَالهمْ مِنْ الْمُكَذِّبِينَ أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهَا {وَإِنَّ رَبّك لَذُو مَغْفِرَة لِلنَّاسِ عَلَى} مَعَ {ظُلْمهمْ} وَإِلَّا لَمْ يَتْرُك عَلَى ظَهْرهَا دَابَّة {وَإِنَّ رَبّك لَشَدِيد الْعِقَابِ} لِمَنْ عَصَاهُ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} [الرعد: ٦]، أي:"ويستعجلك المكذِّبون بالعقوبة التي لم أعاجلهم بها قبل الإيمان الذي يرجى به الأمان والحسنات".

فالمراد بالسيئة ههنا نزول العذاب عليهم، وإنما سموا العذاب سيئة لأنه يسوءهم ويؤذيهم.

قال الخازن: الاستعجال طلب تعجيل الأمر قبل مجيء وقته، والمراد بالسيئة هنا هي العقوبة وبالحسنة العافية.

- قال الآلوسي: قوله تعالى (ويستعجلونك بالسيئة) بالعقوبة التي هددوا بها على الإصرار على الكفر استهزاء وتكذيبا (قبل الحسنة) أي العافية والسلامة منها. (التفسير).

كما قال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده).

وقال تعالى (ويستعجلونك بالعذاب ولولا أجل مسمى لجاءهم العذاب).

وقال تعالى (يستعجلونك بالعذاب وإن جهنم لمحيطة بالكافرين).

وقال تعالى (وقالوا ربنا عجل لنا قطنا قبل يوم الحساب) أي: عقابنا وحسابنا.

وقال تعالى عن قوم هود (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين).

=

=

وقال تعالى (وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم).

- قال الشنقيطي: وسبب طلبهم لتعجيل العذاب هو العناد، وزعم أن النبي ﷺ كذاب فيما يخوفهم به من بأس الله وعقابه.

كما قال تعالى (ولئن أخرنا عنهم العذاب إلى أمة معدودة ليقولن ما يحبسه).

وكقوله (يا صالح ائتنا بما تعدناآ إن كنت من المرسلين).

وقوله (قالوا يا نوح قد جادلتنا فأكثرت جدالنا فأتنا بما تعدناآ إن كنت من الصادقين).

قال الفراء:"يقول: يستعجلونك بالعذاب وهم آمنون له".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {ويستعجلونك} يا محمد، مشركو قومك بالبلاء والعقوبة قبل الرخاء والعافية، فيقولون: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [سورة الأنفال: ٣٢]".

قال الواحدي:"يعني: مشركي مكَّة حين سألوا رسول الله ﷺ أن يأتيهم بالعذاب استهزاءً يقول: ويستعجلونك بالعذاب الذي لم أُعاجلهم به وهو قوله: {قبل الحسنة} يعني: إحسانه إليهم في تأخير العقوبة عنهم إلى يوم القيامة".

قال القرطبي:"أي: لفرط إنكارهم وتكذيبهم يطلبون العذاب".

قال ابن كثير:"أي: هؤلاء المكذبون {بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} أي: بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ * لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ * مَا نُنزلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ} [الحجر: ٦ - ٨] وقال تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ * يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ} [العنكبوت: ٥٣، ٥٤] وقال: {سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ

=

وَاقِعٍ} [المعارج: ١] وقال: {يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ} [الشورى: ١٨] {وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [ص: ١٦] أي: حسابنا وعقابنا، كما قال مخبرا عنهم: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ} [الأنفال: ٣٢] فكانوا يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم".

قال السمعاني:"«الاستعجال»: طلب تعجيل الأمر قبل مجيء (وقته)، وقد كان الله تعالى أخر عقوبة الاصطلام عن المشركين كرامة للنبي. والسيئة هاهنا هي العقوبة، والحسنة: العافية، ومعناه: أنهم يطلبون العقوبة بدلا من العافية، وقد دل على هذا قوله تعالى: {وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء} وقوله تعالى: {سأل سائل بعذاب واقع}".

قال الشوكاني:"وهذا الاستعجال من هؤلاء هو على طريقة الاستهزاء، كقولهم: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِك} [الأنفال: ٣٢]".

وفي قوله تعالى: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ} [الرعد: ٦]، أربعة وجوه:

أحدها: يعني بالعقوبة قبل العافية، رواه معمر عن قتادة.

قال قتادة:"هؤلاء مشركوا العرب استعجلوا بالشر قبل الخير، فقالوا: {اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيم}".

وروي عن السدي قوله: " {ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة}، قال: حين سألوا العذاب".

الثاني: بالشر قبل الخير، رواه سعيد عن قتادة.

الثالث: بالكفر قبل الإجابة. رواه القاسم بن يحيى.

والرابع: بالقتال قبل الاسترشاد. أفاده الماوردي.

=

قوله تعالى: {وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ} [الرعد: ٦]، أي:"وقد مضت عقوبات المكذبين مِن قبلهم، فكيف لا يعتبرون بهم؟، فقد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم".

قال الفراء:"وهم يرون العقوبات المثلات في غيرهم ممن قد مضى، هي «المثلات» وتميم تقول: «المثلات»".

قال الواحدي:"وقد مضت من قبلهم العقوبات في الأمم المُكذِّبة فلم يعتبروا بها".

قال البغوي:"أي: مضت من قبلهم في الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها العقوبات".

قال الطبري:"وهم يعلمون ما حَلَّ بمن خلا قبلهم من الأمم التي عصت ربها وكذبت رسلها من عقوبات الله وعظيم بلائه، فمن بين أمة مسخت قردة وأخرى خنازير، ومن بين أمّة أهلكت بالرَّجْفة، وأخرى بالخسف، وذلك هو «المثلات» التي قال الله جل ثناؤه: {وقد خلت من قبلهم المثلات}، و {المثلات}: العقوبات المنكِّلات، والواحدة منها: «مَثُلة»".

قال ابن كثير:"أي: قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثلة وعبرة وعظة لمن اتعظ بهم".

عن أبي مالك قوله: " {خلت}، يعني: مضت".

- قال ابن عطية:... وقرأ الجمهور " المثلات " بفتح الميم وضم الثاء.

فالمثلات: العقوبات التي مثل الله تعالى بها الأمم الماضية.

- قال الخازن: والمثلة بفتح الميم وضم الثاء المثلثة نقمة تنزل بالإنسان فيجعل مثلا ليرتدع غيره به.

- وقال ابن عاشور: وهي العقوبة الشديدة التي تكون مثالا تمثل به العقوبات.

- قال القباعي: (من قبلهم المثلات) جمع مثله بفتح الميم وضم المثلثة كصدقة

=

=

وصدقات، سميت بذلك لما بين العقاب والمعاقب عليه من المماثلة، وهي العقوبات التي تزجر عن مثل ما وقعت لأجله من الأمم الذين اتصلت بهم أخبارهم، وخاطبتهم بعظيم ما اتفق لهم آثارهم وديارهم، وما يؤخرهم الله إلا لاستيفاء آجالهم التي ضربها لهم مع قدرته التامة عليهم.

عن قتادة، قوله: " {وقد خلت من قبلهم المثلات}، وقائع الله في الأمم فيمن خلا قبلكم".

وفي قوله تعالى: {وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ} [الرعد: ٦]، ثلاثة وجوه:

أحدها: الأمثال التي ضربها الله تعالى لهم، قاله مجاهد، وأبو صالح.

قال مجاهد:"«المثلات»: الذي مَثَل الله به الأممَ من العذاب الذي عذَّبهم، تولَّت المثلات من العذاب، قد خلت من قبلهم، وعرفوا ذلك، وانتهى إليهم ما مَثَلَ الله بهم حين عصَوه وعَصوا رُسُله".

الثاني: أنها العقوبات التي مثل الله تعالى بها الأمم الماضية، قاله ابن عباس.

وقال ابن زيد:"«المثلاث»: التي مثل الله لم من الأمم من العذاب الذي عذبهم نزلت بهم المثلات من العذاب قد خلت من قبلهم وعرفوا ذلك وانتهى ما مثل الله بهم حين عصوه وعصوا رسله".

روي عن سليم قال: "سمعت الشعبي يقول في قوله: {وقد خلت من قبلهم المثلاث}، قال: القردة والخنازير هي «المثلات»".

الثالث: أنها العقوبات المستأصلة التي لا تبقى معها باقية كعقوبات عاد وثمود حكاه ابن الأنباري.

قال السمعاني:"الأكثرون [على]: أن المثلات العقوبات".

قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَى ظُلْمِهِمْ} [الرعد: ٦]، أي:"وإن ربك -أيها الرسول- لَذو مغفرة لذنوبِ مَن تاب مِن ذنوبه من الناس على

=

=

ظلمهم، يفتح لهم باب المغفرة، ويدعوهم إليها، وهم يظلمون أنفسهم بعصيانهم ربهم".

قال الواحدي:"بالتَّوبة، يعني: يتجاوز عن المشركين إذا آمنوا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وإن ربك يا محمد لذو سترٍ على ذنوب من تاب من ذنوبه من الناس، فتاركٌ فضيحته بها في موقف القيامة، وصافحٌ له عن عقابه عليها عاجلا وآجلا، {على ظلمهم}، يقول: على فعلهم ما فعلوا من ذلك بغير إذني لهم بفعله".

عن ابن عباس:"{وإن ربك لذو مغفرة للناس}، يقول: ولكنّ ربَّك".

عن عماد بن زيد عن علي بن زيد قال: "تلا مطرف هذه الآية: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم}، ثم قال مطرف: لو يعلم الناس قدر رحمة الله وعفو الله وتجاوز الله ومغفرة الله لقرت أعينهم".

وقيل المقصود الستر والصفح، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة، أي: إنه ذو صفح عظيم لا يعاجل بالعقوبة. مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. كما قال سبحانه (ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة).

- قال ابن عاشور: وسياق الآية يدل على أن المراد بالمغفرة هنا التجاوز عن المشركين في الدنيا بتأخير العقاب لهم إلى أجل أراده الله أو إلى يوم الحساب، وأن المراد بالعقاب في قوله (وإن ربك لشديد العقاب) ضد تلك المغفرة وهو العقاب المؤجل في الدنيا أو عقاب يوم الحساب، فمحمل الظلم على ما هو المشهور في اصطلاح القرآن من إطلاقه على الشرك.

قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ} [الرعد: ٦]، أي:"وإن ربك لشديد العقاب على مَن أصرَّ على الكفر والضلال ومعصية الله".

قال الواحدي:"يعني: لمَنْ أصرَّ على الكفر".

=

=

قال الطبري: أي:"لمن هلك مُصِرًّا على معاصيه في القيامة، إن لم يعجِّل له ذلك في الدنيا، أو يجمعهما له في الدنيا والآخرة، وهذا الكلام، وإن كان ظاهره ظاهرَ خبرٍ، فإنه وعيدٌ من الله وتهديدٌ للمشركين من قوم رسول الله ﷺ، إن هم لم ينيبوا ويتوبوا من كفرهم قبل حُلول نقمة الله بهم".

قال سعيد بن المسيب: "لما نزلت هذه الآية: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب}، قال رسول الله ﷺ: لولا عقوبة الله وتجاوزه ما هنأ أحد العيش ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد".

عن علي بن زيد بن جدعان قال: "تلا مطرف هذه الآية: {وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب}، ولو يعلم الناس قدر عقوبة الله ونقمة الله وبأس الله، ونكال الله ما رقى لهم دمع ولا قرت أعينهم بشيء".

(تنبيه): لما بين تعالى في الآية السابقة سعة حلمه قرنه ببيان قوة عقابه؛ ليعتدل الرجاء والخوف، فقال سبحانه (وإن ربك لشديد العقاب) أي: لمن شاء.

كما قال تعالى (فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين).

وقال تعالى (إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم).

وقال سبحانه (نبئ عبادي أني أنا الغفور الرحيم وأن عذابي هو العذاب الأليم).

وقال تعالى (غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول).

- قال الشنقيطي: بين - جل وعلا - في هذه الآية الكريمة أنه ذو مغفرة للناس على ظلمهم، وأنه شديد العقاب. فجمع بين الوعد والوعيد ليعظم رجاء الناس على فضله، ويشتد خوفهم من عقابه وعذابه الشديد. لأن مطامع العقلاء محصورة في جلب النفع ودفع الضر، فاجتماع الخوف والطمع أدعى للطاعة كما تقدم في الآيات السابقة.

=

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧).

{وَيَقُول الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا} هَلَّا {أُنْزِلَ عَلَيْهِ} عَلَى مُحَمَّد {آيَة مِنْ رَبّه} كَالْعَصَا وَالْيَد والناقة قال تعالى {إِنَّمَا أَنْت مُنْذِر} مُخَوِّف الْكَافِرِينَ وَلَيْسَ عَلَيْك إتْيَان الْآيَات {وَلِكُلِّ قَوْم هَادٍ} نَبِيّ يَدْعُوهُمْ إلَى رَبّهمْ بِمَا يُعْطِيه مِنْ الْآيَات لَا بما يقترحون[1].

=

- فينبغي على المسلم أن يكون راجيا خائفا.

تنبيه: ذكر الطمع الذي هو الرجاء في آية الدعاء؛ لأن الدعاء مبني عليه فإن الداعي ما لم يطمع في سؤاله ومطلوبه لم تتحرك نفسه لطلبه؛ إذ طلب ما لا طمع له فيه ممتنع.

- قال حكيم: الحزن يمنع الطعام، والخوف يمنع الذنوب، والرجاء يقوي على الطاعة، وذكر الموت يزهد في الفضول.

(١) قوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [الرعد: ٧].

أي: ويقول هؤلاء الكفرة المكذبون المعاندون: "لولا أنزل على محمد آية من ربه"، يعنون كما أعطى الله ثمود الناقة، أو أن يحول لهم الصفا ذهبا، أو يزيح عنهم جبال مكة ويجعل مكانها بساتين وأنهارا، ونحو ذلك مما الله عليه قادر، ولكنه حكيم في أفعاله وأقواله.

ولقد حكى القرآن - في آيات أخرى كثيرة - المطالب المتعنتة التي طلبها المشركون من النبي ﷺ والتي تدل على عنادهم وجحودهم.

ومن ذلك قوله تعالى (وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا. أو تسقط السماء

=

=

كما زعمت علينا كسفا أو تأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه. قل سبحان ربي هل كنت إلا بشرا رسولا).

كما حكى أيضا سبحانه أنه لو أجابهم إلى مطالبهم لما آمنوا، لأنهم معاندون جاحدون.

فقال تعالى (إن الذين حقت عليهم كلمت ربك لا يؤمنون. ولو جاءتهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم).

وقال سبحانه: (ولو نزلنا عليك كتابا في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين).

يقول تعالى: إن سنتي في خلقي أني إذا آتيتهم ما سألوا، فإن آمنوا وإلا عاجلتهم بالعقوبة. ولهذا لما خير رسول الله – عليه السلام – بين أن يعطى ما سألوا، فإن أجابوا وإلا عوجلوا، وبين أن يتركهم وينظرهم، اختار إنظارهم، كما حلم عنهم غير مرة، صلوات الله عليه.

– ومرادهم بالآية التي طلبوها: آية كونية سوى القرآن الكريم، بأن تكون معه ﷺ ناقة كناقة صالح – عليه السلام – أو تكون معه عصا كعصا موسى – عليه السلام – وكأنهم لا يعتبرون القرآن آية كبرى، ومعجزة عظمى على صدقه ﷺ.

ومرادهم بإنزالها عليه: ظهورها على يديه ﷺ حتى يروا ذلك بأعينهم.

ومطالبهم هذه إنما طلبوها على سبيل العناد والتعنت لا على سبيل الاسترشاد والثبت، قال تعالى (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله).

ومن أعظم الآيات إنزال القرآن الكريم.

ولأجل عظم هذه الآية وكبرها وأنها أعظم الآيات وأكبرها أنكر (جل وعلا) على

=

=

من طلب آية غيرها إنكارا شديدا في سورة العنكبوت حيث قال تعالى (وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين) ثم أنكر عليهم طلب آية غيره قال (أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة)، فمن لم يكتف بهذه الآية العظمى عن جميع الآيات فهو جدير بأن ينكر عليه.

قال قتادة:"قول مشركي العرب".

قال الطبري:"يعنون علامةً وحجةً له على نبوّته وذلك قولهم: {لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنز أَوْ جَاءَ مَعَهُ مَلَكٌ} [سورة هود: ١٢]".

قوله تعالى: {إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ} [الرعد: ٧].

أي: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، وليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء.

قال الشنقيطي: "أي إنما عليك البلاغ والإنذار، أما هداهم وتوفيقهم فهو بيد الله تعالى، كما أن حسابهم عليه جل وعلا".

قال الطبري:"يقول الله له: يا محمد {إنما أنت منذر} لهم، تنذرهم بأسَ الله أن يحلّ بهم على شركهم".

قال ابن عباس:"هو المنذر وهو الهاد، يعني: النبي ﷺ".

قوله تعالى: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [الرعد: ٧]، أي:"ولكل أمة رسول يرشدهم إلى الله تعالى".

قال مقاتل:"يعني: لكل قوم فيما خلا داع مثلك يدعو إلى دين الله، يعني: الأنبياء".

قال الطبري:"يقول ولكل قوم إمام يأتمُّون به وهادٍ يتقدمهم، فيهديهم إما إلى خيرٍ وإما إلى شرٍّ، وأصله من «هادي الفرس»، وهو عنقه الذي يهدي سائر جسده".

=

=

قال قتادة:"لكل قوم داعٍ يدعوهم إلى الله".

وفي قوله تعالى: {وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ} [الرعد: ٧]، ثمانية أقوال:

أحدها: أنه الله تعالى، فهو هادي كل قوم، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك.

الثاني: ولكل قومٍ هادٍ، أي: نبي يهديهم إلى الله، قاله مجاهد، وقتادة، وابن زيد، وبه قال ابن قتيبة.

الثالث: ولكل قوم هاد، معناه: ولكل قوم قادة وهداة، قاله أبو صالح، ويحيى بن رافع.

الرابع: ولكل قوم هاد، أي: داع. قاله ابن عباس، والحسن.

الخامس: أي: نبي وداع إلى الله يدعوهم بما يعطى من الآيات لا بما يريدون ويتحكمون فيه. قاله الزجاج.

السادس: أن «الهادي»: القائد، والقائد: الإمام، والإمام: العمل، قاله أبو العالية.

السابع: أنه عليّ بن ابي طالب. وهذا القول مروي عن ابن عباس ايضا.

عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس قال: "لما نزلت {إنما أنت منذر ولكل قوم هاد}، وضع ﷺ يده على صدره فقال: أنا المنذر {ولكل قوم هاد}، وأومأ بيده إلى منكب عليّ، فقال: أنت الهادي يا عليّ، بك يهتدي المهتدون بَعْدي".

الثامن: معناه: ولكل قوم سابق بعلم يسبقهم إلى الهدى، حكاه ابن عيسى.

قال الطبري:"جائز أن يكون ذلك هو الله الذي يهدي خلَقه ويتَّبع خلقُه هداه ويأتمون بأمره ونهيه، وجائز أن يكون نَبِيَّ الله الذي تأتمُّ به أمته، وجائز أن يكون إمامًا من الأئمة يُؤْتَمْ به، ويتّبع منهاجَه وطريقته أصحابُه، وجائزٌ أن يكون داعيًا من الدعاة إلى خيرٍ أو شرٍّ، وإذ كان ذلك كذلك، فلا قول أولى في ذلك بالصواب من أن يقال كما قال جل ثناؤه: إن محمدًا هو المنذر من أرسل إليه بالإنذار، وإن لكل

=

اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ (٨).

{اللهُ يَعْلَم مَا تَحْمِل كُلّ أُنْثَى} مِنْ ذَكَر وَأُنْثَى وَوَاحِد وَمُتَعَدِّد وَغَيْر ذَلِك {وَمَا تَغِيض} تَنْقُص {الْأَرْحَام} مِنْ مُدَّة الْحَمْل {وَمَا تَزْدَاد} مِنْهُ {وَكُلّ شَيْء عِنْده بِمِقْدَارٍ} بِقَدَرٍ وَحَدٍّ لَا يَتَجَاوَزهُ.

عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩).

{عَالِم الْغَيْب وَالشَّهَادَة} مَا غَابَ وَمَا شُوهِدَ {الكبير} العظيم {المتعال} عَلَى خَلْقه بِالْقَهْرِ بِيَاءٍ وَدُونهَا.

سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠).

{سَوَاء مِنْكُمْ} فِي عِلْمه تَعَالَى {مَنْ أَسَرَّ الْقَوْل وَمَنْ جَهَرَ بِهْ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ} مُسْتَتِر {بِاللَّيْلِ} بِظَلَامِهِ {وَسَارِب} ظَاهِر بِذَهَابِهِ فِي سربه أي طريقه {بالنهار}[1].

=

قوم هاديًا يهديهم فيتّبعونه ويأتمُّون به".

(تنبيه): قال ابن الجوزي: وقد روى المفسرون من طرق ليس فيها ما يثبت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية، وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، فقال: "أنا المنذر" وأومأ بيده إلى منكب علي، فقال: "أنت الهادي يا علي بك يهتدى من بعدي". وهذا من موضوعات الرافضة.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أن أربد بن قيس بن جزى بن خالد بن جعفر بن

=

كلاب وعامر بن الطفيل بن مالك قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فانتهيا إلى رسول الله ﷺ وهو جالس، فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد! ما تجعل لي إن أسلمت؟ قال رسول الله ﷺ: "لك ما للمسلمين وعليك ما عليهم"، قال عامر بن الطفيل: أتجعل لي الأمر إن أسلمت من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: "ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنة الخيل"، قال: أنا الآن في أعنة خيل نجد، اجعل لي الوبر ولك المدر، قال رسول الله ﷺ: "لا"، فلما قفا من عند رسول الله ﷺ، قال عامر: أما والله لأملأنها عليك خيلًا ورجالًا، فقال رسول الله ﷺ: "يمنعك الله"، فلما خرج أربد وعامر، قال عامر: يا أربد! أنا أشغل عنك محمدًا بالحديث، فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلت محمدًا لم يزيدوا على أن يرضوا بالدية ويكرهوا الحرب، فسنعطيهم الدية، قال أربد: أفعل، فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد! قم معي أكلمك، فقام معه رسول الله ﷺ، فخليا إلى الجدار ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه وسل أربد السيف، فلما وضع يده على قائم السيف يَبِسَتْ على قائم السيف، فلم يستطع سل السيف، فأبطأ أربد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله ﷺ، فرأى أربد وما يصنع، فانصرف عنهما، فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحرة: حرة واقم، نزلا فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسيد بن حضير فقالا: اشخصا يا عدوي الله -لعنكما الله-، قال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسيد بن حضير الكاتب، قال: فخرجا حتى إذا كانا بالرقم أرسل الله ﷻ على أربد صاعقة؛ فقتله، وخرج عامر حتى إذا كان بالحر، ثم أرسل الله عليه قرحة، فأخذته فأدركه الليل في بيت امرأة من بني سلول، فجعل يمس قرحته في حلقه، ويقول: غدة كغدة الجمل في بيت سلولية يرغب أن يموت في بيتها، ثم ركع فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعًا؛ فأنزل الله ﷻ فيهما: {اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} إلى قوله: {وَمَا لَهُمْ

=

مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ}؛ قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمدًا، ثم ذكر أربد وما قبله به، قال: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا} إلى قوله: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٠/ ٣١٢، ٣١٣ رقم ١٠٧٦٠، ٢٥/ ٢٤٦، ٢٤٨ رقم ٣٧)، و"المعجم الأوسط" (٩/ ٦٠ - ٦٢ رقم ٩١٢٧) - ومن طريقه ابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" (٢/ ١٨٧)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٧/ ٢٢٢٨، ٢٢٢٩) من طريق عبد العزيز بن عمران ثني عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم عن أبيهما عن عطاء بن يسار عنه به.

وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ عبد العزيز -هذا-؛ قال الحافظ في "التقريب": "متروك، احترقت كتبه، فحدث من حفظه؛ فاشتد غلطه، وكان عارفًا بالأنساب".

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٤٢): "وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف".

* قوله تعالى: {اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى} [الرعد: ٨].

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات.

كما قال تعالى (ويعلم ما في الأرحام) أي ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره.

كقوله تعالى (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة).

وقال تعالى (يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق في ظلمات ثلاث) أي: خلقكم طورا من بعد طور.

وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ (إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم

=

=

يبعث الله إليه ملكا فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه، وعمره، وعمله، وشقي أو سعيد).

- قال الشنقيطي: قوله تعالى (الله يعلم ما تحمل كل أنثى) لفظة «ما» في هذه الآية يحتمل أن تكون موصولة والعائد محذوف، أي يعلم الذي تحمله كل أنثى. وعلى هذا فالمعنى: يعلم ما تحمله من الولد على أي حال هو من ذكورة، وأنوثة، وخداج، وحسن، وقبح، وطول، وقصر، وسعادة، وشقاوة إلى غير ذلك من الأحوال.

وقد دلت على هذا المعنى آيات من كتاب الله، كقوله (ويعلم ما في الأرحام) لأن «ما» فيه موصولة بلا نزاع.

وكقوله (هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم).

وقوله (هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وإن تعجب فعجبٌ قولهم أئذا كنا ترابًا أئنا لفي خلق جديد} منكرين قدرة الله على إعادتهم خلقًا جديدًا بعد فنائهم وبلائهم، ولا ينكرون قدرته على ابتدائهم وتصويرهم في الأرحام، وتدبيرهم وتصريفهم فيها حالا بعد حال".

عن عكرمة ومجاهد:"{يعلم ما تحمل كل أنثى}، قال: حملها تسعة أشهر".

وفي قوله تعالى: {اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى} [الرعد: ٨]، وجهان:

أحدهما: يعلم أذكر هو أم أنثى. قاله سعيد، وابن ابي نجيح، ومقاتل.

ومنه قوله تعالى: {وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ} [لقمان: ٣٤].

الثاني: يعلم أصالح هو أَم طالح. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} [الرعد: ٨].

تغيض من الغيض بمعنى النقص. يقال: غاض الماء إذا نقص.

=

=

أي: وهو وحده سبحانه الذي يعلم ما يكون في داخل الأرحام من نقص في الخلقة أو زيادة فيها، ومن نقص في مدة الحمل أو زيادة فيها، ومن نقص في العدد أو زيادة فيه.

قال الطبري:"يقول: وما تنقص الأرحام من حملها في الأشهر التسعة بإرسالها دم الحيض، {وما تزداد} في حملها على الأشهر التسعة لتمام ما نقص من الحمل في الأشهر التسعة بإرسالها دم الحيض".

وفي قوله تعالى: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ} [الرعد: ٨]، خمسة وجوه من التفسير:

أحدها: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} بالسقط الناقص، {وَمَا تَزْدَادُ} بالولد التام، قاله ابن عباس.

وقال الحسن: "غيضوضتها: السقط". وفي رواية:"«الغيض»: ما دون التسعة الأشهر".

وقال قتادة:":"«الغيض»، السَّقْط، {وما تزداد}، فوق التسعة الأشهر".

عن ابن عباس قوله: " {الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام}، يعني السِّقْط، {وما تزداد}، يقول: ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تمامًا. وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص. فذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله، وكل ذلك بعلمه".

الثاني: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} بالوضع لأقل من تسعة أشهر، {وَمَا تَزْدَادُ} بالوضع لأكثر من تسعة أشهر، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، والضحاك، وعطية العوفي.

عن الضحاك، قال ابن عباس: "ما تزداد على تسعة وما نقص عن التسعة. وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين وولدتني وقد خرجت

=

=

ثنيتي".

وفي رواية عن الضحاك: " ولدت لسنتين، وقد نبتت ثناياي".

قال الضحاك:"ما دون التسعة أشهر فهو غيض"، "ما فوق التسعة فهو زيادة".

الثالث: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} بانقطاع الحيض في الحمل، {وَمَا تَزْدَادُ} بدم النفاس بعد الوضع.

قال مكحول:"الجنين في بطن أمه لا يطلب ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها، فمن ثم لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلاله استنكارا لمكانه فإذا قطعت سرته حول الله رزقه إلى ثدي أمه، فيأكله فإذا هو بلغ قال هو الموت أو القتل، قال: أنى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويحك غذاك وأنت في بطن أمك وأنت طفل صغير حتى إذا اشتددت وعقلت. قلت: هو الموت أو القتل أين لي بالرزق. ثم قرأ مكحول: {يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد وكل شيء عنده بمقدار}".

الرابع: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} بظهور الحيض من أيام على الحمل، وفي ذلك نقص في الولد، {وَمَا تَزْدَادُ} في مقابلة أيام الحيض من أيام الحمل. قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وعكرمة.

عن مجاهد وسعيد بن جبير عن ابن عباس قوله: " {وما تغيض الأرحام}، قال: «تغيض الأرحام»: أن ترى المرأة الدم في حملها فذلك تزداد في التسعة أشهر".

قال سعيد بن جبير:"إذا رأت المرأة الدمَ على الحمل، فهو «الغيض» للولد. يقول: نقصانٌ في غذاء الولد، وهو زيادة في الحمل".

قال عكرمة:"كلما غاضت بالدم، زاد ذلك في الحمل".

وقال عكرمة:"غيض الرحم: الدم على الحمل كلما غاض الرحم من الدم يومًا زاد في الحمل يومًا حتى تستكمل وهي طاهرةٌ".

=

=

الخامس: {وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ} من ولدته قبل، {وَمَا تَزْدَادُ} من تلده من بعد، حكاه السدي، وقتادة.

قال الشنقيطي: مرجع هذه الأقوال كلها إلى شيء واحد، وهو أنه تعالى عالم بما تنقصه الأرحام وما تزيده ؛ لأن معنى تغيض: تنقص، وتزداد، أي: تأخذه زائدا، فيشمل النقص المذكور: نقص العدد، ونقص العضو من الجنين، ونقص جسمه إذا حاضت عليه فتقلص، ونقص مدة الحمل بأن تسقطه قبل أمد حمله المعتاد، كما أن الازدياد يشمل: زيادة العضو، وزيادة العدد، وزيادة جسم الجنين إن لم تحض وهي حامل، وزيادة أمد الحمل عن القدر المعتاد، والله جل وعلا يعلم ذلك كله والآية تشمله كله.

- قال البخاري: باب قوله (الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام).

عن ابن عمر، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ قال (مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها إلا الله لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله).

قوله تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: ٨]، أي:"وكل شيء مقدَّر عند الله بمقدار من النقصان أو الزيادة لا يتجاوزه".

أي: كل شيء من الأشياء عند الله تعالى بقدر محدود، لا يتجاوزه حسب المصلحة والمنفعة.

كما قال تعالى (إنا كل شيء خلقناه بقدر).

وكما قال تعالى (وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم).

فهو سبحانه يعلم كمية كل شيء وكيفيته وزمانه ومكانه وسائر أحواله.

- قال ابن كثير: أي بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلا

=

=

معلوما.

وفي الحديث الصحيح أن إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابنا لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره. فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتصبر ولتحتسب.

قال ابن أبي زمنين:"أي: بقدر".

قال البغوي:"أي: بتقدير وحد لا يجاوزه ولا يقصر عنه".

قال الطبري:"لا يجاوز شيء من قَدَره عن تقديره، ولا يقصر أمر أراده فَدَبَره عن تدبيره، كما لا يزداد حمل أنثى على ما قُدِّرَ له من الحمل، ولا يُقصِّر عما حُدّ له من القدر".

وفي قوله تعالى: {وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ} [الرعد: ٨]، ثلاثة وجوه:

أحدها: في الرزق والأجل، قاله قتادة.

قال قتادة:"إي والله، لقد حفظ عليهم رزقهم وآجالهم، وجعل لهم أجلا معلومًا".

الثاني: فيما تغيض الأرحام وما تزداد. حكاه الماوردي عن الضحاك.

وعن ابن عباس:"يعني قوله: {وكل شيء عنده بمقدار}، يعني: ذلك يعلمه".

والثالث: أن كل شيء عنده من ثواب وعقاب بمقدار الطاعة والمعصية. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الرعد: ٩]، أي:"الله عالم بما خفي عن الأبصار، وبما هو مشاهَد".

أي: ما غاب عن الحس وما كان مشاهدا منظورا، فعلمه تعالى شامل للخفي والمرئي، لا يخفى عليه شيء.

قال ابن عباس:"السر والعلانية".

قال الحسن: "الشهادة: ما قد رأيتم من خلقه، والغيب: ما غاب عنكم ما لم

=

=
تروه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله عالم ما غاب عنكم وعن أبصاركم فلم تروه، وما شاهدتموه، فعاينتم بأبصاركم، لا يخفى عليه شيء، لأنهم خلقه وتدبيره".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: ما غاب عن العباد وما شاهدوه. ويقال: عالم بما كان، وبما لم يكن. ويقال: عالم السر والعلانية.

قال الواحدي:"{عالم الغيب} ما غاب عن جميع خلقه {والشهادة} وما شهده الخلق.

قوله تعالى: {الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ} [الرعد: ٩].

(الكبير) الذي هو أكبر من كل شيء، (المتعال) أي: العظيم الشأن الذي كل شيء دونه، المستعلي على كل شيء بقدرته، المنزه عن المشابهة والمماثلة.

(تنبيه): أهل السنة يقولون هو المتعالي على كل شيء بقهره، والمتعالي عن كل سوء ونقص بكماله والمتعالي بذاته فوق خلقه. فالله تعالى هو المتعال بأنواع ثلاثة، فلا يجوز قصر "المتعال" على نوع واحد.ويؤمنون بجميع ذلك، وليسوا كمن – يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض".

– قال ابن الجوزي: والمتعالي هو المتنزه عن صفات المخلوقين.

قال الطبري:"{الكبير} الذي كل شيء دونه، {المتعال} المستعلي على كل شيء بقدرته".

قال ابن أبي زمنين: " {الكبير} يعني: العظيم، {المتعال} عما قال المشركون".

قال الواحدي:"{الكبير} العظيم القدر، {المتعال} عمّا يقوله المشركون".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: هو أكبر وأعلى من أن تكون له صاحبة وولد".

قال الحسن: "المتعالي عما يقول المشركون".

قوله تعالى: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ} [الرعد: ١٠].
=

=

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء.

كقوله (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى).

وقال تعالى (ويعلم ما تخفون وما تعلنون).

قالت عائشة رضي الله عنها (سبحان الذي وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكي زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا في جنب البيت، وإنه ليخفى علي بعض كلامها، فأنزل الله قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: معتدلٌ عند الله منكم، أيها الناس، الذي أسر القول، والذي جهر به".

قال الواحدي:"الجاهر بنطقه والمُضمر في نفسه".

قال السمعاني والبغوي:"معناه: يستوي في علم الله المسر بالقول والجاهر به".

قال الحسن:"يعلم من السر ما يعلم من العلانية، ويعلم من العلانية ما يعلم من السر".

قال قتادة:"كل ذلك سواء عنده السر عنده علانية والظلمة عنده ضوء".

قوله تعالى: {وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد: ١٠]، أي:"ويستوي عنده مَن استتر بأعماله في ظلمة الليل، ومن جهر بها في وضح النهار".

أي: ومن هو مستخف بالليل أي مختف في قعر بيته في ظلام الليل، وسارب بالنهار أي ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كليهما في علم الله على السواء.

كقوله تعالى (وأسروا قولكم أو اجهروا به إنه عليم بذات الصدور ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير).

=

=

وقوله (وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى).

وقوله تعالى (ألا حين يستغشون ثيابهم يعلم ما يسرون وما يعلنون إنه عليم بذات الصدور).

وقوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) إلى غير ذلك من الآيات.

وقوله تعالى (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلا في كتاب مبين).

وأظهر القولين في المستخفي بالليل والسارب بالنهار: أن المستخفي هو المختفي المستتر عن الأعين، والسارب هو الظاهر البارز الذاهب حيث يشاء. (أضواء البيان).

عن قتادة:"{ومن هو مستخف بالليل}، أي: في ظلمة الليل".

قال الفراء "(وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) أي: ظاهر بالنهار. يقول: هو يعلم الظاهر والسر وكل عنده سواء".

قال أبو عبيدة:"سالك فى سربه، أي: مذاهبه ووجوهه، ومنه قولهم: أصبح فلان آمنا فى سربه، أي فى مذاهبه وأينما توجه، ومنه: انسرب فلان".

قال ابن قتيبة:"أي: متصرف في حوائجه. يقال: سرب يسرب. وقال الشاعر:

أرى كل قوم قاربوا قيد فحلهم ... ونحن خلعنا قيده فهو سارب

أي: ذاهب".

قال الزجاج:"أي: من هو مستتر بالليل، والليل أستر من النهار، ومن هو {سارب بالنهار}، أي: من هو ظاهر بالنهار في سربه، يقال: خل له سربه أي طريقه، فالمعنى الظاهر في الطرقات، والمستخفي في الظلمات، والجاهر بنطقه، والمضمر

=

=

في نفسه علم الله فيهم جميعا سواء، وذكر قطرب وجها آخر، ذكر أنه يجوز أن يكون {مستخف بالليل} ظاهرا بالليل، وهذا في اللغة جائز، ويكون مع هذا {وسارب بالنهار}، أي: مستتر، يقال: انسرب الوحشي إذا دخل في كناسه.
-قال الزجاج-: والأول بين، وهو أبلغ في وصف علم الغيب".
قال الطبري:"والذي هو مستخفٍ بالليل في ظلمته بمعصية الله، {وسارب بالنهار}، يقول: وظاهر بالنهار في ضوئه، لا يخفى عليه شيء من ذلك. سواء عنده سِرُّ خلقه وعلانيتهم، لأنه لا يستسرّ عنده شيء ولا يخفى، يقال منه:"سَرَبَ يَسْرَبُ سُرُوبًا" إذا ظهر، كما قال قيس بن الخطيم:

أَنَّى سَرَيْتِ وَكُنْتِ غَيْرَ سَرُوبِ وَتُقَرِّبُ الأَحْلامُ غَيْرَ قَرِيبِ

يقول: كيف سريت بالليل [على] بُعْد هذا الطريق، ولم تكوني تبرُزين وتظهرين؟ وكان بعضهم يقول: هو السَّالك في سَرْبه: أي في مذهبه ومكانه".
قال الواحدي:"والظَّاهر في الطُّرقات والمستخفي في الظُّلمات، علمُ الله سبحانه فيهم جميعـًا سواءٌ، والمستخفي معناه: المختفي والسَّارب: الظَّاهر المارُّ على وجهه".
قال السمعاني:"قوله: {ومن هو مستخف بالليل}، أي: مستتر بظلمة الليل وقوله: {وسارب بالنهار}، أي: ظاهر ذاهب بالنهار، و «السرب»: الطريق".
قال القتيبي: " «سارب بالنهار»، أي: متصرف في حوائجه".
وفي قوله تعالى: {وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ} [الرعد: ١٠]، وجهان:
أحدهما: يعلم من استخفى بعمله في ظلمة الليل، ومن أظهره في ضوء النهار.
قال الحسن:"«السارب»: النادي بالنهار".
وقال الحسن:"يعلم من الليل ما يعلم من النهار، ويعلم من النهار ما يعلم من
=

لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١).

{لَهُ} لِلْإِنْسَانِ {مُعَقِّبَات} مَلَائِكَة تَتَعَقَّبهُ {مِنْ بَيْن يَدَيْهِ} قُدَّامه {وَمِنْ خَلْفه} وَرَائِهِ {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أمر الله} أي بأمره من الجن وغيره {إِنَّ الله لَا يُغَيِّر مَا بِقَوْمٍ} لَا يَسْلُبهُمْ نِعْمَته {حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} مِنْ الْحَالَة الْجَمِيلَة بِالْمَعْصِيَةِ {وَإِذَا أَرَادَ الله بِقَوْمٍ سُوءًا} عَذَابًا {فَلَا مَرَدَّ لَهُ} مِنْ الْمُعَقِّبَات وَلَا غَيْرهَا {وَمَا لَهُمْ} لِمَنْ أَرَادَ الله بِهِمْ سُوءًا {مِنْ دُونه} أَيْ غَيْر الله {مِنْ} زَائِدَة {وَالٍ} يَمْنَعهُ

=

الليل".

عن مجاهد: قوله: " {ومن هو مستخف بالليل}، قال: راكب رأسه بالمعاصي"، " {وسارب بالنهار}، قال: ظاهر بالنهار بالمعاصي".

عن ابن عباس قوله: " {وسارب بالنهار}، قال إذا خرج بالنهار أرى الناس أنه بري من الإثم".

وقال مقاتل:"يقول: من هو مستخف بالمعصية في ظلمه الليل، ومنتشر بتلك المعصية بالنهار معلن بها، فعلم ذلك كله عند الله- تعالى- سواء".

الثاني: يرى ما أخفته ظلمة الليل كما يرى ما أظهره ضوء النهار، بخلاف المخلوقين الذين يخفي عليهم الليل أحوال أهلهم. قال الشاعر:

وَلَيْلٍ يَقُولُ المَرْءُ مِنْ ظُلُمَاتِه ... سَوَاءٌ صَحِيحَاتُ العُيُونِ وَعُورُهَا

و «السارب»: هو المنصرف الذاهب، مأخوذ من: السُّروب في المرعى، وهو بالعشي، والسروج بالغداة.

عَنْهُمْ(١).

(١) قوله تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ} [الرعد: ١١]، أي:"لله تعالى ملائكة يتعاقبون على الإنسان من بين يديه ومن خلفه، يحفظونه بأمر الله ويحصون ما يصدر عنه من خير أو شر".

قال التستري:"يعني: ملائكة الليل والنهار يعقب بعضهم بعضا يحفظونه من أمر الله مقاديره على عبده من خير وشر، ويشهدون له بالوفاء، وعليه بالجفاء يوم القيامة".

قال الثعلبي:"«التعقيب»: العود بعد المبدأ، قال الله: {وَلَمْ يُعَقِّبْ} [النمل: ١٠ - القصص:٣١]".

وقد اختلف العلماء في معنى [من] في قوله {من أمر الله} كما يلي:

القول الأول: أن [من] بمعنى [الباء] كما هو قول ابن عقيل، وهو مروي عن قتادة، وهو ما عليه أكثر المفسرين، وحروف الجر يقوم بعضها مقام بعض، والمعنى: يحفظونه بأمر الله.

القول الثاني: أن [من] بمعنى [عن]، أي: يحفظونه عن أمر الله، والقولان متقاربان معنى، ومؤداهما واحد كما قال القرطبي: (يحفظونه من أمر الله أي: بأمر الله وبإذنه فـ[من] بمعنى [الباء] وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض، وقيل: [من] بمعنى [عن] أي: يحفظونه عن أمر الله، وهذا قريب من الأول، أي: حفظهم عن أمر الله لا من عند أنفسهم، وهذا قول الحسن، تقول: كسوته عن عري، ومن عري، ومنه قوله ﷻ: {أطعمهم من جوع} [قريش:٤] أي: عن جوع).

القول الثالث: أن [من] باقية على بابها، والمعنى: يحفظونه من أمر الله.

وهذا مروي عن ابن عباس ومجاهد حيث قالا: (الملائكة من أمر الله).

والذي يظهر لي أن المعاني كلها متقاربة؛ لأن هذا المعنى أيضا لا يخرج عما قبله، =

=

فالملائكة يحفظونه بأمر الله أو من أمر الله حتى يأتي أمر الله، أما من ناحية اللفظ فبقاء الحرف على بابه هو الأولى.

وكل حرف من حروف الصفات له عدة معاني، وتؤدي بعض الحروف معنى الآخر، دون إخلال بالمعنى، والنصوص دالة على صحة هذا الاستعمال:

فـ[من] تأتي بمعنى [الباء]، كما في قوله تعالى: {ينظرون من طرف خفي} [الشورى:٤٥]، أي: بطرف خفي.

وتأتي بمعنى [عن]، كما في قوله تعالى: {فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله} [الزمر:٢٢]، أي: عن ذكر الله.

ومما يؤيد جواز كل المعاني: أن كلا من [الباء] و [من] و [عن] تأتي بمعنى التعليل، فبينها معنى مشترك، ومن أمثلة ذلك:

قوله تعالى: {مما خطيئاتهم أغرقوا فأدخلوا نارا} [نوح:٢٥]، أي: بسببها.

وقال تعالى: {فكلا أخذنا بذنبه} [العنكبوت:٤٠]، أي: بسببه.

وقال تعالى: {وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك} [هود:٥٣]، أي بسببه.

فلو جعل معنى الآية التي معنا إجمالا: يحفظونه بسبب أمر الله، لكان ذلك صوابا.

ومن المعاني التي ذكرها الزمخشري في الآية قوله: (يحفظونه من أجل أمر الله).

وذكر ابن الجوزي من المعاني: (يحفظونه لأمر الله فيه حتى يسلموه إلى ما قدر له).

وبهذا تجتمع الأقوال. والله تعالى أعلم.

- قال الشوكاني: والمعقبات المتناوبات التي يخلف كل واحد منها صاحبه ويكون بدلا منه.

وهم الحفظة من الملائكة في قول عامة المفسرين. قال الزجاج: المعقبات ملائكة يأتي بعضهم بعقب بعض.

=

=

- قال ابن الجوزي: وقال أكثر المفسرين: هم الحفظة، اثنان بالنهار واثنان بالليل، إذا مضى فريق، خلف بعده فريق، ويجتمعون عند صلاة المغرب والفجر.

أي: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة أملاك بالليل، بدلا حافظان وكاتبان.

كما جاء في الصحيح (يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون في صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم: كيف تركتم عبادي؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون).

واختلف أيضا في عود الضمير في قوله تعالى: {لَهُ مُعَقِّبَاتٌ} [الرعد: ١١]، على أربعة أقوال:

أحدها: أنها ترجع إلى رسول الله ﷺ، وهذا القول منسوب إلى ابن عباس، وبه قال أبو الجوزاء، وابن زيد.

حكي الثعلبي عن جويبر عن الضحاك عن ابن عباس قال: " {له معقبات}، يعني: محمد -عليه السلام- من الرحمن حراس من بين يديه ومن خلفه، {يحفظونه من أمر الله}، يعني: من شر الجن والإنس ومن شر طارق الليل والنهار" وإسناده ضعيف جدا.

قال ابن زيد:"أتى عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة إلى رسول الله ﷺ. فقال له عامر: ما تجعل لي إن أنا تبعتك. قال: أنت [فارس؟] أعطيك [أعنة} الخيل قال:

=

=

قط، قال: فما تبتغي؟ قال: لي الشرق ولك الغرب. قال: لا.. قال: فلي الوبر ولك المدر قال: لا. قال:

لأملأنها عليك خيلا ورجالا. قال: يمنعك الله ذلك ابنا قيلة- يريد الأوس والخزرج- قال: مخرجا. فقال عامر لأربد إن كان الرجل لنا يمكنا لو قتلناه ما انتطحت فيه عنزان ولرضوا بأن يعقله لهم وأحبوا السلم وكرهوا الحرب إذا رأوا أمرا قد وقع. فقال له الآخر: إن شئت فتشاورا. وقال: ارجع فإنما أشغله عليك بالمجادلة، وكن أنت وراءه واضربه بالسيف ضربة واحدة فكانا كذلك، وأخذ وراء النبي ﷺ والآخر يجادله. فقال: اقصص علينا قصصك. قال: ما تقول. قال: قرآنك. قال: فجعل يجادله ويستبطيه حتى قال له: مالك خمشت قال: وضعت يدي على قائم السيف فيبست فما قدرت أن أخلي ولا أمري ولا أحركها، قال: فخرجنا فلما كانا بالحرة سمع بذلك سعد بن معاذ وأسيد بن حضير، فخرجا إليه على كل واحد منهما لامته ورمحه بيده وهو متقلد سيفه فقالا لعامر بن الطفيل: يا أعور الخبيث أنت الذي يشترط على رسول الله ﷺ...... قال: فلولا أنك في إمارة رسول الله فما رمت المنزل حتى يضرب عينيك، ولكن لا تسعلوها وكان أشد الرجلين عليه أسيد بن حضير فقال: من هذا؟. قالوا: هذا أسيد بن حضير. فقال له: لو كان أبوه حيا لم يفعل بي هذا. ثم قال عامر لأربد: اخرج أنت يا أربد إلى ناحية عدية وأخرج أنا إلى نجد فنجمع الرجال فنلتقي عليه. فخرج أربد حتى إذا كان بالرقم بعث الله عليه سحابة من الصيف فيها صاعقة فأحرقته. فخرج عامر حتى إذا كان بوادي يقال له: الجريد أرسل الله عليه الطاعون فجعل يصيح يا عامر أغدة كغدة البكر تقتلك. يا عامر غدة كغدة البكر تقتلك ومرت أيضا في بيت سلولية وهي امرأة من قيس. قال: فذلك قول الله: {سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ

=

خَلْفِهِ}، لرسول الله ﷺ {يَحْفَظُونَهُ} تلك المعقبات {مِنْ أَمْرِ اللهِ} هذا مقدم ومؤخر لرسول الله معقبات يحفظونه من بين يديه ومن خلفه قال: تلك المعقبات من أمر الله" وإسناده ضعيف.

وزاد في رواية الطبري:"وقال لهذين: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم} فقرأ حتى بلغ: {يرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء} الآية، فقرأ حتى بلغ: {وما دُعاء الكافرين إلا في ضلال}. قال وقال لبيد في أخيه أربد، وهو يبكيه:

أَخْشَى عَلَى أَرْبَدَ الحُتُوفَ وَلا أَرْهَبُ نَوْءَ السِّمَاكِ وَالأَسَد

فَجّعَنِي الرَّعْدُ وَالصَّوَاعِقُ بِال فَارِسِ يَوْمَ الكَرِيهَةِ النَّجُدِ".

قال الطبري:"وهذا القول الذي قاله ابن زيد في تأويل هذه الآية، قولٌ بعيد من تأويل الآية، مع خلافِه أقوالَ من ذكرنا قوله من أهل التأويل، وذلك أنه جعل «الهاء» في قوله: {له معقبات} من ذكر رسول الله ﷺ، ولم يجر له في الآية التي قبلها ولا في التي قبل الأخرى ذكرٌ، إلا أن يكون أراد أن يردّها على قوله: {إنما أنت منذر ولكل قوم هاد له معقبات} فإن كان ذلك، فذلك بعيدٌ، لما بينهما من الآيات بغير ذكر الخبر عن رسول الله ﷺ".

والثاني: إلى الملك من ملوك الدنيا، رواه الضحاك عن ابن عباس.

والثالث: إلى الإنسان، قاله الزجاج.

والرابع: إلى الله تعالى، ذكره ابن جرير الطبري، وأبو سليمان الدمشقي، وبه قال الثعلبي.

قال الطبري:"فكونها عائدة على «مَنْ» التي في قوله: {ومَنْ هو مستخف بالليل} أقربُ، لأنه قبلها والخبر بعدها عنه، فإذا كان ذلك كذلك، فتأويل الكلام: سواء منكم، أيها الناس من أسرّ القول ومن جهر به عند ربكم، ومن هو مستخف بفسقه وريبته في ظلمة الليل، وساربٌ يذهب ويجيء في ضوء النهار ممتنعًا بجنده

=

وحرسه الذين يتعقبونه من أهل طاعة الله أن يحولوا بينه وبين ما يأتي من ذلك، وأن يقيموا حدَّ الله عليه، وذلك قوله: (يحفظونه من أمر الله}".

وفي «المعقبات»، قولان:

أحدهما: أنها الملائكة، تعقب بالليل والنهار تكتب عمل ابن آدم. قاله ابن عباس، وبه قال مجاهد، والحسن، وقتادة، وعطاء، وإبراهيم النخعي، وأبو صالح، وابن جريج، ومقاتل.

قال عطاء:"فيقال هم الكرام الكاتبون حفظة من الله على ابن آدم أمروا بذلك".

قال الزجاج: "أي: للإنسان ملائكة يعتقبون، يأتي بعضهم بعقب بعض".

وحكي ابن الجوزي عن أكثر المفسرين: "هم الحفظة، اثنان بالنهار واثنان بالليل، إذا مضى فريق، خلف بعده فريق، ويجتمعون عند صلاة المغرب والفجر".

قال الفراء:"«المعقبات»: الملائكة، ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار يحفظونه".

قال أبو عبيدة:"ملائكة تعقّب بعد ملائكة، وحفظة تعقّب بالليل حفظة النهار وحفظة النهار تعقّب حفظة الليل، ومنه قولهم: فلان عقّبنى، وقولهم: عقّبت فى أثره".

عن قتادة، قوله: " {له معقبات من بين يديه ومن خلفه}، هذه ملائكة الليل يتعاقبون فيكم بالليل والنهار. وذكر لنا أنهم يجتمعون عند صلاة العصر وصلاة الصبح، وفي قراءة أبيّ بن كعب: «لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَرَقِيبٌ مِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِن أَمْرِ اللهِ»".

قال مجاهد:"ما من عبدٍ إلا له ملك موكَّل يحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوامّ، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال: وراءَك! إلا شيئًا يأذن الله فيه فيصيبه".

عن كنانة العدوي قال: "دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ فقال: يا رسول

=

=

الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك؟ قال: ملك على يمينك على حسناتك، وهو أمينٌ على الذي على الشمال، فإذا عملتَ حسنة كُتِبت عشرًا، وإذا عملت سيئة قال الذي على الشمال للذي على اليمين: اكتب! قال: لا لعله يستغفر الله ويتوب! فإذا قال ثلاثًا قال: نعم اكتب أراحنا الله منه، فبئس القرين، ما أقل مراقبته لله، وأقل استحياءَه منّا! يقول الله: {مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ} [سورة ق: ١٨]، وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله}، وملك قابض على ناصيتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبَّرت على الله قصمك. وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك إلا الصَّلاة على محمد. وملك قائم على فيك لا يدع الحيّة تدخل في فيك، وملكان على عينيك. فهؤلاء عشرة أملاك على كلّ آدميّ، ينزلون ملائكة الليل على ملائكة النهار، [لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار] فهؤلاء عشرون ملكًا على كل آدمي، وإبليس بالنهار وولده بالليل".

وقال قوم، منهم ابن زيد: هذه الآية خاصة في رسول الله ﷺ، عزم عامر بن الطفيل وأربد بن قيس على قتله، فمنعه الله منهما، وأنزل هذه الآية.

والقول الثاني: أن المعقبات حراس الملوك الذين يتعاقبون الحرس، وهذا مروي عن ابن عباس في رواية سعيد بن جبير، وبه قال عكرمة، والضحاك.

قال الضحاك: "هو السلطان المحترس من الله، وهم أهل الشرك".

قال الطبري:"وأولى التأويلين في ذلك بالصواب، قولُ من قال: «الهاء»، في قوله: {له معقبات} من ذكر «مَنْ» التي في قوله: {ومَنْ هو مستخف بالليل}، وأن المعقبات من بين يديه ومن خلفه، هي حرسه وجلاوزته، كما قال ذلك من ذكرنا قوله، لأن قوله: {له معقبات} أقرب إلى قوله: {ومن هو مستخف بالليل} منه إلى عالم الغيب، فهي لقربها منه أولى بأن تكون من ذكره، وأن يكون المعنيَّ

=

=

بذلك هذا، مع دلالة قول الله: {وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له} على أنهم المعنيُّون بذلك، وذلك أنه جل ثناؤه ذكر قومًا أهل معصيةٍ له وأهلَ ريبة، يستخفون بالليل ويظهرون بالنهار، ويمتنعون عند أنفسهم بحرس يحرسهم، ومَنْعَة تمنعهم من أهل طاعته أن يحولوا بينهم وبين ما يأتون من معصية الله. ثم أخبر أنّ الله تعالى ذكره إذا أراد بهم سوءًا لم ينفعهم حَرَسهم، ولا يدفع عنهم حفظهم".

وفي قوله تعالى: قوله تعالى: {يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ} [الرعد: ١١]، وجوه من التفسير:

أحدها: يحرسونه من أمر الله ولا يقدرون، قاله ابن عباس، وعكرمة، وهو قول من قال: هي في المشركين المحترسين من أمر الله.

قال ابن عباس:"يعني: ولّى الشيطان، يكون عليه الحرس يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، يقول الله ﷻ: يحفظونه من أمري، فإني إذا أردت بقوم سوءًا فلا مرد له وما لهم من دونه من والٍ".

والثاني: أن المعنى: حفظهم له من أمر الله، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، فيكون تقدير الكلام: هذا الحفظ مما أمرهم الله به.

روي عن ابن عباس قوله: " {يحفظونه من أمر الله} ، يقول: بإذن الله، فالمعقبات من أمر الله وهي الملائكة".

والثالث: يحفظونه بأمر الله، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، ومقاتل.

قال قتادة:"وفي بعض القراءات «بِأَمْرِ اللهِ»".

قال أبو عبيدة:"«يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ»، أي: بأمر الله يحفظونه من أمره".

قال الزجاج: " المعنى: حفظهم إياه من أمر الله، أي مما أمرهم الله تعالى به، لا أنهم يقدرون أن يدفعوا أمر الله، كما تقول: يحفظونه عن أمر ا".

=

=

وحكي ابن الجوزي عن اللغويون: أن "الباء تقوم مقام «من»، وحروف الصفات يقوم بعضها مقام بعض".

والرابع: يحفظونه من الجن، قاله إبراهيم النخعي.

وقال مجاهد: "ما من عبد إلا له ملك موكّل يحفظه في نومه ويقظته من الجنّ والإنس والهوامّ، فما منهم شيء يأتيه يريده إلا قال: وراءَك إلا شيئًا يأذن الله فيصيبه".

وقال كعب: " لو تجلَّى لابن آدم كلّ سهلٍ وحزنٍ لرأى على كل شيء من ذلك شياطين. لولا أن الله وكَّل بكم ملائكةً يذبُّون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذًا لتُخُطِّفتم".

وقال أبو مجلز: " جاء رجل من مُرادٍ إلى عليّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وهو يصلي، فقال: احترس، فإنّ ناسًا من مراد يريدون قتلك! فقال: إنّ مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدَّر، فإذا جاء القدَرُ خلَّيا بينه وبينه، وإن الأجل جُنَّةٌ حصينة".

قال مقاتل:"يحفظونه من أمر الله يعني بأمر الله من الإنس والجن مما لم يقدر أن يصيبه حتى تسلمه المقادير فإذا أراد الله أن يغير ما به لم تغن عنه المعقبات شيئا".

والخامس: يحفظونه من الموت. رواه الضحاك عن ابن عباس.

والسادس: أن في الكلام تقديما وتأخيرا، والمعنى: له معقبات من أمر الله يحفظونه، قاله أبو صالح، والفراء.

قال أبو صالح:"ملائكة الليل، يعقُبُون ملائكة النهار".

قال الفراء:"والمعقبات من أمر الله عَزَّ وَجَلَّ يحفظونه، وليس يحفظ من أمره إنما هو تقديم وتأخير والله أعلم، ويكون {يحفظونه} ذلك الحفظ من أمر الله وبأمره وبإذنه عَزَّ وَجَلَّ كما تقول للرجل: أجيئك من دعائك إياي وبدعائك إياي والله أعلم بصواب ذلك".

=

=

والسابع: يحفظونه لأمر الله فيه حتى يسلموه إلى ما قدر له، ذكره أبو سليمان الدمشقي.

واستدل بما روى عكرمة عن ابن عباس: " {يحفظونه من أمر الله}، قال: يحفظونه حتى إذا جاء القدر خلوا عنه".

وقال عكرمة: "يحفظونه لأمر الله".

والثامن: يحفظون عليه الحسنات والسيئات، قاله ابن جريج.

قال ابن جريج:"يحفظون عليه من الله".

قال الطبري:"يعني ابن جريج بقوله: «يحفظون عليه»، الملائكة الموكلة بابن آدم، بحفظ حسناته وسيئاته، وهي «المعقبات» عندنا، تحفظ على ابن آدم حسناته وسيئاته من أمر الله".

قال الأخفش: "وإنما أنث «المعقبات» لكثرة ذلك منها، نحو النسابة، والعلامة ثم ذكر في قوله: «يحفظونه»، لأن المعنى مذكر".

قال الفراء:"«المعقبات»: ذكران إلا أنه جميع جمع ملائكة معقبة، ثم جمعت معقبة، كما قال: أبناوات سعد، ورجالات جمع رجال".

عن عمرو بن دينار عن ابن عباس:"أنه كان يقرأ: له معقبات من بين يديه: «ورقباء من خلفه»".

وقرئ: «له معاقيب» جمع: معقب أو معقبة، و «الياء» عوض من حذف إحدى القافين في التكسير.

وفي هذه الآية قولان:

أحدهما: أنها عامة في جميع الخلق، حكاه الماوردي عن الجمهور.

الثاني: أنها خاصة نزلت في رسول الله- ﷺ-حين أزمع عامر بن الطفيل وأريد بن ربيعة أخو لبيد على قتل رسول الله -ﷺ- فمنعه الله ﷻ منهما وأنزل هذه الآية

=

=

فيه، قاله ابن زيد.

عن عبد الله بن الجارود، قال: سمعت الجارود بن أبي سبرة، قال: "دخلت أنا وأبي على ابن عباس بالشام وقد خرج من مستحم له وقد اغتسل قال: وإنه مستلقي يقول: {له معقبات من بين يديه ومن خلفه}، قال يا أبا سبرة: ليس هناك المعقبات ولكن له المعقبات من بين يديه ورقيب من خلفه".

قال الثعلبي:"قال أهل المعاني: إن أوامر الله ﷻ على وجهين أحدهما قضى حلوله ووقوعه بصاحبه، فذلك ما لا يدفعه أحد ولا يغيره بشر ولا حتى الجن ولم يقض حلوله ووقوعه، بل قضى صرفه بالتوبة والدعاء والصدقة والحفظة كقصة يونس -عليه السلام-".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ} [الرعد: ١١].

بين تعالى في هذه الآية الكريمة: أنه لا يغير ما بقوم من النعمة والعافية حتى يغيروا ما بأنفسهم من طاعة الله جل وعلا، (من طاعة إلى معصية ومن جميل إلى قبيح، ومن صلاح إلى فساد).

والمعنى: أنه لا يسلب قوما نعمة أنعمها عليهم حتى يغيروا ما كانوا عليه من الطاعة والعمل الصالح.

وبين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله (ذلك بأن الله لم يك مغيرا نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ما بأنفسهم).

وقوله (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير).

وقد سئل ﷺ: «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم إذا كثر الخبث»

- قال الرازي: قوله تعالى (إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) فكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد.

=

=

- قال ابن عطية: ومعنى هذه الآية الإخبار بأن الله ﷻ إذا أنعم على قوم نعمة فإنه بلطفه ورحمته لا يبدأ بتغيرها وتكديرها حتى يجيء ذلك منهم بأن يغيروا حالهم التي تراد وتحسن منهم، فإذا فعلوا ذلك وتلبسوا بالتكسب للمعاصي أو الكفر الذي يوجب عقابهم غير الله نعمته عليهم بنقمته منهم، ومثال هذا نعمة الله على قريش بمحمد ﷺ فكفروا ما كان يجب أن يكونوا عليه، فغير الله تلك النعمة بأن نقلها إلى غيرهم من الأنصار وأحل بهم عقوبته.

- وقال القرطبي: قوله تعالى (ذلك بأن الله...) تعليل، أي هذا العقاب؛ لأنهم غيروا وبدلوا، ونعمة الله على قريش الخصب والسعة، والأمن والعافية (أولم يروا أنا جعلنا حرما آمنا ويتخطف الناس من حولهم).

- وهذه من سنن الله الاجتماعية، أنه تعالى لا يبدل ما بقوم من عافية ونعمة، وأمن وعزة، الا إذا كفروا تلك النعم، وارتكبوا المعاصي، وفي الأثر " أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية، ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله، فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا حول الله عنهم ما يحبون الى ما يكرهون.

قال تعالى (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير).

وقال تعالى (وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون).

وقال تعالى (أولما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير).

علي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ -: لا يرجون عبد إلا ربه، ولا يخافن إلا ذنبه.

قال الطبري:"قول تعالى ذكره: {إن الله لا يغير ما بقوم}، من عافية ونعمة، فيزيل ذلك عنهم ويهلكهم {حتى يغيروا ما بأنفسهم} من ذلك بظلم بعضهم بعضا،

=

=

واعتداء بعضهم على بعض، فتحل بهم حينئذ عقوبته وتغييره".

قال قتادة:"وإنما يجيء التغيير من الناس والتيسير من الله فلا تغيروا ما بكم من نعم الله".

عن إبراهيم: "أوحى الله ﷻ إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله إلا تحول الله مما يحبون إلى ما يكرهون ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله: {إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم}".

قوله تعالى: {وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ} [الرعد: ١١]، أي:"وإذا أراد الله بجماعةٍ بلاءً، فلا يقدر على ردّ ذلك أحد".

قال الطبري:"يقول: وإذا أراد الله- بهؤلاء الذين يستخفون بالليل ويسربون بالنهار، لهم جند ومنعة من بين أيديهم ومن خلفهم، يحفظونهم من أمر الله- هلاكا وخزيا في عاجل الدنيا، فلا يقدر على رد ذلك عنهم أحد غير الله".

قال ابن عباس:"فإذا جاء أمر الله لم يغن الملوك الذين يتخذون الحرس منه شيئا".

قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ} [الرعد: ١١]، أي:"وليس لهم مِن دون الله مِن وال يتولى أمورهم، فيجلب لهم المحبوب، ويدفع عنهم العذاب والمكروه".

والجملة الكريمة بيان لمظهر من مظاهر عدل الله في شئون عباده، وتحذير شديد لهم من الإصرار على الشرك والمعاصي وجحود النعمة، فإنه سبحانه لا يعصم الناس من عذابه عاصم. ولا يدفعه دافع.

قال الطبري:"يقول: وما لهؤلاء القوم من دون الله من وال يليهم ويلي أمرهم وعقوبتهم".

=

هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢).

{هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْق خَوْفًا} لِلْمُسَافِرِينَ مِنْ الصَّوَاعِق {وَطَمَعًا} لِلْمُقِيمِ فِي الْمَطَر {وَيُنْشِئ} يَخْلُق {السَّحَاب الثِّقَال} بِالْمَطَرِ.

وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣).

{وَيُسَبِّح الرَّعْد} هُوَ مَلَك مُوَكَّل بِالسَّحَابِ يَسُوقهُ مُتَلَبِّسًا {بِحَمْدِهِ} أَيْ يَقُول سُبْحَان الله وَبِحَمْدِهِ {و} يُسَبِّح {الْمَلَائِكَة مِنْ خِيفَته} أَيْ الله {وَيُرْسِل الصَّوَاعِق} وَهِيَ نَار تَخْرُج مِنْ السَّحَاب {فَيُصِيب بِهَا مَنْ يَشَاء} فَتُحْرِقهُ نَزَلَ فِي رَجُل بَعَثَ إِلَيْهِ النَّبِيّ ﷺ مَنْ يَدْعُوهُ فَقَالَ مَنْ رَسُولُ الله وَمَا الله أَمِنْ ذَهَب هُوَ أَمْ مِنْ فِضَّة أَمْ نُحَاس فَنَزَلَتْ بِهِ صَاعِقَة فَذَهَبَتْ بِقِحْفِ رَأْسه {وَهُمْ} أَيْ الْكُفَّار {يُجَادِلُونَ} يُخَاصِمُونَ النَّبِيّ ﷺ {فِي الله وَهُوَ شَدِيد الْمِحَال} الْقُوَّة أَوْ الْأَخْذ[1].

=

قال ابن قتيبة:"أي: ولي".

قال الزجاج: " أي: لا يلي أمرهم أحد من دون الله".

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: ليس لهم من عذابه ولي، ولا قريب يمنعهم، ولا ملجأ يلجئون إليه".

قال الزمخشري:"ممن يلي أمرهم ويدفعه عنهم".

قال مقاتل:"يعني: ولي يرد عنهم العذاب".

قال السدي:"هو الذي يولاهم فينصرهم ويلجيهم إليه".

(١) ذكر سبب النزول.

عن أنس رضي الله عنه؛ قال: بعث رسول الله ﷺ رجلًا من أصحابه إلى رجل من عظماء

=

=

الجاهلية يدعوه إلى الله تبارك وتعالى، فقال المشرك: أيش ربك الذي تدعوني إليه؟ من حديد هو؟ من نحاس هو؟ من فضة هو؟ من ذهب هو؟ فتعاظم مقالته، فأتى النبي ﷺ فأخبره، فأعاده النبي ﷺ الثانية، فقال مثل ذلك، فأتى النبي ﷺ فأخبره فأرسله الثالثة، فقال مثل ذلك، فأتى النبي ﷺ فأخبره؛ فأرسل الله تبارك وتعالى عليه صاعقة فأحرقته، فقال رسول الله ﷺ: "إن الله تبارك وتعالى قد أرسل على صاحبك صاعقة فأحرقته"؛ فنزلت هذه الآية: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

أخرجه النسائي في الكبرى (١١٢٥٩)، أبو يعلى (٣٣٤١، ٣٣٤٢، ٣٤٦٨)، والبزار (٢٢٢١ - كشف)، وابن أبي عاصم في السنة (٦٩٢)، والطبري في تفسيره (١٣/ ١٢٥)، والعقيلي (٣/ ٢٣٢ - ٢٣٣)، والطبراني في الأوسط (٢٦٢٣) والدينوري في المجالسة (١١٤٥٣) والبيهقي في الإسماء والصفات (٢/ ٣٧)، وفي الدلائل (٦/ ٢٨٣)، والهروي في ذم الكلام (٣/ ٢٠٥، رقم ٦٤٤)، والضياء في المختارة (٥/ ٨٨) والحديث صححه الألباني في ظلال الجنة (٦٩٢)، وقال الشيخ مقبل في الجامع الصحيح مما ليس في الصحيحين (٦/ ٧٣): هذا حديث صحيح، وقال صاحبا الإستيعاب في بيان الأسباب (٢/ ٣٨٠): إسناده حسن.

وعن مجاهد؛ قال: جاء يهودي إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد! من أي شيء ربك؟ أمن لؤلؤ هو أورن ياقوت؟ فأرسل الله عليه صاعقة؛ فقتلته؛ ونزلت: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ ...} الآية.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ٨٤)، والهروي في "ذم الكلام وأهله" (٣/ ٢١٤، ٢١٥ رقم ٦٤٩) من طريق أبي بكر بن عياش عن ليث بن أبي سليم عن مجاهد به. وهذا سند ضعيف، وذكر اليهود فيه منكر، والحديث فيه علتان: الأولى: الإرسال. والثانية: ليث ابن أبي سليم؛ صدوق اختلط أخيرًا، ولم يتميز

=

=

حديثه؛ فترك؛ كما في "التقريب".

وعن قتادة؛ قال: ذكر لنا أن رجلًا أنكر القرآن، وكذّب النبي ﷺ؛ فأرسل الله عليه صاعقة؛ فأهلكته؛ فأنزل الله ﷻ فيه: {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ٨٤)، والخرائطي في "مكارم الأخلاق" (٢/ ٩٤٢ رقم ١٠٥٥) من طريقين عنه. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن ابن جريج؛ قال: نزلت؛ يعني: قوله: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ} في أَرْبد أخي لبيد بن ربيعة؛ لأنه قدم أَرْبد وعامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر على النبي ﷺ، فقال عامر: يا محمد! أَأُسلم وأكون الخليفة من بعدك؟ قال: "لا"، قال: فأكون على أهل الوبر وأنت على أهل المدر؟ قال: "لا"، قال: فماذا ذاك؟ قال: "أعطيك أعنّة الخيل تقاتل عليها؛ فإنك رجل فارس"، قال: أوَليست أعنة الخيل بيدي، أما والله لأملأنها عليك خيلًا ورجالًا من بني عامر، وقال لأَرْبد: إما أن تكفينيه وأضربه بالسيف، وإما أن أكفيكه وتضربه بالسيف؟ قال أرْبد: أكفيكه وأضربه، فقال ابن الطفيل: يا محمد! إن لي إليك حاجة، قال: "ادن" فلم يزل يدنو، ويقول النبي ﷺ: "ادن"، حتى وضع يديه على ركبتيه، وحنى عليه، واستل أَرْبد السيف، فاستل منه قليلًا، فلما رأى النبي ﷺ بريقه؛ تعوّذ بآية كان يتعوّذ بها، فيبست يد أربد على السيف، فبعث الله عليه صاعقة فأحرقته.

أخرجه سنيد في "تفسيره" - ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ٨٤) - ثني الحجاج عن ابن جريج به. وهذا إسناد ضعيف؛ لإعضاله، وضعف سنيد صاحب "التفسير".

وعن علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا محمد! حدثني من هذا الذي تدعوا إليه؟ أياقوت هو؟ أذهب هو؟ أم ما هو؟ قال: فنزلت على السائل الصاعقة؛ فأحرقته؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ} الآية.

=

=

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ٨٤) من طريق عبد الله بن هاشم ثنا سيف عن أبي روق عن أبي أيوب عن علي به. وهذا إسناد ضعيف جدًا؛ سيف بن عمر التيمي؛ ضعيف باتفاقهم، وتركه بعض أهل العلم، وكذبه ابن حبان واتهمه بالزندقة.

وعن أبيّ بن كعب رضي الله عنه؛ قال: قال خبيث من خبثاء قريش: أخبرونا عن ربكم، من ذهب هو، أم من فضة، أم من نحاس؟! فقعقعت السماء، فإذا قحف رأسه ساقط بين يديه؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ ...}.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٦٢٦) ونسبه لابن أبي حاتم.

* قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا} [الرعد: ١٢]، أي:"هو الذي يريكم من آياته البرق -وهو النور اللامع من خلال السحاب- فتخافون أن تنزل عليكم منه الصواعق المحرقة، وتطمعون أن ينزل معه المطر".

قال الطبري:"يعني: أن الرب هو الذي يري عباده البرق خوفًا للمسافر من أذاه وطمعًا للمقيم أن يمطر فينتفع".

قال ابن عباس: " «البرق»، الماء".

جاء في (التفسير الوسيط) و الله تعالى وحده الذي يريكم بقدرته البرق، فيترتب على ذلك أن بعضكم يخاف ما ينجم عنه من صواعق. أو سيل مدمر، وبعضكم يطمع في الخير من ورائه، فقد يعقبه المطر النافع، والغيث المدرار.

فمن مظاهر حكمة الله تعالى في خلقه، أنه جعل البرق علامة إنذار وتبشير معا، لأنه بالإنذار والتبشير تعود النفوس إلى الحق، وتفيء إلى الرشد.

- قال الشنقيطي: ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يري خلقه البرق خوفا وطمعا، قال قتادة: خوفا للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله.

=

=

وعن الحسن: الخوف لأهل البحر، والطمع لأهل البر.

وفي قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا} [الرعد: ١٢]، ثلاثة وجوه:

أحدها: خوفاً للمسافر من أذيته، وطمعاً للمقيم في بركته، قاله قتادة، وبه قال الفراء.

قال مقاتل:"خوفا للمسافر من الصواعق وطمعا للمزارع المقيم".

الثاني: خوفاً من صواعق البرق، وطمعاً في غيثه المزيل للقحط، قاله الحسن.

الثالث: خوفاً من عقابه وطمعاً في ثوابه. ذكره الماوردي.

قوله تعالى: {وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ} [الرعد: ١٢]، أي:"وهو سبحانه الذي ينشئ السحاب المثقل بالماء، فيرسله من مكان إلى مكان على حسب حكمته ومشيئته".

قال الطبري:"ويثير السحاب الثقال بالمطر ويبدؤه".

عن مجاهد، قوله: " {وينشئ السحاب الثقال}، قال: الذي فيه الماء".

قال مقاتل:"وينشئ يعني ويخلق مثل قوله: {وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنْشَآت} [الرحمن: ٢٤]، يعني: المخلوقات، {السحاب الثقال} من الماء".

قوله تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ} [الرعد: ١٣]، أي:"يسبّح الرعد له تسبيحاً مقترناً بحمده والثناء عليه".

قال الطبري: أي:"ويعظم اللهَ الرعدُ ويمجِّده، فيثني عليه بصفاته، وينزهه مما أضاف إليه أهل الشرك به ومما وصفوه به من اتخاذ الصاحبة والولد، تعالى ربنا وتقدّس".

قال الصابوني:"وتسبيحُ الرعد حقيقةٌ دلَّ عليها القرآن فنؤمن بها وإن لم نفهم تلك الأصوات فهو تعالى لا يخبر إلا بما هو حقٌّ كما قال: {وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ

=

=

بِحَمْدِهِ} [الإسراء: ٤٤]".

وفي الرعد قولان:

أحدهما: أنه الصوت المسموع.

الثاني: أن الرعد ملك، والصوت المسموع تسبيحه، قاله عكرمة.

قال مقاتل:"الرعد ملك من الملائكة اسمه الرعد وهو موكل بالسحاب صوته تسبيحه، يزجر السحاب ويؤلف بعضه إلى بعض ويسوقه بتسبيحه إلى الأرض التي أمر الله- تعالى- أن تمطر فيها".

- قال الخازن: أكثر المفسرين على أن الرعد اسم للملك الذي يسوق السحاب، والصوت المسموع منه تسبيحه.

وأورد على هذا القول ما عطف عليه. وهو قوله (والملائكة من خيفته) وإذا كان المعطوف مغايرا للمعطوف عليه وجب أن يكون غيره، وأجيب عنه أنه لا يبعد أن يكون الرعد اسما لملك من الملائكة وإنما أفرده بالذكر تشريفا له على غيره من الملائكة، فهو كقوله: وملائكته وجبريل وميكال.

قال القرطبي: واختلف العلماء في الرعد ففي الترمذي عن ابن عباس قال (سألت اليهود النبي ﷺ عن الرعد ما هو قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث يشاء الله فقالوا فما هذا الصوت الذي نسمع قال زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر الله قالوا صدقت " الحديث بطوله.

وعلى هذا التفسير أكثر العلماء، فالرعد اسم الصوت المسموع.

- قال البغوي: أكثر المفسرين على أن الرعد اسم ملك يسوق السحاب والصوت المسموع منه تسبيحه.

ولعل مما يؤيد ما عليه عامة المفسرين والمحدثين:

=

=

ما أخرجه مسلم: عن أبى هريرة عن النبي ﷺ قال (بينا رجل بفلاة من الأرض فسمع صوتا في سحابة اسق حديقة فلان. فتنحى ذلك السحاب فأفرغ ماءه في حرة فإذا شرجة من تلك الشراج قد استوعبت ذلك الماء كله فتتبع الماء فإذا رجل قائم في حديقته يحول الماء بمسحاته فقال له يا عبد الله ما اسمك قال فلان. للاسم الذى سمع في السحابة فقال له يا عبد الله لم تسألني عن اسمى فقال إني سمعت صوتا في السحاب الذى هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان لاسمك فما تصنع فيها قال أما إذا قلت هذا فإني أنظر إلى ما يخرج منها فأتصدق بثلثه وآكل أنا وعيالي ثلثا وأرد فيها ثلثه).

فقوله في الحديث (سمعت في السحاب الذي هذا ماؤه يقول اسق حديقة فلان لاسمك) ما يدل على ما عليه عامة المفسرين والمحدثين من أن الرعد ملك يزجر السحاب، والله اعلم.

ورد في الحديث عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: (أقبلت يهود إلى النبي ﷺ فقالوا..... فأخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: الرعد ملك من الملائكة موكل بالسحاب، بيديه أو في يده مخراق من نار يزجربه السحاب، والصوت الذي يسمع منه زجره السحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمره) والحديث أخرجه أحمد (١/ ٢٧٤)، الترمذي (٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٩٠٧٢) وغيرهم، والحديث قال عنه ابن منده في التوحيد (ق ٢١ – ٢٢): هذا إسناد متصل ورواته مشاهير ثقات، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح غريب، وقال أبو نعيم: غريب من حديث سعيد، تفرد به بكير، وحسنه الألباني في الصحيحة (١٨٧٢)، وقال الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند: إسناده صحيح، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: حسن دون قصة الرعد تفرد بها بكير بن شهاب وهو لم يرو عنه سوى اثنين وقال أبو حاتم: شيخ. وقال الذهبي في الميزان: عراقي صدوق.

=

=

قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى (٢٤/ ٢٦٣): وأما " الرعد والبرق " ففي الحديث المرفوع في الترمذي وغيره {أنه سئل عن الرعد قال: ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله} . وفي مكارم الأخلاق للخرائطي: عن علي أنه سئل عن الرعد فقال: " ملك وسئل عن البرق فقال: مخاريق بأيدي الملائكة - وفي رواية عنه - مخاريق من حديد بيده". وروي في ذلك آثار كذلك. وقد روي عن بعض السلف أقوال لا تخالف ذلك. كقول من يقول: إنه اصطكاك أجرام السحاب بسبب انضغاط الهواء فيه فإن هذا لا يناقض ذلك فإن الرعد مصدر رعد يرعد رعدا. وكذلك الراعد يسمى رعدا. كما يسمى العادل عدلا. والحركة توجب الصوت والملائكة هي التي تحرك السحاب وتنقله من مكان إلى مكان وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فهي عن الملائكة وصوت الإنسان هو عن اصطكاك أجرامه الذي هو شفتاه ولسانه وأسنانه ولهاته وحلقه. وهو مع ذلك يكون مسبحا للرب. وآمرا بمعروف وناهيا عن منكر. فالرعد إذا صوت يزجر السحاب وكذلك البرق قد قيل: لمعان الماء أو لمعان النار وكونه لمعان النار أو الماء لا ينافي أن يكون اللامع مخراقا بيد الملك فإن النار التي تلمع بيد الملك كالمخراق مثل مزجي المطر. والملك يزجي السحاب كما يزجي السائق للمطي.

قوله تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ} [الرعد: ١٣]، أي:"وتسبّح له الملائكة خوفاً من عذابه".

قال الطبري: " يقول: وتسبح الملائكة من خيفة الله ورَهْبته".

قال البيضاوي: أي:"من خوف الله تعالى وإجلاله، وقيل: الضمير لـ «الرعد»".

قال ابن عباس: "إنهم خائفون من الله ليس كخوف ابن آدم، لا يعرف أحدهم من على يمينه ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شيء".

=

=

قوله تعالى: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ} [الرعد: ١٣]، أي:"ويرسل الله الصواعق المهلكة فيهلك بها مَن يشاء من خلقه".

قال السمعاني:"الصاعقة: هي العذاب المهلك، وهي تنزل من البرق في بعض الأحوال فتحرق ما تصيبه".

قوله تعالى: {وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ} [الرعد: ١٣]، أي:"وكفار مكة يجادلون في وجود الله ووحدانيته وفي قدرته على البعث".

قال الطبري:"يقول: وهؤلاء الذين أصابهم الله بالصواعق أصابهم في حال خُصومتهم في الله ﷻ لرسوله ﷺ".

قال ابن عباس: "يريد يكذبون بعظمة الله".

قوله تعالى: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [الرعد: ١٣].

أي: وهو تعالى شديد القوة والبطش والنكال، القادر على الانتقام ممن عصاه.

قال أبو عبيدة معمر بن المثنى، وأبو عبيد القاسم بن سلام {وهو شديد المحال} أي: العقوبة والمكروه، وروي عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن المراد: أي شديد الأخذ. وبهذا القول قال الطبري، ورجحه ابن كثير.

وروي عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن المراد: شديد المكر.

وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - ومجاهد، وقتادة، أن المراد: شديد القوة.

وعن مجاهد وسفيان الثوري أن المراد: شديد الانتقام.

وعن عكرمة أن المراد: شديد الحقد.

والأقوال الواردة في المراد بالمحال صحيحة ومتقاربة باستثناء القول الأخير وهو أن المراد بالمحال: الحقد. يقول النحاس: (وهذه أقوال متقاربة).

أما القول الأخير المروي عن عكرمة ومن وافقه وهو أن المراد بالمحال: الحقد، فقد رده بعض المفسرين، قال ابن الجوزي عن هذا القول: (ولا يجوز هذا في

=

=

صفات الله تعالى. قال النقاش: هذا قول منكر عند أهل الخبر والنظر في اللغة، لا يجوز أن تكون هذه صفة من صفات الله ﷻ).

- قال السعدي: شديد المحال أي: شديد الحول والقوة فلا يريد شيئا إلا فعله، ولا يتعاصى عليه شيء ولا يفوته هارب.

فإذا كان هو وحده الذي يسوق للعباد الأمطار والسحب التي فيها مادة أرزاقهم، وهو الذي يدبر الأمور، وتخضع له المخلوقات العظام التي يخاف منها، وتزعج العباد وهو شديد القوة - فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والله شديدةٌ مماحلته في عقوبة من طغى عليه وعَتَا وتمادى في كفره".

و «المحال»: مصدر من قول القائل: ما حلت فلانًا فأنا أماحله مماحلةً ومِحَالا وفعلت منه: مَحَلت أمحَلُ محْلا إذا عرّض رجلٌ رجلا لما يهلكه ؛ ومنه قوله: وَمَاحِلٌ مُصَدَّقٌ، ومنه قول أعشى بني ثعلبة:

فَرْعُ نَبْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصُنِ المَجْ ... دِ غَزِيرُ النّدَى شَدِيدُ المِحَالِ

هكذا كان ينشده معمر بن المثنى فيما حُدِّثت عن علي بن المغيرة عنه. وأما الرواة بعدُ فإنهم ينشدونه:

فَرْعُ فَرْعٍ يَهْتَزُّ فِي غُصُنِ المَجْ ... دِ كِثِيرُ النَّدَى عَظِيمُ المِحَال

وفسّر ذلك معمر بن المثنى، وزعم أنه عنى به العقوبة والمكر والنَّكال ؛ ومنه قول ذي الرمة:

وَلَبْسٍ بَيْنَ أَقْوَامٍ فَكُلٌّ ... أَعَدَّ لَهُ الشَّغَازِبَ وَالمِحَال.

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} [الرعد: ١٣]، على أقوال كما تقدم:

=

=

أحدها: يعني شديد العداوة، قاله ابن عباس.

الثاني: شديد الحقد، رواه عباد بن منصور عن الحسن، وعكرمة.

قال الواحدي:"قال أبو بكر: وهذا على ما بينا من أن غضب الله لما استتر عن المغضوب عليه المعد له، أشبه حقد المخلوق الذي يستر في نفسه، إلى أن المخلوق ينزعج ويتأذى عند الحقد والغضب، والله قد علا عن جميع هذا علوًّا كبيرًا".

الثالث: شديد القوة، قاله مجاهد، وابن زيد.

الرابع: شديد الغضب، قاله وهب بن منبه.

الخامس: شديد القوة والحيلة. قاله قتادة.

السادس: شديد الحيلة، قاله السدي.

السابع: شديد الحَوْل، قاله ابن عباس أيضـًا.

الثامن: شديد الإهلاك بالمحل وهو القحط، قاله الحسن أيضـًا.

التاسع: شديد الأخذ، قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه، وبه قال مقاتل.

العاشر: أنه: ما أصاب أربد من الصاعقة. قاله عكرمة.

الحادي عشر: شديد الانتقام والعقوبة، قاله سفيان الثوري.

الثاني عشر: شديد القدرة والعذاب، و «المحل» في اللغة: الشدة. قاله الزجاج.

الثالث عشر: شديد العقوبة والمكر والنكال. قاله أبو عبيدة وأنشد لأعشى:

فرع نبع يهتز في غصن المجـ د كريم الندى عظيم المحال

إن يعاقب يكن غراما وإن   يعط جزيلا فإنه لا يبالى

فقوله: «غرام»، أي: هلاك، ومنه قوله تعالى: {إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا} [الفرقان: ٦٥]، أي: هلاكا وقد، وقال ذو الرّمّة:

أبرّ على الخصوم فليس خصم   ولا خصمان يغلبه جدالا

=

=

ولـــبس بـــين أقـــوام فكـــل أعـــدّ لـــه الـــشّغازب والمحـــالا

و «الشّغزبة»: الالتواء.

وقال أبو قتيبة:"{وهو شديد المحال}، أي: الكيد والمكر، وأصل المحال: الحيلة. والحول: الحيلة، قال ذو الرمة:

ولـــيس بـــين أقـــوام فكـــل أعـــد لـــه الـــشغازب والمحـــالا".

قال أبو منصور الأزهري: "قول القتيبي في قوله ﷻ: (وهو شديد المحال) أي الحيلة - غلط فاحش. وكأنه توهم أن ميم المحال ميم مفعل، وأنها زائدة. وليس كما توهمه؛ لأن "مفعلا" إذا كان من بنات الثلاثة

فإنه يجيء بإظهار الواو والياء مثل: المزود والمحول والمحور والمعير والمزيل والمجول وما شاكلها. وإذا رأيت الحرف على مثال "فعال" أوله ميم مكسورة - فهي أصلية مثل ميم مهاد وملاك ومراس ومحال وما أشبهها...".

وحكي النحاس عن الحسن:"المكر".

قال النحاس:"وهذه أقوال متقاربة واشبهها بالمعنى والله أعلم أنه: الإهلاك، لأن «المحل»: الشدة، فكأن المعنى: شديد العذاب والإهلاك".

(فائدة) ذكر بعض الأحكام الشرعية الخاصة بالرعد والبرق والصواعق.

الرعد في اللغة:

الراء والعين والدال أصل واحد يدل على حركة واضطراب. وكل شيء اضطرب فقد ارتعد... ومن الباب الرَّعْد، وهو مَصْع مَلَكٍ يسوق السَّحَاب. والمَصْع: الحركة والذهاب والمجيء.

وفي الصحاح: الرعد: الصوت الذي يسمع من السحاب.

وفي الاصطلاح: الرَّعد تفريغ كهربائي من سحابة إلى أخرى أو من سحابة إلى الأرض، يصحبه انبعاث شرارات تعرف بالبرق. وهذه الشرارات تحدث حرارة

=

=

عالية في مناطق الهواء التي تنبعث منها فتتمدد تلك المناطق على نحو فجائي، وهذه الحرارة تجعل جزيئات الهواء تتمدد أو تتطاير في كل الاتجاهات. وبينما تبحث الجزيئات عن حيز أكبر، فإنها تصطدم بعنف بطبقات الهواء البارد، محدثة موجة هوائية ضخمة يكون لها صوت الرعد.

البرق في اللغة:

الباء والراء والقاف أصلان تتفرع الفروع منهما: أحدهما لمعانُ الشيء، والآخر اجتماع السواد والبياض في الشيء. والبرق: وَمِيضُ السَّحاب، يقال بَرَقَ السَّحَابُ بَرْقاً وبَرِيقاً. وأبْرَقَ أيضاً لغة.

وفي الصحاح: برق السيف وغيره يبرق بروقا، أي تلالا. والاسم البريق. والبرق: واحد بروق السحاب. ويقال رعدت السماء وبرقت برقانا.

وفي الاصطلاح: البَرْق شرارة كهربائية عملاقة في السماء. وأغلب البرق الذي يراه الناس يكون بين السحابة وسطح الأرض. ولكن من الممكن حدوث البرق أيضًا داخل سحابة، أو بين السحابة والهواء، أو بين سحابتين.

الصواعق في اللغة:

الصاد والعين والقاف أصل واحد يدلّ على صَلْقَةٍ وشِدَّة صوت. ومن ذلك الصعق، وهو الصوت الشديد. يقال حِمارٌ صَعِقُ الصوت، إذا كان شديده. ومنه الصَّاعقة، وهي الوقع الشديد من الرعد. ومنه قولهم: صَعِق، إذا مات، كأنَّه أصابته صاعقة.

وفي الصحاح: الصاعقة: نار تسقط من السماء في رعد شديد. يقال: صعقتهم السماء إذا ألقت عليهم الصاعقة. والصاعقة أيضا: صيحة العذاب.

وفي الاصطلاح: دوي حاد يسبقة عادة وميض البرق، وهو ناتج عن انفجار شحنة كهربائية كامنة في السماء.

=

=

وقد ورد لفظ الرعد في القرآن في موضعين، ولفظ البرق في مواضع، ولفظ الصاعقة في مواضع، وبلفظ الجمع في موضعين.

وورد الرعد والبرق والصاعقة في السنة في (٢١) حديثًا.

الدلائل العقدية للآيات الكونية - الرعد والبرق والصواعق-:

الرعد والبرق والصواعق من آيات الله الكونية، وجند من جنود الله التي لا يعلمها إلا هو.

وأفرد القرآن الكريم سورة باسم الرعد ذكر الله تعالى فيها من آيات القدرة وعجائب الكون الدالة على وحدانيته وقدرته: الرعد والبرق والصواعق، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

أولاً: وجود الله:

أمر الله -ﷻ- بالتفكر في آياته المشاهدة المحسوسة ومنها البرق، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ} فجعل" إراءتهم البرق، وأنزل الماء من السماء، وإحياء الأرض به آيات لقوم يعقلون؛ فإن هذه أمور مرتبة بالأبصار، مشاهدة بالحس، فإذا نظر فيها ببصر قلبه - وهو عقله - استدل بها على وجود الرب تعالى وقدرته وعلمه ورحمته وحكمته، وإمكان ما أخبر به من حياة الخلائق بعد موتهم كما أحيا هذه الأرض بعد موتها، وهذه أمور لا تدرك إلا ببصر القلب - وهو العقل - فإن الحس دل على الآية، والعقل دل على ما جعلت له آية، فذكر سبحانه الآية المشهودة بالبصر، والمدلول عليه المشهود بالعقل".

ثانيًا: توحيد الربوبية:

=

=

قد جعل الله -ﷻ- البرق دليلاً على عظمته، فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ (٤٣) يُقَلِّبُ اللهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِأُولِي الْأَبْصَارِ}.

ومن آيات الله التي يستدل بها على توحيد الربوبية إنزال المطر الذي تحيا به البلاد والعباد، وقبل نزوله مقدماته من الرعد والبرق الذي يُخاف ويُطمع فيه، فهذه الآيات دالة على عموم إحسانه وسعة علمه وكمال إتقانه، وعظيم حكمته وأنه يحيي الموتى كما أحيا الأرض بعد موتها.

وقال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}.

ثالثـًا: توحيد الأسماء والصفات:

١ - التسبيح: أخبر الله -ﷻ- أن الرعد يسبحه وينزهه عن كل عيب ونقص، قال تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

وعن عبد الله بن الزبير -رضي الله عنهما-: أنه كان إذا سمع صوت الرعد ترك الحديث، وقال: «سبحان من يسبح الرعد بحمده، والملائكة من خيفته».

رابعـًا: توحيد الألوهية:

قال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

أخبر الله -ﷻ- في هذه الآيات - فيما يتعلق بالبرق والرعد والصواعق- أنه يُري

=

=

عباده البرق الذي يخاف منه الصواعق والهدم، وأنواع الضرر على بعض الثمار ونحوها ويطمع في خيره ونفعه، وأن الرعد يسبح بحمده، وأنه يرسل الصواعق على من يشاء من عباده بحسب ما شاءه وأراده.

فإذا كان الله -عَزَّ وَجَلَّ- هو الذي يفعل ذلك وحده، فهو الذي يستحق أن يعبد وحده لا شريك له، وأن تصرف جميع العبادات له وحده، وأن غيره مما عبد من دون الله فألوهيته باطلة، لذا قال بعدها: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ}.

خامساً: الإيمان بالملائكة:

من الإيمان بالملائكة الإيمان بما أخبر به النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- من أعمالهم، وقد سئل النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن الرعد، فأخبر أنه ملك من الملائكة موكل بالسحاب، وأن الصوت الذي يسمع هو زجره السحاب.

وعن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: أقبلت يهود إلى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله»، فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «زجرة بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر، قالوا: صدقت».

وهذا لا يخالف التفسير العلمي له، قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: " وقد روي عن بعض السلف أقوال لا تخالف ذلك، كقول من يقول: إنه اصطكاك أجرام السحاب، بسبب انضغاط الهواء فيه، فإن هذا لا يناقض ذلك، فإن الرعد مصدر رعد يرعد رعداً، وكذلك الراعد يسمى رعداً، كما يسمى العادل عدلا.

والحركة توجب الصوت، والملائكة هي التي تحرك السحاب، وتنقله من مكان إلى مكان.

=

=

وكل حركة في العالم العلوي والسفلي فهي عن الملائكة. وصوت الإنسان هو عن اصطكاك أجرامه الذي هو شفتاه، ولسانه، وأسنانه ولهاته، وحلقه، وهو مع ذلك يكون مسبحا للرب، وآمرا بمعروف وناهيا عن منكر، فالرعد إذًا صوت يزجر السحاب".

سادسًا: الإيمان بالرسل:

الصواعق جند من جند الله يؤيد بها رسله، وقد بعث النبي -ﷺ- رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب يدعوه إليه، فذهب إليه، وقال: يدعوك رسول الله -ﷺ-. قال: وما الله؟ أمن ذهب هو أو من فضة أو من نحاس؟ فأخبر النبي -ﷺ- بذلك، فأرسل إليه النبي -ﷺ- مراراً، وهو يقول مثل هذا، فأرسل الله عليه صاعقة فذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله تعالى: {وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ} "أي يرسلها نقمَةً ينتقم بها ممن يشاء".

سابعًا: الإيمان باليوم الآخر:

في بيان حال الناس يوم القيامة عند مرورهم على الصراط بحسب أعمالهم بين النبي -ﷺ- أن أولهم يمر كالبرق، ففي حديث أبى هريرة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أن النبي -ﷺ- قال: «فيأتون محمدا -ﷺ-، فيقوم فيؤذن له، وترسل الأمانة والرحم، فتقومان جنبتى الصراط يمينا وشمالا فيمر أولكم كالبرق». قال: قلت بأبي أنت وأمي: أي شيء كمر البرق؟ قال: «ألم تروا إلى البرق كيف يمر ويرجع في طرفة عين؟ ثم كمر الريح، ثم كمر الطير وشد الرجال، تجرى بهم أعمالهم، ونبيكم قائم على الصراط يقول: رب سلم سلم، حتى تعجز أعمال العباد، حتى يجىء الرجل فلا يستطيع السير إلا زحفا - قال -: وفى حافتى الصراط كلاليب معلقة مأمورة بأخذ من أمرت به فمخدوش ناج، ومكدوس فى النار».

وفي حديث أبي سعيد الخدري -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- أن النبي -ﷺ- قال: «ثم يضرب الجسر

=

=

على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون: اللهم سلم سلم، قيل يا رسول الله: وما الجسر؟ قال دحض مزلة، فيه خطاطيف وكلاليب وحسك تكون بنجد، فيها شويكة يقال لها السعدان، فيمر المؤمنون كطرف العين وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاود الخيل والركاب، فناج مسلم، ومخدوش مرسل، ومكدوس في نار جهنم».

ثامنـًا: الإيمان بالقدر:

من مراتب الإيمان بالقدر الإيمان بمشية الله، وأن ما شاء الله كان، وما لم يشاء لم يكن.

وقد أخبر الله -عَزَّوَجَلَّ- أنه يصيب بالصواعق من يشاء، ويصرفه عمن يشاء، وأن ذلك بحسب ما اقتضاه حكمه القدري، قال تعالى: {وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ}.

تاسعـًا: مسائل الأسماء والأحكام:

بين الله -عَزَّوَجَلَّ- في أول سورة البقرة أن الناس ينقسمون إلى ثلاثة أقسام: مؤمنين خلص، وكفار خلص، ومنافقين.

وهؤلاء المنافقون قسمان: خلص، وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يترددون، تارة يظهر لهم لمع من الإيمان وتارة يخبو وهم أصحاب المثل المائي -الذي ذكر الله فيه الرعد والبرق والصواعق- قال تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

=

=

وقد استدل أهل السنة والجماعة بهذه الآية على أن الإنسان قد تكون فيه شعبة من إيمان، وشعبة من نفاق، إما اعتقادي مخرج عن الإسلام، أو عملي لا يخرج عن الإسلام.

عاشراً: منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال:

ضرب الأمثال:

من منهج أهل السنة والجماعة في الاستدلال ضرب الأمثلة لتوضيح الحقائق وتقريبها، وقد ضرب الله مثلاً في أول سورة البقرة للإسلام وحال المنافقين، -ذكر فيه الرعد والبرق والصواعق-، قال تعالى: {أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ}.

فالمطر الإسلام، وقلوب المنافقين في حال شكهم وكفرهم وترددهم كالمطر من السماء الذي فيه ظلمات ورعد وبرق، والظلمات ما فيه من البلاء والمحن، والرعد: ما فيه من الوعيد والمخاوف في الآخرة؛ فإن من شأن المنافقين الخوف الشديد والفزع،، والبرق ما فيه من الوعد والوعيد، وما يلمع في قلوب هؤلاء الضرب من المنافقين في بعض الأحيان، من نور الإيمان.

والصواعق: جمع صاعقة، وهي نار تنزل من السماء وقت الرعد الشديد.

ثم قال: {يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ} " لشدته وقوته في نفسه، وضعف بصائرهم، وعدم ثباتها للإيمان...

فكلما ظهر لهم من الإيمان شيء استأنسوا به واتبعوه، وتارة تعْرِض لهم الشكوك أظلمت قلوبهم فوقفوا حائرين".

المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآيات الكونية -الرعد والبرق والصواعق-:

أولاً: اعتقاد أن البرق أحد أسلحة الآلهة:

=

=

من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآيات الكونية اعتقاد أن البرق أحد أسلحة الآلهة الباطلة، فقد ظن قدماء الإغريق والرومان أن البرق هو أحد أسلحة الآلهة. وفي بعض المجتمعات الإفريقية كانوا يعتقدون أن الناس والأماكن التي يصيبها البرق ملعونة. وحتى القرن الثامن عشر، كان بعض الناس في أوروبا وأمريكا يعتقدون بإمكان تفادي حدوث البرق إذا دقوا أجراس الكنائس.

ثانيـًا: اعتقاد أن قوس قزح هو إله الرعد والبرق عند العرب:

من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآيات اعتقاد أن قوس قزح هو إله الرعد والبرق والمطر عند العرب.

ثالثـًا: بعض الأدعية والأقوال المخالفة:

ومن المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآيات الكونية -الرعد والبرق والصواعق- ذكر بعض الأدعية والأقوال المخالفة، منها:

١ - قول"غضبت السماء" عند نزول الصواعق:

في سؤال وجه لفضيلة الشيخ عبد الرحمن البراك - حفظه الله-: "هل تصح هذه العبارة (غضبت السماء)؟ وهي تكثر عند الأدباء والشعراء".

فأجاب بقوله: " الذي يظهر أن هذه العبارة تقال إذا نزلت شهب أو صواعق مرعبة أو بَرَد مدمر أو طوفان مغرق، فهذه الأمور يجوز أن يقال عنها: إنها نقم سماوية أو مصائب سماوية، على معنى أنها جاءت من جهة السماء، وأما أن تنسب إلى غضب السماء فلا يجوز، لأن ذلك يتضمن أن السماء تغضب، ولا دليل على هذا، ويتضمن أن هذه الكوارث بفعل السماء، وليس كذلك، بل هي بفعل الله، فيلزم منه الشرك في الربوبية، وإذا أريد بقول القائل: (غضبت السماء) التجوز بذلك عن غضب الله، فهو أقبح، فإنه يتضمن إضافة صفة الله إلى غيره، أو تشبيه غيره تعالى به، وبكل حال فلا يجوز استعمال هذه العبارة، والله أعلم.

=

لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤).

{لَهُ} تَعَالَى {دَعْوَة الْحَقّ} أَيْ كَلِمَته وَهِيَ لَا إلَه إلَّا الله {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ} بِالْيَاءِ وَالتَّاء يَعْبُدُونَ {مِنْ دُونه} أَيْ غَيْره وَهُمْ الْأَصْنَام {لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ} مِمَّا يَطْلُبُونَهُ {إلَّا} اسْتِجَابَة {كَبَاسِطِ} أَيْ كَاسْتِجَابَةِ بَاسِط {كَفَّيْهِ إلَى الْمَاء} عَلَى شَفِير الْبِئْر يَدْعُوهُ {لِيَبْلُغ فَاهُ} بِارْتِفَاعِهِ مِنْ الْبِئْر إلَيْهِ {وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ} أَيْ فَاهُ أَبَدًا فَكَذَلِكَ مَا هُمْ بِمُسْتَجِيبِينَ لَهُمْ {وَمَا دُعَاء الْكَافِرِينَ} عِبَادَتُهُمْ الْأَصْنَام أَوْ حَقِيقَة الدُّعَاء {إلَّا فِي ضَلَال} ضَيَاع[1].

=

ويشبه هذه العبارة قول بعضهم (عدالة السماء)، يريد بها الأحكام الشرعية، المشتملة على غاية العدل والحكمة".

(١) قوله تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ} [الرعد: ١٤].

أي: له وحده- سبحانه- الدعوة الحق المطابقة للواقع، لأنه هو الذي يجيب المضطر إذا دعاه، فهو الحقيق بالعبادة والالتجاء.

فإضافة الدعوة إلى الحق من إضافة الموصوف إلى صفته، وفي هذه الإضافة إيذان بملابستها للحق، واختصاصها به، وأنها بمعزل عن الباطل.

ومعنى كونها له: أنه- سبحانه- شرعها وأمر بها.

- قال الشوكاني: قوله: «له دعوة الحق» إضافة الدعوة إلى الحق للملابسة. أي: الدعوة الملابسة للحق، المختصة به التي لا مدخل للباطل فيها بوجه من الوجوه.

وقيل: الحق هو الله تعالى والمعنى: أنه لله تعالى دعوة المدعو الحق وهو الذي يسمع فيجيب.

وقيل: المراد بدعوة الحق هاهنا كلمة التوحيد والإخلاص والمعنى: لله من خلقه

=

=

أن يوحدوه ويخلصوا له العبادة.

وقيل: دعوة الحق، دعاؤه سبحانه عند الخوف، فإنه لا يدعى فيه سواه، كما قال تعالى وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه.

- قال السعدي: أي لله وحده (دعوة الحق) وهي: عبادته وحده لا شريك له، وإخلاص دعاء العبادة ودعاء المسألة له تعالى، أي: هو الذي ينبغي أن يصرف له الدعاء، والخوف، والرجاء، والحب، والرغبة، والرهبة، والإنابة؛ لأن ألوهيته هي الحق، وألوهية غيره باطلة.

وفي قوله تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ} [الرعد: ١٤]، اربعة وجوه:

أحدها: أن دعوة الحق كلمة التوحيد «لا إله إلا الله»، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، ومقاتل.

وروي عن علي بن أبي طالب-رَضِوَاللَّهُعَنْهُ-: قال:"التوحيد".

الثاني: أنه الله تعالى هو الحق، فدعاؤه دعوة الحق.

الثالث: أن الإخلاص في الدعاء هي دعوة الحق، حكاه الماوردي عن بعض المتأخرين.

والرابع: أن دعوة الحق دعاؤه عند الخوف لأنه لا يدعى فيه إلا إياه، كما قال تعالى: {ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ} [الإسراء: ٦٧]، هو أشبه بسياق الآية لأنه قال: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ} [الرعد: ١٤]، يعني: الأصنام والأوثان. أفاده الماوردي.

قال الإمام ابن جرير الطبري:"إنما عنى بالدعوة الحق، توحيد الله وشهادةَ أن لا إله إلا الله".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ} [الرعد: ١٤]، أي:"والآلهة التي يعبدونها من دون

=

=

الله لا تجيب دعاء مَن دعاها، وحالهم معها كحال عطشان يمد يده إلى الماء من بعيد؛ ليصل إلى فمه فلا يصل إليه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والآلهة التي يَدْعونها المشركون أربابًا وآلهة، لا تجيب هذه الآلهة التي يدعوها هؤلاء المشركون آلهةً بشيء يريدونه من نفع أو دفع ضر، إلا كما ينفع باسط كفيه إلى الماء بسطُه إياهما إليه من غير أن يرفعه إليه في إناء، ولكن ليرتفع إليه بدعائه إياه وإشارته إليه وقبضه عليه".

قال قتادة:"هذا مثلٌ ضربه الله لمن اتخذ من دون الله إلهًا أنه غير نافعه، ولا يدفع عنه سوءًا حتى يموت على ذلك".

قال ابن زيد:"لا ينفعونهم بشيء إلا كما ينفع هذا بكفيه، يعني بَسْطَهما إلى ما لا ينالُ أبدًا".

وفي معنى هذا المثل وجوه:

أحدها: أن الذي يدعو إلهـًا من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء ليبلغ إلى فيه من بعيد يريد تناوله ولا يقدر عليه بلسانه، ويشير إليه بيده فلا يأتيه أبداً، لأن الماء لا يستجيب له وما الماء ببالغ إليه، قاله مجاهد.

الثاني: أنه كالرجل العطشان الذي ينظر إلى خياله في الماء من بعيد، فهو يريد أن يتناوله ولا يقدر عليه، قاله ابن عباس.

الثالث: أنه كالرجل قد بلغه العطش حتى كَرَبه الموت وكفاه في الماء قد وضعهما لا يبلغان فاه، يقول الله: لا تستجيب الآلهة ولا تنفع الذين يعبدونها حتى يبلغ كفّا هذا فاه، وما هما ببالغتين فاه أبدًا. وهذا مروي عن ابن عباس أيضا.

الرابع: أنه كباسط كفه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفيه شيء منه. وهذا معنى قول قتادة.

قال قتادة:"هذا مثل ضربه الله ؛ أي: هذا الذي يدعو من دون الله هذا الوثنَ وهذا

=

=

الحجر لا يستجيب له بشيء أبدًا ولا يسُوق إليه خيرًا ولا يدفع عنه سوءًا حتى يأتيه الموت، كمثل هذا الذي بسط ذارعيه إلى الماء ليبلغ فاه ولا يبلغ فاه ولا يصل إليه ذلك حتى يموت عطشًا".

الرابع: أنه كالرجل العطشان يمد يده إلى البئر ليرتفع الماء إليه وما هو ببالغه. قاله علي بن ابي طالب-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

وزعم الفراء أن المراد بالماء ها هنا البئر لأنها معدن للماء، وأن المثل كمن مد يده إلى البئر بغير رشاء، ويشهد له قول لسنان بن فحل الطائي:

فــإن المــاء مــاءُ أبــي وجــدي وبئــري ذو حَفَــرْتُ وذو طويــت

قال الطبري:"والعرب تضرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقابض على الماء، قال بعضهم:

فــإنِّي وإيَّــاكُمْ وَشَــوْقًا إلَــيْكُمُ كَقَــابِضٍ مَــاءٍ لَــمْ تَــسِقْهُ أَنَامِلُــه

يعني بذلك: أنه ليس في يده من ذلك إلا كما في يد القابض على الماء، لأن القابض على الماء لا شيء في يده. وقال آخر:

فَأَصْــبَحْتُ مِمَّــا كــانَ بَيْنِــي وبَيْنَهَــا مِـنَ الـوُدِّ مِثْلَ القَـابِضِ المَـاءَ بِاليَـد"

- **قال الشوكاني:** كاستجابة الماء لمن بسط كفيه إليه من بعيد فإنه لا يجيبه؛ لأنه جماد لا يشعر بحاجته إليه، ولا يدري أنه طلب منه أن يبلغ فاه. ولهذا قال (وما هو) أي: الماء (ببالغه) أي: ببالغ فيه. قال الزجاج: إلا كما يستجاب للذي يبسط كفيه إلى الماء يدعو الماء إلى فيه، والماء لا يستجيب، أعلم الله سبحانه أن دعاءهم الأصنام كدعاء العطشان إلى الماء يدعوه إلى بلوغ فمه، وما الماء ببالغه.

وقيل: المعنى: أنه كباسط كفيه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل في كفه شيء منه. وقد ضربت العرب لمن سعى فيما لا يدركه مثلا بالقبض على الماء.

=

=

– وقال الفراء: إن المراد بالماء هنا ماء البئر، لأنها معدن للماء، وأنه شبهه بمن مد يده إلى البئر بغير رشاء، ضرب الله سبحانه هذا مثلا لمن يدعو غيره من الأصنام. (فتح القدير).

والمقصود من الجملة الكريمة نفى استجابة الأصنام لما يطلبه المشركون منها نفيا قاطعا، حيث شبه سبحانه حال هذه الآلهة الباطلة عند ما يطلب المشركون منها ما هم في حاجة إليه، بحال إنسان عطشان ولكنه غبى أحمق لأنه يمد يده إلى الماء طالبا منه أن يصل إلى فمه دون أن يتحرك هو إليه. فلا يصل إليه شيء من الماء لأن الماء لا يسمع نداء من يناديه.

– ونكر شيئا في قوله لا يستجيبون لهم بشيء للتحقير. والمراد أنهم لا يستجيبون لهم أية استجابة حتى ولو كانت شيئا تافها.

– قال السعدي: وتشبيه دعاء الكافرين لغير الله بالذي يبسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه من أحسن الأمثلة، فإن ذلك تشبيه بأمر محال، فكما أن هذا محال، فالمشبه به محال، والتعليق على المحال من أبلغ ما يكون في نفي الشيء كما قال تعالى (إن الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سم الخياط).

– قال ابن كثير: ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضا وإما متناولا له من بعد كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلا للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلها غيره، لا ينتفعون بهم أبدا في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال وما دعاء الكافرين إلا في ضلال.

قوله تعالى: {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [الرعد: ١٤].

أي: وما عبادة الكافرين للأصنام، والتجاؤهم إليها في طلب الحاجات، إلا في ضياع وخسران لأن هذه الآلهة الباطلة لا تملك لنفسها نفعا ولا ضرا، فضلا عن

=

وَلِلَّـهِ يَـسْجُدُ مَـنْ فِـي الـسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًـا وَكَرْهًـا وَظِلَالُهُـمْ بِالْغُـدُوِّ وَالْآصَالِ (١٥).

{وَلِلَّـهِ يَـسْجُد مَـنْ فِـي الـسَّمَاوَات وَالْأَرْض طَوْعًـا} كَـالْمُؤْمِنِينَ {وَكَرْهًـا} كَالْمُنَافِقِينَ وَمَنْ أُكْرِهَ بِالسَّيْفِ {و} يَسْجُد {ظِلَالهمْ بِالْغُدُوِّ} الْبِكْر {وَالْآصَال} الْعَشَايَا[1].

=

أن تملك ذلك لغيرها.

قال الطبري:"يقول: وما دعاء من كفر بالله ما يدعو من الأوثان والآلهة إلا في غير استقامة ولا هدًى، لأنه يشرك بالله".

(١) قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [الرعد: ١٥]، أي:"ولله وحده يسجد خاضعًا منقادًا كُلُّ مَن في السموات والأرض طائعين وكارهين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فإن امتنع هؤلاء الذين يدعون من دون الله الأوثان والأصنام لله شركاء من إفراد الطاعة والإخلاص بالعبادة له= فلله يسجد من في السموات من الملائكة الكرام ومن في الأرض من المؤمنين به طوعًا، فأما الكافرون به فإنهم يسجدون له كَرْهًا حين يُكْرَهون على السُّجود".

وفي قوله تعالى: {وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا} [الرعد: ١٥]، أربعة وجوه من التفسير:

أحدها: {طَوْعًا} سجود المؤمن، {وَكَرْهًا}: سجود الكافر، قاله قتادة.

قال ابن قتيبة:"أي: يستسلم من في السموات من الملائكة، ومن في الأرض من المؤمنين طوعا، ويستسلم من فى الأرض من الكافرين كرها من خوف السيف".

الثاني: {طَوْعًا}: من دخل في الإسلام طائعا، {وَكَرْهًا} من دخل فيه رهبة

=

=

بالسيف، قاله ابن زيد.

الثالث: {طَوْعًا} من طالت مدة إسلامه فألف السجود، {وَكَرْهًا} من بدأ بالإسلام حتى يألف السجود، حكاه ابن الأنباري.

الرابع: أن يكون «السجود»: الخضوع لله، فمن الناس من يخضع ويقبل أمر الله فيما سهل عليه، ومنهم من تقبله وإن كان عليه فيه كره. قاله الزجاج.

والرجح أن المراد بالسجود: الانقياد والخضوع لله.

وقد وقع خلاف بين العلماء في معنى السجود هنا:

القول الأول: أن المراد منه السجود بمعنى وضع الجبهة على الأرض.

وعلى هذا الوجه ففيه وجهان:

أحدهما: أن اللفظ وإن كان عاما إلا أن المراد به الخصوص وهم المؤمنون، فبعض المؤمنين يسجدون لله طوعا بسهولة ونشاط، ومن المسلمين من يسجد لله كرها لصعوبة ذلك عليه مع أنه يحمل نفسه على أداء تلك الطاعة شاء أم أبى.

والثاني: أن اللفظ عام والمراد منه أيضا العام وعلى هذا ففي الآية إشكال، لأنه ليس كل من في السموات والأرض يسجد لله بل الملائكة يسجدون لله، والمؤمنون من الجن والإنس يسجدون لله تعالى، وأما الكافرون فلا يسجدون.

الجواب عنه من وجهين: الأول: أن المراد من قوله (ولله يسجد من في السموات والأرض) أي ويجب على كل من في السموات والأرض أن يسجد لله فعبر عن الوجوب بالوقوع والحصول.

والثاني: وهو أن المراد من السجود التعظيم والاعتراف بالعبودية، وكل من في السموات ومن في الأرض يعترفون بعبودية الله تعالى على ما قال: (ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله).

القول الثاني: أن السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم الامتناع وكل من في

=

=

السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى، لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل.

وهذا الصحيح.

ومن الأقوال التي قيلت:

قيل: سجود من السموات والأرض من العام المخصوص، فالمؤمنون يسجدون لله سجودا حقيقيا وهو وضع الجبهة على الأرض، يفعلون ذلك طوعا، والكفار يسجدون كرها ومنهم المنافقون.

واختار هذا القول ابن جرير، والواحدي.

قال الواحدي: يعني الملائكة والمؤمنين، وكرها يعني من أكره على السجود من الكافرين والمنافقين، هذا قول المفسرين.

وقيل: الآية في المؤمنين، فبعضهم يسجد طوعا لخفة امتثال أوامر الشرع عليه، وبعضهم يسجد كرها لثقل مشقة التكليف عليه.

وقيل: هو عام لسائر أنواع العقلاء والمراد ب (يسجد) يجب أن يسجد لكن عبر عن الوجوب بالوقوع مبالغة.

والراجح كما تقدم أن المراد بالسجود الخضوع لله والانقياد.

قال أبو حيان: الذي يظهر أن مساق الآية إنما هو أن العالم كله مقهور لله تعالى خاضع لما أراد سبحانه منه مقصور على مشيئته لا يكون منه إلا ما قدر جل وعلا فالذين تعبدونهم كائنا ما كانوا داخلون تحت القهر لا يستطيعون نفعا ولا ضرا، ويدل على هذا المعنى تشريك الظلال في السجود وهي ليست أشخاصا يتصور منها السجود بالهيئة المخصوصة ولكنها داخلة تحت مشيئته تعالى يصرفها سبحانه حسبما أراد.

قال الشيخ ابن عثيمين: قال الله تعالى (ولله يسجد من في السماوات والأرض طوعا وكرها) والسجود هنا السجود القدري فكل أحد خاضع لقدر الله ما أحد

=

=

يستطيع أن يغالب الله ﷻ أين المفر... فالسجود الشرعي كثير من الناس حق عليهم العذاب فلم يسجدوا، على أن الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب كلها يسجد لله ﷻ، لكن الكفرة من بني آدم ومن الجن لا يسجدون لله تعالى إلا السجود الكوني القدري.

(طوعا وكرها) أي: أن جميعهم يسجدون لله، وينقادون لعظمته، حال كونهم طائعين وراضين بهذا السجود والانقياد، وحال كونهم كارهين وغير راضين به، لأنهم لا يستطيعون الخروج على حكمه لا في الإيجاد ولا في الإعدام ولا في الصحة ولا في المرض، ولا في الغنى ولا في الفقر... فهم خاضعون لأمره شاءوا أم أبوا.

ويستوي في هذا الخضوع المؤمن والكافر، إلا أن المؤمن خاضع عن طواعية بذاته وبظاهره وبباطنه لله تعالى، أما الكافر فهو خاضع لله تعالى بذاته، ومتمرد وجاحد وفاسق عن أمر ربه بظاهره.

قال الحسن: المؤمن يسجد طوعا، والكافر يسجد كرها أي في حالة الفزع والاضطرار.

قال ابن تيمية:... والصحيح أنه انقيادهم لحكمه القدري بغير اختيارهم، كاستسلامهم عند المصائب وانقيادهم لما يكرهون من أحكامه الشرعية فكل أحد لا بد له من انقياده لحكمه القدري والشرعي.

وقال النحاس: ومن أحسن ما قيل: أن السجود هاهنا الخضوع لتدبير الله وتصريفه من صحة وسقم وغيرهما، طوعا وكرها، أي: ينقادون على ما أحبوا أو كرهوا لا حيلة لهم في ذلك.

قوله تعالى: {وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ} [الرعد: ١٥].

أي: وتسجد ظلالهم أيضا لله في أول النار وأواخره، والغرض الإخبار عن عظمة

=

=

الله تعالى وسلطانه الذي قهر كل شيء، ودان له كل شيء، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الآدميين، والكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى.

- قال الشنقيطي: (وظلالهم بالغدو والآصال) فقيل: سجودها حقيقي، والله تعالى قادر على أن يخلق لها إدراكا تدرك به وتسجد لله سجودا حقيقيا، وقيل: سجودها ميلها بقدرة الله أول النهار إلى جهة المغرب، وآخره إلى جهة المشرق، وادعى من قال هذا أن الظل لا حقيقة له ؛ لأنه خيال فلا يمكن منه الإدراك.

ونحن نقول: إن الله جل وعلا قادر على كل شيء، فهو قادر على أن يخلق للظل إدراكا يسجد به لله تعالى سجودا حقيقيا.

- قال ابن كثير: الغدو أي البكور، والآصال وهو جمع أصيل، وهو آخر النهار، كقوله تعالى (أولم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤا ظلاله).

- وقال ابن عاشور: والغدو: الزمان الذي يغدو فيه الناس، أي يخرجون إلى حوائجهم، والآصال: جمع أصيل، وهو وقت اصفرار الشمس في آخر المساء، والمقصود من ذكرهما استيعاب أجزاء أزمنة الظل.

وقال رحمه الله: وهذه الآية موضع سجود من سجود القرآن، وهي السجدة الثانية في ترتيب المصحف باتفاق الفقهاء.

ومن حكمة السجود عند قراءتها أن يضع المسلم نفسه في عداد ما يسجد لله طوعا بإيقاعه السجود، وهذا اعتراف فعلي بالعبودية لله تعالى.

قال الفراء:"يقول: كل شخص فظله بالغداة والعشي يسجد معه. لأن الظل يفيء بالعشي فيصير فيئا يسجد، وهو كقوله: {عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ} [النحل: ٤٨]، في المعنى. والله أعلم".

قال ابن قتيبة:"وظلالهم بالغدو والآصال مستسلمة".

قال الزجاج:"أي: وتسجد ظلالهم. وجاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله،

=

قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي

=

وظله

يسجد لله، وقيل وظلالهم أشخاصهم، وهذا مخالف للتفسير".

قال الطبري:"يقول: ويسجد أيضًا ظلالُ كل من سجد طوعًا وكرهًا بالغُدُوات والعَشَايا. وذلك أن ظلَّ كلِّ شخص فإنه يفيء بالعشيّ، كما قال جل ثناؤه {أَوَلَمْ يَرَوْا إلى ما خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ اليَمِينِ والشَّمَائِلِ سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [سورة النحل:٤٨]".

و"الآصال": جمع أصُلٍ، و"الأصُل": جمع "أصيلٍ"، و"الأصيل": هو العشيُّ، وهو ما بين العصر إلى مغرب الشمس، قال أبو ذؤيب:

لَعَمْرِي لأَنْتَ البَيْتُ أُكْرِمَ أَهْلَهُ وَأَقْعُدُ فِي أَفْيَائِهِ بِالأَصَائِلِ

قال الصابوني:"الغرضُ الإخبار عن عظمة الله تعالى وسلطانه الذي قهر كلَّ شيء، ودان له كل شيء، بأنه ينقاد لجلاله جميع الكائنات حتى ظلال الآدميّن، والكل في نهاية الخضوع والاستسلام لأمره تعالى".

عن ابن عباس، قوله: " {وظلالهم بالغدوّ والآصال}، يعني: حين يفيء ظلُّ أحدهم عن يمينه أو شماله".

قال مجاهد:"ظل المؤمن يسجد طوعًا وهو طائع، وظلُّ الكافر يسجد طوعًا وهو كاره".

قال ابن زيد:"ذُكر أن ظلال الأشياء كلها تسجد له، وقرأ: {سُجَّدًا للهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ} [النحل:٤٨]. قال: تلك الظلال تسجد لله".

عن سفيان قال: "كان ربيع بن خُثيم إذا تلا هذه الآية: {ولله يسجد من في السموات والأرض طوعًا وكرهًا}، قال: بلى يا رَبَّاه".

الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦).

{قُلْ} يَا مُحَمَّد لِقَوْمِك {مَنْ رَبّ السَّمَاوَات وَالْأَرْض قُلْ الله} إنْ لَمْ يَقُولُوهُ لَا جَوَاب غَيْره {قُلْ} لَهُمْ {أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونه} أَيْ غَيْره {أَوْلِيَاء} أَصْنَامًا تَعْبُدُونَهَا {لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا} وَتَرَكْتُمْ مَالِكهمَا اسْتِفْهَام تَوْبِيخ {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِير} الْكَافِر وَالْمُؤْمِن {أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَات} الْكُفْر {وَالنُّور} الْإِيمَان لَا {أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاء خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْق} أَيْ خَلْق الشُّرَكَاء بِخَلْقِ الله {عليهم} فاعتقدوا استحقاق عبادتهم بخلقهم اسْتِفْهَام إنْكَار أَيْ لَيْسَ الْأَمْر كَذَلِكَ وَلَا يستحق العبادة إلا الخالق {قُلْ الله خَالِق كُلّ شَيْء} لَا شَرِيك لَهُ فِيهِ فَلَا شَرِيك لَهُ فِي الْعِبَادَة {وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّار} لِعِبَادِهِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الرعد: ١٦]، أي:"قل -أيها الرسول- للمشركين: مَن خالق السَّموات والأرض ومدبِّرهما؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين بالله: مَنْ رَبُّ السموات والأرض ومدبِّرها".

قوله تعالى: {قُلِ اللهُ} [الرعد: ١٦]، أي:"قل لهم تقريعا وتوبيخا: الله خالقهما وموجدهما على غير مثال سابق".

قال الطبري:"فإنهم سيقولون الله. وأمر الله نبيّه ﷺ أن يقول: «الله»، فقال له: قل، يا محمد: ربُّها، الذي خلقها وأنشأها، هو الذي لا تصلح العبادة إلا له، وهو الله".

قال الثعلبي: أي:"فسيقولون الله ولا بد لهم من ذلك".

قال الزمخشري:"{قل الله}، حكاية لاعترافهم وتأكيد لم عليهم، لأنه إذا قال لهم: =

=

من رب السموات والأرض، لم يكن لهم بد من أن يقولوا: الله. كقوله: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (٨٦) {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ} [المؤمنون: ٨٦ – ٨٧]، وهذا كما يقول المناظر لصاحبه: أهذا قولك، فإذا قال: هذا قولي قال: هذا قولك، فيحكى إقراره تقريرا له عليه واستيثاقا منه، ثم يقول له: فيلزمك على هذا القول كيت وكيت. ويجوز أن يكون تلقينا، أى: إن كعوا عن الجواب فلقنهم، فإنهم يتلقنونه ولا يقدرون أن ينكروه".

قال الرازي: "ولما كان هذا الجواب جوابا يقر به المسؤول ويعترف به ولا ينكره أمره ﷺ أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيها على أنهم لا ينكرونه ألبتة ولما بين أنه سبحانه هو الرب لكل الكائنات".

قال ابن الجوزي: "إنما جاء السؤال والجواب من جهة، لأن المشركين لا ينكرون أن الله خالق كل شيء، فلما لم ينكروا، كان كأنهم أجابوا".

– وقال أبو حيان: ولما كان السؤال عن أمر واضح لا يمكن أن يدفع منه أحد، كان جوابه من السائل.

فكان السبق إليه أفصح في الاحتجاج إليهم وأسرع في قطعهم في انتظار الجواب منهم، إذ لا جواب إلا هذا الذي وقعت المبادرة إليه، كما قال تعالى (قل من يرزقكم من السموات والأرض قل الله).

(قل أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا) أمر ثالث منه تعالى لنبيه ﷺ لإفحامهم وتبكيتهم، فالهمزة للاستفهام التوبيخي.

والمعنى: أعلمتم حق العلم أن الله– تعالى– هو الخالق للسموات والأرض، فتركتم عبادته– سبحانه– واتخذتم من دونه «أولياء» أي نصراء عاجزين، لا يملكون لأنفسهم– فضلا عن أن يملكوا لغيرهم– نفعا يجلبونه لها، ولا ضرا يدفعونه عنها.

=

=

والمقصود بها تنبيه السامعين للنظر في تلك الصفة، فإنهم إن أحسنوا التفكير في هؤلاء الأولياء، أيقنوا أنهم أحقر من أن يلتفت إليهم، فضلا عن أن يطلبوا منهم شيئا.

قوله تعالى: {قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا} [الرعد: ١٦]، أي:"قل لهم - إلزامـًا لإقامة الحجة عليهم - أجعلتم لله شركاء وعبدتموهم من دونه وهم لا يقدرون على نفع أنفسهم، ولا على دفع الضُرّ عنها، فكيف يستطيعونه لغيرهم؟".

قال ابن عباس: "توليتم غير رب السماء والأرض أصناما. لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا فكيف لغيرهم؟".

قال الطبري:"ثم قال: فإذا أجابوك بذلك فقل لهم: أفاتخذتم من دون رب السموات والأرض أولياء لا تملك لأنفسها نفعًا تجلبه إلى نفسها، ولا ضرًّا تدفعه عنها، وهي إذ لم تملك ذلك لأنفسها، فمِنْ مِلْكه لغيرها أبعدُ فعبدتموها، وتركتم عبادة من بيده النفع والضر والحياة والموت وتدبير الأشياء كلها".

قال الثعلبي: أي:"فإذا أجابوك قل أنت أيضا «الله»، ثم قيل لهم إلزاما للحجة {قل أفاتخذتم من دونه أولياء}، يعني: الأصنام يعبدونها من دون الله وهي لا تملك لأنفسها نفعا ولا ضرا ثم نصرف لهم الأفعال".

قال ابن كثير:"يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون أنه هو الذي خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى {نَفْعًا وَلا ضَرًّا} أي: لا تحصل منفعة، ولا تدفع مضرة".

قوله تعالى: {قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} [الرعد: ١٦]، أي:"لهم -أيها الرسول-: هل يستوي عندكم الكافر -وهو كالأعمى- والمؤمن وهو

=

=

كالبصير؟".

أي: قل لهم- أيضا- أيها الرسول الكريم: كما أنه لا يستوي في عرف كل عاقل الأعمى والبصير، والظلمات والنور، فكذلك لا يستوي الكفر والإيمان، فإن الكفر انطماس في البصيرة، وظلمات في القلب، أما الإيمان فهو نور في القلب وإشراق في النفس.

فالمراد بالأعمى الكافر وبالبصير المؤمن، كما أن المراد بالظلمات الكفر وبالنور الإيمان.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين الذين عَبدُوا من دون الله الذي بيده نفعهم وضرهم ما لا ينفع ولا يضرُّ: {هل يستوي الأعمى} الذي لا يُبصر شيئًا ولا يهتدي لمحجة يسلكها إلا بأن يُهدى و {البصير} الذي يهدي الأعمى لمحجة الطريق الذي لا يُبصر؟ إنهما لا شك لغير مستويين. يقول: فكذلك لا يستوي المؤمن الذي يُبصر الحق فيتبعه ويعرف الهدى فيسلكه، وأنتم أيها المشركون الذين لا تعرفون حقا ولا تبصرون رَشَدًا".

قال مجاهد:"أما {الأعمى والبصير}، فالكافر والمؤمن".

قوله تعالى: {أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ} [الرعد: ١٦]، أي:"أم هل يستوي عندكم الكفر -وهو كالظلمات- والإيمان -وهو كالنور؟".

عبر القرآن الكريم في جانب الظلمات بصيغة الجمع، وفي جانب النور بصيغة الإفراد، لأن النور واحد ومن نتائجه الكشف والظهور. وتعدد أسبابه لا يغير حقيقته.

أما الظلمة فإنها متنوعة بتنوع أسبابها، فهناك ظلمة الليل، وهناك ظلمة السجون، وهناك ظلمة القبور، وهناك ظلمة العقول التي كان من نتائجها تعدد أنواع الكفر والضلال، كما هو الحال في شأن اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من الذين

=

=

انحرفوا عن طريق الحق.

- قال الماوردي: وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر كالأعمى والبصير، والهدى والضلالة كالظلمات والنور، فالمؤمن في هداه كالبصير يمشي في النور، والكافر في ضلاله كالأعمى يمشي في الظلمات، وهما لا يستويان، فكذلك المؤمن والكافر لا يستويان، وهذا من أصح مثل ضربه الله تعالى وأوضح تشبيه.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وهل تستوي الظلماتُ التي لا تُرَى فيها المحجة فتُسْلَك ولا يرى فيها السبيل فيُرْكَب والنور الذي تبصر به الأشياء ويجلو ضوءه الظّلام؟ يقول: إن هذين لا شك لغير مستويين، فكذلك الكفر بالله، إنما صاحبه منه في حَيرة يضرب أبدًا في غمرة لا يرجع منه إلى حقيقة، والإيمان بالله صاحبه منه في ضياء يعمل على علم بربه، ومعرفةٍ منه بأن له مثيبًا يثيبه على إحسانه ومعاقبًا يعاقبه على إساءته ورازقًا يرزقه ونافعًا ينفعه".

قال مجاهد:"وأما {الظلمات والنور}، فالهدى والضلالة".

قوله تعالى: {أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ} [الرعد: ١٦].

أم هنا بمعنى بل، والاستفهام للإنكار.

هذا من تمام الاحتجاج عليهم والتهكم بهم، أي: أم اتخذ هؤلاء المشركون آلهة خلقوا مخلوقات كالتي خلقها الله فالتبس الأمر عليهم فلا يدرون خلق الله من خلق آلهتهم؟ وهو تهكم لاذع فإنهم يرون كل شيء من خلق الله، ويرون هذه الآلهة المزعومة لم تخلق شيئا ثم بعد هذا كله يعبدونها من دون الله، وذلك أسخف وأحط ما تصل إليه عقول المشركين.

فالجملة الكريمة تنعى عليهم جهلهم. حيث عبدوا من دون الله مخلوقا مثلهم، وتنفي أي عذر يعتذرون به يوم يغشاهم العذاب من فوقهم ومن تحت أرجلهم.

=

=

- قال ابن الجوزي: (أم جعلوا لله شركاء) قال ابن الأنباري: معناه: أجعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، فتشابه خلق الله بخلق هؤلاء؟ وهذا استفهام إنكار، والمعنى: ليس الأمر على هذا، بل إذا فكروا علموا أن الله هو المنفرد بالخلق، وغيره لا يخلق.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل يا محمد لهؤلاء المشركين: أَخَلَق أوثانُكم التي اتخذتموها أولياء من دون الله خلقًا كخلق الله، فاشتبه عليكم أمرُها فيما خَلقت وخَلَق الله فجعلتموها له شركاء من أجل ذلك، أم إنما بكم الجهل والذهابُ عن الصواب؟ فإنه لا يشكل على ذي عقل أنّ عبادة ما لا يضرّ ولا ينفع من الفعل جهلٌ، وأن العبادة إنما تصلح للذي يُرْجَى نفعه وُيخْشَى ضَرَّه، كما أن ذلك غير مشكل خطؤه وجهلُ فاعله، كذلك لا يشكل جهل من أشرك في عبادة من يرزقه ويكفله ويَمُونه، من لا يقدِرُ له على ضررّ ولا نفع".

عن مجاهد: " {أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه}، حملهم ذلك على أن شكُّوا في الأوثان".

قال مجاهد: " {أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم}، ضُرِبت مثلا".

قال ابن كثير:"أي: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أي: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ندّ له ولا عدْل له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون في تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم في قوله: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى} [الزمر: ٣] فأنكر

=

=

تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، وهو تعالى لا يشفع عنده أحدإلا بإذنه، {وَلا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ} [سبأ: ٢٣]، {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى} [النجم: ٢٦] وقال: {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ إِلا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا} [مريم: ٩٣ - ٩٥] فإذا كان الجميع عبيدا، فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سوى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة، {وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} [الكهف: ٤٩]".

قوله تعالى: {قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ} [الرعد: ١٦].

أي: الله الخالق لجميع الأشياء لا خالق غيره، وهو المنفرد بالألوهية والربوبية.

- قال الشنقيطي: أشار تعالى: في هذه الآية الكريمة إلى أنه هو المستحق لأن يعبد وحده لأنه هو الخالق ولا يستحق من الخلق أن يعبدوه إلا من خلقهم وأبرزهم من العدم إلى الوجود لأن المقصود من قوله (أم جعلوا لله شركآء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم) إنكار ذلك وأنه هو الخالق وحده بدليل قوله بعده (قل الله خالق كل شيء) أي خالق كل شيء هو المستحق لأن يعبد وحده. ويبين هذا المعنى في آيات كثيرة:

كقوله (واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئا وهم يخلقون).

وقوله (أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون).

وقوله (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه) إلى غير ذلك من الآيات.

لأن المخلوق محتاج إلى خالقه فهو عبد مربوب مثلك يجب عليه أن يعبد من خلقه وحده كما يجب عليك ذلك فأنتما سواء بالنسبة إلى وجوب عبادة الخالق

=

=

وحده لا شريك له.

- قال بعض العلماء: وقد جرت العادة في القرآن في آيات كثيرة أنه يجعل سبب العبادة التي تستحق به هو الخلق والإبراز من العدم إلى الوجود، فمن يبرزكم من العدم إلى الوجود، ويوجدكم بعد أن كنتم عدما هذا هو ربكم الذي يستحق أن تعبدوه وحده، أما الذي يحتاج إلى من يخلقه فهو عبد مربوب فقير مثلكم، عليه أن يعبد من خلقه.

قال تعالى (أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون).

وقال تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون).

وقال تعالى (هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه).

وقال تعالى (يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون).

وكما قال تعالى عن إبراهيم - عليه السلام - (وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون * إلا الذي فطرني).

فقوله (إلا الذي فطرني) ولم يقل إلا الله لفائدتين:

الأولى: الإشارة إلى علة إفراد الله بالعبادة ، لأنه كما أنه متفرد بالخلق ، فيجب أن ينفرد بالعبادة.

والثانية: الإشارة إلى بطلان عبادة الأصنام ، ولأنها لم تفطركم حتى تعبدوها ، ففيها تعليل للتوحيد الجامع بين النفي والإثبات.

- قال بعض العلماء: إنما نص الله تعالى على صفة الخلق دون غيرها من الصفات ، لأن المشركين كانوا يعترفون أن الله خالقهم ، كما قال تعالى (ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله) وقال تعالى (ولئن سألتهم من خلق السماوات والأرض

=

=

ليقولن خلقهن العزيز العليم).

(وهو الواحد) أي: هو الفرد الذي لم يزل وحده بلا شريك.

كما قال تعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم).

وقال تعالى (قل هو الله أحد).

وقال تعالى (فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد).

وقال تعالى (لمن الملك اليوم لله الواحد القهار).

ففي هذه الآية: إثبات وحدانية الله تعالى، الذي لا إله إلا هو، وحده لا شريك له في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله، فهو الواحد الذي ليس له ند ولا نظير ولا شبيه ولا مثيل قال تعالى (وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم) وقال (وما من إله إلا الله الواحد القهار).

وقد بين سبحانه بأنه لم يأمر إلا بأن يعبد وحده ويفرد بالعبادة فقال (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا لا إله إلا هو).

وكفر وضل من اتخذ إلها سواه أو معه، قال تعالى (لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم) وقال سبحانه (لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد).

- وكيف يعبد غيره، والله سبحانه قد تفرد بالخلق والإيجاد والرزق والإمداد والبسط والقبض، والرفع والخفض، قال تعالى (أيشركون ما لا يخلق شيئا وهم يخلقون. ولا يستطيعون لهم نصرا ولا أنفسهم ينصرون).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: قل لهؤلاء المشركين إذا أقرُّوا لك أن أوثانهم التي أشركوها في عبادة الله لا تخلق شيئًا، فاللهُ خالقكم وخالق أوثانكم وخالق كل شيء، فما وجه إشراككم ما لا يخلق ولا يضرّ؟".

=

أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ (١٧).

ثُمَّ ضَرَبَ مَثَلًا لِلْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فَقَالَ {أَنْزَلَ} تَعَالَى {مِنْ السَّمَاء مَاء} مَطَرًا {فَسَالَتْ أَوْدِيَة بِقَدَرِهَا} بِمِقْدَارِ مِلْئِهَا {فَاحْتَمَلَ السَّيْل زَبَدًا رَابِيًا} عَالِيًا عَلَيْهِ هُوَ مَا عَلَى وَجْهه مِنْ قَذَر وَنَحْوه {وَمِمَّا يُوقِدُونَ} بِالتَّاءِ وَالْيَاء {عَلَيْهِ فِي النَّار} مِنْ

=

قال الزمخشري:"لا خالق غير الله، ولا يستقيم أن يكون له شريك في الخلق، فلا يكون له شريك في العبادة".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ} [الرعد: ١٦]، أي:"وهو الواحد القهار الذي يستحق الألوهية والعبادة، لا الأصنام والأوثان التي لا تضرُّ ولا تنفع".

قال الطبري:"وهو الفرد الذي لا ثاني له {القهار}، الذي يستحق الألوهة والعبادة، لا الأصنام والأوثان التي لا تضر ولا تنفع".

قال الزمخشري:"{وهو الواحد}، المتوحد بالربوبية، {القهار}، لا يغالب، وما عداه مربوب ومقهور".

قال ابن كثير: "هو الذي خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره".

قال السعدي: "القهار لجميع العالم العلوي والسفلي ، القهار لكل شيء ، الذي خضعت له المخلوقات ، وذلت لعزته وقوته وكمال قدرته".

قال الخطابي: "هو الذي قهر الجبابرة من عتاة خلقه بالعقوبة ، وقهر الخلق كلهم بالموت".

جَوَاهِر الْأَرْض كَالذَّهَبِ وَالْفِضَّة وَالنُّحَاس {ابْتِغَاء} طَلَب {حِلْيَة} زِينَة {أَوْ مَتَاع} يُنْتَفَع بِهِ كَالْأَوَانِي إذَا أُذِيبَتْ {زَبَد مِثْله} أَيْ مِثْل زَبَد السَّيْل وَهُوَ خَبَثه الَّذِي يَنْفِيه الْكِير {كَذَلِكَ} الْمَذْكُور {يَضْرِب الله الْحَقّ وَالْبَاطِل} أَيْ مَثَلهمَا {فَأَمَّا الزَّبَد} مِنْ السَّيْل وَمَا أُوقِدَ عَلَيْهِ مِنْ الْجَوَاهِر {فَيَذْهَب جُفَاء} بَاطِلًا مَرْمِيًّا بِهِ {وَأَمَّا مَا يَنْفَع النَّاس} مِنْ الْمَاء وَالْجَوَاهِر {فَيَمْكُث} يَبْقَى {فِي الْأَرْض} زمانا كذلك الباطل يضمحل وينمحق وَإِنْ عَلَا عَلَى الْحَقّ فِي بَعْض الْأَوْقَات وَالْحَقّ ثَابِت بَاقٍ {كَذَلِكَ} الْمَذْكُور {يَضْرِب} يُبَيِّن {الله الأمثال}[1].

---

(١) قوله تعالى: {أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا} [الرعد: ١٧].

أنزل الله تعالى من السماء ماء كثيرا، ومطرا مدرارا (فسالت أودية بقدرها) أي: فسالت المياه في الأودية بسبب هذا الإنزال، بمقدارها الذي حدده الله- تعالى- واقتضته حكمته في نفع الناس، أو بمقدارها قلة وكثرة، بحسب صغر الأودية وكبرها، واتساعها وضيقها.

والأودية: جمع واد وهو الموضع المتسع الممتد من الأرض الذي يسيل فيه الماء بكثرة.

والسيل: الماء الجاري في تلك الأودية.

قال ابن كثير:"أي: مطرا، أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء، وهذا صغير فوسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها".

قال الفراء:"ضربه مثلا للقرآن إذا نزل عليهم لقوله: {فسالت أودية بقدرها}، يقول: قبلته القلوب بأقدارها وأهوائها".

قال ابن قتيبة:"هذا مثل ضربه الله للحق والباطل. يقول: الباطل وإن ظهر على الحق في بعض الأحوال وعلاه، فإن الله سيمحقه ويبطله، ويجعل العاقبة للحق =

=

وأهله، ومثل ذلك مطر جود، أسال الأودية بقدرها: الكبير على قدره، والصغير على قدره".

عن ابن عباس: " {أودية بقدرها}، قال: الصغير بصغره، والكبير بكبره".

عن مجاهد: " {أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها}، قال: ما أطاقت ملأها".

قوله تعالى: {فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا} [الرعد: ١٧]، أي:"حمل السيل الذي حدث من الأمطار زبداً عالياً فوقه وهو ما يحمله السيل من غثاء، ورغوة تظهر على وجه الماء".

الزبد: هو الغثاء الذي يعلو على وجه الماء عند اشتداد حركته واضطرابه أو ما يعلو القدر عند الغليان ويسمى بالرغوة والوضر والخبث لعدم فائدته، ورابيا: من الربو بمعنى العلو والارتفاع.

- قال البقاعي: والزبد الرغوة التي تعلو الماء، والاحتمال: رفع الشيء على الظهر بقوة الحامل له.

- وقال ابن عطية: والزبد ما يحمله السيل من غثاء ونحوه.

- قال ابن كثير: (فاحتمل السيل زبدا رابيا) أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عال عليه، هذا مثل.

قال ابن عباس:"يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودِمْنة".

قال ابن كثير:"فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زَبَدٌ عال عليه، هذا مثل".

قال ابن قتيبة:"أي: عاليا على الماء كما يعلو الباطل تارة على الحق".

قال الفراء:"يذهب لا منفعة له، كذلك ما سكن في قلب من لم يؤمن وعبد آلهته وصار لا شيء في يده".

=

=

عن قتادة:"{رابيًا}، أي: عاليًا".

قال ابن زيد:"هذا الزبد لا ينفع".

وإلى هنا يكون قد انتهى المثل الأول: حيث شبه سبحانه الحق وأهله في الثبات والنفع بالماء الصافي الذي ينزل من السماء فتمتلئ به الأودية ويبقى محل انتفاع الناس به إلى الوقت المحدد في علم الله تعالى.

وشبه الباطل وشيعته في الاضمحلال وعدم النفع، بزبد السيل المنتفخ المرتفع فوق سطح الماء، فإنه مهما علا وارتفع فإنه سرعان ما يضمحل ويفنى وينسلخ عن المنفعة والفائدة.

-قال الطبري: وهذا مثل ضربه الله للحق والباطل، والإيمان به والكفر، يقول تعالى: مثل الحق في ثباته والباطل في اضمحلاله مثل ماء أنزله الله من السماء إلى الأرض (فسالت أودية بقدرها) يقول: فاحتملته الأودية بملئها، الكبير بكبره، والصغير بصغره (فاحتمل السيل زبدا رابيا) يقول: فاحتمل السيل الذي حدث عن ذلك الماء الذي أنزله الله من السماء زبدا عاليا فوق السيل، فهذا أحد مثلي الحق والباطل، فالحق هو الماء الباقي الذي أنزله الله من السماء، والزبد الذي لا ينتفع به هو الباطل.

قوله تعالى: {وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ} [الرعد: ١٧].

أي: وشبيه بالمثل السابق في خروج الزبد والخبث وطرحه بعيدا عن الأشياء النافعة، ما توقدون عليه النار من المعادن والجواهر، لكي تستخرجوا منها ما ينفعكم من الحلي والأمتعة المتنوعة، فإنكم في مثل هذه الحالة، تبقون على النقي النافع منها، وتطرحون الزبد والخبث الذي يلفظه الكير، والذي هو مثل زبد السيل في عدم النفع.

=

=

فقد شبه سبحانه في هذا المثل الثاني الحق وأهله في البقاء والنفع بالمعادن النافعة الباقية، وشبه الباطل وحزبه في الفناء وعدم النفع بخبث الحديد الذي يطرحه كير الحداد، ويهمله الناس.

الإيقاد وهو جعل الحطب وما يشبهه في النار ليزيد اشتعالها.

قال ابن الجوزي: "يعني بقوله (ومما توقدون عليه) ما يدخل إلى النار فيذاب من الجواهر (ابتغاء حلية) يعني: الذهب والفضة (أو متاع) يعني: الحديد والصفر والنحاس والرصاص تتخذ منه الأواني والأشياء التي ينتفع بها (زبد مثله) أي: له زبد إذا أذيب مثل زبد السيل، فهذا مثل آخر".

قال ابن كثير:"هذا هو المثل الثاني، وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة {ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ} أي: ليجعل حلية أو نحاسا أو حديدًا، فيجعل متاعا فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه".

قال ابن قتيبة:"ومن جواهر الأرض التي تدخل الكير ويوقد عليها. يعني الذهب والفضة للحلية، والشبه والحديد للآلة، حيث يعلوها مثل زبد الماء".

عن ابن عباس:"{ومما يوقدون عليه في النار}، فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، وللنحاس والحديد خَبَث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء".

قال مجاهد: " «المتاع»: الحديد والنحاس والرصاص وأشباهه، {زبد مثله}، قال: خَبَثُ ذلك مثل زَبَد السيل".

قال قتادة:"هو الذهب إذا أدخل النار بقي صَفْوه ونُفِيَ ما كان من كَدَره، وهذا مثل ضربه الله. للحق والباطل... «المتاع»، الصُّفْر والحديد".

عن ابن زيد:"{أو متاع زبد مثله}، هذا لا ينفع أيضًا، قال: وبقي الماءُ في الأرض فنفع الناس، وبقي الحَلْيُ الذي صلح من هذا، فانتفع الناس به".

=

قال الطبري:"وقيل للنحاس والرصاص والحديد في هذا الموضع "المتاع"، لأنه يستمتع به، وكل ما يتمتع به الناس فهو "متاع"، كما قال الشاعر:

تَمَتَّعْ يا مُشَعَّثُ إنَّ شَيْئًا سَبَقْتَ بِهِ المَمَاتَ هُوَ المَتَاعُ

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ} [الرعد: ١٧]، أي:"كذلك يضرب الله المَثَل للحق والمَثَل للباطل، فمثلُ الحق في ثباته واستقراره كمثل الماء الصافي الذي يستقر في الأرض فينتفع منه الناس، ومثل الباطل في زواله واضمحلاله كمثل الزبد والغثاء الذي يقذف به الماء يتلاشى ويضمحل".

قال ابن كثير:"أي: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل".

قوله تعالى: {فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً} [الرعد: ١٧]، أي:"فأما الزبد الذي لا خير فيه مما يطفو على وجه الماء والمعادن فإنه يرمي به السيل ويقذفه ويتفرق ويتمزّق ويذهب في جانبَي الوادي".

قال ابن كثير:"أي: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح. وكذلك خبث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، لا يرجع منه شيء، ولا يبقى إلا الماء وذلك الذهب ونحوه ينتفع به".

قال ابن قتيبة:"أي: يلقيه الماء عنه فيتعلق بأصول الشجر وبجنبات الوادي، وكذلك خبث الفلز يقذفه الكير. فهذا مثل الباطل".

عن مجاهد: " {وأما الزبد فيذهب جفاء} ، قال: فذلك مثل الحق والباطل".

قال قتادة:"" «الجفاء»: ما يتعلق بالشجر".

وفي رواية عن قتادة:"يتعلق بالشجر فلا يكون شيئًا. هذا مثل الباطل".

قال أبو حيان: أي مضمحلا متلاشيا لا منفعة فيه ولا بقاء له؛ وقال ابن الأنباري: متفرقا، من جفأت الريح الغيم - إذا قطعته، وجفأت الرجل: صرعته.

=

فهذا مثل الباطل من الشكوك والشبه وما أثاره أهل العناد، لا بقاء له وإن جال جولة - يمتحن الله بها عباده ليظهر الثابت من المزلزل - ثم ينمحق سريعا.

قوله تعالى: {وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ} [الرعد: ١٧]، أي:"وأمّا ما ينتفع الناس به الماء الصافي، والمعدن الخالص فيبقى ويثبت في الأرض".

قال ابن قتيبة:"وأما ما الماء الذي ينفع الناس وينبت المرعى فيمكث في الأرض وكذلك الصفو من الفلز يبقى خالصا لا شوب فيه. فهو مثل الحق".

قال مجاهد:"يعني الماء. وهما مثلان: مثل الحق والباطل".

قال قتادة:"وهذا يخرج النبات. وهو مثل الحق".

قال الآلوسي: "(وأما ما ينفع الناس) أي من الماء الصافي الخالص من الغثاء والجوهر المعدني الخالص من الخبث (فيمكث) يبقى (في الأرض) أما الماء فيبقى بعضه في مناقعه ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون ونحوها، وأما الجوهر المعدني فيصاغ من بعضه أنواع الحلى ويتخذ من بعضه أصناف الآلات والأدوات فينتفع بكل من ذلك أنواع الانتفاعات مدة طويلة".

قال ابن عباس:"فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذلك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيءُ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاء من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، وبقي كما يبقى ما ينفع الناس في الأرض. وكذلك الحديد لا يستطاع أن تجعل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النّار فتأكل خبَثَه، فيخرج جيّده فينتفع به فكذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ} [الرعد: ١٧]، أي:"مِثْلَ المَثَلين

=

=

السابقين يبيّن الله الأمثال للحق والباطل، والهدى والضلال ليعتبر الناس ويتعظوا".

قال عطاء:"ضرب الله مثلا للحق والباطل، فضرب مثل الحق كمثل السيل الذي يمكث في الأرض، وضرب مثل الباطل كمثل الزبد الذي لا ينفع الناس".

وعن ابن عباس أيضا قوله: " {أنزل من السماء ماء فسالت أوديه بقدرها} فهذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكّها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله، وهو قوله: {فأما الزبد فيذهب جفاء}، وهو الشك، {وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض}، وهو اليقين، كما يُجْعل الحَلْيُ في النار فيؤخذ خالصُه ويترك خَبَثُه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك".

قال عوف: "بلغني في قوله: {أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها} قال: إنما هو مثل ضربه الله للحق والباطل {فسالت أودية بقدرها} الصغير على قدره، والكبير على قدره، وما بينهما على قدره {فاحتمل السيل زبدًا رابيًا} يقول: عظيمًا، وحيث استقرَّ الماءُ يذهب الزبد جفاءً فتطير به الريح فلا يكون شيئًا، ويبقى صريح الماء الذي ينفع الناس، منه شرابهم ونباتهم ومنفعتهم {أو متاع زبد مثله}، ومثل الزبد كلّ شيء يوقد عليه في النار الذهب والفضة والنحاس والحديد، فيذهب خَبَثُه ويبقى ما ينفع في أيديهم، والخبث والزَّبد مثل الباطل، والذي ينفع الناس مما تحصَّل في أيديهم مما ينفعهم المال الذي في أيديهم".

عن الحسن، في قوله: " {أنزل من السماء ماء فسالت أودية} إلى: {أو متاع زبد مثله}، فقال: ابتغاء حلية الذهب والفضة، أو متاع الصُّفْر والحديد. قال: كما أوقد على الذهب والفضة والصُّفْر والحديد فخلص خالصه. قال: {كذلك يضرب الله الحق والباطل فأما الزبد فيذهب جفاءً وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض}،

=

=

كذلك بقاء الحق لأهله فانتفعوا به".

قال قتادة:"هذه ثلاثة أمثال ضربَها الله في مثلٍ واحد. يقول: كما اضمحلّ هذا الزبد فصار جُفاءً لا ينتفع به ولا تُرْجى بركته، كذلك يضمحلّ الباطل عن أهله كما اضمحل هذا الزبد، وكما مكث هذا الماء في الأرض، فأمرعت هذه الأرض وأخرجت نباتها، كذلك يبقى الحق لأهله كما بقي هذا الماء في الأرض، فأخرج الله به ما أخرج من النبات- قوله: {ومما توقدون عليه في النار} الآية، كما يبقى خالص الذهب والفضة حين أدخل النار وذهب خَبَثه، كذلك يبقى الحق لأهله- قوله: {أو متاع زبد مثله}، يقول: هذا الحديد والصُّفْر الذي ينتفع به فيه منافع. يقول: كما يبقى خالص هذا الحديد وهذا الصُّفر حين أدخل النار وذهب خَبَثه، كذلك يبقى الحق لأهله كما بقي خالصهما".

قال شيخ الإسلام رحمه الله معقبـًا على الآية: " فشبه العلم بالماء المنزل من السماء لأن به حياة القلوب، كما أنَّ بالماء حياة الأبدان، وشبّه القلوب بالأودية، لأنّها محلّ العلم، كما أنَّ الأودية محل الماء، فقلب يسع علمـًا كثيراً، وواد يسع ماءً كثيراً، وقلب يسع علمـًا قليلاً، وواد يسع ماءً قليلاً، وأخبر تعالى أنَّه يعلو على السيل من الزبد بسبب مخالطة الماء، وأنّه يذهب جفاءً، أي: يرمى به، ويخفى، والذي ينفع الناس يمكث في الأرض ويستقر، وكذلك القلوب تخالطها الشهوات والشبهات، ثم تذهب جفاءً، ويستقر فيها الإيمان والقرآن الذي ينفع صاحبه والناس، وقال: {وممَّا يوقدون عليه في النَّار ابتغاء حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثله كذلك يضرب الله الحقَّ والباطل} [الرعد: ١٧]. فهذا المثل الآخر وهو الناري، فالأول للحياة، والثاني للضياء.

وبين رحمه الله أن لهذين المثالين نظيراً " وهما المثالان المذكوران في سورة البقرة في قوله تعالى: (مثلهم كمثل الَّذي استوقد ناراً فلمَّا أضاءت ما حوله ذهب

=

=

الله بنورهم وتركهم في ظلماتٍ لا يبصرون - صمٌّ بكم عميٌ فهم لا يرجعون - أو كصيبٍ من السَّماء فيه ظلماتٌ ورعدٌ وبرقٌ يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصَّواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين) [البقرة: ١٧ - ١٩].

وبعد أن بيَّن الشيخ رحمه الله وصف المؤمن، بين وصف الكافر، فقال: " وأمّا الكافر ففي ظلمات الكفر والشرك غير حيّ، وإن كانت حياته حياة بهيمية، فهو عادم الحياة الروحانية العلوية التي سببها الإيمان، وبها حصل للعبد السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة، فإنّ الله - سبحانه - جعل الرسل وسائط بينه وبين عباده في تعريفهم ما ينفعهم وما يضرهم، وتكميل ما يصلحهم في معاشهم ومعادهم، وبعثوا جميعاً بالدعوة إلى الله وتعريف الطريق الموصل إليه، وبيان حالهم بعد الوصول إليه".

ثم بيّن رحمه الله هذه الأصول التي أشار إليها هنا فقال: " فالأصل الأول يتضمن إثبات الصفات والتوحيد والقدر، وذكر أيام الله في أوليائه وأعدائه، وهي القصص التي قصّها الله على عباده والأمثال التي ضربها لهم.

والأصل الثاني يتضمن تفصيل الشرائع والأمر والنهي والإباحة، وبيان ما يحبه الله وما يكرهه. والأصل الثالث يتضمن الإيمان باليوم الآخر، والجنّة والنار والثواب والعقاب".

ثم بيّن أنَّ " على هذه الأصول الثلاثة مدار الخلق والأمر، والسعادة والفلاح موقوفة عليها، ولا سبيل إلى معرفتها إلاّ من جهة الرسل، فإنَّ العقل لا يهتدي إلى تفاصيلها ومعرفة حقائقها، وإن كان قد يدرك وجه الضرورة إليها من حيث الجملة، كالمريض الذي يدرك وجه الحاجة إلى الطب ومن يداويه، ولا يهتدي إلى تفاصيل المرض، وتنزيل الدواء عليه".

قال ابن كثير:"قال بعض السلف: كنت إذا قرأتُ مثلا من القرآن فلم أفهمه بَكَيت

=

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨).

{لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ} أَجَابُوهُ بِالطَّاعَةِ {الْحُسْنَى} الْجَنَّة {وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ} وَهُمْ الْكُفَّار {لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْض جَمِيعًا وَمِثْله مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ} مِنْ الْعَذَاب {أُولَئِكَ لَهُمْ سُوء الْحِسَاب} وَهُوَ الْمُؤَاخَذَة بِكُلِّ مَا عَمِلُوهُ لَا يُغْفَر مِنْهُ شَيْء {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّم وَبِئْسَ الْمِهَاد} الْفِرَاش هِيَ[1].

=

على نفسي؛ لأن الله تعالى يقول: {وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ}".

- قال الخازن: قال أهل التفسير والمعاني: هذا مثل ضربه الله للحق والباطل، فالباطل وإن علا على الحق في بعض الأوقات والأحوال، فإن الله يمحقه ويبطله ويجعل العاقبة للحق وأهله كالزبد الذي يعلو على الماء فيذهب الزبد ويبقى الماء الصافي الذي ينتفع به، وكذلك الصفو من هذه الجواهر يبقى ويذهب العلو الذي هو الكدر، وهو ما ينفيه الكير مما يذاب من جواهر الأرض كذلك الحق والباطل، فالباطل وإن علا في وقت فإنه يذهب هو وأهله، والحق يظهر هو وأهله.

- قال البغوي: جعل الله تعالى هذا مثلا للحق والباطل، أي: أن الباطل كالزبد يذهب ويضيع، والحق كالماء والفلز يبقى في القلوب. وقيل: هذا تسلية للمؤمنين، يعني: أن أمر المشركين كالزبد يرى في الصورة شيئا وليس له حقيقة، وأمر المؤمنين كالماء المستقر في مكانه له البقاء والثبات.

(١) قوله تعالى: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى} [الرعد: ١٨]، أي:"للمؤمنين الذين أطاعوا الله ورسوله الجنة".

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: (للذين استجابوا لربهم) أي: أطاعوا

=

=

الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم (الحسنى) وهو الجزاء الحسن، قال ابن عباس وجمهور المفسرين: يعني الجنة.... (تفسير الخازن).

كما قال تعالى مخبرا عن ذي القرنين أنه قال (قال أما من ظلم فسوف نعذبه ثم يرد إلى ربه فيعذبه عذابا نكرا وأما من آمن وعمل صالحا فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسرا).

وقال تعالى (للذين أحسنوا الحسنى وزيادة).

قال ابن عطية: (الذين استجابوا) هم المؤمنون الذين دعاهم الله ﷻ على لسان رسوله فأجابوه إلى ما دعاهم إليه من اتباع دينه، و (الحسنى) هي الجنة وكل ما يختص به المؤمنون من نعم الله ﷻ.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أما الذين استجابوا لله فآمنوا به حين دعاهم إلى الإيمان به، وأطاعوه فاتبعوا رسوله وصدّقوه فيما جاءهم به من عند الله، فإن لهم الحسنى، وهي الجنة".

وفي قوله تعالى: {لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَى} [الرعد: ١٨]، وجوه:

أحدها: أنها الجنة، وبه قال قتادة، ومقاتل.

الثاني: أن «الحسنى» هى كل خير من الجنة فما دونها. قاله ابو عبيدة.

والثالث: أنها الحياة والرزق، قاله مجاهد.

والرابع: أن تكون مضاعفة الحسنات. افاده الماوردي.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ} [الرعد: ١٨]، أي:"والذين لم يطيعوا وكفروا به بعد ما ضرب لهم الأمثال وبين لهم الحق، لهم النار، ولو كانوا يملكون كل ما في الأرض وضِعْفه معه لبذلوه فداء لأنفسهم من عذاب الله يوم القيامة، ولن يُتَقبل منهم".

=

=

قال الرازي: "والافتداء جعل أحد الشيئين بدلا من الآخر".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأما الذين لم يستجيبوا لله حين دعاهم إلى توحيده والإقرار بربوبيته، ولم يطيعوه فيما أمرهم به، ولم يتبعوا رسوله فيصدقوه فيما جاءهم به من عند ربهم، فلو أن لهم ما في الأرض جميعًا من شيء ومثله معه ملكًا لهم، ثم قُبِل مثل ذلك منهم، وقبل منهم بدلا من العذاب الذي أعدّه الله لهم في نار جهنم وعوضًا، لافتدوا به أنفسهم منه".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ} [الرعد: ١٨]، أي:"أولئك يحاسَبون على كل ما أسلفوه من عمل سيِّئ".

قال الطبري:"يقول: هؤلاء الذين لم يستجيبوا لله لهم سوء الحساب: يقول: لهم عند الله أن يأخذهم بذنوبهم كلها، فلا يغفر لهم منها شيئا، ولكن يعذبهم على جميعها".

وفي قوله تعالى: {سُوءُ الْحِسَابِ} [الرعد: ١٨]، ستة اقوال:

أحدها: أن يؤاخذوا بجميع ذنوبهم فلا يعفى لهم عن شيء منها، قاله شهر بن حوشب، وإبراهيم النخعي.

قال السجستاني:"سوء الحساب: أن يؤخذ العبد بخطاياه كلها، لا يغفر له منها شيء".

وروي عن عائشة رضي الله عنها- عن النبي-صلى الله عليه وسلم-: مَنْ نُوقِشَ الْحِسَابَ هَلَكَ".

وفي رواية أخرى:"من نُوقش الحسابَ عُذِّب".

وفي رواية:""من نُوقش الحساب لم يُغفر له...".

الثاني: أنه المناقشة في الأعمال، قاله أبو الجوزاء.

الثالث: أنه التقريع والتوبيخ، حكاه ابن عيسى.

الرابع: أنه الحساب الذي لا تساهل فيه. قاله ابن زيد.

=

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩).

وَنَزَلَ فِي حَمْزَة وَأَبِي جَهْل {أَفَمَنْ يَعْلَم أَنَّمَا أُنْزِلَ إلَيْك مِنْ رَبّك الْحَقّ} فَآمَنَ بِهِ {كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} لَا يَعْلَمهُ وَلَا يؤمن به لا {إنما يتذكر} يتعظ {أولوا الْأَلْبَاب} أَصْحَاب الْعُقُول[1].

=

قا ابن ابي زمنين:"{سوء الحساب}: شدته".

الخامس: ألا تقبل منهم حسنة ولا يتجاوز لهم عن سيئة، وأن كفرهم أحبط أعمالهم، كما قال: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ١]. قاله الزجاج.

والسادس: أن يكون سوء الحساب ما أفضى إليه حسابهم من السوء وهو العقاب. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ} [الرعد: ١٨]، أي:"ومسكنهم ومقامهم جهنم تكون لهم فراشًا".

قال الطبري:"يقول: ومسكنهم الذي يسكنونه يوم القيامة جهنم".

قال ابن عطية:"«المأوى»: حيث يأوي الإنسان ويسكن".

قوله تعالى: {وَبِئْسَ الْمِهَادُ} [الرعد: ١٨]، أي:"وبئس الفراش الذي مهدوه لأنفسهم".

قال الطبري:"يقول: وبئس الفراش والوطاءُ جهنمُ التي هي مأواهم يوم القيامة".

قال ابن عطية:"«الْمِهاد»: ما يفترش ويلبس بالجلوس والرقاد.

(١) قوله تعالى: {أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى} [الرعد: ١٩].

=

=

المراد بالأعمى هنا: الكافر الذي انطمست بصيرته، فأصبح لا يفرق بين الحق والباطل، والاستفهام للإنكار والاستبعاد.

المعنى: أفمن يعلم ان ما أنزل إليك- أيها الرسول الكريم- من وحي هو الحق الذي يهدى للتي هي أقوم، كمن هو أعمى القلب: مطموس البصيرة؟

فالآية الكريمة تنفى بأبلغ أسلوب، مساواة الذين علموا الحق فاتبعوه، بمن جهلوه وأعرضوا عنه، وصموا آذانهم عن سماعه.

قال الطبري:"قول تعالى ذكره: أهذا الذي يعلم أنّ الذي أنزله الله عليك، يا محمد، حق فيؤمن به ويصدق ويعمل بما فيه، كالذي هو أعمى فلا يعرف موقع حُجَة الله عليه به ولا يعلم ما ألزمه الله من فَرَائصه؟".

قال ابن ابي زمنين:"أي: أنهما لا يستويان؛ يعني: المؤمن والكافر".

قال ابن عطية: معناه:"التقرير، والمعنى: أسواء من هداه الله فعلم صدق نبوتك وآمن بك، ومن لم يهتد ولا رزق بصيرة فبقي على كفره، فمثل ﷻ ذلك بالعمى.. فالأول حمزة أو عمار، والثاني أبو جهل، وهو الأعمى. أي: لا يستوي من يبصر الحق ويتبعه ومن لا يبصره ولا يتبعه".

قال قتادة:"هؤلاء قوم انتفعُوا بما سمعوا من كتاب الله وعقلوه ووَعَوْه، قال الله: {كمن هو أعمى}، قال: عن الخير فلا يبصره".

قال ابن كثير: "يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي (أنزل إليك) يا محمد (من ربك) هو (الحق) أي: الذي لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضا، لا يضاد شيء منه شيئا آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل.

كما قال تعالى (وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا) أي: صدقا في الأخبار، وعدلا في الطلب، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا

=

=

يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له، ولا صدقه ولا اتبعه.

كما قال تعالى (لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة أصحاب الجنة هم الفائزون).

وقال في هذه الآية الكريمة (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى) أي: أفهذا كهذا؟ لا استواء.

وقال السعدي: يقول تعالى: مفرقا بين أهل العلم والعمل وبين ضدهم (أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق) ففهم ذلك وعمل به. (كمن هو أعمى) لا يعلم الحق ولا يعمل به فبينهما من الفرق كما بين السماء والأرض، فحقيق بالعبد أن يتذكر ويتفكر أي الفريقين أحسن حالا وخير مآلا فيؤثر طريقها ويسلك خلف فريقها، ولكن ما كل أحد يتذكر ما ينفعه ويضره.

وقال الخازن: وإنما شبه الكافر والجاهل بالأعمى لأن الأعمى لا يهتدي لرشد، وربما وقع في مهلكة وكذلك الكافر والجاهل لا يهتديان للرشد وهما واقعان في المهلكة.

قوله تعالى: {إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ} [الرعد: ١٩]، أي:"إنما يتعظ أصحاب العقول السليمة".

قال الطبري:"يقول: إنما يتعظ بآيات الله ويعتبر بها ذوو العقول، وهي «الألباب» واحدها: «لُبٌّ»".

قال ابن ابي زمنين:"{أولو الألباب} العقول؛ وهم المؤمنون".

قال الزمخشري:"الخطاب للأصحاب وذوي العقول".

قال الواحدي: أي:"يتَّعظ ويرتدع عن المعاصي {أولو الألباب}، يعني: المهاجرين والأنصار".

قال ابن الجوزي:"أي: إنما يتعظ ذوو العقول. والتذكر: الاتعاظ".

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠).

{الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ الله} الْمَأْخُوذ عَلَيْهِمْ وَهُمْ فِي عَالَم الذَّرّ أَوْ كُلّ عَهْد {وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاق} بِتَرْكِ الْإِيمَان أَوْ الْفَرَائِض.

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١).

{وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَل} مِنْ الْإِيمَان وَالرَّحِم وَغَيْر ذَلِك {وَيَخْشَوْنَ رَبّهمْ} أَيْ وَعِيده {وَيَخَافُونَ سُوء الْحِسَاب} تَقَدَّمَ مثله.

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢).

{وَالَّذِينَ صَبَرُوا} عَلَى الطَّاعَة وَالْبَلَاء وَعَنْ الْمَعْصِيَة {ابْتِغَاء} طَلَب {وَجْه رَبّهمْ} لَا غَيْره مِنْ أَعْرَاض الدُّنْيَا {وَأَقَامُوا الصَّلَاة وَأَنْفَقُوا} فِي الطَّاعَة {مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَة وَيَدْرَءُونَ} يَدْفَعُونَ {بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَة} كَالْجَهْلِ بِالْحِلْمِ وَالْأَذَى بِالصَّبْرِ {أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّار} أَيْ الْعَاقِبَة الْمَحْمُودَة فِي الدَّار الْآخِرَة هي.

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣).

{جَنَّات عَدْن} إقَامَة {يَدْخُلُونَهَا} هُمْ {وَمَنْ صَلَحَ} آمَنَ {مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجهمْ وَذُرِّيَّاتهمْ} وَإِنْ لَمْ يَعْمَلُوا بِعَمَلِهِمْ يَكُونُونَ فِي دَرَجَاتهمْ تَكْرِمَة لَهُمْ {وَالْمَلَائِكَة يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلّ بَاب} مِنْ أَبْوَاب الْجَنَّة أَوْ الْقُصُور أَوَّل دُخُولهمْ لِلتَّهْنِئَةِ.

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤).

يَقُولُونَ {سَلَام عَلَيْكُمْ} هَذَا الثَّوَاب {بِمَا صَبَرْتُمْ} بِصَبْرِكُمْ فِي الدُّنْيَا {فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار} عُقْبَاكُمْ(١).

---

(١) قوله تعالى: {الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ} [الرعد: ٢٠].

أي: بجميع عهود الله وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيدة، ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض وتجنب جميع المعاصي.

قال الطبري: أي:"الذين يوفون بوصية الله التي أوصاهم بها".

قال القرطبي: "قوله تعالى (الذين يوفون بعهد الله) هذا من صفة ذوي الألباب، أي إنما يتذكر أولو الألباب الموفون بعهد الله".

والعهد اسم للجنس؛ أي بجميع عهود الله، وهي أوامره ونواهيه التي وصى بها عبيده؛ ويدخل في هذه الألفاظ التزام جميع الفروض، وتجنب جميع المعاصي.

والوفاء بالعهد: أن يحقق المرء ما عاهد على أن يعمله.

قوله تعالى: {وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ} [الرعد: ٢٠].

تعميم بعد تخصيص، لتشمل عهودهم مع الله- تعالى- ومع غيره من عباده.

قال أبو حيان: الظاهر أن هذه الجملة تأكيد للتي قبلها لأن العهد هو الميثاق ويلزم من إيفاء العهد انتفاء نقضه.

وقال ابن عطية: المراد بالجملة الأولى يوفون بجميع عهود الله تعالى وهي أوامره ونواهيه التي وصى الله تعالى بها عبيده ويدخل في ذلك التزام جميع الفروض وتجنب جميع المعاصي، والمراد بالجملة الثانية أنهم إذا عقدوا في طاعة الله تعالى عهدا لم ينقضوه.

قال ابن كثير: وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان.

قال الطبري: أي:"ولا يخالفون العهد الذي عاهدوا الله عليه إلى خلافه، فيعملوا =

=

بغير ما أمرهم به، ويخالفوا إلى ما نهى عنه".

قال ابن عباس: "يريد الذي عاهدهم عليه في صُلب آدم".

قال قتادة:"فعليكم بوفاء العهد، ولا تنقضوا هذا الميثاق، فإن الله تعالى قد نهى وقدَّم فيه أشد التَّقْدمة، فذكره في بضع وعشرين موضعًا، نصيحةً لكم وتقدِمَةً إليكم، وحجة عليكم، وإنما يعظُمُ الأمر بما عظَّمه الله به عند أهل الفهم والعقل، فعظِّموا ما عظم الله. قال قتادة: وذكر لنا أن رسول الله ﷺ كان يقول في خطبته: «لا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»".

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [الرعد: ٢١].

أي: أن من صفات أولى الألباب- أيضا- أنهم يصلون كل ما أمر الله تعالى بوصله كصلة الأرحام، وإفشاء السلام، وإعانة المحتاج، والإحسان إلى الجار.

قال ابن كثير: من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف.

وقال القرطبي: ظاهر في صلة الأرحام، وهو قول قتادة وأكثر المفسرين، وهو مع ذلك يتناول جميع الطاعات.

وقال الشوكاني: ظاهره شمول كل ما أمر الله بصلته، ونهى عن قطعه من حقوق الله وحقوق عباده، ويدخل تحت ذلك صلة الأرحام دخولا أوليا، وقد قصره كثير من المفسرين على صلة الرحم، واللفظ أوسع من ذلك.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والذين يصلون الرَّحم التي أمرهم الله بوصلها فلا يقطعونها".

قال ابن كثير:"من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف".

قال ابن زيد في قوله:"{واتقوا الله الذي تساءلون به}، واتقوا الأرحام أن تقطعوها،

=

=

وقرأ: {والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل} [الرعد: ٢١]".

وقال ابن عباس: "يريد الإيمان بالأنبياء"".

قوله تعالى: {وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ} [الرعد: ٢١]، أي:"يهابون ربهم إجلالاً وتعظيماً".

قال السعدي: أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

قال الخازن: والخشية خوف يشوبه تعظيم وأكثر ما يكون ذلك عن علم بما يخشى منه.

قال تعالى (إنما تنذر من اتبع الذكر وخشي الرحمن بالغيب فبشره بمغفرة وأجر كريم).

وقال تعالى (إن الذين يخشون ربهم بالغيب لهم مغفرة وأجر كبير).

وقال تعالى (وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد. هذا ما توعدون لكل أواب حفيظ. من خشي الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب. ادخلوها بسلام ذلك يوم الخلود. لهم ما يشاؤون فيها ولدينا مزيد).

وكان النبي ﷺ يقول في دعائه (أسألك خشيتك في الغيب والشهادة).

وخشية الله في الغيب والشهادة من المنجيات، كما قال ﷺ (ثلاث منجيات، وذكر منها: خشية الله في السر والعلن).

وقال الشافعي: أعز ثلاثة: الجود من قلة، والورع في خلوة، وكلمة الحق عند من يرجى أو يخاف.

قال الطبري:"يقول: ويخافون الله في قطْعها أن يقطعوها، فيعاقبهم على قطعها وعلى خلافهم أمرَه فيها".

=

قال ابن كثير:"أي: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك، ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية".

قوله تعالى: {وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ} [الرعد: ٢١]، أي:"يخافون الحساب السيء المؤدي لدخول النار".

قال الطبري:"يقول: ويحذرون مناقشة الله إياهم في الحساب، ثم لا يصفح لهم عن ذنب، فهم لرهبتهم ذلك جادُّون في طاعته، محافظون على حدوده".

وفي قوله تعالى: {سُوءُ الْحِسَابِ} [الرعد: ٢١]، وجوه:

أحدها: أن يؤاخذوا بجميع ذنوبهم فلا يعفى لهم عن شيء منها، قاله شهر بن حوشب، وإبراهيم النخعي.

الثاني: أنه المناقشة في الأعمال، قاله أبو الجوزاء.

الثالث: أنه التقريع والتوبيخ، حكاه ابن عيسى.

الرابع: أنه الحساب الذي لا تساهل فيه. قاله ابن زيد.

الخامس: ألا تقبل منهم حسنة ولا يتجاوز لهم عن سيئة، وأن كفرهم أحبط أعمالهم، كما قال: {الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ} [محمد: ١]. قاله الزجاج.

والسادس: أن يكون سوء الحساب ما أفضى إليه حسابهم من السوء وهو العقاب. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} [الرعد: ٢٢]، أي:"وهم الذين صبروا على الأذى وعلى الطاعة، وعن المعصية طلبًا لرضا ربهم، لا لغير ذلك من المقاصد والأغراض الفاسدة، فإن هذا هو الصبر النافع الذي يحبس به العبد نفسه، طلبا لمرضاة ربه، ورجاء للقرب منه، والحظوة بثوابه، وهو الصبر الذي من

=

خصائص أهل الإيمان، وأما الصبر المشترك الذي غايته التجلد ومنتهاه الفخر، فهذا يصدر من البر والفاجر، والمؤمن والكافر، فليس هو الممدوح على الحقيقة".

وإلى هذا المعنى أشار صاحب الكشاف بقوله: «والذين صبروا» فيما يصبر عليه من المصائب في النفوس والأموال ومشاق التكليف «ابتغاء وجه ربهم» لا ليقال ما أصبره وأحمله للنوازل، وأوقره عند الزلازل. ولا لئلا يعاب بالجزع، ولئلا يشمت به الأعداء، كقوله:

وتجلدي للشامتين أريهم أني لريب الدهر لا أتزعزع

ولا لأنه لا طائل تحت الهلع، ولا مرد فيه للفائت.

قال الرازي:... ثم إن الإنسان قد يقدم على الصبر لوجوه:

أحدها: أن يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل.

وثانيها: أن يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع.

وثالثها: أن يصبر لئلا تحصل شماتة الأعداء.

ورابعها: أن يصبر لعلمه بأن لا فائدة في الجزع فالإنسان إذا أتى بالصبر لأحد هذه الوجوه لم يكن ذلك داخلا في كمال النفس وسعادة القلب.

- وفي هذا أهمية الإخلاص في جميع الأعمال، فإن العمل يعظم ويكبر بالإخلاص.

قال ابن القيم: وكل شيء لا يكون لله فبركته منزوعة، فإن الرب هو الذي يبارك وحده، والبركة كلها منه، وكل ما نسب إليه مبارك.... (الجواب الكافي / ٨٤).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والذين صبروا على الوفاء بعهد الله، وترك نقض الميثاق وصلة الرحم {ابتغاء وجه ربهم}، ويعني بقوله: {ابتغاء وجه ربهم}، طلب تعظيم الله، وتنزيهًا له أن يُخالَفَ في أمره أو يأتي أمرًا كره إتيانه فيعصيه به".

=

=

قال ابن كثير:"أي: عن المحارم والمآثم، ففطموا نفوسهم عن ذلك لله ﷻ؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه".

قوله تعالى: {وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ} [الرعد: ٢٢].

أي: أدوها على وجه مستقيم بشروطها وأركانها ومستحباتها كما جاء عن رسول الله ﷺ.

قال السعدي: لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون الصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقام الصلاة، إقامتها ظاهرا بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنا بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها.

قال الطبري:"يقول: وأدُّوا الصلاة المفروضة بحدودها في أوقاتها".

قال ابن كثير: أي:"بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي".

عن ابن عباس، قوله: " {وأقاموا الصلاة}، يعني: الصلوات الخمس".

قال الزهري: "إقامتها: أن يصلي الصلوات الخمس لوقتها".

قوله تعالى: {وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} [الرعد: ٢٢]، أي:"وأدَّوا من أموالهم زكاتهم المفروضة، والنفقات المستحبة في الخفاء والعلن".

وقد اختلف في المراد بالنفقة هنا: فقيل: الزكاة المفروضة، وقيل: صدقة التطوع، والصحيح أنها عامة في كل أنواع الإنفاق، ورجح هذا القول ابن جرير الطبري والقرطبي والسعدي.

- قال السعدي: يدخل فيه النفقات الواجبة كالزكاة، والنفقة على الزوجات والأقارب والمماليك ونحو ذلك، والنفقات المستحبة بجميع طرق الخير.

- قوله تعالى (مما رزقناهم) أي ينفقون بعض مالهم لا كله.

=

=

- قال السعدي: وأتى بـ[من] الدالة على التبعيض، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءا يسيرا من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم.

قال الطبري:"يقول: وأدَّوا من أموالهم زكاتها المفروضة وأنفقوا منها في السبل التي أمرهم الله بالنفقة فيها {سرًّا} في خفاء {وعلانية} في الظاهر".

قال ابن كثير:"أي: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، {سِرًّا وَعَلانِيَةً} أي: في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، في آناء الليل وأطراف النهار".

عن ابن عباس: " {وأنفقوا مما رزقناهم سرًّا وعلانية}، يقول: الزكاة".

قال ابن زيد: " «الصبر»، الإقامة، وقال: «الصبر» في هاتين، فصبرٌ لله على ما أحبَّ وإن ثقل على الأنفس والأبدان، وصبرٌ عمَّا يكره وإن نازعت إليه الأهواء. فمن كان هكذا فهو من الصابرين. وقرأ: {سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار} [سورة الرعد:٢٤]".

(سرا وعلانية) إشارة إلى الحث على استواء الحالتين تنبيها على الإخلاص، ويجوز أن يكون المراد بالسر ما ينبغي فيه الإسرار كالنوافل، وبالعلانية ما يندب إلى إظهاره كالواجب إلا أن يمنع مانع.

كثيرا ما يقرن الله تبارك وتعالى بين الصلاة والإنفاق [الزكاة] كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة).

قيل: إن الصلاة حق الله وعبادته وهي مشتملة على توحيده والثناء عليه وتمجيده، والإنفاق هو من الإحسان إلى المخلوقين بالنفع المتعدي إليهم، وسعادة العبد دائرة بين الأمرين: إخلاصه لمعبوده، وسعيه في نفع الخلق.

وقيل: الصلاة رأس العبادات البدنية، والزكاة رأس العبادات المالية.

=

=

وقيل: الصلاة طهارة للنفس والبدن، والزكاة طهارة للمال.

قال بعض العلماء: ونبه على هاتين الخصلتين: العبادة البدنية، والعبادة المالية، إذ هما عمود الدين، والصبر عليهما أعظم صبر لتكرر الصلوات، ولتعلق النفوس بحب تحصيل المال.

ونبه على حالتي الإنفاق، فالسر أفضل حالات إنفاق التطوع كما جاء في "السبعة الذين يظلهم الله في ظله يوم لا ظل إلا ظله، ورجل تصدق بصدقة فأخفاها" والعلانية أفضل حالات إنفاق الفروض، لأن الإظهار فيها أفضل.

قوله تعالى: {وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ} [الرعد: ٢٢]، أي:"ويدفعون بالحسنة السيئة فتمحوها".

أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحا وعفوا.

كما قال تعالى (ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم).

قال الرازي: قوله تعالى (ويدرؤن بالحسنة السيئة) فيه وجهان:

الأول: أنهم إذا أتوا بمعصية درؤها ودفعوها بالتوبة.

كما روى أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: " إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها.

والثاني: أن المراد أنهم لا يقابلون الشر بالشر بل يقابلون الشر بالخير.

كما قال تعالى (وإذا مروا باللغو مروا كراما).

وعن ابن عمر رضي الله عنهما ليس الوصول من وصل ثم وصل تلك المجازاة لكنه من قطع ثم وصل وعطف على من لم يصله، وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى إذا هيجه قوم اهتاج، لكن الحليم من قدر ثم عفا.

=

وعن الحسن: هم الذين إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا.

قال الطبري:"يقول: ويدفعون إساءة من أساء إليهم من الناس، بالإحسان إليهم".

قال ابن كثير:"أي: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحا وعفوا، كما قال تعالى: {ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ} [فصلت: ٣٤، ٣٥]".

قال ابن زيد:"يدفعون الشر بالخير، لا يكافئون الشرّ بالشر، ولكن يدفعونه بالخير".

قال ابن كيسان: "هو أنهم إذا أذنبوا تابوا، ليدفعوا بالتوبة مَعَرّة الذنب".

قال السدي: "ويدفعون بالقول المعروف، والعفو الأذى والأمر القبيح".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٢٢]، أي:"أولئك الموصوفون بهذه الصفات لهم العاقبة المحمودة في الآخرة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هؤلاء الذين وصفنا صفتهم، هم الذين {لهم عقبى الدار}، يقول: هم الذين أعقبهم الله دارَ الجنان، من دارهم التي لو لم يكونوا مؤمنين كانت لهم في النار، فأعقبهم الله من تلك هذه، وقد قيل: معنى ذلك: أولئك الذين لهم عقِيبَ طاعتهم ربَّهم في الدنيا، دارُ الجنان".

قال ابن عباس: "يريد عقباه الجنة".

عن أبي عمران الجوني:: {فنعم عقبى الدار} [الرعد: ٢٤]، قال:"النجاة من النار".

قوله تعالى: {جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} [الرعد: ٢٣]، أي:"تلك العاقبة هي جنات عدن يقيمون فيها لا يزولون عنها، ومعهم الصالحون من الآباء والزوجات والذريات من الذكور والإناث".

=

وفي قوله سبحانه (ومن صلح من آبائهم) دليل على أن هؤلاء الأقارب لا يستحقون دخول الجنة، إلا إذا كانت أعمالهم صالحة، أما إذا كانت غير ذلك فإن قرابتهم وحدها لا تنفعهم في هذا اليوم الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

قال ابن كثير: وقوله (ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم) أي: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين، لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتنانا من الله وإحسانا، كما قال تعالى والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم، وما ألتناهم من عملهم من شيء، كل امرئ بما كسب رهين.

قال الطبري:"جنات عدن يدخلها هؤلاء الذين وصف صفتهم- وهم الذين يوفون بعهد الله، والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم، والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم، وأقاموا الصلاة، وفعلوا الأفعال التي ذكرها جل ثناؤه في هذه الآيات الثلاث- {ومن صلح من آبائهم وأزواجهم}، وهي نساؤهم وأهلوهم، و {ذرّيّاتهم}، و «صلاحهم» إيمانهم بالله واتباعهم أمره وأمر رسوله عليه السلام.. و {عدن}، معناه: الإقامة التي لا ظَعْنَ معها".

عن مجاهد، قوله: " {ومن صلح من آبائهم}، قال: من آمن في الدنيا".

وعن مجاهد أيضا:"عن مجاهد قوله: {ومن صلح من آبائهم} قال: من آمن من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم".

قال ابن كثير:"«العدن»: الإقامة، أي: جنات إقامة يخلدون فيها، وقوله: {وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ} أي: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم

=

=

بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتنانًا من الله وإحسانا، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَمَا أَلَتْنَاهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ} [الطور: ٢١]".

قوله تعالى: {وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ} [الرعد: ٢٣]، أي:"وتدخل الملائكة عليهم من كل باب؛ لتهنئتهم بدخول الجنة".

وفي قوله (يدخلون عليهم من كل باب) إشارة إلى كثرة قدوم الملائكة عليهم، وإلى كثرة أبواب بيوتهم، تكريما وتشريفا وتأنيسا لهم.

قال الطبري:"يقول: تعالى ذكره: وتدخل الملائكة على هؤلاء الذين وصف جل ثناؤه صفتهم في هذه الآيات الثلاث في جنات عدن، من كل باب منها".

قال ابن كثير:"أي: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة".

قال ابن عباس: "يريد بالتحية من الله والتحفة والهدايا".

قوله تعالى: {سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ} [الرعد: ٢٤]، أي:"تقول الملائكة لهم: سلام عليكم، تحية خاصة لكم، سَلِمْتم من كل سوء بسبب صبركم على طاعة الله".

قال الطبري:"يقولون لهم: {سلام عليكم بما صبرتم} على طاعة ربكم في الدنيا، وذكر أن لجنات عدن خمسة آلاف باب".

قال ابن القيم:... فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه ، وهي دار الله ، واسمه سبحانه وتعالى السلام ، الذي سلمها وسلم أهلها ، وتحيتهم فيها سلام ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم ، والرب تعالى يسلم عليهم من فوقهم كما قال تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون. سلام قولا

=

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥).

{وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْد الله مِنْ بَعْد مِيثَاقه وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ الله بِهِ أَنْ يُوصَل وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْض} بِالْكُفْرِ وَالْمَعَاصِي {أُولَئِكَ لَهُمْ اللَّعْنَة} الْبُعْد مِنْ رَحْمَة

=

من رب رحيم).

عن عبد الله بن عمرو بن العاص- رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا - عن رسول الله ﷺ أنه قال: "هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟ " قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: "أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تُسدُّ بهم الثغور، وتُتَّقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم. فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادا يعبدونني لا يشركون بي شيئًا، وتُسَد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره فلا يستطيع لها قضاء". قال: "فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب، {سَلامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ} ".

أخرج البيهقي عن هاشم بن محمد العمري، قال: "أخذني أبي بالمدينة إلى زيارة قبور الشهداء في يوم جمعة بين طلوع الفجر والشمس فكنت أمشي خلفه فلما انتهى إلى المقابر رفع صوته فقال {سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار}، قال: فأجيب وعليك السلام يا أبا عبد الله، فالتفت إليَ أبي، وقال: أنت المجيب يا بنيّ، فقلت: لا. فأخذ بيدي فجعلني عن يمينه ثم أعاد السلام عليهم، ثم جعل كلما سلم عليهم يرد عليه، حتى فعل ذلك ثلاث مرات، فخر أبي ساجدا شكرا لله تعالى".

الله {وَلَهُمْ سُوء الدَّار} الْعَاقِبَة السَّيِّئَة فِي الدَّار الْآخِرَة وَهِيَ جهنم(١).

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ} [الرعد: ٢٥]، أي:"وأما الذين ينقضون عهودهم بعدما وثقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم من طاعته والإيمان به".

بعد أن ذكر- سبحانه- صفات هؤلاء الأوفياء، وما أعد لهم من ثواب جزيل، أتبع ذلك ببيان سوء عاقبة الناقضين لعهودهم، القاطعين لما أمر الله بوصله. المفسدين في الأرض.

قال الرازي: "اعلم أنه تعالى لما ذكر صفات السعداء وذكر ما ترتب عليها من الأحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر حال الأشقياء، وذكر ما يترتب عليها من الأحوال المخزية المكروهة، وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب، ليكون البيان كاملا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأما الذين ينقضون عهد الله، ونقضهم ذلك، خلافهم أمر الله، وعملهم بمعصيته، من بعد ما وثّقوا على أنفسهم لله أن يعملوا بما عهد إليهم".

قال السمعاني والبغوي:"هذا وارد في الكفار".

قوله تعالى: {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [الرعد: ٢٥]، أي:"ويقطعون الرحم التي أمر الله بوصلها".

قال الطبري:"يقول: ويقطعون الرحم التي أمرهم الله بوصلها".

وفي قوله تعالى: {وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ} [الرعد: ٢٥]، وجهان:

أحدهما: معناه: يؤمنون ببعض الأنبياء، ويكفرون بالبعض. قاله السمعاني، والبغوي.

والثاني: يقطعون الرحم. وهذا قول ابن جرير الطبري.

=

=

قال ابن جريج:"بلغنا أن النبي ﷺ قال: «إذا لم تمش إلى ذي رحمك برجلك ولم تعطه من مالك فقد قطعته»".

قوله تعالى: {وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ} [الرعد: ٢٥]، أي:"ويفسدون في الأرض بعمل المعاصي".

قال الطبري:"فسادهم فيها: عملهم بمعاصي الله".

قال السمعاني:"يعني: يعملون فيها بالمعاصي".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ} [الرعد: ٢٥]، أي:"أولئك الموصوفون بهذه الصفات القبيحة لهم الطرد من رحمة الله".

قال الطبري:"يقول: فهؤلاء لهم اللعنة، وهي البعد من رحمته، والإقصاء من جِنانه".

قال السمعاني:"«اللَّعْنَةُ»، أي: البعد من رحمة الله".

قال السمعاني أيضا: "قوله: {أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ} [الرعد:٢٥] أي: عليهم اللعنة".

ومثله قال ابن الجوزي، والرازي.

وذكروا لذلك شواهد منها: قوله تعالى: {يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧)} [الإسراء:١٠٧] أي: على الأذقان، وقوله تعالى: {دَعَانَا لِجَنْبِهِ} [يونس:١٢] أي: على جنبه، قال ابن قتيبة: (والعرب تقول: سقط فلان لفيه، أي: على فيه).

أقول: وإن جاز استعمال اللام بمعنى [على] حسب دلالة السياق إلا أن الأولى البقاء على المعنى الأصلي للام: وهو الاستحقاق والاختصاص ما دام له محمل صحيح دون معارض، فتقول: للكافرين اللعنة، أي: يستحقون اللعنة، وهي خاصة بهم دون غيرهم.

قال الراغب: (ولام الاستحقاق نحو قوله: {لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)} [الرعد:٢٥] ... وقال بعض النحويين: اللام في قوله: {لَهُمُ اللَّعْنَةُ} [الرعد:٢٥]

=

اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦).

{الله يَبْسُط الرِّزْق} يُوَسِّعهُ {لِمَنْ يَشَاء وَيَقْدِر} يُضَيِّقهُ لِمَنْ يَشَاء {وَفَرِحُوا} أَيْ أَهْل مَكَّة فَرَح بَطَر {بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} أَيْ بِمَا نَالُوهُ فِيهَا {وَمَا الْحَيَاة الدُّنْيَا فِي}

=

بمعنى: على، أي: عليهم اللعنة، وفي قوله: {لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ} [النور:١١]، وليس ذلك بشيء).

وقال الزركشي ضمن كلامه على معاني اللام: (وتأتي للاستحقاق، كقوله تعالى: {وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ (١)} [المطففين:١]، وقوله تعالى: {لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥)} [الرعد:٢٥]). والله تعالى أعلم.

قوله تعالى: {وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ} [الرعد: ٢٥]، أي:"ولهم ما يسوءهم من العذاب الشديد في الدار الآخرة".

قال الطبري:"يقول: ولهم ما يسوءهم في الدار الآخرة".

قال البغوي:"يعني: النار".

قال السمعاني:"أي: سوء المنقلب، لأن «المنقلب»: منقلب الناس إلى الدار".

قال ابن عباس:"أكبر الكبائر الإشراك بالله، لأن الله يقول: {وَمَن يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ} [سورة الحج:٣١]، ونقض العهد، وقطيعة الرحم، لأن الله تعالى يقول: {أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار}، يعني: سوء العاقبة".

قال مصعب بن سعد: "سألت أبي عن هذه الآية: {قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالا الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [سورة الكهف:١٠٣، ١٠٤]، أهم الحرورية؟ قال: لا ولكن الحرورية: {الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار}، فكان سعدٌ يسميهم الفاسقين".

جَنْب حَيَاة {الْآخِرَة إلَّا مَتَاع} شَيْء قَلِيل يُتَمَتَّع بِهِ ويذهب[١].

(١)قوله تعالى: {اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ} [الرعد: ٢٦]، أي:"الله وحده يوسِّع الرزق لمن يشاء من عباده، ويضيِّق على مَن يشاء منهم لحكم هو يعلمها، ولا تعلق لذلك بالكفر أو الإيمان، فقد يوسع على الكافر استدراجا له، وقد يضيق على المؤمن امتحانا له، أو زيادة في أجره".

قال أبو حيان: ولما كان كثير من الأشقياء فتحت عليهم نعم الدنيا ولذاتها أخبر تعالى أنه هو الذي يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر، والكفر والإيمان لا تعلق لهما بالرزق، قد يقدر على المؤمن ليعظم أجره، ويبسط للكافر إملاء لازدياد آثامه.

وقال الشوكاني: لما ذكر- سبحانه- عاقبة المشركين بقوله أولئك لهم اللعنة ولهم سوء الدار كان لقائل أن يقول: قد نرى كثيرا منهم قد وفر الله له في الرزق وبسط له فيه. فأجاب- سبحانه- عن ذلك: الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر فقد يبسط الرزق لمن كان كافرا، ويقتره على من كن مؤمنا ابتلاء وامتحانا، ولا يدل البسط على الكرامة، ولا القبض على الإهانة.

قال القرطبي:"أي: يوسع ويضيق".

قال ابن كثير:"يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء، ويقتره على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل".

قال ابن عباس: "إن الله ﷻ خلق الخلق وهو بهم عالم، فجعل الغنى لبعضهم صلاحا والفقر لبعضهم صلاحا، فذلك الخيار للفريقين".

قال الصاوي: "إن القصد من جعل الناس متفاوتين في الرزق، لينتفع بعضهم ببعض، ولو كانوا سواء في جميع الأحوال، لم يخدم أحد أحدا، فيفضي إلى خراب العالم، وفساد نظامه".

قوله تعالى: {وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الرعد: ٢٦]، أي:"وفرح الكفار بالسَّعة في =

=

الحياة الدنيا، والمراد بالفرح هنا: الأشر والبطر وجحود النعم".

وفرح هؤلاء الكافرون بربهم، الناقضون لعهودهم، بما أوتوا من بسطة في الرزق في دنياهم، فرح بطر وأشر ونسيان للآخرة لا فرح سرور بنعم الله، وشكر له- سبحانه- عليها، وتذكر للآخرة وما فيها من ثواب وعقاب.

قال ابن عاشور: فالفرح المذكور فرح بطر وطغيان كما في قوله تعالى في شأن قارون (إذ قال له قومه لا تفرح إن الله لا يحب الفرحين) فالمعنى فرحوا بالحياة الدنيا دون اهتمام بالآخرة.

وقال أبو حيان: وإنما يمدح الفرح ويذم بحسب متعلقه؛ فإذا كان بنيل ثواب الآخرة وأعمال البر، كان محمودا، وإذا كان بنيل لذات الدنيا وحطامها، كان مذموما.

وقال ابن جزي: الفرح هنا هو الذي يقود إلى الإعجاب والطغيان، ولذلك قال: إن الله لا يحب الفرحين. وقيل: السرور بالدنيا، لأنه لا يفرح بها إلا من غفل عن الآخرة، ويدل على هذا قوله: ولا تفرحوا بما آتاكم.

وقال ابن عطية: الفرح إذا ورد مقيدا في خير فليس بمذموم... وإذا ورد مقيدا في شر أو مطلقا لحقه ذم، إذ ليس من أفعال الآخرة، بل ينبغي أن يغلب على الإنسان حزنه على ذنبه وخوفه لربه.

وقد حذر الله -تعالى- من الفرح بغير الحق بقوله (ذلكم بما كنتم تفرحون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تمرحون).

قال الثعلبي:"يعني: فرطوا وجهلوا ما عند الله ويطمعون".

قال البغوي:"يعني: مشركي مكة أشروا وبطروا، والفرح: لذة في القلب بنيل المشتهى، وفيه دليل على أن الفرح بالدنيا حرام".

قال القرطبي:"يعني: مشركي مكة، فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجهلوا ما

=

=

عند الله، وهو معطوف على {ويفسدون في الأرض}. وفي الآية تقديم وتأخير، التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض وفرحوا بالحياة الدنيا".

قوله تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ} [الرعد: ٢٦]، أي:"وما هذه الحياة الدنيا بالنسبة للآخرة إلا شيء قليل يتمتع به، سُرعان ما يزول".

قال الطبري:"يقول: وما جميع ما أعطى هؤلاء في الدنيا من السَّعة وبُسِط لهم فيها من الرزق ورغد العيش، فيما عند الله لأهل طاعته في الآخرة {إلا متاع} قليل، وشيء حقير ذاهب".

قال ابن الجوزي:"أي: بالقياس إليها {إلا متاع}، أي: كالشيء الذي يتمتع به، ثم يفنى".

قال القرطبي:"أي: متاع من الأمتعة، كالقصعة والسكرجة".

قال ابن كثير:"ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ} كما قال: {قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلا} [النساء: ٧٧] وقال {بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الأعلى: ١٦، ١٧]".

وفي قوله تعالى: {وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ} [الرعد: ٢٦]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أي قليل ذاهب، قاله مجاهد.

الثاني: زاد الراعي، قاله ابن مسعود، وابن عباس، عبدالرحمن بن سابط، والأعمش.

وروي عن عبد الرحمن بن سابط: " {وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}، قال: زاد الراعي، تزوِّده الكفّ من التمر، أو الشيء من الدقيق، أو الشيء يشرب عليه

=

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) .

{وَيَقُول الَّذِينَ كَفَرُوا} مِنْ أَهْل مَكَّة {لَوْلَا} هَلَّا {أُنْزِلَ عَلَيْهِ} عَلَى مُحَمَّد {آيَة مِنْ رَبّه} كَالْعَصَا وَالْيَد وَالنَّاقَة {قُلْ} لَهُمْ {إِنَّ الله يُضِلّ مَنْ يَشَاء} إضْلَاله

=

اللبن".

وعن قتادة: " {وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور}: هي متاع متروك أوشكت والله الذي لا إله إلا هو أن تضمحل عن أهلها، فخذوا من هذا المتاع طاعة الله- إن استطعتم- ولا قوة إلا بالله".

الثالث: وما جعلت الحياة الدنيا إلا متاعاً يتزود منها إلى الآخرة من التقوى والعمل الصالح. أفاده الماوردي.

قال السمرقندي قال ابن عباس: " «متاع الغرور مثل القدر والقارورة والسكرجة ونحو ذلك، لأن ذلك لا يدوم، وكذلك الدنيا تزول وتفنى ولا تبقى».

ويقال: هو مثل الزجاج الذي يسرع إليه الكسر، ولا يصلحه الجبر. ويقال: كزاد المسافر، يسرع إليه الفناء فكذلك الدنيا".

قال الكلبي: "كمثل السكرجة والقصعة والقدح والقدر ينتفع بها ثم تذهب".

قال الثعلبي:"يعني: منفعة ومتعة، كالفأس والقدر والقصعة، ثم يزول ولا يبقى، قاله أكثر المفسرين".

عن المستورد أخي بني فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا في الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم، فلينظر بم ترجع». وأشار بالسبابة".

وفي الحديث الآخر: "أن رسول الله ﷺ مر بِجَدْيٍ أسكَّ ميتٍ – والأسك الصغير الأذنين – فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه»".

فَلَا تُغْنِي عَنْهُ الْآيَات شَيْئًا {وَيَهْدِي} يُرْشِد {إلَيْهِ} إلَى دِينه {مَنْ أَنَابَ} رَجَعَ إلَيْهِ وَيُبْدَلُ مِنْ من.

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨).

{الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنّ} تَسْكُنُ {قُلُوبهمْ بِذِكْرِ الله} أَيْ وَعْده {أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوب} أَيْ قُلُوب الْمُؤْمِنِينَ.

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩).

{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات} مُبْتَدَأ خَبَره {طُوبَى} مَصْدَر مِنْ الطِّيب أَوْ شَجَرَة فِي الْجَنَّة يَسِير الرَّاكِب فِي ظِلّهَا مِائَة عَام مَا يَقْطَعهَا {لَهُمْ وَحُسْن مَآب} مَرْجِع[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [الرعد: ٢٧].

أي: ويقول الكافرون على سبيل العناد والجحود، هلا أنزل على هذا الرسول آية كونية تدل على صدقه، كأن يحيي لنا موتانا، أو أن يحول لنا جبل الصفا ذهبا.

وكأنهم يرون أن القرآن الذي نزل عليه ﷺ لا يكفي- في زعمهم- أن يكون آية ومعجزة شاهدة على صدقه.

قال الرازي: اعلم أن الكفار قالوا: يا محمد إن كنت رسولا فأتنا بآية ومعجزة قاهرة ظاهرة مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ويقول لك يا محمد، مشركو قومك: هلا أنزل عليك آية من ربك، إمّا ملك يكون معك نذيرًا، أو يُلْقَى إليك كنز؟".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن قيل المشركين: {لَوْلا} أي: هلا {أُنزلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} كما قالوا: {فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأوَّلُونَ} [الأنبياء: ٥] وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا. وفي الحديث: أن الله أوحى

=

=

إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهبًا، وأن يجري لهم ينبوعًا، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا فإني أعذبهم عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة»".

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} [الرعد: ٢٧]، أي:"قل لهم: إن الله يضل مَن يشاء من المعاندين عن الهداية ولا تنفعه المعجزات، ويهدي إلى دينه الحق مَن رجع إليه وطلب رضوانه".

قال الطبري:"فقل: إن الله يضل منكم من يشاء أيها القوم، فيخذله عن تصديقي والإيمان بما جئته به من عند ربي {ويَهدي إليه من أناب}، فرجع إلى التوبة من كفره والإيمان به، فيوفقه لاتباعي وتصديقي على ما جئته به من عند ربه، وليس ضلالُ من يضلّ منكم بأن لم ينزل علي آية من ربّي ولا هداية من يهتدي منكم بأنَّها أنزلت عليّ، وإنما ذلك بيَدِ الله، يوفّق من يشاء منكم للإيمان ويخذل من يشاء منكم فلا يؤمن".

قال الرازي: اعلم أن الكفار قالوا: يا محمد إن كنت رسولا فأتنا بآية ومعجزة قاهرة ظاهرة مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام... فأجاب عن هذا السؤال بقوله (قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب).

وبيان كيفية هذا الجواب من وجوه:

أحدها: كأنه تعالى يقول: إن الله أنزل عليه آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة، ولكن الإضلال والهداية من الله، فأضلكم عن تلك الآيات القاهرة الباهرة، وهدى أقواما آخرين إليها، حتى عرفوا بها صدق محمد ﷺ في دعوى النبوة، وإذا كان كذلك فلا فائدة في تكثير الآيات والمعجزات.

وثانيها: أنه كلام يجري مجرى التعجب من قولهم وذلك لأن الآيات الباهرة

=

=

المتكاثرة التي ظهرت على رسول الله ﷺ كانت أكثر من أن تصير مشتبهة على العاقل، فلما طلبوا بعدها آيات أخرى كان موضعا للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم (إن الله يضل من يشاء) من كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة على الكفر فلا سبيل إلى اهتدائكم وإن أنزلت كل آية (ويهدي) من كان على خلاف صفتكم.

وقال صاحب الكشاف: فإن قلت: كيف طابق قولهم لولا أنزل عليه آية من ربه قوله قل إن الله يضل من يشاء... ؟

قلت: هو كلام يجرى مجرى التعجب من قولهم، وذلك أن الآيات الباهرة والمتكاثرة التي أوتيها رسول الله ﷺ لم يؤتها نبي قبله، وكفى بالقرآن وحده آية وراء كل آية. فإذا جحدوها ولم يهتدوا بها وجعلوه كأن آية لم تنزل عليه قط، كان موضعا للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم وما أشد تصميمكم على كفركم، إن الله يضل من يشاء ممن كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة في الكفر، فلا سبيل إلى اهتدائهم وإن أنزلت كل آية ويهدي إليه من كان على خلاف صفتكم أناب أقبل إلى الحق وحقيقته دخل في نوبة الخير.

وقال ابن عاشور:.... وتحت هذا التعجيب معان أخرى:

أحدها: أن آيات صدق النبي ﷺ واضحة لولا أن عقولهم لم تدركها لفساد إدراكهم.

الثاني: أن الآيات الواضحة الحسية قد جاءت لأمم أخرى فرأوها ولم يؤمنوا، كما قال تعالى (وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها).

الثالث: أن لعدم إيمانهم أسبابا خفية يعلمها الله قد أبهمت بالتعليق على المشيئة في قوله (يضل من يشاء) منها ما يومئ إليه قوله في مقابلة (ويهدي إليه من أناب)

=

=

وذلك أنهم تكبروا وأعرضوا حين سمعوا الدعوة إلى التوحيد فلم يتأملوا، وقد ألقيت إليهم الأدلة القاطعة فأعرضوا عنها ولو أنابوا وأذعنوا لهداهم الله ولكنهم نفروا.

قال ابن كثير:"أي: هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبهم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه، كما قال: {وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ} [يونس: ١٠١] وقال {إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [يونس: ٩٦، ٩٧] وقال {وَلَوْ أَنَّنَا نزلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلا أَنْ يَشَاءَ اللهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [الأنعام: ١١١]؛ ولهذا قال: {قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ} أي: ويهدي من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه".

عن قتادة، قوله: " {ويهدي إليه من أناب} ، أي: من تاب وأقبل".

قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ} [الرعد: ٢٨].

أي: (الذين آمنوا) حق الإيمان، آمنوا بما يجب الإيمان به، تطمئن قلوبهم بذكر الله) أي: تستقر قلوبهم وتسكن، بسبب تدبرهم لكلامه المعجز وهو القرآن الكريم وما فيه من هدايات.

قال قتادة:"يقول: سكنت إلى ذكر الله واستأنست به".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {ويهدي إليه من أناب} بالتوبة الذين آمنوا".

وفي قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ} [الرعد: ٢٨]، وجوه:

أحدها: بذكر الله بأفواههم، وأريد به ذكر الله على الإطلاق. وهذا معنى قول قتادة.

الثاني: بنعمة الله عليهم. ذكره الماوردي.

الثالث: بوعد الله لهم، حكاه الماوردي عن ابن عيسى.

=

=

و قال مقاتل:"يعني: بما في القرآن من الثواب والعقاب".

الرابع: بالقرآن، قاله مجاهد.

قال الطبري" يقول: وتسكن قلوبهم وتستأنس بذكر الله".

وفي معنى هذه الطمأنينة قولان:

أحدهما: أنها الحب له والأنس به.

والثاني: السكون إليه من غير شك، بخلاف الذين إذا ذكر الله اشمأزت قلوبهم.

قال الزجاج: "أي: إذا ذكر الله بوحدانيته آمنوا به غير شاكين".

قوله تعالى: {أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ} [الرعد: ٢٨].

أي: ألا بذكره وحده دون غيره من شهوات الحياة تسكن القلوب أنسا به، ومحبة له.

قال الآلوسي (ألا بذكر الله) وحده (تطمئن القلوب) لله دون غيره من الأمور التي تميل إليها النفوس من الدنياويات.

وفيه إشعار بأن الكفرة لا قلوب لهم وأفئدتهم هواء حيث لم يطمئنوا به ولم يعدوه آية وهو أظهر الآيات وأبهرها.

ولا تنافي بين هذه الآية على سائر الأوجه وقوله تعالى (إذا ذكر الله وجلت قلوبهم) لأن المراد هناك وجلت من هيبته تعالى واستعظامه جلت عظمته.

قال ابن عطية: و" طمأنينة القلوب " هي الاستكانة والسرور بذكر الله. والسكون به كمالا به.

قال ابن القيم: الطمأنينة سكون القلب إلى الشيء وعدم اضطرابه وقلقه ومنه الأثر المعروف: الصدق طمأنينة والكذب ريبة أي الصدق يطمئن إليه قلب السامع ويجد عنده سكونا إليه والكذب يوجب له اضطرابا وارتيابا.

قال الآلوسي: قوله تعالى (وتطمئن قلوبهم) أي: تستقر وتسكن (بذكر الله) أي:

=

=

بكلامه المعجز الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهو المروى عن مقاتل، وإطلاق الذكر على ذلك شائع في الذكر، ومنه قوله تعالى: (وهذا ذكر مبارك) و (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) وسبب اطمئنان قلوبهم بذلك علمهم أن لا آية أعظم ومن ذلك لا يقترحون الآيات التي يقترحها غيرهم.

وقال ابن عاشور: و (ذكر الله) يجوز أن يراد به خشية الله ومراقبته بالوقوف عند أمره ونهيه.

ويجوز أن يراد به القرآن قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك)، وهو المناسب لقولهم (لولا أنزل عليه آية من ربه).

وعلى هذا المعنى جاء قوله تعالى في سورة الزمر (فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله)، أي للذين كان قد زادهم قسوة قلوب، وقوله في آخرها (ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله).

والذكر من أسماء القرآن، ويجوز أن يراد ذكر الله باللسان فإن إجراءه على اللسان ينبه القلوب إلى مراقبته.

- تلاوة القرآن الكريم والعمل به سبب لاطمئنان القلب وسكينته.

قال تعالى (فإما يأتينكم مني هدى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى (١٢٣) ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى (١٢٤) قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا (١٢٥) قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى).

وقال تعالى (يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدى ورحمة للمؤمنين (٥٧) قل بفضل الله وبرحمته فبذلك فليفرحوا هو خير مما يجمعون).

قال ابن تيمية: ولهذا أمر قارئ القرآن أن يستعيذ بالله من الشيطان الرجيم فإن

=

=

قراءة القرآن على الوجه المأمور به تورث القلب الإيمان العظيم وتزيده يقينا وطمأنينة وشفاء. وقال تعالى (وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا) وقال تعالى (هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين) وقال تعالى (هدى للمتقين) وقال تعالى (فأما الذين آمنوا فزادتهم إيمانا وهم يستبشرون). وهذا مما يجده كل مؤمن من نفسه؛ فالشيطان يريد بوساوسه أن يشغل القلب عن الانتفاع بالقرآن؛ فأمر الله القارئ إذا قرأ القرآن أن يستعيذ منه.

قال مقاتل:"يقول: ألا بالقرآن تسكن القلوب".

قال الطبري" يقول: ألا بذكر الله تسكن وتستأنس قلوبُ المؤمنين".

قال مجاهد:"قيل:"بذكر الله" أي بطاعة الله. وقيل بثواب الله. وقيل: بوعد الله".

قال الزجاج:"أي: التي هي قلوب المؤمنين، لأن الكافر غيرمطمئن القلب".

قال ابن أبي زمنين:"{ألا}: حرف تنبيه وابتداء، والقلوب ها هنا قلوب المؤمنين؛ المعنى: إذ ذكر الله بوحدانيته، آمنوا به غير شاكين".

قال الجصاص:"يعني والله أعلم ذكر القلب الذي هو الفكر في دلائل الله تعالى وحججه وآياته وبيناته وكلما ازددت فيها فكرا ازددت طمأنينة وسكونا وهذا هو أفضل الذكر لأن سائر الأذكار إنما يصح ويثبت حكمها بثبوته وقد روي عن النبي ﷺ أنه قال: «خير الذكر الخفي»".

وقال ابن عباس: "هذا في الحلف، فإذا حلف خصمه بالله سكن قلبه".

وروي عن مجاهد قوله: " {ألا بذكر الله تطمئن القلوب}، لمحمد وأصحابه".

عن سفيان بن عيينة في قوله: " {وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ الله}، قال: هم أصحاب محمد ﷺ".

قال الإمام الشافعي رحمه الله: "إن الله جل ذكره، فرض الإيمان على جوارح بني دم، فقسمه فيها، وفرقه عليها، فليس من جوارحه جارحة إلا وقد وكلت من

=

=

الإيمان بغير ما وكلت به أختها بفرض من الله تعالى: - فمنها: «قلبه» الذي يعقل به، ويفقه، ويفهم، وهو أمير بدنه الذي لا ترد الجوارح، ولا تصدر إلا عن رأيه وأمره، ومنها: «عيناه» اللتان ينظر بهما، و «أذناه» اللتان يسمع بهما، و «يداه» اللتان يبطش بهما، و «رجلاه» اللتان يمشي بهما، و «فرجه» الذي الباه من قبله، و «لسانه» الذي ينطق به، و «رأسه» الذي فيه وجهه.

قال الشافعي:"فأما فرض الله على القلب من الإيمان: فالإقرار، والمعرفة، والعقد، والرضا والتسليم بأن الله لا إله إلا هو وحده لا شريك له، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا، وأن محمدا ﷺ، عبده ورسوله، والإقرار بما جاء من عند الله من نبي أو كتاب. فذلك ما فرض الله جل ثناؤه على القلب، وهو عمله، قال - سبحانه وتعالى -: {ألا بذكر الله تطمئن القلوب} الآية - وذكر الآيات التالية ١٠٦ من سورة النحل، و ٢٨ من سورة الرعد، و ٤١ من سورة المائدة، و ٢٨٤ من سورة البقرة".

وقال سهل:"الذكر من العلم السكون، والذكر من العقل الطمأنينة. قيل: وكيف ذاك؟ قال: إذا كان العبد في طاعة الله فهو الذاكر، فإذا خطر بباله شيء فهو القاطع، وإذا كان في فعل نفسه فحضر بقلبه ما يدله على الذكر والطاعة فهو موضع العقل. ثم قال: كل من ادعى الذكر فهو على وجهين: قوم لم يفارقهم خوف الله ﷻ، مع ما وجدوا في قلوبهم من الحب والنشاط، فهم على حقيقة من الذكر، وهم لله والآخرة والعلم والسنة. وقوم ادعوا النشاط والفرح والسرور في جميع الأحوال، فهم للعدو والدنيا والجهل والبدعة، وهم شر الخلق".

قوله تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ} [الرعد: ٢٩]، أي:"الذين صدَّقوا بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحات".

قال الطبري:"الصالحات من الأعمال، وذلك العمل بما أمرهم ربهم".

=

=

عن سعيد قوله: " {آمنوا بالله}، يعني: بتوحيد الله، {ورسوله}، يعني: يصدقون بمحمد ﷺ أنه نبي ورسول".

روي عاصم بن عمر، عن زيد بن أسلم:"{الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ}، قال: رسول الله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم".

قوله تعالى: {طُوبَى لَهُمْ} [الرعد: ٢٩]، أي:"لهم فرح وقرة عين، وحال طيبة".

وفي تفسير قوله تعالى: {طُوبَى لَهُمْ} [الرعد: ٢٩]، أقوال:

أحدها: أن طوبى اسم من أسماء الجنة، قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة.

الثاني: أن طوبى: اسم شجرة في الجنة. قاله أبو هريرة، وابن عباس أيضا، وشهر بن حوشب، ومغيث بن سُمَيّ، ووهب بن منبه.

وروي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه:"أن رجلا قال له: يا رسول الله، ما طوبى؟ قال: شجرة في الجنة مسيرة مئة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها".

وعن معاوية بن قرة عن أبيه يرفعه: " {طوبى لهم وحسن مآب}: شجرة غرسها الله بيده، ونفخ فيها من روحه، نبتتْ بالحَلْيِ والحُلل، وإن أغصانها لترى من وراء سور الجنة".

عن أبي هريرة قال: " {طوبى لهم}: شجرة في الجنة يقول لها:"تَفَتَّقي لعبدي عما شاء"! فتتفتق له عن الخيل بسروجها ولُجُمها، وعن الإبل بأزمّتها، وعما شاء من الكسوة".

قال مغيث بن سمي:"«طوبى»: شجرة في الجنة، لو أن رجلا ركب قلوصًا جَذَعا أو جَذَعَة، ثم دار بها، لم يبلغ المكان الذي ارتحل منه حتى يموت هَرِمًا. وما من أهل الجنة منزل إلا فيه غصن من أغصان تلك الشجرة متدلٍّ عليهم، فإذا أرادوا أن يأكلوا من الثمرة تدلّى إليهم".

قال وهب:"إن في الجنة شجرة يقال لها: «طوبى»، يسير الراكب في ظلها مئة عام لا

=

يقطعها ؛ زهرها رِيَاط، وورقها بُرود وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، ووَحَلها مسك، يخرج من أصلها أنهارُ الخمر واللبن والعسل، وهي مجلسٌ لأهل الجنة. فبينا هم في مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربِّهم، يقودون نُجُبًا مزمومة بسلاسل من ذهب، وجوهها كالمصابيح من حسنها، وبَرَها كخَزِّ المِرْعِزَّى من لينه، عليها رحالٌ ألواحها من ياقوت، ودفوفها من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينيخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلِّموا عليه. قال: فيركبونها، قال: فهي أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش نُجُبًا من غير مَهنَة، يسير الرَّجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب أُذُنُ راحلة منها أُذُنَ صاحبتها، ولا بَرْكُ راحلة بركَ صاحبتها، حتى إن الشجرة لتتنحَّى عن طرُقهم لئلا تفرُق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم، فيُسْفِر لهم عن وجهه لكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم أنت السلام ومنك السلام، وحُقَّ لك الجلال والإكرام". قال: فيقول تبارك وتعالى عند ذلك:"أنا السلام، ومنى السلام، وعليكم حقّت رحمتي ومحبتي، مرحبًا بعبادي الذين خَشُوني بغَيْبٍ وأطاعوا أمري".قال: فيقولون:"ربنا إنا لم نعبدك حق عبادتك ولم نقدرك حق قدرك، فأذن لنا بالسجود قدَّامك" قال: فيقول الله: إنها ليست بدار نَصَب ولا عبادة، ولكنها دارُ مُلْك ونعيم، وإني قد رفعت عنكم نَصَب العبادة، فسلوني ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أمنيّته". فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمنيةً ليقول: ربِّ، تنافس أهل الدنيا في دنياهم فتضايقوا فيها، رب فآتني كل شيء كانوا فيه من يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا" فيقول الله: لقد قصّرت بك اليوم أمنيتُك، ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك مني، وسأتحفك بمنزلتي، لأنه ليس في عطائي نكَد ولا تَصْريدٌ". قال: ثم يقول:"اعرضوا على عبادي ما لم تبلغ أمانيهم، ولم يخطر لهم على بال". قال: فيعرضون عليهم حتى يَقْضُوهم أمانيهم التي في أنفسهم، فيكون

=

فيما يعرضون عليهم بَرِاذين مقرَّنة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة، على كل سرير منها قبة من ذهب مُفْرَغة، في كل قبة منها فُرُش من فُرُش الجنة مُظَاهَرة، في كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، ليس في الجنة لونٌ إلا وهو فيهما، ولا ريح طيبة إلا قد عَبِقتَا به، ينفذ ضوء وجوههما غِلَظ القبة، حتى يظن من يراهما أنهما من دُون القُبة، يرى مخهما من فوق سوقهما كالسِّلك الأبيض من ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل على صاحبته كفضل الشمس على الحجارة، أو أفضل، ويرى هولُهما مثل ذلك. ثم يدخل إليهما فيحييانه ويقبّلانه ويعانقانه، ويقولان له:"والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك"، ثم يأمر الله الملائكة فيسيرون بهم صفًّا في الجنة، حتى ينتهي كل رجُل منهم إلى منزلته التي أعدّت له".

الثالث: معنى {طوبى لهم}: حسنى لهم، قاله قتادة.

الرابع: معناه: نِعَم مالهم، قاله عكرمة.

الخامس: معناه: خير لهم، قاله إبراهيم.

السادس: معناه: غبطة لهم، قاله الضحاك.

السابع: معناه: فرحٌ وقُرَّةُ عين، قاله ابن عباس.

الثامن: العيش الطيب لهم، قاله الزجاج.

التاسع: أن طوبى «فُعلى» من الطيب، كما قيل: أفضل وفضلى، ذكره ابن عيسى.

العاشر: معناه: طابت أوقاتهم وطابت نفوسهم. قاله القشيري.

قال الماوردي:"وهذه معان أكثرها متقاربة".

قال السمعاني:"الأقوال متقاربة في المعنى".

قال القرطبي:"والصحيح أنها شجرة، للحديث المرفوع الذي ذكرناه، وهو صحيح على ما ذكره السهيلي، ذكره أبو عمر في «التمهيد».

=

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠).

{كَذَلِكَ} كَمَا أَرْسَلْنَا الْأَنْبِيَاء قَبْلك {أَرْسَلْنَاك فِي أمة قد خلت من قبلها أمم لتتلوا} تَقْرَأ {عَلَيْهِمْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إلَيْك} أَيْ الْقُرْآن {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} حَيْثُ قَالُوا لَمَّا أُمِرُوا بِالسُّجُودِ لَهُ وَمَا الرَّحْمَن {قُلْ} لَهُمْ يَا محمد {هو ربي لا إله إلا هو عليه توكلت وإليه متاب[1].

=

وفي أصل هذه الكلمة «طوبى»، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها كلمة حبشية، وتعني: الجنة. قاله ابن عباس.

الثاني: كلمة هندية، قاله عبد الله بن مسعود، والربيع بن انس، وسعيد بن مشجوع.

قال القشيري: "إن صح هذا فهو وفاق بين اللغتين".

الثالث: أنها كلمة عربية، يقول الرجل: طوبى لك: أي: أصبتَ خيرًا. قاله قتادة، وحكاه الماوردي عن الجمهور.

قوله تعالى: {وَحُسْنُ مَآبٍ} [الرعد: ٢٩]، أي:"ولهم ومرجع حسن إلى جنة الله ورضوانه".

قال الطبري:"{وحسن مآب}، يقول: وحسن منقلب".

قال السمعاني:"أي: حسن منقلب".

قال القرطبي:"آب: إذا رجع".

عن الضحاك: " {وحسن مآب}، قال: حسن منقلب".

والقراءة بالرفع في {وحسن مآب}، عطف على {طوبى}، كما تقول: الحمد لله والكرامة، وإن شئت كان نصبا على {طوبى لهم وحسن مآب}.

(١) قوله تعالى: {كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ} [الرعد: ٣٠]،
=

=

أي:"كما أرسلنا المرسلين قبلك أرسلناك -أيها الرسول- في أمة قد مضت مِن قبلها أمم المرسلين".

والكاف في قوله (كذلك) للتشبيه حيث شبه- سبحانه- إرساله ﷺ إلى الناس، بإرسال الرسل السابقين إلى أقوامهم.

والمراد بالأمة هنا: أمة الدعوة التي أرسل إليها الرسول ﷺ فآمن من آمن من أفرادها، وكفر من كفر.

أي: كما أرسلنا رسلا سابقين إلى أقوامهم، أرسلناك يا محمد إلى قومك الذين قد سبقهم أقوام ورسل كثيرون لكي تقرأ على مسامعهم هذا القرآن العظيم الذي أوحيناه إليك من لدنا، ولتبين لهم ما اشتمل عليه من هدايات وتشريعات، كما بين الرسل الذين سبقوك لأقوامهم ما أمرهم الله- تعالى- ببيانه.

وفي قوله تعالى (قد خلت من قبلها أمم) تعريض بمشركي مكة، وأنهم إذا ما استمروا في طغيانهم، فسيصيبهم ما أصاب الأمم الخالية.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هكذا أرسلناك يا محمد في جماعة من الناس، يعني إلى جماعةً قد خلت من قبلها جماعات على مثل الذي هم عليه، فمضت".

قال أبو الليث السمرقندي:"يقول: هكذا بعثناك في أمة كما بعثنا إلى من كان قبلك من الرجال في الأمم الخالية، {قد خلت من قبلها أمم}، يعني: قد مضت من قبل قومك أمم".

قال الزمخشري:"مثل ذلك الإرسال أرسلناك، يعنى: أرسلناك إرسالا له شأن وفضل على سائر الإرسالات، ثم فسر كيف أرسله فقال: {في أمة قد خلت من قبلها أمم}، أى: أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم كثيرة فهي آخر الأمم وأنت خاتم الأنبياء".

قوله تعالى: {لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ} [الرعد: ٣٠]، أي:"لتتلو على هذه

=

=

الأمة القرآن المنزل عليك".

والمقصود منه تفخيم شأن القرآن الكريم، وأنه هو المعجزة الكبرى للرسول ﷺ وأن وظيفة الرسول ﷺ قراءته عليهم قراءة تدبر واستجابة لما يدعوهم إليه.

وأن قول المشركين (لولا أنزل عليه آية من ربه) إنما هو قول يدل على عنادهم وغبائهم وجحودهم للحق بعد أن تبين.

قال الطبري:"يقول: لتبلغهم ما أرسَلْتك به إليهم من وحيي الذي أوحيته إليك".

قال الزمخشري:"لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك".

قوله تعالى: {وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ} [الرعد: ٣٠].

أي: وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن الذي رحمته وسعت كل شيء وما بهم من نعمة فمنه، وكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز عليهم.

قال الطبري:"يقول: وهم يجحدون وحدانيّة الله، ويكذّبون بها".

قال ابن أبي زمنين:"كانوا يقولون: أما الله فنعرفه، وأما الرحمن فلا نعرفه".

قال الزمخشري:"هؤلاء أنهم يكافرون {بالرحمن}، بالبليغ الرحمة الذي وسعت رحمته كل شيء، وما بهم من نعمة فمنه، فكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز المصدق لسائر الكتب عليهم".

قال الرازي: اعلم أن قوله (وهم يكفرون بالرحمن) إذا حملناه على هاتين الروايتين كان معناه أنهم كفروا بإطلاق هذا الاسم على الله تعالى، لا أنهم كفروا بالله تعالى.

وقال آخرون: بل كفروا بالله إما جحدا له وإما لإثباتهم الشركاء معه.

قوله تعالى: {قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [الرعد: ٣٠]، أي:"قل لهم -أيها الرسول-: الرحمن الذي لم تتخذوه إلهًا واحدًا هو ربي وحده لا معبود بحق

=

=

سواه".

قال الطبري:"يقول: إنْ كفر هؤلاء الذين أرسلتُك إليهم، يا محمد بالرحمن، فقل أنت: الله ربّي (لا إله إلا هو..}".

قال الزمخشري:"الواحد المتعالي عن الشركاء".

وفي هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله (لا إله إلا هو) هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر.

ففيها نفي استحقاق غير الله العبادة، وإثبات استحقاق الألوهية والعبودية لله تعالى.

قال ابن كثير: إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق.

وقال السعدي: فأخبر أنه الله، الذي له جميع معاني الألوهية، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو، وعبودية غيره باطلة.

وقال ابن رجب: قول: لا إله إلا الله، تقتضي ألا يحب سواه، فإن الإله هو الذي يطاع، محبة وخوفا ورجاء. ومن تمام محبته محبة ما يحبه، وكراهة ما يكرهه، فمن أحب شيئا مما يكره الله، أو كره شيئا مما يحبه الله لم يكمل توحيده ولا صدقه في قوله: لا إله إلا الله، وكان فيه من الشرك الخفي بحسب ما كرهه مما يحبه الله، وما أحبه مما يكرهه. قال تعالى (ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم).

قوله تعالى: {عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ} [الرعد: ٣٠]، أي:"عليه اعتمدت ووثقت في جميع أموري".

قال البغوي: "اعتمدت".

قال السمعاني:"عليه اعتمدت وبه وثقت".

قال الزمخشري:"في نصرتي عليكم".

=

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١).

وَنَزَلَ لَمَّا قَالُوا لَهُ إِنْ كُنْت نَبِيًّا فَسَيِّرْ عَنَّا جِبَال مَكَّة وَاجْعَل لَنَا فِيهَا أَنْهَارًا وَعُيُونًا لِنَغْرِس وَنَزْرَع وَابْعَثْ لَنَا آبَاءَنَا الْمَوْتَى يُكَلِّمُونَا أَنَّك نَبِيّ {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَال} نُقِّلَتْ عَنْ أَمَاكِنهَا {أَوْ قُطِّعَتْ} شُقِّقَتْ {بِهِ الْأَرْض أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى} بِأَنْ يُحْيَوْا لَمَّا آمَنُوا {بَلْ لِلَّهِ الْأَمْر جَمِيعًا} لَا لِغَيْرِهِ فَلَا يُؤْمِنُ إلَّا مَنْ شَاءَ إيمَانَهُ دُون غَيْره إنْ أُوتُوا مَا اقْتَرَحُوا وَنَزَلَ لَمَّا أَرَادَ الصَّحَابَة إظْهَار مَا اقْتَرَحُوا طَمَعًا فِي إيمَانهمْ {أَفَلَمْ يَيْأَس} يَعْلَم {الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ} مُخَفَّفَة أَيْ أَنَّهُ لَوْ يَشَاء الله لَهَدَى النَّاس جَمِيعًا} إلَى الْإِيمَان مِنْ غَيْر آيَة {وَلَا يَزَال الَّذِينَ كَفَرُوا} مِنْ أَهْل مَكَّة {تُصِيبهُمْ بِمَا صَنَعُوا} بِصُنْعِهِمْ أَيْ كُفْرهمْ {قَارِعَة} دَاهِيَة تَقْرَعهُمْ بِصُنُوفِ الْبَلَاء مِنْ الْقَتْل وَالْأَسْر وَالْحَرْب وَالْجَدْب {أَوْ تَحُلّ} يَا مُحَمَّد

=

قوله تعالى: {وَإِلَيْهِ مَتَابِ} [الرعد: ٣٠]، أي:"وإليه مرجعي وإنابتي".

قال الطبري:"يقول: وإليه مرجعي وأوبتي".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: التوبة".

قال البغوي:"أي: توبتي ومرجعي".

قال السمعاني:"يعني: وإليه التوبة".

قال الزمخشري:"فيثيبني على مصابرتكم ومجاهدتكم".

و «التوبة»: "هي الندم على ما سلف من الجرائم مع الإقلاع عنها في المستقبل".

بِجَيْشِك {قَرِيبًا مِنْ دَارهمْ} مَكَّة {حَتَّى يَأْتِي وَعْد الله} بِالنَّصْرِ عَلَيْهِمْ {إِنَّ الله لَا يُخْلِف الْمِيعَاد} وَقَدْ حَلَّ بِالْحُدَيْبِيَةِ حَتَّى أَتَى فَتْح مَكَّة[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى}؛ قال: قالوا للنبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إن كان كما تقول؛ فأرنا أشياخنا الأول من الموتى نكلمهم، وافتح لنا هذه الجبال: جبال مكة التي قد ضمتنا؛ فنزلت: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى}.

أخرجه الطبراني في "المعجم الكبير" (١٢/ ٨٥ رقم ١٢٦١٧) - ومن طريقه الضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٩/ ٥٥٦، ٥٥٧ رقم ٥٥١) - من طريق الأشجعي عن الثوري عن قابوس بن أبي ظبيان عن أبيه عن ابن عباس.

وهذا إسناد ضعيف؛ فإن قابوسًا ذا ليّن الحديث.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٤٣): "رواه الطبراني؛ وفيه قابوس بن أبي ظبيان ضعيف، وقد وثق".

وعن أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: قالوا لمحمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض؛ كما كان سليمان عليه السلام يقطع لقومه بالريح فيها، أو أحييت لنا الموتى؛ كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ} الآية إلى قوله: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا}؛ قال: أفلم يتبين الذين آمنوا.

أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٥٣٤)، و"تخريج أحاديث الكشاف" (٢/ ١٩١): ثنا أبو زرعة ثنا منجاب بن الحارث ثنا بشر بن عمارة ثنا عمر بن حسان عن عطية عن أبي سعيد به. وكذا رواه ابن مردويه من طريق بشر بن عمارة به. وعطية هذا هو العوفي؛ ضعيف مدلس، وتدليسه قبيح جدًا، وبشر بن =

=

عمارة؛ ضعيف؛ كما في "التقريب".

وعن الزبير بن العوام رضي الله عنه؛ قال: لما نزلت: {وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ (٢١٤)} [الشعراء: ٢١٤]؛ صاح رسول الله ﷺ على أبي قبيس: "يا آل عبد مناف، إني نذير"؛ فجاءته قريش، فحذرهم وأنذرهم، فقالوا: تزعم أنك نبي يوحى إليك، وأن سليمان سخر له الريح والجبال، وأن موسى سخر له البحر، وأن عيسى كان يحيي الموتى؛ فادع الله أن يسيّر عنا هذه الجبال، ويفجر لنا الأرض أنهارًا، فنتخذها محارث فنزرع ونأكل، وإلا؛ فادع الله أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا، وإلا؛ فادع الله أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهبًا فننحت منها ويغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعم أنك كهيئتهم! فبينما نحن حوله إذ نزل عليه الوحي، فلما سري عنه قال: "والذي نفسي بيده، لقد أعطاني ما سألتم، ولو شئت لكان، ولكنه خيرني بين أن تدخلوا من باب الرحمة، فيؤمن مؤمنكم، وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم؛ فتضلوا عن باب الرحمة ولا يؤمن مؤمنكم، فاخترت باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم، وأخبرني: إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه معذبكم عذابًا لا يعذبه أحدًا من العالمين"؛ فنزلت: {وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩)} [الإسراء: ٥٩]، حتى قرأ ثلاث آيات؛ ونزلت: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى} الآية.

أخرجه أبو يعلى في "المسند" (٢/ ٤ رقم ٦٧٩) -ومن طريقه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٨٥) -، وابن مردويه في "تفسيره"؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" (٢/ ١٩٠) من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم عن جدته أم عطاء مولاة الزبير؛ قالت: سمعت الزبير به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: عبد الجبار بن عمر الأيلي؛ ضعيف؛ كما في

=

=

"التقريب". والثانية: عبد الله بن عطاء بن إبراهيم؛ قال ابن معين: "لا شيء"، ووثقه ابن حبان؛ وقال أبو حاتم: "شيخ". وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٨٥): "رواه أبو يعلى من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي عن عبد الله بن عطاء بن إبراهيم وكلاهما وثق وقد ضعفهما الجمهور".

وعن الشعبي؛ قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إن كنت نبيًا كما تزعم؛ فباعد جبلي مكة أخشبيها هذين مسيرة أربعة أيام أو خمسة؛ فإنها ضيقة، حتى نزرع فيها ونرعى، وابعث لنا آباءنا من الموتى حتى يكلمونا ويخبرونا أنك نبي، واحملنا إلى الشام أو إلى الحيرة حتى نذهب ونجيء في ليلة كما زعمت أنك فعلته؛ فأنزل الله ﷻ: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى}.

أخرجه ابن أبي شيبة في "مصنفه" (١٤/ ٣٠١، ٣٠٢ رقم ١٨٤١٨): ثنا أبو أسامة ثنا مجالد عن عامر الشعبي به. وهذا إسناد ضعيف؛ لإرساله، وضعف مجالد.

وعن قتادة؛ قوله: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى}؛ ذكر لنا أن قريشًا قالوا: إن سرك يا محمد اتباعك، أو أن نتبعك، فسيّر لنا جبال تهامة، أو زد لنا في حرمنا حتى نتخذ قطائع نخترف فيها، أو أحيي لنا فلانًا وفلانًا ناسًا ماتوا في الجاهلية؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى}.

أخرجه عبد الرزاق في "التفسير" (١/ ٢/ ٣٣٦، ٣٣٧)، والطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٠٢، ١٠٢، ١٠٣) عن معمر عن قتادة به. وهو ضعيف؛ لإرساله.

وعن مجاهد؛ قوله: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى}؛ قول كفار قريش لمحمد: سيّر لنا جبالنا تتسع لثا أرضنا؛ فإنها ضيقة، أو قرب لنا الشام؛ فإنا نتجر إليها، أو أخرج لنا آباءنا من القبور نكلمهم، فقال الله -تعالى-: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى}.

=

=
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٠٢) من طريقين عن ابن أبي نجيح عن مجاهد به.
وهو ضعيف؛ لإرساله.
* قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ} [الرعد: ٣١]، أي:"ولو أن ثمة قرآنًا يقرأ، فتزول به الجبال عن أماكنها".
قال أبو عبيدة: " لو سيّرت به الجبال لسارت".
قال ابن قتيبة:"أراد: لكان هذا القرآن. فحذف اختصارا".
قال النحاس:"لو سيرت الجبال بقرآن غير هذا لكان هذا القرآن ستسير به الجبال، فاستغني عن اللفظ بالجواب إذ عرف المعنى".
قال السعدي:"يقول تعالى مبينا فضل القرآن الكريم على سائر الكتب المنزلة: {ولو أن قرآنا} من الكتب الإلهية {سيرت به الجبال} عن أماكنها".
قال الزمخشري:"المعنى: ولو أن قرآنا سيرت به الجبال عن مقارها، وزعزعت عن مضاجعها".
قوله تعالى: {أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ} [الرعد: ٣١]، أي:"أو تتشقق به الأرض أنهارًا".
قال أبو عبيدة: " أو قطّعت به الأرض لتقطعت".
قال السعدي: أي:"جنانا وأنهارا".
قال الزمخشري:"حتى تتصدع وتتزايل قطعا".
قوله تعالى: {أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَى} [الرعد: ٣١]، أي:"أو خوطبت به الموتى حتى أجابت وتكلمت بعد أن أحياها الله بتلاوته عليها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، ولما آمنوا به".
قال قتادة:"لو كان فعل ذلك بشيء من الكتاب فيما مضى لكان ذلك".
=

=

والمعنى (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى) أي: (ولو أن قرآنا سيرت به الجبال) أي: لو كان كتاب من الكتب المنزلة، سيرت بتلاوته الجبال، وزعزعت عن أماكنها (أو قطعت به الأرض) أي: شققت به الأرض حتى تتصدع وتصير قطا (أو كلم به الموتى) أي: خوطبت به الموتى حتى أجابت وتكلمت، بعد أن أحياها الله بتلاوته عليها.

وجواب (لو) محذوف تقديره: لكان هذا القرآن، لكونه غاية في الهداية والتذكير، ونهاية في الانذار والتخويف وقال الزجاج: تقديره " لما آمنوا " لغلوهم في المكابرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد.

وهذا اختيار ابن جرير، وابن كثير: أن جواب (لو) هو القرآن الكريم.

- وعلى هذا المعنى يكون الغرض من الآية الكريمة بيان عظم شأن القرآن الكريم، وإبطال رأى الكافرين الذين طلبوا من الرسول ﷺ آية كونية سواه.

ووجه تخصيص هذه الأشياء الثلاثة من بين الخوارق التي طلبوها منه ﷺ ما ذكره الإمام ابن كثير من أن المشركين قالوا للنبي ﷺ : يا محمد، لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه، فأنزل الله تعالى هذه الآية.

قال ابن زيد:"قالوا للنبي ﷺ: إن كنت صادقا فسير عنا هذه الجبال واجعلها حروثا كهيئة أرض الشام ومصر والبلدان، أو ابعث موتانا فأخبرهم فإنهم قد ماتوا على الذي نحن عليه! فقال الله: {ولو أن قرآنا سيرت به الجبال أو قطعت به الأرض أو كلم به الموتى}، لم يصنع ذلك بقرآن قط ولا كتاب، فيصنع ذلك بهذا القرآن".

قال الضحاك:"قال كفار قريش لمحمد ﷺ: سير لنا الجبال كما سخرت لداود،

=

=

أو قطع لنا الأرض كما قطعت لسليمان، فاغتدى بها شهرا وراح بها شهرا، أو كلم لنا الموتى كما كان عيسى يكلمهم، يقول: لم أنزل بهذا كتابا، ولكن كان شيئا أعطيته أنبيائي ورسلي".

قال السعدي: أي:"لكان هذا القرآن".

قال مقاتل:"يقول: لو أن قرآنا فعل ذلك به قبل هذا القرآن لفعلناه بقرآن محمد- عليه السلام- ولكنه شيء أعطيه رسلي فذلك قوله: {بل لله الأمر جميعا}".

قال أبو عبيدة: " أو قطّعت به الأرض لتقطعت، والعرب قد تفعل مثل هذا لعلم المستمع به استغناء عنه واستخفافا فى كلامهم، قال [الأخطل]:

خلا أنّ حيّا من قريش تفضلوا   على الناس أو أنّ الأكارم نهشلا

وقال [عبد مناف ابن ربع الهذليّ:

[الطّعن شغشغة والضّرب هيقعة   ضرب المعوّل تحت الأيّمة العضدا

وللقسيّ أزاميل وغمغمة   حس الجنوب تسوق الماء والبردا]

حتى إذا اسلكوهم فى قتائدة   شلّا كما تطرد الجمّالة الشردا".

قال الزمخشري:" {أو كلم به الموتى}، فتسمع وتجيب، لكان هذا القرآن لكونه غاية في التذكير ونهاية في الإنذار والتخويف، كما قال: {لَوْ أَنْزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُتَصَدِّعًا مِنْ خَشْيَةِ اللهِ} [الحشر: ٢١]، هذا يعضد ما فسرت به قوله: {لتتلوا عليهم الذي أوحينا إليك}، من إرادة تعظيم ما أوحى إلى رسول الله ﷺ من القرآن.

وقيل: معناه: ولو أن قرآنا وقع به تسيير الجبال وتقطيع الأرض وتكليم الموتى وتنبيههم، لما آمنوا به ولما تنبهوا عليه كقوله ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة الآية.

وقيل: إن أبا جهل بن هشام قال لرسول الله ﷺ: سير بقرآنك الجبال عن مكة حتى

=

=

تتسع لنا فنتخذ فيها البساتين والقطائع، كما سخرت لداود عليه السلام إن كنت نبيا كما تزعم، فلست بأهون على الله من داود. وسخر لنا به الريح لنركبها ونتجر إلى الشام ثم نرجع في يومنا، فقد شق علينا قطع المسافة البعيدة كما سخرت لسليمان عليه السلام. أو ابعث لنا به رجلين أو ثلاثة ممن مات من آبائنا: منهم قصى بن كلاب، فنزلت، ومعنى «تقطيع الأرض» على هذا: قطعها بالسير ومجاوزتها، وعن الفراء: هو متعلق بما قبله.

والمعنى: وهم يكافرون بالرحمن ولو أن قرآنا سيرت به الجبال وما بينهما اعتراض، وليس ببعيد من السداد. وقيل قطعت به الأرض شققت فجعلت أنهارا وعيونا".

قوله تعالى: {بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا} [الرعد: ٣١]، أي:"بل لله وحده الأمر كله في المعجزات وغيرها".

أي: إن الله- تعالى- لا يعجزه أن يأتي بالمقترحات التي اقترحوها، ولكن إرادته- سبحانه- لم تتعلق بما اقترحوه، لعلمه- سبحانه- بعتوهم ونفورهم عن الحق مهما أوتوا من آيات.

قال مقاتل:"يقول: بل جميع ذلك الأمر كان من الله ليس من قبل القرآن".

قال السعدي:"فيأتي بالآيات التي تقتضيها حكمته، فما بال المكذبين يقترحون من الآيات ما يقترحون؟ فهل لهم أو لغيرهم من الأمر شيء؟".

قال علي الطنطاوي:"قوله- سبحانه: {بل لله الأمر جميعا}، إضراب عن مطالبهم المتعنتة إلى بيان أن الأمور كلها بيد الله، وأن قدرته- سبحانه- لا يعجزها شيء. أى: إن الله- تعالى- لا يعجزه أن يأتى بالمقترحات التي اقترحوها، ولكن إرادته- سبحانه- لم تتعلق بما اقترحوه، لعلمه- سبحانه- بعتوهم ونفورهم عن الحق مهما أوتوا من آيات".

=

=

وفي قوله تعالى: {بَلْ لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا} [الرعد: ٣١]، وجهان:

أحدهما: بل لله القدرة على كل شيء، وهو قادر على الآيات التي اقترحوها، إلا أن علمه بأن إظهارها مفسدة يصرفه.

والثاني: بل لله أن يلجئهم إلى الإيمان، وهو قادر على الإلجاء لولا أنه بنى أمر التكليف على الاختيار.

قال المراغي: المعنى:"أي بل مرجع الأمور كلها بيد الله، ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل فلا هادى له، ومن يهد فما له من مضل، وخلاصة ذلك: إن الله قادر على الإتيان بما اقترحوه من الآيات، لكن الإرادة لم تتعلق بذلك، لعلمه أن قلوبهم لا تلين، ولا يجدى هذا فائدة فى إيمانهم".

قوله تعالى: {أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا} [الرعد: ٣١].

أي: أفلم يعلم ويتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعا. (وهذا أحد الأقوال أن معنى ييأس: يعلم ويتبين).

فالعلماء في هذه الآية على قولين:

الأول: يرى أصحابه أن الفعل ييأس على معناه الحقيقي وهو قطع الطمع في الشيء، وعليه يكون المعنى: أفلم ييأس الذين آمنوا من إيمان كفار قريش، ويعلموا أن الله تعال لو يشاء هداية الناس جميعا لاهتدوا، ولكنه لم يشأ ذلك، ليتميز الخبيث من الطيب.

الثاني: أن الفعل ييأس بمعنى يعلم، وعليه يكون المعنى: أفلم يعلم المؤمنون أنه- سبحانه- لو شاء هداية الناس جميعا لآمنوا.

قال الخازن: قوله تعالى (أفلم ييأس الذين آمنوا) قال أكثر المفسرين: معناه أفلم يعلم.

=

=

قال ابن عباس: "أفلم يعلم".

قال مجاهد، والحسن، وقتادة، والكلبي: " {ييأس}: يعلم -في لغة النخع-".

قال ابن قتيبة:"أي: أفلم يعلم. ويقال: هي لغة للنخع، وقال الشاعر:

أقول لهم بالشعب إذ يأسرونني ألم تيأسوا أني ابن فارس زهدم

أي: ألم تعلموا".

قوله تعالى: {وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ} [الرعد: ٣١]، أي:"ولا يزال الكفار تنزل بهم مصيبة بسبب كفرهم كالقتل والأسر في غزوات المسلمين".

والقارعة: من القرع، وهو ضرب الشيء بشيء آخر بقوة وجمعها قوارع، والمراد بها: الرزية والمصيبة والكارثة.

قال ابن عطية: و" القارعة ": الرزية التي تقرع قلب صاحبها بفظاعتها كالقتل والأسر ونهب المال وكشف الحريم ونحوه.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {ولا يزال} يا محمد {الذين كفروا}، -من قومك {تصيبهم بما صنعوا} من كفرهم بالله، وتكذيبهم إياك، وإخراجهم لك من بين أظهرهم- {قارعة}، وهي ما يقرعهم من البلاء والعذاب والنِّقَم، بالقتل أحيانًا، وبالحروب أحيانًا، والقحط أحيانًا".

قال ابن قتيبة:"{قارعة}: داهية تقرع أو مصيبة تنزل. وأراد أن ذاك لا يزال يصيبهم من سرايا رسول الله ﷺ".

قال قتادة:"أي: بأعمالهم أعمال السوء".

وقال مقاتل:"يقول تصيبهم بما كفروا بالله بائقة وذلك أن النبي- ﷺ- كان لا يزال يبعث سراياه، فيغيرون حول مكة فيصيبون من أنفسهم، ومواشيهم، وأنعامهم، فيها تقديم".

=

=

عن ابن عباس، في قوله: " {ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة}، قال: سَرِيَّة". وروي عن سعيد بن جبير، ومجاهد، مثل ذلك.

وفي رواية أخرى عن ابن عباس، قوله: " {ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة {، يقول: عذابٌ من السماء ينزل عليهم".

وعن مجاهد قوله: " {تصيبهم بما صنعوا قارعة}، تصاب منهم سَرِيَّة، أو تصاب منهم مصيبة". قال مجاهد: "السرايا، كان يبعثهم النبي ﷺ".

عن عكرمة، في قوله: " {ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبًا من دارهم}، قال: نزلت بالمدينة في سرايَا رسول الله ﷺ، {أو تحل}، أنت يا محمد {قريبًا من دارهم}".

وعن قتادة: " {قارعة}، قال: وَقِيعة".

وقال ابن زيد: "قارعة من العذاب".

قوله تعالى: {أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ} [الرعد: ٣١]، أي: "أو تنزل تلك المصيبة قريبًا من دارهم".

قال الطبري: "يقول: أو تنزل أنت {قريبًا من دارهم}، بجيشك وأصحابك".

وفي قوله تعالى: {أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ} [الرعد: ٣١]، وجهان:

أحدهما: أو تحل القارعة قريبـاً من دارهم، قاله الحسن.

الثاني: أو تحل أنت يا محمد قريبـاً من دارهم، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، وعكرمة، وعبد الله بن أبي نجيح.

قال ابن عباس: "يعني: نزول رسول الله ﷺ بهم وقتالَه إياهم".

وقال مقاتل: "يقول: أو تنزل يا محمد بحضرتهم يوم «الحديبية» قريبين".

قوله تعالى: {حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ} [الرعد: ٣١]، أي: "حتى يأتي وعد الله بالنصر عليهم".

=

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢).

{وَلَقَدْ اُسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلك} كَمَا اُسْتُهْزِئَ بِك وَهَذَا تَسْلِيَة لِلنَّبِيِّ ﷺ {فَأَمْلَيْت} أَمْهَلْت {لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتهمْ} بِالْعُقُوبَةِ {فَكَيْفَ كَانَ عِقَاب} أَيْ هُوَ وَاقِع مَوْقِعه فَكَذَلِكَ أَفْعَل بِمَنْ اسْتَهْزَأَ بِك(١).

=

قال الطبري: أي:"الذي وعدك فيهم، وذلك ظهورُك عليهم وفتحُك أرضَهمْ، وقهرْك إياهم بالسيف".

عن ابن عباس: " {حتى يأتي وعد الله}، قال: فتح مكة".

عن مجاهد: قوله: " {حتى يأتي وعد الله}، قال: الفتح".

قال قتادة:"ووعدُ الله: فتحُ مكة".

وعن الحسن، في قوله: " {حتى يأتي وعد الله}، قال: يوم القيامة".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [الرعد: ٣١]، أي:"إن الله لا يخلف وعده لرسله وأوليائه بنصرهم على أعدائه".

قال الطبري:"يقول: إن الله منجزك، يا محمد ما وعدك من الظهور عليهم، لأنه لا يخلف وعده".

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ} [الرعد: ٣٢]، أي:"وإذا كانوا قد سخروا من دعوتك -أيها الرسول- فلقد سَخِرَتْ أمم من قبلك برسلهم".

والآية تسلية لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: (ولقد استهزئ برسل من قبلك) أي فلك فيهم أسوة.

قال السعدي:"يقول تعالى لرسوله -مثبتا له ومسليا- {ولقد استهزئ برسل من قبلك} فلست أول رسول كذب وأوذي".

=

=

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: يا محمد إن يستهزئ هؤلاء المشركون من قومك ويطلبوا منك الآيات تكذيبًا منهم ما جئتهم به، فاصبر على أذاهم لك وامض لأمر ربك في إنذارهم، والإعذار إليهم، فلقد استهزأت أممٌ من قبلك قد خَلَت فمضتْ بُرسلِي".

قال الماتريدي:"يقول: ولقد استهزأ برسل من قبلك قومهم؛ كما استهزأ بك قومك، يعزي نبيه ﷺ ليصبر على تكذيبهم".

قال السمعاني:"«الاستهزاء»: طلب الهزء، وقد كان الكفار يسألون هذه الأشياء عن طريق الاستهزاء، فأنزل الله تعالى هذه الآية تسلية للنبي، معناه: ولقد استهزئ برسل من قبلك يعني: كما استهزءوا بك، فقد استهزئ برسل من قبلك".

قوله تعالى: {فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ} [الرعد: ٣٢]، أي:"أمهلتهم وتركتهم في أمنٍ وَدَعة ثم أخذتهم بالعذاب".

قال السعدي:"أي: أمهلتهم مدة حتى ظنوا أنهم غير معذبين. {ثم أخذتهم} بأنواع العذاب".

قال السمعاني:"معناه: فأمهلت وأطلت المدة لهم، ومنه الملوان وهو الليل والنهار. وقوله: {ثم أخذتهم فكيف كان عقاب} معناه: ثم أخذتهم في الدنيا بالقتل، وفي الآخرة بالنار".

قال مقاتل:"يعنى: فأمهلت للذين كفروا فلم أعجل عليهم بالعقوبة، {ثم أخذتهم بالعذاب}".

قال ابن قتيبة:"أي: أمهلتهم وأطلت لهم".

قال الطبري:"فأطلتُ لهم في المَهَل، ومددت لهم في الأجَل، ثم أحللتُ بهم عذابي ونقمتي حين تمادَوْا في غيِّهم وضَلالهم".

قال ابن عباس: "ليتمادوا في معاصي الله".

=

=

قوله تعالى: {فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ} [الرعد: ٣٢]، أي:"فكيف كان عقابي لهم على الكفر والتكذيب؟".

قال مقاتل:"يعني: عذاب".

قال السمعاني:"فكيف كان [عقابي] لهم".

قال الطبري:"فانظر كيف كان عقابي إياهم حين عاقبتهم، ألم أذقهم أليم العذاب، وأجعلهم عبرةً لأولي الألباب؟".

قال ابن عباس: "يريد كيف رأيت ما صنعت بمن استهزأ برسلي، كذلك أصنع بمشركي قومك".

قال السعدي:"كان عقابا شديدا وعذابا أليما، فلا يغتر هؤلاء الذين كذبوك واستهزؤوا بك بإمهالنا، فلهم أسوة فيمن قبلهم من الأمم، فليحذروا أن يفعل بهم كما فعل بأولئك".

و «الإملاء» في كلام العرب، الإطالة، يقال منه: أمْلَيَتُ لفلان، إذا أطلت له في المَهَل، ومنه: المُلاوة من الدهر، ومنه قولهم: تَمَلَّيْتُ حبيبًا، ولذلك قيل لليل والنهار: المَلَوَان لطولهما، كما قال ابن مُقبل:

أَلا يَا دِيَارَ الْحَيِّ بِالسَّبُعَانِ ... أَلَحَّ عَلَيْهَا بِالْبِلَى المَلَوَانِ

وقيل للخَرْقِ الواسع من الأرض: مَلا، كما قال الطرماح:

فَأَخْضَلَ مِنْهَا كُلَّ بَالٍ وَعَيِّنٍ ... وَجِيفُ الرَّوَايَا بِالمَلا المُتَبَاطِنِ

لطول ما بين طرفيه وامتداده.

قال الواحدي:"قال المفسرون: الآية تسلية للنبي ﷺ، عما يلقى من سفهاء قومه من الكفر والاستهزاء، بأنه قد قيل لأنبياء قبلك مثل هذا، فاصبر كما صبروا حتى أذيق المستهزئين بك العذاب الأليم كسُنّتي في الكذابين المستهزئين".

وفي الصحيحين قال ﷺ «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ

=

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣).

{أَفَمَنْ هُوَ قَائِم} رَقِيب {عَلَى كُلّ نَفْس بِمَا كَسَبَتْ} عَمِلَتْ مِنْ خَيْر وَشَرّ وَهُوَ الله كَمَنْ لَيْسَ كَذَلِكَ مِنْ الْأَصْنَام لَا دل عَلَى هَذَا {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاء قُلْ سَمُّوهُمْ} لَهُ مَنْ هُمْ {أَمْ} بَلْ أَ {تُنَبِّئُونَهُ} تُخْبِرُونَ الله {بِمَا} أَيْ بِشَرِيكٍ {لَا يَعْلَم} هُ {فِي الْأَرْض} اسْتِفْهَام إنْكَار أَيْ لَا شَرِيك لَهُ إذْ لَوْ كَانَ لِعِلْمِهِ تَعَالَى عَنْ ذَلِك {أَمْ} بَلْ تُسَمُّونَهُمْ شُرَكَاء {بِظَاهِرٍ مِنْ الْقَوْل} بِظَنٍّ بَاطِل لَا حَقِيقَة لَهُ فِي الباطل {بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرهمْ} كُفْرهمْ {وَصُدُّوا عن السبيل} طريق الهدى {ومن يضلل الله فما له من هاد}[1].

=

رسول الله ﷺ وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد).

(١) قوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد: ٣٣]، أي:"أفمن هو قائم على كل نفس يُحصي عليها ما تعمل، أحق أن يعبد، أم هذه المخلوقات العاجزة؟".

والقائم الحفيظ والمتولي للأمور، وأراد سبحانه نفسه، فإنه المتولي لأمور خلقه المدبر لأحوالهم بالآجال والأرزاق، وإحصاء الأعمال على كل نفس من الأنفس كائنة ما كانت، والجواب محذوف أي: أفمن هو بهذه الصفة كمن ليس بهذه الصفة من معبوداتكم التي لا تنفع ولا تضر.

قال الفراء: كأنه في المعنى أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم الذين اتخذوهم من دون الله.

=

=

والمراد من الآية إنكار المماثلة بينهم. (فتح القدير).

كما قال تعالى (وما تكون في شأن وما تتلوا منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهودا إذ تفيضون فيه).

وقال تعالى (وما تسقط من ورقة إلا يعلمها).

وقال (وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين).

قال (سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار).

وقال (يعلم السر وأخفى).

وحذف الخبر هنا وهو قولنا - كمن ليس كذلك- لدلالة السياق عليه، كما في قوله تعالى (أفمن شرح الله صدره للإسلام) أي: كمن قسا قلبه.

والمقصود من الآية الكريمة: إنكار المماثلة بين الخالق العظيم، العليم بأحوال النفوس... وبين تلك الأصنام التي أشركوها مع الله تعالى في العبادة والتي هي لا تسمع ولا تبصر، ولا تملك لنفسها- فضلا عن غيرها- نفعا ولا ضرا.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: أَفَالرَّبُ الذي هو دائمٌ لا يَبِيدُ ولا يَهْلِك، قائم بحفظ أرزاق جميع الخَلْق، متضمنٌ لها، عالمٌ بهم وبما يكسبُونه من الأعمال، رقيبٌ عليهم، لا يَعْزُب عنه شيء أينما كانوا، كَمن هو هالك بائِدٌ لا يَسمَع ولا يُبصر ولا يفهم شيئًا، ولا يدفع عن نفسه ولا عَمَّن يعبده ضُرًّا، ولا يَجْلب إليهما نفعًا؟ كلاهما سَواءٌ؟

قال الإمام الطبري: "وحذف الجواب في ذلك فلم يَقُل، وقد قيل {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت} : ككذا وكذا، اكتفاءً بعلم السامع بما ذَكَر عما ترك ذِكْره. وذلك أنه لما قال جل ثناؤه: {وَجعلُوا لله شُرَكاء}، عُلِمَ أن معنى الكلام:

=

=

كشركائهم التي اتخذوها آلهةً. كما قال الشاعر:

تَخَيَّرِي خُيِّرْتِ أُمَّ عَالِ بَيْنَ قَصِيرٍ شِبْرُهُ تِنْبَالِ

أَذَاكَ أَمْ مُنْخَرِقُ السِّرْبَالِ وَلا يَزَالُ آخِرَ اللَّيَالِي

مُتْلِفَ مَالٍ وَمُفِيدَ مَالِ

ولم يقل وقد قال:"شَبْرُهُ تِنْبَال"، وبين كذا وكذا، اكتفاء منه بقوله:"أذاكَ أم منخرق السربال"، ودلالة الخبر عن المنخرق السربال على مراده في ذلك".

وفي قوله تعالى: {أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ} [الرعد: ٣٣]، ثلاثة وجوه من التفسير:

أحدها: أنهم الملائكة الذين وكلوا ببني آدم، حكاه الماوردي عن الضحاك.

الثاني: هو الله القائم على كل نفس بما كسبت، قاله ابن عباس، والضحاك، وقتادة، وابن جريج.

قال ابن عباس:"يعني بذلك نفسه، يقول: هو معكم أينما كنتم، فلا يعمل عامل إلا والله حاضِرُه، ويقال: هم الملائكة الذين وُكِلوا ببني آدم".

عن ابن جريج: " {أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت}، وعلى رزقهم وعلى طعامهم، فأنا على ذلك قائم، وهم عبيدي، ثم جعلوا لي شُركاء".

قال مقاتل:"يقول: الله قائم على كل بر وفاجر".

قال ابن قتيبة:"هو الله القائم على كل نفس بما كسبت يأخذها بما جنت ويثيبها بما أحسنت".

الثالث: أنها نفسه. ذكره الماوردي.

قال التستري:"إن الله قائم عليك في سرك وعلانيتك وحركاتك وسكونك لا تغيب عنه طرفة عين، كما قال: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت [الرعد: ٣٣]. وقال: ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم [المجادلة: ٧] الآية، وقال:

=

=

{ونحن أقرب إليه من حبل الوريد} [ق: ١٦] وهو العرق الذي في جوف القلب، فأخبر أنه أقرب إلى القلب من ذلك العرق. فإذا علمت ذلك، ينبغي أن تستحي منه، وما هاج في القلب شيء مما تهوى النفس. فذكر العبد قيام الله ﷻ عليه، فتركه إلا دخل قلبه من علم حاله ما لو قسم ما أعطى ذلك العبد على أهل المدينة لسعدوا جميعا وفازوا به.

قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ} [الرعد: ٣٣]، أي:"وهم -من جهلهم- جعلوا لله شركاء مِن خَلْقه يعبدونهم، قل لهم -أيها الرسول-: اذكروا أسماءهم وصفاتهم، ولن يجدوا من صفاتهم ما يجعلهم أهلا للعبادة".

أي: قل لهم- أيها الرسول الكريم- سموهم شركاء إن شئتم، فإن هذه التسمية لا وجود لها في الحقيقة والواقع، ولا تخرجهم عن كونهم لا يملكون لأنفسهم- فضلا عن غيرهم- نفعا ولا ضرا، لأن الله تعالى واحد لا شريك له.

وهذه التسمية إنما هي من عند أنفسكم ما أنزل الله بها من سلطان، كما قال تعالى (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان).

قال الشوكاني:: (قل سموهم) قل يا محمد جعلتم له شركاء فسموهم من هم؟ وفي هذا تبكيت لهم وتوبيخ؛ لأنه إنما يقال هكذا في الشيء المستحقر الذي لا يستحق أن يلتفت إليه، فيقال: سمه إن شئت يعني: أنه أحقر من أن يسمى.

وقيل: إن المعنى سموهم بالآلهة كما تزعمون، فيكون ذلك تهديدا لهم. (فتح القدير).

قال الضحاك:"ولو سمَّوْهم آلهةً لكذبَوا وقالوا في ذلك غير الحق، لأن الله واحدٌ ليس له شريك".

قال ابن جريج:"ولو سَمَّوهم كذبوا وقالوا في ذلك مَا لا يعلم الله، مَا من إله غير الله، فذلك قوله: {أم تنبئونه لما لا يعلم في الأرض}".

=

=

وفي قوله تعالى: {قُلْ سَمُّوهُمْ} [الرعد: ٣٣]، وجهان:

أحدهما: قل سموهم آلهة على وجه التهديد.

الثاني: يعني قل صفوهم ليعلموا أنهم لا يجوز أن يكونوا آلهة.

قوله تعالى: {أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ} [الرعد: ٣٣]، أي:"أم تخبرون الله بشركاء في أرضه لا يعلمهم".

أي: قل أيها الرسول لهؤلاء الذين جعلوا لله شركاء وسموهم بهذا الاسم: قل لهم على سبيل الإنكار والتوبيخ: أتخبرون الله بشركاء لا وجود لهم في الأرض، لأنهم لو كان لهم وجود لعلمهم، لأنه- سبحانه- لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء.

قال الطبري:"يقول: أتخبرونه بأن في الأرض إلها، ولا إله غيره في الأرض ولا في السماء؟".

قوله تعالى: {أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ} [الرعد: ٣٣]، أي:"أم تسمونهم شركاء بظاهر من اللفظ من غير أن يكون لهم حقيقة لفرط الجهل وسخافة العقل".

قال ابن كثير: (أم بظاهر من القول) قال مجاهد: بظن من القول. وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتموها آلهة (إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى).

قال الطبري: أي: " مسموع، وهو في الحقيقة باطلٌ لا صحة له".

وفي قوله تعالى: {أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ} [الرعد: ٣٣]، خمسة وجوه:

أحدها: معناه: بباطل من القول، قاله قتادة، ومنه قول الشاعر:

أعَيّرتنا ألبانها ولحومها … وذلك عارٌ يا ابن ريطة ظاهر

أي: بالحل.

=

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤).

{لَهُمْ عَذَاب فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا} بِالْقَتْلِ وَالْأَسْر {وَلَعَذَاب الْآخِرَة أَشَقّ} أَشَدّ

=

الثاني: بظن من القول، وهو قول مجاهد.

الثالث: بباطل من القول وكذب، قاله الضحاك.

الرابع: أن الظاهر من القول هو القرآن، قاله السدي.

والخامس: أن يكون الظاهر من القول حجة يظهرونها بقولهم، ويكون معنى الكلام: أتخبرونه بذلك مشاهدين أم تقولون محتجّين. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ} [الرعد: ٣٣]، أي:"بل حسَّن الشيطان للكفار قولهم الباطل وصدَّهم عن سبيل الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ما لله من شريك في السموات ولا في الأرض، ولكن زُيِّن للمشركين الذي يدعون من دونه إلهًا، مَكْرُهم، وذلك افتراؤهُم وكذبهم على الله".

عن مجاهد قوله: " {بل زين للذين كفروا مكرهم}، قال: قولهم".

وقرأت عامة قَرَأة الكوفيين: «وَصُدُّوا عن السَّبِيلِ»، بضم"الصاد"، بمعنى: وصدَّهم الله عن سبيله لكفرهم به.

قوله تعالى: {وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الرعد: ٣٣]، أي:"ومَن لم يوفِّقه الله لهدايته فليس له أحد يهديه، ويوفقه إلى الحق والرشاد".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ومن أضلَّه الله عن إصابة الحق والهدى بخذلانه إياه، فما له أحدٌ يهديه لإصابتهما، لأن ذلك لا يُنَال إلا بتوفيق الله ومعونته، وذلك بيد الله وإليه دُون كل أحد سواه".

قال السعدي:"لأنه ليس لأحد من الأمر شيء".

مِنْهُ {وَمَا لَهُمْ مِنْ الله} أَيْ عَذَابه {مِنْ وَاقٍ} مَانِع(١).

(١) قوله تعالى: {لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [الرعد: ٣٤]، أي:"لهؤلاء الكفار الصادين عن سبيل الله عذاب شاق في الحياة الدنيا بالقتل والأسر والخزي".
قال ابن عباس: "يريد الإسقام والقتل والأسر".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره، لهؤلاء الكفار الذين وَصَف صفَتَهم في هذه السورة، عذابٌ في الحياة الدنيا بالقتل والإسار والآفاتِ التي يُصيبهم الله بها".
قال ابن كثير:"ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار: فقال بعد، إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: {لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا}، أي: بأيدي المؤمنين قتلا وأسرا".
قوله تعالى: {وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ} [الرعد: ٣٤]، أي:"ولَعذابهم في الآخرة أثقل وأشد".
قال السعدي: أي:"من عذاب الدنيا لشدته ودوامه".
قال الطبري:"يقول: ولتعذيبُ الله إياهم في الدار الآخرة أشدُّ من تعذيبه إيَّاهم في الدنيا".
قال ابن كثير:"أي: المدّخَر لهم مع هذا الخزي في الدنيا، {أشق}، أي: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»، وهو كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبدا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: {فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ} [الفجر: ٢٥، ٢٦] وقال تعالى: {بَلْ كَذَّبُوا بِالسَّاعَةِ وَأَعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا لا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا قُلْ أَذَلِكَ =

=

خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا} [الفرقان: ١١ - ١٥]".

قوله تعالى: {وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ} [الرعد: ٣٤]، أي:"وليس لهم مانع يمنعهم من عذاب الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما لهؤلاء الكفار من أحدٍ يقيهم من عذاب الله إذا عذَّبهم، لا حَمِيمٌ ولا وليٌّ ولا نصيرٌ، لأنه جل جلاله لا يعادُّه أحدٌ فيقهره، فيتخَلَّصَه من عذابه بالقهر، ولا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه، وليس يأذن لأحد في الشفاعة لمن كفر به فمات على كفره قبل التَّوبة منه".

قال السعدي:"فعذابه إذا وجهه إليهم لا مانع منه".

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: (لهم عذاب في الحياة الدنيا) أي بأيدي المؤمنين قتلا وأسرا، (ولعذاب الآخرة) أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا، (أشق) أي من هذا بكثير.

كما قال تعالى (ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون).

وقال تعالى (كذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى).

وقال تعالى (فأذاقهم الله الخزي في الحياة الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون).

وكما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين (إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة).

وهو كما قال ﷺ ، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبدا في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته.

كما قال تعالى (فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد).

=

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥).

{مَثَل} صِفَة {الْجَنَّة الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} مُبْتَدَأ خبره محذوف أي فيما نقص عليكم {تجري من تحتها الأنهار أُكُلهَا} مَا يُؤْكَل فِيهَا {دَائِم} لا يفنى {وَظِلُّهَا} دَائِم لَا تَنْسَخهُ شَمْس لِعَدِمِهَا فِيهَا {تِلْكَ} أَيْ الْجَنَّة {عُقْبَى} عَاقِبَة {الَّذِينَ اتَّقَوْا} الشرك {وعقبى الكافرين النار}[1].

=

وقال تعالى (وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيرا إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وإذا ألقوا منها مكانا ضيقا مقرنين دعوا هنالك ثبورا لا تدعوا اليوم ثبورا واحدا وادعوا ثبورا كثيرا قل أذلك خير أم جنة الخلد التي وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيرا).

(١) قوله تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [الرعد: ٣٥]، أي:"صفة الجنة التي وعد الله بها الذين يخشونه أنها تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار".

قال البغوي:"أي: صفة الجنة التي وعد المتقون أن الأنهار تجري من تحتها".

قال ابن كثير:"أي: صفتها ونعتها، {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأنْهَارُ} أي: سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيرًا، أي: يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كما قال تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [محمد: ١٥]".

قال السعدي:"يقول تعالى: {مثل الجنة التي وعد المتقون} الذين تركوا ما نهاهم

=

=

الله عنه، ولم يقصروا فيما أمرهم به، أي: صفتها وحقيقتها {تجري من تحتها الأنهار} أنهار العسل، وأنهار الخمر، وأنهار اللبن، وأنهار الماء التي تجري في غير أخدود، فتسقى تلك البساتين والأشجار فتحمل من جميع أنواع الثمار".

وفي قوله تعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ} [الرعد: ٣٥]، قولان:

أحدهما: يشبه الجنة، قاله علي بن عيسى.

الثاني: معناه: صفة الجنة أن الأنهار تجري من تحتها، لأنه ليس للجنة مثل، قاله عكرمة، وحكاه ابن الجوزي عن الجمهور.

قال الزجاج:"وكلا القولين حسن جميل، والذي عندي - والله أعلم - أن الله ﷻ، عرفنا أمور الجنة التي لم نرها. ولم نشاهدها بما شاهدناه من أمور الدنيا وعايناه، فالمعنى: {مثل الجنة التي وعد المتقون} جنة {تجري من تحتها الأنهار أكلها دائم وظلها}".

قال الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب: أن يقال ذَكر المَثَل، فقال {مثل الجنة}، والمراد الجنة، ثم وُصِفت الجنة بصفتها، وذلك أن مَثَلَها إنما هو صِفتَهُا وليست صفتها شيئًا غيرها. وإذْ كان ذلك كذلك، ثم ذكر"المثل"، فقيل: {مثل الجنة}، ومثلها صفَتُها وصفة الجنّة، فكان وصفها كوصف"المَثَل"، وكان كأنَّ الكلام جرى بذكر الجنة، فقيل: الجنةُ تجري من تحتها الأنهار، كما قال الشاعر:

أَرَى مَرَّ السِّنِينَ أَخَذْنَ مِنِّي ... كَمَا أَخَذَ السِّرَارُ مِنَ الْهِلالِ

فذكر"المرّ"، ورَجَع في الخبر إلى «السنين»".

وقرأ على رضى الله عنه: «أمثال الجنة»، على الجمع، أى صفاتها أكلها دائم.

قوله تعالى: {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} [الرعد: ٣٥]، أي:"ثمرها لا ينقطع، وظلها لا يزول ولا ينقص".

قال الطبري:"يعني: ما يؤكل فيها، يقول: هو دائم لأهلها، لا ينقطع عنهم، ولا

=

=

يزول ولا يبيد، ولكنه ثابتٌ إلى غير نهاية، {وظلها}، يقول: وظلها أيضًا دائم، لأنه لا شمس فيها".

قال البغوي:"أي: لا ينقطع ثمرها ونعيمها، {وظلها} أي: ظلها ظليل، لا يزول، وهو رد على الجهمية حيث قالوا إن نعيم الجنة يفنى".

قال ابن كثير:"أي: فيها المطاعم والفواكه والمشارب، لا انقطاع لها ولا فناء، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: {وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلا ظَلِيلا} [النساء: ٥٧]".

قال الزمخشري:"وظلها دائم لا ينسخ، كما ينسخ في الدنيا بالشمس".

قال الحسن: "يريد أن ثمارها لا تنقطع كثمار الدنيا وظلها، لأنه لا يزول ولا تنسخه الشمس".

قال ابن العربي:"وصف الله طعام الجنة بأنه غير مقطوع ولا ممنوع، وطعام الدنيا ينقطع ويمنع فيمتنع".

وفي الصحيحين، من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: "يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئا في مقامك هذا، ثم رأيناك تَكَعْكَعت فقال: «إني رأيت الجنة - أو: أريت الجنة - فتناولت منها عنقودا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»".

عن جابر قال: "بينما نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسولُ الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر. فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم في الصلاة شيئا ما رأيناك كنت تصنعه. فقال: «إني عرضت علي الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قِطْفًا من عنب لآتيكم به، فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا يَنْقُصونَه»".

=

=

عن ثَوْبان، قال: قال رسول الله ﷺ: "إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى".

وعن جابر بن عبد الله، قال: قال رسول الله ﷺ: "يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون ولا يتغوّطون ولا يبولون، طعامهم جُشَاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتقديس كما يلهمون النفس".

عن زيد بن أرقم، قال: "جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: نعم، والذي نفس محمد بيده، إن الرجل من أهل الجنة ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة". قال: فإن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس في الجنة أذى؟ قال: "حاجة أحدهم رشح يفيض من جلودهم، كريح المسك، فيضمر بطنه".

عن عبد الله بن مسعود، رضي الله عنه، قال: قال لي رسول الله ﷺ: "إنك لتنظر إلى الطير في الجنة، فيخر بين يديك مشويا".

قال ابن العربي: "قال إبراهيم بن نوح: سمعت مالك بن أنس يقول: «ليس في الدنيا من ثمار ما يشبه ثمار الجنة إلا الموز»، لأن الله يقول: {أكلها دائم} [الرعد: ٣٥] وأنت تجد الموز في الصيف والشتاء.

قال القاضي: وكذلك رمان بغداد، شاهدت المحول قرية من قرى نهر عيسى وفي شجر الرمان حب العامين يجتمع تقطع منه متى شئت صيفا وشتاء، وقيظا وخريفا، إلا أن الحبة التي بقيت في الشجرة عاما لا تفلقها إلا بالقدوم من شدة القشر، فإذا انفلقت ظهر تحته حب الرمان أجمل ما كان وأينعه".

قوله تعالى: {تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا} [الرعد: ٣٥]، أي:"تلك المثوبة بالجنة عاقبة الذين خافوا الله، فاجتنبوا معاصيه وأدَّوا فرائضه".

قال الطبري:"يقول: هذه الجنة التي وصف جل ثناؤه، عاقبة الذين اتَّقَوا الله،

=

=

فاجتنبوا مَعَاصيه وأدَّوْا فرائضه".

قال ابن الجوزي:"أي: عاقبة أمرهم المصير إليها".

قال السعدي:"أي: عاقبتهم ومآلهم التي إليها يصيرون".

قوله تعالى: {وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} [الرعد: ٣٥]، أي: وعاقبة الكافرين بالله النار".

قال الطبري:"يقول: وعاقبةُ الكافرين بالله النار".

قال السعدي:"فكم بين الفريقين من الفرق المبين؟!!".

قال ابن كثير:"وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب في الجنة ويحذّر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: {تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ} كما قال تعالى: {لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ} [الحشر: ٢٠]".

قال بلال بن سعد خطيب دمشق في بعض خطبه: "عباد الله هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من عبادتكم تقبلت منكم، أو أن شيئا من خطاياكم غفرت لكم؟ {أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ} [المؤمنون: ١١٥]، والله لو عُجِّل لكم الثواب في الدنيا لاستقللتم كلكم ما افترض عليكم، أو ترغبون في طاعة الله لتعجيل دنياكم، ولا تنافسون في جنة {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ}".

(فائدة): * تعريف الجنة، وذكر أسمائها.

الجنة لغة: البستان، ومنه الجنان، والعرب تسمي النخيل: جنّة.

وفي مختار القاموس: الجنَّة: الحديقة ذات الشجر والنخل، وجمعها: جنان.

والجنة في الاصطلاح: هو الاسم العام المتناول لتلك الدار [التي أعدها الله لمن أطاعه]، وما اشتملت عليه من أنواع النعيم، واللذة، والبهجة والسرور، وقرة

=

=

العين.

أما أسماء الجنة، فيقول ابن القيم رحمه الله: في أسماء الجنة ومعانيها واشتقاقاتها: (ولها عدة أسماء، باعتبار صفاتها، ومسماها واحد باعتبار الذات، فهي مترادفة من هذا الوجه، [وتختلف باعتبار الصفات، فهي متباينة من هذا الوجه]، وهكذا أسماء الرب ـ، وأسماء كتابه، وأسماء رسله، وأسماء اليوم الآخر، وأسماء النار).

* من أسماء الجنة:

١ - الجنة: [قال الله تعالى: {ادْخُلُواْ الْجَنَّةَ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ}].

٢ - دار السلام: قال سبحانه: {وَاللهُ يَدْعُو إِلَى دَارِ السَّلَامِ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ} . وقال تعالى: {لَهُمْ دَارُ السَّلَامِ عِندَ رَبِّهِمْ وَهُوَ وَلِيُّهُمْ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ} . [فهي دار سلام من كل بليَّة وآفة].

٣ - دار الخلد: قال الله تعالى: {ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ} ، سميت بذلك؛ لأن أهلها لا يظعنون عنها أبداً، قال تعالى: {عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ} [هود: ١٠٨]: والمعنى غير مقطوع، كما قال سبحانه: {إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ} [ص: ٥٤]. وقال: {وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر: ٤٨].

٤ - دار المقامة، قال الله تعالى: {الَّذِي أَحَلَّنَا دَارَ الْمُقَامَةِ مِن فَضْلِهِ لا يَمَسُّنَا فِيهَا نَصَبٌ وَلا يَمَسُّنَا فِيهَا لُغُوبٌ} .

٥ - جنة المأوى، قال الله تعالى: {عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى} .

٦ - جنات عدن، قال ﷻ: {جَنَّاتِ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًّا} ، جنات عدن: أي من الإقامة والدوام، يقال: عَدَن المكان إذا أقام به، فهي جنات إقامة. حادي الأرواح، ص١١٤.

٧ - الفردوس، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلاً} ، والفردوس: هو البستان الذي يجمع كل شيء يكون في

=

=

البساتين؛ فتح الباري، لابن حجر، ٦/ ١٣، والقاموس المحيط، ص٧٢٥، والفردوس اسم يُقال على جميع الجنة، ويُقال على أفضلها وأعلاها، كأنه أحق بهذا الاسم من غيره من الجنان. حادي الأرواح لابن القيم، ص١١٦، قال الإمام ابن القيم رحمه الله: (والجنة مقبَّبَة أعلاها أوسعها، ووسطها هو الفردوس، وسقفه العرش كما قال ﷺ في الحديث الصحيح: (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس؛ فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن، ومنه تفجَّر أنهار الجنة) [البخاري، برقم ٢٧٩٠، ورقم ٧٤٢٣]. حادي الأرواح، ص٨٤.

٨ - جنات النعيم، قال الله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ}، وهذا اسم جامع لجميع الجنات لما تضمنته من الأنواع التي يتنعم بها من المأكول، والمشروب، والملبوس، والصور، والرائحة الطيبة، والمنظر البهيج، والمساكن الواسعة، وغير ذلك من النعيم الظاهر والباطن. حادي الأرواح، ص١١٦.

٩ - المقام الأمين، قال الله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ}، المقام: موضع الإقامة، والأمين: الآمن من كل سوءٍ، وآفة، ومكروه، وهو الذي قد جمع صفات الأمن كله. حادي الأرواح، ص١١٦.

١٠ - مَقْعَد صدقٍ، قال الله ﷻ: {فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِندَ مَلِيكٍ مُّقْتَدِرٍ}، مقعد صدق: سمى الله الجنة مقعد صدق؛ لحصول كل ما يراد من المقعد الحسن فيها، كما يقال: مودة صادقة: إذا كانت ثابتة تامة. حادي الأرواح، ص١١٧.

* مكان الجنة.

يقول الله سبحانه: {كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ*وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ}.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: الجنة. وقيل: عليون: في السماء السابعة تحت العرش.

وقال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى: (والظاهر أن عليين مأخوذ من العلو، وكلما

=

علا الشيء وارتفع، عَظُم واتسع؛ ولهذا قال الله ـ معظّماً أمره، ومُفخِّماً شأنه: {وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ}.

وقال رحمه الله في تفسير قوله تعالى: {وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ}. {رِزْقُكُمْ}: يعني المطر، {وَمَا تُوعَدُونَ} يعني الجنة)، وقد تقدم في الحديث الذي رواه البخاري في صحيحه، برقم ٢٧٩٠، و٧٤٢٣، قوله ﷺ: (إذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن ...).

❋ نعيم أهل الجنة

* النعيم النفسي.

عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة: يا أهل الجنة! فيقولون: لبيك ربنا وسعديك، والخير في يديك، فيقول: هل رضيتم؟! فيقولون: وما لنا لا نرضى
يا ربِّ، وقد أعطيتنا ما لم تُعطِ أحداً من خلقك، فيقول: ألا أعطيكم أفضل من ذلك؟! فيقولون: وأي شيء أفضل من ذلك؟ فيقول: أُحلُّ عليكم رضواني، فلا أسخط عليكم بعده أبداً)، ومن النعيم النفسي ما جاء في حديث أبي سعيد رضي الله عنه أنه (يجاء بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح، فيوقف بين الجنة والنار، فيقال: يا أهل الجنة، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبّون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، ويقال: يا أهل النار، هل تعرفون هذا؟ فيشرئبّون وينظرون ويقولون: نعم هذا الموت، فيُؤمَر به فيُذبح، ثم يقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت)، [مسلم، برقم ٢٨٤٩]، وفي حديث عبد الله بن عمر نحوه، وقال: (فيزداد أهل الجنة فرحاً إلى فرحهم، ويزداد أهل النار حزناً إلى حزنهم)، [مسلم، برقم ١٨٥٠].

ومن أعظم النعيم النفسي النظر إلى وجه الله الكريم؛ لقول الله تعالى: {لِّلَّذِينَ

=

أَحْسَنُواْ الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ} [يونس: ٢٦]. فالحسنى الجنة، والزيادة النظر إلى وجه الله الكريم، وقوله تعالى: {لَهُم مَّا يَشَاؤُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ} [ق: ٣٥]. والمزيد هو النظر إلى وجه الله الكريم، وقوله تعالى: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاضِرَةٌ * إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة: ٢٢ - ٢٣]. وفي الحديث: (فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم ﷻ) [مسلم، برقم ١٨١].

* النعيم الحسي لأهل الجنة

[١ - أنهار الجنة]

يقول الله سبحانه وتعالى: {مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آَسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}.

تفسير الآية:

{مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ}: أي صفتها.

{فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ} [أي غير متغير ولا مُنتن].

{وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ}: لذيذة للشاربين لم تدنسها الأرجل ولم تدنسها الأيدي.

{وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ}: أي مَن كان في هذا النعيم كمن هو خالد في النار؟؟.

ومن أنهار الجنة: نهر الكوثر الذي أُعطيه النبي ﷺ: حافتاه قباب اللؤلؤ، [وفي رواية: حافتاه قباب الدُّر المجوّف] [البخاري، برقم ٤٩٦٤، و٦٥٨١]. أما حوض النبي ﷺ فهو في عرصات القيامة: عرضه مسيرة شهر، وطوله مسيرة شهر، ماؤه أبيض من اللبن، وريحه أطيب من المسك، وطعمه أحلى من العسل، عدد

=

=

آنيته كنجوم السماء، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبداً [البخاري، برقم ٦٥٧٩، ومسلم، برقم ٢٢٩٢].

وسوف يأتي اليوم الذي يُذاد عن هذا الحوض من يُذاد، نسأل الله العافية، فقد ثبت عن النبي ﷺ أنه قال: (ليردنَّ عليّ أناس من أصحابي)، وفي رواية: (أقوام أعرفهم ويعرفوني، ثم يُحال بيني وبينهم، فأقول: إنهم من أمتي، فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك، فأقول: سُحقًا سُحقًا لمن غيَّر بعدي)، وقال ابن عباس: سُحقًا: بُعداً [البخاري، برقم ٦٥٨٣، ومسلم، برقم ٢٢٩٢].

* [٢، ٣] الحور العين، ومساكن أهل الجنة:

يقول الله سبحانه: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلا جَانٌّ}.

ويقول الله سبحانه: {وَحُورٌ عِينٌ*كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ*جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ}.

ويقول سبحانه: {مُتَّكِئِينَ عَلَى سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ}.

ويقول رسول الله ﷺ: (في الجنة خيمة من لؤلؤة مجوفة عرضها ستون ميلاً، في كل زاوية منها أهل ما يرون الآخرين، يطوف عليهم المؤمن)، وفي رواية لمسلم: (إن للمؤمن في الجنة لخيمةً من لؤلؤة واحدةٍ مجوفة طولها في السماء ستون ميلاً)، ولا منافاة بين طولها وعرضها في الروايتين، فعرضها في مساحة أرضها ستون ميلاً، وطولها في السماء ستون ميلاً في العلو، فطولها وعرضها متساويان. [شرح النووي على صحيح مسلم، ١٧/ ١٧٥].

ويقول الله سبحانه في وصف مساكن وغرف الجنة: {لَكِنِ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ لَهُمْ غُرَفٌ مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَعْدَ الله لا يُخْلِفُ الله الْمِيعَادَ}.

قال ابن كثير رحمه الله: (أخبر ﷻ عن عباده السعداء أن لهم غرفًا في الجنة، وهي

=

=

القصور الشاهقة، {مِّن فَوْقِهَا غُرَفٌ مَّبْنِيَّةٌ}، طباق فوق طباق، مبنيات محكمات، مزخرفات، عاليات).

وعن أبي مالك الأشعري ﵁ عن رسول الله ﷺ قال: (إن في الجنة غرفـًا يُرى ظاهرُها من باطنها، وباطنُها من ظاهرها، أعدّها الله تعالى لمن أطعم الطعام، وألان الكلام، وتابع الصيام، وأفشى السلام، وصلّى بالليل والناس نيام).

وفي حديث أبي هريرة ﵁: [أنهم سألوا رسول الله ﷺ عن بناء الجنة؟ فقال] عليه الصلاة والسلام: (لَبِنةٌ من فضة، ولَبِنةٌ من ذهب، ومِلاطها. المسك الأذفرُ، وحصباؤها اللؤلؤُ والياقوتُ، وتُربَتُها الزعفران، من يدخلها: ينعم ولا يبأس، ويخلدُ ولا يموت، لا تبلى ثيابهم، ولا يفنى شبابهم).

ويقول ابن القيم رحمه الله في نونيته [في صفة عرائس الجنة وحسنهن]:

يا من يطوف الكعبة الحصن التي ... حُفَّت بذاك الحجر والأركان
ويظل يسعى دائمـًا حول الصفا ... ومحسر مسعاه لا العلمان
ويروم قربان الوصال على منى ... والخيف يحجره عن القربان

إلى أن قال رحمه الله:

من قاصرات الطرف لا تبغي سوى ... محبوبها من سائر الشبان
وقصرت عليه طرفها من حسنه ... والطرف في ذا الوجه للنسوان

إلى أن قال رحمه الله:

=

=

هذا وليس القاصرات كمن غدت ... مقصورة فهما إذاً صنفان
يا مطلق الطرف المعذب في الألى ... جردن عن حسن وعن إحسان

إلى أن قال رحمه الله:

فاسمع صفات عرائس الجنات ثم ... اختر لنفسك يا أخا العرفان
حور حسان قد كملن خلائقاً ... ومحاسناً من أجمل النسوان.

يقول الشارح رحمه الله: قال الله تعالى: {وَزَوَّجْنَاهُم بِحُورٍ عِينٍ} الحور: جمع حوراء وهي: المرأة الشابة الحسناء الجميلة البيضاء، شديدة سواد العين، التي يحار الطرف فيها من رقَّة الجلد، ومن صفاء اللون، [قاله: مجاهد، والصحيح أن الحور مأخوذ من الحور في العين، وهو شدة بياضها مع قوة سوادها، فهو يتضمّن الأمرين)].

ولا شك أن صفات الحور العين في الأحاديث كثيرة، وكذلك صفات مساكن أهل الجنة ومن ذلك على وجه الاختصار ما يأتي:

أما صفات الحور العين، فقد جاء فيها حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: (إن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والذين يلونهم على أشد كوكب دُرِّيّ في السماء إضاءة، لكل امرئٍ منهم زوجتان اثنتان يُرى مُخُّ سُوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب)، [البخاري، برقم ٣٢٤٦، ٣٢٥٤، ٣٣٢٧، ومسلم، واللفظ له، برقم ٢٨٣٤]، وجاء في حديث أنس رضي الله عنه: (ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة اطّلعت على أهل الأرض لأضاءت ما بينهما، ولملأت ما بينهما ريحاً، ولَنَصِيفُها على رأسها - يعني خمارَها - خير من الدنيا وما فيها)، [البخاري، برقم ٦٥٦٨، ورقم ٢٧٩٦]، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي

=

=

ﷺ قال: (أول زمرة يدخلون الجنة كأنّ وجوههم ضوء القمر ليلةَ البدر، والزمرة الثانية على لون أحسن كوكب دُرّيّ في السماء، لكل رجل منهم زوجتان من الحور العين، على كل زوجة سبعون حُلّة، يُرى مُخُّ سُوقهما من وراء لحومِهما، وحُللهما، كما يُرى الشَّرابُ الأحمرُ في الزجاجة البيضاء)، [الطبراني في المعجم الكبير، ١/ ١٦٠، برقم ١٠٣٢١، وقال ابن القيم في كتابه حادي الأرواح، ص٣٤٦: (وهذا الإسناد على شرط الصحيح)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد، ١٠/ ٤١١: (وإسناد ابن مسعود صحيح) بعد أن نسبه إلى معجم الطبراني الأوسط فقط (برقم ٤٨٩٧ مجمع البحرين)] وغير ذلك كثير في السنة المطهرة.

وأما مساكن أهل الجنة وقصورهم فقد جاء فيها أحاديث كثيرة، منها حديث أبي هريرة رضي الله عنه، أن النبي ﷺ رأى امرأة وقصراً من ذهب لعمر في الجنة، [البخاري، برقم ٣٢٤٢، ورقم ٧٠٢٤، ومسلم، برقم ٢٣٩٤ - ٢٣٩٥]. وجاء جبريل عليه السلام، إلى النبي ﷺ وأمره أن يبشّر خديجة ببيت في الجنة من قصبٍ، لا صَخَبَ فيه ولا نَصَبَ) [البخاري، برقم ٣٨٢٠، ومسلم، برقم ٢٤٣٢] وقوله: (من قصب: أي من لؤلؤة مجوّفة واسعة كالقصر المنيف، وقيل: بيت من القصب المنظوم بالدر واللؤلؤ والياقوت [فتح الباري لابن حجر، ٧/ ١٣٨]. وثبت عن عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال: (من بنى مسجداً لله بنى الله له بيتـاً في الجنة) [مسلم، برقم ٥٣٣، واللفظ له، والبخاري، برقم ٤٥٠]. وثبت في حديث أم حبيبة رضي الله عنها: (ما من مسلم يصلي لله كل يوم ثنتي عشرة ركعة تطوعـاً غير فريضة إلا بنى الله له بيتـاً في الجنة، أو إلا بُنِيَ له بيت في الجنة) [مسلم، برقم ٧٢٨]، وفسرها الترمذي بأنها السنن الرواتب.

وأصحاب الغرف لهم مكانة عالية في الجنة، ولهذا جاء في حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف من

=

=

فوقهم كما تتراءون الكوكب الدرّي الغابر من الأفق من المشرق أو المغرب، لتفاضل ما بينهم)، قالوا: يا رسول الله: تلك منازل الأنبياء، لا يبلغها غيرهم، قال: (بلى، والذي نفسي بيده، رجال آمنوا بالله، وصدّقوا المرسلين)، [مسلم، برقم ٢٨٣١].

* [٤، ٥] أَكلُ أهل الجنة، وشرابهم:

يقول الله سبحانه وتعالى: {وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُواْ مِنْهَا مِن ثَمَرَةٍ رِّزْقًا قَالُواْ هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِن قَبْلُ وَأُتُواْ بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ}.

كما قال سبحانه وتعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي ظِلالٍ وَعُيُونٍ*وَفَوَاكِهَ مِمَّا يَشْتَهُونَ*كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ، إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}.

وقال سبحانه: {وَفَاكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ * وَلَحْمِ طَيْرٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ}.

وعن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: (يأكل أهل الجنة فيها ويشربون، ولا يتغوّطون، ولا يمتخّطون، ولا يبولون، ولكن طعامهم ذاك جشاء كرشح المسك، يُلهَمون التسبيح والتحميد كما يُلهَمون النَّفَس).

ونعيم أهل الجنة لا يحصيه إلا الله عز وجل، كما في حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (يقول الله تعالى: أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فاقرأوا إن شئتم: {فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ}) [البخاري، برقم ٣٢٤٤، ومسلم، برقم ٢٨٢٤، والآية: ١٧ من سورة السجدة].

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: (أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، ثم الذين يلونهم على أشدّ كوكب دُرّيٍّ في السماء إضاءة: لا يبولون، ولا يتغوّطون، ولا يتفلون، ولا يمتخّطون، أمشاطهم الذهب،

=

=

ورشحهم المسك، ومجامرهم الألوّة الأنجوم عود الطيب، وأزواجهم الحور العين، على خلق رجل واحد، على صورة أبيهم آدم ستون ذراعاً في السماء)، وفي لفظ: (... ولكل واحد منهم زوجتان، كل واحدة منهما يُرى مخُّ ساقها من وراء اللحم من الحسن، لا اختلاف بينهم ولا تباغض، قلوبهم على قلب رجل واحد)، [البخاري، ٣٢٤٥، ٣٢٤٦، ٣٢٥٤، ٣٣٢٧، ومسلم، برقم ٢٨٣٤].

وأبواب الجنة ثمانية، ما بين مصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة، وليأتين عليها يوم وهو كظيظ من الزحام [مسلم، برقم ٢٣٤، ورقم ٢٩٦٧].

وأول من يدخل الجنة فيستفتح فتفتح له أبوابها محمد ﷺ، [مسلم، برقم ١٩٦، ١٩٧].

درجات الجنة أعلاها الوسيلة، وهي للنبي محمد ﷺ، وهي أقرب الدرجات إلى العرش، وهي أقرب الدرجات إلى الله تعالى [مسلم، برقم ٣٨٤، وحادي الأرواح لابن القيم، ص٩٩] والفردوس؛ لقول النبي ﷺ: (إن في الجنة مائة درجة أعدّها الله للمجاهدين في سبيله، كل درجتين ما بينهما كما بين السماء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس، فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة، وفوقه عرش الرحمن)، [البخاري، ٢٧٩٠، ٧٤٢٣]، وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه: أنه يقال لصاحب القرآن يوم القيامة إذا دخل الجنة: اقرأ واصعد، فيقرأ ويصعد بكل آية درجة، حتى يقرأ آخر شيء معه) [أحمد في المسند، ٣/ ٤٠]، وفي حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (يُقال لصاحب القرآن: اقرأ، وارقَ، ورتِّل كما كنت تُرتّل في الدنيا، فإن منزلتك عند آخر آية تقرؤها) [الترمذي، برقم ٣٠٠٣، وأحمد، ٢/ ١٩٢، وحسنه الألباني في صحيح الترمذي، ٣/ ١٠].

والخلاصة أن أهل الجنة: لهم فيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين، ويقال لأدناهم منزلة: (ولك ما اشتهت نفسك، ولذّت عينك) [انظر: سورة الزخرف، الآيات:

=

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦).

{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمْ الْكِتَاب} كَعَبْدِ الله بْن سَلَام وَغَيْره مِنْ مُؤْمِنِي الْيَهُود {يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْك} لِمُوَافَقَتِهِ مَا عِنْدهمْ {وَمِنْ الْأَحْزَاب} الَّذِينَ تَحَزَّبُوا عَلَيْك بِالْمُعَادَاةِ مِنْ الْمُشْرِكِينَ وَالْيَهُود {مَنْ يُنْكِرُ بَعْضه} كَذِكْرِ الرَّحْمَن وَمَا عَدَا الْقَصَص {قُلْ إِنَّمَا أُمِرْت} فِيمَا أُنْزِلَ إِلَيَّ {أَنْ} أَيْ بِأَنْ {أَعْبُدَ الله وَلَا أُشْرِك بِهِ إليه أدعوا وَإِلَيْهِ مَآب} مَرْجِعِي.

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧).

{وَكَذَلِكَ} الْإِنْزَال {أَنْزَلْنَاهُ} أَيْ الْقُرْآن {حُكْمًا عَرَبِيًّا} بِلُغَةِ الْعَرَب تَحْكُم بِهِ بَيْن النَّاس {وَلَئِنْ اتَّبَعْت أَهْوَاءَهُمْ} أَيْ الْكُفَّار فِيمَا يَدْعُونَك إِلَيْهِ من ملتهم فرضا {بعد ما جَاءَك مِنْ الْعِلْم} بِالتَّوْحِيدِ {مَا لَك مِنْ الله مِنْ} زَائِدَة {وَلِيّ} نَاصِر {وَلَا وَاقٍ} مَانِع مِنْ عَذَابه[1].

=

٧٠ – ٧٣، ومسلم، برقم ١٨٩].

وأعظم النعيم نظر المؤمنين إلى وجه الله تعالى؛ لحديث صهيب رضي الله عنه: (إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئًا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تُبيِّض وجوهنا، وتدخلنا الجنة وتنجِّنا من النار؟ فيكشف الحجاب، فما أُعطوا شيئًا أحبّ إليهم من النظر إلى ربهم عز وجل) [مسلم، برقم ١٨١].

(١) قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الرعد: ٣٦].

أي: الذين أعطيناهم التوراة والإنجيل، فآمنوا بما فيهما من بشارات تتعلق بك–

=

=

أيها الرسول الكريم-، ثم آمنوا بك عند إرسالك رحمة للعالمين، كعبد الله بن سلام والنجاشي، هؤلاء الذين تلك صفاتهم، يفرحون بما أنزل إليك من قرآن، لأن ما فيه من هدايات وبراهين على صدقك، يزيدهم إيمانا على إيمانهم، ويقينا على يقينهم.

قال ابن كثير: (يفرحون بما أنزل إليك) أي: من القرآن، لما في كتبهم من الشواهد على صدقه ﷺ والبشارة به، كما قال تعالى (الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به، ومن يكفر به فأولئك هم الخاسرون).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: والذين أنزلنا إليهم الكتاب ممَّن آمن بك واتبعك، يا محمد، {يفرحون بما أنزل إليك} منه".

قال البغوي:""يعني: القرآن، وهم أصحاب محمد ﷺ {يفرحون بما أنزل إليك} من القرآن".

وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ} [الرعد: ٣٦]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنهم أصحابُ رسول الله محمدٍ ﷺ، فرحوا بكتاب الله وبرسوله وصدَّقُوا به. قاله قتادة، وابن زيد.

الثاني: أنهم مؤمنو أهل الكتاب، قاله مجاهد.

الثالث: أنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى فرحوا بما أنزل عليه من تصديق كتبهم، حكاه ابن عيسى.

قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} [الرعد: ٣٦]، أي:"ومن المتحزبين على الكفر ضدك، كالسَّيد والعاقب، أُسْقفَي «نجران»، وكعب بن الأشرف، مَن ينكر بعض المنزل عليك".

قال الطبري:"يقول: ومن أهل الملل المتحزِّبين عليك، وهم أهل أدْيان شَتَّى، من

=

=

ينكر بعضَ ما أنزل إليك، لأنه يخالف أهواءهم وأطماعهم وشهواتهم... ولم يذكر القرآن هذا البعض الذي ينكرونه، إهمالا لشأنهم، ولأنه لا يتعلق بذكره غرض".

وفي قوله تعالى: {وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ} [الرعد: ٣٦]، ثلاثة أقوال:

أحدهما: أنهم اليهود والنصارى والمجوس، قاله ابن زيد.

الثاني: أنهم اليهودَ والنصارى. قاله مجاهد، وبه قال ابن جرير الطبري، والزمخشري.

قال مجاهد:"«الأحزاب»: أهل الكتب، يقرّبهم تحزُّبهم".

قال ابن ابي زمنين:"«الأحزاب» -ها هنا-: اليهود والنصارى؛ ينكرون بعض القرآن، ويقرون ببعضه بما وافقهم".

قال الزمخشري:"وذلك أنهم آمنوا بسورة يوسف وقالوا إنها واطأت كتابنا".

الثالث: أنهم كفار قريش.

وفي إنكارهم بعضه وجهان:

أحدهما: أنهم عرفوا نعت رسول الله-ﷺ- في كتبهم وأنكروا نبوته.

الثاني: أنهم عرفوا صِدْقه وأنكروا تصديقه.

قوله تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ} [الرعد: ٣٦]، أي:"قل لهم: إنما أمرني الله أن أعبده وحده، ولا أشرك به شيئًا".

قال الطبري:"أخلِص له الدين حَنِيفًا مسلمًا".

سئل سهل: "متى يصح للعبد مقام العبودية؟ قال: إذا ترك تدبيره ورضي بتدبير الله تعالى فيه".

قوله تعالى: {إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ} [الرعد: ٣٦]، أي:"إلى عبادته أدعو الناس، وإليه مرجعي ومآبي".

=

=

قال الطبري:"يقول: إلى طاعته وإخلاص العبادة له أدعو الناسَ، وإليه مصيري".
عن قتادة: " {وإليه مآب}، وإليه مَصِيرُ كلّ عبْدٍ".
قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا} [الرعد: ٣٧]، أي:"وكما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسانهم أنزلنا إليك -أيها الرسول- القرآن بلغة العرب؛ لتحكم به".
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وكما أنزلنا عليك الكتاب، يا محمد، فأنكرهُ بعض الأحزاب، كذلك أيضًا أنزلنا الحكم والدين حُكْمًا عربيًا وجعل ذلك، ووصفه به لأنه أنزل على محمدٍ ﷺ وهو عربيٌّ، فنسب الدين إليه، إذ كان عليه أنزل، فكذَّب به الأحزاب".
قال البغوي:"يقول: كما أنزلنا إليك الكتاب يا محمد، فأنكره الأحزاب، كذلك أنزلنا الحكم والدين عربيا. نسب إلى العرب لأنه نزل بلغتهم فكذب به الأحزاب. وقيل: نظم الآية: كما أنزلت الكتب على الرسل بلغاتهم، فكذلك أنزلنا عليك الكتاب حكما عربيا".
قال السعدي:"أي: ولقد أنزلنا هذا القرآن والكتاب حكما، عربيا أي: محكما متقنا، بأوضح الألسنة وأفصح اللغات، لئلا يقع فيه شك واشتباه، وليوجب أن يتبع وحده، ولا يداهن فيه، ولا يتبع ما يضاده ويناقضه من أهواء الذين لا يعلمون".
وفي قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا} [الرعد: ٣٧]، وجهان:
أحدهما: قرآنا عربيا؛ لأن فيه الأحكام.
قال ابن عباس: "يريد ما حكم عن الفرائض في القرآن".
والثاني::نبيا عربيا؛ لأن النبي كان منهم، والقرآن نزل بلغتهم.
قال الإمام الشافعي رحمه الله: "فإن قال قائل: الرسل قبل محمد ﷺ كانوا يرسلون إلى قومهم خاصة، وإن محمدا بعث إلى الناس كافة، فقد يحتمل أن

=

=

يكون بعث بلسان قومه خاصة، ويكون على الناس كافة أن يتعلموا لسانه وما أطاقوا منه، ويحتمل أن يكون بعث بألسنتهم: فهل من دليل على أنه بعث بلسان قومه خاصة دون ألسنة العجم؟ فإذا كانت الألسنة مختلفة بما لا يفهمه بعضهم عن بعض، فلا بد أن يكون بعضهم تبعا لبعض، وأن يكون الفضل في اللسان المتبع على التابع. وأولى الناس بالفضل في اللسان من لسانه لسان النبي ﷺ، ولا يجوز - والله أعلم - أن يكون أهل لسانه أتباعا لأهل لسان غير لسانه في حرف واحد، بل كل لسان تبع للسانه، وكل أهل دين قبله فعليهم اتباع دينه، وقد بين الله ذلك في غير آية من كتابة - منها -: وقال الله تعالى: {وكذلك أنزلناه حكما عربيا} الآية، فأقام حجته بأن كتابه عربي في كل آية ذكرناها".

قوله تعالى: {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَمَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ} [الرعد: ٣٧]، أي:"ولئن اتبعت أهواء المشركين في عبادة غير الله -بعد الحق الذي جاءك من الله- ليس لك ناصر ينصرك ويمنعك من عذابه".

قال مقاتل:"{بعد ما جاءك من العلم}، يعني: من البيان، {ما لك من الله من ولي}، يعني: قريبا ينفعك، {ولا واق}، يعني: يقي العذاب عنك".

قال السعدي:"توعد رسوله -مع أنه معصوم- ليمتن عليه بعصمته ولتكون أمته أسوته في الأحكام فقال: {ولئن اتبعت أهواءهم بعدما جاءك من العلم} البين الذي ينهاك عن اتباع أهوائهم، {ما لك من الله من ولي} يتولاك فيحصل لك الأمر المحبوب، {ولا واق} يقيك من الأمر المكروه".

قال السمعاني:"«الهوى»: ميل الطبع لشهوة النفس. وأكثره مذموم. قوله: {بعد ما جاءك من العلم} يعني: من القرآن {مالك من الله من ولي ولا واق}، يعني: من ناصر ولا حافظ".

قال البغوي:"{من ولي ولا واق}، يعني: من ناصر ولا حافظ".

=

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨).

وَنَزَلَ لَمَّا عَيَّرُوهُ بِكَثْرَةِ النِّسَاء {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلك وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّة} أَوْلَادًا وَأَنْتَ مِثْلهمْ {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ} مِنْهُمْ {أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ الله} لِأَنَّهُمْ عَبِيدٌ مَرْبُوبُونَ {لِكُلِّ أَجَلٍ} مُدَّة {كِتَاب} مَكْتُوب فيه تحديده.

يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩).

{يَمْحُو الله} مِنْهُ {مَا يَشَاء وَيُثْبِت} بِالتَّخْفِيفِ وَالتَّشْدِيد فِيهِ مَا يَشَاء مِنْ الْأَحْكَام وَغَيْرهَا {وَعِنْده أُمّ الْكِتَاب} أَصْله الَّذِي لَا يَتَغَيَّر مِنْهُ شَيْء وَهُوَ مَا كَتَبَهُ فِي الْأَزَل(١).

=

قال الطبري:"ثم نهاه جل ثناؤه عن ترك ما أنزل إليه واتباع الأحزاب، وتهدَّده على ذلك إنْ فعله فقال: {ولئن اتبعت} يا محمد {أهواءهم}، أهوَاء هؤُلاء الأحزاب ورضَاهم ومحبتَهم وانتقلت من دينك إلى دينهم، ما لك من يَقيك من عَذاب الله إنْ عذّبك على اتباعك أهواءَهم، وما لك من ناصر ينصرك فيستنقذك من الله إن هو عاقبك، يقول: فاحذر أن تتّبع أهَواءهم".

وفي قوله تعالى: {وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ} [الرعد: ٣٧]، وجهان:

أحدهما: في الملة، وذلك حين دعى إلى ملة آبائه. قاله مقاتل.

والثاني: أي: في القبلة.

(١) ذكر سبب النزول.

عن مجاهد؛ قول الله -تعالى-: {يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ}؛ قالت قريش حين أنزل: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} ما نراك يا محمد تملك من شيء، ولقد فرغ من الأمر؛ فأنزلت هذه الآية تخويفًا ووعيدًا لهم: {يَمْحُو اللهُ مَا

=

=
يَشَاءُ وَيُثْبِتُ} : إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما نشاء، ونحدث في كل رمضان؛ فنمحو ونثبت ما نشاء؛ من أرزاق الناس ومصائبهم، وما نعطيهم، وما نقسم لهم.
أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١١٤) من طريقين عنه. وهذا مرسل صحيح الإسناد.
* قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ} [الرعد: ٣٨].
يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولا بشريا، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشرا، يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجا وذرية.
وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم (قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي).
وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني).
وعن أبي أيوب قال رسول الله ﷺ (أربع من سنن المرسلين: التعطر والنكاح، والسواك، والحناء).
قال الشوكاني: وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء، أي: هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه.
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {ولقد أرسلنا}، يا محمد {رسلا من قبلك} إلى أمم قَدْ خَلَتْ من قبلِ أمتك".
قال القرطبي:"أي: جعلناهم بشرا يقضون ما أحل الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيص في الوحي".
قال الشوكاني:"أي: إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر".
قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} [الرعد: ٣٨]، أي:"وجعلنا لهم النساء
=

=

والبنين".

قال الطبري: أي:"فجعلناهم بَشرًا مثلَك، لهم أزواج ينكحون، وذريةٌ أنْسَلوهم، ولم نجعلهم ملائكةً لا يأكلون ولا يشربون ولا ينكحون، فنجعلَ الرسولَ إلى قومك من الملائكة مثلهم، ولكن أرسلنا إليهم بشرًا مثلهم، كما أرسلنا إلى من قبلهم من سائر الأمم بشرًا مثلهم".

قال الصابوني:"وهو ردٌّ على من عاب على الرسول ﷺ كثرة النساء وقالوا: لو كان مرسلاً حقـًا لكان مشتغلاً بالزهد وترك الدنيا والنساء، فردَّ الله مقالتهم وبيَّن أن محمداً ﷺ ليس ببدعٍ في ذلك، بل هو كمن تقدم من الرسل".

قال الشوكاني:"أي: إن الرسل الذين أرسلناهم قبلك هم من جنس البشر، لهم أزواج من النساء ولهم ذرية توالدوا منهم ومن أزواجهم، ولم نرسل الرسل من الملائكة الذين لا يتزوجون ولا يكون لهم ذرية. وفي هذا رد على من كان ينكر على رسول الله ﷺ تزوجه بالنساء أي: أن هذا شأن رسل الله المرسلين قبل هذا الرسول فما بالكم تنكرون عليه ما كانوا عليه".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً} [الرعد: ٣٨]، وجهان:

أحدهما: معناه أن من أرسلناه قبلك من المرسلين بشر لهم أزواج وذرية كسائر البشر، فلمَ أنكروا رسالتك وأنت مثل من قبلك.

الثاني: أنه نهاه بذلك عن التبتل، قاله قتادة.

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} [الرعد: ٣٨]، أي:"لم يكن يأتي قومه بخارق إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله ﷻ يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما يقدِر رسولٌ أرسله الله إلى خلقه أنْ يأتي أمَّتَه بآية وعلامة، من تسيير الجبال، ونقل بَلْدةٍ من مكان إلى مكان آخر، وإحياء

=

=

الموتى ونحوها من الآيات {إلا بإذن الله}، يقول: إلا بأمر الله الجبالَ بالسير، والأرضَ بالانتقال، والميتَ بأن يحيَا".

قال الشوكاني:"أي: لم يكن لرسول من الرسل أن يأتي بآية من الآيات، ومن جملتها ما اقترحه عليه الكفار إلا بإذن الله سبحانه. وفيه رد على الكفار حيث اقترحوا على رسول الله ﷺ من الآيات ما اقترحوا بما سبق ذكره".

قال مقاتل: " {إلا بإذن الله}، يعني: إلا بأمر الله".

قال الصابوني:"وهذا ردٌّ على الذين اقترحوا الآيات".

قوله تعالى: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد: ٣٨]، أي:"لكل أمر قضاه الله كتاب وأجل قد كتبه الله عنده، لا يتقدم ولا يتأخر".

قال ابن قتيبة:"أي: وقت قد كتب".

قال مقاتل: " يقول: لا ينزل من السماء كتاب إلا بأجل".

قال الشوكاني:"أي: لكل أمر مما قضاه الله، أو لكل وقت من الأوقات التي قضى الله بوقوع أمر فيها كتاب عند الله يكتبه على عباده ويحكم به فيهم".

وفي قوله تعالى: {لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد: ٣٨]، أربعة وجوه:

أحدها: معناه لكل كتاب نزل من السماء أجل. وهو من المقدِّم والمؤخر، قاله الضحاك.

قال الطبري:"وهذا على هذا القول نظيرُ قول الله: {وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ} [سورة ق:١٩]، وكان أبو بكر رحمه الله يقرؤه: «وَجَاءَت سَكْرَةُ الْحَقِّ بِالْمَوْتِ»، وذلك أن سَكْرة الموت تأتي بالحق والحق يأتي بها، فكذلك الأجل له كتاب وللكتاب أجَل".

الثاني: معناه: لكلِّ أجلِ أمرٍ قضاه الله، كتابٌ قد كتَبَه فهو عنده. قاله ابن جرير الطبري.

=

=

الثالث: لكل أجل من آجال الخلق كتاب عند الله تعالى، قاله الحسن.

والرابع: لكل عمل خَبر. أفاده الماوردي.

قوله تعالى: {يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ} [الرعد: ٣٩]، أي:"يمحو الله ما يشاء من الأحكام وغيرها، ويُبْقي ما يشاء منها لحكمة يعلمها".

قال ابن قتيبة:"{يمحو الله ما يشاء}، أي: ينسخ من القرآن ما يشاء. {ويثبت} أي يدعه ثابتا فلا ينسخه، وهو المحكم".

وفي قوله تعالى: {يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ} [الرعد: ٣٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: يمحو الله ما يشاء من أمور عباده فيغيره إلا إلا الحياة والموت والسعادة والشقاوة، فإنهما لا يُغَيَّران، قاله ابن عباس، ومجاهد.

قال ابن عباس:"يدبّر الله أمرَ العباد فيمحو ما يشاءُ، إلا الشقاء والسعادة [والحياة] والموت".

قال مجاهد:"الشقاء والسعادة قد فُرغ منهما".

روي عن منصور قال: "سألت مجاهدًا فقلت: أرأيت دعاءَ أحدنا يقول: «اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه واجعله في السعداء»، فقال: حَسنٌ. ثم أتيته بعد ذلك بحَوْلٍ أو أكثر من ذلك، فسألته عن ذلك، فقال: {إِنَّا أَنزلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِين فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ} [سورة الدخان:٣، ٤] قال: يُقْضى في ليلة القدر ما يكون في السَّنة من رزق أو مصيبة، ثم يقدِّم ما يشاء ويؤخر ما يشاء. فأما كتاب الشقاء والسعادة فهو ثابتٌ لا يُغَيَّر".

الثاني: يمحو الله ما يشاء ويثبت ما يشاء في كتاب سوى أُم الكتاب الذي لا يُغَيَّرُ منه شيء، وهما كتابان: كتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت، وعنده أم الكتاب. قاله ابن عباس، وعكرمة.

=

=

الثالث: أن الله ﷻ ينسخ ما يشاء من أحكام كتابه، ويثبت ما يشاء منها فلا ينسخه، قاله ابن عباس، وقتادة، وابن زيد، وابن جريج.

عن ابن عباس: " {يمحو الله ما يشاء}، قال: من القرآن. يقول: يبدل الله ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، {وعنده أم الكتاب}، يقول: وجملة ذلك عنده في أمّ الكتاب، الناسخ والمنسوخ، وما يبدل وما يثبت، كلٌّ ذلك في كتاب".

الرابع: أنه يمحو مَنْ قد جاء أجلُه فذهب، ويثبت من لم يأت أجلُه إلى اجله، قاله الحسن، وهو أولى الأقوال بتأويل الآية وأشبهها بالصواب عند أبي جعفر الطبري.

الخامس: يغفر ما يشاء من ذنوب عباده، ويترك ما يشاء فلا يغفره، قاله سعيد بن جبير.

قال سعيد:"يثبت في البطن الشَّقاء والسعادة وكلَّ شيء، فيغفر منه ما يشاء ويُؤخّر ما يشاء".

السادس: أنه الرجل يقدم الطاعة ثم يختمها بالمعصية فتمحو ما قد سلف، والرجل يقدم المعصية ثم يختمها بالطاعة فتمحو ما قد سلف، وهذا القول مأثور عن ابن عباس أيضـًا.

السابع: أن الحفظة من الملائكة يرفعون جميع أقواله وأفعاله، فيمحو الله ﷻ منها ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويثبت ما فيه الثواب والعقاب، قاله الضحاك.

قال الحافظ ابن كثير رحمه الله -بعد إيراده عدة أقوال-: "ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد عن ثوبان مرفوعا: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»".

قال الإمام ابن جرير الطبري:"وأولى الأقوال التي ذكرت في ذلك بتأويل الآية

=

=

وأشبهُها بالصّواب، القولُ الذي ذكرناه عن الحسن ومجاهد، وذلك أن الله تعالى ذكره توعَّد المشركين الذين سألوا رسولَ الله ﷺ الآياتِ بالعقوبة، وتهدَّدهم بها، وقال لهم: {وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ الله لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ}، يعلمهم بذلك أن لقضائه فيهم أجلا مُثْبَتًا في كتاب، هم مؤخَّرون إلى وقت مجيء ذلك الأجل. ثم قال لهم: فإذا جاء ذلك الأجل، يجيء الله بما شَاء ممن قد دَنا أجله وانقطع رزقه، أو حان هلاكه أو اتضاعه من رفعة أو هلاك مالٍ، فيقضي ذلك في خلقه، فذلك مَحْوُه، ويثبت ما شاء ممن بقي أجله ورزقه وأكله، فيتركه على ما هو عليه فلا يمحوه.

قال ابن جرير الطبري: "وبهذا المعنى جاء الأثر عن رسول الله ﷺ... «عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ:"إن الله يَفتح الذِّكر في ثلاث ساعات يَبْقَيْن من الليل، في الساعة أولى منهن ينظر في الكتاب الذي لا ينظُرُ فيه أحد غَيره، فيمحو ما يشاء ويثبتُ. ثم ذكر ما في الساعتين الأخريين»".

وقال ابن عباس: "إن لله لوحًا محفوظًا مسيرةَ خمسمِئة عام، من دُرَّة بيضاء لَها دَفَّتَان من ياقوت، والدَّفتان لَوْحان لله، كل يوم ثلاثمئة وستون لحظةً، يمحو ما يشَاء ويثبت وعنده أم الكتاب".

قال قيس بن عباد: "العاشر من رجب هو يوم يمحو الله فيه ما يشاء".

قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: ٣٩]، أي:"وعنده أمُّ الكتاب، وهو أصل كل كتاب وهو اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه مقاديرَ الأشياءِ كلَّها".

قال ابن قتيبة:"أي: جملته وأصله".

وفي قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ} [الرعد: ٣٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: الحلال والحرام، قاله الحسن.

الثاني: وعنده جملة الكتاب وأصله، قاله الضحاك، وقتادة.

=

=

وروي عن ابن عباس، قال:"وجملة ذلك عنده في أمّ الكتاب: الناسخُ والمنسوخ، وما يبدّل، وما يثبت، كلُّ ذلك في كتاب".

الثالث: هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق وما خَلْقُه عاملون، قاله كعب الأحبار.

وقال كعب:"فقال لعلمه: كُنْ كتابًا، فكان كتابًا".

الرابع: هو الذكر، قاله ابن عباس.

الخامس: أنه الكتاب الذي لا يبدل، قاله السدي.

السادس: أنه أصل الكتاب في اللوح المحفوظ، قاله عكرمة.

قال الإمام ابو جعفر الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك بالصواب قولُ من قال:"وعنده أصل الكتاب وجملته، وذلك أنه تعالى ذكره أخبر أنه يمحُو ما يشاء ويثبت ما يشاء، ثم عقَّب ذلك بقوله: {وعنده أم الكتاب}، فكان بيِّنًا أن معناه. وعنده أصل المثبّت منه والمَمحوّ، وجملتُه في كتاب لديه".

قال ابن تيمية - في كلام عن الأحاديث التي فيها زيادة العمر -: والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلا في صحف الملائكة، فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب. وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب... والله سبحانه عالم بما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف كان يكون؛ فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إياه بعد ذلك والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها، فلهذا قال العلماء: إن المحو والإثبات في صحف الملائكة وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالما به فلا محو فيه ولا إثبات. وأما اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين. والله سبحانه.

(تتمة): وردت بعض النصوص ظاهرها التعارض مع القدر ومن ذلك:

=

=

- قول الله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب} [الرعد: ٣٩].

- وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من سره أن يبسط له في رزقه أو ينسأ له في أثره فليصل رحمه".

- وعن سلمان قال قال رسول الله ﷺ: "لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد في العمر إلا البر".

- وعن ثوبان قال قال رسول الله ﷺ: "لا يزيد في العمر إلا البر ولا يرد القدر إلا الدعاء وإن الرجل ليحرم الرزق بخطيئة يعملها".

- وعن عائشة أن النبي ﷺ قال لها: "إنه من أعطي حظه من الرفق فقد أعطي حظه من خير الدنيا والآخرة وصلة الرحم وحسن الخلق وحسن الجوار يعمران الديار ويزيدان في الأعمار".

- ولأبي يعلى من حديث أنس رفعه "إن الصدقة وصلة الرحم يزيد الله بهما في العمر، ويدفع بهما ميتة السوء".

فهذه النصوص قد يوهم ظاهرها أنها تعارض الآيات والأحاديث السابقة، كما أن ظاهرها يعارض الحديث الذي في مسلم وفيه قالت أم حبيبة: اللهم أمتعني بزوجي رسول الله ﷺ وبأبي أبي سفيان، وبأخي معاوية فقال النبي ﷺ: "قد سألت الله عز وجل لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، ولن يعجل شيئا قبل حله، أو يؤخر شيئا عن حله، ولو كنت سألت الله أن يعيذك من عذاب في النار، أو عذاب في القبر، كان خيرا وأفضل".

* وللجمع بين هذه النصوص نورد ما ذكره العلماء في ذلك:

قال ابن كثير: "قال عكرمة عن ابن عباس الكتاب كتابان فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب".

قال النووي: "وأما التأخير في الأجل ففيه سؤال مشهور، وهو أن الآجال والأرزاق

=

=

مقدرة لا تزيد ولا تنقص {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} [الأعراف: ٣٤] وأجاب العلماء بأجوبة:

الصحيح منها أن هذه الزيادة بالبركة في عمره، والتوفيق للطاعات، وعمارة أوقاته بما ينفعه في الآخرة، وصيانتها عن الضياع في غير ذلك.

والثاني: أنه بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة وفي اللوح المحفوظ، ونحو ذلك، فيظهر لهم في اللوح أن عمره ستون سنة إلا أن يصل رحمه فإن وصلها زيد له أربعون، وقد علم الله سبحانه وتعالى ما سيقع له من ذلك، وهو من معنى قوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت} فبالنسبة إلى علم الله تعالى، وما سبق به قدره ولا زيادة بل هي مستحيلة، وبالنسبة إلى ما ظهر للمخلوقين تتصور الزيادة، وهو مراد الحديث.

والثالث: أن المراد بقاء ذكره الجميل بعده، فكأنه لم يمت. حكاه القاضي، وهو ضعيف أو باطل والله أعلم".

وقال في تحفة الأحوذي: "وقال في اللمعات: والمراد بتأخير الأجل بالصلة إما حصول البركة والتوفيق في العمل وعدم ضياع العمر فكأنه زاد، أو بمعنى أنه سبب لبقاء ذكره الجميل بعده، أو وجود الذرية الصالحة. والتحقيق أنها سبب لزيادة العمر كسائر أسباب العالم. فمن أراد الله تعالى زيادة عمره وفقه لصلة الأرحام، والزيادة إنما هو بحسب الظاهر بالنسبة إلى الخلق، وأما في علم الله فلا زيادة ولا نقصان، وهو وجه الجمع بين قوله ﷺ: "جف القلم بما هو كائن"، وقوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت}".

وفي قول النبي ﷺ: "قد سألت الله ﷻ لآجال مضروبة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسومة، ولن يعجل شيئا قبل حله، أو يؤخر شيئا عن حله". قال النووي رحمه الله: "وهذا الحديث صريح في أن الآجال والأرزاق مقدرة لا تتغير عما قدره الله

=

=

تعالى وعلمه في الأزل، فيستحيل زيادتها ونقصها حقيقة عن ذلك.
وأما ما ورد في حديث صلة الرحم تزيد في العمر ونظائره فقد سبق تأويله في باب صلة الأرحام واضحا. قال المازري هنا: قد تقرر بالدلائل القطعية أن الله تعالى أعلم بالآجال والأرزاق وغيرها، وحقيقة العلم معرفة المعلوم على ما هو عليه، فإذا علم الله تعالى أن زيدا يموت سنه خمسمائة استحال أن يموت قبلها أو بعدها لئلا ينقلب العلم جهلا، فاستحال أن الآجال التي علمها الله تعالى تزيد وتنقص، فيتعين تأويل الزيادة أنها بالنسبة إلى ملك الموت أو غيره ممن وكله الله بقبض الأرواح، وأمره فيها بآجال ممدودة فإنه بعد أن يأمره بذلك أو يثبته في اللوح المحفوظ ينقص منه ويزيد على حسب ما سبق به علمه في الأزل، وهو معنى قوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت} وعلى ما ذكرناه يحمل قوله تعالى: {ثم قضى أجلا وأجل مسمى عنده}".
وقال ابن حجر: "قال ابن التين: ظاهر الحديث يعارض قوله تعالى: {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون} والجمع بينهما من وجهين:
أحدهما: أن هذه الزيادة كناية عن البركة في العمر بسبب التوفيق إلى الطاعة، وعمارة وقته بما ينفعه في الآخرة، وصيانته عن تضييعه في غيره ذلك. ومثل هذا ما جاء أن النبي ﷺ تقاصر أعمار أمته بالنسبة لأعمار من مضى من الأمم فأعطاه الله ليلة القدر. وحاصله أن صلة الرحم تكون سببا للتوفيق للطاعة والصيانة عن المعصية فيبقى بعده الذكر الجميل، فكأنه لم يمت. ومن جملة ما يحصل له من التوفيق العلم الذي ينتفع به من بعده، والصدقة الجارية عليه، والخلف الصالح.
ثانيهما: أن الزيادة على حقيقتها، وذلك بالنسبة إلى علم الملك الموكل بالعمر، وأما الأول الذي دلت عليه الآية فبالنسبة إلى علم الله تعالى، كأن يقال للملك مثلا: إن عمر فلان مائة مثلا إن وصل رحمه، وستون إن قطعها. وقد سبق في علم
=

=

الله أنه يصل أو يقطع، فالذي في علم الله لا يتقدم ولا يتأخر، والذي في علم الملك هو الذي يمكن فيه الزيادة والنقص وإليه الإشارة بقوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب} المحو والإثبات بالنسبة علم الملك، وما في أم الكتاب هو الذي في علم الله تعالى فلا محو فيه البتة. ويقال له القضاء المبرم، ويقال للأول القضاء المعلق. والوجه الأول أليق بلفظ حديث الباب، فإن الأثر ما يتبع الشيء، فإذا أخر حسن أن يحمل على الذكر الحسن بعد فقد المذكور.

وقد ورد في تفسيره وجه ثالث، فأخرج الطبراني في "الصغير" بسند ضعيف عن أبي الدرداء قال: ذكر عند رسول الله ﷺ من وصل رحمه أنسئ له في أجله، فقال: إنه ليس زيادة في عمره، قال الله تعالى: {فإذا جاء أجلهم} الآية؛ ولكن الرجل تكون له الذرية الصالحة يدعون له من بعده".

وله في "الكبير" من حديث أبي مشجعة الجهني رفعه "إن الله لا يؤخر نفسا إذا جاء أجلها، وإنما زيادة العمر ذرية صالحة" الحديث.

وجزم ابن فورك بأن المراد بزيادة العمر نفي الآفات عن صاحب البر في فهمه وعقله. وقال غيره في أعم من ذلك وفي وجود البركة في رزقه وعلمه ونحو ذلك".

وفي قول النبي ﷺ: "من سره أن يبسط له في رزقه... " الحديث، قال شيخ الإسلام: "وقد قال بعض الناس إن المراد به البركة في العمر بأن يعمل في الزمن القصير ما لا يعمله غيره إلا في الكثير. قالوا: لأن الرزق والأجل مقدران مكتوبان. فيقال لهؤلاء: تلك البركة وهي الزيادة في العمل والنفع هي أيضا مقدرة مكتوبة وتتناول لجميع الأشياء.

والجواب المحقق: أن الله يكتب للعبد أجلا في صحف الملائكة فإذا وصل رحمه زاد في ذلك المكتوب، وإن عمل ما يوجب النقص نقص من ذلك المكتوب. ونظير هذا ما في الترمذي وغيره عن النبي ﷺ: "إن آدم لما طلب من الله أن يريه

=

=

صورة الأنبياء من ذريته فأراه إياهم فرأى فيهم رجلا له بصيص فقال: من هذا يا رب؟ فقال: ابنك داود. قال: فكم عمره؟ قال: أربعون سنة. قال: وكم عمري؟ قال: ألف سنة. قال: فقد وهبت له من عمري ستين سنة، فكتب عليه كتاب، وشهدت عليه الملائكة، فلما حضرته الوفاة قال: قد بقي من عمري ستون سنة قالوا: وهبتها لابنك داود. فأنكر ذلك فأخرجوا الكتاب". قال النبي ﷺ: "فنسي آدم فنسيت ذريته، وجحد آدم فجحدت ذريته".

وروي "أنه كمل لآدم عمره ولداود عمره، فهذا داود كان عمره المكتوب أربعين سنة ثم جعله ستين، وهذا معنى ما روي عن عمر أنه قال: اللهم إن كنت كتبتني شقيا فامحني واكتبني سعيدا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، والله سبحانه عالم بما كان وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون فهو يعلم ما كتبه له وما يزيده إياه بعد ذلك، والملائكة لا علم لهم إلا ما علمهم الله - والله يعلم الأشياء قبل كونها وبعد كونها؛ فلهذا قال العلماء إن المحو والإثبات في صحف الملائكة - وأما علم الله سبحانه فلا يختلف ولا يبدو له ما لم يكن عالما به فلا محو فيه ولا إثبات - وأما اللوح المحفوظ فهل فيه محو وإثبات على قولين، والله سبحانه وتعالى أعلم".

وفي تفسير قوله تعالى: {يمحو الله ما يشاء ويثبت} قال السعدي رحمه الله: "وهذا المحو والتغيير في غير ما سبق به علمه، وكتبه قلمه، فإن هذا لا يقع فيه تبديل ولا تغيير؛ لأن ذلك محال على الله أن يقع في علمه نقص، أو خلل، ولهذا قال: {وعنده أم الكتاب} أي: اللوح المحفوظ، الذي ترجع إليه سائر الأشياء، فهو أصلها، وهي فروع وشعب.

فالتغيير والتبديل يقع في الفروع والشعب كأعمال اليوم والليلة، التي تكتبها الملائكة، ويجعل الله لثبوتها أسبابا، ولمحوها أسبابا، لا تتعدى تلك الأسباب، ما

=

=

رسم في اللوح المحفوظ كما جحل الله البر والصلة والإحسان من أسباب طول العمر، وسعة الرزق والعمر، وكما جعل أسباب النجاة من المهالك والمعاطب، سببا للسلامة، وجعل التعرض لذلك سببا للعطب، فهو الذي يدبر الأمور بحسب قدرته وإرادته، وما يدبره منها لا يخالف ما قد علمه وكتبه، في اللوح المحفوظ".

وقد سئل الشيخ عبد العزيز بن باز رحمه الله عن الدعاء والصدقة هل يردان القضاء والقدر، فذكر الآيات والأحاديث الدالة على أن قدر الله ﷻ ماض في عباده، ثم قال: "وقد ثبت عنه ﷺ ما يدل على أن الحوادث معلقة بأسبابها، كما في قوله ﷺ: "إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، وإن البر يزيد في العمر، ولا يرد القدر إلا الدعاء" ومراده ﷺ أن القدر المعلق بالدعاء يرده الدعاء، وهكذا قوله ﷺ: "من أحب أن يبسط له في رزقه وأن ينسأ له في أجله فليصل رحمه". فالأقدار تردها الأقدار التي جعلها الله سبحانه مانعة لها، والأقدار المعلقة على وجود أشياء كالبر والصلة والصدقة توجد عند وجودها، وكل ذلك داخل في القدر العام المذكور في قوله سبحانه: {إنا كل شيء خلقناه بقدر} [القمر: ٤٩]، وقوله ﷺ: "وتؤمن بالقدر خيره وشره"، ومن هذا قوله ﷺ: "الصدقة تطفئ الخطيئة كما يطفئ الماء النار". وروي عنه ﷺ أنه قال: "إن صدقة السر تطفئ غضب الله وتدفع ميتة السوء" ...".

وسئل الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: هل للدعاء تأثير في تغيير ما كتب للإنسان قبل خلقه؟

فأجاب بقوله: "لا شك أن للدعاء تأثيرا في تغيير ما كتب، لكن هذا التغيير قد كتب أيضا بسبب الدعاء، فلا تظن أنك إذا دعوت الله فإنك تدعو بشيء غير مكتوب، بل الدعاء مكتوب وما يحصل به مكتوب، ولهذا نجد القارئ يقرأ على المريض فيشفى، وقصة السرية التي بعثها النبي ﷺ فنزلوا ضيوفا على قوم ولكنهم لم

=

وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠).

{وَإِمَّا} فِيهِ إدْغَام نُون إنْ الشَّرْطِيَّة فِي مَا الْمَزِيدَة {نُرِيَنَّكَ بَعْض الَّذِي نَعِدهُمْ} بِهِ مِنْ الْعَذَاب فِي حَيَاتك وَجَوَاب الشَّرْط مَحْذُوف أَيْ فَذَاكَ {أَوْ نتوفينك} قَبْل تَعْذِيبهمْ {فَإِنَّمَا عَلَيْك الْبَلَاغ} مَا عَلَيْك إلَّا التَّبْلِيغ {وَعَلَيْنَا الْحِسَاب} إذَا صَارُوا إلَيْنَا فنجازيهم[1].

=

يضيفوهم، وقدر أن لدغت حية سيدهم فطلبوا من يقرأ عليه، فاشترط الصحابة أجرة على ذلك، فأعطوهم قطيعا من الغنم، فذهب أحدهم فقرأ عليه الفاتحة، فقام اللديغ كأنما نشط من عقال، أي كأنه بعير فك عقاله، فقد أثرت القراءة في شفاء المريض.

فللدعاء تأثير لكنه ليس تغييرا للقدر، بل هو مكتوب بسببه المكتوب، وكل شيء عند الله بقدر، وكذلك جميع الأسباب لها تأثير في مسبباتها بإذن الله، فالأسباب مكتوبة والمسببات مكتوبة".

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ} [الرعد: ٤٠]، أي:"وإن أريناك -أيها الرسول- بعض العقاب الذي توعَّدْنا به أعداءك من الخزي والنَّكال في الدنيا فذلك المعجَّل لهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وإما نرينك، يا محمد في حياتك بعضَ الذي نعدُ هؤلاء المشركين بالله من العقاب على كفرهم".

قال الزجاج:"المعنى: إما أريناك بعض الذي وعدناهم من إظهار دين الإسلام على الدين كله".

قال ابن كثير:"أي: ننتقم منهم في حياتك لتقرّ عينُك منهم".

=

=

قال الرازي: المعنى: سواء أريناك ذلك أو توفيناك قبل ظهوره، فالواجب عليك تبليغ أحكام الله تعالى وأداء أمانته ورسالته وعلينا الحساب.

وقال الشوكاني: وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ وإخبار له أنه قد فعل ما أمره الله به، وليس عليه غيره، وأن من لم يجب دعوته، ويصدق نبوته فالله سبحانه محاسبه على ما اجترم واجترأ عليه من ذلك.

وقال ابن عاشور: وفي هذا إنذار لهم بأن الوعيد نازل بهم ولو تأخر؛ وأن هذا الدين يستمر بعد وفاة رسول الله ﷺ لأنه إذا كان الوعيد الذي أمر بإبلاغه واقعا ولو بعد وفاته فبالأولى أن يكون شرعه الذي لأجله جاء وعيد الكافرين به شرعا مستمرا بعده، ضرورة أن الوسيلة لا تكون من الأهمية بأشد من المقصد المقصودة لأجله.

وقد أرى الله نبيئه بعض ما توعد به المشركين من الهلاك بالسيف يوم بدر ويوم الفتح ويوم حنين وغيرها من أيام الإسلام في حياة النبي ﷺ ولم يره بعضه مثل عذاب أهل الردة فإن معظمهم كان من المكذبين المبطنين الكفر مثل: مسيلمة الكذاب.

قوله تعالى: {أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ} [الرعد: ٤٠]، أي:"وإن نقبضك قبل أن نقر عينك بعذاب هؤلاء المشركين".

قال الطبري:"أو نتوفيَنَّكَ قبل أن نُريَك ذلك".

قال الزجاج:"أو توفيناك قبل ذلك".

قوله تعالى: {فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ} [الرعد: ٤٠]، أي:"فما عليك إلا تبليغ الدعوة، وعلينا الحساب والجزاء".

قال الطبري:"فإنما عليك أن تنتهِيَ إلى طاعة ربك فيما أمرك به من تبليغهم رسالتَه، لا طلبَ صلاحِهم ولا فسادهِم، وعلينا محاسبتهم، فمجازاتهم بأعمالهم،

=

أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١).

{أَوَلَمْ يَرَوْا} أَيْ أَهْل مَكَّة {أَنَّا نَأْتِي الْأَرْض} نَقْصِد أَرْضهمْ {نَنْقُصهَا مِنْ أَطْرَافهَا} بِالْفَتْحِ عَلَى النَّبِيّ ﷺ {وَاَللَّه يَحْكُم} فِي خَلْقه بِمَا يَشَاء {لَا مُعَقِّب} لا راد {لحكمه وهو سريع الحساب}[1].

=

إن خيرًا فخيرٌ وإن شرًّا فشر".

قال ابن كثير:"أي: مصيرهم ومتقَلَبهم، والله شهيد على أفعالهم بعدك".

قال الزجاج:"فليس عليك إلا البلاغ - كفروا هم به أو آمنوا".

قال السعدي: أي:"فليس ذلك شغلا لك {فإنما عليك البلاغ} والتبيين للخلق، {وعلينا الحساب} فنحاسب الخلق على ما قاموا به، مما عليهم، وضيعوه، ونثيبهم أو نعاقبهم".

عن حذيفة بن أسيد، عن النبي ﷺ قال: "عُرضت عليّ أمتي البارحة لدى هذه الحجرة، أولها وآخرها. فقال رجل: يا رسول الله، عرض عليك من خُلِق، فكيف من لم يخلق؟ فقال: "صُوِّروا لي في الطين، حتى إني لأعْرَفُ بالإنسان منهم من أحدكم بصاحبه".

(١) قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} [الرعد: ٤١]، أي:"أولمْ ير هؤلاء المشركون أنّا نمكّن للمؤمنين من ديارهم ونفتح للرسول الأرض بعد الأرض حتى تنقص دار الكفر وتزيد دار الإسلام؟".

وفي قوله تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا} [الرعد: ٤١]، وجوه من التفسير:

أحدها: بالفتوح على المسلمين من بلاد المشركين، قاله ابن عباس، والحسن،

=

=

والضحاك، وقتادة، وبه قال ابن جرير الطبري، وابن كثير.

قال ابن عباس:"أولم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض؟".

قال الحسن:"هو ظهور المسلمين على المشركين".

قال الضحاك:"يعنى: أن نبي الله ﷺ كان يُنْتَقَصُ له ما حوله من الأرَضِين، ينظرون إلى ذلك فلا يعتبرون قال الله في «سورة الأنبياء»: {نَأْتِي الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ} [سورة الأنبياء:٤٤]، بل نبي الله ﷺ وأصحابه هم الغالبون".

قال الصابوني:"وذلك من أقوى الأدلة على أن الله منجزٌ وعده لرسوله عليه السلام".

الثاني: بخرابها بعد العمارة، والمعنى: أولم يروا أنا نأتي الأرض فنخرِّبها، أو لا يَخَافون أن نفعل بهم وبأرضهم مثل ذلك فنهلكهم ونخرِّب أرضهم؟. قاله ابن عباس أيضا، ومجاهد، وعكرمة.

وقال ابن جريج:"خرابُها وهلاك الناس".

قال عكرمة:"نخرِّب من أطرافها".

الثالث: معناه: ننقص من بَرَكتها وثَمرتها وأهلِها بالموت، قاله ابن عباس، ومجاهد، والكلبي، والشعبي.

وقال الشيخ السعدي:"أي: بموت أهلها وفنائهم، شيئا فشيئا، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين".

الرابع: معناه: أنا نأتي الأرض ننقصها من أهلها، نأخذ من أطرافهم ونواحيهم بأخذهم بالموت. قاله مجاهد، وعكرمة.

قال عكرمة:"هو الموت -وفي رواية- «هو قَبْضُ الناس». ثم قال: لو كانت الأرض تنقص لم نجد مكانًا نجلسُ فيه".

=

=

الخامس: أن معنى «ننقُصها من أطرافها»، اي: بموت فقهائها وخيارها، قاله ابن عباس، ومجاهد.

وقال ابن قتيبة:"أي: بموت العلماء والعباد".

السادس: أنه بجور ولاتها. أفاده الماوردي.

السابع: التفسير العلمي للآية الكريمة، فإنه للآية عدة دلالات أثبتها العلم الحديث، ومن ذلك:

أولا: في إطار دلالة لفظة «الأرض» علي الكوكب ككل:

في هذا الإطار نجد ثلاثة معان علمية بارزة يمكن إيجازها فيما يلي:

أ - إنقاص الأرض من أطرافها بمعني انكماشها علي ذاتها وتناقص حجمها باستمرار.

ب - إنقاص الأرض من أطرافها بمعني تفلطحها قليلاً عند القطبين ، وانبعاجها قليلاً عند خط الاستواء.

ت - إنقاص الأرض من أطرافها بمعني اندفاع قيعان المحيطات تحت القارات وانصهارها وذلك بفعل تحرك ألواح الغلاف الصخري للأرض.

ثانيا: في إطار دلالة لفظ «الأرض» علي اليابسة التي نحيا عليها:

في هذا الإطار نجد معنيين علميين واضحين نوجزهما فيما ياتي:

أ - إنقاص الأرض من أطرافها بمعني أخذ عوامل التعرية المختلفة من المرتفعات وإلقاء نواتج التعرية في المنخفضات من سطح الأرض حتى تتم تسوية سطحها.

ب - إنقاص الأرض من أطرافها بمعني طغيان مياه البحار والمحيطات علي اليابسة وإنقاصها من أطرافها.

ثالثا: في إطار دلالة لفظ «الأرض» علي التربة التي تغطي صخور اليابسة: إنقاص

=

=

الأرض من أطرافها بمعني التصحر.

قال الإمام ابن كثير:"والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، وكَفْرًا بعد كَفْر، كما قال تعالى: {وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرَى} [الأحقاف: ٢٧] الآية، وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله".

قال الإمام الطبري:"وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب قولُ من قال: {أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها}، بظهور المسلمين من أصحاب محمد ﷺ عليها وقَهْرِهم أهلها، أفلا يعتبرون بذلك فيخافون ظُهورَهم على أرْضِهم وقَهْرَهم إياهم؟ وذلك أن الله توعَّد الذين سألوا رسولَه الآيات من مشركي قومه بقوله: {وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ}، ثم وبَّخهم تعالى ذكره بسوء اعتبارهم ما يعاينون من فعل الله بضُرَبائهم من الكفار، وهم مع ذلك يسألون الآيات، فقال: {أولم يرَوْا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها} بقهر أهلها، والغلبة عليها من أطرافها وجوانبها، وهم لا يعتبرون بما يَرَوْن من ذلك".

قال الشنقيطي: في معنى إتيان الله الأرض ينقصها من أطرافها في هذه الآية الكريمة أقوال معروفة للعلماء، وبعضها تدل له قرينة قرآنية:

قال بعض العلماء: نقصها من أطرافها: موت العلماء.

وجاء في ذلك حديث مرفوع عن أبي هريرة، وبعد هذا القول عن ظاهر القرآن بحسب دلالة السياق ظاهر كما ترى.

وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها خرابها عند موت أهلها.

وقال بعض أهل العلم: نقصها من أطرافها هو نقص الأنفس، والثمرات، إلى غير ذلك من الأقوال.

وأما القول الذي دلت عليه القرينة القرآنية فهو أن معنى ننقصها من أطرافها أي:

=

=

نـنقص أرض الكفـر ودار الحـرب، ونحـذف أطرافهـا بتـسليط المـسلمين عليهـا وإظهارهم على أهلها، وردها دار إسلام.

والقرينة الدالة على هذا المعنى هي قوله بعده (أفهم الغالبون) والاستفهام لإنكار غلبتهم. وقيل: لتقريرهم بأنهم مغلوبون لا غالبون، فقوله: أفهم الغالبون دليل على أن نقص الأرض من أطرافها سبب لغلبة المسلمين للكفار، وذلك إنما يحصل بالمعنى المذكور. ومما يدل لهذا الوجه قوله تعالى (ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريبا من دارهم حتى يأتي وعد الله) على قول من قال: إن المراد بالقارعة التي تصيبهم سرايا النبي ﷺ تفتح أطراف بلادهم، أو تحل أنت يا نبي الله قريبا من دارهم.

وممن يروى عنه هذا القول: ابن عباس، وأبو سعيد، وعكرمة، ومجاهد، وغيرهم. وهذا المعنى الذي ذكر الله هنا ذكره في آخر سورة «الرعد» أيضا في قوله: أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب).

وقال ابن كثير في تفسير آية «الأنبياء» هذه: إن أحسن ما فسر به قوله تعالى: أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها هو قوله تعالى: ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون). (أضواء البيان).

وقال ابن كثير: والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله: ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

وقال الخازن: قال أكثر المفسرين: المراد منه فتح دار الشرك فإن ما زاد في دار الإسلام فقد نقص في دار الشرك والمعنى أو لم يروا أنا نأتي الأرض فنفتحها لمحمد ﷺ أرضا بعد أرض حوالى أراضيهم أفلا يعتبرون، فيتعظون وهذا قول ابن عباس وقتادة وجماعة من المفسرين: وذلك أن المسلمين إذا استولوا على

=

=

بلاد الكفار قهرا وتخريبا كان ذلك نقصانا في ديارهم، وزيادة في ديار المسلمين، وقوتهم وكان ذلك من أقوى الدلائل على أن الله تعالى ينصر عبده ويعز جنده ويظهر دينه، وينجز له ما وعده.

وقال ابن عاشور: وذهب كثير من المفسرين إلى أن المراد (بالأرض) أرض الكافرين من قريش فيكون التعريف للعهد، وتكون الرؤية بصرية، ويكون ذلك إيقاظا لهم لما غلب عليه المسلمون من أرض العدو فخرجت من سلطانه فتنقص الأرض التي كانت في تصرفهم وتزيد الأرض الخاضعة لأهل الإسلام.

قوله تعالى: {وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ} [الرعد: ٤١]، أي:"والله سبحانه يحكم لا معقِّب لحكمه وقضائه".

قال ابن عباس: " لا ناقض لحكمه".

قال ابن قتيبة:"أي: لا يتعقبه أحد بتغيير ولا نقص".

قال البغوي:"لا راد لقضائه، ولا ناقض لحكمه".

قال الطبري:"يقول: والله هو الذي يحكم فيَنْفُذُ حكمُه، ويَقْضي فيَمْضِي قضاؤه، وإذا جاء هؤلاء المشركين بالله من أهل مكة حُكْم الله وقضاؤُه لم يستطيعوا رَدَّهَ. ويعني بقوله: {لا معقّب لحكمه}: لا راد لحكمه، و «المعقب»، في كلام العرب، هو الذي يكرُّ على الشيء".

قال البيضاوي:"لا راد له وحقيقته الذي يعقب الشيء بالإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يقفو غريمه بالاقتضاء، والمعنى أنه حكم للإسلام بالقبال وعلى الكفر بالإدبار وذلك كائن لا يمكن تغييره، ومحل «لا» مع المنفي النصب على الحال، أي: يحكم نافذا حكمه".

قال السعدي: " ويدخل في هذا حكمه الشرعي والقدري والجزائي. فهذه الأحكام التي يحكم الله فيها، توجد في غاية الحكمة والإتقان، لا خلل فيها ولا

=

=

نقص، بل هي مبنية على القسط والعدل والحمد، فلا يتعقبها أحد ولا سبيل إلى القدح فيها، بخلاف حكم غيره فإنه قد يوافق الصواب وقد لا يوافقه".

قوله تعالى: {وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [الرعد: ٤١]، أي:"والله سريع الانتقام ممن عصاه".

قال ابن عباس: "يريد سريع الانتقام".

قال الطبري:"يقول: والله سريع الحساب يُحْصي أعمال هؤلاء المشركين، لا يخفى عليه شيء، وهو من وراءِ جزائهم عليها".

قال البيضاوي:"فيحاسبهم عما قليل في الآخرة بعد ما عذبهم بالقتل والاجلاء في الدنيا".

قال النسفي:"فعما قليل يحاسبهم في الآخرة بعد عذاب الدنيا".

قال السعدي: " أي: فلا يستعجلوا بالعذاب فإن كل ما هو آت، فهو قريب".

وقوله (وهو سريع الحساب) يحتمل معنيان: يحتمل أن يوم الأخر - الذي يقع فيه الحساب - أن مجيئه قريب وسريع، وكل ما هو آت قريب والله أخبر عن أمر الساعة أنه كلمح البصر أو هو أقرب.

كما قال تعالى (اقترب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون).

وقال تعالى (اقتربت الساعة وانشق القمر).

ويحتمل - وهو المتبادر -: أن ذلك الحساب لا يطول لكثرة الخلق الذين يحاسبهم، بخلاف حال المخلوقين فإنهم إذا كثر ذلك عليهم فإن ذلك يقتضي طول الوقت الذي تستغرقه تلك المحاسبة.

كما قال تعالى (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين).

ووصف نفسه بسرعة حساب الخلائق على كثرة عددهم وكثرة أعمالهم ليدل

=

وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢).

{وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلهمْ} مِنْ الْأُمَم بِأَنْبِيَائِهِمْ كَمَا مَكَرُوا بِك {فَلِلَّهِ الْمَكْر جَمِيعًا} وَلَيْسَ مَكْرهمْ كَمَكْرِهِ لِأَنَّهُ تَعَالَى {يَعْلَم مَا تَكْسِب كُلّ نَفْس} فَيُعِدّ لَهَا جَزَاءَهُ وَهَذَا هُوَ الْمَكْر كُلّه لِأَنَّهُ يَأْتِيهِمْ بِهِ مِنْ حيث لا يشعرون {وسيعلم الكافر} الْمُرَاد بِهِ الْجِنْس وَفِي قِرَاءَة الْكُفَّار {لِمَنْ عُقْبَى الدَّار} أَيْ الْعَاقِبَة الْمَحْمُودَة فِي الدَّار الْآخِرَة أَلَهُمْ أَمْ لِلنَّبِيِّ ﷺ وأصحابه[1].

=

على كمال قدرته ووجوب الحذر منه.

(١) قوله تعالى: {وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ} [الرعد: ٤٢].

يقول تعالى: وقد مكر الذين من قبلهم برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين.

كقوله (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

وقوله تعالى (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قد مكر الذين من قَبْل هؤلاء المشركين من قُرَيشٍ من الأمم التي سلفت بأنبياء الله ورُسله".

قال النسفي:"أي: كفار الأمم الخالية بأنبيائهم والمكر إرادة المكروه في خفية".

قال السعدي: " أي: [مكروا] برسلهم وبالحق الذي جاءت به الرسل، فلم يغن عنهم مكرهم ولم يصنعوا شيئا فإنهم يحاربون الله ويبارزونه".

قوله تعالى: {فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا} [الرعد: ٤٢]، أي:"له تعالى أسباب المكر

=

=

جميعـًا، فلا عبرة بمكرهم ولا قيمة له فلا يرهب ولا يلتفت اليه".

قال الطبري:"يقول: فلله أسبابُ المكر جميعًا، وبيده وإليه، لا يضرُّ مكرُ من مَكَر منهم أحدًا إلا من أراد ضرَّه به، يقول: فلم يضرَّ الماكرون بمكرهم إلا من شاء الله أن يضرَّه ذلك، وإنما ضرُّوا به أنفسهم لأنهم أسخطوا ربَّهم بذلك على أنفسهم حتى أهلكهم، ونجَّى رُسُلَه: يقول: فكذلك هؤلاء المشركون من قريش يمكرون بك، يا محمد، والله منَجّيك من مكرهم، ومُلْحِقٌ ضُرَّ مكرهم بهم دونك".

قال البغوي:"أي: عند الله جزاء مكرهم وقيل: إن الله خالق مكرهم جميعا، بيده الخير والشر، وإليه النفع والضر، فلا يضر مكر أحد أحدا إلا بإذنه".

قال البيضاوي:"إذ لا يؤبه بمكر دون مكره فإنه القادر على ما هو المقصود منه دون غيره".

قال السعدي: " أي: لا يقدر أحد أن يمكر مكرا إلا بإذنه، وتحت قضائه وقدره، فإذا كانوا يمكرون بدينه فإن مكرهم سيعود عليهم بالخيبة والندم".

قال النسفي:"قال: {فلله المكر جميعا} ثم فسر ذلك بقوله {يعلم ما تكسب كل نفس وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار} يعني العاقبة المحمودة لأن من علم ما تكسب كل نفس وأعدلها جزاءها فهو المكر كله لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم في غفلة عما يراد بهم".

قال الشوكاني: (وقد مكر الذين من قبلهم فلله المكر جميعا) أي: قد مكر الكفار الذين من قبل كفار مكة بمن أرسله الله إليهم من الرسل؛ فكادوهم وكفروا بهم، وهذا تسلية من الله سبحانه لرسوله ﷺ حيث أخبره أن هذا ديدن الكفار من قديم الزمان مع رسل الله سبحانه، ثم أخبره بأن مكرهم هذا كالعدم، وأن المكر كله لله.

وقد تقدم القول في صفة المكر والخداع والإسهزاء تحت الآية رقم (١٥) من سورة البقرة.

=

=

قوله تعالى: {يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ} [الرعد: ٤٢]، أي:"يعلم سبحانه ما تكسب كل نفس من خير أو شر فتجازى عليه".

قال السعدي: " أي: همومها وإراداتها وأعمالها الظاهرة والباطنة".

قال البيضاوي:"فيعد جزاءها".

قال الطبري:"يقول: يعلم ربك، يا محمد ما يعمل هؤلاء المشركون من قومك، وما يسعون فيه من المكر بك، ويعلم جميعَ أعمال الخلق كلهم، لا يخفى عليه شيء منها".

قال السعدي:"والمكر لا بد أن يكون من كسبها، فلا يخفى على الله مكرهم، فيمتنع أن يمكروا مكرا يضر الحق وأهله ويفيدهم شيئا".

قوله تعالى: {وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ} [الرعد: ٤٢]، أي:"وسيعلم الكفار -إذا قدموا على ربهم- لمن تكون العاقبة المحمودة بعد هذه الدنيا؟".

قال الطبري:"يقول: وسيعلمون إذا قَدموا على ربهم يوم القيامة لمن عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار، ويدخلُ المؤمنون بالله ورسوله الجَنَّة".

قال البغوي:"أي: عاقبة الدار الآخرة حين يدخلون النار، ويدخل المؤمنون الجنة".

قال البيضاوي:"من الحزبين حيثما يأتيهم العذاب المعد لهم وهم في غفلة منه، وهذا كالتفسير لمكر الله تعالى بهم، واللام تدل على أن المراد بالعقبى العاقبة المحمودة. مع ما في الإضافة إلى الدار كما عرفت".

قال السعدي: " أي: ألهم أو لرسله؟ ومن المعلوم أن العاقبة للمتقين لا للكفر وأعماله".

وقرئ: «وَسَيَعْلَمُ الكَافِرُ»، على التوحيد.

قال الرياشي: "كتب طاغية الروم إلى المعتصم يتهدده، فأمر بجوابه، فلما عرض

=

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣).

{وَيَقُول الَّذِينَ كَفَرُوا} لَك {لَسْت مُرْسَلًا قُلْ} لَهُمْ {كَفَى بِاَللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنكُمْ} عَلَى صِدْقِي {وَمَنْ عِنْده عِلْم الْكِتَاب} مِنْ مُؤْمِنِي اليهود والنصارى[1].

=

عليه رماه، وقال للكاتب: اكتب: أما بعد، فقد قرأت كتابك، وسمعت خطابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع {وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار}".

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه؛ قال: قد أنزل الله فيّ القرآن: {قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١١٨) من طريقين عن عبد الملك بن عمير عن محمد بن يوسف بن عبد الله بن سلام قال: قال عبد الله. وهذا إسناد ضعيف؛ لأن محمدًا ذا لم يدرك جده، ولم يسمع منه، ولم يذكروا في ترجمته أنه روى عنه، ثم إنه لم يوثقه إلا ابن حبان، ولخصه الحافظ بقوله: "مقبول".

وعن جندب رضي الله عنه؛ قال: جاء عبد الله بن سلام رضي الله عنه حتى أخذ بعضادتي باب المسجد، ثم قال: أنشدكم الله، أتعلموني أني أنا الذي أنزلت فيه: {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}؟ قالوا: اللهمّ نعم.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٦٦٨)؛ وقال: وأخرج ابن مردويه من طريق عبد الملك بن عمير عن جندب به. وعبد الملك لم يدرك جندب؛ فهو ضعيف.

وعن عبد الله بن سلام رضي الله عنه: أنه لقي الذين أرادوا قتل عثمان رضي الله عنه فناشدهم بالله

=

=

فيمن تعلمون؛ نزل: {قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}، قالوا: فيك.

نسبه السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٦٦٨) لابن مردويه من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم عن أبيه عن عبد الله. وعبد الرحمن هذا متروك.

وعن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما؛ قال: قدم على رسول الله ﷺ أسقف من اليمن، فقال له رسول الله ﷺ: "هل تجدني في الإنجيل رسولًا؟ "، قال: لا؛ فأنزل الله: {قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}، يقول: عبد الله بن سلام.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٤/ ٦٦٧، ٦٦٨) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا} [الرعد: ٤٣]، أي:"ويقول الذين كفروا لنبي الله: -يا محمد- ما أرسلك الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ويقول الذين كفروا بالله من قومك يا محمد لست مرسلا! تكذيبا منهم لك، وجحودًا لنبوّتك".

قوله تعالى: {قُلْ كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [الرعد: ٤٣]، أي:"قل لهم: كفى بالله شهيدًا بصدقي وكذبكم".

قال الطبري:"فقل لهم إذا قالوا ذلك: حَسْبي الله شاهدًا عليّ وعليكم، بصدقي وكذبكم".

قال السعدي: " {قل} لهم -إن طلبوا على ذلك شهيدا: {كفى بالله شهيدا بيني وبينكم} وشهادته بقوله وفعله وإقراره:

- أما قوله فبما أوحاه الله إلى أصدق خلقه مما يثبت به رسالته.

- وأما فعله فلأن الله تعالى أيد رسوله ونصره نصرا خارجا عن قدرته وقدرة أصحابه وأتباعه وهذا شهادة منه له بالفعل والتأييد.

=

=

- وأما إقراره، فإنه أخبر الرسول عنه أنه رسوله، وأنه أمر الناس باتباعه، فمن اتبعه فله رضوان الله وكرامته، ومن لم يتبعه فله النار والسخط وحل له ماله ودمه والله يقره على ذلك، فلو تقول عليه بعض الأقاويل لعاجله بالعقوبة".

وقال الشيخ ابن عثيمين: وقد شهد الله لنبيه ﷺ بأنه رسوله حقا بشهادتين: شهادة قولية، وشهادة فعلية.

أما الشهادة القولية: ففي قوله تعالى (لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا).

وأما الشهادة الفعلية: فهي تمكينه من إبلاغ الرسالة، ونصره على أعدائه.

وقال الخازن: لمراد بشهادة الله على نبوة محمد ﷺ ما أظهر على يديه من المعجزات الباهرات والآيات القاهرات الدالة على صدقه، وكونه نبيا مرسلا من عند الله.

قوله تعالى: {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} [الرعد: ٤٣]، أي:"وكَفَتْ شهادة مَن عنده علم الكتاب من اليهود والنصارى ممن آمن برسالتي، وما جئتُ به من عند الله".

وفي قوله تعالى: {وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ} [الرعد: ٤٣]، وجوه:

أحدها: أنهم أهل الكتاب من اليهود والنَّصارَى. قاله ابن عباس.

وقال قتادة:"أناس من أهل الكتاب كانوا يشهدون بالحقّ ويقرُّون به، ويعلمون أن محمدًا رسول الله، كما يُحدَّث أن منهم عبد الله بن سَلام".

الثاني: أنه عبد الله بن سلام. قاله مجاهد، وقتادة.

الثالث: كان منهم: عبدُ الله بن سَلام، وسَلْمَان الفارسي، وتميمٌ الدَّاريّ، قاله قتادة.

الرابع: أنه جبريل، قاله سعيد بن جبير.

الخامس: أنه رجل من الإنس، ولم يُسمّه. قاله أبو صالح.

السادس: هو الله تعالى، قاله الحسن، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك،

=

=

وهارون.

عن أبي بشر قال: "قلت لسعيد بن جبير: «وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ»، أهو عبد الله بن سَلام؟ قال: هذه السورة مكية، فكيف يكون عبد الله بن سلام! قال: وكان يقرؤها: «وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ»، يقول: مِنْ عند الله".

قال الماوردي:"وكانوا يقرأون «وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ»، أي: من عِنْد الله علم الكتاب، وينكرون على من قال هو عبد الله بن سلام وسلمان، لأنهم يرون السورة مكية، وهؤلاء أسلموا بالمدينة".

روي عن ابن عباس، انه قرأ: «وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ»، يقول: مِنْ عند الله عُلِمَ الكتاب".

قال ابن جرير الطبري:"وقد رُوي عن رسول الله ﷺ خبرٌ بتصحيح هذه القراءة وهذا التأويل، غير أنّ في إسناده نظرًا، وذلك ما حدثنا القاسم... عن سالم بن عبد الله، عن أبيه، عن النبي ﷺ أنه قرأ: (وَمِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الكِتَابُ)، عند الله عُلِم الكتاب».

قال الطبري: وهذا خبرٌ ليس له أصلٌ عند الثِّقات من أصحاب الزهريّ فإذْ كان ذلك كذلك وكانت قرأء الأمصار من أهل الحجاز والشأم والعراق على القراءة الأخرى، وهي: {ومن عنده علم الكتاب}، كان التأويل الذي على المعنى الذي عليه قرأة الأمصار أولى بالصواب ممّا خالفه، إذ كانت القراءة بما هم عليه مجمعون أحقَّ بالصواب".

قال السعدي: قوله" {ومن عنده علم الكتاب} وهذا شامل لكل علماء أهل الكتابين، فإنهم يشهدون للرسول من آمن واتبع الحق، صرح بتلك الشهادة التي عليه، ومن كتم ذلك فإخبار الله عنه أن عنده شهادة أبلغ من خبره، ولو لم يكن عنده شهادة لرد استشهاده بالبرهان، فسكوته يدل على أن عنده شهادة مكتومة،

=

=

وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم ومعرفتهم".

قال ابن كثير: قيل: نزلت في عبد الله بن سلام، قال مجاهد، وهذا القول غريب، لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة، والأظهر في هذا ما قاله العوفي عن ابن عباس قال: هم من اليهود والنصارى.

ثم قال:.... والصحيح في هذا أن ومن عنده اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء به.

كما قال تعالى (ورحمتي وسعت كل شيء فسأكتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة والذين هم بآياتنا يؤمنون الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل).

وقال تعالى (أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل).

وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.

وقال الشنقيطي: الظاهر أن قوله ومن عنده علم الكتاب عطف على لفظ الجلالة وأن المراد به أهل العلم بالتوراة والإنجيل، ويدل له قوله تعالى (شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم) وقوله (فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك) وقوله (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون الآية، إلى غير ذلك من الآيات.

قال السعدي: وإنما أمر الله باستشهاد أهل الكتاب لأنهم أهل هذا الشأن، وكل أمر إنما يستشهد فيه أهله ومن هم أعلم به من غيرهم، بخلاف من هو أجنبي عنه، كالأميين من مشركي العرب وغيرهم، فلا فائدة في استشهادهم لعدم خبرتهم

=

=

ومعرفتهم والله أعلم.

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها: غ - قوله تعالى: (المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) (الرعد: ١)، هنا سؤالان: أحدهما، أن السور الخمس المكتنفة لهذه افتتحت بقوله تعالى: (آلَرَ) وخصت سورة الرعد وهي سادستها بزيادة الميم (فقيل آلمر)، وللسائل أن يسأل عن ذلك؟ والسؤال الثاني قوله تعالى: (وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) (الرعد: ١)، وعطف هذه الجملة على ما قبلها يقتضي أن المعطوف مغاير لما عطف عليه وإلا لزم منه عطف الشيء على نفسه؟

والجواب عن الأول، والله أعلم: وإن كان مفهوماً مما تقدم فلهذا الوارد هنا ما يخصه وهو أن السورتين المكتنفتين لهذه السورة وهما سورة يوسف وسورة إبراهيم لم يرد فيهما من الكلم المجتمع في تركيبها الألف واللام والميم والراء (ما ورد) في سورة الرعد، أما سورة يوسف ففيها من ذلك كلمة: (الأمر) في قوله تعالى: (قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ) (يوسف: ٤١)، ولفظ: (المجرمين) في قوله تعالى: (وَلَا يُرَدُّ بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ) (يوسف: ١١٠)، وأما سورة إبراهيم ففيها قوله تعالى: (لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ) (إبراهيم: ٢٢)، وقوله: (مِنَ الثَّمَرَاتِ) (إبراهيم: ٣٢)، وقوله: (وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) (إبراهيم: ٣٣)، وقوله: (عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ) (إبراهيم: ٣٧)، وقوله: (وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ) (إبراهيم: ٤٩)، فهذه خمس كلمات. وأما سورة الرعد فقد (ورد) فيها من ذلك قوله تعالى: (وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ) (الرعد: ٢)، وقوله: (يُدَبِّرُ الْأَمْرَ) (الرعد: ٢)، وقوله: (مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ) (الرعد: ٣)، وقوله: (وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ) (الرعد: ٨)، وقوله: (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ) (الرعد: ٣٠)، وقوله: (فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا) (الرعد: ٤٢)، فهذه ست كلمات من هذا التركيب لم ترد في مكتنفيها، فلزيادة ما ورد فيها

=

=

مـــن هـــذا التركيـــب ورد في مطلعهـــا مـــا ورد مـــن زيـــادة المـــيم، والله أعلـــم. والجواب عن السؤال الثاني: بعد تمهيد، وهو أنا إن قلنا: إن المراد بالمعطوف الكتاب بجملته، (والكتاب بجملته) هو المنزل، كان من عطف الشيء على نفسه، وإن قلنا: إن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل أو أحد الكتابين ففي هذا من البعد ما لا خفاء به، إذ لم نتعبد من هذه الكتب إلا بالإيمان، فإنزالها ووجودها على الجملة على ما تقرر في شريعتنا، فكيف تقع الإحالة في الاعتبار عليهما ولم نؤمر باعتبارهما في حكم ولا أمر ولا نهي، وإن قلنا إن المراد بآيات الكتاب آيات السورة، وبالكتاب السورة، وبالذي أنزل إليك سائر القرآن، كما قال الزمخشري كان أقرب، وفيه نحو تحريم على المقصود من غير إفصاح مخلص، فأقول ونسأل الله توفيقه: إن الدلائل الاعتبارية على تفاصيلها منحصرة في منهجين بهما حصول التوحيد وإثبات الرسالة، وعلى مضمن تفاصيلها منحصرة في منهجين بهما حصول التوحيد وإثبات الرسالة، وعلى مضمن تفاصيلها دارت الآي الاعتبارية والتذكير في كتاب الله تعالى: أحدهما، ما يدرك بالحواس، وإطالة التفكير في الموجودات وارتباطها، ولحظ الابتداءات والانتهاءات، وتقلب الأكوان، (واختلاف الألسنة والألوان، وحركات الأفلاك وكواكبها الثابتة والسيارة)، واختلاف حركاتها في السرعة والبطء، وخنوس الخمسة منها ومطارح شعاعها، ومقادير الأزمان، وتقلب النهار والليل بالطول والقصر، وإيلاج الليل في النهار والنهار في الليل، وتعاقب الفصول بالحر والبرد، وتسخير الرياح، وما في ذلك كله من عليّ الإحكام وجليل الإتقان، إلى ما يرجع إلى ذلك مما تستقل به العقول وتجزم بدلالته، والمنهج الثاني: ما يرجع الاعتبار به إلى المأثور من أحوال الأمم والقرون المتقدمة، ودعاء الرسل إياهم وما كان من أخذ تكذيبهم حين تمردوا وعتوا، فكر أخذ بذنبه، ونجاة المؤمنين من كل أمة. فعلى هذين المنهجين دارت

=

=

آي الكتاب العزيز المنطوية على تذكير العباد وتحريكهم للاعتبار، فمن الأولى قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) (البقرة: ٢١) إلى قوله (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (البقرة: ٢٢)، وقوله تعالى: (إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ) إلى قوله (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (البقرة: ١٦٤)، وقوله: (إِنَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الجاثية: ٣)، وقوله تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ * وَفِي أَنْفُسِكُمْ) (الذاريات: ٢٠ – ٢١)، إلى ما يجاري هذه الآي مما يشير إلى دلائل الآفاق ودلائل الأنفس وما يرجع إلى ذلك من دلائل التوحيد والتذكير به، فالربع الأول من القرآن أكثر، ثم يليه في ذلك الربع الثاني، كما يكثر التذكير في الثاني (بما ورد في المنهج الثاني)، وإنما ذلك – والله أعلم – لأن الضرب الأول معقول ومستنده ضروري لأن مباديه حسية وبه اعتبر من انتهى إلى علم من الأوائل ممن كان في الفترات، فمنهم المصيب والمخطيء، وهو معتبر منصوب للعالم من لدن وجودهم إلى قيام الساعة، لا يضطر فيه إلى نقل ناقل ولا الاعتبار به من حيث الدلائل يتنزل النظر في آيات الرسل وما جاؤوا به متحدين، وتعرف الخارق للعادة من غيره، فلهذا – والله أعلم – تقرر هذا الضرب مبدوءاً به في الترتيب الثابت عليه المصحف وأتبع بالضرب الآخر على مقتضى الاعتبار، فمن عرف الجائز والمستحيل أمكنة الاعتراف بالبدأة والعودة، وإرسال الرسل، والثواب والعقاب، فيحصل العقل الجواز ويحصل التصديق بوقوع هذا الجائز من أخبار الرسل بالنظر في معجزاتهم، فبدئ بالضرب الأول بمقتضى الترتيب كما بينا، ولم يقع في الربع الأول من القرآن بسط اعتبار بالضرب الثاني بالإخباري، إنما أمعن بذكره في الربع الثاني وبسط الأخبار عن القرون المهلكة والأمم السالفة مع أنبيائهم وما أعقبهم التكذيب وأخذ كل قرن من المكذبين بما أخذ به، ولم ينقطع التنبيه والتحريك مع

=

=

ذلك بما في الضرب الأول وما يرجع إليه.
ثم قد تجد السورة الواحدة مجرد لهذا الضرب كسورة الرعد، وللضرب الثاني كسورة الأعراف وسورة يوسف، عليه السلام، وقد تجمع السورة الضربين على السواء أو ما يقاربه كما في سورة الحجر، وأما سورة البقرة فقد تضمنت من كل (من) الضربين ما فيه شفاء على إجمال فيما أشير إليه من الضرب الثاني، إذ هذا الضرب إنما استوفى تفصيله في الربع الثاني.
ثم إن الضرب الأول وهو الذي يدرك بالعيان من آيات (اللوح) المحفوظ المتضمن لكل من الضربين، قال تعالى: (كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (هود: ٦)، وإذا قلنا إن الإشارة إلأى اللوح إنما يريد ما يستدل به ويعتبر مما نصب تعالى من الآيات الدالة على عجائب من مضمناته، إذ لولا نصب تلك الدلائل ووضوح الاعتبار بها لما أطلعنا عليه، وبلغ بحسب ما قدر الوصول إليه من مضمنه، إذ هو محتو على كل شيء، قال تعالى: (وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) (النمل: ٧٥)، وتتباين أحوال المعتبرين، فعلى هذا يفهم المراد من قولنا: (إن الإشارة بقوله): (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) إلى اللوح المحفوظ، وهو مراد من قال بذلك في سورة البقرة من المفسرين وسورة النمل، ومن قال به أيضاً في سورة الرعد وهو الظاهر فيها، وقوله: (وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) (الرعد: ١)، إشارة إلى الضرب الثاني وهو ما طريق تعرفه الخبر الصادق وذلك أخبار الأمم مع أنبيائهم على ما تقدم وما نبينه بعد، وهذا الضرب موصل أيضاً إلى المقصود، إلا أنه لا يوصل إليه إلا من جهة الخبر وإن كان من مضمن ما في اللوح المحفوظ، وإذا وضح هذا التفصيل لم يبق إشكال في فهم ما تقدم من أن الإشارة بقوله: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) إلى غير ما أشير مما عطف عليه من قوله: (وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) وقوله في الحجر: (وَقُرْآنٍ مُبِينٍ) (الحجر: ١)، وكذلك الوارد في

=

=

النمل وإن خالف في التقديم والتأخير لقوله فيها: (تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ) (النمل: ١)، فقدم هذا الإشارة إلى الضرب المؤخر في السورتين قبل، ويشهد لهذا ويوضحه رعي التقابل المناسب في هذه السور وبناء النظم وبيانه على ذلك، ألا ترى أن سورة الرعد لم تنطو من الضرب الثاني على قصة واحدة، وإنما دارت آيها الاعتبارية على ما به الاعتبار من الضرب (الأول خاصة، وسنعود إلى بيان ذلك بإيراد آيها، وإنما لم يذكر فيها شيء من الضرب) الثاني لأن بناء السورة إنما هو على الضرب الأول، ولهذا لم يشترك المعطوفان في اسم الإشارة إلا أن قوله تعالى: (وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ) (الرعد: ١) جملة مستقلة، وقد وقع الموصول فيها وهو الذي مبتدأ خبره الحق، وما بينها صلة، والجملة معطوفة على الجملة قبلها، وكل واحدة منهما مستقلةن ولا تسلط لاسم الإشارة على الجملة الثانية.

أما قوله في سورة الحجر: (تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ) (الحجر: ١) معطوف على الكتاب المضاف إلى الخبر عن اسم الإشارة وهو آيات وداخل تحت اسم الإراة، وهو من عطف المفردات وما عطف المفردات وما عطف عليه وشرك معه بخلاف آية الرعد إذا العطف فها من عطف الجمل.

وأما الوارد في سورة النمل فمثل ما في سورة الحجر، وحكم اسم الإشارة منسحب على ما أضيف إليه خبر اسم الإشارة وما عطف (عليه)، وهو من عطف المفرادت أيضاً كآية الحجر، وكلا الآيتين مخالف لما ورد في سورة الرعد، فلما وقعت الإشارة في سورةتي الحجر والنمل إلأى الضربين معاً تضمنت كل واحدة من السورتين مما به الاعتبار ذكر الضربين معاً، ولما اختصت الإشارة في سورة الرعد بالضرب الأول لم يقع إخبار بغير ذلك الضرب، وهذا يرفع كل إشكال فيما تقدم، ومما يزيد وضوحاً فيما تقدم أن سورة الحجر لما قدم فيها ذكر الكتاب قدم فيها

=

=

من الضربين الضرب المعتبر من آيات اللوح المحفوظ، فقال تعالى: (وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ) (الحجر: ١٦) إلى قوله: (وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ) (الحجر: ٢٢) الآية، ثم بعد ذلك ذكر مما به الاعتبار من الضرب الثاني في قوله تعالى: (وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ) (الحجر: ٥١) إلى قوله: (فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (الحجر: ٨٤)، فتأخر ما ورد في هذه السورة من هذا الضرب ليطابق تأخر ذكره في قوله: (وَقُرْآنٍ مُبِينٍ). ولما تقدم في سورة النمل من الاسمين المضاف إليهما خبر اسم الإشارة القرآن وتأخر الكتاب فقال تعالى: (تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ) (النمل: ١) قوبل بتقديم الضرب المشار إليه أولاً، فقال تعالى: (وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ (٦) إِذْ قَالَ مُوسَى لِأَهْلِهِ) (النمل: ٦ - ٧). وذكر من القصة مجملا ما إذا اعتبر وفي بأتم ما يحصل المعتبر به على أعلى مقصود موف بخلاصة وذلك إلى قوله: (فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِينَ) (النمل: ١٤)، ثم أتبع بقصة داود وسليمان وما استجر ذلك من قصة بلقيس وما تلاها، ثم أعقب بعد بالضرب الآخر، فقال تعالى: (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (النمل: ٦٠) إلى قوله: (بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ) (النمل: ٦٦). ولما لم يقع في سورة الرعد الضرب الأول - كما تقدم - لم يرد فيها من آي الاعتبار إلا ما هو منه، ولم يقع في السورة غير ذلك، فقد بان بحول الله ما اعتمد جواباً عن السؤال الثاني، ووضح التناسب وجلالة النظم، (ومع وضوحه لم أقف على من استقرأه من هذه السورة منا بينته، ولا توقف فيه والحمد لله على ما ألهم إليه من ذلك). ثم أعلم بعد أن ما اعتمدناه من هذا المأخذ لم ينفرد فيه إذا حقق بغير التمهيد وإيراد النظائر وبيان ما أجمله غير واحد ممن تقدم من المفسرين على اختلاف ترجمتهم عما تضمنه، فمنها القريب ومنها البعيد، وكل منها: إذا أمعن فيه النظر ربما أدى إلى ما تقرر، ولم أنفرد عنهم إلآ بتوجيه النظر على ما اعتمدته، وإظهار

=

=

المناسبة، وإبداء شواهد ونظائر لما اعتمد. فمن ذلك ما تردد للمفسرين من قوله تعالى: في سورة البقرة: (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) (البقرة: ٢) (من) مأثور ما حكوه عن من تقدمهم من أن الإشارة إلى اللوح المحفوظ، وذكر ذلك ابن عطية وغيره من غير تعرض لزيادة، ونسبوا ذلك إلى ابن جبير، وقال بعضهم في قوله تعالى في سورة النمل: (تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ) (النمل: ١)، قال: المراد بقوله: (وَكِتَابٍ مُبِينٍ) (النمل: ١) اللوح المحفوظ وذكره الزمخشري، ولا شك أن هنا إيماء (إلى) ما تقدم بسطه، وزاد الزمخشري على هذا ما ذكره في سورة الرعد من أن المراد (بآيات الكتاب العزيز) آيات السورة، (والذي أنزل إليك) سائر القرآن، وهو نحو ما قلناه، ألا ترى أن آيات السورة لم تخرج عن الضرب الاعتباري المدرك لكل ذي عقل سليم على ما تقدم وما نبنية بعد، وتلك آيات اللوح وأم الكتاب، فهذا ما قلناه وقد أطنبنا فيه (من) الوارد في سورتي الحجر والنمل ما شهد بأنه المقصود قطعـًا. وقال بعضهم في قوله تعالى في سورة البقرة: (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ) أنه واقع على القرآن وعلى الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ، ثم قال بعد مستدلا: ذلك إشارة إلى غائب، يعني أن ذلك إنما يشار به إلى البعيد الغائب، ولو ضوح إدراكه صحت الإشارة إليه، ثم قال بعد واسم الكتاب غيب ولذلك حسن فيه ذلك، ثم استدل على أن الإشارة إلى اسم الكتاب الذي هو اللوح المحفوظ في القرآن الحاضر المتلو على ألسنتنا قد ارتاب فيه من لم يرد الله هدايته فقالوا سحر وشعر وأساطير الأولين، وذهبوا به كل مذهب. واسم الكتاب يعني بما بدا منصوبـًا وظهر ليس كذلك، فهذا الذي لا ريب فيه إذ هو مشاهد للأبصار ومدرك للعيان لمن هدي واستبصر، قال الله جل جلاله: (المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ) (الرعد: ١)، ثم قال: (وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) (الرعد: ١)، قال: ثم جعل جل جلاله يسرد آيات التاب) المبين فقال:

=

=

(اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ) (الرعد: ٢) إلى قوله: (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد: ٤)، قلت: على هذا استمرت وتوالت آيات هذه السور لم يتخللها من غير ما هو آية منصوبة للاعتبار إلا ما استدعاه مقصود آي منها أو معناها، من غير أن يتخللها مما يدرك بالخبر كبير شيء، على هذا دار كلام من أشرنا إليه وهو ما اعتمدته وبسطته واستشهدت عليه ونظرته بما ظهر لي مماليس في كلامه. قلت ومما استشهد به من ذكرت كلامه على ما اختاره من كون الإشارة بقوله في مطلع سورة البقرة: (ذَلِكَ الْكِتَابُ) إلى اللوح المحفوظ، استحكام تنزيل ما بعده عليه، ووضوح النظم وبيانه على ذلك، ألا ترى قوله تعالى: (هُدًى لِلْمُتَّقِينَ * الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) (البقرة: ٢ – ٣) أي بما غاب عنهم من مضمون اسم الكتاب استدلالاً بما يدل من آيته على ما غاب، فقبلوا ما أخبر الله به على ألسنة رسله مما لا يدرك مشاهداً استدلالاً بما أدركوه وشهادته لما أخبروا به فآمنوا بالله ورسله، واعتقدوا من صفاته سبحانه ما هو عليه، ونزهوه هما لا يليق به تعالى، وصدقوا ما أخبرت به الرسل من كل غائب عنهم متلقى من إخباره سبحانه، فبنوا ذلك على اهتدائهم الأول ومعتبرهم المشاهد المرئي حين وفقوا للاعتبار فآمنوا بالغيب كما أخبر تعالى عنهم، ثم قال تعالى: (الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) (البقرة: ٤)، والمراد بهذا (المنزل) القرآن، وقوله: (وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ) (البقرة: ٤) أي من الكتب المنزلة كاتوراة والإنجيل، وقال في الجميع: (أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) (البقرة: ٥). فتأمل بيان النظم على هذا فإنه أوضح شيء.

قلت: ومن البين أن (مدار هذا الجواب بجملته إنما بناؤه على أن اسم الكتاب في سروة البقرة أو حيق وقع) من فواتح هذه السور وأشير إلأه بذلك أو تلك أو وقع

=

=

في غير الفواتح فيصح أن يراد به فيها أو في بعضها اللوح المحفوظ، وأن تكون الإشارة إلأيه إذا شهد له السياق ووضح عليه النظم، فإذا سلم هذا فما بنيناه عليه أوضح شيء، ولا يمكن إلا تسليمه إذ لا معارض يمنع من عقل ولا نقل، وإن اعترض معترض بالمنع فقد خالف جميع المفسرين ممن تقدم أو تأخر، وخالف ما يعترف كل ذي عقل سليم بإمكانه، وقد تبين تنزيل النظم عليه على أكمل تلاؤم، والله أعلم بما أراد.

الآية الثانية من سورة الرعد قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) (الرعد: ٣)، ثم قال تعالى: (وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) (الرعد: ٤)، للسائل أن يسأل عن وقله في الأولى: (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وفي الثانية: (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) وهل كان يصح ورود الأول مكان الثاني والثاني مكان الأول؟

والجواب: أن معتبرات الآية الأولى من مد الأرض (وما ذكر) بعد ذلك أوضح للاعتبار، ومعتبرات الثانية أغمض، ألا ترى أن تجاوز قطع الأرض وتقاربها في الصفات والهيئات من سهل وحزن، ثم تخرج أنواع الجنات من النخل والأعناب وضروب الأشجار والنبات والزرع، واختلاف الطعوم في ثمراتها والألواح والروائح، وتفاوت الطيب والمنافع الحاصلة عن ذلك من غذاء ودواء نافع وضار مع تقارب الأرض وتجاورها وتشاكلها وسقيها بماء واحد كما قال الله تعالى: (يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ)، وهذا مما تنقطع الأفكار وتقصر العقول عن عجيب الصنع الرباني فيه، وأما معتبرات الأولى فيتوصل بالفكر إلى الحصول على الاعتبار بها وتعقلها وعجيب الحكمة فيها، وغموض ما

=

=

في الثانية بادولا يتوصل إلى بعض ذلك إلا بعد طول الاعتبار والتأييد منه سبحانه والتوفيق، فلما كان العقل أشرف وأعلى ناسبه ان يتبع به ما هو أغمض وأخفى، وناسب الفكر ما هو أظهر وأجلى، فقيل في عقب الآية الأولى: (لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وفي عقد الآية الثانية: (لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ) ولو ورد العكس لم يكن ليناسب، والله (سبحانه) أعلم.

الآية الثالثة من سورة الرعد قوله تعالى: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا) (الرعد: ١٥)، وفي سورة النحل: (وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ) (النحل: ٤٩) فيها سؤلان: خصوص آية الرعد ((بمن)) وآية النحل ((بما))، وزيادة قوله: ((والملائكة)) ولم يرد ذلك في سورة الرعد؟

والجواب عن الأول: أن ورود ((من)) في سورة الرعد لا سؤال فيه، فإن قبول الأوامر وامتثال الطاعات بالقصد والاختيار بمشيئة الله سبحانه إنما يكون من أصحاب العقول وهو الملائكة والإنس والجن، وهم المقصودون في الآية، فوردت ((بمن)) الواقعة على العقلاء، لهذا قيل: ((طوعاً وكرهاً)) لأن ذلك إنما (يكون) ويستوضح من العاقل، فالآية واردة على ما ينبغي. وأما آية النحل فمراعي فيها لفظ ((دابة)) الوارد فهيا إذ هو عام للعاقل وغيره، فوردت الآية ((بما)) الواقعة على الأنواع والأجناس مناسبة لما تقدم من الإطلاق والعموم. والجواب عن السؤال الثاني: أن قوله تعالى في آية النحل: ((والملائكة)) تخصيص لهم لجليل حالهم، فعينوا بالذكر مع دخولهم في العموم المتقدم، وهذا كقوله تعالى: (وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) (البقرة: ٩٨) مع دخولهما تحت لفظ الملائكة. ثم أكد الوارد في آية النحل ما ورد فيها من لفظ دابة. فإن قلت: لِمَ لَمْ يخصصوا بالذكر في آية الرعد؟ قلت: لأنه لم يقع هناك لفظ دابة

=

=

الـذي هـو الموجـب لتعيين الملائكـة وتخصيـصهم بالـذك، فكـر علـى مـا يجـب ويناسـب، والله أعلـم.

الآية الرابعة من سورة الرعد قوله تعالى: (قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) (الرعـد: ١٦)، وفي سـورة الفرقان: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (الفرقان: ٣)، للسائل أن يسأل عن تقديم النفع على الضر في سورة الرعد وعكس ذلك في سورة الفرقـان؟

والجواب عن ذلك، والله أعلم: أن آية الفرقان قد عطف عليها بالواو المشركة في الإعـراب والمعنى قولـه تعـالى: (وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا)، وقـدم قبلها ما عطفت عليه بالواو أيضـًا وذلـك قولـه تعـالى: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (الفرقان: ٣)، فقد اتفقت هذه الجمل المعطوفات في انطواء كل جملة منها على متقابلين كالضدين، ففـي الأولـى عـدم الخلـق في قولـه: (لَا يَخْلُقُونَ) مقـابلاً للخلـق والحيـاة، وبنـى مجموعهـا علـى تـأخير أشـرف المتقابلين، ففي الأولى الإشارة إلى الخلق في قولـه تعـال: (وَهُمْ يُخْلَقُونَ)، وكـذا في الثانية الضر والنفع والنفع أشرف، وفي الثالثة المـوت والحيـاة والحيـاة أشـرف، فروعي تناسب الآي على ما أوضحنا، فقدم الضر على النفع في آية الفرقان.

أما آية الرعد فلم يعرض فيها ما يحمل على ما ذكر من التناسب فجاءت من حيث أفردت على ما يجب من تقديم النفع الذي هو مطلب العاقل، وكأن قـد قيـل فيهـا: إذا لم ينفعوا أنفسهم فكيف ينفعونكم؟ ثم أتبع بما يكمل به التعريف بحـال (مـن) اتخذوهم أولياء من أنها لا تضر ولا تنفع، فجاء كـل علـى مـا يجـب ويناسـب، ولا يمكـن خلافـه.

=

=

فإن قلت: إذا كان تقديم النفع - كما في سورة الرعد - وارداً على ما يجب من (حيث) هو الذي تطلبه نفوس العقلاء فلم بنيت تلك (الجمل) المعطوفات في آية سورة الفرقان على تأخير الأشرف في تلك المتقابلات حتى لزم أن يتقدم فيها الضر (قبل) النفع ليتناسب؟ وهلا كان بناؤها على عكس ذلك وكان يحسن التقابل (وورود النفع قبل الضر) كما في آية الرعد؟ قلت: لما تقدم قبل الجمل المذكورة في سورة الفرقان قوله سبحانه: (وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا) (الفرقان: ٢)، ناسب هذا من ذكر آلهتهم وصفها بأنها لا تخلق فقيل: (وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ) (الفرقان: ٣)، ليحصل من وصفه سبحانه بأنه خالق كل شيء وأن آلهتهم لا تخلق شيئًا ما أفصح به من توبيخهم وتقريعهم في قوله تعالى: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (النحل: ١٧)، وتناسب هذا أوضح تناسب وأبينه، ولا يمكن خلافه، ثم بني عليه ما بعده لتناسب ذلك كله، وحصل منه أن الوارد في كل من السورتين لا يمكن فيه العكس بوجه، ولابنا سبحانه أعلم بما أراد.

الآية الخامسة من سورة الرعد قوله تعالى: (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الرعد: ٢٦)، وفي سورة القصص: (وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا) (القصص: ٨٢)، وفي سورة العنكبوت: (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ إِنَّ اللهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (العنكبوت: ٦٢)، وفي سورة سبأ: (قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ) (سبأ: ٣٩)، وفي الشورى: (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ) (الشورى: ١٢)، للسائل أن يقول: إن هذه الآيات الخمس قد انطوت مطابقة على معنى واحد هو إخباره سبحانه بأنه المنفرد بالقبض والبسط، كما أنفرد بالخلق والأمر، فإذا

=

=

اجتمعت في هذا المعنى فما وجه انفراد آية القصص وآية سبأ بزيادة ما ورد فيهما من التخصيص في قوله: (مِنْ عِبَادِهِ) وقوله: ((له))؟ ولِمَ لَمْ يرد ذلك في السورة الأخرى؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية العنكبوت لما تقدم قبلها في قصة إبراهيم، عليه السلام، قوله لقومه: (إِنَّمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَوْثَانًا وَتَخْلُقُونَ إِفْكًا إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا فَابْتَغُوا عِنْدَ اللهِ الرِّزْقَ) (العنكبوت: ١٧)، ثم ضرب سبحانه مثلا لما عبد من دونه فقال: (مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ) (العنكبوت: ٤١)، ثم أنس عباده المؤمنين بقوله: (يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ) (العنكبوت: ٥٦)، ثم قال: (وَكَأَيِّنْ مِنْ دَابَّةٍ لَا تَحْمِلُ رِزْقَهَا اللهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ) (العنكبوت: ٦٠) فأخبر سبحانه أنه المنفرد برزق الكل كما انفرد بخلقهم، فناسب هذا قوله تعالى: (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ) (العنكبوت: ٦٢)، فخص بعد أن عم بقوله: (االلهُ يَرْزُقُهَا وَإِيَّاكُمْ) (العنكبوت: ٦٠) تشريفًا للمؤمنين ليستأنسوا بما يجري لهم من الضربين ويذكروه في حال القبض والبسط بالإضافة إضافة تشريف، ولما لم يتقدم في السور الأخرى مثل ما تقدم هنا بل فيها ما يفهم منه أن المؤمنين لم يقصد تخصيصهم بذلك الخطاب بوجه، ألا ترى قوله في (آية) الرعد: (وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (الرعد: ٢٦)، وليس (هذا) من شأن المؤمن، فإن الدنيا سجنه وإنما فرحه بربه وبما يرجوه منه في آخرته. وأما آية القصص (فمنصوص) فيها أن الذين تمنوا حال قارون ومكانه هم القائلون: (وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ) (القصص: ٨٢)، فإنما قالوه عالمين بأن الله سبحانه بسط (لقارون ما بسط) فعلموا أنه القابض والباسط وأنه لايمنع عن

=

=

أحد ما بسط له. وأما آية الشورى فقد تقدمها ما هو أبين (شيء) في تعميم المؤمن والكافر وذلك قوله تعالى: (لَهُ مَقَالِيدُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ) (الشورى: ١٢)، (فإذا كانت له مقاليد السماوات والأرض) فمن أين يُرزق المؤمن والكافر؟ ليس إلا من عنده، فلم يقصد في هذه الآية تخصيص المؤمن وتشريفه كما قصد في تلك، فلما اختلف القصد اختلف الوارد، فجاءت كل آية على ما يجب، ولا يمكن خلافه، والله أعلم.

الآية السادسة من سورة الرعد: غ - قوله تعالى: (فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) (الرعد: ٣٢)، وفي سورة الحج: (فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) (الحج: ٤٤) للسائل أن يسأل عن وجه تعقيب الأولى بقوله: (فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ) والثانية بقوله: (فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ) مع تساوي الآيتين (في) مقصود الوعيد لمكذبي الرسل، عليهم السلام؟

والجواب، والله أعلم: أن العقاب أشد موقعاً من النكيير لأن الإنكار يقع على ما لا عقاب فيه بالفعل وعلى ما فيه العقاب بالفعل، وأما مسمى العقاب فإنما يراد به في الغالب أخذ بعذاب مناسب لحال المجرم إثر معصيته وعقيب جريمته، وقد تقدم في آية الرعد قوله تعالى: (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) (الرعد: ٣٢)، والاستهزاء (أمر) مرتكب زائد على التكذيب من التهاون، والاستخفاف بجريمة مرتكبة أشنع جريمة، فناسبها الإفصاح بالعقاب. أما آية الحج فإن الوعيد (بها) للمذكورين بالتكذيب ولم يذكر منهم استهزاء، قال تعالى: (وَإِنْ يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ * وَقَوْمُ إِبْرَاهِيمَ وَقَوْمُ لُوطٍ * وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكُذِّبَ مُوسَى) (الحج: ٤٢ - ٤٤)، فلم يخبر عن هؤلاء بغير التكذيب ليس كالاستهزاء، فقد يؤمن المكذب ويصلح حاله، أما المستهزئ فلا يصلح، وقد كفى الله نبيه إياهم، قال تعالى: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) (الحجر: ٩٥)، فناسب

=

=

النظم تعقيب كل آية بما يناسب مرتكب من قدم، ولم يكن عكس الوارد ليناسب، والله أعلم.

الآية السابعة من سورة الرعد: غ - قوله تعالى: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) (الرعد: ٣٧)، وفي سورة طه: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) (طه: ١١٣)، والمراد بالمنزل في الموضعين واحد وهو القرآن ثم اختلف العبارة عنه في السورتين، للسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟

والجواب، والله أعلم: أن سورة الرعد لم يتقدم فيها شيء من القصص الإخبارية وإنما المتقدم فيها تفاصيل أحكام مرجعها بجملتها إلى اختلاف أحوال المكلفين جريًا على ما سبق من قضائه فيهم، وتفصيل أحوالهم بحسب ما قدره سبحانه في أزله وما حكم به عليهم كقوله سبحانه: (أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى) (الرعد: ١٩)، ثم بين تعالى حكم كل من الفريقين بعد وصفهم، ثم أعقب بمآل الفريقين فقال فيمن هداه فعلم: (جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا) (الرعد: ٢٣) إلى قوله: (فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ) (الرعد: ٢٤)، وأتبع بحال الآخرين الموصوفين بنقض عهده سبحانه، وأخبر بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار، وبين تعالى حكمه في بسط الرزق لمن يشاء (وقبضه عمن يشاء، فقال تعالى: (اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ) (الرعد: ٢٦)، وأعلم الله تعالى أنه يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب، ثم وصفهم بإيمانهم واطمئنان قلوبهم بذكره في قوله تعالى: (طُوبَى لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ) (الرعد: ٢٩)، ودارت الآي بعد على أن كل جار في خلقه فبتقديره، وتناسب ذلك إلى الآية، وكل ما تقدم فهو حكمه السابق في خلقه، فأعقب هذا بقوله: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا) (الرعد: ٣٧)، قال الزمخشري: حكمة عربية أي مترجمة بلسان العرب. ولما تقدم آية سورة طه قصص موسى، عليه السلام، وما جرى من فتنة قومه بعده بفعل السامري/ وما كان من قول

=

=

هارون، عليه السلام، وتذكيره إياهم، وقول بني إسرائيل (لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى) (طه: ٩١) إلى قوله: (ذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا) (طه: ٩٩)، والمراد به القرآن، ثم أتبع هذا بما يلائمه إلى قوله: (وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا) (طه: ١١٣) أي قصصاً مقروءاً بلسان العرب مذكراً من وفق لاعتباره والاتعاظ به: (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْرًا) (طه: ١١٣)، فناسب كل من العبارتين موضعه أتم مناسبة، ولم يكن العكس ليناسب، والله أعلم.

الآية الثامنة من سورة الرعد قوله تعالى: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً) (الرعد: ٣٨)، وفي سورة الروم: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ) (الروم: ٤٧) فقد ذكر الرسل على المجرور في سورة الرعد فقيل: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ)، وورد في سورة الروم بتقديم المجرور فقيل: (وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ)، فللسائل أن يسأل عن وجه ذلك؟ وما روعي فيه؟

والجواب عن ذلك: أن المتقرر في الكتاب العزيز أنه إذا ورد اسم نبينا محمد ﷺ مع غيره من الرسل، عليهم السلام، مفصحاً بأسمائهم في آية واحدة فإنه يتقدن اسمه ظاهراً كان أو مضمراً، ثم يذكر بعده من تضمنته الآية منهم، عليه السلام، كقوله تعال: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ) (النساء: ١٦٣)، وقوله تعالى: (وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ....) (الأحزاب: ٧) الآية، فإن قيل: فقد قدم هنا قبله قوله: (مِنَ النَّبِيِّينَ) قلت: المجموع جمع السلامة بالواو والنون رفعاً والياء والنون نصباً وجراً من ألفاظ العموم عند الأصوليين، فقوله: (مِنَ النَّبِيِّينَ) يعم نبينا ﷺ وغيره من النبيين، عليهم لسلام، (ثم) لما أفصح بمن ذكر في الآية من أولي العزم إشعاراً بتفضيلهم

=

=

على من سواهم بدئ به، عليه السلام، فقيل: (مِنْكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ) (الأحزاب: ٧).... الآية، ومثل هذا قوله تعالى: (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ) (البقرة: ٩٨) ثم قال: (وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ) وقد دخلا تحت عموم (وملائكته)، مع أن لفظ النبيين بالألف واللام أوضح في العموم إذ ليس المضاف في العموم كالمعرف بالألف واللام، فأقول: إنما قدم المجرور في قوله: (مِنْ قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَى قَوْمِهِمْ) (الروم: ٤٧) في سورة الروم لمكان ضميره ﷺ. أما آية الرعد فموازن لها ومناسب ما تقدمها من قوله تعالى: (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) (الرعد: ٣٢) فتأخر الضمير في الآيتين للموازنة والتقابل، والثانية منهما محمولة على الأولى في رعي ما ذكر.

فإن قلت: فلم تأخر ضميره ﷺ في الآية الأولى (عن ذكر الرسل)؟ قلت: لأن ذكرهم هنا، عليه السلام، لم يرد معرفاً بأحوالهم وما منحوا من الاصطفاء والتكريم، ولو ورد ذكرهم لهذا الغرض لكان اسمه، عليه السلام، متقدم الذكر كما في الآية الواردة بذلك، وإنما ذكر هنا إساءة مكذبي أممهم إليهم ونيلهم منهم ضروب المضرات، وليس ذلك مما يعرف بمناصبهم في التفضيل وإنما ذكر (ذلك) ليقاس بهم نبينا ﷺ في الصبر والتحمل، وليقتدي بهداهم كما أمر في قوله تعالى: (فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ) (الأحقاف: ٣٥)، ثم له ﷺ السيادة المعروفة والمكانة المتقررة، فتقدم ذكرهم في قوله (وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ) وتأخير ضميره ﷺ لما ذكر، ثم وردت الآية بعد فجري الإخبار فيها على ذلك إحرازاً للمناسبة والموازنة أيضاً فليس ذكرهم مجملاً غير مفصل كذكرهم على التعيين بأسمائهم، وقد تقد الإيماء إلى هذا، (والله سبحانه أعلم بما أراد). ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٢٧٢-٢٨٤).

سورة إبراهيم(١)

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

(١) اختلف أهل التفسير في وقت نزول السورة على أقوال:

أحدها: أنها مكية كلها. قاله ابن عباس، والزبير، والحسن، وعكرمة، وجابر، ومقاتل، وبه قال ابن قتيبة، وابن كثير، وابن الجوزي، والبيضاوي، وحكاه ابن عاشور عن الجمهور.

الثاني: أنها مكية إجماعا غير آية واحدة، وهي: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [إبراهيم: ٢٨]. به قال الفيروزآبادي.

والثاني: أنها مكية إلا آيتين منها، نزلتا في قتلى بدر من المشركين، وهما: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩)} [إبراهيم: ٢٨ - ٢٩]. قاله ابن عباس أيضا، وقتادة، وبه قال الثعلبي، وابن عطية، والزمخشري، والبغوي، والفخر الرازي.

الثالث: أنها مكية إلا ثلاث آيات منها، وهي: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨) جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩) وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠)} [إبراهيم: ٢٨ - ٣٠]. حكاه ابن عاشور، وقال: قيل:"نزل ذلك في المشركين في قضية بدر، وليس ذلك إلا توهما".

* عدد آياتها خمس وخمسون عند الشاميّين، واثنتان عند الكوفيّين، وأَربع عند الحجازيّين، وواحدة عند البصريّين، وكلماتها ثمانمائة وإِحدى وثلاثون. وحروفها ستَّة آلاف وأَربعمائة وأَربع وثلاثون.

والآيات المختلف فيها سبع: {إِلَى النُّورِ}، وعاد، وثمود، {بِخَلْقٍ جَدِيدٍ}، =

=

{وَفَرْعُهَا فِيْ السَّمَآءِ} {الليل والنهار} {عَمَّا يَعْمَلُ الظالمون}.
مجموع فواصل آياتها (آدم نظر، صبّ ذلّ).

* تسمى «سورة إبراهيم» هو الاسم الذي اشتهرت به السورة، ولا يعرف لها غيره.

قال ابن عاشور:"أضيفت هذه السورة إلى اسم «إبراهيم» - عليه السلام- فكان ذلك اسما لها لا يعرف لها غيره. ولم أقف على إطلاق هذا الاسم عليها في كلام النبيء- ﷺ- ولا في كلام أصحابه في خبر مقبول".

ووجه تسميتها بسورة «إبراهيم»، " لتضمنها قصة إسكانه ولده إسماعيل بواد غير ذى زرع، وشكره لله تعالى على ما أنعم عليه من الولدين: إسماعيل وإسحاق".

قال ابن عاشور:"ووجه تسميتها بهذا وإن كان ذكر «إبراهيم» - عليه السلام- جرى في كثير من السور أنها من السور ذوات «الر». وقد ميز بعضها عن بعض بالإضافة إلى أسماء الأنبياء- عليهم السلام- التي جاءت قصصهم فيها، أو إلى مكان بعثة بعضهم وهي سورة «الحجر»، ولذلك لم تضف سورة «الرعد» إلى مثل ذلك، لأنها متميزة بفاتحها بزيادة حرف «ميم» على «ألف ولام وراء»".

* مقصود السّورة: بيان حقيقة الإِيمان، وبرهان النبوّة، وأَن الله تعالى أَرسل كلّ رسول بلغة قومه، وذِكر الامتنان على بنى إِسرائيل بنجاتهم من فرعون، وأَنَّ القيام بشكر النّعم يوجِب المزيد، وكفرانها يوجب الزّوال، وذكر معاملة القرون الماضية مع الأَنبياءِ، والرّسل الغابرين، وأَمر الأَنبياءِ بالتَّوكُّل على الله عند تهديد الكفَّار إِيّاهم، وبيان مَذلَّة الكفَّار فى العذاب، والعقوبة، وبطلان أَعمالهم، وكمال إِذلالهم فى القيامة، وبيان جَزعهم من العقوبة، وإِلزام الحجّة عليهم، وإِحال إِبليس اللاَّئمة عليهم، وبيان سلامة أَهل الجنَّة، وكرامتهم، وتشبيه الإِيمان (والتَّوحيد بالشَّجرة الطَّيّبة وهى النخلة وتمثيل الكفر بالشَّجرة الخبيثة وَهى الحنطة وتثبيت أَهل

=

=

الإيمان) على كلمة الصّواب عند سؤال منكَر ونكير، والشكوى من الكفّار بكفران النِّعمة، وأَمر المؤمنين بإِقامة الصّلوات، والعبادات، وذكر المِنَّة على المؤمنين بالنِّعم السّابغات، ودعائه إِبراهيمُ بتأْمين الحَرَم المكِّى، وتسليمه إِسماعيل إِلى كرم الحَقِّ تعالى. ولطفه وشكره لله على إِعطائه الولد، والتهديد العظيم للظَّالمين بمذلَّتهم فى القيامة، وذِكْر أَن الكفار قُرناءُ الشياطين فى العذاب، والإِشارة إِلى أَنَّ القرآن أَبلغ وعظ، وذكرى للعقلاءِ فى قوله: {هاذا بَلاَغٌ لِّلنَّاسِ} إِلى آخر السّورة.

* المتشابهات: قوله: {فَلْيَتَوَكَّلِ المؤمنون} وبعده {فَلْيَتَوَكَّلِ المتوكلون} لأَنَّ الإِيمان سابق على التوكُّل.

قوله: {لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا على شَيْءٍ} والقياس على شئ ممّا كسبوا كما فى البقرة لأَنَّ على من صلة القدرة، ولأَن (مما كسبوا) صف لشئ. وإِنَّما قدم فى هذه السورة لأَن الكسب هو المقصود بالذكر، وأَنَّ المَثَل ضُرب للعمل، يدلّ عليه قوله: {أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشتدت بِهِ الريح فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا على شَيْءٍ}.

قوله: {وَأَنزَلَ مِنَ السمآء مَآءً} وفى النَّمل: {وَأَنزَلَ لَكُمْ مِّنَ السمآء} بزيادة (لكم)؛ لأَنَّ (لكم) فى هذه السّورة مذكور فى آخر الآية، فاكتُفِىَ بذكره، ولم يكن فى النَّمل فى آخرها، فذكر فى أَوّلها. وليس قوله: {مَا كَانَ لَكُمْ} يكفى من ذكره؛ لأَنَّه نفى لا يفيد معنى الأَوّل.

قوله: {فَي الأرض وَلاَ فِي السمآء} قدّم الأَرض؛ لأَنَّها خُلِقت قبل السّماءِ؛ ولأَنَّ هذا الدّاعى فى الأَرض. وقدّمت الأَرض فى خمسة مواضع: هنا، وفى آل عمران، ويونس، وطه، والعنكبوت.

قوله: {وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُوا الألباب} (خصّ أُولى الأَلباب) بالذكْر لأَنَّ المراد فى الآية التَّذكُّر، والتدبّر، والتَّفكُّر فى القرآن، وانَّما يتأَتّى ذلك منهم، مِثله فى البقرة {وَمَن

=

الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١).

{آلر} الله أعلم بمراده بذلك[٢]، هذا القرآن {كتاب أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْك} يَا مُحَمَّد {لِتُخْرِج النَّاس مِنَ الظُّلُمَات} الْكُفْر {إِلَى النُّور} الْإِيمَان {بِإِذْنِ} بِأَمْرِ {رَبّهمْ} وَيُبْدَل مِنْ إِلَى النُّور {إِلَى صِرَاط} طَرِيق {الْعَزِيز} الْغَالِب {الْحَمِيد} الْمَحْمُود.

اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢).

{الله} بِالْجَرِّ بَدَل أَوْ عَطْف بَيَان وَمَا بَعْده صِفَة وَالرَّفْع مُبْتَدَأ خَبَره {الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَات وَمَا فِي الْأَرْض} مُلْكًا وخلقا وعبيدا {وويل للكافرين من عذاب شديد}.

الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣).

=

يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً} يريد فَهْم معانى القرآن، ثمّ خَتَم الآية بقوله: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الألباب} ومثلها فى آل عمران {هُوَ الذي أَنزَلَ عَلَيْكَ الكتاب مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ} وذكر فيه المحكمات والمتشابهات، وختمها بقوله: {وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الألباب}، ولا رابع لها فى القرآن. بصائر ذوي التمييز (١/ ٢٦٨-٢٧١).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

{الَّذِينَ} نَعْت {يَسْتَحِبُّونَ} يَخْتَارُونَ {الْحَيَاة الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَة وَيَصُدُّونَ} النَّاس {عَنْ سَبِيل الله} دِين الْإِسْلَام {وَيَبْغُونَهَا} أَيْ السَّبِيل {عِوَجًا} مُعْوَجَّة {أُولَئِكَ فِي ضَلَال بَعِيد} عَنِ الْحَقّ(١).

---

(١) قوله تعالى: {كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ} [إبراهيم: ١].

أيْ: هذا كتاب أنزلنا إِلَيْكَ يَا مُحَمَّدُ، وَهُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي هُوَ أَشْرَفُ كِتَابٍ أَنْزَلَهُ اللهُ مِنَ السَّمَاءِ، عَلَى أَشْرَفِ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ فِي الْأَرْضِ إِلَى جَمِيعِ أَهْلِهَا عَرَبِهِمْ وَعَجَمِهِمْ.

قال الطبري:"معناه: هذا كتاب أنزلناه إليك، يا محمد، يعني: القرآن".

قال ابن كثير:"أي: هذا كتاب أنزلناه إليك يا محمد، وهو القرآن العظيم، الذي هو أشرف كتاب أنزله الله من السماء، على أشرف رسول بعثه الله في الأرض، إلى جميع أهلها عربهم وعجمهم".

قال الصابوني: أي:"لم تنشئْه أنت وإنما أوحيناه نحن إليك".

قوله تعالى: {لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [إبراهيم: ١]، أي:"لتُخرج به البشر من الضلال والغيِّ إلى الهدى والنور".

وفي هذا تنويه بشأن القرآن الكريم، وبيان للغرض السامي الذي أنزله الله تعالى من أجله.

والظلمات: جمع ظلمة، والمراد بها: الكفر والضلال، والمراد بالنور: الإيمان والهداية.

والمعنى: هذا كتاب جليل الشأن، عظيم القدر، أنزلناه إليك يا محمد، لكي تخرج الناس من ظلمات الكفر والجهالة والضلال، إلى نور الإيمان والعلم والهداية، وهذا الإخراج إنما هو بإذن ربهم ومشيئته وإرادته وأمره.

قال قتادة:"أي: من الضلالة إلى الهدى".

=

=

قال مقاتل:"يعني: من الشرك إلى الإيمان".

قال الطبري:"يقول: لتهديهم به من ظلمات الضلالة والكفرِ، إلى نور الإيمان وضيائه، وتُبصِّر به أهلَ الجهل والعمَى سُبُل الرَّشاد والهُدَى.. وأضاف تعالى ذكره إخراجَ الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربِّهم لهم بذلك، إلى نبيه ﷺ، وهو الهادي خَلْقَه، والموفقُ من أحبَّ منهم للإيمان، إذ كان منه دعاؤهم إليه، وتعريفهُم ما لهم فيه وعليهم. فبيّنٌ بذلك صِحة قولِ أهل الإثبات الذين أضافوا أفعال العباد إليهم كَسبًا، وإلى الله جل ثناؤه إنشاءً وتدبيرًا، وفسادُ قول أهل القَدر الذين أنكرُوا أن يكون لله في ذلك صُنْع".

قال ابن كثير:"أي: إنما بعثناك يا محمد بهذا الكتاب؛ لتخرج الناس مما هم فيه من الضلال والغي إلى الهدى والرشد، كما قال: {اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ} الآية [البقرة: ٢٥٧]، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي يُنزلُ عَلَى عَبْدِهِ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لِيُخْرِجَكُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [الحديد: ٩]".

قال ابن عطية:"أسند الإخراج إلى النبي ﷺ من حيث له فيه المشاركة بالدعاء والإنذار، وحقيقته إنما هي لله تعالى بالاختراع والهداية، وفي هذه اللفظة تشريف للنبي عليه السلام. وعم النَّاسَ إذ هو مبعوث إلى جميع الخلق، ثبت ذلك بآيات القرآن التي اقترن بها ما نقل تواترا من دعوته العالم كله، ومن بعثته إلى الأحمر والأسود علم الصحابة ذلك مشاهدة، ونقل عنهم تواترا، فعلم قطعا والحمد لله".

قال الرازي: الآية دالة على أن طرق الكفر والبدعة كثيرة وأن طريق الخير ليس إلا الواحد، لأنه تعالى قال (لِتُخْرِجَ الناس مِنَ الظلمات إِلَى النور) فعبر عن الجهل والكفر بالظلمات وهي صيغة جمع وعبر عن الإيمان والهداية بالنور وهو لفظ مفرد، وذلك يدل على أن طرق الجهل كثيرة، وأما طريق العلم والإيمان فليس إلا

=

=

الواحد.

قوله تعالى: {بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} [إبراهيم: ١].

أَيْ: هُوَ الْهَادِي لِمَنْ قَدَّرَ لَهُ الْهِدَايَةَ عَلَى يَدَيْ رَسُولِهِ الْمَبْعُوثِ عَنْ أَمْرِهِ يُهْدِيهِمْ.

وفي قوله سبحانه: بِإِذْنِ رَبِّهِمْ احتراس لبيان أن نقل الناس من حال إلى حال إنما هو بإرادة الله تعالى ومشيئته، وأن الرسول ما هو إلا مبلغ فقط، أما الهداية فمن الله وحده.

فالهداية بيد الله تبارك وتعالى.

والنبي ﷺ لم يستطع أن يهدي عمه أبو طالب.

والنبي ﷺ كان يقول ويعلم الصحابة (اللهم اهدني وسددني).

وفي الحديث (اللهم إنا نسألك الهدى والتقى....).

وفي الحديث (كلكم ضال إلا هديته فاستهدوني أهدكم).

قال مقاتل:"يعني: بأمر ربهم".

قال الطبري:"يعني: بتوفيق ربهم لهم بذلك ولطفه بهم".

قال ابن كثير:"أي: هو الهادي لمن قَدر له الهداية على يدي رسوله المبعوث عن أمره".

قوله تعالى: {إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ} [إبراهيم: ١]، أي:"لتهديهم إلى طريق الله الغالب المحمود في كل حال".

قال مقاتل:"يعني: إلى دين العزيز في ملكه، {الحميد} في أمره عند خلقه".

قال الطبري:"يعني: إلى طريق الله المستقيم، وهو دينه الذي ارتضاه، وشَرَعُه لخلقه".

قال ابن كثير:"يهديهم {إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ}، أي: العزيز الذي لا يمانع ولا يغالب، بل هو القاهر لكل ما سواه، {الحميد}، أي: المحمود في جميع أفعاله

=

=

وأقواله، وشرعه وأمره ونهيه، الصادق في خبره".

قال الشافعي رحمه الله: "فليست تنزل بأحد من أهل دين الله نازلة، إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها، قال الله تبارك وتعالى: {كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد}".

والعزيز: اسم من أسماء الله، وهو متضمن لصفة العزة الكاملة لله، وهي ثلاثة أنواع:

عزة القدْر: بمعنى أن الله ذو قدْر شريف عظيم، كما قال النبي ﷺ (السيد الله).

وعزة القهر: بمعنى أن الله القاهر لكل شيء، لا يُغلب، كما قال تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ).

وعزة الامتناع: بمعنى أنه يمتنع أن يناله أحد بسوء أو نقص.

-قال السعدي: (العزيز) الذي له العزة كلها: عزة القوة، وعزة الغلبة، وعزة الامتناع، فامتنع أن يناله أحد من المخلوقات، وقهر جميع الموجودات، ودانت له الخليقة وخضعت لعظمته.

(الْحَمِيدِ) أيِ: الْمَحْمُودُ فِي جَمِيعِ أَفْعَالِهِ وَأَقْوَالِهِ وَشَرْعِهِ وَأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ الصَّادِقُ فِي خَبَرِهِ.

- قال ابن عاشور: والحميد: بمعنى المحمود، لأن في إنزال هذا الكتاب نعمة عظيمة ترشد إلى حمده عليه.

فالحميد: اسم من أسماء الله.

قال ابن جرير: أي محمود عند خلقه بما أولاهم من نعمه، وبسط لهم من فضله.

- وقال الخطابي: الحميد: هو المحمود الذي استحق الحمد بأفعاله.

- وقال ابن كثير: أي: المحمود في جميع أفعاله وأقواله وقدره لا إله إلا هو ولا رب سواه.

=

=

- وقال السعدي: وأما الحميد فهو من أسماء الله تعالى الجليلة الدال على أنه [هو] المستحق لكل حمد ومحبة وثناء وإكرام، وذلك لما اتصف به من صفات الحمد، التي هي صفة الجمال والجلال، ولما أنعم به على خلقه من النِّعم الجزال، فهو المحمود على كل حال.

- وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: الصحيح أنها بمعنى المحمود والحامد، فالله سبحانه حامدٌ من يستحق الحمد، وما أكثر الثناء على من يستحقون الثناء في كتاب الله، وهو كذلك محمود على كمال صفاته، وتمام إنعامه.

هو المحمود على ذلك كله، كما قال تعالى (وَهُوَ اللهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الْأُولَى وَالْآخِرَةِ).

وقال تعالى (الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ).

- والله يحمد على كل شيء، ومن ذلك: أنه سبحانه وتعالى يحمد على نصر الرسل وإهلاك الكافرين، فإن بذلك تتبين آياته، وإكرامه لأوليائه، وإهانته لأعدائه، وصدق ما جاءت به المرسلون.

قال تعالى (فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ).

قوله تعالى: {اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ} [إبراهيم: ٢]، أي:"الله الذي له ما في السموات وما في الأرض، خلقًا وملكًا وتصرُّفًا".

قال الطبري:"اللهِ الذي يملك جميع ما في السماوات ومَا في الأرض، يقول لنبيه محمد ﷺ: أنزلنا إليك هذا الكتاب لتدعُوَ عِبادي إلى عِبَادة مَنْ هذه صفته، وَيَدعُوا عبادَةَ من لا يملك لهم ولا لنفسه ضَرًّا ولا نفعًا من الآلهة والأوثان".

قال الشوكاني: أي له التصرف في السموات والأرض بالإيجاد، والاختراع، ونفوذ الأمر في جميع مخلوقاته، فهو أعلم بمصالح عباده، وما فيه النفع لهم من أحكامه

=

=

التي تعبدهم بها، وشرعها لهم. وقد يختلف ذلك باختلاف الأحوال، والأزمنة، والأشخاص، وهذا صنع من لا وليّ لهم غيره، ولا نصير سواه، فعليهم أن يتلقوه بالقبول، والامتثال، والتعظيم، والإجلال.

- وقال ابن كثير: إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه، وتحت قهره وسلطانه.

قرأ ابن عامر ونافع: «الله»، بالضم على معنى الابتداء، وخبره: «الذي»، وقرأ الباقون: «الله»، بالكسر نعتا لـ «العزيز الحميد»، كما قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ} [الأعراف: ١٥٨].

قوله تعالى: {وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ} [إبراهيم: ٢].

أي: وَوَيْلٌ لِلْكافِرِينَ الذين تركوا عبادة من يستحق العبادة الذي له ما في السموات وما في الأرض، وعبدوا من لا يملك شيئًا البتة بل هو مملوك لله لأنه من جملة خلق الله، ومن جملة ما في السموات وما في الأرض.

قال ابن كثير:"أي: ويل لهم يوم القيامة إذ خالفوك يا محمد وكذبوك".

قال الطبري:"ثم توعّد جل ثناؤه من كفر به، ولم يستجب لدعاء رسوله إلى ما دعاه إليه من إخلاص التوحيد له فقال: {ووَيْلٌ للكافرين من عذاب شديد} يقول: الوادِي الذي يسيلُ من صديد أهل جهنم، لمن جحد وحدانيته، وعبد معه غيره، مِن عَذَاب الله الشَّدِيد".

قال البيضاوي:"وعيد لمن كفر بالكتاب ولم يخرج به من الظلمات إلى النور، و «الويل» نقيض «الوأل» وهو النجاة، وأصله النصب، لأنه مصدر إلا أنه لم يشتق منه فعل لكنه رفع لافادة الثبات".

قال أبو الليث السمرقندي:"«الويل»: الشدة من العذاب. ويقال: «الويل» واد في جهنم".

=

=

وقال الحسن والأصم: " «الويل»: هو نداء كل مكروب وملهوف من شدة البلاء".

قوله تعالى: {الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٣]، أي:"وهؤلاء الذين أعرضوا ولم يؤمنوا بالله ويتبعوا رسله هم الذين يختارون الحياة الدنيا الفانية، ويتركون الآخرة الباقية".

قال الطبري: أي:"الذين يختارون الحياة الدنيا ومتاعها ومعاصي الله فيها، على طاعة الله وما يقرِّبهم إلى رضاه من الأعمال النافعة في الآخرة".

قال ابن الجوزي:"أي: يؤثرونها على الآخرة".

قال القرطبي:"أي: يختارونها على الآخرة، والكافرون يفعلون ذلك".

قال ابن كثير:"ثم وصفهم بأنهم يستحبون الحياة الدنيا على الآخرة، أي: يقدمونها ويُؤثرونها عليها، ويعملون للدنيا ونَسُوا الآخرة، وتركوها وراء ظهورهم".

قال البيضاوي: أي:"يختارونها عليها فإن المختار للشيء يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها من غيره".

وفي قوله تعالى: {الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٣]، وجوه:

أحدها: يختارونها على الآخرة، قاله أبو مالك.

قال ابن عباس: "يأخذون ما تعجل لهم منها تهاونا بأمر الآخرة".

الثاني: يلتمسون الدنيا من غير وجهها، لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته. حكاه القرطبي.

والثالث: يستبدلونها من الآخرة، ذكره ابن عيسى.

قال الماوردي: " «الاستحباب»: هو التعرض للمحبة".

قال الزمخشري:"«الاستحباب»: الإيثار والاختيار، وهو استفعال من المحبة،

=

=

لأن المؤثر للشيء على غيره كأنه يطلب من نفسه أن يكون أحب إليها وأفضل عندها من الآخر".

ويحتمل ما يستحبونه من الحياة الدنيا على الآخرة وجهين:

أحدهما: يستحبون البقاء في الحياة الدنيا على البقاء في الآخرة.

الثاني: يستحبون النعيم فيها على النعيم في الآخرة.

قال الرازي: قوله تعالى (الذين يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا) يدل على كونهم في نهاية المحبة للحياة الدنيوية، ولا يكون الإنسان كذلك إلا إذا كان غافلاً عن الحياة الأخروية، وعن معايب هذه الحياة العاجلة، ومن كان كذلك كان في نهاية الصفات المذمومة، وذلك لأن هذه الحياة موصوفة بأنواع كثيرة من العيوب.

فأحدها: أن بسبب هذه الحياة انفتحت أبواب الآلام والأسقام والغموم والهموم والمخاوف والأحزان.

وثانيها: أن هذه اللذات في الحقيقة لا حاصل لها إلا دفع الآلام، بخلاف اللذات الروحانية فإنها في أنفسها لذات وسعادات.

وثالثها: أن سعادات هذه الحياة منغصة بسبب الانقطاع والانقراض والانقضاء.

ورابعها: أنها حقيرة قليلة، وبالجملة فلا يحب هذه الحياة إلا من كان غافلاً عن معايبها وكان غافلاً عن فضائل الحياة الروحانية الأخروية، ولذلك قال تعالى (والأخرة خَيْرٌ وأبقى) فهذه الكلمة جامعة لكل ما ذكرناه.

ثم قال رحمه الله: وقوله (يَسْتَحِبُّونَ الحياة الدنيا عَلَى الأخرة) لأن فيه إضماراً، والتقدير: يستحبون الحياة الدنيا ويؤثرونها على الآخرة، فجمع تعالى بين هذين الوصفين ليتبين بذلك أن الاستحباب للدنيا وحده لا يكون مذموماً إلا بعد أن يضاف إليه إيثارها على الآخرة، فأما من أحبها ليصل بها إلى منافع النفس وإلى خيرات الآخرة فإن ذلك لا يكون مذموماً حتى إذا آثرها على آخرته بأن اختار

=

=

منها ما يضره في آخرته فهذه المحبة هي المحبة المذمومة.

- وقال القرطبي: وقيل (يَسْتَحِبُّونَ) أي: يلتمسون الدنيا من غير وجهها؛ لأن نعمة الله لا تلتمس إلا بطاعته دون معصيته.

قوله تعالى: {وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ} [إبراهيم: ٣]، أي:"ويمنعون الناس عن اتباع دين".

قال البيضاوي:"بتعويق الناس عن الإيمان".

قال الطبري:"يقول: ويمنعون من أراد الإيمان بالله واتّباعَ رسوله على ما جاء به من عند الله، من الإيمان به واتباعه".

قال ابن كثير:"أي: يردُّون الناسَ عن اتباع الحق وسلوك طريق الهدى الموصلة إلى الله ﷻ ويجنبونهم الجنة".

عن ابن عباس، قوله: " {يصدون عن سبيل الله}، قال: عن دين الله ﷻ".

عن السدي قوله: " {الذين يصدون عن سبيل الله}، قال: هو محمد ﷺ صدت قريش، عنه الناس".

وقرأ الحسن: «ويصدون»، بضم الياء وكسر الصاد.

قوله تعالى: {وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا} [إبراهيم: ٣]، أي:"ويطلبون أن تكون دين الله معوجَّة لتوافق أهواءهم".

قال الطبري:"يقول: ويلتمسون سَبِيل الله - وهي دينه الذي ابتعث به رسوله - {عوجًا}: تحريفًا وتبديلا بالكذب والزّور".

قال القرطبي: أي يطلبون لها زَيْغًا وميلاً لموافقة أهوائهم، وقضاء حاجاتهم وأغراضهم.

- قال الرازي: قوله تعالى (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا) واعلم أن الإضلال على مرتبتين: المرتبة الأولى: أنه يسعى في صد الغير ومنعه من الوصول إلى المنهج القويم

=

=

والصراط المستقيم.

والمرتبة الثانية: أن يسعى في إلقاء الشكوك والشبهات في المذهب الحق ويحاول تقبيح صفته بكل ما يقدر عليه من الحيل، وهذا هو النهاية في الضلال والإضلال، وإليه الإشارة بقوله (وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا).

قال ابن كثير:"أي: ويحبون أن تكون سبيل الله عوجًا مائلة عائلة وهي مستقيمة في نفسها، لا يضرها من خالفها ولا من خذلها، فهم في ابتغائهم ذلك في جهل وضلال بعيد من الحق، لا يرجى لهم - والحالة هذه - صلاح".

عن ابي مالك، قوله: " {ويبغونها عوجا}، يعني: يرجون بمكة غير الإسلام دينا".

عن السدي: " {يبغونها عوجا}: كانوا إذا سألهم أحد هل تجدون محمدا: قالوا لا فصدوا، عنه الناس وبغوا محمدا عوجا هلاكا".

وقيل: "معناه يلتمسون الدنيا من غير وجهها لأن نعمة الله لا تستمد إلا بطاعته دون معصيته".

و «العِوَج» بكسر العين: "في الدين والأمر والأرض وكل ما لم يكن قائمـًا. و «العوج» بفتح العين: في كل ما كان قائمـًا كالحائط والرمح".

قال الزمخشري:"{ويبغونها عوجا}، يصفونها بالاعوجاج وهي مستقيمة. أو يبغون أهلها أن يعوجوا بالارتداد".

قوله تعالى: {أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ} [إبراهيم: ٣]، أي:"أولئك الموصوفون بهذه الصفات في ضلال عن الحق بعيد عن كل أسباب الهداية".

قال الطبري:"يعني هؤلاء الكافرين الذين يستحبُّون الحياة الدنيا على الآخرة. يقول: هم في ذهابٍ عن الحق بعيد، وأخذ على غير هُدًى، وجَوْر عن قَصْد السبيل".

قال الزمخشري:"أى: ضلوا عن طريق الحق، ووقفوا دونه بمراحل.

=

وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤).

{وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُول إِلَّا بِلِسَانِ} بِلُغَةِ {قَوْمه لِيُبَيِّن لَهُمْ} لِيُفَهِّمهُمْ مَا أَتَى بِهِ {فَيُضِلّ الله مَنْ يَشَاء وَيَهْدِي مَنْ يَشَاء وَهُوَ الْعَزِيز} فِي مُلْكه {الْحَكِيم} فِي صُنْعه[1].

=

فإن قلت: فما معنى وصف «الضلال» بالبعد.

قلت: هو من الإسناد المجازى، والبعد في الحقيقة للضال، لأنه هو الذي يتباعد عن الطريق، فوصف به فعله، كما تقول: جد جده. ويجوز أن يراد: في ضلال ذى بعد. أو فيه بعد، لأن الضال قد يضل عن الطريق مكانا قريبا وبعيدا".

قال القرطبي:"وكل من آثر الدنيا وزهرتها، واستحب البقاء في نعيمها على النعيم في الآخرة، وصد عن سبيل الله- أي صرف الناس عنه وهو دين الله، الذي جاءت به الرسل، في قول ابن عباس وغيره- فهو داخل في هذه الآية، وقد قال ﷺ: «إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون»، وهو حديث صحيح. وما أكثر ما هم في هذه الأزمان، والله المستعان".

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ} [إبراهيم: ٤]، أي:"وما أرسلنا مِن رسولٍ قبلك -أيها النبي- إلا بلُغة قومه، ليوضِّح لهم شريعة الله".

قال ابن كثير:"هذا من لطفه تعالى بخلقه: أنه يرسل إليهم رسلا منهم بلغاتهم ليفهموا عنهم ما يريدون وما أرسلوا به إليهم".

قال مجاهد: عن أبي ذر قال: قال رسول الله ﷺ: "لم يبعث الله، ﷻ، نبيا إلا بلغة قومه" ومجاهد لم يسمع من أبي ذر.

=

=

والمراد باللسان هنا اللغة:

كما في هذه الآية (وَما أَرْسَلْنا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسانِ قَوْمِهِ) وقوله (وَاخْتِلافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوانِكُم).

ويطلق ويراد به الثناء الحسن.

كقوله تعالى (وَجَعَلْنا لَهُمْ لِسانَ صِدْقٍ عَلِيًّا).

ويطلق ويراد به الجارحة.

كقوله تعالى (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ).

-قال القرطبي: قوله تعالى (وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ) أي قبلك يا محمد (إِلاَّ بِلِسَانِ قَوْمِهِ) أي بلغتهم، ليبيّنوا لهم أمر دينهم؛ ووحد اللسان وإن أضافه إلى القوم لأن المراد اللغة؛ فهي اسم جنس يقع على القليل والكثير.

- قال الشوكاني: لأنه إذا كان كذلك فهم عنه المرسل إليهم ما يقوله لهم وسهل عليهم ذلك بخلاف ما لو كان بلسان غيرهم فإنهم لا يدرون ما يقول، ولا يفهمون ما يخاطبهم به، حتى يتعلموا ذلك اللسان دهراً طويلاً، ومع ذلك فلا بدّ أن يصعب عليهم فهم ذلك بعض صعوبة (لِيُبَيِّنَ لَهُمُ) أي: ليوضح لهم ما أمرهم الله به من الشريعة التي شرعها لهم ووحد اللسان لأن المراد بها اللغة.

عَنْ أَبِي ذَرٍّ: قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ (لَمْ يَبْعَثِ اللهُ ﷻ نَبِيًّا إِلَّا بِلُغَةِ قَوْمِهِ).

- قال ابن كثير: هذه سنته في خلقه أنه ما بعث نبيا في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله ﷺ بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: (أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه

=

=

خاصة وبعثت إلى الناس عامة)، وقال تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا).

-قال البقاعي:... أي ليكون أبلغ في الحجة وأقطع للعذر، فربما كانوا يقولون عند اختلاف الألسنة: لا نفهم عنهم، إذ قالوا ذلك مع اتفاق اللغات، فقد قال قوم شعيب عليه السلام (وما نفقة كثيرا مما تقول) هذا وهو عليه السلام يخاطبهم بلسانهم فكيف لو كان على خلاف ذلك بل لو خالفت الرسل عليهم السلام الأمم في التبتل وعدم اتخاذ الزوجات والأولاد واستعمال الأغذية وغيرها من مألوفات البشر لكان منفرا، فقد بان وجه الحكمة في كونهم من البشر ولو كانوا من الملائكة لوقع النفار والشرود لافتراق الجنسية.

- وقال الشنقيطي: بين الله تعالى في هذه الآية الكريمة أنه لم يرسل رسولا إلا بلغة قومه ؛ لأنه لم يرسل رسولا إلا إلى قومه دون غيرهم، ولكنه بين في مواضع أخر أن نبينا ﷺ أرسل إلى جميع الخلائق دون اختصاص بقومه ولا بغيرهم، كقوله تعالى (قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعا).

وقوله (تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيرا).

وقوله (وما أرسلناك إلا كافة للناس) إلى غير ذلك من الآيات الدالة على عموم رسالته لأهل كل لسان، فهو ﷺ يجب عليه إبلاغ أهل كل لسان.

- وقد قيل: في هذه الآية إشكال؛ لأن النبي ﷺ أرسل إلى الناس جميعا، بل إلى الجن والإنس ولغاتهم متباينة وألسنتهم مختلفة.

وأجيب بأنه وإن كان ﷺ مرسلا إلى الثقلين كما مر لكن لما كان قومه العرب، وكانوا أخص به وأقرب إليه كان إرساله بلسانهم أولى من إرساله بلسان غيرهم، وهم يبينونه لمن كان على غير لسانهم، ويوضحونه حتى يصير فاهما له كفهمهم إياه، ولو نزل القرآن بجميع لغات من أرسل إليهم، وبينه رسول الله لكل قوم

=

=

بلسانهم لكان ذلك مظنة للاختلاف وفتحا لباب التنازع؛ لأن كل أمة قد تدعي من المعاني في لسانها ما لا يعرفه غيرها، وربما كان ذلك أيضا مفضيا إلى التحريف والتصحيف بسبب الدعاوي الباطلة التي يقع فيها المتعصبون.

-قال ابن كثير: أي بعد البيان وإقامة الحجة عليهم، يضل الله من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق وهو العزيز الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، الحكيم في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال ويهدي من هو أهل لذلك.

قوله تعالى: {فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ} [إبراهيم: ٤]، أي:"فيضل الله من يشاء عن الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق".

قال ابن كثير:"أي: بعد البيان وإقامة الحجة عليهم يضل تعالى من يشاء عن وجه الهدى، ويهدي من يشاء إلى الحق".

قال ابن عباس: "جعل المشيئة إليه وحده لا شريك له".

قوله تعالى: {وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [إبراهيم: ٤]، أي:"وهو العزيز في ملكه، الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها وَفْق الحكمة".

قال ابن كثير:"{وَهُوَ الْعَزِيزُ} الذي ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، {الحكيم} في أفعاله، فيضل من يستحق الإضلال، ويهدي من هو أهل لذلك. وقد كانت هذه سنة الله في خلقه: أنه ما بعث نبيا في أمة إلا أن يكون بلغتهم، فاختص كل نبي بإبلاغ رسالته إلى أمته دون غيرهم، واختص محمد بن عبد الله رسول الله بعموم الرسالة إلى سائر الناس، كما ثبت في الصحيحين عن جابر قال: قال رسول الله ﷺ: «أعطيت خمسًا لم يُعطَهُن أحد من الأنبياء قبلي: نُصِرْتُ بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدًا وطَهُورًا، وأحلَّت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه، وبعثت إلى الناس عامة». وله شواهد من وجوه كثيرة، وقال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ

=

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ

=

جَمِيعًا} [الأعراف: ١٥٨]".

و (الحكيم) اسم من أسماء الله متضمن لصفة الحكمة الكاملة لله تعالى، فأوامره وأحكامه وأفعاله كلها لحكمة.

قال ابن جرير: هو الذي لا يدخل تدبيره خلل ولا زلل.

قال ابن القيم: وقد دلت العقول الصحيحة والفطر السليمة على ما دل عليه القرآن والسنة: أنه سبحانه (حكيم) لا يفعل شيئا عبثا ولا لغير معنى ومصلحة وحكمة هي الغاية المقصودة بالفعل، بل أفعاله سبحانه صادرة عن حكمة بالغة، لأجلها فعل كما فعل كما هي ناشئة عن أسباب بها فعل.

وقال السعدي: فالا يخلق شيئا عبثا، ولا يشرع سدى، الذي له الحكم في الأولى والآخرة، وله الأحكام الثلاثة لا يشاركه فيها مشارك، فيحكم بين عباده في شرعه، وفي قدره، وجزائه، والحكمة: وضع الأشياء مواضعها، وتنزيلها منازلها.

فهو سبحانه حكيم في صنعه، وحكيم في شرعه، فجميع مصنوعاته كلها محكمة، قال تعالى (الذي خلق سبع سماوات طباقا ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليك البصر خاسئا وهو حسير) وأما في الشرع فيقول سبحانه (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا) فلا يمكن أن يوجد تناقض في القرآن أبدا.

قال بعض العلماء: الحكمة تكون في صورة الشيء: أي أن خلق الإنسان على هذه الصورة لحكمة، وكذلك خلق الحيوان على هذه الصورة لحكمة.

وتكون في غايته: أي: أن الغاية من خلق الإنسان لحكمة، وكذلك الحيوانات، وكذلك جميع المخلوقات، كما قال تعالى (وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلا).

بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥).

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا} التِّسْع وَقُلْنَا لَهُ {أَنْ أَخْرِجْ قَوْمك} بَنِي إِسْرَائِيل {مِنَ الظُّلُمَات} الْكُفْر {إِلَى النُّور} الْإِيمَان {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّام الله} بِنِعَمِهِ {إِنَّ فِي ذَلِكَ} التَّذْكِير {لَآيَات لِكُلِّ صَبَّار} عَلَى الطَّاعَة {شَكُور} لِلنِّعَمِ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا} [إبراهيم: ٥].

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور كذلك أرسلنا موسى إلى بني إسرائيل بآياتنا البينات العظيمة الدالة على صدقه وصحة ما جاء به قال مجاهد: هي التسع الآيات.

قال تعالى (ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات).

وقال تعالى (وأدخل يدك في جيبك تخرج بيضاء من غير سوء في تسع آيات إلى فرعون وقومه إنهم كانوا قوما فاسقين)

وهي: العصا، واليد، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم، والجدب- أي في بواديهم، والنقص من الثمرات- أي في مزارعهم.

قال تعالى (فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين).

وقال تعالى (ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات).

وقال تعالى (فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم، آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوما مجرمين).

قال ابن كثير: "يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد وأنزلنا عليك الكتاب، لتخرج الناس كلهم، تدعوهم إلى الخروج من الظلمات إلى النور، كذلك أرسلنا موسى في بني إسرائيل بآياتنا".

قال مجاهد: "يعني: «بالبينات التسع: الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم =

=

والعصا ويده والسنين ونقص من الثمرات»".

وقال ابن جريج: «الآيات التسع هي البينات».

قوله تعالى: {أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} [إبراهيم: ٥].

أي: ادعهم إلى الخير ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان.

وقيل: من الظلمات، أي من الذل والعبودية إلى العزة والظهور وهو النور.

والفرق بين القولين:

إذا قلنا بالقول الأول: دل على أن بني إسرائيل الذي بعث فيهم موسى كانوا قبل بعثته غير مؤمنين.

وإذا قلنا بالقول الثاني: دل على أنهم كانوا على دين إبراهيم وإسرائيل قبل مبعث موسى.

والأول أرجح، وهذا اختيار الطبري رحمه الله.

قال قتادة:"من الضلالة إلى الهدى".

قال ابن كثير:"أي: أمرناه قائلين له: {أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ} أي: ادعهم إلى الخير، ليخرجوا من ظلمات ما كانوا فيه من الجهل والضلال إلى نور الهدى وبصيرة الإيمان".

قوله تعالى: {وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ} [إبراهيم: ٥].

أي: بأياديه ونعمه عليهم في إخراجه إياهم من أسر فرعون وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى إلى غير ذلك من النعم، قال ذلك مجاهد وقتادة وغير واحد.

ورجح ذلك ابن جرير (بأيام الله) أي: بنعمه تعالى عليهم.

=

=

كما قال تعالى (وظللنا عليكم الغمام وأنزلنا عليكم المن والسلوى).

وقال تعالى (وإذ نجيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبحون أبناءكم ويستحيون نساءكم).

وقال تعالى (وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكا وآتاكم ما لم يؤت أحدا من العالمين).

وقال تعالى (وإذ فرقنا بكم البحر فأنجيناكم وأغرقنا آل فرعون وأنتم تنظرون).

وقيل: أيام الله، نقم الله وما حل بهم وبغيرهم من النقم، بالمكذبين والكافرين من الأمم السابقة، وعقوباته لهم وإهلاكهم.

كما قال تعالى (فكلا أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصبا ومنهم من أخذته الصيحة ومنهم من خسفنا به الأرض ومنهم من أغرقنا وما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).

أ-قالوا: اللغة تؤيد ذلك، يقال: فلان عالم بأيام العرب، أي: وقائعها وحروبها.

ب-قول الشاعر: وأيامنا مشهور في عدونا.

ج-أنه هو المناسب للتذكير.

واختار بعض العلماء أنها تشمل النوعين.

واختاره أبو حيان، وابن عطية، والرازي، وابن جزي، والألوسي، وابن عاشور، والسعدي.

أ-لأن التذكير يقع بالنعم والبلاء.

ب-أن لفظة الأيام تعم المعنيين، يقال يوم عبوس، ويوم بسام.

-قال الرازي:... إذا عرفت هذا، فالمعنى عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد، فالترغيب والوعد أن يذكرهم ما أنعم الله عليهم وعلى من قبلهم ممن آمن بالرسل في سائر ما سلف من الأيام، والترهيب والوعيد: أن يذكرهم بأس الله

=

=

وعذابه وانتقامه ممن كذب الرسل ممن سلف من الأمم فيما سلف من الأيام، مثل ما نزل بعاد وثمود وغيرهم من العذاب، ليرغبوا في الوعد فيصدقوا ويحذروا من الوعيد فيتركوا التكذيب.

-وقال الزجاج: أي ذكرهم بنعم الله عليهم وبنقم أيام الله التي انتقم فيها من قوم نوح وعاد وثمود، والمعنى: عظهم بالترغيب والترهيب والوعد والوعيد.

-وقال أبو حيان: وأيام الله بلاؤه ونعماؤه... ولفظ الأيام تعم المعنيين، لأن التذكير يقع بالوجهين جميعا.

قال ابن كثير:"أي: بأياديه ونعَمه عليهم، في إخراجه إياهم من أسر فرعون. وقهره وظلمه وغشمه، وإنجائه إياهم من عدوهم، وفلقه لهم البحر، وتظليله إياهم بالغمام، وإنزاله عليهم المن والسلوى، إلى غير ذلك من النعم".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ} [إبراهيم: ٥]، أي:"إن في هذا التذكير بها لَدلالات لكل صبَّار على طاعة الله، وعن محارمه، وعلى أقداره، شكور قائم بحقوق الله، يشكر الله على نعمه".

قال ابن كثير:"أي: إن فيما صنعنا بأوليائنا بني إسرائيل حين أنقذناهم من يد فرعون، وأنجيناهم مما كانوا فيه من العذاب المهين، لعبرة لكل صَبَّار، أي: في الضراء، شكور، أي: في السراء، كما قال قتادة: نعم العبد، عبد إذا ابتُلِي صَبَر، وإذا أعطي شكر.

وكذا جاء في الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن أمر المؤمن كُلَّه عَجَب، لا يقضي الله له قضاء إلا كان خيرًا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له، وإن أصابته سراء شَكر فكان خيرا له»".

قال الماوردي:"الصبار: الكثير الصبر، والشكور: الكثير الشكر.. وإنما خص بالآيات كل صبار شكور، وإن كان فيه آيات لجميع الناس، لأنه يعتبر بها و [لا]

=

وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ (٦) .

=

يغفل عنها".

قيل: أن الحسن توارى عن الحجاج تسع سنين، فلما بلغه موته قال: "اللهم قد أمته فأمت سنته وسجد شكراً وقرأ: {إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور}".

-قال الرازي: والمعنى أن في ذلك التذكير والتنبيه دلائل لمن كان صبارا شكورا، لأن الحال إما أن يكون حال محنة وبلية أو حال منحة وعطية فإن كان الأول، كان المؤمن صبارا، وإن كان الثاني كان شكورا.

وهذا تنبيه على أن المؤمن يجب أن لا يخلو زمانه عن أحد هذين الأمرين فإن جرى الوقت على ما يلائم طبعه ويوافق إرادته كان مشغولا بالشكر، وإن جرى ما لا يلائم طبعه كان مشغولا بالصبر.

-وجمع- سبحانه- بينهما، للإشارة إلى أن المؤمن الصادق لا يخلو حاله عن هذين الأمرين ففي الحديث الصحيح عن رسول الله ﷺ أنه قال (إن أمر المؤمن كله عجب، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا له، إن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له. وإن أصابته سراء شكر فكان خيرا له).

وقدم- سبحانه- صفة الصبر على صفة الشكر، لما أن الصبر مفتاح الفرج المقتضى للشكر، أو لأن الصبر من قبيل الترك، والتخلية مقدمة على التحلية.

-في هذا دليل على جواز الوعظ، المرقق للقلوب، المقوي لليقين؛ فقد روى سعيد بن جبير عن ابن عباس عن أبي بن كعب قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (بينما موسى في قومه يذكرهم بأيام الله، وأيام الله نعماؤه وبلاؤه)، وذكر حديث الخضر.

{و} اُذْكُرْ {إِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اُذْكُرُوا نِعْمَة الله عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آل فِرْعَوْن يَسُومُونَكُمْ سُوء الْعَذَاب وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ} الْمَوْلُودِينَ {وَيَسْتَحْيُونَ} يَسْتَبْقُونَ {نِسَاءَكُمْ} لِقَوْلِ بَعْض الْكَهَنَة إنَّ مَوْلُودًا يُولَد فِي بَنِي إسْرَائِيل يَكُون سَبَب ذَهَاب مُلْك فِرْعَوْن {وَفِي ذَلِكُمْ} الْإِنْجَاء أَوْ الْعَذَاب {بَلَاء} إنْعَام أَوْ ابْتِلَاء {مِنْ رَبّكُمْ عظيم}[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} [إبراهيم: ٦]، أي:"واذكر -أيها الرسول- لقومك قصة موسى حين قال لبني إسرائيل: اذكروا نعمة الله عليكم حين أنجاكم من فرعون وأتباعه".

والنعمة هنا اسم جنس، فهي مفردة بمعنى الجمع، قال الله تعالى (وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها) أي نعمه.

ويذكرهم بالنعم لأمرين:

أ-أن كثرة النعم توجب عظم المعصية فذكرهم تلك النعم لكي يحذروا مخالفة ما دعوا إليه من الإيمان بمحمد ﷺ وبالقرآن.

ب-أن تذكير النعم الكثيرة يوجب الحياء عن إظهار المخالفة.

قال الراغب: "وأصل «النجاء»: طلب الخلاص، ويقال لمن عدا نجا، لكون العدو أحد أسباب التخلص، فإن الله تعالى جعل للحيوانات قوتين تزيل بهما الأذى، قوة بها تهرب مما يؤذيها، وقوة بها تدفع ما يؤذيها، فمن الحيوانات ما يختص بأحديهما، ومنها ما جعلتا جميعاً به، فإذاً: العدو أحد أسباب الخلاص، فصح أن يعبر عنه به".

وقوله تعالى: {آل فرعون} يقصد به: أهل دينه وقومه وأشياعه، وأتباعه وأسرته وعزته، "ويدخل فيهم فرعون بالأولوية؛ لأنه هو المسلِّط لهم على بني إسرائيل".

قال ابن عطية:"وإنما نسب الفعل إلى {آلِ فِرْعَوْنَ}، وهم إنما كانوا يفعلونه بأمره =

=

وسلطانه لتوليهم ذلك بأنفسهم".

واختلف أهل العربية في أصل كلمة «آل»، على قولين:

أحدهما: أن أصلها من «أهل»، أبدلت الهاء همزة، كما قالوا: «ماء» فأبدلوا الهاء همزة، فإذا صغروه قالوا: «مويه»، فردوا الهاء في التصغير وأخرجوه على أصله. وكذلك إذا صغروا آل، قالوا: «أهيل»، وقد حكي سماعا من العرب في تصغير «آل»: «أويل»، وقد يقال:"فلان من آل النساء"، يراد به أنه منهن خلق، ويقال ذلك أيضا بمعنى أنه يريدهن ويهواهن، كما قال الشاعر:

فإنك من آل النساء وإنما يَكُنَّ لأدْنَى؛ لا وصال لغائب

والفرق بين «الآل» و «الأهل»: أن «الآل» يختص بالأشرف والأخص، دون الشائع الأعم، " حتى لا يقال إلا في نحو قولهم القراء: آل الله، اللهم صل على محمد وعلى آل محمد، {وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ} [غافر: ٢٨]، وكذلك ما أنشده أبو العباس للفرزدق:

نَجَوْتَ وَلَمْ يَمْنُنْ عَلَيْكَ طَلاَقَةً سِوى رَبِذِ التَّقْرِيبِ مِنْ آلِ أَعْوَجَا

لأن أعوج فيهم فرس مشهوَر، فلذلك قال: آل أعوج".

الثاني: أن أصلها من (الأول)، وهو الرجوع، كأنّه يؤول إليك، وكان في الأصل همزتان فعوّضت من إحداهما مدّ وتخفيف. قاله الثعلبي.

والراجح هو القول الأول، وبه قال الكسائي، وجمهور المفسرين وأهل اللغة.

واختلف في كلمة: «فِرْعَوْنَ»، على وجهين:

أحدهما: أنه اسم ذلك الملك بعينه.

والثاني: أنه لقب، يطلق على كل ملك من ملوك العمالقة، مثل كسرى للفرس وقيصر للروم والنجاشي للحبشة، وأن اسم «فرعون» موسى: قابوس في قول أهل الكتاب.

=

=

وقيل أن اسمه: "الوليد بن مصعب بن الريان"، ويكنى أبا مرة وهو من بني عمليق بن لاوذ بن إرم بن سام بن نوح عليه السلام.

وقال السهيلي:"وكل من ولى القبط ومصر فهو فرعون وكان فارسيا من أهل اصطخر".

قال المسعودي:"لا يعرف لفرعون تفسير بالعربية".

وقال ابن سيده: "وعندي أن «فرعون» هذا العلم أعجمي؛ ولذلك لم يصرف".

وقال الجوهري: " «فرعون»: لقب الوليد بن مصعب ملك مصر وكل عات فرعون والعتاة الفراعنة وقد تفرعن وهو ذو فرعنة أي دهاء ونكر".

و «الفرعنة»: "الكِبْر والتجبُّر، والفرعنة مصدر فرعون، ويقال: فرعون أيضًا"، وفي الحديث "أخذنا فرعون هذه الأمة"، و «فرعون» في موضع خفض إلا أنه لا ينصرف لعجمته.

وقال الإمام الطبري في كتابه: "تاريخ الأمم والملوك" في سياق حديثه عن نسب موسى بن عمران عليه السلام وأخباره: "وأما ابن إسحاق فإنه قال فيما حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة، عن ابن إسحاق قال: قبض الله يوسف، وهلك الملك الذي كان معه الريان بن الوليد، وتوارث الفراعنة من العماليق ملك مصر، فنشر الله بها بني إسرائيل، وقبر يوسف حين قبض كما ذكر لي في صندوق من مرمر في ناحية من النيل في جوف الماء، فلم يزل بنو إسرائيل تحت أيدي الفراعنة وهم على بقايا دينهم مما كان يوسف ويعقوب وإسحاق وإبراهيم شرعوا فيهم من الإسلام، متمسكين به، حتى كان فرعون موسى الذي بعثه الله إليه، ولم يكن منهم فرعون أعتى منه على الله ولا أعظم قولًا ولا أطول عمرًا في ملكه منه، وكان اسمه - فيما ذكروا لي - الوليد بن مصعب، ولم يكن من الفراعنة فرعون أشد غلظة، ولا أقسى قلبًا، ولا أسوأ ملكًا لبني إسرائيل منه، يعذبهم فيجعلهم خدمًا وخولًا،

=

=

وصنَّفهم في أعماله؛ فصِنف يبنون، وصنف يحرثون، وصنف يزرعون له، فهم في أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة له من عمله فعليه الجزية، فسامَهم كما قال الله: {سُوءَ الْعَذَابِ} [البقرة: ٤٩]. وفيهم مع ذلك بقايا من أمر دينهم لا يريدون فراقه، وقد استنكح منهم امرأة يقال لها: آسية بنت مزاحمٍ، من خيار النساء المعدودات، فعمر فيهم وهم تحت يديه عمرًا طويلًا يسومهم سوء العذاب، فلما أراد الله أن يفرج عنهم وبلغ موسى عليه السلام الأشد، أُعطِيَ الرسالة".

قال ابن عاشور: "و «فرعون»: علم جنس لملك مصر في القديم، أي: قبل أن يملكها اليونان، وهو اسم من لغة القبط، قيل: أصله في القبطية فاراه، ولعل الهاء فيه مبدلة عن العين، فإن رع اسم الشمس، فمعنى فاراه نور الشمس؛ لأنهم كانوا يعبدون الشمس، فجعلوا ملك مصر بمنزلة نور الشمس؛ لأنه يصلح الناس، نقل هذا الاسم عنهم في كتب اليهود، وانتقل عنهم إلى العربية، ولعله مما أدخله الإسلام، وهذا الاسم نظير كسرى لملك ملوك الفرس القدماء، وقيصر لملك الروم، ونمروذ لملك كنعان، والنجاشي لملك الحبشة، وتُبَّع لملك ملوك اليمن، وخان لملك الترك، واسم فرعون الذي أرسل موسى إليه: منفطاح الثاني، أحد ملوك العائلة التاسعة عشرة من العائلات التي ملكت مصر، على ترتيب المؤرخين من الإفرنج، وذلك في سنة ١٤٩١ قبل ميلاد المسيح".

فيمكن القول: أن كلمة «فرعون» ربما قد أصبحت تستخدم استخدامًا شائعًا في العصور الحديثة كلقب للحاكم في مصر القديمة لأسباب ترجع إلى الميول العقائدية ومحاولات التفسير التوراتية من زاوية واحدة، على أن التحقيق اللغوي للفظة يظل بعيدًا كل البعد عن حقيقة تلقب الحكام المصريين بهذا اللقب.

قوله تعالى: {يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ} [إبراهيم: ٦]، أي:"يذيقونكم أشد العذاب".

=

=

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى: {يَسُومُونَكُمْ} [إبراهيم: ٦]، على وجوه:

أحدها: قيل معناه: يذيقونكم ويلزمونكم إياه.

الثاني: يولونكم، قاله أبو عبيدة، كما يقال سامه خطة خسف إذا أولاه إياها، قال عمرو بن كلثوم:

إِذَا مَا الْمَلْكُ سَامَ النَّاسُ خَسْفًا أَبَيْنَا أَنْ نُقِرَّ الذُّلَّ فِينَا

الثالث: أن معناه: يديمون عذابكم، والسوم: الدوام، كما يقال: سائمة الغنم من إدامتها الرعي.

الرابع: يُجَشِّمُونَكُمُ الأعمال الشَّاقَّة. قاله الواحدي.

الخامس: يزيدونكم على سوء العذاب، ومنه مساومة البيع، إنما هو أن يزيد البائعُ المشتريَ على ثمنٍ، ويزيد المشتري على ثمنٍ، وهذا قول المفضل.

وجميع المعاني تحتمله اللفظ، إذ أن المراد بقوله {يسومونكم}، أي: يوردونكم، ويذيقونكم، ويولونكم، يقال منه: سامه خطة ضيم، إذا أولاه ذلك وأذاقه، كما قال الشاعر:

إن سيم خسفا، وجهه تربدا

وفي قوله تعالى: {سُوءَ الْعَذَابِ} [إبراهيم: ٦]، وجهان:

أحدهما: ما ساءهم من العذاب.

والثاني: أشد العذاب. قاله الزجاج وآخرون.

والأقرب: هو القول الأول، لأنه لو كان الثاني صحيحا لقيل: أسوأ العذاب. والله تعالى أعلم.

وفي «العذاب» الذي كانوا يسومونهم قولان:

أحدهما: أن فرعون كان يعذبهم بجعلهم خدما وخولا، واستخدم بعضهم في

=

=

أعماله، ومن لم يكن منهم في صنعة، فعليه الجزية. قاله ابن إسحاق. واختاره الثعلبي.

الثاني: وقيل أن فرعون:"جعلهم في الأعمال القذرة، وجعل يقتل أبناءهم، ويستحيي نساءهم". وهذا قول السدي.

قوله تعالى: {وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ} [إبراهيم: ٦]، أي:"ويذبِّحون أبناءكم الذكور".

قال أبو العالية: " إن فرعون ملكهم أربعمائة سنة فقالت له الكهنة. سيولد العام بمصر غلام يكون هلاكك على يديه، فبعث في أهل مصر نساء قوابل فإذا ولدت امرأة غلاما أتى به فرعون فقتله ويستحيي الجواري".

واختلف في قوله تعالى: {وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ} [إبراهيم: ٦]، على قولين:

أحدهما: يذبحون الأطفال الذكورمن أبنائكم دون البالغين. وهذا قول ابن عباس، ومجاهد، والربيع، والسدي، وابن إسحاق.

الثاني: وقيل: يعني: الرجال دون الأطفال، وسموا «أبناء» لما كانوا كذلك، واستدل هذا القائل بقوله {نِسَاءَكُم}، فقالوا: بأن" المذبحين لو كانوا هم الأطفال، لوجب أن يكون المستحيون هم الصبايا".

قال الطبري:"وقد أغفل قائلو هذه المقالة - مع خروجهم من تأويل أهل التأويل من الصحابة والتابعين - موضع الصواب. ولو كانوا إنما يقتلون الرجال ويتركون النساء، لم يكن بأم موسى حاجة إلى إلقاء موسى في اليم، أو لو أن موسى كان رجلا لم تجعله أمه في التابوت".

الثالث: " وقيل: "كان ذبحهم للأبناء استخدامهم في الأعمال القذرة الجارية مجرى أعظم الذبحين القتل، والإهانة، قال: وعلى ذلك قوله تعالى: {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ}". ولا يخفى على ما في هذا الوجه من التكلف، وإن كان المعنى صحيحا.

=

=

والقول الأول أصح، حملا للفظ «الأبناء» على ظاهره، ويدل على هذا المعنى، عملية إلقاء موسى -عليه السلام- في التابوت حال صغره، كما أنه كان يتعذر قتل جميع الرجال على كثرتهم، ومن جهة أخرى أنهم كانوا محتاجين إليهم في استعمالهم في الصنائع الشاقة، وهذا قول عامة أهل التفسير، والله أعلم.

قال ابن عطية:"والصحيح من التأويل: أن الأبناء هم الأطفال الذكور، والنساء هم الأطفال الإناث، وعبر عنهن باسم «النساء» بالمئال".

قال الواحدي:"وقيل: سمى البنات «نساء» على تقدير أنهن يكن نساء، وقيل: جمع الكبار والصغار بلفظ النساء، لأنهم كانوا يستبقون جميع الإناث، فجرى اللفظ على التغليب كما يطلق الرجال على الذكور وإن كان فيهم صغار".

- قال الرازي: قال بعض العلماء: إن المراد بقوله (يذبحون أبناءكم) الرجال دون الأطفال ليكون في مقابلة النساء، وأكثر المفسرين على أن المراد بالآية الأطفال دون البالغين، وهذا هو الأولى لوجوه:

الأول: حملا للفظ الأبناء على ظاهره.

الثاني: أنه كان يتعذر قتل جميع الرجال على كثرتهم.

الثالث: أنهم كانوا محتاجين إليهم في استعمالهم في الصنائع الشاقة.

الرابع: أنه لو كان كذلك لم يكن لإلقاء موسى عليه السلام في التابوت حال صغره معنى.

- وقال الرازي رحمه الله: إن ذبح الذكور دون الإناث مضرة من وجوه:

أحدها: أن ذبح الأبناء يقتضي فناء الرجال، وذلك يقتضي انقطاع النسل، لأن النساء إذا انفردن فلا تأثير لهن البتة في ذلك، وذلك يقضي آخر الأمر إلى هلاك الرجال والنساء.

وثانيها: أن هلاك الرجال يقتضي فساد مصالح النساء في أمر المعيشة، فإن المرأة

=

=

لتتمنى وقد انقطع عنها تعهد الرجال وقيامهم بأمرها الموت، لما قد يقع إليها من نكد العيش بالانفراد فصارت هذه الخصلة عظيمة في المحن، والنجاة منها في العظم تكون بحسبها.

وثالثها: أن قتل الولد عقيب الحمل الطويل وتحمل الكد والرجاء القوي في الانتفاع بالمولود من أعظم العذاب، لأن قتله والحالة هذه أشد من قتل من بقي المدة الطويلة مستمتعا به مسرورا بأحواله، فنعمة الله من التخليص لهم من ذلك بحسب شدة المحنة فيه.

ورابعها: أن الأبناء أحب إلى الوالدين من البنات، ولذلك فإن أكثر الناس يستثقلون البنات ويكرهونهن وإن كثر ذكرانهم، ولذلك قال تعالى (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم يتوارى من القوم من سوء ما بشر به) الآية، ولذلك نهى العرب عن الوأد بقوله (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق) وإنما كانوا يئدون الإناث دون الذكور.

وخامسها: أن بقاء النسوان بدون الذكران يوجب صيرورتهن مستفرشات الأعداء وذلك نهاية الذل والهوان.

قال السدي:"كان من شأن فرعون أنه رأى رؤيا في منامه أن نارا أقبلت من بيت المقدس حتى اشتملت على بيوت مصر فأحرقت القبط وتركت بني إسرائيل، وأحرقت بيوت مصر، فدعا السحرة والكهنة والقافة والحازة- وأما القافة: فهم العافة. وأما الحازة: فهم الذين يزجرون الطير- فسألهم عن رؤياه فقالوا له: يخرج من هذا البلد الذي جاء بنو إسرائيل منه يعني بيت المقدس رجل يكون على وجهه هلاك مصر، فأمر بني إسرائيل أن لا يولد غلام إلا ذبحوه ولا يولد لهم جارية إلا تركت، وقال للقبط: انظروا مملوكيكم الذين يعملون خارجا فأدخلوهم واجعلوا بني إسرائيل يلون تلك الأعمال القذرة. فجعل بني إسرائيل في أعمال غلمانهم.

=

=

فجعل لا يولد لبني إسرائيل مولود إلا ذبح، فلا يكبر الصغير، وقذف الله في مشيخة بني إسرائيل الموت فأسرع فيهم، فدخل رؤوس القبط على فرعون فكلموه فقالوا: إن هؤلاء القوم قد وقع فيهم الموت فيوشك أن يقع العمل على غلماننا بذبح أبنائهم فلا يبلغ الصغار فيفنى الكبار، فلو أنك كنت تبقي من أولادهم؟ فأمر أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة".

وقيل غير هذا، والمعنى متقارب.

قوله تعالى: {وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ} [إبراهيم: ٦]، أي: "ويستبقون نساءكم للخدمة والامتهان".

قال ابن أبي حاتم: "يعني: البنات".

قال الصابوني: أي: "يستبقون الإناث على قيد الحياة للخدمة".

قال الطبري: أي: "يستبقونهن فلا يقتلونهن".

قال المراغي: أي: "ويستبقون البنات إذلالا لكم حتى ينقرض شعبكم من البلاد".

قال الواحدي: "يَسْتَبْقُونهن، ولا يقتلونهن، ومنه قوله ﷺ: "اقتلوا شيوخ المشركين واستحيوا شرخهم"".

قال ابن عثيمين: "أي: يستبقون نساءكم؛ لأنه إذا ذهب الرجال، وبقيت النساء ذلّ الشعب، وانكسرت شوكته؛ لأن النساء ليس عندهن من يدافع، ويبقين خدماً لآل فرعون؛ وهذا. والعياذ بالله. من أعظم ما يكون من الإذلال؛ ومع هذا أنجاهم الله تعالى من آل فرعون، وأورثهم ديار آل فرعون، كما قال تعالى: {فَأَخْرَجْنَاهُمْ مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٥٧) وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٥٨) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ (٥٩)} [الشعراء: ٥٧ - ٥٩]، وقال تعالى: {كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٢٥) وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ (٢٦) وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ (٢٧) كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا

=

=

آخَرِينَ (٢٨)} [الدخان: ٢٥ - ٢٨]، وهم بنو إسرائيل".

وقال ابن جريج:"يسترقون نساءكم".

وضعّفه الطبري قائلا:"ذلك تأويل غير موجود في لغة عربية ولا أعجمية".

قال الواحدي:"فإن قيل: فما في استحياء النساء من سوء العذاب؟

قيل: إن استحياء النساء على ما كانوا يعملون بهن أشد في المحنة من قتلهن، لأنهن يستعبدن وينكحن على الاسترقاق، والاستبقاء للإذلال استبقاء محنة".

قوله تعالى: {وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} [إبراهيم: ٦]، أي:"وفي ذلكم البلاء والإنجاء اختبار لكم من ربكم عظيم".

قال ابن كثير:"أي: نعمة عظيمة منه عليكم في ذلك، أنتم عاجزون عن القيام بشكرها".

قال البغوي: " أي: في سومهم إياكم سوء العذاب محنة عظيمة".

قال ابن عثيمين:"أي: وفي إنجائكم من آل فرعون ابتلاء من الله ﷻ عظيم. أي: اختبار عظيم.؛ ليعلم من يشكر منكم، ومن لا يشكر".

قال الصابوني:"أي: فيما ذكر من العذاب المهين من الذبح والاستحياء، محنة واختبارٌ عظيم لكم من جهته تعالى بتسليطهم عليكم ليتميز البرُّ من الفاجر".

قال المراغي:"أي: وفي ذلكم العذاب والتنجية منه امتحان عظيم من ربكم، كما قال تعالى: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ}، وقوله: {من ربكم}: أي: من جهته تعالى بتسليطهم عليكم، وبعث موسى وتوفيقه لخلاصكم".

قال أبو حيان:"وفي قوله: {مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ} دليل على أن الخير والشرّ من الله تعالى، بمعنى أنه خالقهما، وفيه رد على النصارى ومن قال بقولهم: إن الخير من الله والشرّ من الشيطان.. وكونه عظيماً هو بالنسبة للمخاطب والسامع، لا بالنسبة إلى الله تعالى، لأنه يستحيل عليه اتصافه بالاستعظام".

=

=

وفي قوله تعالى: {وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ} [إبراهيم: ٦]، وجهان:

أحدهما: أن معناه: اختبار والامتحان. وهو قول جمهور أهل التفسير.

الثاني: أن معناه: نعمة، أي: نعمة من ربكم عظيمة. روي ذلك عن الحسن، وأبي مالك، والسدي، ومجاهد، وابن جريج.

قال السدي:"أما البلاء: فالنعمة". وروي عن أبي مالك، ومجاهد، وابن جريج. نحوه.

قال مجاهد:"نعمة من ربكم عظيمة".

قال ابن جريج:"نعمة عظيمة".

والظاهر -والله أعلم- أن كلا القولين صحيح، لأن " {وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ}، راجع إلى الأمرين: إلى المنحة التي هي الإنجاء من آل فرعون المقتضية للشكر، وإلى المحنة التي هي ذبحهم واستحياؤهم للنساء المقتضية للصبر".

وقال البغوي:"فـ «البلاء»: يكون بمعنى النعمة وبمعنى الشدة، فالله تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر، وعلى الشدة بالصبر، وقال الله تعالى: {ونبلوكم بالشر والخير فتنة"} [الأنبياء:٣٥]".

وقال ابن عطية:"ويكون «الْبَلاءُ» في الخير والشر".

وقال الواحدي:"والذي في هذه الآية يحتمل الوجيهن، فإن حملته على الشدة، كان معناه: في أستحياء البنات للخدمة وذبح البنين بلاء ومحنة".

وقال النسفي: في تفسير قوله {وَفِى ذَالِكُم بَلاءٌ}،أي: "محنة إن أشير بذلكم إلى صنع فرعون، ونعمة إن أشير به إلى الانتجاء".

واختلف أهل التفسير في مرجع الإشارة في قوله تعالى: {وَفِي ذلِكُمْ} [إبراهيم: ٦]، على ثلاثة أوجه:

أحدها: إشارة إلى جملة الأمر، إذ هو خبر فهو كمفرد حاضر، و «بَلاءٌ»، معناه:

=

وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧).
{وَإِذْ تَأَذَّنَ} أَعْلَمَ {رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ} نِعْمَتِي بِالتَّوْحِيدِ وَالطَّاعَة {لَأَزِيدَنكُمْ

=

امتحان واختبار، ويكون الْبَلاءُ في الخير والشر.

الثاني: الإشارة بـ {ذلِكُمْ}، إلى التنجية من بني إسرائيل، فيكون الْبَلاءُ على هذا في الخير، أي وفي تنجيتكم نعمة من الله عليكم.

الثالث: الإشارة إلى الذبح ونحوه، و «الْبَلاءُ» -هنا- في الشر، والمعنى: وفي الذبح مكروه وامتحان.

وقد رجح الجمهور القول الأول، لأن (البلاء) يكون في الخير والشر. والله أعلم.

وأصل «البلاء» في كلام العرب: الاختبار والامتحان، ثم يستعمل في الخير والشر، لأن الامتحان والاختبار قد يكون بالخير كما يكون بالشر، كما قال ربنا جل ثناؤه: {وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ} [الأعراف: ١٦٨]، يقول: اختبرناهم، وكما قال جل ذكره: {وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً} [الأنبياء: ٣٥]. ثم تسمي العرب الخير " بلاء " والشر " بلاء". غير أن الأكثر في الشر أن يقال: " بلوته أبلوه بلاء "، وفي الخير: " أبليته أبليه إبلاء وبلاء "، ومن ذلك قول زهير بن أبي سلمى:

جزى الله بالإحسان ما فعلا بكم ... وأبلاهما خير البلاء الذي يبلو

فجمع بين اللغتين، لأنه أراد: فأنعم الله عليهما خير النعم التي يختبر بها عباده.

قال الراغب: وفي هذه الآية" حث لنا على تذكر نعمه ومراعاتها واحدة واحدة، وتجديد الشكر لكل منها".

وقال البيضاوي: " وفي الآية تنبيه على أن ما يصيب العبد من خير أو شر إختبار من الله تعالى، فعليه أن يشكر على مساره ويصبر على مضاره ليكون من خير المختبرين".

وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ} جَحَدْتُمْ النِّعْمَة بِالْكُفْرِ وَالْمَعْصِيَة لَأُعَذِّبَنكُمْ دَلَّ عَلَيْهِ {إنَّ عَذَابِي لشديد}.

وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨).

{وَقَالَ مُوسَى} لِقَوْمِهِ {إنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْض جَمِيعًا فَإِنَّ الله لَغَنِيّ} عَنْ خَلْقه {حَمِيد} مَحْمُود فِي صُنْعه بِهِمْ[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: ٧].

أي: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم، ويحتمل أن يكون المعنى: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كقوله تعالى (وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة).

(لئن شكرتم لأزيدنكم) أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها.

قال الشوكاني: والمعنى: لأن شكرتم إنعامي عليكم بما ذكر لأزيدنكم نعمة إلى نعمة تفضلا مني. وقيل: لأزيدنكم من طاعتي. وقيل: لأزيدنكم من الثواب. والأول أظهر، فالشكر سبب المزيد.

فإن الشكر قيد الموجود وصيد المفقود.

قال القرطبي:"قيل: هو من قول موسى لقومه. وقيل هو من قول الله، أي: واذكر يا محمد إذ قال ربك كذا".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: واذكروا أيضًا حين آذنكم رَبُّكم: لئن شكرتم ربَّكم، بطاعتكم إياه فيما أمركم ونهاكم، لأزيدنكم في أياديه عندكم ونعمهِ عليكم، على ما قد أعطاكم من النجاة من آل فرعون والخلاص مِنْ عذابهم".

قال الربيع:"أخبرهم موسى عليه السلام عن ربه ﷻ، أنهم إن شكروا النعمة، زادهم من فضله وأوسع لهم في الرزق، وأظهرهم على العالمين.

قال قتادة:"حق على الله إن يعطي من سأله ويزيد من شكره، والله منعم يحب =

=

الشاكرين، فاشكروا لله نعمه".

قال سفيان:"لا تذهب أنفسكم إلى الدنيا فإنها أهون على الله من ذلك، ولكن يقول: لئن شكرتم هذه النعمة إنها مني لأزيدنكم من طاعتي".

وفي قوله تعالى: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ} [إبراهيم: ٧]، أقوال:

أحدها: معناه: وإذ سمع ربكم، قاله الضحاك.

الثاني: وإذ قال ربكم، قاله أبو مالك، وابن زيد، ومقاتل.

وذكر عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه كان يقرأ: " {وإذ تأذن ربكم} : «وَإِذْ قَالَ رَبُّكُمْ»".

الثالث: معناه: وإذ أعلمكم ربكم. قاله الحسن، والفراء، وابن قتيبة، والثعلبي، والقرطبي، وهو من: آذنتك بالأمر، ومنه «الأذان»، لأنه إعلام، قال الشاعر:

فلم نشعر بضوء الصبح حتى سَمِعْنا في مجالِسنا الأذينا

الرابع: معناه: وآذنكم ربكم، قاله أبو عبيدة.

الخامس: آذنكم وأعلمكم بوعده لكم. قاله ابن كثير.

السادس: معناه: وإذ أقسم ربكم وآلى بعزته وجلاله وكبريائه، كما قال: {وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ [مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ]} [الأعراف: ١٦٧]. أفاده ابن كثير.

قوله تعالى (ولئن كفرتم) أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها، فالمراد بالكفر هنا كفر النعمة.

والمراد بالكفر في قوله: «ولئن كفرتم» كفر النعمة وجحودها، وعدم نسبتها إلى واهبها الحقيقي وهو الله- تعالى- كما قال قارون إنما أوتيته على علم عندي وعدم استعمالها فيما خلقت له، إلى غير ذلك من وجوه الانحراف بها عن الحق.

وفي قوله تعالى: {لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ} [إبراهيم: ٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: لئن شكرتم إنعامي لأزيدنكم من فضلي، قاله الربيع.

=

=

قال ابن كثير:"أي: لئن شكرتم نعمتي عليكم لأزيدنكم منها".

الثاني: لئن شكرتم نعمتي لأزيدنكم من طاعتي، قاله الحسن، وأبو صالح، وسفيان.

قال الطبري:"ولا وجهَ لهذا القول يُفْهَم، لأنه لم يجرِ للطاعة في هذا الموضع ذكرٌ فيقال: إن شكرتموني عليها زدتكم منها، وإنما جَرَى ذكر الخبر عن إنعام الله على قوم موسى بقوله: {وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ}، ثم أخبرهم أن الله أعلمهم إن شكروه على هذه النعمة زادهم. فالواجب في المفهوم أن يكون معنى الكلام: زادهم من نعمه، لا مما لم يجرِ له ذكر من "الطاعة"، إلا أن يكون أريد به: لئن شكرتم فأطعتموني بالشكر، لأزيدنكم من أسباب الشكر ما يعينكم عليه، فيكون ذلك وجهًا".

الثالث: لئن وحّدتم وأطعتم لأزيدنكم، قاله ابن عباس.

الرابع: لئن آمنتم لأزيدنكم من نعيم الآخرة إلى نعيم الدنيا. أفاده الماوردي.

قال الماوردي:"وسُئِل بعض الصلحاء على شكر الله تعالى، فقال: أن لا تتقوى بنِعَمِهِ على معاصيه، وحكي أنَّ داود عليه السلام قال: أي ربِّ كيف أشكرك وشكري لك نعمة مجددة منك عليّ؟ قال: «يا داود الآن شكرتني»".

قال التستري:"شكر العلم العمل، وشكر العمل زيادة العلم، فهو أبدا في هذا، وهذه حاله. وقال: الشكر أن تريد المزيد، وإلا شكر مطعون، وحقيقة العجز الاعتراف به. وقد حكي أن داود عليه السلام قال: يا رب كيف أشكرك، وشكري إياك تجديد منة منك علي؟ قال الله تعالى: الآن شكرتني".

قوله تعالى: {وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} [إبراهيم: ٧]، أي:"ولئن جحدتم نعمة الله ليعذبنَّكم عذابًا شديدًا".

قال الطبري:"يقول: ولئن كفرتم، أيها القوم، نعمةَ الله، فجحدتموها بتركِ شكره

=

=

عليها وخلافِهِ في أمره ونهيه، وركوبكم معاصيه {إن عَذَابي لشديد}، أعذبكم كما أعذب من كفر بي من خلقي".

قال ابن كثير:"أي: كفرتم النعم وسترتموها وجحدتموها {إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ} وذلك بسلبها عنهم، وعقابه إياهم على كفرها".

قال الماوردي:"وعد الله تعالى بالزيادة على الشكر، وبالعذاب على الكفر".

وقد جاء في الحديث: "إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه".

قوله تعالى: {وَقَالَ مُوسَى إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا} [إبراهيم: ٨]، أي:"وقال موسى لبني إسرائيل بعد أن أيس من إيمانهم لئن كفرتم أنتم وجميع الخلائق فلن تضروا الله شيئا".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقال موسى لقومه: إن تكفروا، أيها القوم، فتجحدوا نعمةَ الله التي أنعمها عليكم، أنتم ويفعل في ذلك مثل فعلكم مَنْ في الأرض جميعًا".

قوله تعالى: {فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ} [إبراهيم: ٨]، أي:"فإن الله لغني عن خلقه، مستحق للحمد والثناء، محمود في كل حال".

قال علي:"غني عن خلقه، {حميد} قال: مُسْتَحْمِدٌ إليهم".

قال السمعاني:"أي: غني عن خلقه، حميد في فعله".

قال الطبري: أي:"{فإن الله لغني} عنكم وعنهم من جميع خلقه، لا حاجة به إلى شكركم إياه على نعمه عند جميعكم، {حميد} ذُو حمد إلى خلقه بما أنعم به عليهم".

قال ابن كثير:"أي: هو غني عن شكر عباده، وهو الحميد المحمود، وإن كفره من كفره، كما قال: {إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ} [الزمر: ٧] وقال تعالى: {فَكَفَرُوا وَتَوَلَّوْا وَاسْتَغْنَى اللهُ وَاللهُ

=

=

غَنِيٌّ حَمِيدٌ} [التغابن: ٦]".

وفي صحيح مسلم، عن أبي ذر، عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه، ﷻ، أنه قال: "يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أتقى قلب رجل منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، كانوا على أفجر قلب رجل منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئا. يا عبادي، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئًا، إلا كما ينقُص المخْيَط إذا أدخل في البحر". فسبحانه وتعالى الغني الحميد".

قال السعدي: هو الغني بذاته، الذي له الغنى التام المطلق، من جميع الوجوه، والاعتبارات لكماله، وكمال صفاته، فلا يتطرق إليها نقص بوجه من الوجوه، ولا يمكن أن يكون إلا غنيا، لأن غناه من لوازم ذاته، كما لا يكون إلا خالقا قادرا رازقا محسنا فلا يحتاج إلى أحد بوجه من الوجوه، فهو الغني الذي بيده خزائن السماوات والأرض، وخزائن الدنيا والآخرة، المغني جميع خلقه غنى عاما.

قال: ومن كمال غناه: أنه لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ولا شريكا في الملك، ولا وليا من الذل.

وقال الخطابي: الغني: هو الذي استغنى عن الخلق وعن نصرتهم وتأييدهم لملكه، فليست به حاجة إليهم، وهم إليه فقراء محتاجون.

(حميد) وهو الحميد المحمود وإن كفره من كفره.

-قال البقاعي: ولما كان من حث على شيء وأثاب عليه أو نهى عنه وعاقب على فعله يكون لغرض له، بين أن الله سبحانه متعال عن أن يلحقه ضر أو نفع، وأن ضر ذلك ونفعه خاص بالعبد فقال تعالى حاكيا عنه: {وقال موسى} مرهبا لهم معلما أن وبال الكفران خاص بصاحبه {إن تكفروا} والكفر: تضييع حق النعمة

=

أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا

=

بجحدها أو ما يقوم في العظم مقامه {أنتم ومن في الأرض} وأكد بقوله: {جميعا} فضرره لاحق بكم خاصة غير عائد على الله شيء منه.

-وقال الرازي: اعلم أن موسى عليه السلام لما بين أن الاشتغال بالشكر يوجب تزايد الخيرات في الدنيا وفي الآخرة، والاشتغال بكفران النعم يوجب العذاب الشديد، وحصول الآفات في الدنيا والآخرة، بين بعده أن منافع الشكر ومضار الكفران لا تعود إلا إلى صاحب الشكر وصاحب الكفران أما المعبود والمشكور فإنه متعال عن أن ينتفع بالشكر أو يستضر بالكفران، فلا جرم قال تعالى (وقال موسى إن تكفروا أنتم ومن في الأرض جميعا فإن الله لغنى حميد).

والغرض منه بيان أنه تعالى إنما أمر بهذه الطاعات لمنافع عائدة إلى العابد لا لمنافع عائدة إلى المعبود، والذي يدل على أن الأمر كذلك ما ذكره الله في قوله (إن الله لغنى). انتهى.

كقوله تعالى (إن تكفروا فإن الله غني عنكم).

وقوله (فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غني حميد).

وفي صحيح مسلم عن أبي ذر عن رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ أنه قال (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أتقى قلب رجل واحد منكم، ما زاد ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد منكم، ما نقص ذلك في ملكي شيئا، يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد، فسألوني، فأعطيت كل إنسان مسألته، ما نقص ذلك من ملكي شيئا إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر) فسبحانه وتعالى الغني الحميد.

كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩).

{أَلَمْ يَأْتِكُمْ} اسْتِفْهَام تَقْرِير {نَبَأ} خَبَر {الَّذِينَ مِنْ قَبْلكُمْ قَوْم نُوح وَعَادٍ} قَوْم هُود {وَثَمُود} قَوْم صَالِح {وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدهمْ لَا يَعْلَمهُمْ إِلَّا الله} لِكَثْرَتِهِمْ {جَاءَتْهُمْ رُسُلهمْ بِالْبَيِّنَاتِ} بِالْحُجَجِ الْوَاضِحَة عَلَى صِدْقهمْ {فَرَدُّوا} أَيْ الْأُمَم {أَيْدِيهمْ فِي أَفْوَاههمْ} أَيْ إِلَيْهَا لِيَعَضُّوا عَلَيْهَا مِنْ شِدَّة الْغَيْظ {وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ} فِي زَعْمكُمْ {وَإِنَّا لَفِي شَكّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيب} مُوقِع فِي الرِّيبَة[١].

---

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ} [إبراهيم: ٩]، أي:"ألم يأتكم -يا أمَّة محمد- خبر الأمم التي سبقتكم، قوم نوح وقوم هود وقوم صالح".

يرى بعض المفسرين أن الآية من تتمة كلام موسى- عليه السلام- فيكون المعنى: أن موسى- عليه السلام- بعد أن ذكر قومه بأيام الله- تعالى-، وبنعمه عليهم، وبسننه- سبحانه- في خلقه...

بعد كل ذلك شرع في تذكيرهم وتخويفهم عن طريق ما حل بالمكذبين من قبلهم، فقال لهم- كما حكى القرآن عنه-: ألم يأتكم نبؤا الذين من قبلكم....

ومنهم من يرى أن الآية الكريمة كلام مستأنف، والخطاب فيه لأمة الرسول ﷺ فيكون المعنى: أن الله- تعالى- بعد أن بين للناس أنه قد أنزل كتابه على رسوله ﷺ لإخراجهم من الظلمات إلى النور، وبين- سبحانه- أن له ما في السموات وما في الأرض، وهدد الكافرين بالعذاب الشديد، وحكى ما قاله موسى لقومه...

بعد كل ذلك وجه- سبحانه- الخطاب إلى مشركي مكة وإلى كل من كان على شاكلتهم فقال: ألم يأتكم نبؤا الذين من قبلكم.... واختار هذا ابن المعنى ابن كثير.

=

=

قال الرازي: ويجوز أن يكون مخاطبة من الله تعالى على لسان موسى لقومه يذكرهم أمر القرون الأولى، والمقصود إنما هو حصول العبرة بأحوال المتقدمين، وهذا المقصود حاصل على التقديرين إلا أن الأكثرين ذهبوا إلى أنه ابتداء مخاطبة لقوم الرسول ﷺ.

قال الزجاج:"أي: ألم يأتهم أخبار أولئك والنوازل بهم".

قال ابن جرير الطبري:"يقول تعالى ذكره، مخبراً عن قيل موسى لقومه: يا قوم {ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم}، يقول: خبر الذين من قبلكم من الأمم التي مضت قبلكم {قومِ نوح وعاد وثمودَ}".

قال ابن كثير:"وفيما قال ابن جرير نظر؛ والظاهر أنه خبر مستأنف من الله تعالى لهذه الأمة، فإنه قد قيل: إن قصة عاد وثمود ليست في التوراة، فلو كان هذا من كلام موسى لقومه وقَصَه عليهم ذلك فلا شك أن تكون هاتان القصتان في "التوراة"، والله أعلم".

(ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود...) أي: لقد علمتم يا أهل مكة ما حل بقوم نوح وعاد وثمود، كما علمتم ما حل بالمكذبين من بعدهم كقوم لوط وقوم شعيب، وكغيرهم ممن لا يعلم أحوالهم وعددهم إلا الله- تعالى- وما دام الأمر كذلك فاعتبروا واتعظوا واتبعوا هذا الرسول الكريم الذي جاء لسعادتكم، لكي تنجوا من العذاب الأليم الذي حل بالظالمين من قبلكم.

وجملة جاءتهم رسلهم بالبينات مستأنفة في جواب سؤال مقدر، كأنه قيل ما قصة هؤلاء الأقوام وما خبرهم؟

- والاستفهام في قوله (ألم يأتكم..) للتقرير لأنهم قد بلغتهم أخبارهم، فقوم نوح بلغتهم أخبارهم بسبب خبر الطوفان الذي كان مشهورا بينهم، وقوم عاد وثمود بلغتهم أخبارهم لأنهم من العرب، ومساكنهم في بلادهم، وهم يمرون على ديار

=

=

قوم صالح في أسفارهم إلى بلاد الشام للتجارة. والمراد بالذين من بعدهم: أولئك الأقوام الذين جاءوا من بعد قوم نوح وعاد وثمود، كقوم إبراهيم وقم لوط وغيرهم.

قال البقاعي: (قوم) أي نبأ قوم (نوح) وكانوا ملء الأرض (و) نبأ (عاد) وكانوا أشد الناس أبدانا وأثبتهم جنانا (و) نبأ (ثمود) وكانوا أقوى الناس على نحت الصخور وبناء القصور.

قوله تعالى: {وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ} [إبراهيم: ٩].

أي: لا يعلم عدد الأقوام الذين جاءوا بعد قوم نوح وعاد وثمود ولا يعلم ذواتهم وأحوالهم إلا الله تعالى.

-قال القرطبي: أي لا يحصي عددهم إلا الله، ولا يعرف نسبهم إلا الله

- قال ابن عاشور: الاستفهام إنكاري لأنهم قد بلغتهم أخبارهم، فأما قوم نوح فقد تواتر خبرهم بين الأمم بسبب خبر الطوفان، وأما عاد وثمود فهم من العرب ومساكنهم في بلادهم وهم يمرون عليها ويخبر بعضهم بعضا بها، قال تعالى (وسكنتم في مساكن الذين ظلموا أنفسهم وتبين لكم كيف فعلنا بهم) وقال (وإنكم لتمرون عليهم مصبحين وبالليل أفلا تعقلون).

(والذين من بعدهم) يشمل أهل مدين وأصحاب الرس وقوم تبع وغيرهم من أمم انقرضوا وذهبت أخبارهم فلا يعلمهم إلا الله، وهذا كقوله تعالى (وعادا وثمودا وأصحاب الرس وقرونا بين ذلك كثيرا).

ومثل هذه الآية قوله تعالى (ألم يأتهم نبأ الذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون).

- النبأ هو الخبر، والنبأ أخص من الخبر، فكل نبأ خبر وليس كل خبر نبأ، لأن النبأ

=

=

لا يطلق إلا على الخبر الخاص، وهو الخبر الذي له خطب وشأن، وهلاكهم وتهديد ووعيدهم نبأ عظيم له شأن وخطب جسيم.

وإنما كانت هذه الأنباء عن هذه القرى أخبار لها خطب وشأن؛ لأنها دلت على كمال قدرة الله، وعلى صبر أنبيائه، وعلى شدة بطشه وعدالته وإنصافه، وإهلاكه للظالمين، وأن فيها من التخويف للموجودين من عذاب الله وسخطه ما ينهاهم أن يقع منهم مثل ما وقع من الأولين، ولذا كان لها شأن وخطب؛ ولذا قال (نقص عليك من أنبآئها).

(قوم نوح) وما أصابهم من الغرق العام لجميع أهل الأرض، إلا من آمن بعبده ورسوله نوح، عليه السلام.

- وقد بين الله قصة قوم نوح وشرحها في آيات كثيرة من كتابه، ذكر طغيانهم وتمردهم، وشدة عصيانهم لنبي الله، وطول مكثه فيهم وهم لا يزدادون إلا عتوا، فأهلكهم الله هلاكا مستأصلا، وهذا ذكره الله في آيات كثيرة مشهورة.

كقوله (وقوم نوح لما كذبوا الرسل أغرقناهم وجعلناهم للناس آية).

وكقوله (ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عاما فأخذهم الطوفان وهم ظالمون).

(وعاد) كيف أهلكوا بالريح العقيم، لما كذبوا هودا، عليه السلام.

كما قال تعالى (وفي عاد إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم).

وقال تعالى (كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر. إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر. تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر).

وقال تعالى (وأما عاد فأهلكوا بريح صرصر عاتية. سخرها عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية).

=

(وثمود) كيف أخذتهم الصيحة لما كذبوا صالحا عليه السلام، وعقروا الناقة.
- وكانت ثمود بعد عاد، ومساكنهم مشهورة فيما بين الحجاز والشام إلى وادي القرى وما حوله، وقد مر رسول الله ﷺ على قراهم ومساكنهم، وهو ذاهب إلى تبوك سنة تسع.
قال تعالى (وأخذ الذين ظلموا الصيحة فأصبحوا في ديارهم جاثمين).
وقال تعالى (فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين).
- قوله تعالى (فأخذتهم الرجفة) قال الفراء والزجاج: هي الزلزلة الشديدة.
- قال الشنقيطي: الرجفة هي الاضطراب الشديد، أي: رجفت بهم الأرض واضطربت اضطرابا شديدا.
ولا منافاة: فالظاهر أن الملك لما صاح بهم اضطربت الأرض من تحتهم فأهلكهم الله بهما جميعا.
ونجى الله صالحا ومن معه:
قال تعالى (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا).
قال البغوي:"يعني: من كان بعد قوم نوح وعاد وثمود".
قال الطبري:"يقول: لا يحصي عَدَدهم ولا يعلَمُ مبلغهم إلا الله".
قال الزجاج:"فأعلم الله أن بعد هؤلاء أمما قد مضى من كان يعلم أنباءها، ومن هذا قيل: كذب النسابون لأنهم لا يعلمون من كان بعد هؤلاء.
قال ابن كثير: أي: "وغيرهم من الأمم المكذبة للرسل، مما لا يحصي عددهم إلا الله ﷻ".
وفي قوله تعالى: {وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ} [إبراهيم: ٩]، وجهان:
أحدهما: يعني بعد من قص ذكره من الأمم السالفة قرون وأمم لم يقصها على رسول الله -ﷺ-، لا يعلمهم إلا الله عالم ما في السموات والأرض.

=

عن عمرو بن ميمون: " {وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله}، قال: كذَب النسَّابون".

الثاني: ما بين عدنان وإسماعيل من الآباء.

وروى الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، قال: "بين عدنان وإسماعيل ثلاثون أبـًا لا يعرفون".

قال عروة بن الزبير: "ما وجدنا أحدا يعرف ما وراء معد بن عدنان".

قال الواحدي: "قال ابن الأنباري: فمن بني على هذه الآثار، قال مَنْ فوق عدنان منقطعة معرفتهم عن قلوب الناس، إلا من كان من الأنبياء الذين نوه الله بأسمائهم، وعلى قول هؤلاء: لا يعرف النسابون أحدًا ممن قال الله تعالى: {لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ}، لأن الله تعالى أهلك أممًا من العرب وغيرها فانقطعت أخبارهم وعفت آثارهم وبطلت أنسابهم".

وكان ابن مسعود يقرأ: " «وَعَادًا وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلا اللهُ»، ثم يقول: كذب النسابون".

قال الزمخشري: "{والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله}، جملة من مبتدإ وخبر، وقعت اعتراضا: أو عطف الذين من بعدهم على قوم نوح. ولا يعلمهم إلا الله اعتراض. والمعنى: أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله".

قال الآلوسي: "قوله تعالى: لا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللهُ اعتراض أو الموصول مبتدأ وهذه الجملة خبره وجملة المبتدأ وخبره اعتراض، والمعنى على الوجهين أنهم من الكثرة بحيث لا يعلم عددهم إلا الله تعالى، ومعنى الاعتراض على الأول ألم يأتكم أنباء الجم الغفير الذي لا يحصى كثرة فتعتبروا بها إن في ذلك لمعتبرا، وعلى الثاني هو ترق، ومعناه: ألم يأتكم نبأ هؤلاء ومن لا يحصى عددهم كأنه يقول: دع التفصيل فإنه لا مطمع في الحصر، وفيه لطف لإيهام الجمع بين

=

=

الإجمال والتفصيل ولذا جعله الزمخشري أول الوجهين".

قوله تعالى: {جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ} [إبراهيم: ٩]، أي:"جاءتهم رسلهم بالبراهين الواضحات".

قال السمعاني:"أي: بالدلالات الواضحات".

قال الطبري:"يقول: جاءت هؤلاء الأمم رسلُهم الذين أرسلهم الله إليهم بدعائهم إلى إخلاص العبادة له {بالبينات}، يعني بحججٍ ودلالاتٍ على حقيقة ما دعوهم إليه من مُعْجِزاتٍ".

قال ابن كثير:"أتتهم رسلهم بالبينات، أي: بالحجج والدلائل الواضحات الباهرات القاطعات".

قوله تعالى: {فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ} [إبراهيم: ٩].

يعني بالدلالات الواضحات والمعجزات الباهرات، فبين كل رسول منهم لأمته طريق الحق وهداهم إليه ليخرجهم من الظلمات إلى النور.

وفي قوله تعالى: {فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ} [إبراهيم: ٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: أنهم عضوا على أصابعهم تغيظًا عليهم، قاله ابن مسعود، وابن زيد.

قال ابن زيد:"أدخلوا أصابعهم في أفواههم قال: وإذا غضب الإنسان، عض علي يده".

واختار النحاس هذا القول، وقال:"والدليل على صحة هذا القول قوله ﷻ: {وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الْأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ} [آل عمران: ١١٩]، قال الشاعر:

لَوْ أَنَّ سَلْمَى أَبْصرَتْ تَخَدُّدِي ودِقَّةً في عَظْمِ سَاقِي ويَدِي
وبُعْدَ أَهْلِي وجَفَاءَ عُوَّدِي عَضَّتْ مِنَ الوَجْدِ بأَطْرافِ اليَدِ"

واختاره القرطبي أيضا، وقال بأنه أصح الأقوال إسنادا.

وقال ابن قتيبة:"أي عضوا عليها حنقا وغيظا. كما قال الشاعر:

=

=

يردون في فيه عشر الحسود

يعني: أنهم يغيظون الحسود حتى يعض على أصابعه العشر، ونحوه قول الهذلي:

قـــد افنـــى أناملـــه أزمـــه فأضـحى يعـض علـي الوظيفـا

يقول: قد أكل أصابعه حتى أفناها بالعض، فأضحى يعض علي وظيف الذراع، وهكذا فسر هذا الحرف ابن مسعود واعتباره قوله ﷻ في موضع آخر: {وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ}".

الثاني: أنهم لما سمعوا كتاب الله عجبوا منه ووضعوا أيديهم على أفواههم، قاله ابن عباس.

وقال مقاتل:"يقول: وضع الكفار أيديهم في أفواههم".

الثالث: معناه: أنهم كانوا إذا قال لهم نبيهم إني رسول الله إليكم، أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم بأن اسكت تكذيباً له ورداً لقوله، قاله أبو صالح، وذكره الزجاج.

وأخرج ابن ابي حاتم عن محمد بن كعب القرظي - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - " {فردوا أيديهم في أفواههم}، قال: هو التكذيب".

الرابع: معناه: أنهم كذبوهم بأفواههم، أي: ردوا عليهم قولهم وكذَّبوهم، قاله مجاهد، وقتادة.

قال قتادة:"يقول: قومُهم كذّبوا رسلهم وردُّوا عليهم ما جاءوا به من البينات، وردُّوا عليهم بأفواههم، وقالوا: إنا لفي شك مما تَدعوننا إليه مُرِيب".

وقال قتادة:"ردوا على الرسل ما جاءت به".

قال الطبري:"وكأنّ مجاهدًا وجَّه قوله: {فردُّوا أيديهم في أفواههم}، إلى معنى: ردُّوا أيادى الله التي لو قبلوها كانت أياديَ ونعمًا عندهم، فلم يقبلوها ووجَّه قوله: {في أفواههم}، إلى معنى: بأفواههم، يعني: بألسنتهم التي في أفواههم، وقد ذكر عن بعض العرب سَماعًا:"أدخلك الله بالجنَّة"، يعنون: في الجنة، وينشد هذا

=

=

البيت:

وَأَرْغَبُ فِيهَا عَنْ لَقِيطٍ وَرَهْطِهِ وَلَكِنَّنِي عَنْ سِنْبِسٍ لَسْتُ أَرْغَبُ

يريد: وأرغب بها، يعنى بابنة له، عن لقيط، ولا أرغبُ بها عن قبيلتي".

الخامس: أنهم كانوا يضعون أيديهم على أفواه الرسل رداً لقولهم، قاله الحسن.

السادس: أن «الأيدي» هي النعم، ومعناه: أنهم ردوا نعمهم بأفواههم جحوداً لها. ذكره الماوردي.

السابع: أن هذا مثل أريد به أنهم كفوا عن قبول الحق ولم يؤمنوا بالرسل، كما يقال لمن أمسك عن الجواب: رَدّ في فيه. وهذا قول أبي عبيدة.

قال ابن قتيبة:"قال أبو عبيدة: تركوا ما أمروا به، ولم يسلموا، ولا أعلم أحدا قال: رد يده في فيه؛ إذا أمسك عن الشيء!".

وذكره الطبري عن آخرين، ثم قال:"وهذا أيضًا قول لا وَجْه له، لأن الله عزَّ ذكره، قد أخبر عنهم أنهم قالوا: " إنا كفرنا بما أرسلتم به"، فقد أجابوا بالتكذيب".

قال الطبري:"وأشبه هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل هذه الآية، القولُ الذي ذكرناه عن عبد الله بن مسعود: أنهم ردُّوا أيديهم في أفواههم، فعضُّوا عليها، غيظًا على الرسل، كما وصف الله جل وعز به إخوانهم من المنافقين، فقال: (وَإِذَا خَلَوْا عَضُّوا عَلَيْكُمُ الأَنَامِلَ مِنَ الْغَيْظِ) [سورة آل عمران: ١١٩]. فهذا هو الكلام المعروف والمعنى المفهوم من: «ردِّ اليدِ إلى الفم»".

قال الشنقيطي: اختلف العلماء في معنى هذه الآية الكريمة:

فقال بعض العلماء: معناها أن أولئك الكفار جعلوا أيدي أنفسهم في أفواههم ؛ ليعضوا عليها غيظا وحنقا لما جاءت به الرسل ؛ إذ كان فيه تسفيه أحلامهم، وشتم أصنامهم.

وممن قال بهذا القول عبد الله بن مسعود، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، واختاره

=

=

ابن جرير، واستدل له بقوله تعالى (وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ).

وقال بعضهم: أنهم لما سمعوا كتاب الله عجبوا ورجعوا بأيديهم إلى أفواههم من العجب.

ويروى عن ابن عباس.

وقيل: أنهم كانوا إذا قال لهم نبيهم: أنا رسول الله إليكم، أشاروا بأصابعهم إلى أفواههم أن اسكت تكذيبا له وردا لقوله. ويروى هذا عن أبي صالح.

وقيل: أن معنى الآية أنهم ردوا على الرسل قولهم وكذبوهم بأفواههم، فالضمير الأول للرسل والثاني للكفار، وعلى هذا القول فـ «في» بمعنى الباء. ويروى هذا القول عن مجاهد، وقتادة، ومحمد بن كعب.

قال ابن كثير: ويؤيد هذا القول تفسير ذلك بتمام الكلام، وهو قوله تعالى (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب).

قال مقيده عفا الله عنه: الظاهر عندي خلاف ما استظهره ابن كثير رحمه الله تعالى ؛ لأن العطف بالواو يقتضي مغايرة ما بعده لما قبله، فيدل على أن المراد بقوله: فردوا أيديهم الآية غير التصريح بالتكذيب بالأفواه، والعلم عند الله تعالى.

وقيل: المعنى أن الكفار جعلوا أيديهم في أفواه الرسل ردا لقولهم.

وقيل: جعل الكفار أيدي الرسل على أفواه الرسل ليسكتوهم ويقطعوا كلامهم، ويروى هذا عن مقاتل. (أضواء البيان).

- قال ابن عاشور: معنى (فردوا أيديهم في أفواههم) يحتمل عدة وجوه أنهاها في "الكشاف" إلى سبعة وفي بعضها بعد، وأولاها بالاستخلاص أن يكون المعنى: أنهم وضعوا أيديهم على أفواههم إخفاء لشدة الضحك من كلام الرسل كراهية أن تظهر دواخل أفواههم.

وذلك تمثيل لحالة الاستهزاء بالرسل.

=

قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠).

{قَالَتْ رُسُلهمْ أَفِي الله شَكّ} اسْتِفْهَام إنْكَار أَيْ لَا شَكّ فِي تَوْحِيده لِلدَّلَائِلِ الظَّاهِرَة عَلَيْهِ {فَاطِر} خَالِق {السَّمَاوَات وَالْأَرْض يَدْعُوكُمْ} إلَى طَاعَته {لِيَغْفِر لَكُمْ مِنْ ذُنُوبكُمْ} مِنْ زَائِدَة فَإِنَّ الْإِسْلَام يُغْفَر بِهِ مَا قَبْله أَوْ تَبْعِيضِيَّةٌ لِإِخْرَاجِ حُقُوق الْعِبَاد {وَيُؤَخِّركُمْ} بِلَا عَذَاب {إلَى أَجَل مُسَمًّى} أَجَل الْمَوْت {قَالُوا إنْ} مَا {أَنْتُمْ إلَّا بَشَر مِثْلنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُد آبَاؤُنَا} مِنْ الْأَصْنَام {فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِين} حُجَّة ظَاهِرَة عَلَى صِدْقكُمْ.

=

والرد: مستعمل في معنى تكرير جعل الأيدي في الأفواه كما أشار إليه "الراغب". أي وضعوا أيديهم على الأفواه ثم أزالوها ثم أعادوا وضعها فتلك الإعادة رد. (التحرير والتنوير).

قوله تعالى: {وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ} [إبراهيم: ٩]، أي:"وقالوا لرسلهم: إنا لا نصدِّق بما جئتمونا به".

قال الطبري:"يقول ﷻ: وقالوا لرسلهم: إنا كفرنا بما أرسلكم به مَنْ أرسلكم، من الدعاء إلى ترك عبادة الأوثان والأصنام".

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ} [إبراهيم: ٩]، أي:"وإنا لفي شكٍّ مما تدعوننا إليه من الإيمان والتوحيد موجب للريبة".

قال الطبري: أي:"{وإنا لفي شك} من حقيقة ما تدعوننا إليه من توحيد الله {مُريب}، يقول: يريبنا ذلك الشك، أي يوجب لنا الريبَة والتُّهمَةَ فيه".

قال ابن عباس:"يقولون: لا نصدقكم فيما جئتم به، فإن عندنا فيه شكا قويا".

قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١).

{قَالَتْ لَهُمْ رُسُلهمْ إنْ} مَا {نَحْنُ إلَّا بَشَر مِثْلكُمْ} كَمَا قُلْتُمْ {وَلَكِنَّ الله يَمُنّ عَلَى مَنْ يَشَاء مِنْ عِبَاده} بِالنُّبُوَّةِ {وَمَا كَانَ} مَا يَنْبَغِي {لَنَا أَنْ نَأْتِيكُمْ بِسُلْطَانٍ إلَّا بِإِذْنِ الله} بِأَمْرِهِ لِأَنَّنَا عَبِيد مَرْبُوبُونَ {وَعَلَى الله فَلْيَتَوَكَّل الْمُؤْمِنُونَ} يَثِقُوا بِهِ.

وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢).

{وما لنا أَ} نْ {لَا نَتَوَكَّل عَلَى الله} أَيْ لَا مَانِع لَنَا مِنْ ذَلِكَ {وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا} عَلَى أَذَاكُمْ {وعلى الله فليتوكل المتوكلون}[1].

---

(١) قوله تعالى: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ} [إبراهيم: ١٠].

أي: قال الرسل لأقوامهم على سبيل الإنكار والتعجب من أقوالهم الباطلة: أفي وجود الله تعالى وفي وجوب إخلاص العبادة له شك.

والمعنى: قال الرسل لأقوامهم على سبيل الإنكار والتعجب من أقوالهم الباطلة: أفي وجود الله- تعالى- وفي وجوب إخلاص العبادة له شك، مع أنه- سبحانه- هو فاطر السماوات والأرض أي: خالقهما ومبدعهما ومبدع ما فيهما على أحكم نظام، وعلى غير مثال سابق... وهو- سبحانه- فضلا منه وكرما «يدعوكم» إلى الإيمان بما جئناكم به من لدنه «ليغفر لكم» بسبب هذا الإيمان «من ذنوبكم ويؤخركم» في هذه الدنيا «إلى أجل مسمى» أي: إلى وقت معلوم عنده تنتهي بانتهائه أعماركم، دون أن يعاجلكم خلال حياتكم بعذاب الاستئصال «رحمة بكم» وأملا في هدايتكم.

=

=

- قال ابن كثير: وهذا يحتمل شيئين.

أحدهما: أفي وجوده شك.

فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به، فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعضها شك واضطراب، فتحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السماوات والأرض الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما، فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا الله هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني: في قولهم: أفي الله شك أي أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له شك، وهو الخالق لجميع الموجودات، ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى.

(فاطر السماوات والأرض) أي: خالقهما ومبدعهما ومبدع ما فيهما على أحكم نظام، وعلى غير مثال سابق.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قالت رُسل الأمم التي أتتها رسُلها: {أفي الله} - أنه المستحق عليكم، أيها الناس، الألوهة والعبادةَ دون جميع خلقه - {شك}".

قال الواحدي:"هذا استفهام إنكار، أي: لا شك في الله، والمعنى: في توحيد الله".

قال البغوي:"هذا استفهام بمعنى نفي ما اعتقدوه".

وفي قوله تعالى: {أَفِي اللهِ شَكٌّ} [إبراهيم: ١٠]، ثلاثة وجوه:

أحدهما: أفي توحيد الله شك؟ قاله قتادة، ومقاتل.

الثاني: أفي طاعة الله شك؟.

والثالث: أفي قدرة الله شك؟ لأنهم متفقون عليها ومختلفون فيما عداها. أفاده

=

=
الماوردي.
قوله تعالى: {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [إبراهيم: ١٠]، أي:"وهو خالق السموات والأرض، ومنشئهما من العدم على غير مثال سابق".
قال مقاتل والطبري:"يعني: خالق السماوات والأرض".
قال ابن عطية:"«الفاطر»: المخترع المبتدي، وسوق هذه الصفة احتجاج على الشاكين يبين التوبيخ، أي: أيشك فيمن هذه صفته؟ فساق الصفة التي هي منصوبة لرفع الشك".
قوله تعالى: {يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ} [إبراهيم: ١٠]، أي:"هو يدعوكم إلى الإيمان؛ ليغفر لكم ما أسلفتم من الشرك".
قال الطبري:"يقول: يدعوكم إلى توحيده وطاعته، فيستر عليكم بعضَ ذنوبكم بالعفو عنها، فلا يعاقبكم عليها".
عن ابن جريج في قوله: " {يغفر لكم من ذنوبكم}، قال: الشرك".
وفي قوله تعالى: {مِنْ ذُنُوبِكُمْ} [إبراهيم: ١٠]، وجوه:
أحدهما: أن «من» زائدة، وتقديره: ليغفر لكم ذنوبكم، قاله أبو عبيدة.
قال أبو عبيدة: معناه: "ليغفر لكم ذنوبكم، و «من» من حروف الزوائد، وفى آية أخرى: {فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ} [الحاقة: ٤٧]، مجازه: ما منكم أحد، وقال [أبو ذؤيب]:

جزيتك ضعف الحبّ لما شكوته ... وما إن جزاك الضّعف من أحد قبلى

أي: أحد قبلى".
الثاني: ليست زائدة، ومعناه: أن تكون المغفرة بدلاً من ذنوبكم، فخرجت مخرج البدل. ذكره الماوردي.
الثالث: أنها للتبعيض، الوعد وقع بغفران الشرك وما معه من المعاصي. حكاه ابن
=

=

عطية عن سيبويه.

ورجّح ابن عطية القول الأخير، فقال: "وهو معنى صحيح، وذلك أن الوعد وقع بغفران الشرك وما معه من المعاصي، وبقي ما يستأنفه أحدهم بعد إيمانه من المعاصي مسكوتا عنه ليبقى معه في مشيئة الله تعالى، فالغفران إنما نفذ به الوعد في البعض، فصح معنى {مِن}".

قال الشوكاني: قوله (ومن) في قوله «من ذنوبكم» قال أبو عبيدة: إنها زائدة، ووجه ذلك قوله- تعالى- في موضع آخر: إن الله يغفر الذنوب جميعا وقال سيبويه: هي للتبعيض، ويجوز أن يذكر البعض ويراد منه الجميع، وقيل التبعيض على حقيقته ولا يلزم من غفران الذنوب لأمة محمد ﷺ غفران جميعها لغيرهم، وقيل هي للبدل، أي: لتكون المغفرة بدلا من الذنوب.

قوله تعالى: {وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} [إبراهيم: ١٠].

أي: إلى وقت معلوم عنده تنتهي بانتهائه أعماركم، دون أن يعاجلكم خلال حياتكم بعذاب الاستئصال رحمة بكم وأملا في هدايتكم.

-وجملة فاطر السماوات والأرض جيء بها كدليل على نفى الشك في وجوده سبحانه وفي وجوب إخلاص العبادة له، لأن وجودهما على هذا النسق البديع يدل دلالة قاطعة على أن لهما خالقا قادرا حكيما، لاستحالة صدور تلك المخلوقات من غير فاعل مختار.

قال الطبري:"يقول: وينسئ في آجالكم، فلا يعاقبكم في العاجل فيهلككم، ولكن يؤخركم إلى الوقت الذي كتبَ في أمّ الكتاب أنه يقبضكم فيهِ، وهو الأجل الذي سمَّى لكم".

قال مجاهد:"ما قد خط من الأجل، فإذا جاء الأجل من الله لم يؤخر".

عن سعيد بن أبي عروبة قال: "كان الحسن يقول: ما أحمق هؤلاء القوم! يقولون:

=

=

اللهم أطل عمره، والله يقول: {فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون}".

قوله تعالى: {قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا} [إبراهيم: ١٠].

أي: قال الظالمون لرسلهم الذين جاءوا لهدايتهم، ما أنتم إلا بشر مثلنا في الهيئة والصورة والمأكل والمشرب، تريدون بما جئتمونا به أن تصرفونا وتمنعونا عن عبادة الآلهة التي ورثنا عبادتها عن آبائنا.

وكأن هؤلاء الظالمين بقولهم هذا، يرون أن الرسل لا يصح أن يكونوا من البشر، وإنما يكونون من الملائكة، وهذا من موانع الإيمان عند الأمم المكذبة.

قال الطبري:"فقالت الأمم لهم: {إن أنتم}، أيها القوم {إلا بشرٌ مثلنا}، في الصورة والهيئة، ولستم ملائكة".

قوله تعالى: {تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا} [إبراهيم: ١٠]، أي:"تريدون أن تمنعونا من عبادة ما كان يعبده آباونا من الأصنام والأوثان".

قال الطبري:"يقول: إنما تريدون أن تصرِفونا بقولكم عن عبادة ما كان يعبدُه من الأوثان آباؤنا".

قوله تعالى: {فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ} [إبراهيم: ١٠]، أي:"فأتونا بحجة ظاهرة تشهد على صحة ما تقولون".

قال الطبري:"يقول: فأتونا بحجة على ما تقولون تُبين لنا حقيقتَه وصحتَه، فنعلم أنكم فيما تقولون محقُّون".

عن أبي مالك، ومحمد بن كعب، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والضحاك، والنضر بن عربي:"كل (سلطان) في القرآن حجة".

قوله تعالى: {قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ} [إبراهيم: ١١]، أي:"قالت الرسل: نحن كما قلتم بشر مثلكم".

=

=

قال القرطبي:"أي: في الصورة والهيئة كما قلتم".

قال ابن عطية:"المعنى: صدقتم في قولكم، أي: بشر مثلكم في الأشخاص والخلقة".

قال الطبري: أي:"صدقتم في قولكم: «إن أنتم إلا بشر مثلنا»، فما نحنُ إلا بَشَر من بني آدم، إنسٌ مثلكم".

قال السعدي: أي:"مجيبين عن اقتراحهم واعتراضهم: {إن نحن إلا بشر مثلكم} أي: صحيح وحقيقة أنا بشر مثلكم".

قال الزمخشري:"{إن نحن إلا بشر مثلكم}، تسليم لقولهم، وأنهم بشر مثلهم، يعنون أنهم مثلهم في البشرية وحدها، فأما ما وراء ذلك فما كانوا مثلهم، ولكنهم لم يذكروا فضلهم تواضعا منهم".

قوله تعالى: {وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ} [إبراهيم: ١١]، أي:"ولكن الله يتفضل بإنعامه على مَن يشاء من عباده فيصطفيهم لرسالته".

قال الطبري:"يقُول: ولكن الله يتفضل على من يشاء من خلقه، فيهديه ويوفقه للحقّ، ويفضّله على كثير من خلقه".

قال ابن عطية: أي:"لكن تبايننا بفضل الله ومنه الذي يختص به من يشاء، ففارقوهم في المعنى بخلاف قوله تعالى: كَأَنَّهُمْ حُمُرٌ [المدثر: ٥٠]، فإن ذلك في المعنى لا في الهيئة".

قال السعدي: " {ولكن} ليس في ذلك ما يدفع ما جئنا به من الحق فإن {الله يمن على من يشاء من عباده} فإذا من الله علينا بوحيه ورسالته، فذلك فضله وإحسانه، وليس لأحد أن يحجر على الله فضله ويمنعه من تفضله، فانظروا ما جئناكم به فإن كان حقا فاقبلوه وإن كان غير ذلك فردوه، ولا تجعلوا حالنا حجة لكم على رد ما جئناكم به".

=

=

قال الزمخشري:"واقتصروا على قولهم: {ولكن الله يمن على من يشاء من عباده} بالنبوة، لأنه قد علم أنه لا يختصهم بتلك الكرامة إلا وهم أهل لاختصاصهم بها، لخصائص فيهم قد استأثروا بها على أبناء جنسهم".

وقال سهل بن عبد الله التستري:"قوله تعالى: {ولكن الله يمن على من يشاء}، يعني: بتلاوة كتابه والفهم فيه". قال القرطبي:"وهذا قول حسن".

قال القرطبي:"أي: يتفضل عليه بالنبوة. وقيل، بالتوفيق والحكمة والمعرفة والهداية... وقد خرج الطبري من حديث ابن عمر قال: «قلت لأبي ذر: يا عم أوصني، قال: سألت رسول الله ﷺ كما سألتني فقال:"ما من يوم ولا ليلة ولا ساعة إلا ولله فيه صدقة يمن بها على من يشاء من عباده وما من الله تعالى على عباده بمثل أن يلهمهم ذكره»".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ} [إبراهيم: ١١]، أي:"وما طلبتم من البرهان المبين، فلا يمكن لنا ولا نستطيع أن نأتيكم به إلا بإذن الله وتوفيقه".

قال الطبري:"يقول: وما كان لنا أن نأتيكم بحجة وبرهان على ما ندعوكم إليه، إلا بأمر الله لنا بذلك".

قال الزمخشري:"أرادوا أن الإتيان بالآية التي اقترحتموها ليس إلينا ولا في استطاعتنا، وما هو إلا أمر يتعلق بمشيئة الله".

قال القرطبي:"أي: لا نستطيع أن نأتي بحجة كما تطلبون إلا بأمره وقدرته، فلفظه لفظ الخبر، ومعناه النفي، لأنه لا يحظر على أحد ما لا يقدر عليه".

قال السعدي: " وقولكم: {فأتونا بسلطان مبين} فإن هذا ليس بأيدينا وليس لنا من الأمر شيء".

قال مجاهد:"«السلطان المبين»، البرهان والبينة، وقوله: {مَا لَمْ يُنزِلْ بِهِ سُلْطَانًا}

=

=

[سورة آل عمران: ١٥١ / سورة الأعراف: ٧ / سورة الحج: ٧١]، قال: بينَةً وبرهانًا".

قوله تعالى: {وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [إبراهيم: ١١]، أي:"وعلى الله وحده يعتمد المؤمنون في كل أمورهم".

قال الطبري:"يقول: وبالله فليثق به من آمن به وأطاعه، فإنا به نثق، وعليه نتوكل".

اللام في قوله: «ليتوكل» لام الأمر. وقرأها الجمهور ساكنة وقرأها الحسن مكسورة، وتحريكها بالكسر هو أصلها. وتسكينها طلب التخفيف، ولكثرة استعمالها وللفرق بينها وبين لام كي التي ألزمت الحركة إجماعا.

قوله تعالى: {وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا} [إبراهيم: ١٢]، أي:"وكيف لا نعتمد على الله، وهو الذي أرشدنا إلى طريق النجاة من عذابه باتباع أحكام دينه؟".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره، مخبِرًا عن قِيل الرسل لأممها: {وما لنا أن لا نتوكل على الله}، فنثق به وبكفايته ودفاعه إياكم عنَّا، وقد بَصَّرنا طريقَ النجاة من عذابه، فبين لنا".

قال الماتريدي:"أي: ما لنا ألا نتوكل عليه في النصر والظفر عليكم؛ وقد وفقنا وأكرمنا السلوك في السبل التي علينا سلوكها، وذلك أعسر من القيام للأعداء والنصر بهم؛ وقد أكرمنا ما هو أعسر وأعظم؛ فإن ينصرنا أولى".

قال الزمخشري:"معناه: وأى عذر لنا في أن لا نتوكل عليه {وقد هدانا}، وقد فعل بنا ما يوجب توكلنا عليه، وهو التوفيق لهداية كل واحد منا سبيله الذي يجب عليه سلوكه في الدين".

قال القرطبي:"أي شي لنا في ترك التوكل على الله، {وقد هدانا سبلنا}، أي: الطريق الذي يوصل إلى رحمته، وينجي من سخطه ونقمته".

=

=

قال ابن عطية:"قوله: {ما لَنا أَلَّا نَتَوَكَّلَ} الآية، وقفتهم الرسل على جهة التوبيخ على تعليل في أن لا يتوكلوا على الله، وهو قد أنعم عليهم وهداهم طريق النجاة وفضلهم على خلقه".

قوله تعالى: {وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا} [إبراهيم: ١٢]، أي:"ولنصبرنَّ على إيذائكم لنا بالكلام السيئ وغيره".

قال الطبري:"أي: في الله وعلى ما نلقى منكم من المكروه فيه بسبب دُعائنا لكم إلى ما ندعوكم إليه، من البراءة من الأوثان والأصنام، وإخلاص العبادة له".

قال ابن عطية:"ثم أقسموا أن يقع منهم الصبر على الإذاية في ذات الله تعالى".

قال القرطبي:"{ولنصبرن} «لام» قسم، مجازه: والله لنصبرن {على ما آذيتمونا} به، أي من الإهانة والضرب، والتكذيب والقتل، ثقة بالله أنه يكفينا ويثيبنا".

قال البيضاوي:"أي: حلفوا على الصبر على أذاهم وأن لا يمسكوا عن دعائهم".

قوله تعالى: {وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ} [إبراهيم: ١٢]، أي:"وعلى الله وحده يجب أن يعتمد المؤمنون في نصرهم، وهزيمة أعدائهم".

قال الطبري:"يقول: وعلى الله فليتوكل من كان به واثقًا من خلقه، فأما من كان به كافرًا فإنّ وليَّه الشيطان".

قال البيضاوي:"أي: فليثبت المتوكلون على توكلهم، حتى لا يكون تكرار".

قال الزمخشري:"{وعلى الله فليتوكل المؤمنون}، أمر منهم للمؤمنين كافة بالتوكل، وقصدوا به أنفسهم قصدا أوليا وأمروها به، كأنهم قالوا: ومن حقنا أن نتوكل على الله في الصبر على معاندتكم ومعاداتكم وما يجرى علينا منكم".

قال الماتريدي: قوله " {وعلى الله فليتوكل المتوكلون}، كأنه يخرج على الأمر؛ أي: على الله فتوكلوا؛ لا تتوكلوا على غيره، ويشبه أن يكون على الخبر؛ أي: لا يتوكل المؤمن إلا على الله؛ لا يتوكل على غيره؛ كقول الرسول حيث قال: {إني

=

=

توكلت على الله...} الآية، وهو قول هود، وقول المؤمنين: {على الله توكلنا ربنا افتح بيننا...} الآية، ونحوه".

فإن قلت: كيف كرر الأمر بالتوكل؟

قلت: الأول لاستحداث التوكل، وقوله {فليتوكل المتوكلون}، معناه: فليثبت المتوكلون على ما استحدثوا من توكلهم وقصدهم إلى أنفسهم على ما تقدم.

قال ابن رجب: وحقيقة التوكل: هو صدق اعتماد القلب على الله ﷻ في استجلاب المصالح، ودفع المضار من أمور الدنيا والآخرة كلها، وكلة الأمور كلها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يعطي ولا يمنع ولا يضر ولا ينفع سواه.

(فائدة) قوله تعالى: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى} إبراهيم: ١٠، نجد أن هذه الآية تردُ على بدعتين متقابلتين، وبيان ذلك فيما يلي:

- أولاً: بيان وجه رد الآية على بدعة التفريط.

في هذه الآية رد على الملاحدة المنكرين لوجود الله ﷻ في قوله: {أَفِي اللهِ شَكٌّ}، وفي هذا إثارة فطرية المعرفة في نفوس المكذبين؛ لأن الفطرة السالمة من المؤثرات مطبوعة على الاعتراف بالخالق، والإيمان به.

ولا شك أن من رحمة الله ﷻ ولطفه بعباده أن جعل أدلة وبراهين ربوبيته فطرية ظاهرة، يؤمن بها ويدركها أقل الناس حظاً من العلم والنظر، بل إن الأدلة لوضوحها وظهورها تضطر الإنسان اضطراراً إلى الإيمان بخالقها وموجدها رباً وخالقاً، فظهر بهذا بطلان عقيدة الملاحدة وتهالكها.

والاستفهام في هذه الآية: تقريري أتى على وجه الإنكار والتوبيخ لنفي ما اعتقدوه، أي: ليس فيه شك، فهو الخالق المستحق للربوبية وحده؛ لأنَّ وجوده ووحدانيته أمر لا يحتمل الشك، لظهور الأدلة القاطعة، والبراهين الساطعة على

=

=

ذلك.

قال ابن كثير - رحمه الله -: "هذا يحتمل معنيين: أحدهما: أفي وجوده شك؟ فإن الفطر شاهدة بوجوده ومجبولة على الإقرار به. فإن الاعتراف به ضروري في الفطر السليمة، ولكن قد يعرض لبعض الفطر شك واضطراب فيحتاج إلى النظر في الدليل الموصل إلى وجوده، ولهذا قالت لهم الرسل ترشدهم إلى طريق معرفته بأنه فاطر السموات والأرض- أي: الذي خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق- فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليهما. فلا بد لهما من صانع وهو الله لا إله إلا هو خالق كل شيء وإلهه ومليكه.

والمعنى الثاني: أفي إلهيته وتفرده بوجوب العبادة له، شك؟ وهو الخالق لجميع الموجودات ولا يستحق العبادة إلا هو وحده لا شريك له، فإن غالب الأمم كانت مقرة بالصانع، ولكن تعبد معه غيره من الوسائط التي يظنونها تنفعهم أو تقربهم من الله زلفى".

- ثانياً: بيان وجه رد الآية على بدعة الإفراط.

في هذه الآية ردٌ على من أشرك مع الله في ربوبيته، ممن اعتقد خالقاً أو مدبراً غير الله، كمثل ما اعتقد الفلاسفة القائلون بأنه: "العقل الفعال"، والصابئة القائلون إنه: المدبر الأقرب، والطبائعيون المعتقدون: "بأن الطبيعة هي من خلقت نفسها"، والمانوية المعتقدون ذلك في الأرواح الطيبة بزعمهم، والنصارى واعتقادهم في المسيح -عليه السلام-، وغيرهم ممن ضل في هذا الباب، سواء جعلوا ما اعتقدوه مشاركاً لله أو منفرداً بالخلق دون الله ﷻ، كما أن فيها رداً على من نفى صفة الخلق عن الله ﷻ كالجهمية وغيرهم -من باب تنزيه الله عن مشابهة الحوادث -، أو القدرية القائلين بأن كل إنسان يخلق فعل نفسه - من باب تنزيه الله عن الظلم-.

=

=

فرد الله عليهم إفراطهم في ربوبيته بقوله: {فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، وفي هذا لفت انتباه لمخلوقات الله تعالى وعظيم خلقه، وأنه لا شريك له ﷻ في ربوبيته؛ وهل يخفى على ذي بصيرة أن هذا إبداع المبدع الحكيم وتقدير العزيز العليم، بل وجوده سبحانه وربوبيته وقدرته أظهر من كل شيء على الإطلاق.

وبيان أنه فاطر السموات والأرض؛ فلأن ما سوى الواحد ممكن لذاته، والممكن لذاته لا يقع موجوداً إلا بإيجاد غيره، فنتج أن ما سوى الله فهو حاصل بإيجاده وتكوينه. فثبت أنه سبحانه هو الفاطر وحده لكل ما سواه من الموجودات.

- ثالثًا: المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان.

المأخذ الذي انطلقت منه هاتان الطائفتان هو: محاولة الوصول إلى فهم الذات الإلهية وتصورها بعقولهم البشرية المحدودة، متجاوزين قوله تعالى: {وَلَا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا (١١٠)} طه: ١١٠، وجماع شبهتهم التي كانت الأصل والمستند في مخالفتهم انبنت على أحد أصلين:

١ - دعوى استنادهم لضرورة إثبات وجود الله بالقضايا التركيبية ،

واعتبارهم التجربة الأساس الوحيد للحكم الصحيح؛ ولأن الله لم يثبت عندهم بهذه القضايا التركيبية، انبنى قولهم بامتناع إثبات وجود الله ﷻ، لذلك لم يستطع الفكر الإلحادي أن يقدم للإنسان شيئا عن الله وعن علاقته به على ضوء ما التزموه من قواعد. وإنكارهم لوجود الله ظاهراً فقط، مع إيمانه بخلاف ذلك في قرارة قلوبهم {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا}؛ لأن وجود الله أمر بديهي لا يحتاج إلى إثبات، ولهذا لا نرى القرآن يكثر من إقامة البراهين الجدلية في هذا الموضوع، ولكنه يشير إلى ذلك بأدلة كافية مقنعة ملزمة. وليس مؤداهم استحالة خلق الله للعالم، بل استحالة وصول النفس البشرية -بما قعدته من علوم أولية مشوبة بالشبهات والمؤثرات الخارجية- إلى معرفة الله تبارك وتعالى. مما يدل

=

وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣).

{وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ} لَتَصِيرُنَّ {فِي مِلَّتنَا} دِيننَا {فَأَوْحَى إلَيْهِمْ رَبّهمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ.

وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤).

{ولَنُسْكِنَنّكُم الْأَرْض} أَرْضهمْ {مِنْ بَعْدهمْ} بَعْد هَلَاكهمْ {ذَلِكَ} النَّصْر وَإِيرَاث الْأَرْض {لِمَنْ خَافَ مَقَامِي} أَيْ مَقَامه بَيْن يَدَيَّ {وَخَافَ وَعِيد} بِالْعَذَابِ.

وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) .

{وَاسْتَفْتَحُوا} اسْتَنْصَرَ الرُّسُل بِاَللَّهِ عَلَى قَوْمهمْ {وَخَابَ} خَسِرَ {كُلّ جَبَّار} مُتَكَبِّر عَنْ طَاعَة الله {عَنِيد} مُعَانِد لِلْحَقِّ.

مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦).

=

على انحرافهم في هذا الباب.

٢ - استنادهم إلى الأقيسة الكلامية والمقدمات المنطقية والأدلة الجدلية، فأرادوا تنزيه الذات الإلهية عن مماثلة الحوادث والمخلوقات، فوصفوا المخلوقات بما سلبوه من الذات الإلهية، فأفرطوا في الربوبية بزعمهم تنزيه الله وجعلهم المخلوقات مشاركة لله في صفات ربوبية أو منفردةً بها.

لقد أتت هذه الآية الكريمة للدلالة على أن المذهب الحق ليس ما ذهب إليه أصحاب البدع المتقابلة، في معرفة الله ﷻ، بل هو ما ذهب إليه سلف الأمة، وأئمتها من الصحابة، والتابعين رضي الله عنهم ومن سار على طريقهم، في أن معرفة الله تعالى وصفاته تعرف بالسمع لا بالعقل فقط؛ لأنه لا أحد أعلم بالله من الله ﷻ.

{مِنْ وَرَائِهِ} أَيْ أَمَامه {جَهَنَّم} يَدْخُلهَا {وَيُسْقَى} فِيهَا {مِنْ مَاء صَدِيد} هُوَ مَا يَسِيل مِنْ جَوْف أَهْل النَّار مُخْتَلِطًا بِالْقَيْحِ وَالدَّم.

يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ (١٧).

{يَتَجَرَّعهُ} يَبْتَلِعهُ مَرَّة بَعْد مَرَّة لِمَرَارَتِهِ {وَلَا يَكَاد يُسِيغهُ} يَزْدَرِدُهُ لِقُبْحِهِ وَكَرَاهَته {وَيَأْتِيه الْمَوْت} أَيْ أَسْبَابه الْمُقْتَضِيَة لَهُ مِنْ أَنْوَاع الْعَذَاب {مِنْ كُلّ مَكَان وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ} بَعْد ذَلِكَ الْعَذَاب {عَذَاب غَلِيظ} قَوِيّ متصل[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [إبراهيم: ١٣].

يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم من الإخراج من أرضهم والنفي من بين أظهرهم.

أي: وقال الذين عتوا في الكفر - على سبيل التهديد - لرسلهم، الذين جاءوا لهدايتهم، والله لنخرجنكم - أيها الرسل - من أرضنا، أو لتعودن في ديننا وملتنا.

والمعنى: ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم وإما عودكم إلى ملتنا. (أو) هنا للتخيير.

وقيل: إن (أو) هنا بمعنى (إلا) والمعنى (إلا أن تعودوا في ملتنا) واختاره الطبري.

-قال الشنقيطي: بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن الكفار توعدوا الرسل بالإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم إن لم يتركوا ما جاءوا به من الوحي، وقد نص في آيات أخر أيضا على بعض ذلك مفصلا،

كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به (لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من =

=

قريتنا).

وكما قال قوم لوط (أخرجوا آل لوط من قريتكم).

وقال تعالى إخبارا عن مشركي قريش (وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا).

وقال تعالى (وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين).

وكان من صنعه تعالى أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارا وأعوانا وجندا يقاتلون في سبيل الله تعالى، ولم يزل يرقيه تعالى من شيء إلى شيء حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكن له فيها، وأرغم أنوف أعدائه منهم ومن سائر أهل الأرض حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان.

- قال الرازي: والسبب فيه: أن أهل الحق في كل زمان يكونون قليلين. وأهل الباطل يكونون كثيرين والظلمة والفسقة يكونون متعاونين متعاضدين، فلهذه الأسباب قدروا على هذه السفاهة.

- والتعبير بقوله- سبحانه- أو لتعودن في ملتنا يفيد بظاهره أن الرسل كانوا على ملة الكافرين ثم تركوها، فإن العود معناه: الرجوع إلى الشيء بعد مفارقته. وهذا محال، فإن الأنبياء معصومون- حتى قبل النبوة- عن ارتكاب الكبائر، فضلا عن الشرك.

وقد أجيب عن ذلك بإجابات منها:

منها: أن الخطاب وإن كان في الظاهر مع الرسل، إلا أن المقصود به أتباعهم المؤمنون، الذين كانوا قبل الإيمان بالرسل على دين أقوامهم، فكأنهم يقولون لهؤلاء الأتباع: لقد كنتم على ملتنا ثم تركتموها، فإما أن تعودوا إليها وإما أن

=

=

تخرجوا من ديارنا، إلا أن رءوس الكفر وجهوا الخطاب إلى الرسل من باب التغليب.

ومنها: أن العود هنا بمعنى الصيرورة، إذ كثيرا ما يرد (عاد) بمعنى صار، فيعمل عمل كان، ولا يستدعي الرجوع إلى حالة سابقة، بل يستدعي الانتقال من حال سابقة إلى حال جديدة مستأنفة، فيكون المعنى: لنخرجنكم من أرضنا أو لتصيرن كفارا مثلنا.

ومنها: أن هذا القول من الكفار جار على توهمهم وظنهم، أن الرسل كانت قبل دعوى النبوة على ملتهم، لسكوتهم قبل البعثة عن الإنكار عليهم، فلهذا التوهم قالوا ما قالوا، وهم كاذبون فيما قالوه.

- وقال ابن عطية: و" العودة " أبدا إنما هي إلى حالة قد كانت، والرسل ما كانوا قط في ملة الكفر، فإنما المعنى: لتعودن في سكوتكم عنا وكونكم أغفالا، وذلك عند الكفار كون في ملتهم.... (المحرر).

- وقال الخازن: قوله تعالى (وقال الذين كفروا لرسلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن في ملتنا) يعني ليكونن أحد الأمرين إما إخراجكم أيها الرسل من بلادنا وأرضنا وإما عودكم في ملتنا.

فإن قلت: هذا يوهم بظاهره أنهم كانوا على ملتهم في أول الأمر حتى يعود فيها قلت: معاذ الله ولكن العود هنا بمعنى الصيرورة وهو كثير في كلام العرب، وفيه وجه آخر، وهو أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل الرسالة لم يظهروا خلاف أممهم، فلما أرسلوا إليهم أظهروا مخالفتهم ودعوا إلى الله فقالوا لهم: لتعودن في ملتنا ظنا منهم أنهم كانوا على ملتهم ثم خالفوهم وإجماع الأمة على أن الرسل من أول الأمر إنما نشأوا على التوحيد لا يعرفون غيره.... (التفسير).

- وقال الشوكاني: وقد قيل: إن "أو" في {أو لتعودن} بمعنى حتى، أو يعني: إلا أن

=

=

تعودوا كما قاله بعض المفسرين، ورد بأنه لا حاجة إلى ذلك، بل " أو " على بابها للتخيير بين أحد الأمرين، وقد تقدم تفسير الآية في سورة الأعراف.

قيل: والعود هنا بمعنى الصيرورة لعصمة الأنبياء عن أن يكونوا على ملة الكفر قبل النبوة وبعدها.

وقيل: إن الخطاب للرسل ولمن آمن بهم فغلب على أتباعهم (فأوحى إليهم ربهم) أي: إلى الرسل (لنهلكن الظالمين) أي قال لهم: لنهلكن الظالمين.... (فتح القدير).

قال الطبري: "يقول عزّ ذكره: وقال الذين كفروا بالله لرسلهم الذين أرسلوا إليهم، حين دعوهم إلى توحيد الله وإخلاص العبادة له، وفراق عبادة الآلهة والأوثان {لنخرجنَّكم من أرضنا}، يعنون: من بلادنا فنطردكم عنها {أو لتعودن في مِلّتنا}، يعنون: إلا أن تَعُودوا في دِيننا الذي نحن عليه من عبادة الأصنام".

قال أبو الليث السمرقندي: {أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا}، "قول: لتدخلن في ديننا، فهذا، كله تعزية للنبي ﷺ ليصبر على أذى المشركين كما صبر من قبله من الرسل".

قال البغوي: "{أو لتعودن في ملتنا}، يعنون: إلا أن ترجعوا، أو حتى ترجعوا إلى ديننا".

قال البيضاوي: "حلفوا على أن يكون أحد الأمرين، إما إخراجهم للرسل أو عودهم إلى ملتهم، وهو بمعنى الصيرورة لأنهم لم يكونوا على ملتهم قط، ويجوز أن يكون الخطاب لكل رسول ومن آمن معه فغلبوا الجماعة على الواحد".

قال ابن كثير: "يخبر تعالى عما توعدت به الأمم الكافرة رسلهم، من الإخراج من أرضهم، والنفي من بين أظهرهم، كما قال قوم شعيب له ولمن آمن به: {لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَكَ مِنْ قَرْيَتِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا} [الأعراف: ٨٨]، وقال قوم لوط: {أَخْرِجُوا آلَ لُوطٍ مِنْ قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ

=

=

يَتَطَهَّرُونَ} [النمل: ٥٦]، وقال تعالى إخبارا عن مشركي قريش: {وَإِنْ كَادُوا لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ الأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا وَإِذًا لا يَلْبَثُونَ خِلافَكَ إِلا قَلِيلا} [الإسراء: ٧٦]، وقال تعالى: {وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللهُ وَاللهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ} [الأنفال: ٣٠].

وكان من صنعه تعالى: أنه أظهر رسوله ونصره، وجعل له بسبب خروجه من مكة أنصارًا وأعوانًا وجندا، يقاتلون في سبيل الله، ولم يزل يرقيه الله تعالى من شيء إلى شيء، حتى فتح له مكة التي أخرجته، ومكن له فيها، وأرغم آناف أعدائه منهم، ومن سائر أهل الأرض، حتى دخل الناس في دين الله أفواجا، وظهرت كلمة الله ودينه على سائر الأديان، في مشارق الأرض ومغاربها في أيسر زمان".

قال الزمخشري:"ليكونن أحد الأمرين لا محالة، إما إخراجكم وإما عودكم حالفين «٢» على ذلك. فإن قلت: كأنهم كانوا على ملتهم حتى يعودوا فيها. قلت: معاذ الله، ولكن العود بمعنى الصيرورة، وهو كثير في كلام العرب كثرة فاشية لا تكاد تسمعهم يستعملون صار، ولكن عاد، ما عدت أراه عاد لا يكلمني، ما عاد لفلان مال. أو خاطبوا به كل رسول ومن آمن به، فغلبوا في الخطاب الجماعة على الواحد لنهلكن الظالمين حكاية تقتضي إضمار القول، أو إجراء الإيحاء مجرى القول، لأنه ضرب منه".

قوله تعالى: {فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ} [إبراهيم: ١٣].

أي: فأوحى الله- تعالى- إلى الرسل- بعد أن قال لهم الكافرون- ما قالوا-: أبشروا أيها الرسل لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ الذين هددوكم بالإخراج من الديار، أو بالعودة إلى ملتهم، وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ- أيها الرسل- الْأَرْضَ أي: أرضهم مِنْ بَعْدِهِمْ؛ أي: من بعد إهلاكهم واستئصال شأفتهم.

كما قَالَ تعالى (وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنا لِعِبادِنَا الْمُرْسَلِينَ إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ

=

=
جُنْدَنا لَهُمُ الْغالِبُونَ).
وَقَالَ تَعَالَى (كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ).
وَقَالَ تَعَالَى (وَلَقَدْ كَتَبْنا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أن الأرض يرثها عبادي الصالحون).
وقال تعالى (قالَ مُوسى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللهِ وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُها مَنْ يَشاءُ مِنْ عِبادِهِ وَالْعاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ).
وَقَالَ تَعَالَى (وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشارِقَ الْأَرْضِ وَمَغارِبَهَا الَّتِي بارَكْنا فِيها وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنى عَلى بَنِي إِسْرائِيلَ بِما صَبَرُوا وَدَمَّرْنا مَا كانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ وَما كانُوا يَعْرِشُونَ).
- قال ابن عاشور: وإسكان الأرض: التمكين منها وتخويلها إياهم، كقوله (وأورثكم أرضهم وديارهم) والخطاب في {لنسكننكم} للرسل والذين آمنوا بهم، فلا يقتضي أن يسكن الرسول بأرض عدوه بل يكفي أن يكون له السلطان عليها وأن يسكنها المؤمنون، كما مكن الله لرسوله مكة وأرض الحجاز وأسكنها الذين آمنوا بعد فتحها.
قال أبو الليث السمرقندي:"يقول: أوحى الله تعالى إلى الرسل لنهلكن الظالمين فهذا لام القسم، ويراد به: التأكيد للكلام، أن يهلك الكافرين من قومهم".
قال الطبري:"الذين ظلموا أنفسهم، فأوجبوا لها عقاب الله بكفرهم. وقد يجوز أن يكون قيل لهم: "الظالمون" لعبادتهم من لا تجوز عبادته من الأوثان والآلهة، فيكون بوضعهم العبادةَ في غير موضعها، إذ كان ظلمًا، سُمُّوا بذلك".
وقرأ أبو حيوة: «ليهلكن»، بالياء.
قوله تعالى: {وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ} [إبراهيم: ١٤]، أي:"ولنجعلن العاقبة الحسنة للرسل وأتباعهم بإسكانهم أرض الكافرين بعد إهلاكهم".
=

=

قال البيضاوي:"أي أرضهم وديارهم، كقوله تعالى: {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا} [الأعراف: ١٣٧]".

قال البغوي:"أي: من بعد هلاكهم".

قال السمعاني:"يعني: نجعل ديارهم موضع سكناكم، وهذا في معنى قوله تعالى: {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [إبراهيم: ٤٥]".

قال الطبري:"هذا وعدٌ من الله مَنْ وَعد من أنبيائه النصرَ على الكَفَرة به من قومه. يقول: لما تمادتْ أمم الرسل في الكفر، وتوعَّدوا رسُلهم بالوقوع بهم، أوحى الله إليهم بإهلاك من كَفَر بهم من أممهم ووعدهم النصر. وكلُّ ذلك كان من الله وعيدًا وتهدُّدا لمشركي قوم نبيِّنا محمد ﷺ على كفرهم به، وجُرْأتهم على نبيه، وتثبيتًا لمحمد ﷺ، وأمرًا له بالصبر على ما لقي من المكروه فيه من مشركي قومه، كما صبر من كان قبله من أولي العزم من رسله، ومُعرِّفَة أن عاقبة أمرِ من كفر به الهلاكُ، وعاقبتَه النصرُ عليهم، سُنَّةُ الله في الذين خَلَوْا من قبل".

قال ابن عطية:"الخطاب للحاضرين، والمراد هم وذريتهم، ويترتب هذا المعنى في قوله: {وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلى أَجَلٍ مُسَمًّى} [إبراهيم: ١٠]، أي: يؤخركم وأعقابكم".

قال قتادة:"وعدهم النصر في الدنيا، والجنة في الآخرة. فبين الله تعالى من يسكنها من عباده، فقال: ولمن خاف مقام ربه جنتان وإن لله مقاما هو قائمه، وإن أهل الإيمان خافوا ذلك المقام فنصبوا، ودأبوا الليل والنهار".

قال الزمخشري:"المراد بـ «الأرض»: أرض الظالمين وديارهم، ونحوه {وَأَوْرَثْنَا الْقَوْمَ الَّذِينَ كَانُوا يُسْتَضْعَفُونَ مَشَارِقَ الْأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا} [الأعراف: ١٣٧]، {وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُم} [الأحزاب: ٢٧]، وعن النبي ﷺ «من آذى جاره ورثه الله داره»، ولقد عاينت هذا في مدة قريبة: كان لي خال يظلمه عظيم القرية التي أنا منها ويؤذيني فيه، فمات ذلك العظيم وملكني الله ضيعته، فنظرت

=

=

يوما إلى أبناء خالي يترددون فيها ويدخلون في دورها ويخرجون ويأمرون وينهون فذكرت قول رسول الله ﷺ، وحدثتهم به، وسجدنا شكرا لله".

وقرأ أبو حيوة: «ليسكننكم» بالياء.

قوله تعالى: {ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ} [إبراهيم: ١٤]، أي:"ذلك الإهلاك للكفار، وإسكان المؤمنين أرضهم أمر مؤكد لمن خاف مقامه بين يديَّ يوم القيامة، وخشي وعيدي وعذابي".

قال الطبري:"يقول جل ثناؤه: هكذا فِعْلي لمن خاف مَقامَه بين يديّ، وخاف وعيدي فاتَّقاني بطاعته، وتجنَّب سُخطي، أنصُرْه على ما أراد به سُوءًا وبَغَاه مكروهًا من أعدائي، أهلك عدوّه وأخْزيه، وأورثه أرضَه وديارَه".

قال البغوي:"{لمن خاف مقامي}، أي: قيامه بين يدي كما قال: {ولمن خاف مقام ربه جنتان} [الرحمن:٤٦]، فأضاف قيام العبد إلى نفسه، كما تقول: ندمت على ضربك، أي: على ضربي إياك، {وخاف وعيد} أي عقابي".

قال البيضاوي:"{لمن خاف مقامي}، أي:"موقفي، وهو الموقف الذي يقيم فيه العباد للحكومة يوم القيامة، أو قيامي عليه وحفظي لأعماله وقيل المقام مقحم، {وخاف وعيد}، أي: وعيدي بالعذاب أو عذابي الموعود للكفار".

قال ابن عطية:"قوله: {مَقامِي}، يحتمل أن يريد به المصدر من القيام على الشيء بالقدرة، ويحتمل أن يريد به الظرف لقيام العبد بين يديه في الآخرة".

قال القرطبي: {مقامي}، " أي: مقامه بين يدي يوم القيامة".

قال ابن كثير:"أي: وعيدي هذا لمن خاف مقامي بين يدي يوم القيامة، وخشي من وعيدي، وهو تخويفي وعذابي، كما قال تعالى: {فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى} [النازعات: ٣٧ - ٤١]،

=

=

وقال: {وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَانِ} [الرحمن: ٤٦]".

قال الزمخشري:"{ذلك}، إشارة إلى ما قضى به الله من إهلاك الظالمين إسكان المؤمنين ديارهم، أى: ذلك الأمر حق لمن خاف مقامي موقفي وهو موقف الحساب، لأنه موقف الله الذي يقف فيه عباده يوم القيامة، أو على إقحام المقام. وقيل: خاف قيامي عليه وحفظي لأعماله. والمعنى: أن ذلك حق للمتقين، كقوله {وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ} [الأعراف: ١٢٨/ القصص: ٨٣]".

و «الخوف»: هو اضطراب القلب وحركته من تذكر المَخوف، وهو أفضل مقامات الدين وأجلها وأجمع أنواع العبادة التي يجب إخلاصها لله تعالى.

قال السمعاني:"الفرق بين «المقام» و «المقام»: أن «المقام» موضع الإقامة، و «المقام» فعل الإقامة.

فإن قيل: كيف يكون لله مقام، وقد قال: {ذلك لمن خاف مقامي}؟

قلنا: أجمع أهل التفسير أن معناه: ذلك لمن خاف مقامه بين يدي، وهو مثل قوله تعالى: {ولمن خاف مقام ربه جنتان}. وقوله: {وخاف وعيد} أي: عقابي".

قوله تعالى: {وَاسْتَفْتَحُوا} [إبراهيم: ١٥]، أي:"ولجأ الرسل إلى ربهم وسألوه النصر على أعدائهم والحكم بينهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: واستفتحت الرُّسل على قومها: أي استنصرت الله عليها".

قال ابن كثير:"أي: استنصرت الرسل ربها على قومها".

عن مجاهد: " {واستفتحوا}، قال: الرسل كلها. يقول: استنصروا".

قال قتادة:"يقول: استنصرت الرسل على قومها".

قال ابن جريج: "استفتحوا على قومهم".

قال ابن عباس:"كانت الرسلُ والمؤمنون يستضعفهم قومُهم، ويقهَرُونهم

=

=

ويكذبونهم، ويدعونهم إلى أن يعودوا في مِلّتهم، فأبَى الله ﷻ لرسله وللمؤمنين أن يعودُوا في مِلّة الكفر، وأمرَهُم أن يتوكلوا على الله، وأمرهم أن يستفتحوا على الجبابرة، ووعدهم أن يُسْكنهم الأرض من بعدهم، فأنجز الله لهم ما وعدهم، واستفتحوا كما أمرهم أن يستفتحوا، (وخابَ كل جبار عنيد}".

وقال ابن زيد:"استفتاحهم بالبلاء، قالوا: اللهم إن كان هذا الذي أتى به محمد هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارةً من السماء، كما أمطرتها على قوم لوط، أو ائتنا بعذاب أليم. قال: كان استفتاحهم بالبلاء كما استفتح قوم هود: {فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [سورة الأعراف: ٧٠] قال: فالاستفتاح العذاب، قال: قيل لهم: إنّ لهذا أجلا! حين سألوا الله أن ينزل عليهم، فقال: {بلْ نُؤَخِّرُهُمْ ليَوْم تَشْخَصُ فِيهِ الأبْصَار}، فقالوا: لا نريد أن نؤخر إلى يوم القيامة: {رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا} عَذَابَنَا {قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ} [سورة ص: ١٦]. وقرأ: {وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُسَمًّى لَجَاءَهُمُ الْعَذَابُ) حتى بلغ: {وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ وَيَقُولُ ذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة العنكبوت: ٥٣ - ٥٥]".

قال ابن كثير:"ويحتمل أن يكون هذا مرادًا وهذا مرادًا، كما أنهم استفتحوا على أنفسهم يوم بدر، واستفتح رسول الله واستنصر، وقال الله تعالى للمشركين: {إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ وَإِنْ تَنْتَهُوا فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ} الآية [الأنفال: ١٩]، والله أعلم".

وفي معنى: «الاستفتاح»، وجهان:

أحدهما: أنه الإبتداء. ذكره الماوردي.

الثاني: أنه الدعاء، قاله الكلبي.

قال الراغب:"الاستفتاح: طلب الفتح، والفتح ضربان، فتح إلاهي، وهو النصرة بالوصول إلى العلوم والهدايات التي هي ذريعة إلى الثواب والمقامات

=

المحمودة، وفتح دنيوي، وهو النصرة في الوصول إلى اللذات البدنية وعلى الأول قوله: {إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا}، وقوله {فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ} وعلى الثاني قوله: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ}".

قوله تعالى: {وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} [إبراهيم: ١٥]، أي:"فاستجاب لهم، وهلك كل متكبر لا يقبل الحق ولا يُذْعن له، ولا يقر بتوحيد الله وإخلاص العبادة له".

قال الطبري:": هلك كل متكبر جائر حائدٍ عن الإقرار بتوحيد الله وإخلاص العبادة له".

قال ابن كثير:"خاب وخسر حين اجتهد الأنبياء في الابتهال إلى ربها العزيز المقتدر، [{كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ}] أي: متجبر في نفسه معاند للحق، كما قال تعالى: {أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ} [ق: ٢٤ - ٢٦]، وفي الحديث: «إنه يؤتى بجهنم يوم القيامة، فتنادي الخلائق فتقول: إني وُكلت بكل جبار عنيد»، الحديث".

عن مجاهد: " {عنيد}، قال: معاند للحق مجانبه".

قال قتادة:"«الجبار العنيد»: الذي أبى أن يقول: لا إله إلا الله".

وعن قتادة ايضا:"يقول: عَنِيد عن الحق، مُعْرِض عنه".

عن إبراهيم، في قوله: " {وخاب كل جبار عنيد}، قال: هو النَّاكب عن الحق".

قال ابن زيد:"«العنيد عن الحق»، الذي يعنِدُ عن الطريق، قال: والعرب تقول: «شرُّ الأهْل العَنِيد»، الذي يخرج عن الطريق".

وقال ابن زيد:"«الجبّار»: المتجبّر".

عن كعب- رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: "يجمع الله الخلق في صعيد واحد يوم القيامة: الجن والإنس والدواب والهوام، فيخرج عنق من النار فيقول: وكلت بالعزيز الكريم

=

والجبار العنيد، الذي جعل مع الله إلها آخر. قال: فيلقطهم كما يلقط الطير الحب فيحتوي عليهم، ثم يذهب بهم إلى مدينة من النار، يقال لها: كيت وكيت، فيثوون فيها ثلاثمائة عام قبل القضاء".

قوله تعالى: {مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ} [إبراهيم: ١٦]، أي:"ومِن أمام هذا الكافر جهنم يَلْقى عذابها".

قال ابن جرير الطبري:"يقول عزّ ذكره: من أمام كل جَبار {جهنم}، يَرِدُونها".

قال ابن كثير:"أي: من وراء الجبار العنيد جهنم، أي: هي له بالمرصاد، يسكنها مخلدا يوم المعاد، ويعرض عليها غدوا وعشيا إلى يوم التناد".

وفي قوله تعالى: {مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ} [إبراهيم: ١٦]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه: من خلفه جهنم. ذكره الماوردي.

وقال مقاتل: أي:"من بعدهم، يعني: من بعد موته".

الثاني: معناه: قدامه وأمامه جهنم، وهذا قول ابن قتيبة، والطبري، وابن كثير، وهو قول أبي عبيدة، واستشهد بقول الشاعر:

أي: قدام بنى رياح وأمامهم، وهم دونى، أي: بينى وبينك، وقال الشاعر:

أترجو بنى مروان سمعى وطاعتى وقومى تميم والفلاة ورائيا

الثالث: معناه: من بين يديه جهنم. وهذا قول الفراء، والزجاج.

قال الفراء:"أي: بين يديه.. إنما يجوز ذلك في المواقيت من الأيام والليالي والدهر أن تقول: وراءك برد شديد: وبين يديك برد شديد لأنك أنت وراءه فجاز لأنه شيء يأتي، فكأنه إذا لحقك صار من ورائك، وكأنك إذا بلغته صار بين يديك. فلذلك جاز الوجهان".

الرابع: أن جهنم تتوارى ولا تظهر، فصارت من وراء، لأنها لا ترى حكاه ابن الأنباري.

=

=

الخامس: {من ورائه جهنم}، معناه: من بعد هلاكه جهنم. ذكره الماوردي، كما قال النابغة:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبةً ... وليس وراءَ الله للمرْءِ مذهب

أراد: وليس بعد الله مذهب.

قوله تعالى: {وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ} [إبراهيم: ١٦]، أي:"ويُسقى فيها من القيح والدم الذي يَخْرج من أجسام أهل النار".

قال ابن كثير:"أي: في النار ليس له شراب إلا من حميم أو غساق، فهذا في غاية الحرارة، وهذا في غاية البرد والنتن، كما قال: {هَذَا فَلْيَذُوقُوهُ حَمِيمٌ وَغَسَّاقٌ وَآخَرُ مِنْ شَكْلِهِ أَزْوَاجٌ} [ص: ٥٧، ٥٨]".

قال أبو عبيدة:"«الصديد»: القيح والدّم".

قال الزجاج:"أي: مما يسيل من أهل النار من الدم والقيح".

وقال مقاتل:"يعني: خليطة القيح والدم الذي يخرج من أجداث الكفار يسقيلأشقياء".

قال ابن قتيبة:"أي: يسقى الصديد مكان الماء. كأنه قال: يجعل ماؤه صديدا. ويجوز أن يكون على التشبيه. أي يسقى ماء كأنه صديد".

عن مجاهد، في قوله: " {من ماء صديد}، قال: قيحٌ ودم". وروي عن عكرمة مثله.

قال قتادة:"و «الصديد»: ما يسيل من لحمه وجلدِه".

قال الضحاك:"يعني بالصديد: ما يخرج من جوف الكافر، قد خالط القَيْح والدم".

عن أسماء بنت يزيد بن السكن قالت: "قلت: يا رسول الله، ما طينة الخبال؟ قال: "صديد أهل النار"، وفي رواية: "عُصَارة أهل النار".

=

=

قوله تعالى: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ} [إبراهيم: ١٧]، أي:"بتلعه مرة بعد مرة لمرارته، ولا يكاد يستسيغه لقبحه وكراهته".

قال الطبري:"يتحسَّاه، ولا يكاد يزدرده من شدة كراهته، وهو مُسيغه من شدّة العطش".

عن أبي أمامة، عن النبي ﷺ في قوله: " {ويُسقى من ماء صديد يتجرّعه}، «فإذا شَربه قَطَّع أمعاءَه حتى يخرج من دُبُره»، يقول الله ﷻ: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ} [سورة محمد: ١٥]، ويقول: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ} [سورة الكهف: ٢٩]".

وعن أبي أمامة، رضي الله عنه، عن النبي ﷺ في قوله: {وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ يَتَجَرَّعُهُ}، قال: «يقرب إليه فيتكرهه، فإذا دنا منه شوى وجهه ووقعت فروة رأسه، فإذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره». يقول الله تعالى: {وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ}، وقال: {وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ}".

قوله تعالى: {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ} [إبراهيم: ١٧]، أي:"يأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان، ولكنَّه لا يموت ليستكمل عذابه".

قال الطبري:"يقول: ويأتيه الموت من بين يديه ومن خلفه، وعن يمينه وشماله، ومن كل موضع من أعضاء جسده {وما هو بميت}، لأنه لا تخرج نفسه فيموت فيستريح، ولا يحيا لتعلُّق نفسه بالحناجر، فلا ترجع إلى مكانها".

قال مجاهد:"تعلق نفسه عند حنجرته، فلا تخرج من فيه فيموت، ولا ترجع إلى مكانها من جوفه، فيجد لذلك راحة، فتنفعه الحياة".

وفي قوله تعالى: {وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ} [إبراهيم: ١٧]، وجوه:

=

=

أحدها: من كل مكان من جسده حتى من أطراف شعره، قاله إبراهيم التيمي، وبه قال ابن قتيبة.

قال الماوردي: وذلك "للآلام التي في كل موضع من جسده".

الثاني: من كل عظم وعرق وعصب. قاله ميمون بن مهران.

الثالث: تأتيه أسباب الموت من كل جهة، عن يمينه وشماله، ومن فوقه وتحته، ومن قدامه وخلفه، وهذا معنى قول ابن عباس، وبه قال ابن جرير الطبري.

عن ابن عباس:" {ويأتيه الموت من كل مكان}، قال: أنواع العذاب. وليس منها نوع إلا الموت يأتيه منه لو كان يموت، ولكنه لا يموت لأن الله لا يقضي عليهم فيموتوا".

الرابع: تأتيه شدائد الموت من كل مكان، حكاه ابن عيسى.

قوله تعالى: {وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم: ١٧]، أي:"ومن بين يديه عذابٌ أشدُّ مما قبله وأغلظ".

قال الطبري:"يقول: ومن وراء ما هو فيه من العذاب -يعني أمامه وقدامه- {عذاب غليظ}".

قال الماوردي:"«العذاب الغليظ»، هو الخلود في جهنم".

عن إبراهيم التيمي:"{ومن ورائه عذاب غليظ}، قال: الخلود".

قال ابن منظور: " «الوراء» جميعا يكون خلف وقدّام".

وعند ابن دريد: " «الوراء»: الخلف، و «الوراء»: القدّام، وهو من الأضداد".

وقال أبو سعيد الأصمعي: "و «وراء»: خلف و «وراء»: قدّام، قال جلّ ثناؤه: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف: ٧٩]، وكان وراءهم أي: قدّامهم، وقال الشاعر:

أيرجو بنو مروان سمعي وطاعتي وقومي تميم والفلاة ورائيا

=

=

فقوله «ورائيا»، أي: قدّامي".

وقال الجوهري:"«وراء»: بمعنى: «خلف»، وقد تكون بمعنى «قدام». وهي من الأضداد".ق

قال الإمام القرطبي: "ومنه قول إبراهيم عليه السلام في حديث الشفاعة: " إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ"، و «الوراء»: ولد الولد أيضا.

وقال ابن قتيبة: " «وراء»: تكون بمعنى «خلف»، وبمعنى «قدّام»، ومنها: المواراة، و التواري، فكل ما غاب عن عينيك فهو «وراء»، كان قدّامك أو خلفك".

وفي صدد شرحه لكلمة «وراء» في القرآن الكريم في مواضع مختلفة، فسّر الإمام ابن قتيبة الكلمة بحسب السياق الذي وردت فيه، فمثلا: في قوله تعالى: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف: ٧٩]، رجح ابن قتيبة أن تكون «وراء» -هنا- بمعنى «أمام»، وفي قراءة ابن عباس: وفي قوله تعالى: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الجاثية: ١٠]: أي أمامهم، وكذا في قوله تعالى: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم: ١٧].

فالكلمة «وراء» في الآيات السابقة جاءت بمعنى «أمام»، وليس بالمعنى المتبادر إلى الذهن، وهو معنى «خلف»، وقد اختلف في اشتقاق الكلمة على وجهين:

أحدهما: أنها مشتقة من التواري، أي: الإستتار، قال الإمام الشوكاني: " قال النحاس: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم: ١٧] فقوله تعالى: "روَمِنْ وَرَائِهِ} أي: من أمامه، وليس من الأضداد، ولكنه من توارى، أي: استتر، فصارت جهنم من ورائه، لأنها لا ترى".

=

=

والثاني: أنها على بابها، فهي -هنا- بمعنى: «خلف».

قال ابن عطية: {مِنْ وَرَائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلَا يُغْنِي عَنْهُمْ مَا كَسَبُوا شَيْئًا وَلَا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللهِ أَوْلِيَاءَ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} [الجاثية: ١٠] فقوله تعالى: " {وَرَائِهِمْ} هو عندي على بابه، وذلك أن هذه الألفاظ إنما تجيء مراعي بها الزمان، وذلك أن الحدث المقدم الموجود هو: الأمام، والذي يأتي بعده هو: الوراء، وهو ما خلف، وذلك بخلاف ما يظهر بادي الرأي..".

وهكذا فقد لوحظ كيف تردد المفسرين بين المعنيين، غير جازمين بأحد الوجهين، ولعل السبب هو أن مثل هذه الظاهرة يحصل فيها الأشكال، فهي محتاجة إلى مزيد من الدلائل المحيطة بالنص لترجيح إحدى هذه الدلالات على الأخرى.

يتبيّن لنا مما سبق بأن كلمة «وراء» جاءت في القرآن على عدة معاني من أشهرها ثلاثة:

أحدها: «وراء»، بمعنى: «أمام» زمانياً ومكانياً:

- فمن أمثلتها بمعنى «أمام» زمانياً، قول الله جل وعلا: {لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [المؤمنون: ١٠٠]، وقوله تعالى: {يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ} [إبراهيم: ١٧]، يعنى هذا بمستقبل أيامه فحياة البرزخ والعذاب المتوعد به أهل النار لم يأتِ بعد، وإنما هو أمام المتوعد به.

- وأما «وراء» بمعنى «أمام» مكانياً، يقول الله جل وعلا على لسان الخضر: {أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} [الكهف

: ٧٩] فقوله تعالى: {وَرَاءهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا} يعني أمامهم مكاناً

=

مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨).

{مَثَل} صِفَة {الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ} مُبْتَدَأ وَيُبْدَل مِنْهُ {أَعْمَالهمْ} الصَّالِحَة

=

ملك يأخذ كل سفينة غصبا، فأول معاني «وراء» في القرآن بمعنى: أمام.

الثاني: وتأتي بمعنى «خلف»، وهو الأصل في استخدامها اللغوي:

قال الله جل وعلا على لسان العبد الصالح شعيب: {قَالَ يَا قَوْمِ أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ} [هود: ٩٢]، وظهر الإنسان خلفه وليس أمامه، فقوله: {وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءكُمْ ظِهْرِيًّا} نص بأنها تأتي بمعنى «خلف».

الثالث: ومن أشهر معانيها: «غير» أو «بعد»:

قال الله تعالى في النساء: {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُمْ مِنْ نِسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَإِنْ لَمْ تَكُونُوا دَخَلْتُمْ بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللهَ كَانَ غَفُورًا رَحِيمًا} [النساء: ٢٣]، فقال {حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ} ثم ذكر المحصنات ثم قال: {وَأُحِلَّ لَكُم مَّا وَرَاء ذَلِكُمْ} أي ما بعد ذلك، ومنه قوله تعالى: {وَامْرَأَتُهُ قَائِمَةٌ فَضَحِكَتْ فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ} [هود: ٧١].

وقال جل وعلا: {وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنِ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ} [المؤمنون: ٥ – ٧]، فقوله تعالى (وَرَاءَ ذَلِكَ) أي غير ذلك.

كَصِلَةٍ وَصَدَقَة فِي عَدَم الِانْتِفَاع بِهَا {كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيح فِي يَوْم عَاصِف} شَدِيد هُبُوب الرِّيح فَجَعَلَتْهُ هَبَاء مَنْثُورًا لَا يَقْدِر عَلَيْهِ وَالْمَجْرُور خَبَر الْمُبْتَدَأ {لَا يَقْدِرُونَ} أَيْ الْكُفَّار {مِمَّا كَسَبُوا} عَمِلُوا فِي الدُّنْيَا {عَلَى شَيْء} أَيْ لَا يَجِدُونَ لَهُ ثَوَابًا لِعَدَمِ شَرْطه {ذَلِكَ هُوَ الضَّلَال} الهلاك {البعيد}[1].

---

(١) قوله تعالى: {مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} [إبراهيم: ١٨]، أي:"صفة أعمال الكفار في الدنيا كالبر وصلة الأرحام كصفة رماد اشتدت به الريح في يوم ذي ريح شديدة فلم تترك له أثرًا".

و هذا مثل ضربه الله تعالى لأعمال الكفار الذين عبدوا معه غيره، وكذبوا رسله، وبنوا أعمالهم على غير أساس صحيح، فانهارت وعدموها أحوج ما كانوا إليها، فقال تعالى (مثل الذين كفروا بربهم أعمالهم) أي مثل أعمالهم يوم القيامة إذا طلبوا ثوابها من الله تعالى، لأنهم كانوا يحسبون أنهم كانوا على شيء فلم يجدوا شيئا، ولا ألفوا حاصلا إلا كما يتحصل من الرماد إذا اشتدت به الريح العاصفة (في يوم عاصف) أي: ذي ريح شديدة عاصفة قوية، فلم يقدروا على شيء من أعمالهم التي كسبوا في الدنيا إلا كما يقدرون على جمع هذا الرماد في هذا اليوم.

كقوله تعالى (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا).

وقوله تعالى (مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم يظلمون).

وقوله تعالى (والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن مآء حتى إذا جآءه لم يجده شيئا).

وقوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله لا يهدي القوم الكافرين).

=

=

- المراد بأعمال الذين كفروا في الآية الكريمة: ما كانوا يقومون به في الدنيا من أعمال حسنة: كإطعام الطعام، ومساعدة المحتاجين، وإكرام الضيف، إلى غير ذلك من الأعمال الطيبة.

والرماد: ما يتبقى من الشيء بعد احتراق أصله، كالمتبقي من الخشب أو الحطب بعد احتراقهما.

والعاصف: من العصف وهو اشتداد الريح، وقوة هبوبها.

قال الرازي: اعلم أن وجه المشابهة بين هذا المثل وبين هذه الأعمال، هو أن الريح العاصف تطير الرماد وتفرق أجزاءه بحيث لا يبقى لذلك الرماد أثر ولا خبر، فكذا ههنا أن كفرهم أبطل أعمالهم وأحبطها بحيث لم يبق من تلك الأعمال معهم خبر ولا أثر.

والمراد من هذه الأعمال ما عملوه من أعمال البر كالصدقة وصلة الرحم وبر الوالدين وإطعام الجائع، وذلك لأنها تصير محبطة باطلة بسبب كفرهم، ولولا كفرهم لانتفعوا بها.... (الرازي).

والمعنى: حال أعمال الذين كفروا في حبوطها وذهابها وعدم انتفاعهم بشيء منها في الآخرة، كحال الرماد المكدس الذي أتت عليه الرياح العاصفة، فمحقته وبددته، ومزقته تمزيقا لا يرجى معه اجتماع.

فالآية الكريمة تشبيه بليغ لما يعمله الكافرون في الدنيا من أعمال البر والخير.

ووجه الشبه: الضياع والتفرق وعدم الانتفاع في كل، فكما أن الريح العاصف تجعل الرماد هباء منثورا، فكذلك أعمال الكافرين في الآخرة تصير هباء منثورا، لأنها أعمال بنيت على غير أساس من الإيمان وإخلاص العبادة لله تعالى.

قال الواحدي:"معنى الآية: إنَّ كلَّ ما تقرَّب به الكافر إلى الله تعالى فَمُحْبَطٌ غيرُ منتفعٍ به لأنَّهم أشركوا فيها غير الله سبحانه وتعالى كالرَّماد الذي ذرَّتْهُ الرِّيح وصار

=

=

هباءً لا يُنتفع به".

قال القرطبي:"المعنى: أعمالهم محبطة غير مقبولة. والرماد ما بقي بعد احتراق الشيء، فضرب الله هذه الآية مثلا لأعمال الكفار في أنه يمحقها كما تمحق الريح الشديدة الرماد في يوم عاصف. والعصف شدة الريح، وإنما كان ذلك لأنهم أشركوا فيها غير الله تعالى".

عن السدي، في الآية، قال:"مثل أعمال الكفار كرماد ضربته الريح فلم ير منه شيء، فكما لم ير ذلك الرماد ولم يقدر منه على شيء، كذلك الكفار لم يقدروا من أعمالهم على شيء".

وفي قوله تعالى: {فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ} [إبراهيم: ١٨]، وجوه:

أحدها: أنه وصف اليوم بالعصوف وهو من صفة الريح، لأن الريح تكون فيه، كما يقال يوم بارد، ويوم حار، لأن البرد والحر يكونان فيه.

الثاني: أن المراد به في يوم عاصف الريح، فحذف الريح لأنها قد ذكرت قبل ذلك، كما قال الشاعر:

وتَضْحَكُ عِرْفَانَ الدُّرُوعِ جُلُودُنَا إِذَا جَاءَ يَوْمٌ مُظْلِمُ الشَّمْسِ كَاسِفُ

يريد كاسف الشمس.

الثالث: أن العصوف من صفة الريح المقدم ذكرها، غير أنه لما جاء بعد اليوم ابتع إعرابه، قال الشاعر:

كأنما ضربت قدام أعينها قطنا بمستحصد الأوتار محلوج

وقال الآخر:

تريك سنة وجه غير مقرفة ملساء ليس بها خال ولا ندب

قوله تعالى: {لَا يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَى شَيْءٍ} [إبراهيم: ١٨]، أي:"لا يقدر

=

=

الكفار على تحصيل ثواب ما عملوا من البرِّ في الدنيا لإحباطه بالكفر، كما لا يستطيع أن يحصل الإنسان على شيء من الرماد الذي طيَّرته الريح".

وهو بيان للمقصود من التشبيه، وهو أن هؤلاء الكافرين، لا يقدرون يوم القيامة، على الانتفاع بشيء مما فعلوه في الدنيا من أفعال البر والخير، لأن كفرهم أحبطها فذهب سدى دون أن يستفيدوا منها ثوابا، أو تخفف عنهم عذابا.

قال الواحدي:"أَيْ: لا يجدون ثواب ما عملوا".

قوله تعالى: {ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} [إبراهيم: ١٨]، أي:"ذلك السعي والعمل على غير أساس، هو الضلال البعيد عن الطريق المستقيم".

قال الواحدي:"يعني: ضلال أعمالهم وذهابها، والمعنى: ذلك الخسران الكبير".

قال الماوردي:"وإنما جعله بعيداً لفوات استدراكه بالموت".

قال الراغب: في الآية" دلالة ان العبادات والأعمال الصالحة وغير معنية ما لم يبن على الإيمان".

- قال الشنقيطي:... وبين في موضع آخر أن الحكمة في ضربه للأمثال أن يتفكر الناس فيها فيفهموا الشيء بنظرة.

وهو قوله (وتلك الأمثال نضربها للناس لعلهم يتفكرون) ونظيره قوله (ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون).

وبين في موضع آخر أن الأمثال لا يعقلها إلا أهل العلم:

وهو قوله تعالى (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلهآ إلا العالمون).

وبين في موضع آخر أن المثل المضروب بجعله الله سبب هداية لقوم فهموه وسبب ضلال لقوم لم يفهموا حكمته:

وهو قوله (فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم وأما الذين كفروا فيقولون ماذآ أراد الله بهذا مثلا يضل به كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين).

=

أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) .

{أَلَمْ تَرَ} تَنْظُر يَا مُخَاطَب اسْتِفْهَام تَقْرِير {أن الله خلق السماوات وَالْأَرْض بِالْحَقِّ} مُتَعَلِّق بِخَلَقَ {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ} أَيّهَا النَّاس {وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيد} بَدَلكُمْ.

وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ (٢٠).

{وَمَا ذَلِكَ عَلَى الله بِعَزِيزٍ} شَدِيد[1].

=

وبين في موضع آخر أنه تعالى لا يستحي أن يضرب مثلا ما ولو كان المثل المضروب بعوضة فما فوقها قيل فما هو أصغر منها لأنه يفوقها في الصغر وقيل فما فوقها أي فما هو أكبر منها:

وهو قوله (إن الله لا يستحى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها).

ولذلك ضرب المثل بالعنكبوت في قوله (مثل الذين اتخذوا من دون الله أوليآء كمثل العنكبوت اتخذت بيتا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون).

وضربه بالحمار في قوله (كمثل الحمار يحمل أسفارا).

وضربه بالكلب في قوله (فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث).

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [إبراهيم: ١٩].

أي: ألم تر أيها المخاطب بعين قلبك وتتأمل ببصيرتك أن الله العظيم الجليل انفرد بالخلق والإيجاد، وأنه خلق السماوات والأرض ليستدل بهما على قدرته؟

قال المفسرون: أي لم يخلقهن عبثا وإنما خلقهن لأمر عظيم.

=

=

فقوله (بالحق) أي: وليس عبثا، فإن الله منزه عن العبث، فكل شيء أوجده الله أوجده لحكمة، فالحق ضد الباطل، فالله خلقهما لحكم باهرة، لم يخلقهما باطلا ولا عبثا ولا لعبا.

- قال القرطبي: الرؤية هنا رؤية القلب؛ لأن المعنى: ألم ينته علمك إليه؟.

قال الطبري:"يقول عز ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ألم تر، يا محمد، بعين قلبك، فتعلم أن الله أنشأ السماوات والأرض بالحق منفردًا بإنشائها بغير ظهير ولا مُعين".

قال البغوي:"أي: لم يخلقهما باطلا وإنما خلقهما لأمر عظيم".

قال السعدي:"ينبه تعالى عباده بأنه {خلق السماوات والأرض بالحق} أي: ليعبده الخلق ويعرفوه، ويأمرهم وينهاهم وليستدلوا بهما وما فيهما على ما له من صفات الكمال، وليعلموا أن الذي خلق السماوات والأرض -على عظمهما وسعتهما- قادر على أن يعيدهم خلقا جديدا، ليجازيهم بإحسانهم وإساءتهم، وأن قدرته ومشيئته لا تقصر عن ذلك".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرًا عن قدرته على معاد الأبدان يوم القيامة، بأنه خلق السموات والأرض التي هي أكبر من خلق الناس، أفليس الذي قدر على خلق هذه السموات، في ارتفاعها واتساعها وعظمتها وما فيها من الكواكب الثوابت والسيارات، والحركات المختلفات، والآيات الباهرات، وهذه الأرض بما فيها من مهاد ووهاد وأوتاد، وبراري وصحاري وقفار، وبحار وأشجار، ونبات وحيوان، على اختلاف أصنافها ومنافعها، وأشكالها وألوانها؛ {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأحقاف: ٣٣]، وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَ الإنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ

=

=

الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الأخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلاقُ الْعَلِيمُ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [يس: ٧٧ - ٨٣]".

قال سهل التستري:"خلق الأشياء كلها بقدرته، وزينها بعلمه، وحكمها بحكمته فالناظر من الخلق إلى الخالق تبين له عجائب الخلقة، والناظر من الخالق إلى الخلق يكشف له عن آثار قدرته وأنوار حكمته وبليغ صنعته".

وقرأ أهل الكوفة -إلا عامر-: «خالق السماوات والأرض على التعظيم».

قوله تعالى: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ} [إبراهيم: ١٩]، أي:"إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يطيعون الله".

قال الثعلبي:"يبدلكم أحسن وأفضل وأطوع منكم".

قال البغوي: أي: " سواكم أطوع لله منكم".

قال الطبري:"يقول: إن الذي تفرد بخلق ذلك وإنشائه من غير معين ولا شريك، إن هو شاء أن يُذْهبكم فيفنيكم، أذهبكم وأفناكم، ويأتِ بخلق آخر سواكم مكانكم، فيجدِّد خلقهم".

قال الزمخشري:"أس: هو قادر على أن يعدم الناس ويخلق مكانهم خلقا آخر على شكلهم أو على خلاف شكلهم، إعلاما منه باقتداره على إعدام الموجود وإيجاد المعدوم، يقدر على الشيء وجنس ضده".

قال السعدي:"يحتمل أن المعنى: إن يشأ يذهبكم ويأت بقوم غيركم يكونون أطوع لله منكم، ويحتمل أن المراد أنه: إن يشأ يفنيكم ثم يعيدهم بالبعث خلقا جديدا، ويدل على هذا الاحتمال ما ذكره بعده من أحوال القيامة".

قال ابن عباس، والكلبي: "يريد أُمِيْتُكم يا معشر الكفار وأخلق قومًا غيركم خيرًا

=

=

منكم وأطوع، وهو خطاب لأهل مكة".

قال الشنقيطي قوله تعالى في سورة النساء (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا الناس وَيَأْتِ بِآخَرِينَ) الآية ذكر تعالى في هذه الآية الكريمة أنه إن شاء أذهب الناس الموجودين وقت نزولها، وأتى بغيرهم بدلاً منهم، وأقام الدليل على ذلك في موضع آخر، وذلك الدليل هو أنه أذهب من كان قبلهم وجاء بهم بدلاً منهم وهو قوله تعالى (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِن بَعْدِكُمْ مَّا يَشَآءُ كَمَآ أَنشَأَكُمْ مِّن ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ).

وذكر في موضع آخر: أنهم إن تولوا أبدل غيرهم وأن أولئك المبدلين لا يكونون مثل المبدل منهم بل يكونون خيراً منهم، وهو قوله تعالى (وَإِن تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لاَ يكونوا أَمْثَالَكُم).

وذكر في موضع آخر: أن ذلك هين عليه غير صعب وهو قوله تعالى (إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذلك عَلَى الله بِعَزِيزٍ) أي: ليس بممتنع ولا صعب.

قوله تعالى: {وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ} [إبراهيم: ٢٠]، أي:"ليس ذلك بصعبٍ أو متعذرٍ على الله".

قال ابن عباس: "يريد لا يعز عليه شيء يريده".

قال النسفي: أي:"بمتعذر".

قال القرطبي:"أي: منيع متعذر".

قال الواحدي: أي:"بممتنعٍ شديدٍ".

قال ابن ابي زمنين:"أي: لا يشق عليه".

قال الطبري:"يقول: وما إذهابكم وإفناؤكم وإنشاء خلقٍ آخر سواكم مكانَكُم، على الله بممتنع ولا متعذّر، لأنه القادر على ما يشاء".

قال السعدي:"أي: بممتنع بل هو سهل عليه جدا، {مَا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا

=

وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١).

{وَبَرَزُوا} أَيْ الْخَلَائِق وَالتَّعْبِير فِيهِ وَفِيمَا بَعْده بِالْمَاضِي لتحقيق وُقُوعه {لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاء} الْأَتْبَاع {لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا} الْمَتْبُوعِينَ {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا} جَمْع تَابع {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ} دَافِعُونَ {عَنَّا مِنْ عَذَاب الله مِنْ شَيْء} مِنْ الْأُولَى لِلتَّبْيِينِ وَالثَّانِيَة لِلتَّبْعِيضِ {قَالُوا} الْمَتْبُوعُونَ {لَوْ هَدَانَا الله لَهَدَيْنَاكُمْ} لَدَعَوْنَاكُمْ إلَى الْهُدَى {سَوَاء عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ} زَائِدَة {مَحِيص} ملجأ[1].

=

كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [لقمان: ٢٨]، {وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ} [الروم: ٢٧]".

قال ابن كثير: "أي: بعظيم ولا ممتنع، بل هو سهل عليه إذا خالفتم أمره، أن يذهبكم ويأتي بآخرين على غير صفتكم، كما قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللهِ بِعَزِيزٍ} [فاطر: ١٥ - ١٧]، وقال: {وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ} [محمد: ٣٨]، وقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ} [المائدة: ٥٤]، وقال: {إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيرًا} [النساء: ١٣٣]".

قال الصابوني: "فإنَّ القويَّ القادر لا يصعبُ عليه شيء".

(١) قوله تعالى: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا} [إبراهيم: ٢١].

يقولُ تعالى: وَبَرَزُوا أَيْ بَرَزَتِ الْخَلَائِقُ كُلُّهَا بَرُّهَا وَفَاجِرُهَا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ، أَيِ اجْتَمَعُوا لَهُ فِي بِرَازٍ مِنَ الْأَرْضِ وَهُوَ الْمَكَانُ الَّذِي لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ يَسْتُرُ أَحَدًا.

=

=

- وبرز معناه في اللغة ظهر بعد الخفاء، ومنه يقال للمكان الواسع: البراز لظهوره، وقيل في قوله (وَتَرَى الأرض بَارِزَةً) أي: ظاهرة لا يسترها شيء، وامرأة برزة إذا كانت تظهر للناس.

ويقال: برز فلان على أقرانه إذا فاقهم وسبقهم، وأصله في الخيل إذا سبق أحدها.

- قال الرازي: قوله تعالى (وَبَرَزُوا) ورد بلفظ الماضي وإن كان معناه الاستقبال، لأن كل ما أخبر الله تعالى عنه فهو صدق وحق، فصار كأنه قد حصل ودخل في الوجود ونظيره قوله (ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة).

قال ابن عباس:"يريد: في البعث يوم القيامة".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: يوم القيامة".

قال القرطبي:"أي: برزوا من قبورهم، يعني: يوم القيامة".

قال الزجاج:"أي: جمعهم الله في حشرهم فاجتمع التابع والمتبوع".

قال مقاتل:"يقول وخرجوا من قبورهم إلى الله {جميعا}، يعني: بالـ «جميع»: أنه لم يغادر منهم أحد إلا بعث بعد موته".

قال ابن كثير:"أي: برزت الخلائق كلها، برها وفاجرها لله وحده الواحد القهار، أي: اجتمعوا له في براز من الأرض، وهو المكان الذي ليس فيه شيء يستر أحدا".

قال السعدي:"{وبرزوا}، أي: الخلائق {لله جميعا}، حين ينفخ في الصور فيخرجون من الأجداث إلى ربهم فيقفون في أرض مستوية قاع صفصف، لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، ويبرزون له لا يخفى [عليه] منهم خافية، فإذا برزوا صاروا يتحاجون، وكل يدفع عن نفسه، ويدافع ما يقدر عليه، ولكن أنى لهم ذلك؟".

قال الشوكاني:"«البروز»: الظهور، و «البراز»: المكان الواسع لظهوره، ومنه: امرأة برزة، أي: تظهر للرجال، فمعنى «برزوا»: ظهروا من قبورهم. وعبر بالماضي عن المستقبل تنبيها على تحقيق وقوعه كما هو مقرر في علم المعاني، وإنما قال:

=

=

{وبرزوا لله}، مع كونه سبحانه عالما بهم لا تخفى عليه خافية من أحوالهم برزوا أو لم يبرزوا، لأنهم كانوا يستترون عن العيون عند فعلهم للمعاصي، ويظنون أن ذلك يخفى على الله تعالى، فالكلام خارج على ما يعتقدونه".

قوله تعالى: {فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا} [إبراهيم: ٢١]، أي:"فيقول الأتباع لقادتهم: إنَّا كنَّا لكم في الدنيا أتباعًا، نأتمر بأمركم".

قال الزجاج:"{فقال الضعفاء}، وهم الأتباع، {للذين استكبروا} وهم المتبوعون، {إنا كنا لكم تبعا}، أي: اتبعناكم فيما دعوتمونا إليه".

قال الطبري:"يقول: فقال التُّبَّاع منهم للمتبوعين، وهم الذين كانوا يستكبرون في الدنيا عن إخلاص العبادة لله واتباع الرسل الذين أرسلوا إليهم {إنَّا كنا لكم تَبَعًا}، في الدنيا.. وإنما عنوا بقولهم: {إنا كنا لكم تبعًا}، أنهم كانوا أتباعهم في الدنيا يأتمرون لما يأمرونهم به من عبادة الأوثان والكفر بالله، وينتهون عما نهوهم عنه من اتّباع رسل الله".

قال ابن كثير:"{فَقَالَ الضُّعَفَاءُ} وهم الأتباع لقادتهم وسادتهم وكبرائهم الذين استكبروا عن عبادة الله وحده لا شريك له، وعن موافقة الرسل، فقالوا لهم: {إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا} أي: مهما أمرتمونا ائتمرنا وفعلنا".

قال الشوكاني:"أي: قال الأتباع الضعفاء للرؤساء الأقوياء المتكبرين لما هم فيه من الرياسة إنا كنا لكم تبعا أي: في الدنيا، فكذبنا الرسل وكفرنا بالله متابعة لكم".

عن ابن جريج، قوله: " {وقال الضعفاء}، قال: الأتباع، {للذين استكبروا}، قال: للقادة".

قوله تعالى: {فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ} [إبراهيم: ٢١]، أي:"فهل أنتم -اليوم- دافعون عنا من عذاب الله شيئًا كما كنتم تَعِدوننا؟".

قال ابن كثير:"أي: فهل تدفعون عنا شيئًا من عذاب الله، كما كنتم تعدوننا

=

=

وتمنوننا؟".

قوله تعالى: {قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ} [إبراهيم: ٢١]، أي:"فيقول الرؤساء: لو هدانا الله إلى الإيمان لأرشدناكم إليه، ولكنه لم يوفقنا، فضللنا وأضللناكم".

قال الطبري:"يقول عز ذكره: قالت القادةُ على الكفر بالله لتُبَّاعها: لو بَيَّن الله لنا شيئًا ندفع به عَذَابَه عنا اليوم، لبيَّنا ذلك لكم حتى تدفعوا العذابَ عن أنفسكم، ولكنا قد جزعنا مِن العذاب، فلم ينفعنا جزعُنا منه وصَبْرُنا عليه".

قال القرطبي: "أي لو هدانا الله إلى الإيمان لهديناكم إليه، وقيل: لو هدانا الله إلى طريق الجنة لهديناكم إليها، وقيل: لو نجانا الله من العذاب لنجيناكم منه".

قال ابن كثير:"فقالت القادة لهم: {لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ} ولكن حق علينا قول ربنا، وسبق فينا وفيكم قدر الله، وحقت كلمة العذاب على الكافرين".

قوله تعالى: {سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ} [إبراهيم: ٢١]، أي:"يستوي علينا وعليكم الجَزَع والصبر عليه، فليس لنا مهرب من العذاب ولا منجى".

قال الزجاج:"أي: ما لنا من مهرب ولا معدل عن العذاب".

قال الطبري:"يعنون: ما لهم من مَراغٍ يرُوغون عنه".

قال ابن كثير:"أي: ليس لنا خَلاص مما نحن فيه إن صبرنا عليه أو جزعنا منه".

قال السعدي:"{سواء علينا أجزعنا} من العذاب {أم صبرنا} عليه، {ما لنا من محيص} أي: من ملجأ نلجأ إليه، ولا مهرب لنا من عذاب الله".

قال محمد بن كعب القرظي: "بلغني، أو ذُكِر لي أن أهل النار قال بعضهم لبعضٍ: يا هؤلاء، إنه قد نزل بكم من العذاب والبلاء ما قد ترون، فهلمَّ فلنصبر، فلعل الصَّبر ينفعنا، كما صبر أهل الدنيا على طاعة الله فنفعهم الصبر إذ صبروا. قال: فيُجْمعون رأيهم على الصَّبر. قال، فصبروا، فطال صبرهم، ثم جزعوا فنادوا:

=

=

{سواءٌ علينا أجزِعْنَا أم صبرنَا ما لنا من محيص}، أي من منجًي".
عن ابن زيد، في قوله: " {سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص}، قال: إن أهل النار قال بعضهم لبعض: تعالوا، فإنما أدركَ أهل الجنة الجنَّةَ ببكائهم وتضرُّعهم إلى الله، فتعالوا نبكي ونتضرع إلى الله! قال: فبكوا، فلما رأوا ذلك لا ينفعهم قالوا: تعالوا، فإنَّما أدرك أهل الجنة الجنّةَ بالصبر، تعالوا نصبر! فصبروا صبراً لم يُرَ مثله، فلم ينفعهم ذلك، فعند ذلك قالوا: {سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص}".
قال ابن كثير:"والظاهر أن هذه المراجعة في النار بعد دخولهم إليها، كما قال تعالى: {وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} [غافر: ٤٧، ٤٨]، وقال تعالى: {قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعَنَتْ أُخْتَهَا حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لا تَعْلَمُونَ وَقَالَتْ أُولاهُمْ لأُخْرَاهُمْ فَمَا كَانَ لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْسِبُونَ} [الأعراف: ٣٨، ٣٩]، وقال تعالى: {يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولا وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا رَبَّنَا آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنًا كَبِيرًا} [الأحزاب: ٦٦ – ٦٨].
وأما تخاصمهم في المحشر، فقال تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ

=

وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) .

{وَقَالَ الشَّيْطَان} إبْلِيس {لَمَّا قُضِيَ الْأَمْر} وَأُدْخِلَ أَهْل الْجَنَّة الْجَنَّة وَأَهْل النَّار النَّار وَاجْتَمَعُوا عَلَيْهِ {إِنَّ الله وَعَدَكُمْ وَعْد الْحَقّ} بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاء فَصَدَقَكُمْ {وَوَعَدْتُكُمْ} أَنَّهُ غَيْر كَائِن {فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ} زَائِدَة {سُلْطَان} قُوَّة وَقُدْرَة أَقْهَركُمْ عَلَى مُتَابَعَتِي {إِلَّا} لَكِنْ {أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسكُمْ} عَلَى إجَابَتِي {مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ} بِمُغِيثِكُمْ {وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} بِفَتْحِ الْيَاء وَكَسْرهَا {إِنِّي كفرت بما أشركتمون} بِإِشْرَاكِكُمْ إيَّايَ مَعَ الله {مِنْ قَبْل} فِي الدنيا قال تعالى {إِنَّ الظَّالِمِينَ} الْكَافِرِينَ {لَهُمْ عَذَاب أَلِيم} مُؤْلِم.

وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣).

{وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَات جَنَّات تَجْرِي مِنْ تَحْتهَا الْأَنْهَار خَالِدِينَ} حَال مُقَدَّرَة {فِيهَا بِإِذْنِ رَبّهمْ تَحِيَّتهمْ فِيهَا} مِنْ الله وَمِنْ الملائكة

=

اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [سبأ: ٣١ – ٣٣]".

وفيما بينهم {سلام}[(١)].

---

(١) قوله تعالى: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ} [إبراهيم: ٢٢]، أي:"وقال الشيطان -بعد أن قضى الله الأمر وحاسب خَلْقه، ودخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهلُ النارِ النارَ".

قال الرازي: "اعلم أنه تعالى لما ذكر المناظرة التي وقعت بين الرؤساء والأتباع من كفرة الإنس، أردفها بالمناظرة التي وقعت بين الشيطان وبين أتباعه من الإنس".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقال إبليس، لما أدخل أهلُ الجنة الجنةَ وأهل النار النارَ، واستقرّ بكل فريق منهم قرارهم".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عما خطب به إبليس لعنه الله أتباعه، بعدما قضى الله بين عباده، فأدخل المؤمنين الجنات، وأسكن الكافرين الدركات".

قال الزمخشري: أي:"لما قطع الأمر وفرغ منه، وهو الحساب، وتصادر الفريقين ودخول أحدهما الجنة ودخول الآخر النار".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ} [إبراهيم: ٢٢]، أي:"إن الله وعدكم وعدًا حقًا بالبعث والجزاء".

قال الزجاج:"أي: وعد من أطاعه الجنة ووعد من عصاه النار".

قال الطبري:"أن الله وعدكم، أيها الأتباعُ، النارَ.. ووفى الله لكم بوعده".

قال ابن كثير:"فقام فيهم إبليس - لعنه الله - حينئذ خطيبا ليزيدهم حزنا إلى حزنهم وغَبنا إلى غبْنهم، وحسرة إلى حسرتهم، فقال: {إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ} أي: على ألسنة رسله، ووعدكم في اتباعهم النجاة والسلامة، وكان وعدًا حقا، وخبرا صدقا، وأما أنا فوعدتكم وأخلفتكم، كما قال الله تعالى: {يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلا غُرُورًا} [النساء: ١٢٠]".

=

=

قال الزمخشري:"روى أن الشيطان يقوم عند ذلك خطيبا في الأشقياء من الجن والإنس فيقول ذلك إن الله وعدكم وعد الحق وهو البعث والجزاء على الأعمال فوفى لكم بما وعدكم".

قوله تعالى: {وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ} [إبراهيم: ٢٢]، أي:"ووعدتكم وعدًا باطلا أنه لا بَعْثَ ولا جزاء، فأخلفتكم وعدي".

قال الطبري:"ووعدتكم النُّصْرة، فأخلفتكم وعدي".

قال الزمخشري: أي:"وعدتكم خلاف ذلك فأخلفتكم".

قوله تعالى: {وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} [إبراهيم: ٢٢]، أي:"وما كان لي عليكم من قوة أقهركم بها على اتباعي، ولا كانت معي حجة، ولكن دعوتكم إلى الكفر والضلال فاتبعتموني".

قال الطبري:"يقول: وما كان لي عليكم، فيما وعدتكم من النصرة، من حجة تثبت لي عليكم بصدق قولي إلا أن دعوتكم إلى طاعتي ومعصية الله، فاستجبتم لدعائي".

قال ابن كثير:"أي: ما كان لي عليكم فيما دعوتكم إليه من دليل ولا حجة على صدق ما وعدتكم به، {إِلا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي} بمجرد ذلك، هذا وقد أقامت عليكم الرسل الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به، فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه".

قال الزمخشري: {من سلطان}، أي:"من تسلط وقهر، فأقسركم على الكفر والمعاصي وألجئكم إليها، {إلا أن دعوتكم}، إلا دعائي إياكم إلى الضلالة بوسوستي وتزييني، وليس الدعاء من جنس السلطان، ولكنه كقولك: ما تحيتهم إلا الضرب".

قال الزجاج:"أي: أغويتكم وأضللتكم، فاتبعتموني".

=

=

عن ابن زيد:".. {وما كان لي عليكم من سلطان}، أقهركم به، {إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي}، قال: أطعتموني".

قوله تعالى: {فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ} [إبراهيم: ٢٢]، أي:"فلا ترجعوا باللوم عليَّ اليوم ولكن لوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم".

قال الطبري: أي:"على إجابتكم إياي، {ولوموا أنفسكم}، عليها".

قال ابن كثير:"فإن الذنب لكم، لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني بمجرد ما دعوتكم إلى الباطل".

قال الزمخشري:"حيث اغتررتم بى وأطعتمونى إذ دعوتكم، ولم تطيعوا ربكم إذ دعاكم".

عن ابن زيد:"{فلا تلوموني ولوموا أنفسكم}، حين أطعتموني".

وقرئ: «فلا يلومونى»، بالياء، على طريقة الالتفات.

قوله تعالى: {مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} [إبراهيم: ٢٢]، أي:"ما أنا بمغيثكم ولا أنتم بمغيثيَّ من عذاب الله".

قال الطبري:"يقول: ما أنا بمُغِيثكم، ولا أنتم بمُغيثيَّ من عذاب الله فمُنْجِيَّ منه".

قال ابن كثير:"أي: بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه، {وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} أي: بنافعي بإنقاذي مما أنا فيه من العذاب والنكال".

قال الزمخشري: أي:"لا ينجى بعضنا بعضا من عذاب الله ولا يغيثه. و «الإصراخ»: الإغاثة".

وفي قوله تعالى: {مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ} [إبراهيم: ٢٢]، وجوه:

أحدها: معناه: ما أنا بمنجيكم وما أنتم بمنجيَّ، قاله الربيع بن أنس.

الثاني: ما أنا بمغيثكم وما أنتم بمغيثي، قاله مجاهد، وقتادة، وبه قال القرطبي.

و «المصرخ»: المغيث. والصارخ: المستغيث. ومنه قول الشاعر:

=

=

فَـلاَ تَجْزَعُـوْا إِنِّـي لَكُـمْ غَيْـرَ مُـصْرِخٍ وَلَـيْسَ لَكُـمْ عَنِّـي غَنَـاءٌ وَلاَ نَـصْرُ

قال سلامة بن جندل:

كُنَّـا إِذَا مَـا أَتَانَـا صَـارِخٌ فَـزِعٌ كَـانَ الـصُّرَاخُ لَـهُ قَـرْعُ الظَّنَابِيْـبِ

الثالث: ما أنتم بنافعيّ وما أنا بنافعكم. قاله ابن عباس، وهو مروي عن مجاهد أيضا.

الرابع: ما أنا بناصركم، وما انتم بناصريّ. قاله الحسن.

الخامس: معناه: ما أنا بناصركم ولا مغيثكم، وما أنتم بناصريّ ولا مغيثيّ لما بي. قاله ابن زيد.

السادس: ما أنا بمغنٍ عنكم شيئًا. قاله محمد بن كعب القرظي.

وجميع الأقوال الواردة في معنى الآية صحيحة ومحتملة، فهي أقوال متقاربة المعنى يمكن القول بها أو بأحدها عند تفسير الآية.

قال أبو حيان: (وكلها أقوال متقاربة).

وقال النسفي جامعا بين أكثر من قول: (لا ينجي بعضنا بعضا من عذاب الله، ولا يغيثه إلا صراخ الإغاثة).

وقال ابن كثير: (أي بنافعكم ومنقذكم ومخلصكم مما أنتم فيه).

وقرئ: «بمصرخي»، بكسر الياء وهي ضعيفة، واستشهدوا لها ببيت مجهول:

قـال لهـا هـل لـك يـا تـافي قالـت لـه مـا أنـت بالمرضـي.

قوله تعالى: {إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ} [إبراهيم: ٢٢]، أي:"إني تبرَّأت مِن جَعْلِكم لي شريكًا مع الله في طاعته في الدنيا".

قال الرازي: قوله تعالى (إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ) فيه قولان:

الأول: إنها مصدرية والمعنى: كفرت بإشراككم إياي مع الله تعالى في الطاعة،

=

=

والمعنى: أنه جحد ما كان يعتقده أولئك الأتباع من كون إبليس شريكًا لله تعالى في تدبير هذا العالم وكفر به، أو يكون المعنى أنهم كانوا يطيعون الشيطان في أعمال الشر كما كانوا قد يطيعون الله في أعمال الخير وهذا هو المراد بالإشراك.

والثاني: وهو قول الفراء أن المعنى أن إبليس قال: إني كفرت بالله الذي أشركتموني به من قبل كفركم، والمعنى: أنه كان كفره قبل كفر أولئك الأتباع.

قال الماوردي: قوله تعالى (إني كفرتُ بما أشركتمون مِن قبل) فيه وجهان:

أحدهما: إني كفرت اليوم بما كنتم في الدنيا تدعونه لي من الشرك بالله تعالى، قاله ابن بحر.

الثاني: إني كفرت قبلكم بما أشركتموني من بعد، لأن كفر إبليس قبل كفرهم.

-قال الخازن: قوله تعالى (إني كفرت بما أشركتمون من قبل) يعني كفرت بجعلكم إياي شريكًا كله في عبادته وتبرأت من ذلك والمعنى أن إبليس جحد ما يعتقده الكفار فيه، من كونه شريكًا لله وتبرأ من ذلك.

قال الطبري:"يقول: إني جَحدْت أن أكون شريكًا لله فيما أشركتموني فيه من عبادتكم {من قبل} في الدنيا".

عن ابن عباس:"{إني كفرت بما أشركتمون من قبل}، قال: شركته، عبادته".

وروي عن مجاهد مثله ذلك.

قال قتادة:"يقول: عصيت الله قبلكم".

قال محمد بن كعب القرظي:"فلما سمعوا مقالته مَقَتُوا أنفسهم، قالا فنودوا: (لَمَقْتُ اللهِ أَكْبَرُ مِنْ مَقْتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ)، الآية [سورة غافر: ١٠]".

قال الحسن:"إذا كان يوم القيامة، قام إبليس خطيبًا على منبر من نار، فقال: {إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم}، إلى قوله: {وما أنتم بمصرخيّ}، قال: بناصريَّ {إني كفرت بما أشركتمون من قبل}، قال: بطاعتكم إياي في

=

=

الدنيا".

عن عامر في هذه الآية: " {ما أنا بمُصْرخكم وما أنتم بمصرخيّ إني كفرت بما أشركتمون من قبل}، قال: خطيبان يقومان يومَ القيامة، إبليسُ وعيسى ابن مريم. فأما إبليس فيقوم في حزبه فيقول هذا القول. وأما عيسى عليه السلام فيقول: {مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [سورة المائدة: ١١٧]".

قوله تعالى: {إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [إبراهيم: ٢٢]، أي:"إن الظالمين – في إعراضهم عن الحق واتباعهم الباطل– لهم عذاب مؤلم موجع".

قال الطبري:"يقول: إن الكافرين بالله لهم عذاب {أليم}، من الله موجِع".

قال الزمخشري:"قوله: {إن الظالمين}، قول الله ﷻ. ويحتمل أن يكون من جملة قول إبليس، وإنما حكى الله عز وعلا ما سيقوله في ذلك الوقت، ليكون لطفا للسامعين في النظر لعاقبتهم والاستعداد لما لا بد لهم من الوصول إليه، وأن يتصوروا في أنفسهم ذلك المقام الذي يقول الشيطان فيه ما يقول، فيخافوا ويعملوا ما يخلصهم منه وينجيهم".

قال ابن كثير:"والظاهر من سياق الآية: أن هذه الخطبة تكون من إبليس بعد دخولهم النار".

قوله تعالى: {وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [إبراهيم: ٢٣]، أي:"وأُدخل الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا الصالحات جنات تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار".

والعمل الصالح لا يكون صالحـًا إلا بشرطين:

الشرط الأول: أن يكون خالصـًا لله، قال ﷺ (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل

=

=

امرئٍ ما نوى) متفق عليه.

الشرط الثاني: أن يكون متابعـًا للنبي ﷺ، لقوله ﷺ (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) رواه مسلم.

قال ابن كثير:"ثم لما ذكر تعالى مآل الأشقياء وما صاروا إليه من الخزي والنَّكَال. وأن خطيبهم إبليس، عطف بحال السعداء وأنهم يدخلون يوم القيامة جنات تجري من تحتها الأنهار سارحة فيها حيث ساروا وأين ساروا".

وقرأ الحسن وعمرو بن عبيد: «وأدخل الذين آمنوا»، على فعل المتكلم، بمعنى: وأدخل أنا. وهذا دليل على أنه من قول الله.

قوله تعالى (جنات) دليل على أن الجنات أنوع، كما قال تعالى (ولمن خاف مقام ربه جنتان) ثم قال تعالى (ومن دونهما جنتان) وقال ﷺ (جنتان من فضة آنيتهما وما فيهما، وجنتان من ذهب آنيتهما وما فيهما).

- قال الشيخ ابن عثيمين: (جنات) بالجمع، وأحيانـًا يقال بالإفراد (جنة)، فإذا كانت بالإفراد فالمراد بها مطلق الجنس، وإذا قيلت بالجمع فالمراد بها أنواع الجنات.

(تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ) أي من تحت أشجارها، قال ابن الجوزي: أي من تحت شجرها لا من تحت أرضها.

- قال ابن عاشور: وأكمل محاسن الجنات جريان المياه في خلالها وذلك شيء اجتمع البشر كلهم على أنه من أنفس المناظر لأن في الماء طبيعة الحياة ولأن الناظر يرى منظراً بديعـًا وشيئـًا لذيذاً.

- قال ابن القيم: وهذا يدل على أمور:

أحدها: وجود الأنهار فيها. الثاني: أنها جارية لا واقفة. الثالثة: أنها تحت غرفهم وقصورهم وبساتينهم كما هو المعهود في أنهار الدنيا.

=

=

- وهذه الأنهار جاء تسميتها في قوله تعالى (مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى).

- قال ابن القيم: فذكر سبحانه هذه الأجناس الأربعة ونفى عن كل واحد منها الآفة التي تعرض له في الدنيا.

فآفة الماء أن يأسن ويأجن من طول مكثه، وآفة اللبن أن يتغير طعمه إلى الحموضة وأن يصير قارصًا، وآفة الخمر كراهة مذاقها المنافي للذة شربها، وآفة العسل عدم تصفيته، وهذا من آيات الرب سبحانه وتعالى أن تجري أنهار من أجناس لم تجر العادة في الدنيا بإجرائها ويجريها في غير أخدود وينفي عنها الآفات التي تمنع كمال اللذة بها كما ينفي عن خمر الجنة جميع آفات خمر الدنيا من الصداع والغول واللغو.

- وهذه الأنهار لا تنضب ولا تنقص، وتجري من غير أخدود.

قال ابن القيم في النونية:

أنهارها في غير أخدود جرت سبحان ممسكها عن الفيضانِ

قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ} [إبراهيم: ٢٣]، أي:"لا يخرجون منها أبدًا -بإذن ربهم وحوله وقوته-".

قال السمعاني:"مقيمين فيها أبدا، بأمر ربهم".

قال ابن كثير:"ماكثين أبدا لا يحولون ولا يزولون".

قال الزمخشري:"{بإذن ربهم}، متعلق بـ «أدخل»، أى: أدخلتهم الملائكة الجنة بإذن الله وأمره".

قال القرطبي:"{بإذن ربهم}، أي: بأمره. وقيل: بمشيئته وتيسيره. وقال: {بإذن ربهم} ولم يقل: «بإذني»، تعظيما وتفخيما".

=

=

- قال ابن عاشور: وقوله (وهم فيها خالدون) احتراس مِن تَوَهُّم الانقطاع بما تعودوا من انقطاع اللذات في الدنيا لأن جميع اللذات في الدنيا معرضة للزوال وذلك ينغصها عند المنعم عليه كما قال أبو طيب:

أشدُّ الغم عندي في سرور تحقَّقَ عنه صاحبُه انتقالاً.

- **قال الشنقيطي أيضا:** قوله تعالى (وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ) وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غماً.

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم فتتكدر غبطتهم.

وقال ﷺ (يناد مناد: إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبداً، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبداً، وإن لكم أن تشبوا فلا تهرموا أبداً، وإن لكم أن تنعموا فلا تيأسوا أبداً) رواه مسلم.

وقال ﷺ (إذا دخل أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فيؤتى بالموت على شكل كبش فيذبح، فيقال: يا أهل الجنة خلود فلا موت...) متفق عليه.

- قال ابن القيم: جمع سبحانه في هذه البشارة بين نعيم البدن بالجنات وما فيها من الأنهار والثمار ونعيم النفس بالأزواج المطهرة، ونعيم القلب وقرة العين بمعرفة دوام هذا العيش أبد الآباد وعدم انقطاعه.

قوله تعالى: {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} [إبراهيم: ٢٣]، أي:"يُحَيَّوْن فيها بسلام من الله وملائكته والمؤمنين".

=

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤).

{أَلَمْ تَرَ} تَنْظُر {كَيْفَ ضَرَبَ الله مَثَلًا} وَيُبْدَل مِنْهُ {كَلِمَة طَيِّبَة} أَيْ لَا إلَه إلَّا الله {كَشَجَرَةٍ طَيِّبَة} هِيَ النَّخْلَة {أَصْلهَا ثابت} في الأرض {وفرعها} غصنها {في السماء}.

تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥).

{تُؤْتِي} تُعْطِي {أُكُلهَا} ثَمَرهَا {كُلّ حِين بِإِذْنِ رَبّهَا} بِإِرَادَتِهِ كَذَلِك كَلِمَة

=

قال البغوي:"يسلم بعضهم على بعض، وتسلم الملائكة عليهم".

وفي قوله تعالى: {تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ} [إبراهيم: ٢٣]، وجهان:

أحدهما: أن تحية أهل الجنة إذا تلاقوا فيها السلامة، حكاه االماوردي عن الجمهور.

عن الحسن:"إن السلام لا ينقطع عن أهل الجنة، وهو تحيتهم".

قال قتادة:"تحية أهل الجنة السلام".

الثاني: أن التحية -ها هنا-: الملك، ومعناه: أن ملكهم فيها دائم السلام، مأخوذ من قولهم في التشهد: التحيات لله، أي الملك لله، ذكره ابن شجرة.

وفي المحيّي لهم بالسلام، ثلاثة أقوال:

أحدها: أن المحيي بالسلام هو الله تعالى.

الثاني:: أن الملائكة يحيونهم بالسلام. قاله ابن جريج.

قال ابن جريج:"الملائكة يسلمون عليهم في الجنة".

والثالث: أن بعضهم يحيي بعضاً بالسلام.

الْإِيمَان ثَابِتَة فِي قَلْب الْمُؤْمِن وَعَمَله يَصْعَد إلَى السَّمَاء وَيَنَالهُ بَرَكَته وَثَوَابه كُلّ وَقْت {وَيَضْرِب} يُبَيِّن {الله الْأَمْثَال لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} يَتَّعِظُونَ فَيُؤْمِنُونَ.

وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦).

{وَمَثَل كَلِمَة خَبِيثَة} هِيَ كَلِمَة الْكُفْر {كَشَجَرَةٍ خَبِيثَة} هِيَ الْحَنْظَل {اُجْتُثَّتْ} اُسْتُؤْصِلَتْ {مِنْ فَوْق الْأَرْض مَا لَهَا مِنْ قَرَار} مُسْتَقَرّ وَثَبَات كَذَلِكَ كَلِمَة الْكُفْر لَا ثَبَات لَهَا وَلَا فَرْع وَلَا بَرَكَة[1].

(١) قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ} [إبراهيم: ٢٤]، أي: "ألم تعلم -أيها الرسول- كيف ضرب الله مثلا لكلمة التوحيد (لا إله إلا الله) بشجرة عظيمة".

لما بين الله تعالى أحوال السعداء وأحوال الأشقياء فيما تقدم، ضرب لكل من الفريقين مثلا يتميز به عن صاحبه، فقال عز من قائل يخاطب كل من يصلح للخطاب من أصحاب العقول الراجحة:

(ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة) أي: ألم تعلم أيها العاقل الفطن كيف بين الله للناس مثلا يعرفون به منزلة كلمة التوحيد في الإسلام، حيث شبهها بشجرة طيبة أصلها ضارب بعروقه في الأرض، وفرعها -أي أعلاها- متجه إلى السماء، تعطى ثمرها في كل وقت وقته الله لإثمارها بإذن خالقها ومربيها.

فالمراد بالكلمة الطيبة هي شهادة ألا إله إلا الله التي هي الأساس الأول للإسلام.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره لنبيّه محمد ﷺ: ألم تر، يا محمد، بعين قلبك، فتعلم كيف مثَّل الله مثَلا وشبَّه شبَهًا {كلمة طيبة}، ويعني بالطيبة: الإيمانَ به جل ثناؤه، كشجرة طَيِّبة الثمرة".

في قوله تعالى: {كَلِمَةً طَيِّبَةً} [إبراهيم: ٢٤]، ثلاثة أقوال:

=

=

أحدها: أنها شهادةُ أن لا إله إلا الله. قاله ابن عباس.

الثاني: أنها الإيمان. ومجاهد، وابن جريج.

الثالث: أنه عنى بها المؤمن نفسه، قاله ابن عباس أيضا، وبه قال قال عطية العوفي، والربيع بن أنس.

وفي «الشجرة الطيبة» قولان:

أحدهما: أنها النخلة، قاله ابن عباس -في إحدى الروايات-، ومجاهد، وعكرمة، والضحاك، وقتادة، ومسروق، وابن زيد، وأنس بن مالك -ورواه مرفوعا-.

وروي عن أنس: "أن رسول الله ﷺ أُتِي بقِناع بُسْر، فقال: «مثل كلمة طيبة كشجرة طيبة»، قال: هي النخلة".

الثاني: أنها شجرة في الجنة، قاله ابن عباس في رواية قابوس بن أبي ظبيان.

قال الطبري:"وأولى القولين بالصواب في ذلك قولُ من قال: هي «النخلة»، لصحَّة الخبر عن رسول الله ﷺ... عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد قال: صحبتُ ابنَ عمر إلى المدينة، فلم أسمعه يُحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا حديثًا واحدًا قال، كنّا عند النبي ﷺ، فأتي بجُمَّار فقال: من الشَّجر شجرةٌ مَثَلُها مثلُ الرَّجُل المسلم. فأردت أن أقول: «هي النخلة»، فإذا أنا أصغرُ القوم، فسكتُّ، فقال رسول الله ﷺ: «هي النخلة»".

قوله تعالى: {أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم: ٢٤]، أي:"أصلها متمكن في الأرض، وأعلاها مرتفع علوًّا نحو السماء".

قال الطبري:"يقول عز ذكره: أصلُ هذه الشجرة ثابتٌ في الأرض، {وفرعها}، -وهو أعلاها- في {السماء}، يقول: مرتفع علُوًّا نحوَ السماء".

عن ابن عباس: " {أصلها ثابتٌ}، يقول: لا إله إلا الله، ثابتٌ في قلب المؤمن، {وفرعها في السماء}، يقول: يُرْفَع بها عملُ المؤمن إلى السماء".

=

=

وقال ابن عباس أيضا:"يعني بالأصل الثابت في الأرض، وبالفرع في السماء، يكون المؤمن يعمَلُ في الأرض، ويتكلَّم، فيبلغ عمله وقولُه السَّماءَ وهو في الأرض".
عن الربيع بن أنس: " {كلمة طيبة}، قال: هذا مَثَلُ الإيمان، فالإيمان الشَّجرة الطيبة، وأصله الثابت الذي لا يزول الإخلاصُ لله، وفرعُه في السماء، فَرْعُه خشْية الله".

حكي ابن جريج عن آخرين:"«الكلمة الطيبة»، أصلها ثابت، هي ذات أصل في القلب، {وفرعها في السماء}، تَعْرُجُ فلا تُحْجَب حتى تنتهي إلى الله".
ووجه تشبيه الكلمة الطيبة بالنخلة: أن أصل تلك الكلمة وهو الإيمان ثابت في قلب المؤمن كثبوت جذور النخلة في الأرض، وأن ما يتفرع منها ويبنى عليها من الأعمال الصالحة والأفعال الزكية يرفع إلى السماء، ويصعد إلى الله تعالى، كما قال جل شأنه: (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وأن ما يترتب على ذلك من ثواب الله تعالى ورضاه دائم دوام ثمرها، والانتفاع بها في كل وقت، فإن ثمر النخيل يؤكل أبدا: ليلا ونهارا صيفا وشتاء، فيؤكل منها الجمار والبلح، والبسر والرطب والتمر، وكل نتاجها خير وبركة من بعد أن تغرس إلى أن تجف وتيبس، بل بعد أن تقطع قطعا تستعمل في مصالح الناس ومرافقهم، ولن ترى شيئا منها مهملا أبدا، وكم من الناس يقيمون في بيوت تعتمد على جذوع النخل وجريده، ويعيشون على التمر كما تعيش إبلهم علي النوى، وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها: "إن كنا آل محمد لنمكث شهرين ما نوقد نارا، إن هما إلا الأسودان: التمر والماء".
وكذلك المؤمن القوى والمسلم الحق، كله خير وبركة أينما حل وارتحل: لنفسه وعشيرته وأمته، في حياته وبعد مماته، ومن هنا فسرت الكلمة الطيبة بالمؤمن كما قال بعض السلف، فما أروع هذا التشبيه المقتبس من مشكاة النور الإلهي.

=

=

-قال الرازي: قوله تعالى (وفرعها في السمآء) وهذا الوصف يدل على كمال حال تلك الشجرة من وجهين:

الأول: أن ارتفاع الأغصان وقوتها في التصاعد يدل على ثبات الأصل ورسوخ العروق.

والثاني: أنها متى كانت متصاعدة مرتفعة كانت بعيدة عن عفونات الأرض وقاذورات الأبنية فكانت ثمراتها نقية ظاهرة طيبة عن جميع الشوائب.

-قال ابن الجوزي: فأما الحكمة في تمثيل الإيمان بالنخلة، فمن أوجه:

أحدها: أنها شديدة الثبوت، فشبه ثبات الإيمان في قلب المؤمن بثباتها.

والثاني: أنها شديدة الارتفاع، فشبه ارتفاع عمل المؤمن بارتفاع فروعها.

والثالث: أن ثمرتها تأتي كل حين، فشبه ما يكسب المؤمن من بركة الإيمان وثوابه في كل وقت بثمرتها المجتناة في كل حين على اختلاف صنوفها، فالمؤمن كلما قال: لا إله إلا الله، صعدت إلى السماء، ثم جاءه خيرها ومنفعتها.

والرابع: أنها أشبه الشجر بالإنسان، فإن كل شجرة يقطع رأسها تتشعب غصونها من جوانبها، إلا هي، إذا قطع رأسها يبست، ولأنها لا تحمل حتى تلقح، ولأنها فضلة تربة آدم - عليه السلام - فيما يروى.

-وقال الخازن: وقال العلماء: ووجه الحكمة في تمثيل هذه الكلمة التي هي كلمة الإخلاص وأصل الإيمان بالنخلة حاصل من أوجه:

أحدهما: أن كلمة الإخلاص شديدة الثبوت في قلب المؤمن كثبوت أصل النخلة في الأرض.

الوجه الثاني: أن هذه الكلمة ترفع عمل المؤمن إلى السماء.

كما قال تعالى (إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه) وكذلك فرع النخلة الذي هو عال في السماء.

=

=

الوجه الثالث: أن ثمر النخلة يأتي في كل حين ووقت وكذلك ما يكسبه المؤمن من الأعمال الصالحة في كل وقت وحين ببركة هذه الكلمة، فالمؤمن كلما قال: لا إله إلا الله صعدت إلى السماء وجاءته بركتها وثوابها وخيرها ومنفعتها.

الوجه الرابع: أن النخلة شبيهة بالإنسان في غالب الأمر لأنها خلقت من فضله طينة آدم وأنها إذا قطع رأسها تموت كالآدمي بخلاف سائر الشجر فإنه إذا قطع نبت، وأنها لا تحمل حتى تلقح بطلع الذكر.

الوجه الخامس: في وجه الحكمة في تمثيل الإيمان بالشجر على الإطلاق لأن الشجرة لا تسمى شجرة إلا بثلاثة أشياء: عرق راسخ، وأصل ثابت، وفرع قائم، وكذلك الإيمان لا يتم إلا بثلاثة أشياء: تصديق بالقلب، وقول باللسان، وعمل بالأبدان.

-وقال ابن كثير: والظاهر من السياق: أن المؤمن مثله كمثل شجرة، لا يزال يوجد منها ثمر في كل وقت من صيف أو شتاء، أو ليل أو نهار، كذلك المؤمن لا يزال يرفع له عمل صالح آناء الليل وأطراف النهار في كل وقت وحين.

قال ابن حجر: قوله (... وإنها مثل المسلم) وجه التشبيه بين النخلة والمؤمن... جاء عند البزار عن مجاهد عن ابن عمر. قال: قال رسول الله ﷺ (مثل المؤمن مثل النخلة، ما أتاك منها نفعك) وإسناد صحيح، وقد أفصح بالمقصود بأوجز عبارة.

أما من زعم: أن موقع التشبيه بين المسلم والنخلة من جهة كون النخلة إذا قطع رأسها ماتت، أو لأنها لا تحمل حتى تلقح، أو لأنها تموت إذا غرقت، أو لأن لطلعها رائحة مني الآدمي، أو لأنها تعشق، أو لأنها تشرب من أعلاها، فكلها أوجه ضعيفة. (الفتح)

وقال النووي: قال العلماء وشبه النخلة بالمسلم في كثرة خيرها ودوام ظلها وطيب

=

=

ثمرها ووجوده على الدوام، فإنه من حين أن يطلع ثمرها لا يزال يؤكل منه حتى ييبس وبعد أن ييبس يتخذ منه منافع كثيرة، ومن خشبها وورقها وأغصانها فيستعمل جذوعا وحطبا وعصيا... ثم جمال نباتها وحسن هيئة ثمرها، فهي منافع كلها وخير وجمال كما أن المؤمن خير كله من كثرة طاعاته ومكارم أخلاقه.

قوله تعالى: {تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا} [إبراهيم: ٢٥]، أي:"تعطي ثمرها كلَّ وقت بتيسير الخالق وتكوينه، كذلك كلمة الإيمان ثابتة في قلب المؤمن، وعملُه يصعد إلى السماء وينااله بركته وثوابه في كل وقت".

قال الطبري:"يقول: تطعم ما يؤكل منها من ثمرها كلّ حين بأمرِ ربها".

قال قتادة:"يؤكل ثمرها في الشتاء والصيف".

عن الربيع بن أنس: " {تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها}، يصعد عملُه، يعني عَمل المؤمن مِن أوّل النهار وآخره".

وفي «الحين» -ها هنا- وجوه من التفسير:

أحدها: يعني كل سنة، لأنها تحمل كل سنة. قاله ابن عباس -في إحدى الروايات-، ومجاهد، وابن زيد، وحماد، والحكم.

عن عكرمة قال:"أرسل إليّ عمر بن عبد العزيز فقال: يا مولى ابن عباس، إني حلفت أن لا أفعل كذا وكذا، حينًا، فما الحين الذي تعرف به؟ قلت: إنّ من الحين حينًا لا يدرك، ومن الحين حينٌ يُدرك، فأما الحين الذي لا يُدرك فقول الله: {هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا} [سورة الإنسان: ١]، والله ما يدري كم أتى له إلى أن خُلِق، وأما الذي يُدرك فقوله: {تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها}، فهو ما بين العام إلى العام المُقْبِل. فقال: أصبت يا مولى ابن عباس، ما أحسن ما قلت".

الثاني: كل ثمانية أشهر، قاله علي بن أبي طالب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ، لأنها مدة الحمل ظاهراً

=

=

وباطنـًا.

الثالث: كل ستة أشهر، قاله ابن عباس، والحسن، وسعيد بن جبير، وعكرمة، وسعيد بن المسيب، وبه قال مقاتل، والفراء، وابو عبيدة.

روي عن ابن عباس: "أنه سئل عن رجل حَلَف أن لا يكلم أخاه حينًا؟ قال: «الحينُ» ستة أشهر. ثم ذكر النخلة، ما بينَ حملها إلى صِرَامها سِتَّة أشهر".

الرابع: أن «الحين»: ما بين الستة الأشهر والسبعة. قاله الحسن أيضا.

الخامس: كل أربعة أشهر، قاله سعيد بن المسيب. لأنها مدة يرونها من طلعها إلى جذاذها.

السادس: كل شهرين، لأنها مدة صلاحها إلى جفافها. وهذا قول سعيد بن المسيب.

السابع: كل غدوة وعشية، لأنه وقت اجتنائها، قاله ابن عباس، والربيع بن أنس.

وقال الضحاك:"المؤمن يطيع الله بالليل والنهار وفي كل حينٍ".

وقال الضحاك أيضا:"هذا مثلُ المؤمن يعمل كل حين، كل ساعة مِن النهار، وكل ساعة من الليل، وبالشتاء والصيف، بطاعة الله".

وقال الربيع بن انس:"يصعَدُ عمله أولَ النهار وآخره".

قال الزجاج:"وجميع من شاهدنا من أهل اللغة يذهب إلى أن «الحين» اسم كالوقت، يصلح لجميع الأزمان كلها طالت أو قصرت، فالمعنى في قوله تعالى {تؤتي أكلها كل حين} أنها ينتفع بها في كل وقت، لا ينقطع نفعها ألبتة، والدليل على أن الحين بمنزلة الوقت قول النابغة، أنشده الأصمعي في صفة الحية والملدوغ:

تَنَاذَرَها الرَّاقُون من سُوء سَمِّها تُطَلِّقُه حِينًا وحِينًا تُراجِعُ

فالمعنى: أن السم يخف ألمه في وقت ويعود وقتا".

=

=

قال الإمام ابن جرير الطبري:"وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب قولُ من قال: عنى بالحين، في هذا الموضع، غدوةً وعشيةً، وكلَّ ساعة، لأن الله تعالى ذكره ضَرَب ما تؤتي هذه الشجرة كلَّ حين من الأكل لعمل المؤمن وكلامِه مثلا ولا شك أن المؤمن يُرفع لهُ إلى الله في كلّ يوم صالحٌ من العمل والقول، لا في كل سنة، أو في كل ستة أشهر، أو في كل شهرين. فإذا كان ذلك كذلك، فلا شك أن المَثَل لا يكون خِلافًا للمُمَثَّل به في المعنى. وإذا كان ذلك كذلك، كان بَيّنًا صحةُ ما قلنا.

فإن قال قائل: فأيُّ نخلة تؤتي في كل وقت أكلا صيفًا وشتاء؟ قيل: أما في الشتاء، فإن الطَّلْع من أكُلها، وأما في الصيف فالبَلَح والبُسْرُ والرُّطَب والتَّمرُ، وذلك كله من أكلها".

قوله تعالى: {وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ} [إبراهيم: ٢٥]، أي:"ويضرب الله الأمثال للناس؛ ليتذكروا ويتعظوا، فيعتبروا".

وهو تنبيه على شأن الأمثال وعظيم فائدتها، في تجلية الحقائق وتنويرها، عونا على التبصير والتذكير، ودوام النظر والتدبر في كتاب الله الحكيم.

-قال الشوكاني: يتفكرون أحوال المبدأ والمعاد، وبدائع صنعه سبحانه الدالة على وجوده ووحدانيته، وفي ضرب الأمثال زيادة تذكير وتفهيم وتصوير للمعاني.

قال الطبري:"يقول: ويمثِّل الله الأمثال للناس، ويشبّه لهم الأشباهَ، ليتذكروا حُجَّة الله عليهم، فيعتبروا بها ويتعظوا، فينزجروا عما هم عليه من الكفر به إلى الإيمان".

قال قتادة:"اعقلوا عن الله الأمثال".

قوله تعالى: {وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ} [إبراهيم: ٢٦]، أي:"ومثل كلمة خبيثة -وهي كلمة الكفر- كشجرة خبيثة المأكل والمطعم".

قال الطبري:"ومثل الشِّركَ بالله، وهي «الكلمة الخبيثة»، كشجرة خبيثة".

=

=

وفي قوله تعالى {كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ} [إبراهيم: ٢٦]، قولان:

أحدهما: أنها الشرك، وقوله: {كشجرة خبيثة}، يعني الكافر. قاله ابن عباس.

الثاني: أنها الكافر نفسه. ذكره الماوردي.

وفي قوله تعالى: {كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ} [إبراهيم: ٢٦]، أربعة أقوال:

أحدها: أنها شجرة الحنظل، قاله أنس بن مالك، ومجاهد.

الثاني: أنها مثل ضربه الله، ولم تخلق هذه الشجرةُ على وجه الأرض، قاله ابن عباس.

الثالث: أنها التي تجعل في المسكر. قاله أبو صخر، حميد بن زياد الخراط.

الرابع: أنها الكشوت. ذكره الماوردي.

قوله تعالى: {اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ} [إبراهيم: ٢٦].

أي: اقتلعت واستؤصلت من فوق الأرض، والاجتثاث قطع الشيء.

وهذا في مقابلة قوله: "أصلها ثابت" وقال: "من فوق الأرض" لأن عروقها قريبة من الفوق فكأنها فوق.

قال الرازي: "(من فوق الأرض) معناه: ليس لها أصل ولا عرق، فكذلك الشرك بالله تعالى ليس له حجة ولا ثبات ولا قوة".

قال قتادة:"استؤصلت من فوق الأرض".

قوله تعالى: {مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ} [إبراهيم: ٢٦].

أي: ليس لهذه الشجرة الخبيثة من ثبات في الأرض ولا استقرار، إذ ليس لها أصل ثابت ولا فرع صاعد، وكذلك الكافر لا خير فيه: لا يصعد له قول طيب ولا عمل صالح، إذ ليس لهما عنده أساس يبنيان عليه، فهذا وجه تشبيه الكافر بالشجرة الخبيثة.

قال الماوردي: "وتشبيه الكلمة الخبيثة بهذه الشجرة التي ليس لها أصل يبقى، ولا

=

=

ثمر يجتنى أن الكافر ليس له عمل في الأرض يبقى، ولا ذكر في السماء يرقى".

قال ابن الجوزي: "ومعنى تشبيه الكافر بهذه الشجرة أنه لا يصعد للكافر عمل صالح، ولا قول طيب، ولا لقوله أصل ثابت".

قال الطبري:"يقول: ما لهذه الشجرة من قَرار ولا أصل في الأرض تثْبُت عليه وتقوم. وإنما ضُرِبت هذه الشجرة التي وصَفها الله بهذه الصفة لكُفر الكافر وشركِه به مثلا. يقول: ليس لكُفر الكافر وعَمَله الذي هو معصيةُ الله في الأرض ثباتٌ، ولا له في السماء مَصْعَد، لأنه لا يَصْعَد إلى الله منه شيء".

عن ابن عباس: {اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار} "يقول: الشرك ليس له أصلٌ، يأخذ به الكافرُ ولا برهانٌ، ولا يقبل اللهُ مع الشرك عمل".

وقال ابن عباس:"ضرب الله مثل الشجرة الخبيثة كمثل الكافر. يقول: إن الشجرة الخبيثة اجتُثّت من فوق الأرض ما لها من قرَار. يقول: الكافر لا يُقْبَل عمله ولا يصعَدُ إلى الله، فليس له أصل ثابتٌ في الأرض، ولا فرعٌ في السماء. يقول: ليس له عمل صَالحٌ في الدنيا ولا في الآخرة".

قال قتادة:"إن رجلا لقي رجلا من أهل العلم فقال: ما تقول في" الكلمة الخبيثة"، فقال: ما أعلم لها في الأرض مستقرًّا، ولا في السماء مَصْعَدًا، إلا أن تَلْزَم عُنُقَ صاحبها، حتى يوافي بها القِيامة".

عن الربيع بن أنس: " {ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة}، قال: هذا الكافر ليس له عمل في الأرض، ولا ذكرٌ في السماء، {اجتُثت من فوق الأرض ما لها من قرار}، قال: لا يصعد عمله إلى السماء، ولا يقوم على الأرض. فقيل: فأين تكون أعمالهم؟ قال: يَحْمِلون أوزارهم على ظُهورهم".

قال الضحاك:"ضربَ الله مثلَ الكافر: {كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار}، يقول: ليس لها أصلٌ ولا فرع، وليست لها ثمرة، وليس فيها منفعة،

=

يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ (٢٧).

{يُثَبِّت الله الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِت} هِيَ كَلِمَة التَّوْحِيد {فِي الْحَيَاة الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَة} أَيْ فِي الْقَبْر لَمَّا يَسْأَلهُمْ الْمَلَكَانِ عَنْ رَبّهمْ وَدِينهمْ وَنَبِيّهمْ فَيُجِيبُونَ بِالصَّوَابِ كَمَا فِي حَدِيث الشَّيْخَيْنِ {وَيُضِلّ الله الظَّالِمِينَ} الْكُفَّار فَلَا يَهْتَدُونَ لِلْجَوَابِ بِالصَّوَابِ بَلْ يَقُولُونَ لَا نَدْرِي كما في الحديث {ويفعل الله ما يشاء}[1].

=

كذلك الكافر ليس يعمل خيرًا ولا يقوله، ولم يجعل الله فيه بركةً ولا منفعة".

عن عطية العوفي: " {ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض}، قال: مثل الكافر، لا يصعَد له قولٌ طيب ولا عملٌ صالح".

(١) ذكر سبب النزول.

عن عائشة؛ قالت: قال رسول الله ﷺ: "بي يفتن أهل القبور، وفيَّ نزلت هذه الآية: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ (٢٧)}.

أخرجه البيهقي في "عذاب القبر" (٢٦/ ١٥). وفي إسناده الواقدي، وهو متروك.

وعن مجاهد في قوله: {وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧)} [الرعد: ٢٧]؛ قال: في عذاب القبر.

أخرجه البيهقي في "عذاب القبر" (٢٧/ ١٦) بسند صحيح عنه.

وأخرج الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٤٤، ١٤٥) من طريق شريك عن إبراهيم بن مهاجر عن مجاهد. قال: هذا في القبر مخاطبته، وفي الآخرة مثل ذلك. وهذا ضعيف؛ شريك وإبراهيم كلاهما ضعيف.

=

=

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ قال: نزلت في الميت الذي يسأل في قبره عن النبي ﷺ.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٤٤): ثنا يونس نا ابن وهب عن عبد الرحمن.

وسنده ضعيف جدًا؛ لإعضاله، وضعف عبد الرحمن

وعن المسيب بن رافع؛ قال: نزلت في صاحب القبر.

أخرجه ابن أبي شيبة (٣/ ٣٣٠، ١٠/ ٤٣٤ رقم ٩٨٩٥)، والطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٤٤) من طريق العلاء بن المسيب عن أبيه. وهذا مرسل صحيح الإسناد.

وعن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "نزلت في عذاب القبر".

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣/ ٢٣٢ رقم ١٣٦٩، ٨/ ٣٧٨ رقم ٤٦٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٠١ رقم ٢٨٧١) من طريق سعد بن عبيدة عن البراء به.

وأخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠٢ رقم ٧٤) من طريق خيثمة عن البراء به.

* قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧]، أي:"يثبِّت الله الذين آمنوا بالقول الحق الراسخ، وهو شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وما جاء به من الدين الحق يثبتهم الله به في الحياة الدنيا، وعند مماتهم بالخاتمة الحسنة، وفي القبر عند سؤال المَلَكين بهدايتهم إلى الجواب الصحيح".

عن البراء بن عازب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: قال رسول الله ﷺ: "نزلت في عذاب القبر"

أخرجه البخاري في "صحيحه" (٣/ ٢٣٢ رقم ١٣٦٩، ٨/ ٣٧٨ رقم ٤٦٩٩)، ومسلم (٤/ ٢٢٠١ رقم ٢٨٧١) من طريق سعد بن عبيدة عن البراء به.

وأخرجه مسلم (٤/ ٢٢٠٢ رقم ٧٤) من طريق خيثمة عن البراء به.

=

=

وفي قوله تعالى: {يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ} [إبراهيم: ٢٧]، وجوه:

أحدها: يزيدهم الله أدلة على القول الثابت.

الثاني: يديمهم الله على القول الثابت، ومنه قول عبد الله بن رواحة:

فَثَبَّتَ اللهُ مَا آتَاكَ مِنْ حَسَنٍ تَثْبِيتَ مُوسَى وَنَصْرًا كَالَّذِي نُصِرُوا

الثالث: يحقق الله أعمالَهم وإيمانهم. بالقول الحق. قاله ابن جرير الطبري.

وفي قوله: {بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ} [إبراهيم: ٢٧]، ثلاثة وجوه:

أحدها: أنه الشهادتان، قاله طاوس، ومقاتل، وابن جرير الطبري.

الثاني: أنه العمل الصالح.

والثالث: أنه القرآن. أفاده الماوردي.

وفي قوله تعالى: {فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ} [إبراهيم: ٢٧]، وجهان:

أحدهما: أن المراد بـ «الحياة الدنيا»: زمان حياته فيها، ومعنى ذلك: يثبت الله الذين آمنوا بالإيمان في الحياة الدنيا، وبـ «الآخرة»: المساءلة في القبر، قاله طاوس، وقتادة، ومقاتل، ويحيى بن سلام، والفراء.

الثاني: أن المراد بـ «الحياة الدنيا»: المساءلة في القبر إذا أتاه المَلكان في القبر فقالا له: مَن ربك؟ فقال: ربّي الله. فقالا له: ما دينك؟ قال: دينيَ الإسلام. فقالا له: مَن نبيك؟ قال: نبيِّي محمدٌ ﷺ. فذلك التثبيت في الحياة الدنيا. قاله البراء بن عازب، وطاوس، والمسيب بن رافع، ومجاهد.

عن أبي سعيد قال: "كنا مع رسول الله ﷺ في جنازة فقال: يا أيها الناس، إن هذه الأمة تبتلى في قُبورها، فإذا الإنسان دُفِن وتفرَّق عنه أصحابه، جاءه ملك بيده مِطْراقٌ فأقعده فقال: ما تقولُ في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنًا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبدُه ورسوله. فيقول له: صدقْتَ. فيفتح له بابٌ إلى النار فيقال: هذا منزلك لو كفرتَ بربّك، فأما إذْ آمنت به، فإن الله أبدَلك

=

=

به هذا. ثم يفتح له بابٌ إلى الجنة، فيريد أن ينْهَضَ له، فيقال له: اسكُنْ. ثـم يُفْسَح له في قبره. وأما الكافِر أو المنافق فيقال لـه: ما تقـول في هـذا الرجل؟ فيقـول: ما أدري! فيقال له: لا دَرَيْتَ ولا تَدَرَّيتَ ولا اهتديتَ! ثم يفتح لـه بابٌ إلى الجنة فيقال له: هذا كان منزلك لو آمنت بربك، فأما إذْ كفرت، فإن الله أبدَلك هـذا. ثـم يفتح له بابٌ إلى النار، ثم يَقْمَعُه المَلَكُ بالمطراق قَمْعَـةً يسمعه خَلْـقُ الله كُلهـم إلا الثقلين. قال، بعضُ أصحابه، يا رسولَ الله، ما مِنَّا أحدٌ يقوم على رأسه مَلَكٌ بيده مِطْراق إلا هِيلَ عند ذلك! فقال رسول الله ﷺ: {يثبت الله الـذين آمنـوا بـالقول الثَّابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة ويُضِلُّ الله الظالمين ويفعلُ الله ما يشاء}".

قال ابن عباس: "إن المؤمن إذا حضَره الموت شهدته الملائكة، فسلموا عليه وبشروه بالجنة، فإذا ماتَ مشَوْا في جنازته ثم صلوا عليه مع الناس، فإذا دفن أجلس في قبره فيقال له: من ربك؟ فيقول: ربّيَ الله. ويقال له: مَنْ رسولك؟ فيقول: محمد. فيقال له: ما شهادَتُك؟ فيقول: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله. فيوسَّع له في قبره مَدّ بَصَره".

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك ما ثبتَ به الخبر عن رسول الله ﷺ في ذلك، وهو أنّ معناه: {يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا}، وذلك تثبيته إياهم في الحياة الدنيا بالإيمان بالله وبرسوله محمد ﷺ، {وفي الآخرة} بمثل الذي ثبَّتهم به في الحياة الدنيا، وذلك في قبورهم حين يُسْألون عن الذي هم عليه من التوحيد والإيمان برسوله ﷺ".

قوله تعالى: {وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ} [إبراهيم: ٢٧]، أي:"ويضل الله الظالمين عن الصواب في الدنيا والآخرة".

قال الطبري:"يعني، أن الله لا يوفِّق المنافق والكافر في الحياة الدنيا وفي الآخرة عند المُسَاءَلة في القبر، لما هدي له من الإيمان المؤمن بالله ورسوله ﷺ".

=

قال ابن عباس:"أما الكافرُ فتنزل الملائكة إذا حضره الموت، فيبسُطون أيديهم-" والبَسْط"، هو الضرب يضربون وجوههم وأدبارَهم عند الموت-. فإذا أدْخِل قبره أقعد فقيل له: من ربك؟ فلم يرجِع إليهم شيئًا، وأنساه الله ذكر ذلك. وإذا قيل له: من الرسول الذي بُعِث إليك؟ لم يهتد له، ولم يرجع إليه شيئًا، يقول الله: {ويضل الله الظالمين}".

عن البراء قال: "قال رسول الله ﷺ، وذَكَر الكافر حين تُقْبض روحه، قال: فتعاد روحُه في جسده. قال، فيأتيه ملكَان شديدًا الانتهار، فيجلسانه فينتهرانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: لا أدري؟ قال فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: لا أدري، قال: فيقال له: ما هذا النبيّ الذي بُعِث فيكم؟ قال: فيقول: سمعت الناس يقولون ذلك، لا أدري. قال، فيقولان: لا دريتَ. قال: وذلك قول الله: {ويضل الله الظالمين، ويفعل الله ما يشاء}".

قوله تعالى: {وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧]، أي:"ويفعل الله ما يشاء من توفيق أهل الإيمان وخِذْلان أهل الكفر والطغيان".

قال الطبري: يعني: " وبيدِ الله الهداية والإضلال، فلا تنكروا، أيها الناس، قدرتَه، ولا اهتداءَ من كان منكم ضالا ولا ضلالَ من كان منكم مهتديًا، فإنّ بيده تصريفَ خلقه وتقليبَ قلوبهم، يفعل فيهم ما يشاء".

وفي قوله تعالى: {وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ} [إبراهيم: ٢٧]، وجهان:

أحدهما: مِن إمهال وانتقام.

الثاني: من ضغطة القبر ومساءلة منكر ونكير.

وروي ابن عباس أن النبي -ﷺ-قال: «لو نجا أحد من ضمة القبر، لنجا سعد بن معاذ، ولقد ضمَّ ضمة، ثم رخي عنه».

وفي رواية:"لو نجا أحدٌ من ضَمَّةِ القبر لنجا منها هذا العبدُ الصالح".

أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨).

{أَلَمْ تَرَ} تَنْظُر {إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَة الله} أَيْ شُكْرهَا {كُفْرًا} هُمْ كُفَّار قُرَيْش {وَأَحَلُّوا} أَنْزَلُوا {قَوْمهمْ} بِإِضْلَالِهِمْ إِيَّاهُمْ {دَار الْبَوَار} الهلاك.

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩).

{جَهَنَّم} عَطْف بَيَان {يَصْلَوْنَهَا} يَدْخُلُونَهَا {وَبِئْسَ الْقَرَار} المقر هي.

وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠).

{وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا} شُرَكَاء {لِيُضِلُّوا} بِفَتْحِ الْيَاء وَضَمّهَا {عَنْ سَبِيله} دِين الْإِسْلَام {قُلْ} لَهُمْ {تمتعوا} بدنياكم قليلا {فإن مصيركم} مرجعكم {إلى النار}[1].

=

عن أبى هريرة عن النبى ﷺ قال: "إن عذاب القبر من ثلاثة من الغيبة والنميمة والبول فإياكم وذلك".

وقال قتادة: "ذكر لنا أنّ عذاب القبر من ثلاثة: ثلثٌ من البول. وثلثٌ من الغيبة، وثلثٌ من النميمة".

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: هم كفار أهل مكة.

أخرجه البخاري في "صحيحه" (رقم ٣٩٧٧، ٤٧٠٠).

وعن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: هم كفار قريش يوم بدر.

أخرجه عبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٣٤٢)، والنسائي في "تفسيره" (١/ ٦٢٢ رقم ٢٨٧)، والطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٤٦)، والحاكم (٢/ ٣٥٢)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٧/ ٢٢٤٦) من طريق أبي الطفيل: أن ابن

=

=

الكواء سأل عليًا عن هذه الآية: {الَّذِينَ بَدَّلُوا} (وذكره). وهذا إسناد صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه.

وقال الحاكم: "هذا حديث صحيح عال ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٤١) وزاد نسبته للفريابي وابن الأنباري وابن مردويه والبيهقي في "الدلائل".

وأخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٤٦)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٧/ ٢٢٤٧)، والحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣٥٢)، والطبراني في "المعجم الأوسط" (١/ ٢٣٧ رقم ٧٧٦) من طريق أبي إسحاق السبيعي عن عمرو ذي مرة عن علي؛ قال: نزلت في الأفجرين من قريش: بني مخزوم، وبني أمية. فأما بنو مخزوم؛ فقطع الله دابرهم يوم بدر، وأما بنو أمية؛ فمتعوا إلى حين.

وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علتان: الأولى: عمرو ذي مرة؛ مجهول؛ كما في "التقريب" (٢/ ٨١).

الثانية: أبو إسحاق السبيعي؛ مدلس وقد عنعن.

وقال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٤٤): "وفيه عمرو ذو مرة، لم يرو عنه غير أبي إسحاق السبيعي وبقية رجاله ثقات". أما الحاكم؛ فقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه"، ووافقه الذهبي!!

وأخرجه الطبري من طريق أبي إسحاق عن بعض أصحاب علي عن علي به. وهذا ضعيف؛ لجهالة الأصحاب، ولعل عمرًا منهم، وأبو إسحاق مدلس وقد عنعن، ثم هو مختلط ولم يرو عنه أحد هذا الطريق ممن سمع منه قبل الاختلاط.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ؛ قال: هما الأفجران من قريش: بنو المغيرة وبنو أمية، فأما بنو المغيرة؛ فكفيتموهم يوم بدر، وأما بنو أمية؛ فمتعوا إلى حين.

أخرجه البخاري في "التاريخ الكبير" (٨/ ٣٧٣ - مختصرًا)، والطبري في "جامع

=

=

البيان" (١٣/ ١٤٦) من طريق الثوري عن علي بن زيد بن جدعان عن يوسف بن سعد عن عمر به.

وهذا إسناد ضعيف؛ لأن عليًا ذا ضعيف.

وأخرج الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٤٦) من طريق حمزة الزيات عن عمرو بن مرة؛ قال: قال ابن عباس لعمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: يا أمير المؤمنين هذه الآية {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا}؛ قال: هم الأفجران من قريش، أخوالي وأعمامك. فأما أخوالي؛ فاستأصلهم الله يوم بدر، وأما أعمامك؛ فأملى الله لهم إلى حين.

وهذا إسناد ضعيف؛ عمرو بن مرة لم يسمع من ابن عباس ولا من أحد من الصحابة؛ إلا من ابن أبي أوفى.

وعن عبد الله بن عمر؛ قال: هم كفار قريش الذين قتلوا يوم بدر.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٤٢) وقال: "وأخرج مالك في "تفسيره" عن نافع عن ابن عمر به".

وعن علي؛ قال: بنو أمية وبنو مخزوم رهط أبي جهل.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٤٢) ونسبه لابن مردويه.

وعن قتادة؛ قال: كنا نحدث أنهم أهل مكة: أبو جهل وأصحابه الذين قتلهم الله يوم بدر.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٤٨): ثنا بشر العقدي ثنا يزيد بن زريع ثنا سعيد عنه به.

وهذا مرسل صحيح الإسناد. وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٤٢) وزاد نسبته لابن أبي حاتم.

ثم أخرجه هو وعبد الرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٣٤٣) من طريق محمد بن ثور عن معمر عن قتادة به. وهذا مرسل رجاله ثقات.

=

=

وعن عطاء بن يسار؛ قال: نزلت هذه الآية في الذين قتلوا من قريش.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٤٨) من طريق ابن إسحاق عن أصحابه عن عطاء به.

وهذا إسناد ضعيف؛ فيه ثلاث علل: الأولى: الإرسال. والثانية: جهالة أصحاب ابن إسحاق.

والثالثة: ابن إسحاق مدلس وقد عنعن.

وعن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم؛ قال: هؤلاء المشركون من أهل بدر.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٤٨) بسند صحيح إليه؛ لكنه معضل وعبد الرحمن نفسه متروك.

وعن الضحاك؛ قال: هم كفار قريش من قبل بدر.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٤٧) من طريق جويبر عنه. وسنده ضعيف جدًا؛ لأجل جويبر، ولإعضاله.

ثم أخرجه من طريق عبيد بن سليمان عنه قال: هم مشركو أهل مكة. وهذا ضعيف أيضًا.

وعن أبي مالك؛ قال: هم القادة من المشركين يوم بدر.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٤٧) بسند صحيح إليه لكنه مرسل.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: هو جبلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣/ ١٤٨). وسنده ضعيف جدًا؛ مسلسل بالعوفيين الضعفاء.

* قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا} [إبراهيم: ٢٨].

هذا خطاب لرسول الله ﷺ أو لكل من يصلح له، وهو تعجيب من حال الكفار

=

=

حيث جعلوا بدل نعمة الله عليهم الكفر أي: بدل شكرها الكفر، بها، وذلك بتكذيبهم محمدا ﷺ حين بعثه الله منهم، وأنعم عليهم به، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أنهم كفار مكة وأن الآية نزلت فيهم. (الشوكاني).

اختلف أهل العلم في في المشار إليهم في الآية الكريمة، على أقوال:

أحدها: أنهم كفار قريش بدلوا نعمة الله عليهم لما بعث رسوله منهم، كفراً به وجحوداً له، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد.

عن مجاهد:"{بدلوا نعمة الله كفرا}، قال: كفار قريش".

قال سعيد بن جبير:"هم كفار قريش".

وري عن ابن أبي حسين، قال: "قام علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقال: ألا أحد يسألني عن القرآن فو الله لو أعلم اليوم أحدا أعلم مني به، وإن كان من وراء البحار، لأتيته. فقام عبد الله بن الكواء فقال: من الذين بدلوا نعمت الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار؟ فقال: مشركوا قريش، أتتهم نعمة الله: الإيمان، فـ بدلوا نعمت الله «كفرا» وأحلوا قومهم دار البوار".

الثاني: أنها نزلت في الأفجرين من قريش بني أميه وبني مخزوم، فأما بنو أمية فمتعوا إلى حين، وأما بنو مخزوم فأهلكوا يوم بدر، قاله عليٌّ، ونحوه عن عمر رضي الله عنهما.

الثالث: أنهم قتلى المشركين يوم بدر، قاله أبو مالك، وسعيد بن جبير، والضحاك.

قال قتادة:"كنا نحدّث أنهم أهل مكة: أبو جهل وأصحابه الذين قتلهم الله يوم بدر".

وقال مجاهد وابن زيد: أنهم "المشركون من أهل بدر".

وفي رواية اخرى عن علي-رضي الله عنه- قال:"هم الفجار من قريش كفيتهم يوم بدر. قال: فمن الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا قال: منهم أهل حروراء".

=

=

الرابع: أنهم القادة من المشركين يوم بدر. قاله أبو مالك، وقتادة.

الخامس: أنهم المشركون من أهل بدر. رواه عمرو بن دينار عن ابن عباس.

السادس: أنهم بنو أمية، وبنو المغيرة، ورؤساء أهل بدر الذين ساقوا أهل بدر إلى بدر. رواه أبو صالح عن ابن عباس.

السابع: أنهم جبلة بن الأيهم والذين اتبعوه من العرب فلحقوا بالروم. قاله ابن عباس.

وذلك حين لُطم جبلة من الأيهم، فجعل له عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ القصاص بمثلها، فلم يرض وأنف فارتد متنصراً ولحق بالروم في جماعة من قومه، قاله ابن عباس. ولما صار إلى بلاد الروم ندم وقال:

تنصَّرت الأشْرافُ من عار لطمةٍ   وما كان فيها لو صبرت لها ضَرَرْ

تكنفني منها لجاجٌ ونخوةٌ   وبعث لها العين الصحيحة بالعور

فيا ليتني أرْعَى المخاض ببلدتي   ولم أنكِرِ القول الذي قاله عمر

الثامن: أنهم منافقو قريش، رواه أبو الطفيل عامر بن واثلة عن علي-رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-.

التاسع: أنهم أهل مكة، رواه عطاء عن ابن عباس، وبه قال الضحاك.

العاشر: أنها عامة في جميع المشركين، قاله الحسن.

ويحتمل تبديلهم نعمة الله كفراً وجهين:

أحدهما: أنهم بدلوا نعمة الله عليهم في الرسالة بتكذيب الرسول-صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

قال ابن الجوزي:"قال المفسرون: وتبديلهم نعمة الله كفرا، أن الله أنعم عليهم برسوله، وأسكنهم حرمه، فكفروا بالله وبرسوله، ودعوا قومهم إلى الكفر به".

الثاني: أنهم بدلوا نعم الدنيا بنقم الآخرة.

-قال ابن الجوزي: قال المفسرون: وتبديلهم نعمة الله كفرا، أن الله أنعم عليهم

=

=

برسوله، وأسكنهم حرمه، فكفروا بالله وبرسوله، ودعوا قومهم إلى الكفر به.

-وقال ابن عاشور: ونعمة الله التي بدلوها هي نعمة أن بوأهم حرمه، وأمنهم في سفرهم وإقامتهم، وجعل أفئدة الناس تهوي إليهم، وسلمهم مما أصاب غيرهم من الحروب والغارات والعدوان، فكفروا بمن وهبهم هذه النعم وعبدوا الحجارة، ثم أنعم الله عليهم بأن بعث فيهم أفضل أنبيائه صلى الله عليهم جميعا وهداهم إلى الحق، وهيأ لهم أسباب السيادة والنجاة في الدنيا والآخرة، فبدلو شكر ذلك بالكفر به، فنعمة الله الكبرى هي رسالة محمد ﷺ ودعوة إبراهيم وبنيته عليهم السلام.

وقومهم: هم الذين اتبعوهم في ملازمة الكفر حتى ماتوا كفارا، فهم أحق بأن يضافوا إليهم".

قال البخاري: "قوله ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا ألم تعلم، كقوله: ألم تر كيف ألم تر إلى الذين خرجوا البوار الهلاك، بار يبور بورا، وقوما بورا هالكين.

حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء. سمع ابن عباس ألم تر إلى الذين بدلوا نعمت الله كفرا قال: هم كفار أهل مكة".

وإن كان المعنى يعم جميع الكفار، فإن الله تعالى بعث محمدا ﷺ رحمة للعالمين ونعمة للناس، فمن قبلها وقام بشكرها دخل الجنة، ومن ردها وكفرها دخل النار.

قوله تعالى: {وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ} [إبراهيم: ٢٨]، أي:"وأنزلوا قومهم دار الهلاك بكفرهم وطغيانهم".

والبوار: الهلاك والخسران.

والإحلال بها الإنزال فيها، والمراد بالإحلال التسبب فيه، أي كانوا سببا لحلول قومهم بدار البوار، وهي جهنم في الآخرة، ومواقع القتل والخزي في الدنيا مثل:

=

=

موقع بدر.

قال ابن الجوزي:"أي: الهلاك".

قال الضحاك:"أحلوا من أطاعهم من قومهم".

عن ابن عباس:"{دَارَ الْبَوَارِ}، قال: الهلاك".

قال الشوكاني:"أي: أنزلوا قومهم بسبب ما زينوه لهم من الكفر دار البوار، وهي جهنم".

قال الطبري:"يقول: وأنزلوا قومهم من مُشركي قريش دار البوار، وهي دار الهلاك، يقال منه: بار الشيء يبور بورا: إذا هلك وبطل؛ ومنه قول ابن الزِّبعرى، وقد قيل إنه لأبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب:

يا رَسُولَ المليكِ إنَّ لِساني رَاتِقٌ ما فَتَقْتُ إذْ أنا بُور".

وفي قوله تعالى: {دَارَ الْبَوَارِ} [إبراهيم: ٢٨]، وجهان:

أحدهما: أنها جهنم، قاله ابن زيد.

الثاني: أنها يوم بدر، قاله علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسعيد بن جبير، ومجاهد.

قال الإمام الشوكاني:"والأول أولى لقوله: {جَهَنَّمَ} [إبراهيم: ٢٩]، فإنه عطف بيان لـ «دار البوار»".

قوله تعالى: {جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا} [إبراهيم: ٢٩]، أي:"أحلوهم في جهنم يذوقون سعيرها".

قال ابن الجوزي:"أي: يقاسون حرها".

قال قتادة:"هي دارهم في الآخرة".

قال القرطبي:"بيّن أن «دار البوار»: جهنم. كما قال ابن زيد، وعلى هذا لا يجوز الوقف على «دار البوار»، لأن جهنم منصوبة على الترجمة عن «دار البوار»، فلو رفعها رافع بإضمار، على معنى: هي جهنم، أو بما عاد من الضمير في «يصلونها»،

=

=

لحسن الوقف على «دار البوار»".

قوله تعالى: {وَبِئْسَ الْقَرَارُ} [إبراهيم: ٢٩]، أي:"وبئست جهنم مستقرا".

قال ابن الجوزي:"أي: بئس المقر هي".

قال الطبري:"يقول: وبئس المستقرّ هي جهنم لمن صلاها".

قال الشوكاني:"أي: بئس القرار قرارهم فيها، أو بئس المقر جهنم، فالمخصوص بالذم محذوف".

قوله تعالى: {وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ} [إبراهيم: ٣٠]، أي:"وجعل هؤلاء الكفار لله شركاء عبدوهم معه؛ ليُبْعدوا الناس عن دينه".

قال الشوكاني:"أي: جعلوا لله شركاء في الربوبية، أو في التسمية وهي الأصنام".

قال القرطبي:"أي: أصناما عبدوها {لِيُضِلُّوا} عن دينه".

قال النسفي: {أندادا}، أي:"أمثالا في العبادة أو في التسمية".

قال السعدي:"أي: نظراء وشركاء {ليضلوا عن سبيله} أي: ليضلوا العباد عن سبيل الله بسبب ما جعلوا لله من الأنداد ودعوهم إلى عبادتها".

عن قتادة، قوله:"وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا}، «والأنداد»: الشركاء".

وقرئ: «لِيَضَلُّوا»، بمعنى: كي يضلّ جاعلو الأنداد لله عن سبيل الله.

قوله تعالى: {قُلْ تَمَتَّعُوا} [إبراهيم: ٣٠]، أي:"قل لهم -أيها الرسول-: استمتعوا في الحياة الدنيا؛ فإنها سريعة الزوال".

قال الطبري:"يقول: استمتعوا في الحياة الدنيا، فإنها سريعة الزوال عنكم".

قال القرطبي:"{قل تمتعوا} وعيد لهم، وهو إشارة إلى تقليل ما هم فيه من ملاذ الدنيا إذ هو منقطع".

قال البيضاوي:"{قل تمتعوا}، بشهواتكم أو بعبادة الأوثان فإنها من قبيل الشهوات التي يتمتع بها، وفي التهديد بصيغة الأمر إيذان بأن المهدد عليه

=

=

كالمطلوب لافضائه إلى المهدد به، وأن الأمرين كائنان لا محالة ولذلك علله بقوله: {فإن مصيركم إلى النار}، وأن المخاطب لانهماكه فيه كالمأمور به من آمر مطاع".

قال النسفي: {قل تمتعوا}، أي:"في الدنيا والمراد به الخذلان والتخلية".

قال السعدي:"{قل} لهم متوعدا: {تمتعوا} بكفركم وضلالكم قليلا فليس ذلك بنافعكم".

قال الشوكاني:"ثم هددهم سبحانه، فقال لنبيه ﷺ: {قل تمتعوا} بما أنتم فيه من الشهوات، وما زينته لكم أنفسكم من كفران النعم وإضلال الناس".

قال ذو النون:"«التمتع»: أن يقضي العبد ما استطاع من شهوته".

قوله تعالى: {فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [إبراهيم: ٣٠]، أي:"فإن مردَّكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم".

قال الطبري: يقول: "وإلى النار تصيرون عن قريب، فتعلمون هنالك غبّ تمتعكم في الدنيا بمعاصي الله وكفركم فيها به".

قال القرطبي:"أي: مردكم ومرجعكم إلى عذاب جهنم".

قال النسفي: أي:"مرجعكم اليها".

قال السعدي:"أي: مآلكم ومقركم ومأواكم فيها وبئس المصير".

قال الشوكاني:"أي: مردكم ومرجعكم إليها ليس إلا، ولما كان هذا حالهم، وقد صاروا لفرط تهالكهم عليه وانهماكهم فيه لا يقلعون عنه، ولا يقبلون فيه نصح الناصحين جعل الأمر بمباشرته مكان النهي عن قربانه إيضاحا لما تكون عليه عاقبتهم، وأنهم لا محالة صائرون إلى النار، فلا بد لهم من تعاطي الأسباب المقتضية ذلك، فجملة فإن مصيركم إلى النار تعليل للأمر بالتمتع، وفيه من التهديد ما لا يقادر قدره، ويجوز أن تكون هذه الجملة جوابا لمحذوف دل عليه

=

قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١).

{قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاة وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَة مِنْ قَبْل أَنْ يَأْتِي يَوْم لَا بَيْع} فِدَاء {فِيهِ وَلَا خِلَال} مُخَالَّة أَيْ صَدَاقَة تَنْفَع هُوَ يَوْم القيامة[1].

=

سياق الكلام، كأنه قيل: فإن دمتم على ذلك فإن مصيركم إلى النار، والأول أولى، والنظم

القرآني عليه أدل، وذلك كما يقال لمن يسعى في مخالفة السلطان: اصنع ما شئت من المخالفة فإن مصيرك إلى السيف".

قال ابن عباس في هذه الآية: "لو صار الكافر مريضًا سقيمًا، لا ينام ليلاً ولا نهارًا، جائعًا لا يجد ما يأكل ويشرب، لكان هذا كله نعيمًا عندما يصير إليه من شدة العذاب، ولو كان المؤمن في الدنيا في أنعم عيشة لكان بؤسًا عندما يصير إليه من نعيم الآخرة".

(١) قوله تعالى: {قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ} [إبراهيم: ٣١].

أي: قل لعبادي المؤمنين آمرا لهم بما فيه غاية صلاحهم وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: والمراد بالعبودية هنا الخاصة.

فإن العبودية تنقسم إلى أقسام:

عبودية عامة: وهي عبودية أهل السموات والأرض كلهم لله، برهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، فهذه عبودية القهر والملك.

قال تعالى (إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبدا).

وقال تعالى (قل اللهم فاطر السماوات والأرض عالم الغيب والشهادة أنت تحكم

=

=

بين عبادك في ما كانوا فيه يختلفون).
وقال تعالى (وما الله يريد ظلما للعباد).
والنوع الثاني: عبودية الطاعة والمحبة (الخاصة).
قال تعالى (يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون).
وقال تعالى (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما).
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه ﷺ {قُلْ} يا محمد {لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا} بك، وصدّقوا أن ما جئتهم به من عندي {يُقِيمُوا الصَّلاةَ} يقول: قل لهم: فليقيموا الصلوات الخمس المفروضة عليهم بحدودها".
قال ابن كثير:"يقول تعالى آمرًا العباد بطاعته والقيام بحقه، والإحسان إلى خلقه، بأن يقيموا الصلاة وهي عبادة الله وحده لا شريك له.. والمراد بإقامتها هو: المحافظة على وقتها وحدودها، وركوعها وخشوعها وسجودها".
قال السعدي:"أي: قل لعبادي المؤمنين آمرا لهم بما فيه غاية صلاحهم وأن ينتهزوا الفرصة، قبل أن لا يمكنهم ذلك: {يقيموا الصلاة} ظاهرا وباطنا".
عن ابن عباس:"{قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلاةَ}، يعني: الصلوات الخمس".
قال ابن عطية:"«العباد» جمع «عبد»، وعرفه في التكرمة بخلاف «العبيد»".
- قال السعدي: لم يقل: يفعلون الصلاة، أو يأتون الصلاة، لأنه لا يكفي فيها مجرد الإتيان بصورتها الظاهرة، فإقام الصلاة، إقامتها ظاهرا بإتمام أركانها وواجباتها وشروطها، وإقامتها باطنا بإقامة روحها، وهو حضور القلب فيها، وتدبر ما يقوله ويفعله منها.
- لم يأمر الله بالصلاة إلا بلفظ الإقامة، كقوله تعالى (وأقيموا الصلاة) وقوله
=

=

تعالى (والمقيمين الصلاة).

إقامة الصلاة ليس مجرد أداؤها، وإنما المراد إقامتها بإدائها بتدبر وحضور قلب وخشوع، وهذه هي الصلاة التي قال الله عنها (وأقم الصلاة إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) فإن الله في هذه الآية علق حكم نهي الصلاة عن الفحشاء والمنكر بشرط إقامتها وليس فقط أداؤها (والحكم المعلق بوصف يزيد بزيادته وينقص بنقصه) فعلى قدر إقامة العبد لصلاته على قدر ما تؤثر فيه فتنهاه عن الفحشاء والمنكر، وبهذا يزول الإشكال الذي يورده البعض: وهو أن كثير من المصلين لا تنهاهم صلاتهم عن الفحشاء والمنكر.

- قوله تعالى (ويقيمون الصلاة) يشمل صلاة الفرض والنفل.

- قوله تعالى (ويقيمون الصلاة) فيه دليل على أهمية الصلاة وعظيم منزلتها وأنها من أعظم صفات المتقين، ومما يدل على عظيم منزلتها:

أنها فرضت في أعلى مكان (في السماء ليلة الإسراء والمعراج).

وفرضت خمس صلوات في اليوم والليلة، وأول ما فرضت خمسين ثم خففت إلى خمس في العدد، وهذا يدل على محبة الله لها، وعنايته بها سبحانه.

أن تاركها كافر يحشر مع فرعون وقارون وأبي بن خلف، وأعظم العبادات بعد الشهادتين، وهي عمود الدين.

قوله تعالى: {وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً} [إبراهيم: ٣١]، أي:"ويخرجوا بعض ما أعطيناهم من المال في وجوه الخير الواجبة والمستحبة مسرِّين ذلك ومعلنين".

قال الطبري:"ولينفقوا مما رزقناهم، فخوّلناهم من فضلنا سرّا وعلانية، فليؤدّوا ما أوجبت عليهم من الحقوق فيها سرّا وإعلانا".

قال ابن كثير: أي:"وأن ينفقوا مما رزقهم الله بأداء الزكوات، والنفقة على

=

=

القرابات والإحسان إلى الأجانب.. وأمر تعالى بالإنفاق مما رزق في السر، أي: في الخفية، والعلانية وهي: الجهر، وليبادروا إلى ذلك لخلاص أنفسهم".

قال الخازن: "(وينفقوا مما رزقناهم) قيل: أراد بهذا الإنفاق إخراج الزكاة الواجبة، وقيل: أراد به جميع الإنفاق في جميع وجوه الخير والبر وحمله على العموم أولى ليدخل فيه إخراج الزكاة، والإنفاق في جميع وجوه البر".

قال السعدي:"أي: من النعم التي أنعمنا بها عليهم قليلا أو كثيرا {سرا وعلانية} وهذا يشمل النفقة الواجبة كالزكاة ونفقة من تجب [عليه] نفقته، والمستحبة كالصدقات ونحوها".

قال ابن عطية:"«السر»: صدقة التنفل، و «العلانية» المفروضة- وهذا هو مقتضى الأحاديث- وفسر ابن عباس هذه الآية بزكاة الأموال مجملا، وكذلك فسر الصلاة بأنها الخمس- وهذا منه- عندي- تقريب للمخاطب".

عن ابن عباس:"{وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً}، يقول: زكاة أموالهم".

- قال السعدي: وأتى بـ[من] الدالة على التبعيض، لينبههم أنه لم يرد منهم إلا جزءا يسيرا من أموالهم، غير ضار لهم ولا مثقل، بل ينتفعون هم بإنفاقه، وينتفع به إخوانهم.

(سرا وعلانية) مسرين ومعلنين، أي: خفية وجهرة.

قال القرطبي: قال الجمهور: السر ما خفي والعلانية ما ظهر.

كما قال تعالى (الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون).

قدم سبحانه إنفاق السر على العلانية للتنبيه على أنه أولى الأمرين في معظم الأحوال لبعده عن الرياء ولأنه أستر للمتصدق عليه -قال ابن عاشور: وتقديم السر على العلانية تنبيه على أنه أولى الحالين لبعده عن خواطر الرياء، ولأن فيه

=

=

استبقاء لبعض حياء المتصدق عليه.

قال تعالى (إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير).

والصدقة سرا: أخلص - ابعد عن الرياء - استر للمتصدق - دفع الذل عن الآخذ - احسان للفقير - ستره حتى لا يرى الناس انه يده اليد السفلى

- قال ابن الجوزي: وإنما فضلت صدقة السر لمعنيين:

أحدهما: يرجع إلى المعطي وهو بعده عن الرياء، وقربه من الإخلاص، والإعراض عما تؤثر النفس من العلانية.

والثاني: يرجع إلى المعطى، وهو دفع الذل عنه بإخفاء الحال، لأن في العلانية ينكر.

ثم قال: واتفق العلماء على إخفاء الصدقة النافلة أفضل من إظهارها.

-وقال السعدي:... وإن أخفاها وسلمها للفقير كان أفضل، لأن الإخفاء على الفقير إحسان آخر، وأيضا فإنه يدل على قوة الإخلاص، وأحد السبعة الذين يظلهم الله في ظله (من تصدق بصدقة فأخفاها، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه).

- قال ابن كثير: فيه دلالة على إن إسرار الصدقة أفضل من إظهارها، لأنه أبعد عن الرياء، إلا أن يترتب على الإظهار مصلحة راجحة، من اقتداء الناس به، فيكون أفضل من هذه الحيثية.

قوله تعالى: {مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ} [إبراهيم: ٣١]، أي:"من قبل أن يأتي يوم القيامة الذي لا ينفع فيه فداء ولا صداقة".

قال الطبري:"يقول: لا يقبل فيه فدية وعوض من نفس وجب عليها عقاب الله بما كان منها من معصية ربها في الدنيا، فيقبل منها الفدية، وتترك فلا تعاقب. فسمى الله جل ثناؤه الفدية عوضا، إذ كان أخذ عوض من معتاض منه. وقوله {وَلا خِلالٌ}

=

=

يقول: وليس، هناك مخالة خليل، فيصفح عمن استوجب العقوبة عن العقاب لمخالته، بل هنالك العدل والقسط، فالخلال مصدر من قول القائل: خاللت فلانا فأنا أخاله مخالة وخلالا ومنه قول امرئ القيس:

صرفْتُ الهَوَى عَنْهُنَّ مِنْ خَشْيَةِ الرَّدَى وَلَسْتُ بِمَقْلِيَ الخِلالِ ولا قالي".

قال ابن كثير:"وهو يوم القيامة، وهو يوم {لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خِلالٌ} أي: لا يقبل من أحد فدية بأن تباع نفسه، كما قال تعالى: {فَالْيَوْمَ لا يُؤْخَذُ مِنْكُمْ فِدْيَةٌ وَلا مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [الحديد: ١٥].. المراد من هذا أنه يخبر تعالى أنه لا ينفع أحدا بيع ولا فدية، ولو افتدى بملء الأرض ذهبا لو وجده، ولا ينفعه صداقة أحد ولا شفاعة أحد إذا لقي الله كافرا، قال الله تعالى: {وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ} [البقرة: ١٢٣]، وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ} [البقرة: ٢٥٤]".

قال السعدي:"أي: لا ينفع فيه شيء ولا سبيل إلى استدراك ما فات لا بمعاوضة بيع وشراء ولا بهبة خليل وصديق، فكل امرئ له شأن يغنيه، فليقدم العبد لنفسه، ولينظر ما قدمه لغد، وليتفقد أعماله، ويحاسب نفسه، قبل الحساب الأكبر".

قال قتادة:"إن الله تعالى قد علم إن في الدنيا بيوعا وخلالا يتخالون بها في الدنيا، فلينظر رجل من يخالل، وعلام يصاحب، فإن كان لله فليداوم، وإن كان لغير الله فليعلم إن كل خلة ستصير على أهلها عداوة يوم القيامة، إلا خلة المتقين".

جاء في التفسير الوسيط: قل لهم- أيها الرسول الكريم- بأن من الواجب عليهم أن يكثروا ويداوموا على إقامة الصلاة وعلى الإنفاق مما رزقهم- سبحانه-، من قبل أن يفاجئهم يوم القيامة، ذلك اليوم الذي لا تقبل فيه المعاوضات، ولا تنفع فيه شفاعة الصديق لصديقه، وإنما الذي يقبل وينفع في هذا اليوم هو العمل الصالح

=

=

الذي قدمه المسلم في دنياه.

فالجملة الكريمة تفيد حضا آخر على إقام الصلاة وعلى الإنفاق عن طريق التذكير للناس بهذا اليوم الذي تنتهي فيه الأعمال، ولا يمكن فيه استدراك ما فاتهم، ولا تعويض ما فقدوه من طاعات.

كما تفيد أن المواظبة على أداء هاتين الشعيرتين، من أعظم القربات التي يتقرب بها المسلم إلى خالقه- سبحانه- والتي تكون سببا في رفع الدرجات يوم القيامة.

-قال الرازي: المقصود من الآية أن الإنسان يجيء وحده، ولا يكون معه شيء مما حصله في الدنيا، قال تعالى (ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم) وقال (ونرثه ما يقول ويأتينا فردا).

- وينبغي على الإنسان أن ينفق قبل هجوم الموت عليه، قال تعالى (وأنفقوا من ما رزقناكم من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين).

وقال تعالى (حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعون. لعلي أعمل صالحا فيما تركت كلا إنها كلمة هو قائلها ومن وراءهم برزخ إلى يوم يبعثون).

وقال تعالى (وهم يصطرخون فيها ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا فما للظالمين من نصير)".

- قال السعدي: وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله، من صدقة واجبة ومستحبة، ليكون لهم ذخرا وأجرا موفرا في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير، فلا بيع فيه ولو افتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهبا ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه، ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجاهة ولا بشفاعة، وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون ويحصل

=

=

الخزي على الظالمين.

قال الرازي في تفسيره: قالت المعتزلة: الآية تدل على أن الرزق لا يكون حراما، لأن الآية دلت على أن الإنفاق من الرزق ممدوح، ولا شيء من الإنفاق من الحرام بممدوح فينتج أن الرزق ليس بحرام. وقد مر تقرير هذا الكلام مرارا. ا.هـ

قلت قال الأشعري في مقالات الإسلاميين (٢٥٧): القول في الأرزاق: قالت المعتزلة أن الأجسام الله خالقها وكذلك الأرزاق وهي أرزاق الله سبحانه فمن غصب إنسانا مالا أو طعاما فأكله أكل ما رزق الله غيره ولم يرزقه إياه، وزعموا بأجمعهم أن الله سبحانه لا يرزق الحرام كما لا يملك الله الحرام وأن الله سبحانه إنما رزق الذي ملكه إياهم دون الذي غصبه، وقال أهل الإثبات: الأرزاق على ضربين: منها ما ملكه الله الإنسان ومنها ما جعله غذاء له وقواما لجسمه وإن كان حراما عليه فهو رزقه إذ جعله الله سبحانه غذاء له لأنه قوام لجسمه ا. هـ

وقال ابن المنير في الإنصاف: فهذه بدعة قدرية، فإنهم يرون أن الله تعالى لا يرزق إلا الحلال، وأما الحرام فالعبد يرزقه لنفسه حتى يقسمون الأرزاق قسمين: هذا لله بزعمهم، وهذا لشركائه. وإذا أثبتوا خالقا غير الله، فلا يأنفون عن إثبات رازق غيره. أما أهل السنة فلا خالق ولا رازق في عقدهم إلا الله سبحانه. تصديقا بقوله تعالى: (هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّماءِ وَالْأَرْضِ، لا إِلهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ) أيها القدرية. ا. هـ

وسئل شيخ الإسلام كما في مجموع الفتاوى (٨/ ٥٤٢): عن الرجل: إذا قطع الطريق وسرق أو أكل الحرام ونحو ذلك هل هو رزقه الذي ضمنه الله تعالى له أم لا؟ أفتونا مأجورين.

فأجاب: الحمد لله، ليس هذا هو الرزق الذي أباحه الله له ولا يحب ذلك ولا يرضاه. ولا أمره أن ينفق منه. كقوله تعالى: {ومما رزقناهم ينفقون} وكقوله

=

=

تعالى: {وأنفقوا من ما رزقناكم} ونحو ذلك لم يدخل فيه الحرام بل من أنفق من الحرام فإن الله تعالى يذمه ويستحق بذلك العقاب في الدنيا والآخرة بحسب دينه. وقد قال الله: {ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل} وهذا أكل المال بالباطل. ولكن هذا الرزق الذي سبق به علم الله وقدره كما في الحديث الصحيح عن ابن مسعود عن النبي ﷺ أنه قال: {يجمع خلق أحدكم في بطن أمه أربعين يوما نطفة، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه الملك فيؤمر بأربع كلمات فيكتب رزقه وعمله وأجله وشقي أو سعيد} فكما أن الله كتب ما يعمله من خير وشر وهو يثيبه على الخير ويعاقبه على الشر فكذلك كتب ما يرزقه من حلال وحرام مع أنه يعاقبه على الرزق الحرام. ولهذا كل ما في الوجود واقع بمشيئة الله وقدره كما تقع سائر الأعمال لكن لا عذر لأحد بالقدر بل القدر يؤمن به وليس لأحد أن يحتج على الله بالقدر بل لله الحجة البالغة ومن احتج بالقدر على ركوب المعاصي فحجته داحضة ومن اعتذر به فعذره غير مقبول كالذين قالوا: {لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا} والذين قالوا: {لو شاء الرحمن ما عبدناهم} كما قال تعالى: {أن تقول نفس يا حسرتا على ما فرطت في جنب الله وإن كنت لمن الساخرين} {أو تقول لو أن الله هداني لكنت من المتقين}.

وأما الرزق الذي ضمنه الله لعباده فهو قد ضمن لمن يتقيه أن يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب وأما من ليس من المتقين فضمن له ما يناسبه بأن يمنحه ما يعيش به في الدنيا ثم يعاقبه في الآخرة كما قال عن الخليل: {وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر} - قال الله -: {ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب النار وبئس المصير} والله إنما أباح الرزق لمن يستعين به على طاعته لم يبحه لمن يستعين به على معصيته؛ بل هؤلاء وإن أكلوا ما ضمنه لهم من الرزق فإنه يعاقبهم كما قال: {ومن كفر فأمتعه قليلا ثم أضطره إلى عذاب

=

اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢).

{الله الذي خلق السماوات وَالْأَرْض وَأَنْزَلَ مِنْ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ الثَّمَرَات رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْك} السُّفُن {لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْر} بِالرُّكُوبِ وَالْحَمْل {بِأَمْرِهِ} بإذنه {وسخر لكم الأنهار}.

وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣).

{وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْس وَالْقَمَر دَائِبَيْنِ} جَارِيَيْنِ فِي فَلَكهمَا لَا يَفْتُرَانِ {وَسَخَّرَ لَكُمُ الليل} لِتَسْكُنُوا فِيهِ {وَالنَّهَار} لِتَبْتَغُوا فِيهِ مِنْ فَضْله.

وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤).

=

النار وبئس المصير} وقال تعالى: {أحلت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم} فإنما أباح الأنعام لمن يحرم عليه الصيد في الإحرام. وقال تعالى: {ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين} فكما أن كل حيوان يأكل ما قدر له من الرزق فإنه يعاقب على أخذ ما لم يبح له سواء كان محرم الجنس أو كان مستعينا به على معصية الله ولهذا كانت أموال الكفار غير مغصوبة بل مباحة للمؤمنين وتسمى فيئا إذا عادت إلى المؤمنين؛ لأن الأموال إنما يستحقها من يطيع الله لا من يعصيه بها فالمؤمنون يأخذونها بحكم الاستحقاق والكفار يعتدون في إنفاقها كما أنهم يعتدون في أعمالهم فإذا عادت إلى المؤمنين فقد فاءت إليهم كما يفيء المال إلى مستحقه.

{وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} عَلَى حَسَب مَصَالِحكُمْ {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَة الله} بِمَعْنَى إنْعَامه {لَا تُحْصُوهَا} لَا تُطِيقُوا عَدَّهَا {إنَّ الْإِنْسَان} الْكَافِر {لَظَلُوم كَفَّار} كَثِير الظُّلْم لِنَفْسِهِ بِالْمَعْصِيَةِ وَالْكُفْر لِنِعْمَةِ رَبّه[1].

---

(١) قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [إبراهيم: ٣٢]، أي:"الله تعالى الذي خلق السموات والأرض وأوجدهما من العدم".

قال ابن عطية:"الآية، تذكير بآلاء الله، وتنبيه على قدرته التي فيها إحسان إلى البشر لتقوم الحجة من جهتين".

قال الشوكاني: "أي أبدعهما واخترعهما على غير مثال، وخلق ما فيهما من الأجرام العلوية والسفلية".

قوله تعالى: {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً} [إبراهيم: ٣٢].

أي: أنزل من السماء مطرا عذبا فراتا أنزله سبحانه بقدرته، فأخرج بذلك المطر أنواع الثمر والفواكه والخضار.

كما قال تعالى (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء) وقال تعالى (والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها). وقال تعالى (وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم).

- المراد بقوله (السماء) العلو، لأن المطر ينزل من السحاب.

-قال الخازن: وأنزل من السماء ماء يعني من السحاب سمي السحاب سماء لارتفاعه مشتق من السمو.

- وهذا أيضا من براهين البعث، فإحياء الأرض بعد موتها من أعظم الأدلة على البعث بعد الموت.

كما أشار له هنا بقوله (وأنزل من السمآء مآء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم).

قال تعالى (ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذآ أنزلنا عليها المآء اهتزت
=

=

وربت إن الذي أحياها لمحى الموتى إنه على كل شيء قدير).
قال ابن عطية:"والسماء في قوله، {وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ}: السحاب".
قوله تعالى: {فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ} [إبراهيم: ٣٢]، أي:"فأخرج بالمطر من أنواع الزروع والثمار رزقاً للعباد يأكلونه".
قال ابن عطية:"قوله: {مِنَ الثَّمَراتِ}، يجوز أن تكون {مِنَ} للتبعيض، فيكون المراد بعض جني الأشجار، ويسقط ما كان منها سما أو مجردا للمضرات، ويجوز أن تكون مِنَ لبيان الجنس، كأنه قال: فأخرج به رزقا لكم من الثمرات، وقال بعض الناس: {مِنَ} زائدة- وهذا لا يجوز عند سيبويه لكونها في الواجب ويجوز عند الأخفش".
قوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ} [إبراهيم: ٣٢].
أي: وسخر لكم - سبحانه- السفن الضخمة العظيمة، بأن ألهمكم صنعها، وأقدركم على استعمالها «لتجري في البحر» إلى حيث تريدون «بأمره» وإذنه ومشيئته، لا بإذنكم ومشيئتكم، إذ لو شاء- سبحانه- لقلبها بكم.
كما قال تعالى (ألم تر أن الفلك تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور).
وقال تعالى (ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام (٣٢) إن يشأ يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور).
[الجوار] جمع جارية وهي السفينة سميت جارية لأنها تجري في الماء
[كالأعلام] جمع علم وهو الجبل العظيم الشاهق، قالت الخنساء: وإن صخرا لتأتم الهداة به كأنه علم في رأسه نار.
قال السعدي:"أي: السفن والمراكب، {لتجري في البحر بأمره} فهو الذي يسر لكم صنعتها وأقدركم عليها، وحفظها على تيار الماء لتحملكم، وتحمل

=

=

تجاراتكم، وأمتعتكم إلى بلد تقصدونه".

قال ابن عطية:"وفي «تسخير الفلك» ينطوي تسخير البحر وتسخير الرياح".

قوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ} [إبراهيم: ٣٢]، أي:"وذلّل لكم الأنهار لسقياكم وسقيا دوابكم وزروعكم وسائر منافعكم، وتشقون منها جداول تسيرونها وفق إرادتكم".

قال السعدي:"لتسقي حروثكم وأشجاركم وتشربوا منها".

قال القاسمي:"أي: فتجري حيث تشاؤون من شرب وسقي وسواهما".

قال ابن عطية:"وأما «تسخير الأنهار» فتفجرها في كل بلد، وانقيادها للسقي وسائر المنافع".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: الذي يستحقّ عليكم العبادة وإخلاص الطاعة له، من هذه صفته، لا من لا يقدر على ضرّ ولا نفع لنفسه ولا لغيره من أوثانكم أيها المشركون وآلهتكم".

عن مجاهد:"{وسخر لكم الأنهار}، قال: بكل بلدة".

قوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ} [إبراهيم: ٣٣].

أي: أنه تعالى يذللهما ليلا ونهارا لا يفتران عن حركتهما وإصلاحهما لما ارتبط بهما صلاحه من الموجودات وفق تقدير الله، وهما لا يلتقيان إلى قيام الساعة (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر).

دائبين: أي مستمرين في الجريان والسير لا يفتران لا ليلا ولا نهارا.

والتسخير: التذليل. فقد سخر الشمس لمنافع هذا الخلق؛ ولأنها آية عظمى كما قال (وجعلنا سراجا وهاجا) يطلعها في كل يوم، ويسيرها بحساب معلوم طرقها وسيرها بتسخير رب العالمين دائبة. وكذلك سخر القمر على سيره المعتاد، وحسابه المعروف، نعرف بهما عدد السنين والشهور والحساب، وكذلك سخر

=

=

النجوم ليهتدي بها خلقه، وليزين بها السماء، ويطرد بها الشياطين. فهذه المخلوقات العظام العلوية سخرها خالق السماوات والأرض للاعتبار بها، ولمنافع خلقه منها.

قال ابن كثير:"أي: يسيران لا يقران ليلا ولا نهارا".

قال الطبري: أي:"يتعاقبان عليكم أيها الناس بالليل والنهار، لصلاح أنفسكم ومعاشكم (دَائِبَيْنِ) في اختلافهما عليكم".

قال القاسمي:"أي: يدأبان في سيرهما وإنارتهما ودرئهما الظلمات وإصلاحهما ما يصلحان من الأرض والأبدان والنبات".

وقال ابن عباس:"دءوبهما في طاعة الله".

قال ابن عباس:"الشمس بمنزلة الساقية، تجري بالنهار في السماء في فلكها، فإذا غربت جرت الليل في فلكها تحت الأرض حتي تطلع من مشرقها، وكذلك القمر".

قوله تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ} [إبراهيم: ٣٣]، أي:"وذلَّل لكم الليل؛ لتسكنوا فيه وتستريحوا، والنهار؛ لتبتغوا من فضله، وتدبِّروا معايشكم".

فجعلهما متعاقبين، يأتي أحدهما في أعقاب الآخر، فتنتفعون بكل منهما بما يصلح أحوالكم.

فالليل تنتفعون به في راحتكم ومنامكم... والنهار تنتفعون به في معاشكم وطلب رزقكم قال- تعالى- وجعلنا الليل لباسا، وجعلنا النهار معاشا.

قال تعالى (بولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير).

وقال تعالى (يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وهو عليم بذات

=

=

الصدور).

قال الطبري: أي:"يختلفان عليكم باعتقاب، إذا ذهب هذا جاء هذا بمنافعكم وصلاح أسبابكم، فهذا لكم لتصرّفكم فيه لمعاشكم، وهذا لكم للسكن تسكنون فيه، ورحمة منه بكم".

قال القاسمي:"أي يتعاقبان خلفه، لمعاشكم وسباتكم".

قوله تعالى: {وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ} [إبراهيم: ٣٤].

أي تفضل عليكم فأعطاكم من كل مسئول سألتموه شيئا اقتضته مشيئته التابعة للحكمة والمصلحة، كما في قوله: "من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد".

قال- تعالى- ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض ولكن ينزل بقدر ما يشاء، إنه بعباده خبير بصير.

أو أعطاكم من كل ما سألتموه وما لم تسألوه -فحذف الثاني لدلالة الأول عليه، ونظيره: "سرابيل تقيكم الحر" أي والبرد.

ويجوز أن يكون المعنى أنه تعالى أمدكم بما تحتاجون إليه في جميع شئونكم، من كل ما هو جدير بسؤالكم، سواء أسألتموه أم لم تسألوه.

وفي هذه الحياة أشياء كثيرة لازال يجهلها الإنسان وهي معدة له، ومتى حان وقت إبرازها كشف الله له عنها، بما أمده به من عمق في العلم وقوة في العقل وتوفر على البحث، أو عن طريق الصدفة، وقرئ بتنوين كل: والمعنى على هذه القراءة وأعطاكم من كل شيء: ما سألتموه -على أن (ما) نافيه- أي من كل شيء حال كونكم غير سائليه.

قال عكرمة:"من كل شيء رغبتم إليه فيه".

قال ابن كثير:"يقول: هيأ لكم كل ما تحتاجون إليه في جميع أحوالكم مما تسألونه

=

=

بحالكم وقالكم. وقال بعض السلف: من كل ما سألتموه وما لم تسألوه".

قال الزمخشري:"«من» للتبعيض، أي: آتاكم بعض جميع ما سألتموه، نظرا في مصالحكم، {وما سألتموه} نفى ومحله النصب على الحال، أى: آتاكم من جميع ذلك غير سائليه، ويجوز أن تكون {ما} موصولة، على: وآتاكم من كل ذلك ما احتجتم إليه ولم تصلح أحوالكم ومعايشكم إلا به، فكأنكم سألتموه أو طلبتموه بلسان الحال".

وقرئ: «من كل» بالتنوين.

قوله تعالى: {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا} [إبراهيم: ٣٤].

أي: وإن تحاولوا عد نعم الله عليكم، وتحاولوا تحديد هذا العدد، لن تستطيعوا ذلك لكثرة هذه النعم، وخفاء بعضه عليكم لكثرتها ولعمومها.

الإحصاء ضبط العدد، مأخوذ من الحصى لأنهم كانوا يعدون الأعداد الكثيرة بالحصى تجنبا للغلط.

قال الزمخشري: أي:"لا تحصروها ولا تطيقوا عدها وبلوغ آخرها، هذا إذا أرادوا أن يعدوها على الإجمال. وأما التفصيل فلا يقدر عليه ولا يعلمه إلا الله".

قال ابن كثير:"يخبر عن عجز العباد عن تعداد النعم فضلا عن القيام بشكرها، كما قال طلق بن حبيب، رحمه الله: إن حق الله أثقل من أن يقوم به العباد، وإن نعم الله أكثر من أن يحصيها العباد، ولكن أصبحوا توابين وامسُوا توابين".

قال ابن عباس في هذه الآية: "يريد أنّ نِعمي أكثر مما يُحصي أو يُعرف؛ منها ظاهر ومنها باطن".

قال سهل:"قوله تعالى: {وإن تعدوا نعمت الله لا تحصوها} بأن جعل السفير فيما بينكم وبينه الأعلى والواسطة الكبرى".

وفي صحيح البخاري: أن رسول الله ﷺ كان يقول: "اللهم، لك الحمد غير مَكْفِيّ

=

=

ولا مودَع، ولا مستغنى عنه ربَّنا".

روي في الأثر: "أن داود، عليه السلام، قال: يارب، كيف أشكرك وشكري لك نعمة منك علي؟ فقال الله تعالى: الآن شكرتني يا داود، أي: حين اعترفت بالتقصير عن أداء شكر النعم".

وقال الشافعي- رحمه الله-: "الحمد لله الذي لا يؤدى شكر نعمة من نعمه، إلا بنعمة تُوجِب على مُؤدى ماضي نعَمه بأدائها، نعمة حادثةَ توجب عليه شكره بها".

وقال القائل في ذلك:

لــو كــل جَارِحَــة منــي لهَــا لُغَــةٌ تُثْنـي عَلَيـكَ بمـا أوليـتَ مِـنْ حَـسنِ

لَكَـانَ مـا زَادَ شُـكري إذ شَـكَرت بـه إليــكَ أبلــغَ في الإحــسَان والمــننِ

قوله تعالى: {إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ} [إبراهيم: ٣٤]، أي:"إن الإنسان لَكثير الظلم لنفسه، كثير الجحود لنعم ربه".

والمعنى: أن الإنسان لا يقدر نعم الله عليه وهي لا تحصى، فتراه عظيم الظلم لنفسه، شديد الكفران لنعم ربه، فهو دائم الانتفاع بها، والتقصير في أداء شكرها، ووضعها في غير موضعها، ولو أنصف نفسه وعرف حق ربه لاستدام شكره، والوفاء بحقه جل وعلا.

قال الزمخشري:"{لَظَلُومٌ}: يظلم النعمة بإغفال شكرها، {كَفَّارٌ}: شديد الكفران لها. وقيل ظلوم في الشدة يشكو ويجزع، كفار في النعمة يجمع ويمنع. والإنسان للجنس، فيتناول الإخبار بالظلم والكفران من يوجدان منه".

(فائدة): في التعريف ببعض الأحكام الخاصة بالشمس والقمر.

أولا الشمس.

تعريف الشمس في اللغة: الشين والميم والسين أصل يدل على تلوُّن وقلة استقرار، والشمس معروفة، وسميت بذلك لأنها غير مستقرة، وهي أبداً متحركة.

=

=

وهي تجمع على شُمُوس، كأنهم جعلوا كل ناحية منها شَمْسًا، كما قالوا للَمفْرِق مَفارق، وتصغيرها شُمَيْسِة.

وقد ورد لفظ الشمس في القرآن في اثنين وثلاثين موضعًا.

الدلائل العقدية للآية الكونية - الشمس-:

الشمس آية كبرى ودلالة عظمى من آيات الله تعالى، وشروقها وغروبها بنظام لا تحيد عنه منذ خلقها الله -ﷻ- دليل على قدرة الله وعلمه وحكمته.

ولما ذكر ابن القيم -رحمه الله- فصولاً متعلقة بالكواكب والشمس وما فيها من الحكم والمنافع، وأن الله -ﷻ- " لم يقسم بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر".

قال: "وهل هذا إلا صنع من بهرت العقول حكمته، وشهدت مصنوعاته ومبتدعاته بأنه الخالق البارئ المصور الذي ليس كمثله شيء، أحسن كل شيء خلقه، وأتقن كل ما صنعه، وأنه العليم الحكيم، الذي خلق فسوى، وقدر فهدى، وأن هذه إحدى آياته الدالة عليه، وعجائب مصنوعاته الموصلة للأفكار إذا سافرت فيها إليه، وأنه خلق مسخر مربوب مدبر".

ثم قال: " فهذا الترتيب والنظام الذي هي عليه من أدل الدلائل على وجود الخالق وقدرته وإرادته وعلمه وحكمته ووحدانيته".

أولاً: وجود الله: أخبر الله -ﷻ- عن محاجة إبراهيم -عليه السلام- للنمرود في وجود الله، وكان النمرود ينكر وجود الله -ﷻ-، وأن يكون ثم إله غيره، وأنه يحي ويميت، فاستدل إبراهيم -عليه السلام- على وجود الله، وأنه المالك المتصرف المستحق للعبادة وحده - بعد الاستدلال بأن الله يحي ويميت- بقوله: {فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

=

=

فحدوث هذه الأشياء المشاهدة وإيجادها بعد العدم، وعدمها بعد الوجود دليل على وجود الله؛ لأنها لم تحدث بنفسها فلا بد لها من موجد أوجدها وهو الرب، فإذا" كنت كما تدعي من أنك أنت الذي تحيي وتميت فالذي يحيي ويميت هو الذي يتصرف في الوجود، في خلق ذواته، وتسخير كواكبه وحركاته، فهذه الشمس تبدو كل يوم من المشرق، فإن كنت إلهًا كما ادعيت تحيي وتميت فأت بها من المغرب.

فلما علم عجزه وانقطاعه، وأنه لا يقدر على المكابرة في هذا المقام بهت أي أخرس فلا يتكلم، وقامت عليه الحجة".

وفي" ضمن هذه المناظرة من حسن الاستدلال بأفعال الرب المشهودة المحسوسة التي تستلزم وجوده وكمال قدرته ومشيئته وعلمه ووحدانيته من الإحياء والإماتة المشهودين الذين لا يقدر عليهما إلا الله وحده، وإتيانه تعالى بالشمس من المشرق لا يقدر أحد سواه على ذلك".

وقد ذكر الله -ﷻ- من الأدلة على وجوده وقدرته التامة خلق الشمس وجريانها، فقال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

وفي قوله -ﷺ-: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله» ،" أي دليلان على وجود الحق سبحانه، وقهره، وكمال الإلهية".

ثانيًا: توحيد الربوبية: الرب هو الخالق المدبر المتصرف، والله -ﷻ- يخبر أنه رب السماوات والأرض وما بينهما، ومن ذلك الشمس، قال تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ}، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، وقال تعالى {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ

=

=

سِرَاجًا}.

وهي مدبرة مسخرة"لا تصرف لها في نفسها بوجه ما، بل ربها وخالقها سبحانه يأتي بها من مشرقها فتنقاد لأمره ومشيئته، فهي مربوبة مسخرة مدبرة لا إله يعبد من دون الله"، قال تعالى: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات:

١ - صفة العلم والقدرة:

أخبر الله -ﷻ- عما خلق من الآيات الدالة على كمال قدرته، وعظيم سلطانه، -ومنها الشمس- فقال تعالى: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ}.

وقال تعالى: {وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ}، وقال تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}.

ففي هذه الآيات"ينبه تعالى عباده على آياته العظام، ومننه الجسام، في تسخيره الليل والنهار يتعاقبان، والشمس والقمر يدوران، والنجوم الثوابت والسيارات، في أرجاء السماوات نورا وضياء"، وأن ذلك استقام للناس" بجعل الله حركات الشمس والقمر على نظام واحد لا يختلف، وذلك من أعظم دلائل علم الله وقدرته، وهذا بحسب ما يظهر للناس منه ولو اطلعوا على أسرار ذلك النظام البديع لكانت العبرة به أعظم".

=

=

وقوله -ﷺ- في الحديث عن الشمس والقمر أنهما: «آيتان من آيات الله»، أي علامتان دالتان على وحدانية الله وعظيم قدرته.

٢ - صفة الرؤية والعلو:

من عقيدة أهل السنة والجماعة أن المؤمنين يرون الله تبارك وتعالى بأبصارهم يوم القيامة، وأنهم يرونه -عز وجل- كما يرون الشمس والقمر صحواً ليس دونها سحاب، - من جهة العلو - فعن أبي هريرة -رضي الله عنه-: أن الناس قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال رسول الله -ﷺ-: «هل تضارون في القمر ليلة البدر؟. قالوا: لا يا رسول الله، قال: فهل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟. قالوا: لا يا رسول الله، قال: فإنكم ترونه كذلك».

وعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه-: «أن ناساً في زمن رسول الله -ﷺ- قالوا: يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ قال رسول الله -ﷺ-: نعم، قال: هل تضارون في رؤية الشمس بالظهيرة صحوا ليس معها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر صحوا ليس فيها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: ما تضارون في رؤية الله تبارك وتعالى يوم القيامة إلا كما تضارون في رؤية أحدهما».

وليس المراد من الأحاديث تشبيه الله بالقمر والشمس - تعالى الله- بل المراد تشبيه الرؤية بالرؤية، وليس تشبيهًا للمرئي بالمرئي، فالله ليس له مثيل: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، سبحانه وتعالى: {هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا}، ومع إخباره -ﷺ- أنهم يرونه، فيه إخبارهم أنهم يرونه في جهة منهم - وهي العلو - وذلك من وجوه:

"أحدها: أن الرؤية في لغتهم لا تعرف إلا لرؤية ما يكون في جهة منهم، فأما رؤية ما ليس في جهة فلم يكونوا يتصورونه، فضلا عن أن يكون اللفظ دالاً عليه، بل لا يتصور أحد من الناس وجود موجود في غير جهة.

الثاني: أنه قال: «فإنكم ترون ربكم كما ترون الشمس صحواً، وكما ترون القمر

=

=

صحواً»، فشبه لهم رؤيته برؤية الشمس والقمر، وهما يريان من جهة العلو.

الثالث: أنه قال: «هل تضارون في رؤية الشمس ليس دونها سحاب؟ وهل تضارون في رؤية القمر ليس دونه سحاب؟».

فشبه رؤيته برؤية أظهر المرئيات، إذا لم يكن ثم حجاب منفصل عن الرائي يحول بينه وبين المرئي".

رابعـًا: توحيد الألوهية: الله -عز وجل- يستدل على المشركين بإقرارهم بتوحيد الربوبية، وأنه المستقل بخلق السماوات والأرض، وتسخير الشمس والقمر على وجوب إفراده بالعبادة، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}، فالمشركون - الذين يعبدون مع الله غيره - معترفون أنه المستقل بخلق السماوات والأرض والشمس والقمر"فإذا كان الأمر كذلك فلم يُعبد غيره؟ ولم يتوكل على غيره؟ فكما أنه الواحد في ملكه فليكن الواحد في عبادته، وكثيرًا ما يقرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية".

والإيمان بأن الله هو الخالق المالك المتصرف، والتفكر في ملكوته - ومنه الشمس- يستلزم وجوب إفراد الله بالعبادة، كما أخبر الله -عز وجل- عن إبراهيم - عليه السلام- في مناظرته لقومه: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}، لأن التأمل والتفكر في ملكوت السماوات والأرض وتصريفهما وغير ذلك مما أخبر الله عنه"يدل على وحدانية الله في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه".

وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}، فالله -

=

=

ﷻ- يظهر هذه

الآيات ليستدل بها على أنه الحق، وأن كل ما سواه باطل، وأنه القادر على هذه الأشياء وحده، فكل ما في السماوات والأرض خلقه وعبيده، فوجب أن تكون العبادة له وحده لا إله إلا هو.

وفي آية أخرى قال تعالى: {يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ (١٣) إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ}.

فلما ذكر الله -ﷻ- الليل والنهار، وتسخير الشمس والقمر، والتي تقطع الفلك وتسير إلى غاية لا يعلم قدرها إلا الذي قدرها وسخرها وسيرها، قال بعد ذلك: (ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ) فالذي يفعل هذه الأفعال معبودكم أيها الناس، الذي لا تصلح العبادة إلا له، وهو الله ربكم".

وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ (٩٥) فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

فهذا استدلال واعتبار" بخلق الله تعالى وعجائب مصنوعاته المشاهدة، على انفراده تعالى بالإلهية المستلزم لانتفاء الإلهية عما لا تقدر على مثل هذا الصنع العجيب، فلا يحق لها أن تعبد ولا أن تشرك مع الله تعالى في العبادة إذ لا حق لها في الإلهية".

كما أخبر تعالى" أنه المستحق للعبادة وحده لا شريك له، فإنه يسجد لعظمته كل شيء طوعا وكرها" - ومن ذلك الشمس-، فقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ الآية}.

=

=

وعن أبي ذر، -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت».

١ - بعض أنواع العبادة القلبية، ومنها:

أ- اليقين والإخلاص:

إن رؤية الآيات - ومنها الشمس- والتفكر فيها يزيد القلب يقيناً وإيماناً، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} أي"نريه ملكوت السماوات والأرض، ليستدل به وليكون من الموقنين".

ثم ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- قول إبراهيم -عليه السلام- بعد غياب الشمس، وأنه تبرأ من الشرك، وأنه وجه وجهه لله -عَزَّ وَجَلَّ-، مخلصاً له، فقال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}.

وفي حديث الكسوف حث النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عند رؤية هذه الآية إلى الإخلاص لله تعالى، حيث أمر بالمبادرة بالعبادة لله تعالى.

ب- التوكل:

لما ذكر الله -عَزَّ وَجَلَّ- أنه رب المشرق والمغرب بين سبحانه أنه الإله الحق، وأنه هو الذي يجب أن يتخذ وكيلا، قال تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا}، فهو"المالك المتصرف في المشارق والمغارب الذي لا إله إلا هو، وكما أفردته بالعبادة فأفرده بالتوكل".

٢ - القسم:

أقسم الله -عَزَّ وَجَلَّ- بالشمس ومشرقها في مواضع من كتابه على أنه تعالى لا إله إلا هو، وعلى كمال قدرته، فقال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا

=

=

لَقَادِرُونَ} .

وقال تعالى: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} الآيات، فأقسم تعالى بهذه الآيات العظيمة، على النفس المفلحة، وغيرها من النفوس الفاجرة، وعلى سبق القدر، وكتابة الأعمال، وأن الله -ﷻ- أرشد النفس إلى فجورها وتقواها، وبين لها ذلك، وهداها إلى ما قدر لها.

وهذا القسم "فيه التنبيه على كمال ربوبيته وعزته، وحكمته وقدرته، وتدبيره وتنوع مخلوقاته الدالة عليه، المرشدة إليه، بما تضمنته من عجائب الصنعة، وبديع الخلقة، وتشهد لفاطرها

وبارئها بأنه الواحد الأحد الذي لا شريك له، وأنه الكامل في علمه وقدرته ومشيئته وحكمته وربوبيته وملكه، وأنها مسخرة مذللة، منقادة لأمره، مطيعة لمراده منها، ففي الأقسام بها تعظيم لخالقها تبارك وتعالى، وتنزيه له عما نسبه إليه أعداؤه الجاحدون المعطلون لربوبيته وقدرته ومشيئته ووحدانيته.

وأنها أدلة على بارئها وفاطرها، وعلى وحدانيته، وأنه لا تنبغي الربوبية والإلهية لها بوجه ما، بل لا تنبغي إلا لمن فطرها وبرأها".

٣ - التوسل:

قد كان من دعاء النبي -ﷺ-: «اللهم فالق الإصباح، وجاعل الليل سكنا، والشمس والقمر حسبانا، اقض عني الدين، وأغنني من الفقر، وأمتعني بسمعي وبصري وقوتي في سبيلك».

"فهذا دعا لله تعالى وتوسل إليه بما وصف به نفسه في قوله -ﷻ- ": {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} .

خامساً: الإيمان بالرسل:

أخبر النبي -ﷺ- أن الفتنة من حيث يطلع قرن الشيطان أو قرن الشمس، فعن عبد

=

الله ابن عمر -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا- عن النبي -ﷺ- أنه قام إلى جنب المنبر فقال: «الفتنة ها هنا، الفتنة ها هنا، من حيث يطلع قرن الشيطان أو قال قرن الشمس».

"وكان -ﷺ- يحذر من ذلك، ويعلم به قبل وقوعه، وذلك من دلالات نبوته -ﷺ-".

وقد حبست الشمس لنبي من الأنبياء، وهو يوشع بن نون عليه السلام فعن أبي هريرة -رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها، ولا أحد بنى بيوتا ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنما أو خلِفات، وهو ينتظر ولادها، فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه» ،"وحبس الشمس على هذا النبي من أعظم معجزاته، وأخص كراماته".

سادسًا: الإيمان باليوم الآخر:

ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- في سورة الرعد تفصيل بعض آياته - ومنها الشمس احتجاجًا بها على المعاد ولقاء الله- فقال: {اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ
الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، ثم قال: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} أي" يفصل لكم ربُّكم آيات كتابه، فيبينها لكم احتجاجًا بها عليكم أيها الناس، لتوقنوا بلقاء الله والمعاد إليه، فتصدقوا بوعده ووعيده، وتنزجروا عن عبادة الآلهة والأوثان، وتخلصوا له العبادة إذا أيقنتم ذلك".

وقال الله تعالى مستدلاً على البعث - بعد أن ذكر جملة من الآيات والمخلوقات العظيمة، ومنها الشمس - {فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنْ خَلَقْنَا}، أي اطلب

=

منهم الفتوى، فيما تسألهم عنه أهم أشد خلقا؟ أم من خلقنا من المخلوقات التي هي أعظم وأكبر منهم؟.

"وجواب الاستفتاء المذكور الذي لا جواب له غيره، هو أن يقال: من خلقت يا ربنا من الملائكة، ومردة الجن، والسماوات والأرض، والمشارق، والمغارب، والكواكب، أشد خلقا منا ؛ لأنها مخلوقات عظام أكبر وأعظم منا، فيتضح بذلك البرهان القاطع على قدرته جل وعلا على البعث بعد الموت ؛ لأن من المعلوم بالضرورة أن من خلق الأعظم الأكبر كالسماوات والأرض، وما ذكر معهما - ومن ذلك الشمس- قادر على أن يخلق الأصغر الأقل".

وقد قرر الله تعالى وقوع المعاد مستدلا بخلقه السماوات والأرض وجعله المشارق والمغارب للشمس والكواكب، فقال تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ (٤٠) عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ خَيْرًا مِنْهُمْ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ}، فالذي خلق السماوات والأرض، وجعل مشرقًا ومغربًا، وسخر الكواكب تبدو من مشارقها وتغيب في مغاربها، قادر على أن يعيدهم يوم القيامة.

وأخبر النبي -ﷺ- أن جهنم تسجر إذا قامت الشمس حتى تزول، ففي حديث إسلام عمرو بن عبسة -رضي الله عنه- أنه قال: «يا نبي الله أخبرني عما علمك الله وأجهله، أخبرني عن الصلاة؟ قال: صل صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع؛ فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة فإنه حينئذ تسجر جهنم، فإذا أقبل الفيء فصل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلي العصر، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس؛ فإنها تغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار».

وهذا دليل على أن النار مخلوقة وموجودة الآن.

=

=

كما أخبر -ﷺ- عن الجنة والنار عندما كسفت الشمس، فدل هذا الحديث أيضاً على وجود الجنة والنار وأنهما مخلوقتان الآن.

كما أن النبي -ﷺ- خرج فزعاً لما كسفت الشمس يخشى أن تكون الساعة،"لما جاء أن القيامة تكون وهما مكسوفان".

سابعاً: الإيمان بالقدر:

بين تعالى قدرته على خلق الأشياء وتسخيره إياها على مقتضى حكمته، فذكر أنه خلق الشمس، وأنها تحت قهره وتسخيره ومشيئته، وأنها تجري لأجل مسمى، وأن جريانها مع القمر بحساب مقدر، لا يتغير ولا يضطرب، بل كل منهما له منازل يسلكها في الصيف والشتاء، قال تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ، وقال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ} ،"فدلهم الله -ﷻ- بذلك على قدرته ووحدانيته".

ولما كان هذا الأمر يدل على قدرة الله تعالى وتقديره وعلمه وعزته ختمت كثير من هذه الآيات بالعزة والعلم - والعلم من مراتب الإيمان بالقدر-، كما في قوله تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

ثامناً: النهي عن مشابهة المشركين والمنافقين في عبادتهم:

ورد النهي عن الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها، لما في ذلك من مشابهة المشركين والمنافقين في عبادتهم؛ فإن الشمس تطلع وتغرب بين قرني شيطان وعندئذ يسجد لها الكفار،"وقد نهينا عن التشبه بهم، بل وعما يؤدي إليه أو يوهمه".

=

=

وفي حديث إسلام عمرو بن عبسة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: «يا نبي الله أخبرني عما علمك الله وأجهله، أخبرني عن الصلاة؟ قال: صل صلاة الصبح، ثم أقصر عن الصلاة حتى تطلع الشمس حتى ترتفع؛ فإنها تطلع حين تطلع بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار، ثم صل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى يستقل الظل بالرمح، ثم أقصر عن الصلاة فإنه حينئذ تسجر
جهنم، فإذا أقبل الفيء فصل فإن الصلاة مشهودة محضورة حتى تصلي العصر، ثم أقصر عن الصلاة حتى تغرب الشمس؛ فإنها تغرب بين قرني شيطان وحينئذ يسجد لها الكفار».

"وكان -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يكره التشبه بالكفار ويحب مخالفتهم وبذلك وردت سنته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-، وكأنه أراد – والله أعلم – أن يفصل دينه من دينهم، إذ هم أولياء الشيطان وحزبه فنهى عن الصلاة في تلك الأوقات".

وعن أنس بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: سمعت رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «تلك صلاة المنافق، يجلس يرقب الشمس، حتى إذا كانت بين قرني الشيطان قام فنقرها أربعا لا يذكر الله فيها إلا قليلا»، وفي هذا الحديث التحذير من"التشبه بأفعال المنافقين الذين كانوا لا يأتون الصلاة إلا كسالى".

وكان أهل الجاهلية يقفون بالمزدلفة، ولا يفيضون حتى تطلع الشمس، فخالفهم رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فأفاض قبل أن تطلع الشمس.

تاسعـًا: النهي عن التشبه بالشيطان: قد نهى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن يقعد الرجل بين الظل والشمس، وقد جاء أن الجلوس بين الشمس والظل هي جلسة الشيطان، فعن رجل من أصحاب النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «نهى أن يجلس بين الضِحِ والظِلِ، وقال: مجلس الشيطان».

عاشراً: الإيمان بالجن: بين النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- أن الشياطين تنتشر وتنبعث إذا غابت

=

=

الشمس، فعن جابر -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لا ترسلوا فواشيكم وصبيانكم إذا غابت الشمس حتى تذهب فحمة العشاء، فإن الشياطين تنبعث إذا غابت الشمس حتى تذهب فحمة العشاء».

الحادي عشر: أصول المناظرة: من أصول المناظرة عند أهل السنة المخاطبة بالدليل والمقدمات التي لا يمكن أن يجحدها الخصم، وإلزام المدعي بطرد حجته إن كانت صحيحة، فإبراهيم -عليه السلام- لما ذكر الدليل الأول على وجود الله وإلهيته، وأن الله هو الذي يحي ويميت، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ}، وهذا الدليل" الذي استدل به إبراهيم قد تمَّ وثبت موجبه، فلما ادعى الكافر أنه يفعل كما يفعل الله فيكون إلها مع الله، طالبه إبراهيم بموجب دعواه مطالبة تتضمن بطلانها": {قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

"فقال: إن كنت أنت ربا كما تزعم، فتحيي وتميت كما يحيي ربي ويميت، فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فتنصاع لقدرته وتسخيره ومشيئته، فإن كنت أنت ربا فات بها من المغرب"، فعند ذلك بهت الذي كفر، والله لا يهدي القوم الظالمين.

القوادح العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية -الشمس-:

أولاً: عبادة الشمس: من القوادح العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية أنها عبدت من دون الله -عَزَّ وَجَلَّ-، فجعلوا من الشمس إله الآلهة ورب الأرباب، وجعلوا لها مصحفاً، ويسبحون لها ويدعونها، قال تعالى مخبرا عن الهدد أنه قال عن قوم سبأ: {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ}.

وقد جاء في الحديث أن النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من

=

=

كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس».

قال ابن القيم -رحمه الله-: " وهؤلاء المشركون يعظمون الشمس والقمر والكواكب تعظيما يسجدون لها، ويتذللون لها، ويسبحونها تسابيح لها معروفة في كتبهم، ودعوات لا ينبغي أن يدعى بها إلا خالقها وفاطرها وحده.

ويقول بعضهم: في كتاب مصحف الشمس، مصحف القمر، مصحف زحل، مصحف عطارد، وبعضهم يقول: تسبيحة الشمس، تسبيحة القمر، تسبيحة عطارد، تسبيحة زحل، ولا يتحاشى من ذلك، وبعضهم يقول: دعوة الشمس، دعوة القمر، دعوة عطارد، دعوة زحل، وبعضهم يقول: هيكل الشمس والقمر وعطار.

وفي هذا الكتاب من مخاطبة الشمس بالخطاب الذي لا يليق إلا بالله ﷻ ولا ينبغي لأحد سواه ومن الخضوع والذل والعبادة".

فبين الله تعالى أن الشمس والقمر "عبدان من عبيده، تحت قهره وتسخيره، لا تشركوا به فما تنفعكم عبادتكم له مع عبادتكم لغيره، فإنه لا يغفر أن يشرك به"، وبين أنها تسجد لخالقها، وأنها مربوبة مسخرة، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ}.

ثانيـًا: نسبة الحوادث إلى حركة الشمس: من القوادح العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية نسبة الحوادث إلى حركة الشمس، وما تقتضيه هذه الحركة "من السعد والنحس، وتعطيه من السعادة والشقاوة، وتهبه من الأعمار والأرزاق والآجال، والصنائع والعلوم والمعارف، والصور الحيوانية والنباتية والمعدنية، وسائر ما في

=

=

هذا العالم من الخير والشر".

وليس في القرآن ولا السنة ما يدل على ذلك، بل فيهما ما يبطله ويرده، وقد بين النبي -ﷺ- في حديث الكسوف بطلان ما يعتقده أهل الجاهلية أن كسوف الشمس أو القمر لموت أحد أو حياته، فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته».

ثالثًا: تحريف معنى سجود الشمس:

من المخالفات المتعلقة بهذه الآية الكونية تحريف معنى سجود الشمس الوارد في الكتاب والسنة، قال الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}.

وعن أبي ذر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-، قال: قال رسول الله -ﷺ-: «أتدري أين تذهب هذه الشمس؟». قلت: الله ورسوله أعلم. قال: «فإنها تذهب فتسجد تحت العرش، ثم تستأمر فيوشك أن يقال لها: ارجعي من حيث جئت».

فقال بعضهم أن المراد بهذا السجود الخشوع والانقياد. وقيل المراد بالسجود الدلالة على الله، يعني أن هذه المخلوقات تدل على الله، وعلى أنه يستحق أن يسجد له كل شيء، وأن يعبده كل شيء.

وقيل المراد بسجود الشمس هو سجود الملَك الموكل بها.

وأما سجودها تحت العرش، فإن العرش لعظم ذاته كالرحى فأينما سجدت الشمس سجدت تحت العرش وذلك مستقرها.

وقيل المراد بالسجود تحت العرش هو وقوعها تحته حقيقة في آخر الدنيا عند انقضاء مهمتها، وسكون حركتها. والمعنى أن الشمس تبقى في شأنها إلى أن يأذن الله بفساد العالم، فتقع تحت العرش ساجدة.

=

=

وقيل أن تقييد السجود بتحت العرش كناية عن رجوعها إلى الله، ومبالغة في الانقياد وعبارة عن تمام ذلك. والمعنى في ذلك المبالغة، ولا تراد الحقيقة. فقوله إنها تسجد تحت العرش يعنى أنها خاضعة له أكمل الخضوع وأتمه.

فالحديث عبارة عن أن الشمس مسخرة لله، خاضعة لأمره الكوني، سائرة على حسب ما أراد وقدر، حتى كأنها عاقلة، تسمع خطابه.

والجواب أنه قد سبق في مبحث عبودية الكائنات أن هذه الآيات الكونية تسجد لله سجوداً حقيقيـاً الله أعلم بكيفيته، وأن كل شيء يسجد لله طوعا وكرها، وأن سجود كل شيء مما يختص به، كما قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}.

وهذه الأقوال التي ذكرت ليس عليها دليل ومخالفة" لظاهر الحديث، وعدول عن حقيقته، وإنما أخبر عن غيب فلا نكذبه ولا نكيفه، إن علمنا لا يحيط به".

رابعـاً: إنكار استئذان الشمس لطلوعها: من المخالفات المتعلقة بهذه الآية الكونية تحريف معنى استئذان الشمس الوارد في السنة من حديث أبي ذر -رضي الله عنه- قال: «دخلت المسجد ورسول الله -صلى الله عليه وسلم- جالس، فلما غابت الشمس، قال يا أبا ذر: هل تدري أين تذهب هذه؟ قال: قلت الله ورسوله أعلم، قال: فإنها تذهب فتستأذن في السجود، فيؤذن لها، وكأنها قد قيل لها: ارجعي من حيث جئت فتطلع من مغربها».

فقيل بأن استئذان الشمس مجاز يراد به طاعتها لخالقها، وطلوعها وغروبها بمشيئته وإرادته، حتى كأنه يأمرها وينهاها فتعقل عنه، وحتى كأنها تستأذنه في رواحها وغدوها، وهذا كله يعبر عن الخضوع.

ونقول في ذلك مثل ما سبق في السجود، وأنها تستأذن حقيقة، والله أعلم بكيفية

=

=

ذلك، فقد أخبرنا أنها تستأذن، ولم يخبرنا كيف تستأذن.

خامسًا: إنكار حبس الشمس: من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية إنكار حبسها لنبي من الأنبياء، وأن هذا يتعارض مع نواميس الكون، ويحدث له اضطربًا.

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: «غزا نبي من الأنبياء، فقال لقومه: لا يتبعني رجل ملك بضع امرأة، وهو يريد أن يبني بها، ولا أحد بنى بيوتا ولم يرفع سقوفها، ولا أحد اشترى غنمًا أو خلْفات، وهو ينتظر ولادها، فغزا، فدنا من القرية صلاة العصر أو قريبا من ذلك، فقال للشمس: إنك مأمورة وأنا مأمور، اللهم احبسها علينا، فحبست حتى فتح الله عليه».

والجواب عن أن الأمر متعلق بآية وكرامة لنبي من أنبيائه،"وحبس الشمس على هذا النبي من أعظم معجزاته، وأخص كراماته"، وما نواميس الكون ومسير الشمس والقمر إلا أمر من المعتاد على الناس، فإذا أمرهما خالقهما بالتخلف، أو التأخر، أو حتى تغيير الوجهة تماما، فلا يسعهما إلا الامتثال لأوامر الله سبحانه وتعالى والله على كل شيء قدير.

سادسًا: إنكار جريان الشمس: من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية إنكار جريانها، وأنها ثابتة، وأن الذي يسير هو الفلك.

وقد أخبر الله -عز وجل- في آيات كثير أن الشمس تجري، فقال تعالى: {وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى}، وقال تعالى: {وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، إلى غير ذلك من الآيات، فيجب علينا" أن نأخذ في هذا الأمر بظاهر القرآن، وألا نلتفت لقول أحد مخالف لظاهر القرآن؛ لأننا متعبدون بما يدل عليه القرآن؛... ولأن الذي أنزل القرآن أعلم

=

=

بما خلق، قال الله تعالى: {أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} ،" ،"وهذه الآيات الكريمات دلائل قاطعة، وبراهين ساطعة على أن الشمس جارية لا ثابتة".

سابعـًا: اعتقاد أن نور الشمس من نور الكرسي: من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية اعتقاد أن نور الشمس جزء من نور الكرسي، والكرسي جزء من نور العرش، ونور العرش جزء من نور الستر، واستدلوا على ذلك بقول عكرمة - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أنه قال: «لو جعل الله نور جميع أبصار الإنس والجن والدواب والطير في عيني عبد، ثم كشف حجابـًا واحداً من سبعين حجابا دون الشمس، لما استطاع أن ينظر إليها، ونور الشمس جزء من سبعين جزءًا من نور الكرسي، ونور الكرسي جزء من سبعين جزءًا من نور العرش، ونور العرش جزء من سبعين جزءًا من نور الستر. فانظر ماذا أعطى الله عبده من النور في عينيه وقت النظر إلى وجه ربه الكريم عيانا».

وهذا الأثر ضعيف ولا يثبت.

ثامنـًا: اعتقاد أن اسم الله مكتوب على الشمس، أو أن نورها من نور الله: من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية اعتقاد أن اسم الله مكتوب على الشمس، أو نورها من نور الله، ولذلك نهى بعض الفقهاء عن استقبال الشمس وقال في علة ذلك: أن اسم الله مكتوب عليها، ومنهم من قال لأن نورها من نور الله.

وهذا لم يثبت به حديث عن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-.

تاسعـًا: إنكار كون كسوف الشمس آية من آيات الله يخوف بهما عبادة: من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية إنكار كون كسوف الشمس آية من آيات الله يخوف بها عباده، وأن هذا أمر طبيعي.

وقد سبق الكلام على منزلة الأسباب في الشريعة، وأن الناس في هذا المقام طرفان

=

=

ووسط:

الطرف الأول: غلا في إثبات الأسباب، وأن هذه أمور طبيعية.

والطرف الثاني: أنكر الأسباب، ورد جميع ما قاله أهل الهيئة من حق وباطل.

والوسط: أن كسوف الشمس له أسباب حسية يقدرها الله -عَجَّلَ-، وأنه آية يخوف الله بها عبادة.

فأسباب الكسوف وحسابه والنظر في ذلك ليس من علم الغيب، والأحاديث الواردة عن النبي -ﷺ- ليس فيها"إلا نفي تأثير الكسوف في الموت والحياة على أحد القولين، أو نفي تأثر النيرين بموت أحد أو حياته على القول الآخر، وليس فيه تعرض لإبطال حساب الكسوف، ولا الإخبار بأنه من الغيب الذي لا يعلمه إلا الله".

وفيها كذلك بيان أنها من آيات الله يخوف بها عباده، والأمر بالأسباب التي يدفع به موجب الكسوف من أمر النبي -ﷺ- بالعتاقة والصلاة والدعاء والصدقة.

"وكونه تخويفا لا ينافي ما قدره أهل الهيئة فيه؛ لأن لله أفعالا على حسب العادة، وأفعالا خارجة عنه، وقدرته حاكمة على كل سبب ومسبب بعضهما على بعض".

وليس"من شرط التخويف ألا يكون له سبب، فإن الله كون العالم على هذا الشكل الذي يوجد فيه كسوف، ولو شاء لكونه على خلاف ذلك".

والتخويف الذي يحصل لأهل الإيمان من هذه الآية" من وجوه متعددة، أوضحها: أن

ذلك مذكر بالكسوفات التي تكون بين يدي الساعة، ويمكن أن يكون ذلك الكسوف منها، ولذلك قام النبي -ﷺ- فزعًا يخشى أن تقوم الساعة؛ وكيف لا وقد قال الله -عَجَّلَ-: {فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} ؟.

وأيضًا فإن كل ما في هذا العالم علويّه وسفليّه دليل على نفوذ قدرة الله تعالى،

=

=

وتمام قهره، واستغنائه، وعدم مبالاته، وذلك كله يُوجب عند العلماء بالله خوفه وخشيته؛ كما قال تعالى: {إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ}، وخصّ هنا خسوفهما بالتخويف؛ لأنهما أمران علويان نادران طارئان عظيمان، والنادر العظيم مخوف موجع، بخلاف ما يكثر وقوعه، فإنه لا يحصل منه ذلك غالبًا.

وأيضًا فلما وقع فيهما من الغلط الكثير للأمم التي كانت تعبدهما، ولما وقع للجهّال من اعتقاد تأثيرهما".

العاشر: الجزم بوقوع الكسوف: من المخالفات المتعلقة بهذه الآية الكونية الجزم بوقوع الكسوف، ووقوع الكسوف يدرك بالحساب، وليس من علم الغيب والمستقبل، إلا أنه لا يجزم بوقوعه، ولا يصدق القائل به ولا يكذب، لأنه أمر حسابي قد يصيب وقد يخطئ، كأخبار بني إسرائيل ،"وفرق بين من يعلن ذلك ويجزم به، وبين من يخبر عن أهل الحساب أنهم يقولون ذلك".

وقد سئل شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله- عن تحديد أهل الحساب لوقت الكسوف: فبين أن حكم ذلك حكم أخبار بني إسرائيل التي قال فيها رسول الله -ﷺ-: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم»، والعلة في ذلك هو احتمال أَن يكون ما ذكروه حقًا فيكون من كذبهم مكذبًا بحق، أو احتمال أَن يكون ما اخبروا به كذبًا فيكون من صدقهم مصدقًا بالكذب.

ومثلهم المخبرين عن الكسوف والخسوف قد يكونون مصيبين في حسابهم فيكون مكذبهم مكذبًا بصدق، وقد يكونون مخطئين فيكون مصدقهم مصدقًا بالباطل والكذب.

الحادي عشر: تحديد عمر الشمس: من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية تحديد عمر الشمس في الماضي بـ ٤.٤٩ مليار سنة، وأنها تبقى قريبا من هذا الرقم، {قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

=

=

والله سبحانه وتعالى أخبر أن الساعة من علم الغيب الذي لا يعلمه إلا هو، قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْأَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}، والشمس إنما تجمع عند قيام الساعة، قال تعالى: {يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ}.

الثاني عشر: سب الشمس: من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية سب الشمس، وقد ورد النهي عن ذلك، فعن جابر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «لا تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذابا لقوم».

فهي من مخلوقات الله المسيرة بأمره، وسبها يعود على خالقها، وقد قال الله تعالى في الحديث القدسي: «يؤذني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر اقلب الليل والنهار».

الثالث عشر: مشابهة المشركين في السجود للشمس عند طلوعها أو غروبها: من المخالفات بهذه الآية الكونية مشابهة المشركين في الصلاة عند طلوع الشمس وعند غروبها؛ فإنه وقت مقارنة الشيطان للشمس وعند ذلك يسجد لها الكفار، وقد نهى النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن الصلاة في هذه الأوقات.

"فهذه الصلاة في وقت النهي فيها مصلحة تكثير العبادة، وتحصيل الأرباح، ومزيد الثواب، والتقرب إلى رب الأرباب، وفيها مفسدة المشابهة بالكفار في عبادة الشمس، وفي تركها مصلحة سد ذريعة الشرك، وفطم النفوس عن المشابهة للكفار حتى في وقت العبادة، وكانت هذه المفسدة أولى بالصلاة في أوقات النهي من مصلحتها، فلو شرعت لما فيها من المصلحة لفاتت مصلحة الترك وحصلت مفسدة المشابهة التي هي أقوى من مصلحة الصلاة حينئذ"

=

=

الرابع عشر: الطعن في القرآن وزعم تناقضه حيث ورد فيه لفظ "المشرق" بصيغة الإفراد، والتثنية، والجمع.

من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية زعمهم التناقض في القرآن، فقالوا: إنه ورد في القرآن آيات متناقضة، فورد لفظ المشرق مرة بصيغة الإفراد في قوله تعالى: {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}، ومرة بصيغة التثنية في قوله تعالى: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ}، ومرة بصيغة الجمع في قوله تعالى: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ}، وهذا تناقض.

وقد بين أهل العلم المراد بذلك، فقالوا: إن قوله: " {وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ}، المراد به جنس المشرق والمغرب، فهو صادق بكل مشرق من مشارق الشمس التي هي ثلاثمائة وستون، وكل مغرب من مغاربها التي هي كذلك، فلله المشرق الذي تشرق منه الشمس كل يوم والمغرب الذي تغرب فيه كل يوم.

وقوله: {رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ} يعني مشرق الشتاء، ومشرق الصيف ومغربهما. وقيل: مشرق الشمس والقمر ومغربهما.

وقوله: {فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ} أي: مشارق الشمس ومغاربها الثلاثمائة وستون. وقيل: مشارق الشمس والقمر والكواكب ومغاربها".

الخامس عشر: الأقوال والألفاظ المخالفة:

١ - تسمية بعض الزهور بـ"عباد الشمس":

وهذا أمر لا يجوز لأن الزهور لا تعبد الشمس وهو تعبيد لغير الله، وهي إنما تعبد الله -ﷻ- كما قال الله تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}.

"وإنما يقال عبارة أخرى ليس فيها ذكر العبودية كمراقبة الشمس، ونحو ذلك من العبارات".

=

=

٢ - التسمية بـ" عبد الشمس": وهذا تعبيد لغير الله، قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله-: " كان المشركون يعبدون أنفسهم وأولادهم لغير الله؛ فيسمون بعضهم عبد الكعبة، كما كان اسم عبد الرحمن بن عوف، وبعضهم عبد شمس، كما كان اسم أبى هريرة، واسم عبد شمس بن عبد مناف، وبعضهم عبد اللات، وبعضهم عبد العزى، وبعضهم عبد مناة وغير ذلك مما يضيفون فيه التعبيد إلى غير الله، من شمس أو وثن أو بشر أو غير ذلك مما قد يشرك بالله.

ونظير تسمية النصارى عبد المسيح. فغير النبى -ﷺ- ذلك وعبدهم لله وحده".

ثانيا القمر.

القمر في اللغة: القاف والميم والراء أصل صحيح يدلُ على بياضٍ في شيء، ثم يتفرّع منه. ومن ذلك القَمَر: قَمَر السَّماء، سمِّي قمراً لبياضه، وتصغير القمر: قُمير. وفي الصحاح: أن القمر بعد ثلاث إلى آخر الشهر سُمّي قَمَراً لبياضه... وليلة قَمْراءُ أي مُضِيئة، وأقمرت ليلتنا أي أضَاءتْ، وأَقْمَرْنَا أي طلع علينا القَمَرْ.

وقد ورد لفظ القمر في القرآن في ست وعشرين موضعـًا، معظمها جاءت مقترنة بلفظة الشمس في ثمانية عشر موضعـًا.

الدلائل العقدية للآية الكونية - القمر-:

القمر آية من آيات التي تدل على خالقها وعلى قدرته وعلمه وحكمته، فهو آية عظيمة على عظمة الرب وكبريائه، قال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}.

وقد سبق في المبحث السابق - عن الآية الكونية الشمس - كلام ابن القيم -رحمه الله- بأن الله -ﷻ- " لم يقسم بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم

=

=

والشمس والقمر".

وقال -رحمه الله- عن القمر: "وانظر إلى القمر وعجائب آياته، كيف يُبديه الله كالخيط الدَّقيق، ثم يتزايد نوره، ويتكامل شيئًا فشيئًا كلَّ ليلة حتى ينتهي إلى إبداره وكماله وتمامه، ثم يأخذ في النقصان حتى يعود على حالته الأولى؛ ليظهر من ذلك مواقيتُ العباد في معاشهم وعباداتهم ومناسكهم، فتميَّزت به الأشهر والسنون، وقام به حسابُ العالم مع ما في ذلك من الحكَم والآيات والعبر التي لا يُحصيها إلاَّ الله".

ولما كان القرآن كثيراً ما يقرن بين الشمس والقمر كان الاستدلال بالقمر على المسائل العقدية- في مواضع كثيرة - هو نفس الاستدلال بالشمس، وسأشير إلى ذلك - إن شاء الله تعالى-.

أولاً: وجود الله:

سبق في مبحث الآية الكونية الشمس الاستدلال بها في مناظرة إبراهيم -عليه السلام- لقومه على وجود الله، وأنه المستحق للعبادة، وكذلك استدل إبراهيم - عليه السلام- بالقمر من ضمن أدلته على وجود الله وأنه المستحق للعبادة، قال تعال: {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

كما ذكر في المبحث السابق -الشمس- أن الله -ﷻ- ذكر من الأدلة على وجوده وقدرته التامة العظيمة خلق الشمس، وكذلك في هذا الموضع فإن خلق القمر، وتقديره منازلَ، وجعله يسير سيرًا آخر، يستدل به على مضي الشهور ،"يطلع في أول ليلة من الشهر ضئيلا قليل النور، ثم يزداد نورًا في الليلة الثانية، ويرتفع منزلة،

=

=

ثم كلما ارتفع ازداد ضياء - وإن كان مقتبسًا من الشمس- حتى يتكامل نوره في الليلة الرابعة عشرة، ثم يشرع في النقص إلى آخر الشهر، حتى يصير كالعرجون القديم - وهو أصل العذق -"، دليل وأضح بيّن على وجود الله -ﷻ-، قال تعالى: {وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ (٣٧) وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ (٣٨) وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ
فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}.

وفي قوله -ﷺ-: «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله» ،" أي دليلان على وجود الحق سبحانه، وقهره، وكمال الإلهية".

ثانيًا: توحيد الربوبية: الرب هو الخالق المدبر المتصرف، والله -ﷻ- يخبر أنه رب السماوات والأرض وما بينهما، ومن ذلك القمر، قال تعالى: {رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ}، وقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا (١٥) وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا}.

فالقمر مخلوق مدبر مسخر، لا تصرف له في نفسه بوجه ما، بل ربه وخالقه سبحانه يتصرف به كيف شاء، قال تعالى: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

وعن طلحة بن عبيد الله -رضي الله عنه- أن النبي -ﷺ- كان إذا رأى الهلال، قال: «اللهم أهلله علينا باليمن والإيمان، والسلامة والإسلام، ربي وربك الله».

وفي قوله: «ربي وربك الله»، "تنزيه للخالق أن يشاركه في تدبير ما خلق شيء،...

=

=

وعلى أن التوجه فيه إلى الرب لا إلى المربوب، والالتفات في ذلك إلى صنع الصانع لا إلى المصنوع".

ولهذا كان النبي -ﷺ- إذا رأى الهلال كبر، فعن عبد الله ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: كان رسول الله -ﷺ- إذا رأى الهلال قال: «الله أكبر، اللهم أهله علينا بالأمن والإيمان، والسلامة والإسلام، والتوفيق لما تحب وترضى، ربي وربك الله».

"لأنه آية عظيمة على عظمة الرب وكبريائه، والتكبير تعظيم لله، واعتقاد أنه أكبر من كل شيء، وأنه لا شيء أكبر منه".

ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات:

١ - صفة العلم والقدرة:

قد سبق في مبحث الشمس بيان الاستدلال بخلقها على كمال قدرة الله وعلمه، وعظيم سلطانه، وأن في جعله الشمس ضياءً والقمر نوراً، وفي جريانهما على نظام واحد، دليل من أعظم الدلائل على علم الله وقدرته.

وفي قوله تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، دليل على قدرته وعلمه، حيث جعل "سلطان القمر بالليل، وقدره منازل، فأول ما يبدو صغيرًا، ثم يتزايد نُوره وجرمه، حتى يستوسق ويكمل إبداره، ثم يشرع في النقص حتى يرجع إلى حاله الأول في تمام شهر".

وفي آية أخرى بعد أن ذكر التقدير للشمس والقمر، بين أن هذا التقدير من عزيز عليم، قال تعالى: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

٢ - صفة الرؤية والعلو: سبق في مبحث الشمس بيان الاستدلال بها على صفة الرؤية والعلو، وحيث قرن القمر بالشمس في نفس الحديث؛ فإنه يستدل به نفس الاستدلال من إثبات رؤية الله تعالى وعلوه، وأن المؤمنين يرون ربهم كما يرون

=

=

الشمس والقمر صحواً ليس دونها سحاب، ومن جهة العلو.

رابعـًا: توحيد الأولوهية: سبق في مبحث الشمس الاستدلال بها على توحيد الألوهية، وحيث قرن القمر بالشمس في الآيات القرآنية كان وجه الدلالة منه على توحيد الألوهية هو نفس وجه دلالة الشمس على توحيد الألوهية، فإن الخالق لهذه الآية الكونية - القمر - المسخر له هو

المستحق للعبادة، والذي يجب أن يفرد بالعبادة كما أنه المتفرد بالخلق والتسخير.

قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ}، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى وَأَنَّ اللهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٢٩) ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ}.

١ - بعض أنواع العبادات القلبية:

أ- الاستعاذة بالله: قال تعالى: {قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ}، والغاسق: القمر، وإذا وقب: أي دخل في الخسوف، وأخذ الغيبوبة وأظلم، أو دخل في الظلمة.

وقد أمر النبي -ﷺ- بالاستعاذة من القمر إذا وقب، فعن عائشة -رضي الله عنها- أن النبي -ﷺ- نظر إلى القمر فقال: «يا عائشة، تعوذي بالله من شر هذا، فإن هذا هو الغاسق إذا وقب».

ب- اليقين والإخلاص: إن رؤية الآيات الكونية - ومنها القمر- والتفكر فيها يزيد القلب يقينـًا وإيمانـًا، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}،

=

=

"أي نريه ذلك ليكون عالماً وموقناً".

ثم ذكر الله -عَزَّوَجَلَّ- قول إبراهيم -عليه السلام- بعد غياب القمر، وأنه تبرأ من الشرك، ووجه وجهه لله -عَزَّوَجَلَّ-، مخلصاً له، فقال تعالى: {فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ}.

وفي حديث الكسوف حث النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عند رؤية هذه الآية إلى الإخلاص لله، حيث أمر بالمبادرة بالعبادة لله تعالى.

٢ - القسم: سبق في المبحث السابق الشمس إقسام الله بها، وحيث قرن القمر بالشمس، فإنه ذكر معها في الآيات المقسم بها، قال تعالى: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَاهَا}.

كما أقسم تعالى بالقمر، وبالليل وقت إدباره، والنهار وقت إسفاره، على أن سقر -جهنم- إحدى الأمور العظام، لاشتمال هذه المذكورات على آيات الله العظيمة، الدالة على كمال قدرة الله وحكمته، وسعة سلطانه، وعموم رحمته، وإحاطة علمه، فقال تعالى: {كَلَّا

وَالْقَمَرِ (٣٢) وَاللَّيْلِ إِذْ أَدْبَرَ (٣٣) وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ (٣٤) إِنَّهَا لَإِحْدَى الْكُبَرِ.

٣ - التوسل: سبق في المبحث السابق: الشمس بيان أن من دعاء النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «اللهم فالق الإصباح، وجاعل الليل سكنا، والشمس والقمر حسبانا، اقض عني الدين، وأغنني من الفقر، وأمتعني بسمعي وبصري وقوتي في سبيلك».

وأن هذا توسل إلى الله -عَزَّوَجَلَّ- بما وصف من أفعاله به نفسه - ومنه جعل الشمس والقمر حسباناً - في قوله تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ

=

=

وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

خامسًا: الإيمان بالرسل: قال تعالى: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}، وقد كان هذا في زمن رسول الله -ﷺ-، وهو من الأدلة والآيات البينة على نبوة محمد -ﷺ.

فقد سأل أهل مكة رسولَ الله -ﷺ- آية، فأراهم انشقاق القمر، عن أنس بن مالك - رضي الله عنه - قال: «سأل أهل مكة النبي -ﷺ- آية، فانشق القمر بمكة مرتين، فقال: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ}».

وعنه -رضي الله عنه- أن أهل مكة سألوا رسول الله -ﷺ- أن يريهم آية، فأراهم القمر شِقَّين، حتى رأوا حِرَاء بينهما.

وعن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: انشق القمر على عهد رسول الله -ﷺ- شقين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله -ﷺ-: «اشهدوا».

وفي شمائل الرسول -ﷺ- وصف وجه كأنه قطعة قمر، ففي قصة توبة كعب بن مالك -رضي الله عنه-، قال: «فلما سلمت على رسول الله -ﷺ-، وهو يبرق وجهه من السرور، وكان رسول الله -ﷺ- إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه».

وقد سئل البراء -رضي الله عنه-: «أكان وجه النبي -ﷺ- مثل السيف؟ قال: لا، بل مثل القمر».

"كأن السائل أراد أنه مثل السيف في الطول، فرد عليه البراء -رضي الله عنه- فقال: بل مثل القمر، أي في التدوير، ويحتمل أن يكون أراد مثل السيف في اللمعان والصقال؟ فقال: بل فوق ذلك، وعدل إلى القمر لجمعه الصفتين من التدوير واللمعان".

سادسًا: الإيمان باليوم الآخر: سبق في المبحث السابق: الشمس بيان الاستدلال بها على الإيمان باليوم الآخر، وحيث قرن القمر بالشمس؛ فإنه يستدل به على

=

=
الإيمان باليوم الآخر بنفس الاستدلال بالشمس.

وقد ذكر الله -ﷻ- أنه يفصّل الآيات - ومنها القمر- لعل الناس يوقنون بلقاء ربهم، فقال تعالى: {اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى، ثم قال: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ} أي" يفصل لكم ربُّكم آيات كتابه، فيبينها لكم احتجاجًا بها عليكم، أيها الناس، لتوقنوا بلقاء الله، والمعاد إليه، فتصدقوا بوعده ووعيده، وتنزجروا عن عبادة الآلهة والأوثان، وتخلصوا له العبادة إذا أيقنتم ذلك".

وكما ذُكر أيضـًا في المبحث السابق: الشمس، وجه الدلالة على البعث، من جهة أن الذي خلق هذه الآيات العظيمة - ومنها الشمس والقمر - قادر على البعث بعد الموت، وإعادة الخلق.

وفي بيان أول زمرة تدخل الجنة بين -ﷺ- أنهم على صورة القمر، فقال: «إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، والتي تليها على أضوء كوكب دري في السماء، لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان، يرى مخ سوقهما من وراء اللحم، وما في الجنة أعزب».

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفـًا زمرة واحدة، منهم على صورة القمر» الحديث.

" يعني: أنهم في إشراق وجوههم على صفة القمر ليلة تمامه، وكماله، وهي ليلة أربعة عشر، وبذلك سمي القمر بدراً في تلك الليلة، ومقتضى هذا أن أبواب الجنة متفاوتة بحسب

درجاتهم".

وقد أقسم الله تعالى بآيات الليل - ومنها القمر إذا امتلأ نورًا بإبداره - على ركوب
=

=

الناس أطواراً متعددة، وأحوالاً متابينة، من خلق في مراحل متعددة، ثم موتٍ، ثم بعثٍ ومجازاةٍ، وهذه الأمور دالة على أن الله وحده هو المعبود، المدبر لعباده بحكمته ورحمته، وعلى البعث والجزاء، قال تعال: {فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ (١٦) وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ (١٧) وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ (١٨) لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقٍ الآيات}.

سابعاً: الإيمان بالقدر: سبق في المبحث السابق: الشمس الاستدلال بها على الإيمان بالقدر، وحيث قرن القمر بالشمس فإنه يستدل به نفس الاستدلال بالشمس على الإيمان بالقدر من جهة خلق الله للأشياء ومنها القمر، وتسخيره له على مقتضى حكمته، وأن ذلك بتقدير من العزيز العليم، قال تعالى: {وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ (٣٩) لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ}، وقال تعالى: {فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}.

القوادح العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية:

أولاً: عبادة القمر: من القوادح العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية أنها عبدت من دون الله -ﷻ-، فجعلوا القمر إلهاً ورباً، وجعلوا له مصحفاً، ويسبحون له ويدعونه.

وقد جاء في الحديث أن النبي -ﷺ- قال: «يجمع الله الناس يوم القيامة فيقول من كان يعبد شيئا فليتبعه، فيتبع من كان يعبد الشمس الشمس، ومن كان يعبد القمر القمر».

وسبق في المبحث السابق: الشمس كلام ابن القيم -رحمه الله- عن تعظيم المشركين للشمس والقمر والكواكب، وأنهم يسجدون لها، ويتذللون لها، ويسبحونها تسابيح لها معروفة في كتبهم، ودعوات لا ينبغي أن يدعى بها إلا خالقها وفاطرها وحده.

=

=

وأنهم جعلوا للقمر مصحفًا، وتسبيحةً خاصة، وأن في مصحف القمر من مخاطبته بالخطاب الذي لا يليق إلا بالله -ﷻ-، ولا ينبغي لأحد سواه، ومن الخضوع والذل والعبادة.

وسبق بيان أنهما مخلوقان من مخلوقاته، تحت قهره وتسخيره، وأنهما يسجدان لخالقهما، وأن الله نهى عن عبادتهما والسجود لهما، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}، وقال تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ}.

وفي حديث رؤية الهلال: قوله: «ربي وربك الله»: "فيه إثبات أن الناس والقمر وجميع المخلوقات كلها مربوبة لله مسخرة بأمره خاضعة لحكمه، وفي هذا رد على من عبدها من دون الله.

وفيه إقتداء النبي -ﷺ- بأبيه إبراهيم -عليه السلام- حيث قال: {لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}، بعد قوله {هَذَا رَبِّي}".

ثانيًا: نسبة الحوادث إلى حركة القمر: سبق في المبحث السابق: الشمس بيان أن من القوادح العقدية نسبة الحوادث إلى حركة الشمس، وما تقتضيه هذه الحركة من السعود والنحوس، وما تعطيه من السعادة والشقاوة، وتهبه من الأعمار والأرزاق والآجال، والصنائع والعلوم والمعارف، والصور الحيوانية والنباتية والمعدنية، وسائر ما في هذا العالم من الخير والشر.

وبيان أنه ليس في القرآن ولا السنة ما يدل على ذلك، بل فيهما ما يبطله ويرده، وقد بين النبي -ﷺ- في حديث الكسوف بطلان ما يعتقده أهل الجاهلية من أن كسوف الشمس أو القمر لموت أحد أو حياته، فقال: «إن الشمس والقمر آيتان من

=

=

آيات الله، لا ينخسفان لموت أحد ولا لحياته».

وكذلك يقال في القمر، وأن حركته ليس لها تأثير في الحوادث، وأن القمر مسخر بأمر الله، قال تعالى: {وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}.

ثالثًا: تحريف معنى سجود القمر: سبق في المبحث السابق: الشمس، بيان أن من المخالفات تحريف معنى سجود الشمس الوارد في الكتاب والسنة، في قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ يَسْجُدُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ}.

فقال بعضهم: أن المراد بهذا السجود الخشوع والانقياد، وقيل: المراد بالسجود الدلالة على الله.

وكذلك قيل في سجود القمر.

والجواب أنه قد سبق في مبحث عبودية الكائنات أن هذه الآيات الكونية تسجد لله سجوداً حقيقيًا الله أعلم بكيفيته، وأن هذا السجود من الأمور الغيبية التي يجب أن نصدق بها ونسلم، وأن كل شيء يسجد لله طوعا وكرها، وأن وسجود كل شيء مما يختص به، كما قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}.

رابعًا: اعتقاد أن اسم الله مكتوب على القمر، أو أن نوره من نور الله:

سبق في المبحث السابق: الشمس أن من المخالفات العقدية اعتقاد أن اسم الله مكتوب على الشمس، أو نورها من نور الله، ولذلك نهى بعض الفقهاء عن استقبال الشمس وقال في علة ذلك: أن اسم الله مكتوب عليها، ومنهم من قال لأن

=

=

نورها من نور الله.

وكذلك قيل في القمر، أن اسم الله مكتوب عليه، أو أن نوره من نور الله، وهذا لم يثبت به حديث عن النبي -ﷺ-.

خامسًا: إنكار كون خسوف القمر آية من آيات الله يخوف الله به عبادة: سبق في المبحث السابق: الشمس بيان أن من المخالفات العقدية إنكار كون كسوف الشمس آية من آيات الله يخوف بها عباده، وأن هذا أمر طبيعي.

وبينتُ فيه منزلة الأسباب في الشريعة، وأن الناس في هذا المقام طرفان ووسط:

الطرف الأول: غلا في إثبات الأسباب، وأن هذه أمور طبيعية.

والطرف الثاني: أنكر الأسباب، ورد جميع ما قاله أهل الهيئة من حق وباطل.

والوسط: أن كسوف الشمس له أسباب حسية يقدرها الله -عز وجل-، وأنه آية يخوف الله بها عبادة.

وأن أسباب الكسوف وحسابه والنظر في ذلك ليس من علم الغيب، وأن حدوث الكسوف آية يخوف الله بها عبادة، وأن ذلك لا يتعارض مع الأسباب الحسية ومعرفتها.

وأنه ليس من شرط التخويف أن لا يكون له سبب.

وأن التخويف الذي يحصل لأهل الإيمان من هذه الآية من وجوه متعددة، أوضحها: أن ذلك مذكر بالكسوفات التي تكون بين يدي الساعة، ويمكن أن يكون ذلك الكسوف منها، ولذلك قام النبي -ﷺ- فزعًا يخشى أن تقوم الساعة، وكيف لا وقد قال الله -عز وجل-: {فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ} ؟.

وكذلك يقال في خسوف القمر، وأنه آية من آيات الله يخوف الله به عباده.

سادسًا: الجزم بوقوع الخسوف: سبق في المبحث السابق: الشمس أن من

=

=

المخالفات الجزم بوقوع الكسوف، وبيان أن معرفة وقوع الكسوف لا يلزم منه وقوعه، وأن أخبار الحسابين كأخبار بني إسرائيل، لا تصدق ولا تكذب.

وكذلك يقال في خسوف القمر، وأنه لا يجوز الجزم بوقوعه، وأن أمر الحسابين في ذلك لا يصدق، ولا يكذب.

سابعـًا: إنكار انشقاق القمر: إن من دلائل نبوة محمد -ﷺ- انشقاق القمر له عليه الصلاة والسلام، وقد أنكر كفار قريش ذلك، وقالوا: إنه سحر، قال تعالى: {اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ}.

وعن عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: "انشق القمر على عهد رسول الله -ﷺ-، فقالت قريش: هذا سحر ابن أبي كبشة.

قال: فقالوا: انظروا ما يأتيكم به السّفَّار، فإن محمدًا لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم. قال: فجاء السّفَّار فقالوا: ذلك".

ثامنـًا: سب القمر: سبق في المبحث السابق: الشمس بيان أن من المخالفات العقدية سب الشمس، وذكر الحديث الوارد في ذلك، وفيه النهي أيضـًا عن سب القمر، فعن جابر -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «لا تسبوا الليل ولا النهار، ولا الشمس ولا القمر، ولا الرياح فإنها ترسل رحمة لقوم، وعذابا لقوم».

وبيان أن سبها يعود على خالقها، وأن الله تعالى قال في الحديث القدسي: «يؤذني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر اقلب الليل والنهار».

تاسعـًا: استقبال القمر عند الدعاء كاستقبال القبلة عند الصلاة: من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية استقبال الهلال عند الدعاء كما تستقبل القبلة عند الصلاة،"وكل ذلك لا يجوز؛ لما تقرر في الشرع أنه لا يستقبل بالدعاء إلا ما يستقبل بالصلاة".

عن على -رضي الله عنه- قال: «إذا رأى أحدكم الهلال فلا يرفع به رأسا، بل يكفي

=

وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥).

{و} اُذْكُرْ {إذْ قَالَ إبْرَاهِيم رَبّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَد} مَكَّة {آمِنًا} ذَا أَمْن وَقَدْ أَجَابَ الله دُعَاءَهُ فَجَعَلَهُ حَرَمًا لَا يُسْفَك فِيهِ دَم إنْسَان وَلَا يُظْلَم فِيهِ أَحَد وَلَا يُصَاد صَيْده وَلَا يُتَخَلَّى خَلَاهُ {وَاجْنُبْنِي} بعدني {وبني} عن {أن نعبد الأصنام}.

رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦).

{رَبّ إنَّهُنَّ} أَيْ الْأَصْنَام {أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاس} بِعِبَادَتِهِمْ لَهَا {فَمَنْ تَبعَنِي} عَلَى التَّوْحِيد {فَإِنَّهُ مِنِّي} مِنْ أَهْل دِينِي {وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّك غَفُور رَحِيم} هَذَا قَبْل عِلْمه أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَغْفِر الشِّرْك.

رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧).

{رَبّنَا إنِّي أَسْكَنْت مِنْ ذُرِّيَّتِي} أَيْ بَعْضهَا وَهُوَ إسْمَاعِيل مَعَ أُمّه هَاجَر {بِوَادٍ غَيْر ذِي زَرْع} هُوَ مَكَّة {عِنْد بَيْتك الْمُحَرَّم} الَّذِي كَانَ قَبْل الطُّوفَان {رَبّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاة فَاجْعَلْ أَفْئِدَة} قُلُوبًا {مِنَ النَّاس تَهْوِي} تَمِيل وتحن {إليهم}

=

أحدكم أن

يقول: ربي وربك الله».

وعن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- «أنه كره أن ينتصب للهلال، ولكن يعترض فيقول: الله أكبر الحمد لله الذي أذهب هلال كذا وكذا، وجاء بهلال كذا وكذا».

قال بن عَبَّاس لَوْ قَالَ أَفْئِدَة النَّاس لَحَنَّتْ إلَيْهِ فَارِس وَالرُّوم وَالنَّاس كُلّهمْ {وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَات لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} وَقَدْ فَعَلَ بِنَقْلِ الطَّائِف إلَيْهِ.

رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨).

{رَبّنَا إنَّك تَعْلَم مَا نُخْفِي} نُسِرّ {وَمَا نُعْلِن وَمَا يَخْفَى عَلَى الله مِنْ} زَائِدَة {شَيْء فِي الْأَرْض وَلَا فِي السَّمَاء} يَحْتَمِل أَنْ يَكُون مِنْ كَلَامه تَعَالَى أَوْ كَلَام إبراهيم.

الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩).

{الْحَمْد لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي} أَعْطَانِي {عَلَى} مَعَ {الْكِبَر إسْمَاعِيل} وُلِدَ وَلَهُ تِسْع وَتِسْعُونَ سَنَة {وَإِسْحَاق} وُلِدَ وَلَهُ مِائَة وَاثْنَتَا عَشْرَة سنة {إن ربي لسميع الدعاء.

رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠).

{رَبّ اجْعَلْنِي مُقِيم الصَّلَاة وَ} اجْعَلْ {مِنْ ذريتي} من يقيمها وَأَتَى بِمَنْ لِإِعْلَامِ الله تَعَالَى لَهُ أَنَّ مِنْهُمْ كُفَّارًا {رَبّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاء} الْمَذْكُور.

رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١).

{رَبّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدِيَّ} هَذَا قَبْل أَنْ يَتَبَيَّن لَهُ عَدَاوَتهمَا لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَقِيلَ أَسْلَمَتْ أُمّه وَقُرِئَ وَالِدِي مُفْرَدًا وَوَلَدِي {وَلِلْمُؤْمِنِينَ يوم يقوم} يثبت {الحساب} قال تعالى[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} [إبراهيم: ٣٥].

=

=

أي: واذكر أيها النبي وقت قول إبراهيم لربه، بعد أن أسكن إسماعيل وأمه وادي مكة (رب اجعل هذا البلد آمنا) أي يا إلهى الذى أعبده اجعل مكة -شرفها الله- بلدا ذا أمن، حتى يأمن أهله على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم.

كما قال تعالى في سورة البقرة (وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلدا) يعني مكة.

قال الحسن: " هذا دعاء، دعا به إبراهيم فاستجاب له دعاءه فجعله بلدا آمنا".

قال السعدي:"أي: {و} اذكر إبراهيم عليه الصلاة والسلام في هذه الحالة الجميلة، إذ قال: {رب اجعل هذا البلد} أي: الحرم {آمنا} فاستجاب الله دعاءه شرعا وقدرا، فحرمه الله في الشرع ويسر من أسباب حرمته قدرا ما هو معلوم، حتى إنه لم يرده ظالم بسوء إلا قصمه الله كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم".

قال ابن كثير:"يذكر تعالى في هذا المقام محتجا على مشركي العرب، بأن البلد الحرام مكة إنما وضعت أول ما وضعت على عبادة الله وحده لا شريك له، وأن إبراهيم الذي كانت عامرة بسببه، آهلة تبرأ ممن عبد غير الله، وأنه دعا لمكة بالأمن فقال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} وقد استجاب الله له، فقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا آمِنًا وَيُتَخَطَّفُ النَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ} [العنكبوت: ٦٧]، وقال تعالى: {إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا} [آل عمران: ٩٦، ٩٧]، وقال في هذه القصة: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا} فعرفه كأنه دعا به بعد بنائها؛ ولهذا قال: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ} [إبراهيم: ٣٩]، ومعلوم أن إسماعيل أكبر من إسحاق بثلاث عشرة سنة، فأما حين ذهب بإسماعيل وأمه وهو رضيع إلى مكان مكة، فإنه دعا أيضا فقال: {رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا} [البقرة: ١٢٦]".

قال الزمخشري:"أى: اجعل هذا البلد أو هذا المكان ذا أمن".

قال أبو السعود:"أي: اجعل هذا الواديَ من البلادِ الآمنة وكان ذلك أولَ ما قَدِمَ

=

=

عليه السلام مكةَ".

قال الآلوسي:"أي: اجعل هذا المكان القفر بلدا آمنا، وكان النداء بلفظ (الرب) مضافا لما في ذلك من التلطف بالسؤال والنداء بالوصف الدال على قبول السائل، وإجابة ضراعته".

قال الطبري: أي: "واذكروا إذ قال إبراهيم: رب اجعل هذا البلد بلدا آمنا من الجبابرة وغيرهم، أن يسلطوا عليه، ومن عقوبة الله أن تناله، كما تنال سائر البلدان، من خسف، وائتفاك، وغرق، وغير ذلك من سخط الله ومثلاته التي تصيب سائر البلاد".

قال ابن عطية:"دعا إبراهيم عليه السلام لذريته وغيرهم بمكة بالأمن ورغد العيش، {واجْعَلْ}: لفظه الأمر وهو في حق الله تعالى رغبة ودعاء، {وآمِنًا}: معناه من الجبابرة والمسلطين والعدو المستأصل والمثلات التي تحل بالبلاد، وكانت مكة وما يليها حين ذلك قفرا لا ماء فيه ولا نبات، فبارك الله فيما حولها كالطائف وغيره، ونبتت فيها أنواع الثمرات".

قال المراغي:"وهذا دعاء منه أن يكون البيت آمنا في نفسه من الجبابرة وغيرهم أن يسلّطوا عليه، ومن عقوبة اللّه أن تناله كما تنال سائر البلدان من خسف وزلزال وغرق ونحو ذلك مما ينبئ عن سخط اللّه ومثلاته التي تصيب سائر البلاد، وقد استجاب اللّه دعاءه فلم يقصده أحد بسوء إلا قصم ظهره، ومن تعدى عليه لم يطل زمن تعديه، بل يكون تعديا عارضا ثم يزول".

قال الرازي:"الابتداء بطلب نعمة الأمن في هذا الدعاء يدل على أنه أعظم أنواع النعم والخيرات وأنه لا يتم شيء من مصالح الدين والدنيا إلا به، وسئل بعض العلماء الأمن أفضل أم الصحة؟ فقال: الأمن أفضل، والدليل عليه أن شاة لو انكسرت رجلها فإنها تصح بعد زمان، ثم إنها تقبل على الرعي والأكل ولو أنها

=

=

ربطت في موضع وربط بالقرب منها ذئب فإنها تمسك عن العلف ولا تتناوله إلى أن تموت، وذلك يدل على أن الضرر الحاصل من الخوف أشد من الضرر الحاصل من ألم الجسد".

قال الواحدي:"والعرب تقول: آمَنُ من حمام مكة، يضربون المثلَ بها في الأمن".

قال أبو حيان: قوله:"{هَذَا الْبَلَدَ}، باعتبار ما يؤول إليه سماه بلداً. ووصف بلد بآمن، إما على معنى النسب، أي ذا أمن، كقولهم: {عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ}، أي ذات رضا، أو على الاتساع لما كان يقع فيه الأمن جعله آمنـًا كقولهم: نهارك صائم وليلك قائم".

قال الليث: "كل موضع من الأرض عامرٍ أو غامر مسكونٍ أو خالٍ: بلدٌ، والطائفة منه: بلدة"، لأنها لا تثار ولا تهاج.

وقال أهل اللغة: أصلُ «البلد»: هو الأثر. من ذلك قولهم لكِرْكِرَةِ البعير: بلدة. لأنه إذا برك أثرت، قال ذو الرمة:

أُنِيخَتْ فألقَتْ بلدةً فوقَ بلدةٍ قليلٍ بها الأصواتُ إلا بُغَامُها

ويقال للأثر: بلد، وجمعه أبلادٌ، قال القُطامي:

ليست تجرح فُرّارًا ظهورهم وبالنُحورِ كُلُومٌ ذاتُ أبلادٍ

وقال ابنُ الرِّقاع:

عرَف الديارَ توهُّمًا فاعتادَها مِنْ بعدِ ما شَمِلَ البِلَى أبلادَها

وإنما سُمِّيت البلادُ لأنها مواضعُ مواطن الناس وتأثيرهم. والبلد: المقبرة، ويقال: هو نفس القبر، قال الشاعر:

كلُّ امرئ تاركٌ أحبّتَه ومُسْلِمٌ وجهَه إلى البلَد

ومن هذا يقال: رجلٌ بليدٌ، إذا أثَّرَ فيه الجهلُ، ثم يقالُ منه: تبلَّدَ الرجلُ، وهو

=

=

نقيضُ التجلُّد، قال:

ألا لا تَلُمْـــهُ اليـــومَ أن يتبلَّـــدا فقــد غُلِــبَ المحــزونُ أن يتجلَّــدا

وبلد أيضا: إذا ضَعُفَ في العملِ وغيره، حتى قيل في الجرِي، قال الشاعر:

جَـرَى طَلَقًـا حتـى إذا قيـلَ سَـابقٌ تداركَـه أعـراقُ سـوءٍ فَبَلَّـدَا

نستنتج مما بق بأن (البلد): "اسم لكل مكان مسكون سواء كان ذلك مدينة كبيرة، أو مدينة صغيرة؛ كله يسمى بلداً؛ وقد سمى الله سبحانه وتعالى مكة بلداً، كما في قوله تعالى: {وهذا البلد الأمين} [التين: ٣]؛ وسماها الله تعالى قرية، كما في قوله تعالى: {وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم} [محمد: ١٣]".

وقد اختلفوا في الأمن المسؤول في هذه الآية على وجوه:

أحدها: أنه سأله الأمن من القحط، لأنه أسكن أهله بواد غير ذي زرع ولا ضرع. وضعّفه أبو حيان فقال:"فهي أكثر بلاد الله قحطاً وجدباً".

الثاني: أنه سأله الأمن من الخسف والمسخ.

الثالث: وقال بعض المفسرين: أي آمناً مَن فيه؛ لأن البلد نفسه لا يوصف بالأمن، والخوف، فـ(البلد) أرض، وبناء؛ وإنما الذي يكون آمنـًا: أهلُه؛ أما هو فيكون أمْنـًا.

قلت: وهذا ضعيف، والذي ينبغي هو أن يبقى على ظاهره، وأن يكون البلد نفسه آمنـًا؛ وإذا أَمِنَ البلد أَمِن مَن فيه وهو أبلغ؛ لأنه مثلاً لو جاء أحد، وهدم البناء ما كان البناء آمنـًا، وصار البناء عرضة لأن يتسلط عليه من يُتلفه؛ فكون البلد آمنـًا أبلغ من أن نفسره بـ(آمنـًا أهله)؛ لأنه يشمل البلد، ومن فيه؛ ولهذا قال تعالى: {وارزق أهله}؛ لأن البلد لا يرزق.

الرابع: أنه سأله الأمن من القتل، وهو قول أبو بكر الرازي، واحتج عليه بأنه عليه

=

=

السلام سأله الأمن أولا، ثم سأله الرزق ثانيا، ولو كان الأمن المطلوب هو الأمن من القحط لكان سؤال الرزق بعده تكرارا فقال في هذه الآية: {رب اجعل هاذا بلدا آمنا وارزق أهله من الثمرات} وقال في آية أخرى: {رب اجعل هاذا البلد امنا} ثم قال في آخر القصة: {ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع} إلى قوله: {وارزقهم من الثمرات} [إبراهيم: ٣٧].

وقد أخرج الطبري عن قتادة قال: "ذكر لنا أن الحرم حُرِّم بحياله إلى العرش، وذكر لنا أن البيت هبط مع آدم حين هبط. قال الله له: أهبط معك بيتي يطاف حوله كما يطاف حول عرشي، فطاف حوله آدم ومن كان بعده من المؤمنين، حتى إذا كان زمان الطوفان - حين أغرق الله قوم نوح - رفعه وطهره، ولم تصبه عقوبة أهل الأرض. فتتبع منه إبراهيم أثرا، فبناه على أساس قديم كان قبله".

الخامس: وقيل: أنه سأله الأمن من الجبابرة.

وضعّفه أبو حيان فقال:"فالواقع يرده، إذ قد دخل فيه الجبابرة وقتلوا، كعمرو بن لحي الجرهمي، والحجاج بن يوسف، والقرامطة، وغيرهم".

واختلف العلماء في مكة هل صارت حرما آمنا بسؤال إبراهيم أم كانت قبله كذلك، على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه لم يزل الحرم آمنا من عقوبة الله وعقوبة جبابرة خلقه، منذ خلقت السموات والأرض.

أخرج الطبري عن شريح الخزاعي أنه قال:"لما افتتحت مكة قتلت خزاعة رجلا من هذيل، فقام رسول الله ﷺ خطيبا فقال: " يا أيها الناس، إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما، أو يعضد بها شجرا. ألا وإنها لا تحل لأحد بعدي ولم تحل لي إلا هذه الساعة، غضبا علي أهلها. ألا فهي قد رجعت

=

=

على حالها بالأمس. ألا ليبلغ الشاهد الغائب، فمن قال: إن رسول الله ﷺ قد قتل بها! فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يُحِلَّها لك".

الثاني: أن مكة كانت حلالا قبل دعوة إبراهيم عليه السلام كسائر البلاد، وأن بدعوته صارت حرما آمنا كما صارت المدينة بتحريم رسول الله ﷺ أمنا بعد أن كانت حلالا.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: " إن إبراهيم حرم بيت الله وأمنه، وإني حرمت المدينة ما بين لابتيها، عضاهها وصيدها، ولا تقطع عضاهها".

قال ابن عطية:"ولا تعارض بين الحديثين، لأن الأول إخبار بسابق علم الله فيها وقضائه، وكون الحرمة مدة آدم وأوقات عمارة القطر بإيمان، والثاني إخبار بتجديد إبراهيم لحرمتها وإظهاره ذلك بعد الدثور، وكل مقال من هذين الإخبارين حسن في مقامه".

الثالث: وقيل: أنها كانت حراما قبل الدعوة بوجه غير الوجه الذي صارت به حراما بعد الدعوة، فالأول: يمنع الله تعالى من الاصطلام وبما جعل في النفوس من التعظيم، والثاني: بالأمر على ألسنة الرسل.

والراجح: أن الله جعل مكة حرما آمنا حين خلقها وأنشأها، "كما أخبر النبي ﷺ، " أنه حرمها يوم خلق السموات والأرض "، بغير تحريم منه لها على لسان أحد من أنبيائه ورسله، ولكن بمنعه من أرادها بسوء، وبدفعه عنها من الآفات والعقوبات، وعن ساكنيها، ما أحل بغيرها وغير ساكنيها من النقمات. فلم يزل ذلك أمرها حتى بوأها الله إبراهيم خليله، وأسكن بها أهله هاجر وولده إسماعيل. فسأل حينئذ إبراهيم ربه إيجاب فرض تحريمها على عباده على لسانه، ليكون ذلك سنة لمن بعده من خلقه، يستنون به فيها، إذ كان تعالى ذكره قد اتخذه خليلا وأخبره أنه جاعله، للناس إماما يقتدى به، فأجابه ربه إلى ما سأله، وألزم عباده

=

=

حينئذ فرض تحريمه على لسانه".

-قال الخازن: فإن قيل: لم دعا إبراهيم ـ عليه السلام ـ للبلد بالأمن؟

إنما دعا إبراهيم له بالأمن لأنه بلد ليس فيه زرع ولا ثمر فإذا لم يكن آمنا، لم يجلب إليه شيء من النواحي فيتعذر المقام به، فأجاب الله تعالى دعاء إبراهيم وجعله بلدا آمنا، فما قصده جبار إلا قصمه الله تعالى كما فعل بأصحاب الفيل وغيرهم من الجبابرة.

-قال ابن عاشور: ولقد كانت دعوة إبراهيم هذه من جوامع كلم النبوة، فإن أمن البلاد والسبل يستتبع جميع خصال سعادة الحياة ويقتضي العدل والعزة والرخاء إذ لا أمن بدونها، وهو يستتبع التعمير والإقبال على ما ينفع والثروة فلا يختل الأمن إلا إذا اختلت الثلاثة الأول وإذا اختل اختلت الثلاثة الأخيرة، وإنما أراد بذلك تيسير الإقامة فيه على سكانه لتوطيد وسائل ما أراده لذلك البلد من كونه منبع الإسلام.

(تنبيه): فإن قلت: قد غزا مكة الحجاج وخرب الكعبة؟

قلت لم يكن قصده بذلك مكة ولا أهلها ولا إخراب الكعبة، وإنما كان قصده خلع ابن الزبير من الخلافة ولم يتمكن من ذلك إلا بذلك فلما حصل قصده أعاد بناء الكعبة فبناها وشيدها وعظم حرمتها وأحسن إلى أهلها.

(تنبيه ثاني): قال ابن كثير في البداية والنهاية (١٥/ ٣٧): ذكر أخذ القرامطة الحجر الأسود إلى بلادهم، وما كان منهم إلى الحجيج، لعن الله القرامطة

فيها خرج ركب العراق وأميرهم منصور الديلمي، فوصلوا إلى مكة سالمين، وتوافت الركوب هناك من كل جانب، فما شعروا إلا بالقرمطي قد خرج عليهم في جماعته يوم التروية، فانتهب أموالهم، واستباح قتالهم، فقتل الناس في رحاب مكة وشعابها حتى في المسجد الحرام وفي جوف الكعبة، وجلس أميرهم أبو طاهر

=

=

سليمان بن أبي سعيد الجنابي - لعنه الله - على باب الكعبة، والرجال تصرع حوله في المسجد الحرام في الشهر الحرام، ثم في يوم التروية، الذي هو من أشرف الأيام، وهو يقول:

أنا بالله وبالله أنا يخلق الخلق وأفنيهم أنا

فكان الناس يفرون فيتعلقون بأستار الكعبة، فلا يجدي ذلك عنهم شيئا، بل يقتلون وهم كذلك، ويطوفون فيقتلون في الطواف، وقد كان بعض أهل الحديث يومئذ يطوف، فلما قضى طوافه أخذته السيوف، فلما وجب، أنشد وهو كذلك:

ترى المحبين صرعى في ديارهم كفتية الكهف لا يدرون كم لبثوا

ثم أمر القرمطي - لعنه الله - أن تدفن القتلى ببئر زمزم، ودفن كثيرا منهم في أماكنهم وحتى في المسجد الحرام - ويا حبذا تلك القتلة وتلك الضجعة - ولم يغسلوا، ولم يكفنوا، ولم يصل عليهم ؛ لأنهم شهداء في نفس الأمر، بل من خيار الشهداء، وهدم قبة زمزم، وأمر بقلع باب الكعبة، ونزع كسوتها عنها، وشققها بين أصحابه، وأمر رجلا أن يصعد إلى ميزاب الكعبة، فأراد أن يقتلعه، فسقط على أم رأسه، فمات لعنه الله وصار إلى أمه الهاوية، فانكف اللعين عند ذلك عن الميزاب، ثم أمر بأن يقلع الحجر الأسود، وجاءه رجل فضرب الحجر بمثقل في يده، وقال: أين الطير الأبابيل؟

أين الحجارة من سجيل؟ ثم قلع الحجر الأسود - شرفه الله وكرمه وعظمه - وأخذوه معهم حين راحوا إلى بلادهم، فكان عندهم ثنتين وعشرين سنة حتى ردوه، كما سنذكره في موضعه في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة، فإنا لله وإنا إليه راجعون.

ولما رجع القرمطي إلى بلاده، تبعه أمير مكة هو وأهل بيته وجنده وسأله وتشفع إليه في أن يرد الحجر ليوضع في مكانه، وبذل له جميع ما عنده من الأموال، فلم

=

=

يفعل - لعنه الله - فقاتله أمير مكة فقتله القرمطي، وقتل أكثر أهله وجنده، واستمر ذاهبا إلى بلاده ومعه الحجر الأسود وأموال الحجيج.

وقد ألحد هذا اللعين في المسجد الحرام إلحادا لم يسبقه إليه أحد ولا يلحقه فيه، وسيجازيه على ذلك الذي لا يعذب عذابه أحد، ولا يوثق وثاقه أحد، وإنما حمل هؤلاء على هذا الصنيع ؛ أنهم كانوا كفارا زنادقة، وقد كانوا ممالئين للفاطميين الذين نبغوا في هذه السنين ببلاد إفريقية من أرض المغرب، ويلقب أميرهم بالمهدي، وهو أبو محمد عبيد الله بن ميمون القداح، وقد كان صباغا بسلمية يهوديا، فادعى أنه أسلم، ثم سار منها إلى بلاد إفريقية، فادعى أنه شريف فاطمي، فصدقه على ذلك طائفة كثيرة من البربر وغيرهم من الجهلة، وصارت له دولة فملك مدينة سجلماسة ثم ابتنى مدينة وسماها المهدية وكان قرار ملكه بها، وكان هؤلاء القرامطة يراسلونه ويدعون إليه ويترامون عليه، ويقال: إنهم: إنما كانوا يفعلون ذلك سياسة ودولة لا حقيقة له.

وذكر ابن الأثير أن المهدي هذا كتب إلى أبي طاهر القرمطي يلومه على فعله بمكة، حيث سلط الناس على الكلام في عرضهم، وانكشفت أسرارهم التي كانوا يبطنونها بما ظهر من صنيعهم هذا القبيح، وأمره برد ما أخذه منها، وعوده إليها، فكتب إليه بالسمع والطاعة، وأنه قد قبل ما أشار إليه من ذلك.

وقد أسر بعض أهل الحديث في أيدي القرامطة، فمكث في أيديهم مدة، ثم فرج الله عنه، وكان يحكي أن الذي أسره كان يستخدمه في أشق الخدمة وأشدها، وكان يعربد عليه إذا سكر، فقال لي ذات ليلة وهو سكران: ما تقول في محمدكم؟ فقلت: لا أدري. فقال: كان رجلا سائسا. ثم قال: ما تقول في أبي بكر؟ فقلت: لا أدري، فقال: كان ضعيفا مهينا، وكان عمر فظا غليظا، وكان عثمان جاهلا أحمق، وكان علي ممخرقا، أليس كان عنده أحد يعلمه ما ادعى أنه في صدره من العلم؟

=

=

أما كان يمكنه أن يعلم هذا كلمة وهذا كلمة؟ ثم قال: هذا كله مخرقة. فلما كان الغد، قال لي: لا تخبر بهذا الذي قلته لك أحدا. رواه ابن الجوزي في " منتظمه".

وروى عن بعضهم أنه قال: كنت في المسجد الحرام يوم اقتلع الحجر الأسود، إذ دخل رجل وهو سكران، راكب على فرسه، فصفر لها حتى بالت في المسجد الحرام في مكان الطواف، ثم حمل على رجل كان إلى جانبي فقتله ثم نادى بأعلى صوته: يا حمير، أليس قلتم في بيتكم هذا {ومن دخله كان آمنا} [آل عمران: ٩٧] فأين الأمن؟ قال: فقلت له: أتسمع جوابا؟ قال: نعم. قلت: إنما أراد الله: فأمنوه. قال: فثنى رأس فرسه وانصرف.

وقد سأل بعضهم هاهنا سؤالا فقال: قد أحل الله ﷻ بأصحاب الفيل - وكانوا نصارى، وهؤلاء شر منهم - ما ذكره في كتابه العزيز حيث يقول: {ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل ألم يجعل كيدهم في تضليل وأرسل عليهم طيرا أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول} [الفيل: ١] ومعلوم أن القرامطة شر من اليهود والنصارى والمجوس، بل ومن عبدة الأصنام، فهلا عوجلوا بالعقوبة، كما عوجل أصحاب الفيل؟ وقد أجيب عن ذلك: بأن أصحاب الفيل إنما عوقبوا إظهارا لشرف البيت الحرام، ولما يراد به من التشريف والتعظيم بإرسال النبي الكريم ﷺ من البلد الذي كان هذا البيت فيه ؛ ليعلم شرف هذا الرسول الكريم الذي هو خاتم الأنبياء، فلما أراد هؤلاء إهانة هذه البقعة التي يراد تشريفها عما قريب، أهلكهم سريعا عاجلا، غير آجل، كما ذكر في كتابه، وأما هؤلاء، فكان من أمرهم ما كان بعد تقرير الشرائع وتمهيد القواعد، والعلم بالضرورة من دين الله بشرف مكة والكعبة، وكل مؤمن يعلم أن هؤلاء من أكبر الملحدين الكافرين ؛ بما تبين من كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، فلهذا لم يحتج الحال إلى معاجلتهم بالعقوبة، بل أخرهم الرب جل جلاله ليوم تشخص

=

=

فيه الأبصار، والله سبحانه وتعالى يمهل ويملي ويستدرج، ثم يأخذ أخذ عزيز مقتدر، كما قال رسول الله ﷺ: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته» ثم قرأ {وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد} [هود: ١٠٢]

وقال رسول الله ﷺ: «لا أحد أصبر على أذى سمعه من الله ؛ إنهم يجعلون له ولدا وهو يرزقهم ويعافيهم» وقال تعالى: {ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه الأبصار} [إبراهيم: ٤٢] وقال تعالى: {لا يغرنك تقلب الذين كفروا في البلاد متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد} [آل عمران: ١٩٦]

[لقمان: ٢٤] وقال: {متاع في الدنيا ثم إلينا مرجعهم ثم نذيقهم العذاب الشديد بما كانوا يكفرون} [يونس: ٧٠]. انتهى كلام ابن كثير رحمه الله.

قوله تعالى: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم: ٣٥].

أي: وأبعدني وذريتي عن عبادة الأصنام.

والمراد ثبتنا على ما نحن عليه من البعد عن عبادتها، وإنما سأل إبراهيم هذا لنفسه مع أن الأنبياء جميعا معصومون من الشرك، للإيذان بأن العصمة بفضل الله ومعونته وتوفيقه، كما أن فيه هضما لنفسه واعترافا بحاجته إلى فضل ربه في كل أمر، والمراد من بنيه من اتبعه في شريعته من ذريته بدليل قوله تعالى (فمن تبعني فإنه مني) فكأنه لا يعتبر من ذريته من لم يتبعه، وعلى هذا تكون دعوته مستجابة تماما حسب نيته، ويؤكد هذا المعنى ما جاء في سورة البقرة من قوله تعالى (قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين).

قال ابن عثيمين: قوله تعالى (واجنبني وبني) قيل: المراد بنيه: بنوه لصلبه، ولا نعلم له من صلبه سوى إسماعيل وإسحاق. وقيل: المراد ذريته وما توالد من

=

=

صلبه، وهو الأرجح، وذلك للآيات التي دلت على دعوته للناس من ذريته، ولكن كان من حكمة الله أن لا تجاب دعوته في بعضهم، كما أن الرسول ﷺ دعا الله أن لا يجعل بأس أمته بينهم ١ فلم يجب الله دعاءه.... وأيضا يمنع من الأول: أن الآية بصيغة الجمع، وليس لإبراهيم من الأبناء سوى إسحاق وإسماعيل.

قال السعدي:"أي: اجعلني وإياهم جانبا بعيدا عن عبادتها والإلمام بها، ثم ذكر الموجب لخوفه عليه وعلى بنيه بكثرة من افتتن وابتلي بعبادتها".

قال الطبري:"ومعنى ذلك: أبعدني وبني من عبادة الأصنام، و «الأصنام»: جمع صنم، والصنم: هو التمثال المصور، كما قال رؤبة بن العجاج في صفة امرأة:

وهنانة كالزون يجلى صنمه تضحك عن أشنب عذب ملثمه".

قال ابن عطية:"أراد إبراهيم بني صلبه، وكذلك أجيبت دعوته فيهم، وأما باقي نسله فعبدوا الأصنام، وهذا الدعاء من الخليل عليه السلام يقتضي إفراط خوفه على نفسه ومن حصل في رتبته، فكيف يخاف أن يعبد صنما؟! لكن هذه الآية ينبغي أن يقتدى بها في الخوف وطلب الخاتمة".

قال ابن كثير:"وقال: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ} ينبغي لكل داع أن يدعو لنفسه ولوالديه ولذريته".

قال المظهري:"أى: اجعلنا منها فى جانب- وفيه دليل على ان عصمة الأنبياء بتوفيق الله تعالى وحفظه إياهم ولفظ بنىّ لا يشتمل الأحفاد وإطلاقها على ما يعم الأحفاد فى قوله تعالى يا بَنِي آدَمَ... - يا بَنِي إِسْرائِيلَ من قبيل عموم المجاز فلا يشكل بانه قد عبد كثير من أولاد إسماعيل عليه السلام الأصنام".

قال مجاهد:"فاستجاب الله لإبراهيم دعوته في ولده، قال: فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته. والصنم: التمثال المصور، ما لم يكن صنما فهو وثن، قال: واستجاب الله له، وجعل هذا البلد آمنا، ورزق أهله من الثمرات، وجعله إماما،

=

=

وجعل من ذريته من يقيم الصلاة، وتقبل دعاءه، فأراه مناسكة، وتاب عليه".

قال إبراهيم التيمي:"من يأمن البلاء بعد قول إبراهيم: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأَصْنَامَ} ؟".

وقرأ الجحدري والثقفي «وأجنبني» بقطع الألف وكسر النون.

قوله تعالى: {رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ} [إبراهيم: ٣٦]، أي:"ربِّ إن الأصنام تسبَّبَتْ في إبعاد كثير من الناس عن طريق الحق".

قال ابن قتيبة:"أي: ضل بهن كثير من الناس".

قال الطبري:"يقول: يا رب إن الأصنام أزلن كثيرا من الناس عن طريق الهدى وسبيل الحق حتى عبدوهن، وكفروا بك".

قال الزجاج:"أي: ضللوا بسببها، لأن الأصنام لا تعقل ولا تفعل شيئا، كما تقول قد فتنتني هذه الدار.، أي: أنا أحببتها واستحسنتها، وافتتنت بها".

قال الفخر الرازي:"اتفق كل الفرق على أن قوله: {أضللن} مجاز لأنها جمادات، والجماد لا يفعل شيئا البتة، إلا أنه لما حصل الإضلال عند عبادتها أضيف إليها كما تقول فتنتهم الدنيا وغرتهم، أي افتتنوا بها واغتروا بسببها".

قال الخازن: "قوله (رب إنهن) يعني الأصنام (أضللن كثيرا من الناس) وهذا مجاز لأن الأصنام جمادات، وحجارة لا تعقل شيئا حتى تضل من عبدها إلا أنه لما حصل الإضلال بعبادتها أضيف إليها كما تقول: فتنتهم الدنيا وغرتهم وإنما فتنوا بها واغتروا بسببها".

عن قتادة، قوله " {إنهن أضللن كثيرا من الناس}، يعني: الأوثان".

قوله تعالى: {فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي} [إبراهيم: ٣٦]، أي:"فمن اقتدى بي في التوحيد فهو على ديني وسُنَّتي".

قال الفخر الرازي:"يعني من تبعني في ديني واعتقادي فإنه مني، أي جار مجرى

=

=

بعضي لفرط اختصاصه بي وقربه مني".

قال الطبري:"يقول: فمن تبعني على ما أنا عليه من الإيمان بك وإخلاص العبادة لك وفراق عبادة الأوثان، فإنه مني: يقول: فإنه مستن بسنتي، وعامل بمثل عملي".

قوله تعالى: {وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [إبراهيم: ٣٦]، أي:"ومَن خالفني فيما دون الشرك، فإنك غفور لذنوب المذنبين -بفضلك- رحيم بهم، تعفو عمن تشاء منهم".

قيل: (ومن عصاني) فكفر، واختاره ابن عطية.

وقيل: (ومن عصاني) أي: فيما دون الشرك.

وقيل: هذا تفويض للأمر إلى الله ﷻ، ورد إلى مشيئته، لا طلب ودعاء بالمغفرة لهم.

وممن اختار هذا المعنى: ابن كثير، وابن عاشور.

قال القرطبي: "(فإنك غفور رحيم) قيل: قال هذا قبل أن يعرفه الله أن الله لا يغفر أن يشرك به".

قال ابن عاشور: المعنى: ومن عصاني أفوض أمره إلى رحمتك وغفرانك. وليس المقصود الدعاء بالمغفرة لمن عصى. وهذا من غلبة الحلم على إبراهيم عليه السلام، [وخشيته] من استئصال عصاة ذريته.

قال الطبري:"يقول: ومن خالف أمري فلم يقبل مني ما دعوته إليه، وأشرك بك، فإنه غفور لذنوب المذنبين الخطائين بفضلك، ورحيم بعبادك تعفو عمن تشاء منهم".

قال الزجاج:"أي: فإنك غفور رحيم له إن تاب وإن آمن، لا أنه يقول إن من كفر فإن

=

=

الله غفور رحيم، فإن الله لا يغفر له، ألا ترى قوله في أبيه: {فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه}".

قال السدي: "معناه: ومن عصاني فتاب".

قال مقاتل بن حيان: "ومن عصاني فيما دون الشرك".

قال الفخر الرازي:"احتج أصحابنا بهذه الآية على أن إبراهيم عليه السلام ذكر هذا الكلام والغرض منه الشفاعة في حق أصحاب الكبائر من أمته، والدليل عليه أن قوله: {ومن عصاني فإنك غفور رحيم}، صريح في طلب المغفرة والرحمة لأولئك العصاة. فنقول: أولئك العصاة إما أن يكونوا من الكفار أو لا يكونوا كذلك، والأول باطل من وجهين:

الأول: أنه عليه السلام بين في مقدمة هذه الآية أنه مبرأ عن الكفار وهو قوله: {واجنبني وبني أن نعبد الأصنام}، وأيضا قوله: {فمن تبعني فإنه مني}، يدل بمفهومه على أن من لم يتبعه على دينه فإنه ليس منه ولا يهتم بإصلاح مهماته.

والثاني: أن الأمة مجمعة على أن الشفاعة في إسقاط عقاب الكفر غير جائزة، ولما بطل هذا ثبت أن قوله: {ومن عصاني فإنك غفور رحيم}، شفاعة في العصاة الذين لا يكونون من الكفار".

قال قتادة:"اسمعوا إلى قول خليل الله إبراهيم لا والله ما كانوا طعانين ولا لعانين، وكان يقال: إن من أشر عباد الله كل طعان لعان، قال نبي الله ابن مريم عليه السلام {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم}".

قوله تعالى: {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ} [إبراهيم: ٣٧].

أي: يا ربنا إني أسكنت من أهلي - ولدي إسماعيل وأمه هاجر (روي أن هاجر لما ولدت إسماعيل غارت منها " سارة " زوجة إبراهيم، فأمره الله تعالى ان يحمل

=

=

ولده (إسماعيل) مع أمه من الشام إلى مكة، فجاء بهما فوضعهما عند دوحة مكان زمزم كما في الحديث الطويل الذي رواه البخاري ومسلم).

قال القرطبي: قوله (من) في قوله تعالى (من ذريتي) للتبعيض أي أسكنت بعض ذريتي؛ يعني إسمعيل وأمه، لأن إسحق كان بالشام.

فالمقصود من ذريته في الآية ابنه البكر إسماعيل الذي ولد له في شيخوخته من أمته هاجر التي وهبها ملك مصر لزوجته سارة، فوهبتها له.

وكانت سارة عقيما زمنا طويلا، فلما ولدت هاجر التي كانت جاريتها، حدث في نفسها ما يحدث للنساء من الغيرة، فناشدته أن يخرجهما من عندها، فذهب بهما إلى أرض مكة، ووضعهما هناك، حيث لا يوجد زرع ولا ماء، ولا أحد يقيم بتلك الأرض الموحشة، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفل إبراهيم - عليه السلام - راجعا، فتبعته أم إسماعيل، فقالت: يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادي الذي لا أنيس فيه ولا شيء، ولما لم يجبها قالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت: إذن لا يضيعنا، ثم رجعت.

وانطلق إبراهيم عليه السلام، حتى إذا كان عند الثنية -حيث لا يريانه استقبل البيت بوجهه، وكان إذ ذاك مرتفعا من الأرض كالرابية، ثم دعا رافعا يديه فقال: "رب إني أسكنت من ذريتي" إلى قوله "لعلهم يشكرون، وقد آثر - عليه السلام - في نداء ربه صيغة الجماعة بقوله: "ربنا" لتقدم ذكره وذكر بنية، والتعرض لوصف ربوبيته لهم أدخل في القبول وإجابة المطلوب.

عن قتادة:"{بواد غير ذي زرع}، قال: مكة. لم يكن بها زرع يومئذ".

وقال قتادة:"وأنه بيت طهره الله من السوء وجعله قبلة وجعله حرمه، اختاره نبي الله إبراهيم عليه السلام لولده".

-قال الماوردي: (بواد غير ذي زرع).يعني مكة أسكنها في بطحائها، ولم يكن بها

=

=

ساكن، ثقة بالله وتوكلا عليه.

-قال ابن الجوزي: إن قيل: ما وجه قوله (عند بيتك المحرم) ولم يكن هناك بيت حينئذ، إنما بناه إبراهيم بعد ذلك بمدة؟ فالجواب من ثلاثة وجوه.

أحدها: أن الله تعالى حرم موضع البيت منذ خلق السموات والأرض، قاله ابن السائب.

والثاني: عند بيتك الذي كان قبل أن يرفع أيام الطوفان.

والثالث: عند بيتك الذي قد جرى في سابق علمك أنه يحدث هاهنا، ذكرهما ابن جرير.

وكان أبو سليمان الدمشقي يقول: ظاهر الكلام يدل على أن هذا الدعاء إنما كان بعد أن بني البيت وصارت مكة بلدا، والمفسرون على خلاف ما قال.

قوله تعالى: {رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ} [إبراهيم: ٣٧]، أي:"ربنا لكي يعبدوك ويقيموا الصلاة أسكنتهم بهذا الوادي".

وفي هذه الجملة تعليل لإسكان بعض ذريته في هذه البقعة الجرداء المجاورة للبيت الحرام.

والمعنى: يا ربنا ما أسكنت بعض ذريتي بهذا الوادي البلقع الخالي من كل مرتزق إلا ليقيموا الصلاة عند بيتك المحرم، ويعمروه بالذكر والعبادة، والتعبير بصيغة الجمع في قوله: {ليقيموا الصلاة}: مع أنه لا يوجد من ذريته سوى إسماعيل يؤذن بأن الله تعالى أعلمه أن ولده إسماعيل، سيعيش وتكون له ذرية كثيرة، وسيكون رسولا إليهم ليقيموا الصلاة على شريعته.

قال القشيري:"أي: أسكنتهم لإقامة حقّك لا لطلب حظوظهم، ويقال اكتفى أن يكونوا فى ظلال عنايته عن أن يكونوا فى ظلال نعمته".

عن الحسن في قوله: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ}، قال: "فريضة واجبة لا تنفع الأعمال إلا

=

=

بها وبالزكاة". وروي عن عطاء بن أبي رباح، وقتادة نحو ذلك.

قوله تعالى: {فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ} [إبراهيم: ٣٧].

أي: فاجعل قلوبا من قلوب الناس تسرع إليهم شوقا وودا ليساكنوهم ويعيشوا معهم، وأول آثار هذه الدعوة أنه تعالى أنبع ماء زمزم، ومرت رفقة من جرهم تريد الشام، فرأوا الطير تحوم على الجبل، فقالوا إن هذا الطائر لعائف على الماء، فأشرفوا، فإذا هم بهاجر، فقالوا إن شئت كنا معك وآنسناك.

قال ابن كثير: قوله تعالى (فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم) قال ابن عباس ومجاهد وسعيد بن جبير وغيره: لو قال أفئدة الناس لازدحم عليه فارس والروم واليهود والنصارى والناس كلهم، ولكن قال: من الناس فاختص به المسلمون.

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: تشتاق إليهم".

قال القشيري:"واستجاب الله، دعاءه فيهم، وصارت القلوب من كل بر وبحر كالمجبولة على محبة تلك النسبة، وأولئك المتصلين به، وسكان ذلك البيت".

قال السدي:"يقول: خذ بقلوب الناس إليهم، فإنه حيث يهوى القلب يذهب الجسد، فلذلك ليس من مؤمن إلا وقلبه معلق بحب الكعبة".

قال ابن عباس:"إن إبراهيم سأل الله أن يجعل أناسا من الناس يهوون سكنى مكة".

قال ابن عباس:"لو إن إبراهيم عليه السلام حين دعا قال: اجعل أفئدة الناس تهوي إليهم لازدحمت عليه اليهود والنصارى. ولكنه خص حين قال: {أفئدة من الناس}، فجعل ذلك أفئدة المؤمنين".

قوله تعالى: {وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ} [إبراهيم: ٣٧]، أي:"وارزقهم في هذا المكان من أنواع الثمار؛ لكي يشكروا لك على عظيم نعمك".

=

=

فاستجاب الله دعاءه، ورزق ذريته وكل من انحاز إليهم بما أنبت لهم من أشجار الفاكهة المختلفة بقرى قريبة كالطائف، أو ما يجلب إليهم من الأمصار والأقطار الشاسعة من مختلف الفواكه والثمار، حتى أصبحت لديهم كثيرة موفورة، يجتمع منها عندهم الأنواع المتعددة في اليوم الواحد.

وفى ذلك يقول الله تعالى (أولم نمكن لهم حرما آمنا يجبى إليه ثمرات كل شيء رزقا من لدنا).

وهذا من فضل الله وكرمه، ليكون عونا على عبادته والرغبة في البقاء في حراسة حرمه، وليجعل من موطنهم القفر ومنزلهم الموحش. مطمح الأنظار ومحط الرحال. وهي لذلك تستوجب منهم أداء مراسم العبودية تامة كاملة شكرا له تعالى وثناء عليه.

-قال الرازي: قوله تعالى (لعلهم يشكرون) وذلك يدل على أن المقصود للعاقل من منافع الدنيا أن يتفرغ لأداء العبادات وإقامة الطاعات، فإن إبراهيم - عليه السلام - بين أنه إنما طلب تيسير المنافع على أولاده لأجل أن يتفرغوا لإقامة الصلوات وأداء الواجبات.

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: أطعمهم من الثمرات، لكي يشكروا فيما رزقتهم".

عن سعيد بن جبير قال ابن عباس: "أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل، اتخذت منطقا لتعفى أثرها على سارة، ثم جاء بها إبراهيم، وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحة، فوق زمزم فى أعلى المسجد، وليس بمكة يومئذ أحد، وليس بها ماء، فوضعهما هنالك، ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء، ثم قفى إبراهيم منطلقا فتبعته أم إسماعيل فقالت يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شئ

=

=

فقالت له ذلك مرارا، وجعل لا يلتفت إليها فقالت له آلله الذى أمرك بهذا قال نعم. قالت إذا لا يضيعنا. ثم رجعت، فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت، ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه، فقال {ربنا إنى أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع} حتى بلغ {يشكرون}. وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل، وتشرب من ذلك الماء، حتى إذا نفد ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها، وجعلت تنظر إليه يتلوى أو قال يتلبط فانطلقت كراهية أن تنظر إليه، فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها، فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا، فهبطت من، الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها، ثم سعت سعى الإنسان المجهود، حتى جاوزت الوادى، ثم أتت المروة، فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا، فلم تر أحدا، ففعلت ذلك سبع مرات قال ابن عباس قال النبى ﷺ: فذلك سعى الناس بينهما ، فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا، فقالت صه. تريد نفسها، ثم تسمعت، فسمعت أيضا، فقالت قد أسمعت، إن كان عندك غواث. فإذا هى بالملك، عند موضع زمزم، فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء، فجعلت تحوضه وتقول بيدها هكذا، وجعلت تغرف من الماء فى سقائها، وهو يفور بعد ما تغرف قال ابن عباس قال النبى ﷺ: يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو قال لو لم تغرف من الماء لكانت زمزم عينا معينا ، قال فشربت وأرضعت ولدها، فقال لها الملك لا تخافوا الضيعة، فإن ها هنا بيت الله، يبنى هذا الغلام، وأبوه، وإن الله لا يضيع أهله. وكان البيت مرتفعا من الأرض كالرابية، تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله، فكانت كذلك، حتى مرت بهم رفقة من جرهم أو أهل بيت من جرهم مقبلين من طريق كداء فنزلوا فى أسفل مكة، فرأوا طائرا عائفا. فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء، لعهدنا بهذا الوادى وما فيه ماء، فأرسلوا جريا أو جريين، فإذا هم بالماء، فرجعوا

=

=

فأخبروهم بالماء، فأقبلوا، قال وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن ننزل عندك فقالت نعم، ولكن لا حق لكم فى الماء. قالوا نعم. قال ابن عباس قال النبى ﷺ: فألفى ذلك أم إسماعيل، وهى تحب الإنس ، فنزلوا وأرسلوا إلى أهليهم، فنزلوا معهم حتى إذا كان بها أهل أبيات منهم، وشب الغلام، وتعلم العربية منهم، وأنفسهم وأعجبهم حين شب، فلما أدرك زوجوه امرأة منهم، وماتت أم إسماعيل، فجاء إبراهيم، بعد ما تزوج إسماعيل يطالع تركته، فلم يجد إسماعيل، فسأل امرأته عنه فقالت خرج يبتغى لنا. ثم سألها عن عيشهم وهيئتهم فقالت نحن بشر، نحن فى ضيق وشدة. فشكت إليه. قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، وقولى له يغير عتبة بابه. فلما جاء إسماعيل، كأنه آنس شيئا، فقال هل جاءكم من أحد قالت نعم، جاءنا شيخ كذا وكذا، فسألنا عنك فأخبرته، وسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا فى جهد وشدة. قال فهل أوصاك بشئ قالت نعم، أمرنى أن أقرأ عليك السلام، ويقول غير عتبة بابك. قال ذاك أبى وقد أمرنى أن أفارقك الحقى بأهلك. فطلقها، وتزوج منهم أخرى، فلبث عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد، فلم يجده، فدخل على امرأته، فسألها عنه. فقالت خرج يبتغى لنا. قال كيف أنتم وسألها عن عيشهم، وهيئتهم. فقالت نحن بخير وسعة. وأثنت على الله. فقال ما طعامكم قالت اللحم. قال فما شرابكم قالت الماء. فقال اللهم بارك لهم فى اللحم والماء. قال النبى ﷺ: ولم يكن لهم يومئذ حب، ولو كان لهم دعا لهم فيه ، قال فهما لا يخلو عليهما أحد بغير مكة إلا لم يوافقاه. قال فإذا جاء زوجك فاقرئى عليه السلام، ومريه يثبت عتبة بابه، فلما جاء إسماعيل قال هل أتاكم من أحد قالت نعم أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألنى عنك فأخبرته، فسألنى كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير. قال فأوصاك بشئ قالت نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك. قال ذاك أبى، وأنت العتبة، أمرنى أن أمسكك. ثم لبث

=

=

عنهم ما شاء الله، ثم جاء بعد ذلك، وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحة قريبا من زمزم، فلما رآه قام إليه، فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد، ثم قال يا إسماعيل، إن الله أمرنى بأمر. قال فاصنع ما أمرك ربك. قال وتعيننى قال وأعينك. قال فإن الله أمرنى أن أبنى ها هنا بيتا. وأشار إلى أكمة مرتفعة على ما حولها. قال فعند ذلك رفعا القواعد من البيت، فجعل إسماعيل يأتى بالحجارة، وإبراهيم يبنى، حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له، فقام عليه وهو يبنى، وإسماعيل يناوله الحجارة، وهما يقولان: {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}، قال فجعلا يبنيان حتى يدورا حول البيت، وهما يقولان {ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم}".

قوله تعالى: {رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ} [إبراهيم: ٣٨].

أي: يا ربنا إنك انت العالم بما في القلوب، تعلم ما نسر وما نظهر.

قال البغوي: أي: " من أمورنا".

قال الطبري: يقول:"ربنا إنك تعلم ما تخفي قلوبنا عند مسألتنا ما نسألك، وفي غير ذلك من أحوالنا، وما نعلن من دعائنا، فنجهر به وغير ذلك من أعمالنا".

قال الزمخشري:"النداء المكرر دليل التضرع واللجأ إلى الله تعالى، {إنك تعلم ما نخفي وما نعلن}، تعلم السر كما تعلم العلن علما لا تفاوت فيه، لأن غيبا من الغيوب لا يحتجب عنك. والمعنى: أنك أعلم بأحوالنا وما يصلحنا وما يفسدنا منا، وأنت أرحم بنا وأنصح لنا منا بأنفسنا ولها، فلا حاجة إلى الدعاء والطلب، وإنما ندعوك إظهارا للعبودية لك، وتخشعا لعظمتك، وتذللا لعزتك، وافتقارا إلى ما عندك، واستعجالا لنيل أياديك، وولها إلى رحمتك، وكما يتملق العبد بين يدي سيده، ورغبة في إصابة معروفه، مع توفر السيد على حسن الملكة. وعن بعضهم: أنه رفع حاجته إلى كريم فأبطأ عليه النجح، فأراد أن يذكره فقال: مثلك

=

=

لا يذكر استقصارا ولا توهما للغفلة عن حوائج السائلين، ولكن ذا الحاجة لا تدعه حاجته أن لا يتكلم فيها. وقيل: ما نخفى من الوجد لما وقع بيننا من الفرقة، وما نعلن من البكاء والدعاء. وقيل: ما نخفى من كآبة الافتراق، وما نعلن: يريد ما جرى بينه وبين هاجر حين قالت له عند الوداع: إلى من تكلنا؟ قال: إلى الله أكلكم. قالت: آلله أمرك بهذا؟ قال: نعم. قالت: إذن لا نخشى، تركتنا إلى كاف".

وروي عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله: " {ربنا إنك تعلم ما نخفي}، من حب إسماعيل وأمه، {وما نعلن}، قال: وما نظهر من الجفاء لهما".

قال ابن عطية:"مقصد إبراهيم عليه السلام بقوله: {رَبَّنا إِنَّكَ تَعْلَمُ ما نُخْفِي وَما نُعْلِنُ}، التنبيه على اختصاره في الدعاء، وتفويضه إلى ما علم الله من رغائبه وحرصه على هداية بنيه والرفق بهم وغير ذلك".

قوله تعالى: {وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} [إبراهيم: ٣٨].

أي: لا يغيب عليه تعالى شيء في الكائنات، سواء منها ما كان في الأرض أو في السماء!! وكيف تخفى عليه وهو خالقها وموجدها؟

قوله تعالى: (لا يخفى عليه شيء) تحذير من مخالفته سرا وجهرا.

-قال الخازن: قيل: هذا من تتمة قول إبراهيم يعني وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان وقال الأكثرون: إنه من قول الله تعالى تصديقا لإبراهيم فيما قال: فهو كقوله وكذلك يفعلون.

-قال الشوكاني: وأما قوله: (وما يخفى على الله من شيء في الأرض ولا في السماء) فقال جمهور المفسرين: هو من كلام الله سبحانه تصديقا لما قاله إبراهيم من أنه سبحانه يعلم ما يخفيه العباد وما يعلنونه، فقال سبحانه (وما يخفى على الله شيء) من الأشياء الموجودة كائنا ما كان.

=

=

وإنما ذكر السموات والأرض لأنها المشاهدة للعباد، وإلا فعلمه سبحانه محيط بكل ما هو داخل في العالم، وكل ما هو خارج عنه لا تخفى عليه منه خافية.

قيل: ويحتمل أن يكون هذا من قول إبراهيم تحقيقا لقوله الأول، وتعميما بعد التخصيص.

قال الطبري: أي:"وما يخفى عليك يا ربنا من شيء يكون في الأرض ولا في السماء، لأن ذلك كله ظاهر لك متجل باد، لأنك مدبره وخالقه، فكيف يخفى عليك".

قال الزمخشري: هذا " من كلام الله ﷻ تصديقا لإبراهيم عليه السلام، كقوله {وَكَذَلِكَ يَفْعَلُون} [النمل: ٣٤]، أو من كلام إبراهيم، يعنى: وما يخفى على الله الذي هو عالم الغيب من شيء في كل مكان. «ومن» للاستغراق، كأنه قيل: وما يخفى عليه شيء ما".

الفوائد:

قوله تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ} [إبراهيم: ٣٩].

أي: الثناء الكامل لله تعالى محبة وتعظيما، فهو المستحق الحمد كله، وله الحمد كله.

(الذي وهب لي) أي: أعطاني ورزقني، (على الكبر) على كبر سني وحال الإياس من الأولاد.

-قال أبو حيان: وإنما ذكر حال الكبر لأن المنة فيها بهبة الولد أعظم من حيث أن الكبر مظنة اليأس من الولد، فإن مجيء الشيء بعد الإياس أحلى في النفس وأبهج لها.

(إسماعيل وإسحق) حيث ولد له إسماعيل وعمر إبراهيم ست وثمانون سنة،

=

=

وولد له إسحاق وعمره مائة سنة.

-قال الخازن: فإن قلت: كيف جمع بين إسماعيل وإسحاق في الدعاء في وقت واحد وإنما بشر بإسحاق بعد إسماعيل بزمان طويل؟ قلت: يحتمل أن إبراهيم عليه السلام إنما أتى بهذا الدعاء عندما بشر بإسحاق وذلك أنه لما عظمت المنة على قلبه بهبة ولدين عظيمين عند كبره قال عند ذلك الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق ولا يرد على هذا ما ورد في الحديث أنه دعا بما تقدم عند مفارقة إسماعيل وأمه لأن الذي صح في الحديث أنه دعا بقوله ربنا إني أسكنت ذريتي إلى قوله لعلهم يشكرون إذا ثبت هذا فيكون قوله الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق في وقت آخر والله أعلم بحقيقة الحال.

قال الطبري:"يقول: الحمد لله الذي رزقني على كبر من السن ولدا إسماعيل وإسحاق".

قال الزمخشري:"وإنما ذكر حال الكبر لأن المنة بهبة الولد فيها أعظم، من حيث أنها حال وقوع اليأس من الولادة. والظفر بالحاجة على عقب اليأس من أجل النعم وأحلاها في نفس الظافر، ولأن الولادة في تلك السن العالية كانت آية لإبراهيم".

قوله تعالى: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: ٣٩]، أي:"إن ربي لمجيبٌ لدعاء من دعاه".

قال الطبري:"يقول: إن ربي لسميع دعائي الذي أدعوه به، وقولي: {اجعل هذا البلد آمنا واجنبني وبني أن نعبد الأصنام}، وغير ذلك من دعائي ودعاء غيري، وجميع ما نطق به ناطق لا يخفى عليه منه شيء".

قال ابن تيمية: "أما قول إبراهيم عليه السلام: إن ربي لسميع الدعاء فالمراد بالسمع هاهنا السمع الخاص، وهو سمع الإجابة والقبول، لا السمع العام؛ لأنه

=

=

سميع لكل مسموع".

قال ابن كثير:"أي: إنه ليستجيب لمن دعاه، وقد استجاب لي فيما سألته من الولد".

قال الزمخشري:"كان قد دعا ربه وسأله الولد، فقال: رب هب لي من الصالحين، فشكر لله ما أكرمه به من إجابته فإن قلت: الله تعالى يسمع كل دعاء، أجابه أو لم يجبه. قلت: هو من قولك: سمع الملك كلام فلان إذا اعتد به وقبله. ومنه: سمع الله لمن حمده. وفي الحديث «ما أذن الله لشيء كإذنه لنبي يتغنى بالقرآن".

فإن قلت: ما هذه الإضافة إضافة السميع إلى الدعاء؟

قلت: إضافة الصفة إلى مفعولها، وأصله: لسميع الدعاء".

قال ابن عباس: "ولد إسماعيل لإبراهيم وهو ابن تسع وتسعين سنة، وولد إسحاق وهو ابن مائة واثنتي عشرة سنة".

وقال سعيد بن جبير: "بشر إبراهيم بعد سبع عشرة ومئة سنة".

وعن ابن عباس في قوله: " {الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق}، قال: هذا بعد ذاك بحين".

عن الشعبي رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قال: "ما يسرني بنصيبي من دعوة نوح وإبراهيم للمؤمنين والمؤمنات حمر النعم".

قوله تعالى: {رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ} [إبراهيم: ٤٠]، أي:"رب اجعلني مداومًا على أداء الصلاة على أتم وجوهها".

قال الطبري:"يقول: رب اجعلني مؤديا ما ألزمتني من فريضتك التي فرضتها علي من الصلاة".

قال ابن كثير:"أي: محافظا عليها مقيما لحدودها".

قال السمعاني:"يعني: ممن يقيم الصلاة بحدودها وأركانها، ويحافظ عليها".

=

=

قولـه تعـالى: {وَمِـنْ ذُرِّيَّتِـي} [إبـراهيم: ٤٠]، أي:"رب واجعـل مـن ذريتـي مَـن يحافظ على الصلاة".

قال أبـو عبيـدة والزجـاج وانـب أبـي زمنين: معنـاه:"واجعـل مـن ذرّيّتـى مـن يقـيم الصلاة".

قال ابن كثير:"أي: واجعلهم كذلك مقيمين الصلاة".

قال الطبري: أي: " واجعل أيضا من ذريتي مقيمي الصلاة لك".

و (من) في قوله (ومن ذريتي) اختلف فيها المفسرون إلى قولين:

القول الأول: وهو قول جماهير المفسرين ممـن تكلـم في هـذه المسألة، أن (مـن) هنـا للتبعـيض، قـالوا وهـو تـأدب مـن إبـراهيم الخليـل عليـه الـسلام في دعائـه الله سبحانه وتعالى، حيث كـان يعلـم أن حكمـة الله اقتـضت وجـود المـؤمن والكـافر، والظالـم والمحسن، فكان دعاؤه مراعيا لما يعلمه مـن حكمـة الله وسنته في خلقـه، كما قال سبحانه: (وباركنا عليه وعلى إسحاق ومن ذريتهما محسن وظـالم لنفسه مبين) الصافات/ ١١٣

قال الزمخشري في الكشاف: (ومن ذريتي) وبعض ذريتي، عطفـا علـى المنـصوب في (اجعلني)، وإنمـا بعـض لأنـه علـم بـإعلام الله أنـه يكـون في ذريتـه كفـار، وذلـك قوله: (لا ينال عهدي الظالمين) " انتهى.

وقال الرازي: (ومن ذريتي) أي: واجعل بعض ذريتـي كـذلك؛ لأن كلمـة «مـن» في قوله: ومن ذريتي للتبعيض، وإنما ذكر هذا التبعيض؛ لأنه علم بإعلام الله تعالى أنه يكـون في ذريتـه جمـع مـن الكفـار، وذلـك قولـه: لا ينـال عهـدي الظـالمين. وممـن اختاره: البيضاوي، والخازن، وأبو حيان، والألوسي.

وفي القرآن الكريم مواقف عديدة من دعاء إبراهيم عليـه الـسلام وتخصيـصه ذريتـه بشيء من الدعاء، وفي كل منها يأتي حرف الجر (من)

=

=

فانظر قوله سبحانه في سورة البقرة: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) البقرة/ ١٢٤

وكذلك قوله سبحانه وتعالى: (ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم) البقرة/ ١٢٨

القول الثاني: عدم التسليم بكونها للتبعيض، فقد كان الأنبياء يدعون لأقوامهم بصيغة التعميم وهم يعلمون سنة الله في خلقه حين كتب في الناس المؤمن والكافر وكتب من المؤمنين أيضا من يعذب بسبب ذنوبه في النار ثم يخرج منها، ولم يكن ذلك اعتداء في الدعاء.

فهذا نوح عليه السلام يقول: (رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنا وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تبارا) نوح/ ٢٨

وإبراهيم عليه السلام أيضا يقول: (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) (ربنا اغفر لي ولوالدي وللمؤمنين يوم يقوم الحساب)، وكان نبينا محمد ﷺ يدعو ويقول: (اللهم أمتي أمتي) رواه مسلم (٢٠٢)

قالوا والأنبياء يسألون الله أكمل ما يحبون لأنفسهم وذرياتهم وأقوامهم، وإبراهيم عليه السلام يطمع أن تكون ذريته كلها موحدة، تعبد الله وتجتنب الأصنام، وإن كان الشرك لا بد وأن يكون على الأرض، ففي غير ذريته.

يقول العلامة الطاهر ابن عاشور: و (من) ابتدائية، وليست للتبعيض، لأن إبراهيم عليه السلام لا يسأل الله إلا أكمل ما يحبه لنفسه ولذريته.

ويجوز أن تكون (من) للتبعيض، بناء على أن الله أعلمه بأن يكون من ذريته فريق يقيمون الصلاة وفريق لا يقيمونها، أي: لا يؤمنون.

وهذا وجه ضعيف، لأنه يقتضي أن يكون الدعاء تحصيلا لحاصل، وهو بعيد، وكيف وقد قال (واجنبني وبني أن نعبد الأصنام) ولم يقل: ومن بني " انتهى.

=

=

وقال الشيخ العثيمين رحمه الله في تفسير البقرة: في قوله تعالى: (وإذ ابتلى إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماما قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين) البقرة/ ١٢٤:

قوله تعالى: (ومن ذريتي) أي واجعل من ذريتي إماما، وهنا (من) يحتمل أنها لبيان الجنس، وبناء على ذلك تصلح (ذريتي) لجميع الذرية، يعني: واجعل ذريتي كلهم أئمة، ويحتمل أنها للتبعيض " انتهى.

قوله تعالى: {رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ} [إبراهيم: ٤٠]، أي:"ربنا واستجب دعائي وتقبَّل عبادتي".

قال السمعاني:"أي: واستجب دعائي".

قال الزمخشري: اي:"عبادتي".

قال ابن كثير:"أي: فيما سألتك فيه كله".

قال الطبري:"يقول: ربنا وتقبل عملي الذي أعمله لك وعبادتي إياك".

قال مقاتل:"يقول: ربنا واستجب دعائي في إقامة الصلاة لنفسه ولذريته".

.

قوله تعالى: {رَبَّنَا اغْفِرْ لِي} [إبراهيم: ٤١]،أي:"ربنا اغفر لى ما فرط منى من الذنوب".

قال المراغي:"أي: ربنا اغفر لى ما فرط منى من الذنوب".

قوله تعالى: {وَلِوَالِدَيَّ} [إبراهيم: ٤١]،أي:"واغفر لأبوى".

قال مقاتل:"يعنى: أبويه".

قال الطبري:"وهذا دعاء من إبراهيم صلوات الله عليه لوالديه بالمغفرة، واستغفار منه لهما. وقد أخبر الله عز ذكره أنه لم يكن {اسْتِغْفَارُ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ} [التوبة:

=

=

١١٤]".

قال الزجاج:"هذا قبل أن يتبين لإبراهيم أن أباه عدو لله، فلما تبين له ذلك تبرأ منه، وقيل: إنه يعني بوالديه هنا «آدم وحواء»، وقيل أيضا: «ولولدي»، يعني: به إسماعيل وإسحاق، وهذه القراءة ليست بشيء، لأنها خلاف ما عليه أهل الأمصار من أهل القراءات".

قال ابن كثير:"كان هذا قبل أن يتبرأ من أبيه لما تبين له عداوته لله، ﷻ".

قال النسفي:"أي: آدم وحواء أو قاله قبل النهي واليأس عن إيمان أبويه".

قال السمعاني:"وفي تفسير الدمياطي: أن قوله: {ولوالدي} أي: لولدي، قال ابن فارس: ويجوز هذا في اللغة، وهو أن يذكر الوالد بمعنى المولود، كما يقال: ماء دافق أي: مدفوق".

قال البغوي:"فإن قيل: كيف استغفر لوالديه وهما غير مؤمنين؟

قيل: قد قيل إن أمه أسلمت.

وقيل: أراد إن أسلما وتابا.

وقيل: قال ذلك قبل أن يتبين له أمر أبيه، وقد بين الله تعالى عذر خليله ﷺ في استغفاره لأبيه في سورة التوبة".

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف جاز له أن يستغفر لأبويه وكانا كافرين؟

قلت:..... وقيل: أراد بوالديه آدم وحواء. وقيل: بشرط الإسلام. ويأباه قوله إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك لأنه لو شرط الإسلام لكان استغفارا صحيحا لا مقال فيه، فكيف يستثنى الاستغفار الصحيح من جملة ما يؤتسى فيه بإبراهيم".

قراءة أبى: «ولأبوى». وقرأ سعيد بن جبير: «ولوالدي»، على الإفراد، يعنى: أباه. وقرأ الحسن بن على رضي الله عنهما: «ولولدى»، يعنى: إسماعيل وإسحاق. وقرئ: «لولدي»، بضم الواو. و «الولد» بمعنى: الولد، كالعدم والعدم. وقيل: جمع ولد،

=

=

كأسد في أسد.

قوله تعالى: {وَلِلْمُؤْمِنِينَ} [إبراهيم: ٤١]،أي:"واغفر للمؤمنين بك ممن تبعني على الدين الذي أنا عليه، فأطاعك فى أمرك ونهيك".

قال ابن كثير:"أي: كلهم".

قال الطبري:"يقول: وللمؤمنين بك ممن تبعني على الدين الذي أنا عليه، فأطاعك في أمرك ونهيك".

قوله تعالى: {يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ} [إبراهيم: ٤١]،أي:"يوم تحاسب عبادك فتجازيهم بأعمالهم إن خيرا فخير، وإن شرا فشر".

قال ابن كثير:"أي: يوم تحاسب عبادك فتجزيهم بأعمالهم، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر".

قال الطبري:"يعني: يقوم الناس للحساب، فاكتفى بذكر الحساب من ذكر الناس، إذ كان مفهوما معناه".

قال الزجاج:"يعني: يوم القيامة".

قال الزمخشري:"{يوم يقوم الحساب}، أى: يثبت، وهو مستعار من: قيام القائم على الرجل، والدليل عليه قولهم: قامت الحرب على ساقها. ونحوه قولهم: ترجلت الشمس: إذا أشرقت وثبت ضوؤها، كأنها قامت على رجل. ويجوز أن يسند إلى «الحساب» قيام أهله إسنادا مجازيا، أو يكون مثل «وسئل القرية»".

قال مجاهد:"قد استجاب الله له فيما سأل، فلم يعبد أحد من ولده صنما بعد دعوته، وجعل البلد آمنا، ورزق أهله من الثمرات. وجعله إماما، وجعل في ذريته من يقيم الصلاة، وأراه مناسكه، وتاب عليه".

عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: "كانت الطائف من أرض فلسطين، فلما قال إبراهيم ربنا إني أسكنت الآية، رفعها الله فوضعها حيث وضعها رزقا للحرم".

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢).

{وَلَا تَحْسَبَن اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَل الظَّالِمُونَ} الْكَافِرُونَ مِنْ أَهْل مَكَّة {إِنَّمَا يُؤَخِّرهُمْ} بِلَا عَذَاب {لِيَوْمٍ تَشْخَص فِيهِ الْأَبْصَار} لِهَوْلِ مَا تَرَى يُقَال شَخَصَ بَصَرُ فُلَانٍ أَيْ فَتَحَهُ فلم يغمضه.

مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣).

{مهطعين} مسرعين حال {مقنعي} رافعي {رؤوسهم} إلى السماء {لايرتد إلَيْهِمْ طَرْفهمْ} بَصَرهمْ {وَأَفْئِدَتهمْ} قُلُوبهمْ {هَوَاء} خَالِيَة مِنْ الْعَقْل لِفَزَعِهِمْ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ} [إبراهيم: ٤٢]، أي:"ولا تحسبن -أيها الرسول- أن الله غافل عما يعمله الظالمون: من التكذيب بك وبغيرك من الرسل، وإيذاء المؤمنين وغير ذلك من المعاصي، لا تحسبنه إذا أنظرهم وأجلهم أنه غافل عنهم مهمل لهم لا يعاقبهم على صنعهم، بل هو يحصي ذلك ويعده عليهم عدا".

والخطاب يجوز أن يكون للنبي ﷺ لقصد زيادة تثبيته على الحق، ودوامه على ذلك، ويجوز أن يكون لكل من يصلح للخطاب.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {ولا تحسبن الله} يا محمد {غافلا} ساهيا {عما يعملْ هؤلاء المشركون من قومك، بل هو عالم بهم وبأعمالهم محصيا عليهم، ليجزيهم جزاءهم في الحين الذي قد سبق في علمه أن يجزيهم فيه".

قال ميمون بن مهران:"هي وعيد للظالم وتعزية للمظلوم".

-قال ابن عطية: هذه الآية بجملتها فيها وعيد للظالمين، وتسلية للمظلومين.

=

=

-وقال القرطبي: قوله تعالى (ولا تحسبن الله غافلا عما يعمل الظالمون...) هذا تسلية للنبي ﷺ بعد أن عجبه من أفعال المشركين، ومخالفتهم دين إبراهيم، أي: اصبر كما صبر إبراهيم، وأعلم المشركين أن تأخير العذاب ليس للرضا بأفعالهم، بل سنة الله إمهال العصاة مدة. قال ميمون بن مهران: هذا وعيد للظالم. وتعزية للمظلوم.

قال الزمخشري:"فإن قلت: يتعالى الله عن السهو والغفلة، فكيف يحسبه رسول الله ﷺ وهو أعلم الناس به غافلا حتى قيل ولا تحسبن الله غافلا؟

قلت: إن كان خطابا لرسول الله ﷺ ففيه وجهان:

أحدهما: التثبيت على ما كان عليه من أنه لا يحسب الله غافلا، كقوله: {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِين} [الأنعام: ١٤/ يونس: ١٠٥/ القصص: ٨٧]، {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ} [القصص: ٨٨]، كما جاء في الأمر: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ} [النساء: ١٣٦].

والثاني: أن المراد بالنهى عن حسبانه غافلا، الإيذان بأنه عالم بما يفعل الظالمون، لا يخفى عليه منه شيء، وأنه معاقبهم على قليله وكثيره على سبيل الوعيد والتهديد كقوله: {وَاللهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ} [البقرة: ٢٨٣، النور: ٢٨]، يريد الوعيد.

ويجوز أن يراد: ولا تحسبنه يعاملهم معاملة الغافل عما يعملون، ولكن معاملة الرقيب عليهم، المحاسب على النقير والقطمير، وإن كان خطابا لغيره ممن يجوز أن يحسبه غافلا، لجهله بصفاته، فلا سؤال فيه.

وعن ابن عيينة: تسلية للمظلوم وتهديد للظالم، فقيل له. من قال هذا؟ فغضب وقال: إنما قاله من علمه".

قوله تعالى: {إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ} [إبراهيم: ٤٢]، أي:"إنما

=

=

يؤَخِّرُ عقابهم ليوم شديد ترتفع فيه عيونهم ولا تَغْمَض؛ مِن هول ما تراه".

قال الطبري:"يقول: إنما يؤخر عقابهم وإنزال العذاب بهم، إلى يوم تشخص فيه أبصار الخلق، وذلك يوم القيامة".

قال الزمخشري:"{تشخص فيه الأبصار}: أى أبصارهم لا تقر في أماكنها من هول ما ترى".

قال قتادة:"شخصت فيه والله أبصارهم، فلا ترتد إليهم".

-قال الخازن: يقال شخص بصر الرجل إذا بقيت عيناه مفتوحتين لا يطرفهما، وشخوص البصر يدل على الحيرة والدهشة من هول ما ترى في ذلك اليوم.

-قال الشنقيطي: بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه يؤخر عقاب الكفار إلى يوم تشخص فيه الأبصار من شدة الخوف وأوضح ذلك في قوله تعالى (واقترب الوعد الحق فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا) الآية. ومعنى شخوص الأبصار أنها تبقى منفتحة لا تغمض من الهول وشدة الخوف.

وقرئ: «يؤخرهم»، بالنون والياء.

قوله تعالى: {مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} [إبراهيم: ٤٣]، أي:"يوم يقوم الظالمون من قبورهم مسرعين لا يلتفتون إلى شيء رافعين رءوسهم مع إدامة النظر".

قال الزجاج: " المعنى: إنما يؤخرهم ليوم تشخص فيه أبصارهم مهطعين، أي: مسرعين".

واختلف في قوله تعالى: {مُهْطِعِينَ} [إبراهيم: ٤٣]، على وجوه:

أحدها: معناه: مسرعين. قاله سعيد بن جبير، والحسن، وقتادة، وأبو عبيدة، والزجاج، مأخوذ من: أهطع يهطع إهطاعًا، إذا أسرع، ومنه قوله تعالى: {مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ} [القمر: ٨]، أي: مسرعين. قال يزيد بن مفرّغ الحميريّ:

بِدِجْلَةَ أَهْلُهَا ولَقَد أراهُمْ ... بِدِجْلَةَ مُهْطِعِينَ إلى السّمَاعِ

=

=

وقال الآخر:

بمهطـــع ســـــرح كـــأنّ زمامـــه في رأس جـــذع مـــن أول مـــشذّب

وقال الشاعر:

بمـــستهطع رســـل كـــأنّ جديلـــه بقيـــدوم رعـــن مـــن صـــؤام ممنّـــع

الثاني: أنه الدائم النظر لا يطرف، قاله ابن عباس، والضحاك، وأبو الضحى.

وقال مجاهد:"مديمي النظر".

قال ابن منظور:"أهطع: أقبل على الشيء ببصره فلم يرفعه عنه".

الثالث: أنه المطرِق الذي لا يرفع رأسه، رواه ابن وهب عن ابن زيد.

وفي قوله تعالى: {مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ} [إبراهيم: ٤٣]، وجهان:

أحدهما: رافعي رؤوسهم، وإقناع الرأس رفْعُه، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وابن زيد، وأبو عبيدة، والزجاج، وابن جرير الطبري، والقرطبي.

قال القرطبي:"أي رافعي رؤسهم ينظرون في ذل. وإقناع الرأس رفعه".

ومنه قول الشاعر:

أنغـــض رأســـه نحـــوي وأقنعـــا كأنمـــا أبـــصَرَ شـــيئًا أطمعَـــا

وقول الشّمّاخ:

يبـــاكرن العـــضاه بمقنعـــات نواجـــذهن كالحـــدأ الوقيـــع

يصف إبلاً ترعى الشجر وأن أسنانها مرتفعة كالفؤوس.

قال قتادة:"«المقنع»: الذي يرفع رأسه شاخصا بصره لا يطرف".

قال القتيبي: " «المقنع»: الذي يرفع رأسه ويقبل ببصره على ما بين يديه، ومنه الإقناع في الصلاة".

=

=

قال الحسن:"وجوه الناس يوم القيامة إلى السماء لا ينظر أحد إلى أحد".

الثاني: ناكسي رؤوسهم بلغة قريش، قاله مؤرج السدوسي، وقتادة.

قال القرطبي:"قال المهدوي: ويقال أقنع إذا رفع رأسه، وأقنع إذا طأطأ رأسه ذلة وخضوعا، والآية محتملة الوجهين، وقاله المبرد، والقول الأول أعرف".

قوله تعالى: {لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ} [إبراهيم: ٤٣]، أي:"لا يطرفون بعيونهم من الخوف والجزع".

قال الطبري:"يقول: لا ترجع إليهم لشدة النظر أبصارهم".

عن ابن عباس:"{لا يرتد إليهم طرفهم}، قال: شاخصة أبصارهم".

قال القرطبي:"أي لا ترجع إليهم أبصارهم من شدة النظر فهي شاخصة النظر. يقال: طرف الرجل يطرف طرفا إذا أطبق جفنه على الآخر، فسمي النظر طرفا لأنه به يكون. والطرف العين. قال عنترة:

وأغض طرفي ما بدت لي جارتي حتى يواري جارتي مأواها

وقال جميل:

أقصر طرفي دون جمل كرامة لجمل وللطرف الذي أنا قاصره".

قوله تعالى: {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم: ٤٣]، أي:"وقلوبهم خالية من العقل لشدة الفزع".

وفي قوله تعالى: {وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ} [إبراهيم: ٤٣]، وجوه:

أحدها: أنها تتردد في أجوافهم ليس لها مكان تستقر فيه فكأنها تهوي، قاله سعيد بن جبير، ومجاهد. قال الشاعر:

كأن الرحل منها فوق صعل... من الظلمان جؤجؤه هواه

الثاني: أنها قد زالت عن أماكنها حتى بلغت الحناجر، فلا تنفصل ولا تعود، قاله قتادة.

=

وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ

=

وقال مقاتل: "وذلك أن الكفار إذا عاينوا النار شهقوا شهقة زالت منها قلوبهم عن أماكنها فتنشب في حلوقهم، فصارت قلوبهم «هواء» بين الصدور والحناجر فلا تخرج من أفواههم ولا ترجع إلى أماكنها فذلك قوله- سبحانه-: في «حم» المؤمن: {إِذِ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِين} [غافر: ١٨]، يعني: مكروبين، فلما بلغت القلوب الحناجر ونشبت في حلوقهم انقطعت أصواتهم وغصت ألسنتهم".

الثالث: أنها المتخرقة التي لا تعي شيئًا، قاله مُرّة. وبه قال الزجاج.

الرابع: أنها خالية من الخير، وما كان خاليًا فهو هواء، فهي كالخربة. قاله ابن عباس، ومجاهد، وأبو صالح.

وقال ابن زيد: «الأفئدة»: القلوب، «هواء»: كما قال الله، ليس فيها عقل ولا منفعة".

الخامس: معناه: جوف، ولا عقول لهم، قاله أبو عبيدة، واستشهد بقول حسّان بن ثابت:

ألا أبلـــغ أبـــا ســـفيان عنـــي   فأنـــت مجـــوّف نخـــب هـــواء

وقول الآخر:

ولا تــك مــن أخــدان كــل يراعــة   هـواء كسقب البان جوف مكاسرة.

قال الطبري: "وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب في تأويل ذلك قول من قال: معناه: أنها خالية ليس فيها شيء من الخير، ولا تعقل شيئا، وذلك أن العرب تسمي كل أجوف خاو: هواء".

(٤٤).

{وَأَنْذِرْ} خَوِّفْ يَا مُحَمَّد {النَّاس} الْكُفَّار {يَوْم يَأْتِيهِمْ الْعَذَاب} هُوَ يَوْم الْقِيَامَة {فَيَقُول الَّذِينَ ظَلَمُوا} كَفَرُوا {رَبّنَا أَخِّرْنَا} بِأَنْ تَرُدّنَا إِلَى الدُّنْيَا {إِلَى أَجَل قَرِيب نُجِبْ دَعْوَتك} بِالتَّوْحِيدِ {ونتبع الرسل} فيقال لهم توبيخا {أو لم تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ} حَلَفْتُمْ {مِنْ قَبْل} فِي الدُّنْيَا {مَا لَكُمْ مِنْ} زَائِدَة {زَوَال} عَنْهَا إِلَى الآخرة.

وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥).

{وَسَكَنْتُمْ} فِيهَا {فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسهمْ} بِالْكُفْرِ مِنْ الْأُمَم السَّابِقَة {وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ} مِنْ الْعُقُوبَة فَلَمْ تَنْزَجِرُوا {وَضَرَبْنَا} بَيَّنَّا {لَكُمُ الْأَمْثَال} فِي الْقُرْآن فَلَمْ تَعْتَبِرُوا.

وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦).

{وَقَدْ مَكَرُوا} بِالنَّبِيِّ ﷺ {مَكْرهمْ} حَيْثُ أَرَادُوا قَتْله أَوْ تَقْيِيده أَوْ إِخْرَاجه {وَعِنْد الله مَكْرهمْ} أَيْ عِلْمه أَوْ جَزَاؤُهُ {وَإِنْ} مَا {كَانَ مَكْرهمْ} وَإِنْ عَظُمَ {لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَال} الْمَعْنَى لَا يَعْبَأ بِهِ وَلَا يَضُرّ إِلَّا أَنْفُسهمْ وَالْمُرَاد بِالْجِبَالِ هُنَا قِيلَ حَقِيقَتهَا وَقِيلَ شَرَائِع الْإِسْلَام الْمُشَبَّهَة بِهَا فِي الْقَرَار وَالثَّبَات وَفِي قِرَاءَةٍ بِفَتْحِ لَام لَتَزُولَ وَرَفْع الْفِعْل فَإِنْ مُخَفَّفَة وَالْمُرَاد تَعْظِيم مَكْرهمْ وَقِيلَ الْمُرَاد بِالْمَكْرِ كُفْرهمْ وَيُنَاسِبهُ عَلَى الثَّانِيَة {تَكَاد السَّمَاوَات يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقّ الْأَرْض

وَتَخِرّ الْجِبَال هَدًّا} وَعَلَى الْأَوَّل مَا قُرِئَ وما كان(١).

---

(١) قوله تعالى: {وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ} [إبراهيم: ٤٤]، أي:"وأنذر – أيها الرسول– الناس الذين أرسلتُكَ إليهم عذاب الله يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وأنذر يا محمد الناس الذين أرسلتك إليهم داعيا إلى الإسلام ما هو نازل بهم، يوم يأتيهم عذاب الله في القيامة".

قال قتادة:"يقول: أنذرهم في الدنيا قبل أن يأتيهم العذاب".

قال الزمخشري:"أو أريد بـ «اليوم»: يوم هلاكهم بالعذاب العاجل، أو يوم موتهم معذبين بشدة السكرات ولقاء الملائكة بلا بشرى، وأنهم يسألون يومئذ أن يؤخرهم ربهم إلى أجل قريب، كقوله لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق".

قوله تعالى: {فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ} [إبراهيم: ٤٤]، أي:"وعند ذلك يقول الذين ظلموا أنفسهم بالكفر: ربنا أَمْهِلْنا إلى وقت قريب".

قال الطبري:"يقول: فيقول الذين كفروا بربهم، فظلموا بذلك أنفسهم (ربنا أخرنا) أي أخر عنا عذابك، وأمهلنا {إلى أجل قريب..".

قال الزمخشري:"معنى أخرنا إلى أجل قريب ردنا إلى الدنيا وأمهلنا إلى أمد وحد من الزمان قريب، نتدارك ما فرطنا فيه من إجابة دعوتك واتباع رسلك".

قال البغوي:"أمهلنا، {إلى أجل قريب} هذا سؤالهم إلى الدنيا، أي: ارجعنا إليها".

عن مجاهد:"{فيقول الذين ظلموا ربنا أخرنا إلى أجل قريب}، قال: مدة يعملون فيها من الدنيا".

قال الواحدي:"استمهلوا مدَّةً يسيرة".

قوله تعالى: {نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ} [إبراهيم: ٤٤]، أي:"نجب دعوتك لنا إِلى الإِيمان ونتّبع رسلك فيما جاءونا به".

=

=

قال الطبري:"فنؤمن بك، ولا نشرك بك شيئا، ونصدق رسلك فنتبعهم على ما دعوتنا إليه من طاعتك واتباع أمرك".

قال الواحدي:"كي يجيبوا الدَّعوة".

قوله تعالى: {أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} [إبراهيم: ٤٤]، أي:"ألم تحلفوا أنكم باقون في الدنيا لا تنتقلون إلى دار أخرى؟".

قال الطبري:"وهذا تقريع من الله تعالى ذكره للمشركين من قريش، بعد أن دخلوا النار بإنكارهم في الدنيا البعث بعد الموت، يقول لهم: إذ سألوه رفع العذاب عنهم، وتأخيرهم لينيبوا ويتوبوا {أولم تكونوا} في الدنيا {أقسمتم من قبل ما لكم من زوال}، يقول: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، وإنكم إنما تموتون، ثم لا تبعثون".

قال ابن كثير:"أي: أو لم تكونوا تحلفون من قبل هذه الحال: أنه لا زوال لكم عما أنتم فيه، وأنه لا معاد ولا جزاء، فذوقوا هذا بذاك".

قال الواحدي: أي:"حلفتم في الدُّنيا أنَّكم لا تُبعثون ولا تنتقلون إلى الآخرة وهو قوله: {وَأَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لا يَبْعَثُ الله من يموت} الآية".

وفي قوله تعالى: {أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ} [إبراهيم: ٤٤]، وجهان:

أحدهما: ما لكم من انتقال من الدنيا إلى الآخرة، قاله مجاهد.

الثاني: ما لكم من زوال عن العذاب، قاله الحسن.

قال الزمخشري:"{أولم تكونوا أقسمتم}، على إرادة القول، وفيه وجهان: أن يقولوا ذلك بطرا وأشرا، ولما استولى عليهم من عادة الجهل والسفه، وأن يقولوه بلسان الحال حيث بنوا شديدا وأملوا بعيدا".

قوله تعالى: {وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [إبراهيم: ٤٥]،

=

=

أي:"وحللتم في مساكن الكافرين السابقين الذين ظلموا أنفسهم كقوم هود وصالح".

قال البغوي:"{وسكنتم} في الدنيا، {في مساكن الذين ظلموا أنفسهم} بالكفر والعصيان، قوم نوح وعاد وثمود وغيرهم".

قال قتادة:"سكن الناس في مساكن قوم نوح وعاد وثمود. وقرون بين ذلك كثيرة ممن هلك من الأمم".

قوله تعالى: {وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ} [إبراهيم: ٤٥]، أي:"وعلمتم -بما رأيتم وأُخبرتم- ما أنزلناه بهم من الهلاك".

قال مقاتل:"يقول: كيف عذبناهم".

قال ابن أبي زمنين: أي: " كيف أهلكناهم؛ يخوفهم بذلك".

قال البغوي:"أي: بينا أن مثلكم كمثلهم".

قال السمعاني:"يعني: عرفتم عقوبتنا إياهم".

قوله تعالى: {وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ} [إبراهيم: ٤٥]، أي:"وضربنا لكم الأمثال في القرآن، فلم تعتبروا؟".

قال البغوي:"أي: عرفتم عقوبتنا إياهم".

قال السمعاني:"أي: الأشباه، ومعناه: بينا أن مثلكم كمثلهم".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: وصفنا لكم عذاب الأمم الخالية؛ يخوف كفار مكة".

قال مقاتل:"يعني: ووصفنا لكم الأشياء، يقول: وبينا لكم العذاب لتوحدوا ربكم- ﷻ- يخوف كفار مكة بمثل عذاب الأمم الخالية لئلا يكذبوا بمحمد- ﷺ-".

عن قتادة:"{وتبين لكم كيف فعلنا بهم وضربنا لكم الأمثال}، قال: قد والله بعث الله رسله وأنزل كتبه وضرب لكم الأمثال، فلا يصم فيها إلا الأصم، ولا يخيب

=

=

فيها إلا الخائب فاعقلوا عن الله أمره".

قوله تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ} [إبراهيم: ٤٦]، أي:"مكر المشركون بالرسول وبالمؤمنين حين أرادوا قتله".

قال علي-رضي الله عنه-:"الغدر: مكر، والمكر كفر".

وفي قوله تعالى: {وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ} [إبراهيم: ٤٦]، قولان:

أحدهما: أنه عنى بالمكر الشرك، رواه عليّ عن ابن عباس، وبه قال قتادة، والضحاك.

قال قتادة:"ذلك حين دعوا لله ولدا. وقال في آية أخرى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا}".

الثاني: أنه عنى به العتو والتجبّر، وهي فيمن تجبر في ملكه وصعد مع النسرين في الهواء، قاله علي رضي الله عنه، وسعيد بن جبير، ومجاهد.

قال علي-رضي الله عنه-:"كان ملك فره أخذ فروخ النسور، فعلفها اللحم حتى شبَّت واستعلجت واستغلظت. فقعد هو وصاحبه في التابوت وربطوا التابوت بأرجل النسور، وعلقوا اللحم فوق التابوت، فكانت كلما نظرت إلى اللحم صعدت وصعدت، فقال لصاحبه: ما ترى؟ قال: أرى الجبال مثل الدخان، قالا ما ترى؟ قال: ما أرى شيئا، قال: ويحك صوّب صوّب، قال: فذلك قوله: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}".

وفي رواية عن علي-رضي الله عنه-:"أخذ ذلك الذي حاجّ إبراهيم في ربه نسرين صغيرين فرباهما، ثم استغلظا واستعلجا وشبَّا، قال: فأوثق رجل كلّ واحد منهما بوتد إلى تابوت، وجوّعهما، وقعد هو ورجل آخر في التابوت، قال: ورفع في التابوت عصا على رأسه اللحم، قال: فطارا، وجعل يقول لصاحبه: انظر ماذا ترى؟ قال: أرى كذا وكذا، حتى قال: أرى الدنيا كأنها ذباب، فقال: صوّب العصا، فصوّبها فهبطا،

=

=

قال: فهو قول الله تعالى {وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ} ـ قال أبو إسحاق: وكذلك في قراءة عبد الله {وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ}".

وقال ابن عباس: "هو النمرود بن كنعان بن سنحاريب بن حام بن نوح بنى الصرح في قرية الرس من سواد الكوفة، وجعل طوله خمسة آلاف ذراع، وعرضه ثلاثة آلاف ذراع وخمسة وعشرين ذراعاً وصعد منه مع النسور، فلما علم أنه لا سبيل إلى السماء اتخذه حصناً وجمع فيه أهله وولده ليتحصن فيه، فأتى الله بنيانه من القواعد، فتداعى الصرح عليهم، فهلكوا جميعاً، فهذا معنى قوله {وقد مكروا مكرهم}".

وقال سعيد بن جبير:"نمرود صاحب النسور، أمر بتابوت فجعل وجعل معه رجلا ثم أمر بالنسور فاحتمل، فلما صعد قال لصاحبه: أي شيء ترى؟ قال: أرى الماء وجزيرة -يعني الدنيا- ثم صعد فقال لصاحبه: أي شيء ترى؟ قال: ما نزداد من السماء إلا بعدا، قال: اهبط -وقال غيره: نودي- أيها الطاغية أين تريد؟ قال: فسمعت الجبال حفيف النسور، فكانت ترى أنها أمر من السماء، فكادت تزول، فهو قوله: {وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبال}".

وقال مجاهد:"مكر فارس. وزعم أن بختنصر خرج بنسور، وجعل له تابوتا يدخله، وجعل رماحا في أطرافها واللحم فوقها. أراه قال: فعلت تذهب نحو اللحم حتى انقطع بصره من الأرض وأهلها، فنودي: أيها الطاغية أين تريد؟ ففرق: ثم سمع الصوت فوقه، فصوّب الرماح، فتصوّبت النسور، ففزعت الجبال من هدّتها، وكادت الجبال أن تزول منه من حسّ ذلك، فذلك قوله: {وَإِنْ كانَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ}".

وعن أبي مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: " {وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال}، قال: انطلق ناس وأخذوا هذه النسور فعلقوا عليها كهيئة التوابيت ثم أرسلوها في

=

=

السماء، فرأتها الجبال فظنت أنه شيء نزل من السماء فتحركت لذلك".

وقال السدي:"أمر الذي حاج إبراهيم في ربه بإبراهيم، فأخرج من مدينته فلقي لوطا على باب المدينة وهو ابن أخيه، فدعاه فآمن به وقال: إني مهاجر إلى ربي. وحلف نمرود إن يطلب إله إبراهيم، فأخذ أربعة فراخ من فراخ النسور، فرباهن بالخبز واللحم... حتى إذا كبرن وغلظن واستعلجن قرنهن بتابوت وقعد في ذلك التابوت، ثم رفع رجلا من لحم لهن، فطرن حتى إذا دهم في السماء أشرف فنظر إلى الأرض وإلى الجبال تدب كدبيب النمل، ثم رفع لهن اللحم ثم نظر، فرأى الأرض محيطا بها بحر كأنها فلكة في ماء، ثم رفع طويلا فوقع في ظلمة، فلم ير ما فوقه ولم ير ما تحته، فألقي اللحم فأتبعته منقضات، فلما نظرت الجبال إليهن قد أقبلن منقضات وسمعن حفيفهن، فزعت الجبال وكادت إن تزول من أمكنتها، ولم يفعلن. فذلك قوله: وقد مكروا مكرهم وعند الله مكرهم وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال وهي في قراءة عبد الله بن مسعود «وإن كاد مكرهم» فكان طيورهن به من بيت المقدس، ووقوعهن في جبال الدخان. فلما رأى أنه لا يطيق شيئا، أخذ في بنيان الصرح فبناه حتى أسنده إلى السماء، ارتقى فوقه ينظر يزعم إلى إله إبراهيم، فأحدث ولم يكن يحدث، وأخذ الله بنيانه {مِنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِنْ فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُون} [النحل: ٢٦]، يقول: من مأمنهم وأخذهم من أساس الصرح، فانتقض بهم... وسقط، فتبلبلت ألسنة الناس يومئذ من الفزع، فتكلموا بثلاثة وسبعين لسانا، فلذلك سمت بابل وكان قبل ذلك بالسريانية".

قال الثعلبي:"ذكره علي بن أبي طالب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- وغيره قالوا: نمرود الجبار الذي حاج إبراهيم في ربه قال: إن كان ما يقوله إبراهيم حقا فلا انتهي حتى أعلم ما في السماء، فعمد إلى أربعة أفراخ من النسور وعلفها اللحم ورباها حتى شبت

=

=

واستعلجت ثم قعد في تابوت وجعل معه رجلا آخر، وجعل له بابا من أعلى وبابا من أسفل وربط التابوت بأرجل النسور وعلق اللحم فوق التابوت على عصا ثم خلى النسور فطرن وصعدن طمعا في اللحم حتى بعدن في الهواء.

قال نمرود لصاحبه: افتح الباب الأول وانظر في السماء هل ترى منه شيئا ففتح ونظر، فقال: إن السماء كهيئتها ثم قال: افتح الباب الأسفل وانظر إلى الأرض كيف تراها ففعل ذلك فقال أرى الأرض مثل اللجة البيضاء، والجبال مثل الدخان، وطارت النسور وارتفعت حتى حالت بينها وبين التابوت فقال لصاحبه افتح البابين ففتح الأعلى فإذا السماء كهيئتها وفتح الأسفل فإذا الأرض سوداء مظلمة، ونودي: أيها الطاغية أين تريد.

قال عكرمة: كان معه في التابوت غلام قد حمل القوس والنشاب فرمى عليهم فعاد إليه السهم متلطخا بدم. فقال: كفيت نفسك إله السماء واختلفوا في ذلك السهم من أي شيء تلطخ.

قال عكرمة: سمكة فدت نفسها لله من بحر في الهواء معلق.

وقال بعضهم: من طائر من الطيور أصابه السهم.

قالوا: ثم أمر نمرود صاحبه أن يضرب العصا وأن ينكس اللحم ففعل ذلك فهبطت النسور بالتابوت فسمعت الجبال حفيف التابوت في النسور ففزعت وظنت أن قد حدث بها حدث في السماء أو أن القيامة قد قامت فذلك قوله: {وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال}".

قوله تعالى: {وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ} [إبراهيم: ٤٦]، أي:"وعند الله جزاء هذا المكر فإنه محيط بهم وبمكرهم".

وفي قوله تعالى: {وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ} [إبراهيم: ٤٦]، وجهان:

أحدهما: وعند الله مكرهم عالمـاً به لا يخفى عليه، حكاه الماوردي عن علي بن

=

=

عيسى.

الثاني: وعند الله مكرهم محفوظًا عليهم حتى يجازيهم عليه، قاله الحسن، وقتادة، والقشيري.

قال الثعلبي: معناه: " جزاء مكرهم".

قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [إبراهيم: ٤٦]، أي:"وإن كان مكرهم من القوة والتأثير حتى ليؤدي إلى زوال الجبال ولكنَّ الله عصَم ووقى منه".

قال الثعلبي:"أمر النبي ﷺ وأمر الإسلام وثبوته كثبوت الجبال الراسخة لأن الله وعده إظهار دينه على الأديان كلها، وقيل معناه: كان مكرهم".

وقال الحسن:"وإن كان مكرهم لأوهن وأضعف من أن تزول منه الجبال".

وقال الحسن:"أربع في القرآن: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ}، ما كان مكرهم لتزول منه الجبال، وقوله {لاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ} ما كنا فاعلين، وقوله {إِنْ كَانَ لِلرَّحْمَنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ} ما كان للرحمن ولد، وقوله {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ} ما مكناكم فيه. قال هارون: وحدثني بهنّ عمرو بن أسباط، عن الحسن، وزاد فيهنّ واحدة {فَإِنْ كُنْتَ فِي شَكٍّ} ما كنت في شكّ {مِمَّا أَنزلْنَا إِلَيْكَ}".

وفي قوله تعالى: {وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ} [إبراهيم: ٤٦]، قراءتان:

إحداهما: بكسر اللام الأولى وفتح الثانية: «لِتَزُولَ»، وهي قراءة عامَّة قرّاء الحجاز والمدينة والعراق ما خلا الكسائي، ومعناها: وما كان مكرهم لتزول منه الجبال، احتقاراً له، قاله ابن عباس والحسن.

الثانية: بفتح اللام الأولى وضم الثانية «لَتَزُولُ»، وهي قراءة الكسائي، ومعناها: وإن كان مكرهم لتزول منه الجبال استعظامًا له. وهي قراءة علي -رضي الله عنه-، وعبد

=

فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧).

{فَلَا تَحْسَبَنّ اللهَ مُخْلِف وَعْده رُسُله} بِالنَّصْرِ {إِنَّ الله عَزِيز} غَالِب لَا يَعْجِزهُ شَيْء {ذُو انْتِقَام} مِمَّنْ عَصَاهُ.

يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨).

اذْكُر {يَوْم تُبَدَّل الْأَرْض غَيْر الْأَرْض وَالسَّمَاوَات} هُوَ يَوْم الْقِيَامَة فَيُحْشَر النَّاس عَلَى أَرْض بَيْضَاء نَقِيَّة كَمَا فِي حَدِيث الصَّحِيحَيْنِ وَرَوَى مُسْلِم حَدِيث سُئِلَ النَّبِيّ ﷺ أَيْنَ النَّاس يَوْمئِذٍ قَالَ عَلَى الصِّرَاط {وبرزوا} خرجوا من القبور {لله الواحد القهار}.

وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩).

{وَتَرَى} يَا مُحَمَّد تُبْصِر {الْمُجْرِمِينَ} الْكَافِرِينَ {يَوْمئِذٍ مُقَرَّنِينَ} مَشْدُودِينَ مَعَ شَيَاطِينهمْ {فِي الْأَصْفَاد} الْقُيُود أو الأغلال.

سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠).

{سَرَابِيلهمْ} قُمُصُهُمْ {مِنْ قَطِرَان} لِأَنَّهُ أَبْلَغ لِاشْتِعَالِ النار {وتغشى} تعلو {وجوههم النار}.

=

الله بن مسعود، وأنس.

وقرأ عمر بن الخطاب، وعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود، وعبد الله بن عباس وأبيّ بن كعب رضي الله عنهم: «وَإِنْ كادَ مَكْرُهُمْ لَتَزُولُ مِنْهُ الجِبالُ».

وفي «الجبال» التي عنى زوالها بمكرهم قولان:

أحدهما: جبال الأرض.

الثاني: الإسلام والقرآن، لأنه لثبوته ورسوخه كالجبال.

لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١).

{لِيَجْزِيَ} مُتَعَلِّق بِبَرَزُوا {الله كُلّ نَفْس مَا كَسَبَتْ} مِنْ خَيْر وَشَرّ {إِنَّ الله سَرِيع الْحِسَاب} يُحَاسِب جَمِيع الْخَلْق فِي قَدْر نِصْف نَهَار مِنْ أَيَّام الدُّنْيَا لِحَدِيثٍ بِذَلِكَ(١).

---

(١) قوله تعالى: {فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ} [إبراهيم: ٤٧]، أي:"فلا تحسبن -أيها الرسول- أن الله يخلف رسله ما وعدهم به من النصر وإهلاك مكذبيهم".

قال تعالى (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا. ويوم يقوم الأشهاد).

وقال تعالى (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز).

والمعنى: لقد وعدناك- أيها الرسول الكريم- بعذاب الظالمين، وأخبرناك بجانب من العذاب الذي يحل بهم يوم القيامة، وما دام الأمر كذلك فاثبت على الحق أنت وأتباعك، وثق بأن الله- تعالى- لن يخلف ما وعدك به من نصر على أعدائك.

-قال ابن عطية (فلا تحسبن الله...) تثبيت للنبي عليه السلام ولغيره من أمته، ولم يكن النبي عليه السلام ممن يحسب مثل هذا، ولكن خرجت العبارة هكذا، والمراد بما فيها من الزجر من شارك النبي عليه السلام في أن قصد تثبيته.

قال الثعلبي: أي:"بالنصر لأوليائه وهلاك أعدائه".

قال ابن كثير:"أي: من نصرتهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد".

قال البغوي:"وفيه تقديم وتأخير، تقديره: ولا تحسبن الله مخلف رسله وعده".

قال القشيري:"أي: لا تحسبنّه يخلف رسله وعده لأنه لا يخلف الوعد لصدقه فى قوله، وله أن يعذبهم بما وعدهم لحقّه فى ملكه".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: {فلا تحسبن الله مخلف وعده} الذي وعدهم من كذبهم، وجحد ما أتوهم به من عنده، وإنما قاله تعالى ذكره لنبيه =

=

تثبيتا وتشديدا لعزيمته، ومعرفه أنه منزل من سخطه بمن كذبه وجحد نبوته، ورد عليه ما أتاه به من عند الله، مثال ما أنزل بمن سلكوا سبيلهم من
الأمم الذين كانوا قبلهم على مثل منهاجهم من تكذيب رسلهم وجحود نبوتهم ورد ما جاءوهم به من عند الله عليهم".

قال النسفي:"يعني: قوله: {إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا} [غافر: ٥١]، {كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة: ٢١]، {مخلف} مفعول ثان {لتحسبن} وأضاف {مخلف} إلى {وعده} وهو المفعول الثاني له والأول {رسله} والتقدير: مخلف رسله وعده. وإنما قدم المفعول الثاني على الأول، ليعلم انه لا يخاف الوعد أصلا كقوله: {إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ} [آل عمران: ٩/ الرعد: ٣١]، ثم قال: {رسله}، ليوذن أنه إذا لم يخلف وعده أحدا فكيف يخلفه رسله الذين هم خيرته وصفوته".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ} [إبراهيم: ٤٧]، أي:"إن الله عزيز لا يمتنع عليه شيء، منتقم من أعدائه أشد انتقام".

له العزة الكاملة، عزة القوة، وعزة القهر، وعزة الامتناع.

قال قتادة:"عزيز والله في أمره يملي وكيده متين، ثم إذا انتقم انتقم بقدره".

قال الطبري:"{عزيز} لا يمانع منه شيء أراد عقوبته، قادر على كل من طلبه، لا يفوته بالهرب منه. {ذو انتقام} ممن كفر برسله وكذبهم، وجحد نبوتهم، وأشرك به واتخذ معه إلها غيره".

قال النسفي:"{إن الله عزيز} غالب لا يماكر {ذو انتقام} لأوليائه من أعدائه".

قال ابن كثير:"ثم أخبر أنه ذو عزة لا يمتنع عليه شيء أراده، ولا يغالب، وذو انتقام ممن كفر به وجحده {وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ} [الطور: ١١]".

قوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم: ٤٨]،

=

=

أي:"وانتقام الله تعالى مِن أعدائه في يوم القيامة يوم تُبَدَّل هذه الأرض بأرض أخرى بيضاء نقيَّة كالفضة، وكذلك تُبَدَّل السموات بغيرها".

وممن اختار أن يوم ظرف للانتقام المذكور قبله: ابن جرير، وابن عطية، والسعدي.

وقيل: المعنى: اذكر يوم تبدل الأرض، وممن اختار هذا: القرطبي.

وقد حدثنا الرسول ﷺ عن صفة هذه الأرض الجديدة التي يكون عليها الحشر، فأخرج البخاري عن سهل بن سعد قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول (يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرصة النقي).

قال سهل أو غيره: ليس فيها معلم لأحد.

قال الخطابي: العفر: بياض ليس بناصع. وقال عياض: العفر بياض يضرب إلى حمرة قليلا.

وقال ابن فارس: معنى عفراء خالصة البياض.

والنقي: فتح النون وكسر القاف، أي: الدقيق النقي من الغش والنخال.

والمعلم: العلامة التي يهتدى بها إلى الطريق، كالجبل والصخرة، أو ما يضعه الناس دالا على الطرقات، أو على قسمة الأراضي.

قال ابن كثير:"أي: وعده هذا حاصل يوم تبدل الأرض غير الأرض، وهي هذه على غير الصفة المألوفة المعروفة، كما جاء في الصحيحين، من حديث أبي حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء، كقرصة النقي، ليس فيها معلم لأحد»".

قال مقاتل:"يقول: تبدل صورة الأرض التي عليها بنو آدم بأرض بيضاء نقية لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها معصية وهي أرض الصراط وعمق الصراط خمسمائة عام وتبدل السماوات فلا تكون شيئا".

=

=
قال ابن زيد:"هذا يوم القيامة، خلق سوى الخلق الأول".
قال أبو عبد الله الحليمي:"وأما قوله ﷻ: {يوم تبدل الأرض غير الأرض} فليس معناه أنها تجعل شيئا آخر سوى الأرض، فكون مكان الأرض مرفقا ليس بأرض. وإنما هو أنها تهيأ هيئة أخرى، حتى تكون المنظر غير هذه التي تشاهدونها، وهو الرجل بغير خلقه وسيرته مع صديقه، فيقول تبدلت وتغيرت، ولست الرجل الذي كنت، والله أعلم".
وفي قوله تعالى: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ} [إبراهيم: ٤٨]، وجوه من التفسير:
أحدها: أنها تبدل بأرض غيرها بيضاء كالفضة، لم تعمل عليها خطيئة، قاله ابن مسعود، ومجاهد.
قال عبد الله بن مسعود:"يجاء بأرض بيضاء كأنها سبيكة فضة لم يسفك فيها دم، ولم يعمل عليها خطيئة، قال: فأول ما يحكم بين الناس فيه في الدماء".
قال أنس بن مالك:"يبدلها الله يوم القيامة بأرض من فضة لم تعمل عليها الخطايا، ينزل الجبار تبارك وتعالى عليها".
وقال ابن عباس: "تبدل الأرض من فضة بيضاء".
الثاني: أنها تبدل أرضا من فضة. وهذا قول علي-رضي الله عنه، وابن عباس، وأنس.
قال علي:"الأرض من فضة، والجنة من ذهب".
قال أنس:"يبدلها الله يوم القيامة بأرض من فضة".
الثالث: أنها تبدل نارا. وهذا مروي عن عبد الله بن مسعود.
قال عبد الله:"الأرض كلها نار يوم القيامة، والجنة من ورائها ترى أكوابها وكواعبها، والذي نفس عبد الله بيده، إن الرجل ليفيض عرقا، حتى يرشح في الأرض قدمه، ثم يرتفع حتى يبلغ أنفه وما مسه الحساب، فقالوا: مم ذاك يا أبا عبد
=

=

الرحمن؟ قال: مما يرى الناس ويلقون".

الرابع: يبدلها خبزة. وهذا قول سعيد بن جبير، وهو مروي عن محمد بن كعب القرظي، أو عن محمد بن قيس -شكّ الراوي-.

قال سعيد بن جبير: "تبدل خبزة بيضاء يأكل المؤمن من تحت قدميه".

الخامس: أنها تبدل غير الأرض، ويصير مكان البحر النار. قاله كعب.

وقال الحسن: "أنها هي هذه الأرض، وإنما تبدل صورتها ويطهر دنسها".

عن أبي هريرة، أن رسول الله ﷺ قال: "يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات فيبسطها ويسطحها ويمدها مد الأديم العكاظي لا ترى فيها عوجا ولا أمتا، ثم يزجر الله الخلق زجرة واحدة فإذا هم في هذه الأرض المبدلة في مثل مواضعهم من الأولى ما كان في بطنها كان في بطنها وما كان على ظهرها كان على ظهرها، وذلك حين يطوي السماوات كطي السجل للكتاب، ثم يدحو بهما، ثم تبدل الأرض غير الأرض والسموات".

عن ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: «إذا كان يوم القيامة مدت الأرض مد الأديم. فإذا كان ذلك قبضت هذه السماء الدنيا على أهلها فنثروا على وجه الأرض، فإذا أهل السماء الدنيا أكثر من جميع أهل الأرض، فإذا رآهم أهل الأرض فزعوا، وقالوا: أفيكم ربنا؟ فيقولون: ليس فينا وهو آت. قال: ثم يقبض السماء الثانية -وساق إلى السماء السابعة- قال: فلأهل السماء السابعة وحدهم أكثر من أهل ست سماوات، ومن جميع أهل الأرض بالضعف، قال: ويجيء الله تعالى فيهم، والأمم جثا صفوف قال: فينادي مناد: ستعلمون اليوم من أصحاب الكرم».

قال عمرو بن ميمون الأودي: "يجمع الناس يوم القيامة في أرض بيضاء، لم يعمل فيها خطيئة مقدار أربعين سنة يلجمهم العرق".

قال الطبري: "وأولى الأقوال في ذلك بالصواب، قول من قال: معناه: يوم تبدل

=

=

الأرض التي نحن عليها اليوم يوم القيامة غيرها، وكذلك السماوات اليوم تبدل غيرها، كما قال جل ثناؤه، وجائز أن تكون المبدلة أرضا أخرى من فضة، وجائز أن تكون نارا وجائز أن تكون خبزا، وجائز أن تكون غير ذلك، ولا خبر في ذلك عندنا من الوجه الذي يجب التسليم له أي ذلك يكون، فلا قول في ذلك يصح إلا ما دل عليه ظاهر التنزيل".

وفي قوله تعالى: {وَالسَّمَاوَاتُ} [إبراهيم: ٤٨]، وجوه:

أحدها: أن السموات تبدل بغيرها كالأرض فتجعل السماء من ذهب، والأرض من فضة، قاله علي بن أبي طالب، ومجاهد.

الثاني: أن السموات تبدل بغيرها كالأرض، فتصير السموات جناناً والبحار نيراناً وتبدل الأرض بغيرها، قاله كعب الأحبار.

الثالث: أن تبديل السموات تكوير شمسها وتكاثر نجومها، قاله ابن عيسى.

الرابع: أن تبديل السماوات انتثار كواكبها وانفطارها وانشقاقها وتكوير شمسها وخسوف قمرها. قاله الزجاج.

أن تبديلها أن تطوى كطي السجل للكتب، قاله القاسم بن يحيى.

الخامس: أن تبديلها أن تنشق فلا تظل، قاله ابن شجرة.

السادس: أن تبديلها اختلاف أحوالها، تكون في حال كالمهل، وفي حال كالوردة، وفي حال كالدهان، حكاه ابن الأنباري.

قوله تعالى: {وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} [إبراهيم: ٤٨]، أي:"وتخرج الخلائق من قبورها أحياء ظاهرين للقاء الله الواحد القهار، المتفرد بعظمته وأسمائه وصفاته وأفعاله وقهره لكل شيء".

قال الزجاج:"أي: خرجوا من قبورهم بارزين".

قال ابن كثير:"أي: خرجت الخلائق جميعها من قبورهم لله {الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ}،

=

=

أي: الذي قهر كل شيء وغلبه، ودانت له الرقاب، وخضعت له الألباب".

قال الطبري:"يقول: وظهروا لله المنفرد بالربوبية، الذي يقهر كل شيء فيغلبه ويصرفه لما يشاء كيف يشاء، فيحيي خلقه إذا شاء، ويميتهم إذا شاء، لا يغلبه شيء، ولا يقهره من قبورهم أحياء لموقف القيامة".

قال مقاتل:"يقول: وخرجوا من قبورهم، ولا يستترون من الله بشيء في أرض مستوية مثل الأدم ممدودة ليس عليها جبل، ولا بناء، ولا نبت ولا شيء، {الواحد لا شريك له القهار} يعني: القاهر لخلقه".

عن عائشة سألت رسول الله عن هذه الآية: " {يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار} ، قالت: فأين الناس يومئذ، يا رسول الله، قال: سبقت الناس بالسؤال عن هذه الآية، يا عائشة، الناس يومئذ على الصراط، فمنهم من يمشي منكبا على وجهه، ومنهم من يمشي سويا على صراط المستقيم، ويعطى كل مؤمن ومنافق نورا، فأما المؤمن فيبقى فيضيء له نوره حتى يدخله الجنة، وأما الكافر والمنافق فيغطى نوره ويختطف".

وفي رواية عن عائشة أنها قالت: "أنا أول الناس سأل رسول الله ﷺ عن هذه الآية: {يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ} قالت: قلت: أين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «على الصراط»".

وعن ابن عباس:"حدثتني عائشة أنها سألت رسول الله ﷺ، عن قوله تعالى: {وَالأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّماوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ} [الزمر: ٦٧]، فأين الناس يومئذ يا رسول الله؟ قال: «هم على جسر جهنم»".

وعن ثوبان مولى رسول الله ﷺ قال: "كنت قائما عند رسول الله ﷺ، فجاءه حَبر من أحبار اليهود، فقال: السلام عليك يا محمد. فدفعته دفعة كاد يُصرَع منها، فقال: لم تدفعني؟ فقلت: ألا تقول: يا رسول الله؟! فقال اليهودي: إنما ندعوه

=

=

باسمه الذي سَمّاه به أهله! فقال رسول الله ﷺ: "إن اسمي محمد الذي سماني به أهلي". فقال اليهودي: جئت أسألك. فقال رسول الله ﷺ: "أينفعك شيء إن حدثتك؟ فقال: أسمع بأذني. فنكت رسول الله ﷺ بعود معه، فقال: "سل". فقال اليهودي: أين يكون الناس يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات؟ فقال رسول الله ﷺ: "هم في الظلمة دون الجسر" قال: فمن أول الناس إجازة؟ قال: فقال: "فقراء المهاجرين". قال اليهودي: فما تُحْفَتهُم حين يدخلون الجنة؟ قال: "زيادة كبد النون" قال: فما غذاؤهم في أثرها

؟ قال: "ينحر لهم ثور الجنة الذي كان يأكل من أطرافها". قال: فما شرابهم عليه؟ قال: "من عين فيها تسمى سلسبيلا". قال: صدقت. قال: وجئت أسألك عن شيء لا يعلمه أحد من أهل الأرض إلا نبي أو رجل أو رجلان؟ قال: "أينفعك إن حدثتك؟ " قال: أسمع بأذني. قال: جئت أسألك عن الولد. قال: "ماء الرجل أبيض وماء المرأة أصفر، فإذا اجتمعا فَعَلا منيُّ الرجل منيَّ المرأة أذكرا بإذن الله – تعالى – وإذا علا مني المرأة مني الرجل أَنَّثا بإذن الله" قال اليهودي: لقد صدقت، وإنك لنبي. ثم انصرف، فقال رسول الله ﷺ: "لقد سألني هذا عن الذي سألني عنه، وما لي علم بشيء منه، حتى أتاني الله به".

قوله تعالى: {وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩)} [إبراهيم: ٤٩] وتُبْصِرُ -أيها الرسول- المجرمين يوم القيامة مقيدين بالقيود، قد قُرِنت أيديهم وأرجلهم بالسلاسل، وهم في ذُلٍّ وهوان.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وتعاين الذين كفروا بالله، فاجترموا في الدنيا الشرك يومئذ، يعني: يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات. {مقرنين في الأصفاد} يقول: مقرنة أيديهم وأرجلهم إلى رقابهم بالأصفاد، وهي الوثاق من غل وسلسلة".

=

=

قال ابن كثير:"ترى يا محمد يومئذ المجرمين، وهم الذين أجرموا بكفرهم وفسادهم، {مقرنين} أي: بعضهم إلى بعض، قد جمع بين النظراء أو الأشكال منهم، كل صنف إلى صنف، كما قال تعالى: {احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ} [الصافات: ٢٢]، وقال: {وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ} [التكوير: ٧]، وقال: {وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا} [الفرقان: ١٣]، وقال: {وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ وَآخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأصْفَادِ} [ص: ٣٧، ٣٨]".

عن ابن عباس، قوله:"{مُقَرَّنِينَ فِي الأصْفَادِ}، يقول: في وثاق".

عن قتادة:"{مُقَرَّنِينَ فِي الأصْفَادِ}، قال: مقرّنين في القيود والأغلال".

عن الضحاك، قال: " «الأصفاد»: السلاسل".

قال ابن زيد، في قوله " {مُقَرَّنِينَ فِي الأصْفَادِ}، قال: صفدت فيها أيديهم وأرجلهم ورقابهم، والأصفاد: الأغلال".

وفي قوله تعالى: {وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ} [إبراهيم: ٤٩]، وجهان:

أحدهما: أن «الأصفاد»: الأغلال، واحدها: «صفد». قاله أبو عبيدة، وابن قتيبة.

قال ابن قتيبة:"أي: قد قرن بعضهم إلى بعض في الأغلال".

قال مقاتل:"يعني: موثقين في السلاسل والأغلال صفدت أيديهم إلى أعناقهم في الحديد".

ومنه قول حسان:

ما بين مأسورٍ يشد صِفادُهُ.. صقرٍ إذا لاقى الكريهة حامي

الثاني: أنها: القيود، قاله الأعمش. ومنه قول عمرو بن كلثوم:

فَآبُوا بالنِّهابِ وبالسَّبايا وأُبْنا بالمُلُوكِ مُصَفَّدِينا

أي: مقيّدين. وأما قول النابغة الذبياني:

=

=

هَــذَا الثَّنَــاءُ فَــإِنْ تَــسْمَعْ لِقَائِلِــهِ فَمَـا عَرَضْـتُ أَبَيْـتَ اللَّعْـنَ بالـصَّفَد

فأراد بالصفد «العطية»، وقيل: لها صف لأنها تقيد المودة.

وفي المجرمين المقرنين في الأصفاد قولان:

أحدهما: أنهم الكفار يجمعون في الأصفاد كما اجتمعوا في الدنيا على المعاصي.

الثاني: أنه يجمع بين الكافر والشيطان في الأصفاد.

قوله تعالى: {سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ} [إبراهيم: ٥٠]، أي:"ثيابهم من القَطِران الشديد الاشتعال".

قال أبو عبيدة وابن قتيبة:"أي: قمصهم، وواحدها «سربال»".

قال ابن كثير:"أي: ثيابهم التي يلبسونها عليهم من قطران، وهو الذي تُهنأ به الإبل، أي: تطلى، قاله قتادة. وهو ألصق شيء بالنار".

قال الطبري:"يقول: قمصهم التي يلبسونها، واحدها: سربال، كما قال امرؤ القيس:

لَعُوبٌ تُنَسِّيني إذَا قُمْتُ سِرْبالي".

قال ابن زيد:"السرابيل: القُمُص".

وفي «القطران» -ها هنا- قولان:

أحدهما: أنه القطران الذي تهنأ به الجمال، قاله الحسن، وابن زيد، وإنما جعلت سرابيلهم من قطران لإسراع النار إليها.

الثاني: أنه النحاس الحامي، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، ومجاهد، وقتادة.

قال ابن عباس:"هو النحاس المذاب".

وقال مقاتل:"يعني: قمصهم من نحاس ذائب".

عن قتادة ": «مِنْ قَطْرٍ آنٍ»، يعني: الصِّفر المذاب".

وعن قتادة أنه كان يقرأ " «مِنْ قَطْرٍ آنٍ»، قال: من صفر قد انتهى حرّه".

=

=

قال ابن قتيبة:"من قرأ: «من قطر آن» أراد: نحاسا قد بلغ منتهى حره، أنى فهو آن".

عن سعيد بن جبير في قوله " {سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرٍ آنٍ}، قال: قطر، والآن: الذي قد انتهى حرّه".

وقرئ: «من قطران»، والقطر: النحاس أو الصفر المذاب. و «الآنى»: المتناهي حره.

قال الطبري:"وقد رُوي عن بعض المتقدمين أنه كان يقرأ ذلك: "مِنْ قَطْرٍ آنٍ" بفتح القاف وتسكين الطاء وتنوين الراء وتصيير آن من نعتِه، وتوجيه معنى القَطر إلى أنه النحاس، ومعنى الآن، إلى أنه الذي قد انتهى حرّه في الشدّة. وممن كان يقرأ ذلك كذلك فيما ذكر لنا عكرمة مولى ابن عباس".

قال الحسن:"كانت العرب تقول للشيء إذا انتهى حرّه: قد أنى حرّ هذا، قد أوقدت عليه جهنم منذ خلقت فأنى حرّها".

قال الربيع بن أنس:"القطر: النحاس، والآن: يقول: قد أنى حرّه، وذلك أنه يقول: حميمٌ آن".

عن عكرمة، عن ابن عباس، في هذه الآية " {سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطْرٍ آنٍ}، قال: من نحاس، قال: آن أنى لهم أن يعذّبوا به".

قال عكرمة:"الآني: الذي قد انتهى حرّه".

وكان الحسن يقرؤها: «مِنْ قَطْرٍ آنٍ»".

وقيل: "إن عيسى بن عمر كان يقرأ «مِنْ قِطْرَانٍ» بكسر القاف وتسكين الطاء، ومنه قول أبي النجم:

جَوْنٌ كأنَّ العَرَقَ المَنْتُوحا لَبَّسُه القِطْرَانَ والمُسُوحا

بكسر القاف، وقال أيضا:

=

=

كَـــــأَنَّ قِطْرَانَـــــا إِذَا تَلاهَـــــا تَرْمِـــي بِـــهِ الــرِّيحُ إِلـــى مَجْرَاهـــا

بالكسر".

قال الزمخشري:"القطران: فيه ثلاثة لغات: قطران، وقطران، وقطران: بفتح القاف وكسرها مع سكون الطاء، وهو ما يتحلب من شجر يسمى الأبهل فيطبخ، فتهنأ به الإبل الجربي، فيحرق الجرب بحره وحدته، والجلد،

وقد تبلغ حرارته الجوف، ومن شأنه أن يسرع فيه اشتعال النار، وقد يستسرج به، وهو أسود اللون منتن الريح، فتطلى به جلود أهل النار حتى يعود طلاؤه لهم كالسرابيل وهي القمص، لتجتمع عليهم الأربع: لذع القطران. وحرقته، وإسراع النار في جلودهم، واللون الوحش، ونتن الريح. على أن التفاوت بين القطرانين كالتفاوت بين النارين، وكل ما وعده الله أو وعد به في الآخرة، فبينه وبين ما نشاهد من جنسه من لا يقادر قدره، وكأنه ما عندنا منه إلا الأسامى والمسميات ثمة، فبكرمه الواسع نعوذ من سخطه، ونسأله التوفيق فيما ينجينا من عذابه".

قوله تعالى: {وَتَغْشَى وُجُوهَهُمُ النَّارُ} [إبراهيم: ٥٠]، أي:"وتلفح وجوههم النار فتحرقها".

قال الطبري:"يقول: وتلفَحُ وجوههم النار فتحرقها".

قال السمعاني:"معناه: وتعلو وجوههم النار، وقيل: تصلى".

وقال مقاتل:"لأنهم يتقون النار بوجوههم".

قال الزمخشري:"لأن الوجه أعز موضع في ظاهر البدن وأشرفه، كالقلب في باطنه، ولذلك قال تطلع على الأفئدة".

عن أبي مالك الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: "أربع من أمر الجاهلية لا يُتْرَكن الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة، والنائحة إذا لم تتب قبل موتها، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرْع من

=

=

جَرَب".

عن أبي أمامة، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: قال رسول الله ﷺ: "النائحة إذا لم تتب، توقف في طريق بين الجنة والنار، وسرابيلها من قطران، وتغشى وجهها النار".

وقرئ: «وتغشى وجوههم»، بمعنى: تتغشى.

قوله تعالى: {لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ} [إبراهيم: ٥١]، أي:"فَعَل الله ذلك بهم؛ جزاء لهم بما كسبوا من الآثام في الدنيا، والله يجازي كل إنسان بما عمل مِن خير أو شر".

قال ابن أبي زمنين: {ما كسبت}، أي:"ما عملت".

قال أبو الليث: أي:"من خير أو شر".

قال السمعاني:"يعني: ما كسبت من خير وشر".

قال الطبري:"يقول: فعل الله ذلك بهم جزاء لهم بما كسبوا من الآثام في الدنيا، كيما يثيب كلّ نفس بما كسبت من خير وشرّ، فيَجْزِي المحسن بإحسانه، والمسيء بإساءته".

قال الزمخشري:"أى يفعل بالمجرمين ما يفعل {ليجزي الله كل نفس} مجرمة {ما كسبت}، أو كل نفس من مجرمة ومطيعة، لأنه إذا عاقب المجرمين لإجرامهم على أنه يثيب المطيعين لطاعتهم".

قوله تعالى: {إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} [إبراهيم: ٥١]، أي:"إن الله لا يشغله شأن عن شأن، يحاسب جميع الخلق في أعجل ما يكون من الزمان".

قال أبو الليث:"يقول: إذا حاسب، فحسابه سريع".

قال السمعاني:"معناه: سريع المجازاة، وحقيقة الحساب إحصاء ما عمله الإنسان من خير أو شر ليجازي عليه".

قال الطبري:"يقول: إن الله عالم بعمل كلّ عامل، فلا يحتاج في إحصاء أعمالهم

=

هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢).

{هَذَا} الْقُرْآن {بَلَاغ لِلنَّاسِ} أَيْ أُنْزِلَ لِتَبْلِيغِهِمْ {وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا} بِمَا فِيهِ مِنْ الْحُجَج {أَنَّمَا هُوَ} أَيْ الله {إِلَه وَاحِد وَلِيَذَّكَّرَ} بِإِدْغَامِ التَّاء فِي الْأَصْل فِي الذَّال يَتَّعِظ {أولوا الألباب} أصحاب العقول[1].

=

إلى عقد كفّ ولا معاناة، وهو سريع حسابه لأعمالهم، قد أحاط بها علما، لا يعزب عنه منها شيء، وهو مجازيهم على جميع ذلك صغيره وكبيره".

قال مقاتل: "فإذا أخذ الله – ﷻ – فى حسابهم فرغ من حساب الخلائق على مقدار نصف يوم من أيام الدنيا".

قال ابن أبي زمنين: عن "يحيى: سمعت بعض الكوفيين يقول: يقضى بين الخلق يوم القيامة في قدر نصف يوم من أيام الدنيا".

قال ابن كثير: "يحتمل أن يكون كقوله تعالى: {اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ} ويحتمل أنه في حال محاسبته لعبده سريع النَّجاز؛ لأنه يعلم كل شيء، ولا يخفى عليه خافية، وإن جميع الخلق بالنسبة إلى قدرته كالواحد منهم، كقوله تعالى: {مَا خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلا كَنَفْسٍ وَاحِدَةٍ} [لقمان: ٢٨]، وهذا معنى قول مجاهد: {سَرِيعُ الْحِسَابِ} إحصاء. ويحتمل أن يكون المعنيان مرادين، والله أعلم".

عن مجاهد: " {سَرِيعُ الْحِسَابِ} : إحصاؤه عليهم". وفي لفظ: "إحصاؤه".

(١) قوله تعالى: {هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ} [إبراهيم: ٥٢].

أي: هذا القرآن الكريم الذي أنزلناه عليك يا محمد، فيه التبليغ الكافي لهداية الناس، وفيه ما يخوفهم من سوء عاقبة الكفر والفسوق والعصيان.

=

=

-قال أبو حيان: ومعنى بلاغ كفاية في الوعظ والتذكير. فمعنى بلاغ تبليغ للناس.

وممن اختار أن قوله: بلاغ بمعنى التبليغ، الواحدي، والسمعاني، والبغوي، والقرطبي، والخازن، وابن عاشور، وهو ظاهر اختيار ابن جرير، وابن كثير.

قال ابن جرير: يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، أبلغ الله به إليهم في الحجة عليهم، وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره.

-وقال القرطبي: أي تبليغ وعظة.

اختلفوا: فقيل: إن قوله هذا إشارة إلى كل القرآن.

وقيل: بل إشارة إلى كل هذه السورة.

وقيل: بل إشارة إلى المذكور من قوله (ولا تحسبن) إلى قوله (سريع الحساب).

قال مقاتل:"يعني: كفار مكة".

قال أبو الليث:"يعني: هذا القرآن إرسال وبيان من الله تعالى. ويقال: أبلغكم عن الله تعالى".

قال السمعاني:"يعني: هذا القرآن، وهذا الذي أنزلته عليك بلاغ للناس، أي: فيه تبليغ للناس".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: هذا القرآن بلاغ للناس، أبلغ الله به إليهم في الحجة عليهم، وأعذر إليهم بما أنزل فيه من مواعظه وعبره".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: هذا القرآن بلاغ للناس، كقوله: {لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام: ١٩]، أي: هو بلاغ لجميع الخلق من إنس وجان، كما قال في أول السورة: {الر كِتَابٌ أَنزلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ}".

قال الزمخشري: أي:"كفاية في التذكير والمواعظة، يعنى بـ «هذا»: ما وصفه من قوله {فلا تحسبن}، إلى قوله {سريع الحساب}".

=

=

قال السعدي:"فلما بين البيان المبين في هذا القرآن قال في مدحه: {هذا بلاغ للناس} أي: يتبلغون به ويتزودون إلى الوصول إلى أعلى المقامات وأفضل الكرامات، لما اشتمل عليه من الأصول والفروع، وجميع العلوم التي يحتاجها العباد".

عن ابن زيد قوله:"{هَذَا بَلاغٌ لِلنَّاسِ}، قال: القرآن".

وقال ابن عباس: "يريد ما أنزلت إليك من قصة إبراهيم ودعائه لوالده وما تبرأ منه من عبادة الأصنام وما دعا للمؤمنين".

قوله تعالى: {وَلِيُنْذَرُوا بِهِ} [إبراهيم: ٥٢].

أي: ولأجل أن ينذروا به، أي: بهذا القرآن، أي: يوعظوا ويحذروا ويخوفوا به عقاب الله وعذاب الله في الدنيا والآخرة، بما تضمنه من ذكر عقوبات المكذبين ووعيدهم في الآخرة، فيه إقامة الحجة عليهم، وفيه الإعذار والإنذار.

قال السعدي: لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعد الله لأهلها من العقاب.

قال الزمخشري:"أى: لينصحوا ولينذروا به بهذا البلاغ".

قال الطبري:"يقول: ولينذروا عقاب الله، ويحذروا به نقماته، أنزله إلى نبيه ﷺ".

قال مقاتل:"يعني: لينذروا بما في القرآن".

قال ابن كثير:"أي: ليتعظوا به".

قال أبو الليث:"يعني: ليخوفوا بالقرآن عن معصية الله تعالى".

قال السمعاني:"أي: و ليخوفوا به".

عن ابن زيد قوله:"{وَلِيُنْذَرُوا بِهِ}، قال: بالقرآن".

قال ابن عباس:"ولتنذر يامحمد قومك".

قال السعدي:"لما فيه من الترهيب من أعمال الشر وما أعد الله لأهلها من العقاب".

=

=

وقرئ: «ولينذروا»، بفتح الياء، من نذر به إذا علمه واستعد له.

قوله تعالى: {وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ} [إبراهيم: ٥٢]، أي:"ولكي يوقنوا أن الله هو الإله الواحد، فيعبدوه وحده لا شريك له".

قال مقاتل: أي:"لا شريك له".

قال أبو الليث:"يعني: لكي يعلموا أنما هو إله واحد صادق".

قال السمعاني والبغوي:"أي: ليستدلوا بهذه الآيات على وحدانية الله تعالى".

قال الطبري:"يقول: وليعلموا بما احتجّ به عليهم من الحجج فيه أنما هو إله واحد، لا آلهة شتى، كما يقول المشركون بالله، وأن لا إله إلا هو الذي له ما في السماوات وما في الأرض، الذي سخر لهم الشمس والقمر

والليل والنهار وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لهم، وسخر لهم الفلك لتجري في البحر بأمره وسخر لهم الأنهار".

قال ابن كثير:"أي: يستدلوا بما فيه من الحجج والدلالات على أنه لا إله إلا هو".

قال السعدي:"حيث صرف فيه من الأدلة والبراهين على ألوهيته ووحدانيته، ما صار ذلك حق اليقين".

قال أبو السعود:"بالتأمل فيما فيه من الدلائل الواضحة التي هي إهلاك الأمم وإسكان آخرين مساكنهم وغيرهما مما سبق ولحق {إنما هو إله واحد} لا شريك له وتقديم الإنذار لأنه الداعي إلى التأمل المؤدي إلى ما هو غاية له من العلم المذكور".

قوله تعالى: {وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ} [إبراهيم: ٥٢]، أي:"وليتعظ به أصحاب العقول السليمة".

قال أبو الليث:"أي: ليتعظ بما أنزل من التخويف في القرآن ذوو العقول من الناس".

=

=

قال الطبري:"يقول: وليتذكر فيتعظ بما احتجّ الله به عليه من حججه التي في هذا القرآن، فينزجر عن أن يجعل معه إلها غيره، ويُشْرِك في عبادته شيئا سواه أهلُ الحجى والعقول، فإنهم أهل الاعتبار والادّكار دون الذين لا عقول لهم ولا أفهام، فإنهم كالأنعام بل هم أضلّ سبيلا".

قال مقاتل: {وَلِيَذَّكَّرَ} " فيما يسمع من مواعظ القرآن، أهل اللب والعقل".

قال ابن كثير:"أي: ذوو العقول".

قال البغوي:"أي: ليتعظ أولو العقول".

قال السعدي:"أي: العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر، إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غضا طريا فإنه لا يدعو إلا

إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها، وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة".

قال أبو السعود:"أي: ليتذكروا ما كانوا يعملوبه من قبل من التوحيد وغيره من شئون الله ﷻ ومعاملته مع عباده فيرتدعوا عما يرديهم من الصفات التي ينصف بها الكفار ويتدرعوا بما يحظيهم من العقائد الحقة والأعمال الصالحة وفي تخصيص التذكر بأولي الألباب تلويح باختصاص العلم بالكفار ودلالة على أن المشار إليه بهذا ما ذكرنا من القوارع المسوقة لشأنهم لا كل السورة المشتملة عليها وعلى ما سبق للمؤمنين أيضا فإن فيه ما يفيدهم فائدة جديدة وحيث كان ما يفيده البلاغ من التوحيد وما يترتب عليه من الأحكام بالنسبة إلى الكفرة أمرا حادثا وبالنسبة إلى أولي الألباب الثبات على ذلك حسبما أشير إليه عبر عن الأول بالعلم وعن الثاني بالتذكير وروعي ترتيب الوجود مع ما فيه من الختم بالحسنى".

=

=

قال السمعاني:"معناه: وليتعظ أولو الألباب - أي أولو العقول -، وفي بعض التفاسير: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق رضي الله عنه. والله أعلم".

-قال السعدي: قوله تعالى (وليذكر أولو الألباب) أي: العقول الكاملة ما ينفعهم فيفعلونه، وما يضرهم فيتركونه، وبذلك صاروا أولي الألباب والبصائر.

إذ بالقرآن ازدادت معارفهم وآراؤهم، وتنورت أفكارهم لما أخذوه غضا طريا فإنه لا يدعو إلا إلى أعلى الأخلاق والأعمال وأفضلها، ولا يستدل على ذلك إلا بأقوى الأدلة وأبينها.

وهذه القاعدة إذا تدرب بها العبد الذكي لم يزل في صعود ورقي على الدوام في كل خصلة حميدة. (السعدي).

(تتمة): قال الغرناطي في ملاك التأويل القاطع: الآية الأولى منها: غ - قوله تعالى: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (إبراهيم: ١). وفي سورة الحج: (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) (الحج: ٢٤)، وفي سورة سبأ: (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ وَيَهْدِي إِلَى صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ) (سبأ: ٦)، فورد في هذه السور الثلاث ذكر الصراط مضافًا في السورتين منها إلى العزيز من أسمائه تعالى ثم أتبع الحميد، واقتصر في سورة الحج على إضافة اسمه الحميد، فللسائل أن يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية إبراهيم، عليه السلام، لما ورد فيها قوله تعالى لنبيه، عليه السلام: (لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ)، وكان السابق من مفهوم هذا أن ذلك الأمر بيده، عليه السلام، وقد قال له تعالى: (لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ) (آل عمران: ١٢٨)، وقال: (إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا الْبَلَاغُ) (الشورى: ٤٨)، وقال تعالى: (إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) (القصص: ٥٦)، فلما

=

=

كان السابق من مفهوم آية إبراهيم كما ذكر أشار وصفه تعالى بالعزيز إلى قدرته تعالى وقهره، وأنه لا يكون من العباد إلا ما سبقت به إرادته التي لا يخرج واقع عن خكمها، وتعالى أن يكون في ملكه ما لا يريد، ولو شاء لهدى الكل، قال تعالى: (وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا) (السجدة: ١٣)، فأحرز الوصف بالعزة هذا المعنى العظيم، ولو لم يرد هذا الوصف لما تحرر هذا المقصود، وكذلك الوارد في قوله في آية سبأ: (وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقَّ) (سبأ: ٦)، والرؤية هنا بمعنى العلم والحق مفعولها الثاني والضمير فصل لا موضع له من الإعراب. وحال أن يرى من وصفه تعالى بالعلم حكم الله تعالى في خلقه جارياً إلا على ما يشاؤه ويريده، إنه لو شاء لجمعهم على الهدى، فهذه الآية كأية إبراهيم من غير فرق، فوصفه سبحانه بالعزة تمام مقصودها كالمتقدمة، وليس للمدعوين إلا ما سبقت به إرادته تعالى، ولا بيد نبيه، عليه السلام، إخراجهم ولا هداهم، ولم يرد في هاتين الآيتين أن الإخراج من الظلمات إلى النور والهداية مما وقع وانقضى، وإنما مقتضى الآيتين رجاء إجابتهم وهدايتهم (عند دعائه، عليه السلام، ثم الرجاء راجع (إلينا) المنزه المتعالى عن الاتصاف به. وقد أحاط علمه سبحانه بما يكون منهم.

وأيضاً خوطبنا على ما نتعارف، قال سيبويه، رحمه الله، وقد تعرض لهذا وقد ذكر قوله تعالى: (وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) (المرسلات: ١٥)، و (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ) (المطففين: ١)، فقال: لا ينبغي أن يقال دعاء بالويل ههنا لأن الكلام بذلك قبيح ولكن العباد إنما كلموا بكلامهم، وجاء القرآن على لغتهم وعلى ما يعنون، فكأنه - والله أعلم - قيل لهم: (وَيْلٌ لِلْمُطَفِّفِينَ)، (ووَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ) أي هؤلاء ممن وجب هذا القول لهم لأن (هذا) الكلام إنما يقال لصاحب الشر والمهلكة فقيل هؤلاء ممن دخل في المهلكة ووجب هذا، ومثل هذا: (فَقُولَا لَهُ قَوْلًا لَيِّنًا لَعَلَّهُ

=

=

يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى) (طه: ٤٤) والعلم قد أتى (من وراء) ما يكون ولكن اذهبا أنتما على طمعكما ورجائكم ومبلغكما من العلم، وليس لهما أكثر من خذا ما لم يعلما. ومثله: (قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ) (التوبة: ٣٠) فإنما جرى هذا على كلام العرب وبه أنزل القرآن فقد تبين تساوي هاتين الآيتين في استدعائهما وصفه تعالى بالعزيز لما يحرز من المعنى المتقدم.

أما آية سورة الحج فقوله تعالى: (وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ) (الحج: ٢٤) إخبار منه سبحانه بما شاءه لهؤلاء من فوزهم وفلاحهم، قد تم حكمه وانقضى، فلم يكن ليناسبه ما يفهم القهر، وإنما المناسب ما يفهمه اسمه الحميد، وورد كل على ما يجب ويناسب، ولم يكن عكس الوارد ليلائم ولا يناسب، والله (سبحانه) أعلم.

الآية الثانية قوله تعالى: (اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) (إبراهيم: ٣٢)، قال في سورة النمل: (أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ) (النمل: ٦٠)... الآية، يسأل هنا عن تأخير (لكم) في سورة إبراهيم عن لفظ (أنزل) وإيلائه إياها مقدمة في آية النمل ما وجه ذلك؟

والجواب: أن آية إبراهيم قد تقدمها قوله تعالى: (قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ) (إبراهيم: ٣١)، وقد علم المؤمنون أن الله غني عن العالمين، وأن المنزل من ماء السماء إنما هو رحمة للعباد وإحياء للأرض بعد موتها، ليخرج ما بث فيها سبحانه من أنواع الحبوب والثمرات وغير ذلك مما به صلاح أحوال العباد وتتميم معائشهم، ولم يغب عن المؤمنين المذكورين قبل أن ربهم غني عن ذلك كله ومنفرد بخلقه والإنعام به، فلم يحتج هنا إلى تنبيههم بأن ذلك لهم إذ حالهم التذكر ومولاة الاعتبار لا الغفلة، وأخر ذكر ذلك إلى ذكر الرزق ليجري مع قوله

=

=

في الزينة والطيب من الرزق: (قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَــــــــــــــــــــــةِ) (الأعـــــــــــــــــــــــراف: ٣٢).
أما آية النمل فقد تقدمها قوله تعالى: (آللهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ) (النمل: ٥٩)، فلما تضمنت تعنيفاً للمشركين على سوء مرتكبيهم وعماهم عن التفكير والاعتبار قصد تحريكهم وإيقاظهم من رقدة الغفلة، فقيل: (وَأَنْزَلَ لَكُمْ) (النمل: ٦٠)، فحصل تنبيههم وإعلامهم أن إنزال الماء من السماء إنما هو لهم وأنه لا حاجة به سبحانه إليه، فاستجر الكلام تعنيفهم، ويشهد لهذا قوله تعالى عقب الآية: (مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ) (النمل: ٦٠) (أي يعدلون) بربهم غيره ويعدلون بعبادته إلى عبادة غيره، وكل هذا شرك لا فلاح معه، فلما قصد في الآية الثانية ما ذكرنا قدم المجرور، وشأنه أبداً إذا قدم إحراز معنى التنبيه حيث يقصد التحريك والإيقاظ لذي غفلة، أما إذا تأخر فلا يحرز هذا المعنى على الصفة التي يحرزه متقدماً. وتأمل الوارد من هذا في نظائر هذه (الآية) كقوله تعالى: (وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ) (الزخرف: ١٢) خطاباً لمن تقدم ذكره في قوله: (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) (العنكبوت: ٦١، وقوله خطاباً لفرعون وملئه: (الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا) (طه: ٥٣) وهذا بعد قول فرعون في إخبار الله تعالى عنه: (قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى) (طه: ٤٩) إلى قوله: (قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى) (طه: ٥١)، وقد تقدم بيان هذا في قوله تعالى: (وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ) (الإخلاص: ٤) وما أنشده سيبويه، رحمة الله، من قول الشاعر:
لتقــــــربن قربـــــاً جلـــــديا مـــــا دام فـــــيهن فـــــصيل حيـــــا
الآية الثالثة: غ - قوله تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ) (إبراهيم: ٣٤) وفي سورة النحل: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ اللهَ

=

=

لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (النحل: ١٨)، فأعقب في الأولى قوله تعالى: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا) بغير ما أعقب في الثانية، يسأل عن ذلك؟

والجواب عنه، والله أعلم: أن آية إبراهيم تقدمها قوله تعالى: (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ) (إبراهيم: ٢٨)، ثم قوله: (وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ) (إبراهيم: ٣٠)، ثم ذكر إنعامه على عباده في قوله: (اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ) (إبراهيم: ٣٢) إلى قوله: (وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ) (إبراهيم: ٣٤)، فناسب ما ذكره تعالى من توالي إنعامه ودرور إحسانه ومقابلة ذلك من العبيد بالتبديل وجعل الأنداد وصف الإنسان بأنه ظلوم كفار.

أما آية النحل فلم يتقدمها غير ما نبه سبحانه وعباده المؤمنين من متوالي آلائه وإحسانه، وما ابتدأهم (به) من نعمة من لدن قوله: (خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ) (النحل: ٤)، ثم توالت (أيات) الامتنان والإحسان فقال تعالى: (وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ) (النحل: ٥)، فذكر تعالى بعضاً وعشرين من أمهات النعم إلى قوله منبهاً وموقظاً من الغفلة والنسيان: (أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ) (النحل: ١٧)، ثم أتبع بقوله سبحانه: (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا) (النحل: ١٨)، فناسب ختام هذا قوله: (إِنَّ اللهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ) (النحل: ١٨) فجاء كل على ما يناسب، والله أعلم.

الآية الرابعة: غ - قوله تعالى: (هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (إبراهيم: ٥٢)، وفي سورة ص: (كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ) (ص: ٢٩)، للسائل أن يسأل عن وجه اختصاص آية إبراهيم بقوله: (ليذكر) وآية ص بقوله: (ليتذكر) بتاء التفعيل؟

والجواب، والله أعلم: أن كلا الموضعين حاصل فيه التناسب، أما آية ص ففي

=

سورة الحجر(١)

بسم الله الرحمن الرحيم(١)

=

قوله (ليدبروا) حرفان من الحروف الشديدة وهما الباء والدال وثانيهما مضعف فنسق عليهما قوله: (وليتذكر) وفيه أيضـًا حرفان من حروف الشدة وهما الكاف والتاء وثانيهما مضعف، والتناسب بهذا واضح. وأما آية إبراهيم فورد فيها: (وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا)، وقد عربت الكلمتان من حروف الشدة وإنما جميعها من الرخوة وهي ضد الشديدة، فناسبها عطفـًا عليها قوله: (وليذكر) إذ ليس فيه من الحروف الشديدة غير الكاف، وأيضـًا فإن يذكر ويتذكر معناهما واحد، والأصل للمدغم مفكوكة، فلفظ يذكر ثان عن يتذكر، وهو أكثر استعمالاً وأخف لفظـًا، فقدم في سورة إبراهيم وأخر الأثقل في سورة ص على الترتيب المتقرر، على ما تقدم في قوله تعالى: (هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ) (البقرة: ٣٨) في البقرة وقوله: (فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ) (طه: ١٢٣) في سورة طه. وقد تقدم من هذا نظائر، وسيأتي أمثالها، واطراد ذلك شاهد برعيه، فحصل التناسب اللفظي من هذين الوجهين، وإن عكس الوارد لا يناسب والله أعلم. ا.هـ من ملاك التأويل (٢/ ٢٨٥-٢٨٨).

(١) اختلف أهل التفسير في وقت نزول السورة على ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها مكية جميعها. قاله ابن عباس، وابن زبير، ومقاتل، وبه قال ابن قتيبة، والثعلبي، وأبو الليث السمرقندي، وابن ابي زمنين، والسمعاني، وابن عطية، والبيضاوي، والنسفي، والثعالبي، والفيروزآبادي، وابن كثير، والسيوطي، وغيرهم.

قال ابن الجوزي:"هي مكية كلها من غير خلاف نعلمه".

قال العز بن عبدالسلام:"سورة الحجر مكية اتفاقا".

=

=

قال الفيروزآبادي:"السورة مكية إجماعا".

قال ابن عاشور:"وهي مكية كلها وحكي الاتفاق عليه".

والثاني: أنها مكية إلا آية واحدة، هي: {وَلَقَدْ آتَيْنَاكَ سَبْعًا مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنَ الْعَظِيمَ (٨٧)} [الحجر: ٨٧]. قاله الحسن، وبه قال الزمخشري، والفخر الرازي، وأبو السعود.

قال ابن عاشور: وذلك" بناء على أن سبعا من المثاني هي سورة الفاتحة وعلى أنها مدنية. وهذا لا يصح، لأن الأصح أن الفاتحة مكية".

الثالث: أنها مكية إلا آيتين منها، وهما: {كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)} [الحجر: ٩٠ - ٩١]. ذكره ابن عاشور.

قال ابن عاشور:"واستثناء قوله تعالى: {كَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى الْمُقْتَسِمِينَ (٩٠) الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ (٩١)} [الحجر: ٩٠ - ٩١] بناء على تفسيرهم «المقتسمين» بأهل الكتاب وهو صحيح، وتفسير «جعلوا القرآن عضين» أنهم قالوا: ما وافق منه كتابنا فهو صدق وما خالف كتابنا فهو كذب. ولم يقل ذلك إلا يهود المدينة، وهذا لا نصححه".

* عدد آياتها تسع وتسعون بلا خلاف. وكلماتها ستّمائة وأَربع وخمسون. وحروفها أَلفان وسبعمائة وستون.

ومجموع فواصل آياتها (مِلْن) على اللاَّم منها آيتان: {حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ}، {فاصفح الصفح الجميل}.

* «تسمى سورة الحجر» «والحجر» -بتثليث الحاء-: المنع.و «المحجور»:الممنوع، قال الله تعالى: {وَحِجْرًا مَحْجُورًا} [الفرقان: ٥٣]، أي: "حراما محرما ممنوعا"، و"يقال للرجل إذا كان مالكا قاهرا ضابطا له: إنه لذو حجر، ومنه قولهم: حجر الحاكم على فلان".

=

=

و «الحِجْرُ» و «الحُجْرُ»: لغتانِ في معنى «الحرام»؛ ولذا كانت العرب تحتمي من بأس بعضها في الأشهر الحُرُم.

«الحِجْر»: اسم ديار ثمود بوادي القرى، بين المدينة والشام، وهم قوم صالح النبي-عليه السلام-، وسورة «الحجر»، هو الاسم الذي اشتهرت به فهو توفيقي، وبذلك كتبت في المصاحف وكتب التفسير والحديث، كما جاء في كلام بعض الصحابة:

اختير اسم السورة من الآية الثمانين، في قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ} [الحجر: ٨٠]، فقد ذكرت الآية قوم صالح بـ «أصحاب الحِجْر» ، وتناولت السورة الحديث عنهم في خمس آيات، وهي السورة الوحيدة في القرآن التي ذكرتهم بهذه التسمية. و «أصحاب الحِجر» هي منازل ثمود ونبيهم صالح عليه السلام، ومساكنهم موجودة إلى اليوم تحت مسمى مدائن صالح في الأردن.

وقوم صالح، وهم قبيلة ثمود وديارهم في الحجر، كانوا أشداء ينحتون الجبال ليسكنوها، فبينما هم آمنون مطمئنون جاءتهم صيحة العذاب في وقت الصباح، قال تعالى: {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الحجر: ٨٤].

قال الفيروزآبادي:"ووجه تسميتها بسورة «الحجر»، لاشتمالها على قصتهم، وقوله: {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ} [الحجر: ٨٠]".

قال المهايمي:"سميت بها لاشتمالها على قوله تعالى: {وَلَقَدْ كَذَّبَ أَصْحَابُ الْحِجْرِ الْمُرْسَلِينَ} [الحجر: ٨٠]، إلى قوله تعالى: {فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ} [الحجر: ٨٤]، الدال على مؤاخذتهم لمجرد تكذيب الرسل والإعراض عن آيات الله، بأدنى وجوه المؤاخذة، مع غاية تحصنهم، ففيه تعظيم الرسل والآيات".

* مقصود السّورة إِجمالاً: بيان حقيقة القرآن، وحفظ الحقِّ وبرهان النبوّة وحفظ

=

=

الحقِّ كتابَه العزيز من التغيير والتبديل، وتزيين السّماوات بمواكب الكواكب وحفظهما برُجوم النجوم من استراق الشَّيّاطين السّمع، وتقديره تعالى الماء والسّحاب من خزائن برّه، ولُطْفه، وعلمه تعالى بأَحوال المتقدّمين فى الطَّاعة والمتأَخِّرين عنها، وبيان الحكمة فى تخليق آدم، وأَمر الملائكة المقرّبين بسجوده، وتعيير إِبليس، وملامته على تأَبِّيه واستكباره وجحوده، واستحقاقه اللَّعنة من الله بعصيانه وطغيانه، وجراءَته بالمناظرة لخالقه ومعبوده، وبيان قَسْم الدّركات (على أَهل اللذات) والضَّلالات، وذكر المستوجبى الجنَّة من المؤمنين، وإِخبار الله تعالى عبادَه بالرحمة والغفران، وتهديدهم بالعذاب والعقاب، والإِشارة إِلى ذكر أَضياف الخليل علَيه السّلام، والنَّهى عن القُنُوط من الرّحمة، وذكر آل لوط، وسكرتهم فى طريق العَماية والضَّلالة، وتسلية النَّبى ﷺ عن جفاءِ الكفَّار، وبذئِ أَقوالهم، والمَنِّ عليه ﷺ بنزول السّبع المثانى، ومشون القرآن العظيم، والشكوى عن الطَّاعنين فى القرآن، وذكر القَسَم بوقوع السّؤال فى القيامة، وأَمر الرّسول ﷺ بإِظهار الدّعوة، والمنّ عليه بإِهلاك أَعداءِ دينه، ووصيّته بالعبادة إِلى يوم الحقِّ واليقين فى قوله: {واعبد رَبَّكَ حتى يَأْتِيَكَ اليقين}.

* المتشابهات قوله: {لَّوْ مَا تَأْتِينَا} وفى غيرها: (لولا)؛ لأَنَّ (لولا) يأْتى على وجهين: أَحدهما امتناع الشئ لوجود غيره؛ وهو الأَكثر. والثانى بمعنى (هَلاَّ) وهو التَّحضيض. ويختصّ بالفعل، و (لوما) بمعناه. وخُصّت هذه السّورة بلوما؛ موافقةً لقوله: (رُبَما) فإِنَّها أَيْضاً ممّا خُصّت به هذه السّورة.

قوله: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً}، وفى البقرة: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ} ولا ثالث لهما؛ لأَن (جَعَل) إِذا كان بمعنى (خَلَقَ) يُستعمل فى الشئ يتجدّد ويتكرّر؛ كقوله: {خَلَقَ السماوات والأرض وَجَعَلَ الظلمات والنور}، لأَنَّهما يتجدّدان زماناً بعد زمان. وكذلك الخليفة يدلّ لفظه على أَنَّ

=

=

بعضهم يخلف بعضاً إلى يوم القيامة. وخُصّت هذه السّورة بقوله: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِّن صَلْصَالٍ} إذ ليس فى لفظ البَشَر ما يدلّ على التجدّد والتكرار، فجاءَ فى كلِّ واحدة من السّورتين ما اقتضاه ما بعدهما من الألفاظ.

قوله: {فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} فى هذه السّورة، وفى ص؛ لأَنَّه لمّا بالغ فى السّورتين فى الأَمر بالسّجود وهو قوله: {فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِيْنَ} فى السّورتين بالغ فى الامتثال فيهما فقال: {فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ} ليقع الموافقة بين أُولاها وأُخراها. وتمام قصّة آدم وإِبليس سبق.

قوله هنا لإِبليس: {اللَّعْنَةُ} وقال فى ص {لَعْنَتِي} لأَنَّ الكلام فى هذه السّورة جَرَى على الجنس فى أَوّل القصّة فى قوله: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسان} {والجآن خَلَقْنَاهُ} {فَسَجَدَ الملائكة كُلُّهُمْ} لذلك قال: {اللَّعْنَةُ} وفى ص تقدّم {لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ} فختم بقوله {لَعْنَتِي}.

قوله: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ} وزاد فى هذه السّورة {إِخْوَاناً} لأَنّها نزلت فى أَصحاب رسول الله ﷺ، وما سواها عامّ فى المؤمنين.

قوله فى قصّة إِبراهيم: {فَقَالُوا سَلاماً قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ} لأَن هذه السّورة متأَخرة، فاكْتُفى بما فى هود؛ لأَنَّ التَّقدير: فقالوا: سلاماً، قال: سلام، فما لبث أَن جاءَ بعجل حنيذ، فلما رأَى أَيديَهم لاتصل إِليه نكِرهم وأَوجس منهم خيفة، قال: إنا منكم وجلون. فحذف للدّلالة عليه.

قوله: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ} وفى غيرها {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا} قال بعض المفسّرين: (عليهم) أَى على أَهلها، وقال بعضهم: على من شَذّ من القرية منهم. وقال تاج القراء: ليس فى القولين ما يوجب تخصيص هذه السّورة بقوله: (عليهم) بل هو يعود إِلى أَوّل القصّة، وهو {إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ} ثمّ قال: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ} قال: وهذه لطيفة فاحفظها.

=

الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١).

{الر} الله أَعْلَم بِمُرَادِهِ بِذَلِكَ[٢]، {تِلْكَ} هَذِهِ الْآيَات {آيَات الْكِتَاب} الْقُرْآن وَالْإِضَافَة بِمَعْنَى مِنْ {وَقُرْآن مُبِين} مُظْهِر لِلْحَقِّ مِنْ الْبَاطِل عَطْف بِزِيَادَةِ صفة.

رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢).

{رُبَمَا} بِالتَّشْدِيدِ وَالتَّخْفِيف {يَوَدّ} يَتَمَنَّى {الَّذِينَ كَفَرُوا} يَوْم الْقِيَامَة إذَا عَايَنُوا حَالهمْ وَحَال الْمُسْلِمِينَ {لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} وَرُبّ لِلتَّكْثِيرِ فَإِنَّهُ يَكْثُر مِنْهُمْ تَمَنِّي ذَلِك وَقِيلَ لِلتَّقْلِيلِ فَإِنَّ الْأَهْوَال تُدْهِشهُمْ فَلَا يُفِيقُونَ حَتَّى يَتَمَنَّوْا ذَلِكَ إلَّا فِي أَحْيَان قَلِيلَة.

=

قوله: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} بالجمع وبعدها {لآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ} على التَّوحيد. قال الإمام: الأُولى إشارة إلى ما تقدّم من قصّة لوط [وضيف إبراهيم، وتعرّض قوم لوط لهم] طمعاً فيهم، وقلب القرية على من فيها، وإمطار الحجارة عليها، وعلى من غاب منهم. فختم بقوله: {لآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} أى لمَن يتدبّر السِّمَة، وهى ما وَسَم الله به قوم لوط وغيرهم، قال: والثانية تعود إلى القرية: {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُّقِيمٍ} وهى واحدة، فوحّد الآية. وقيل: ما جاءَ فى القرآن من الآيات فلجمع الدّلائل، وما جاءَ من الآية فلوحدانيّة المدلول عليه. فلمّا ذكر عقِبه المؤمنين، وهم مُقِرُّون بوحدانية الله تعالى، وحّد الآية. وليس لها نظير إلاَّ فى العنكبوت، وهو قوله تعالى {خَلَقَ الله السماوات والأرض بالحق إِنَّ فِي ذلك لآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ} فوحّد بعد ذكر الجمع لِمَا ذكرت والله أَعلم. بصائر ذوي التمييز (١/ ٢٧٢-٢٧٧).

(١) تقدم تفسير البسملة في أول سورة الفاتحة.

(٢) تقدم القول في الحروف المقطعة بتوسع تحت الآية رقم (١) من سورة البقرة.

ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣).

{ذَرْهُمْ} اُتْرُكْ الْكُفَّار يَا مُحَمَّد {يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا} بِدُنْيَاهُمْ {وَيُلْهِهِمْ} يَشْغَلهُمْ {الْأَمَل} بِطُولِ الْعُمْر وَغَيْره عَنْ الْإِيمَان {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} عَاقِبَة أَمْرهمْ وَهَذَا قَبْل الْأَمْر بِالْقِتَالِ[1].

---

(١) ذكر سبب النزول.

عن السدي عن أبي مالك وأبي صالح عن ابن عباس.

وعن مرة عن ابن مسعود وناس من الصحابة قالوا: ودّ المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم حين عرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ.

ذكرهما السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٦١) ونسبهما لابن أبي حاتم.

* قوله تعالى: {تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ} [الحجر: ١]، أي:"تلك الآيات العظيمة هي آيات الكتاب العزيز المنزل على محمد ﷺ".

واسم الإشارة تِلْكَ يعود إلى الآيات التي تضمنتها هذه السورة، أو إلى جميع الآيات القرآنية التي نزلت قبل ذلك.

والمراد بالكتاب: القرآن الكريم، ولا يقدح في هذا، ذكر لفظ القرآن بعده، لأنه- سبحانه- جمع له بين الاسمين تفخيماً لشأنه، وتعظيماً لقدره. أي: هذه آيات القرآن.

وسمي القرآن كتاباً:

لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ: كما قال تعالى (بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ. فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ).

وهو مكتوب في الصحف التي بأيدي الملائكة: قال تعالى (فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَهُ. فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ. مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ) وهو مكتوب في الصحف التي بأيدينا، ونقرؤه من هذه الكتب.

=

=

-قال الخازن: تلك إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات والمراد بالكتاب وبالقرآن المبين: الكتاب الذي وعد به الله محمداً وتنكير القرآن للتفخيم، والتعظيم.

قال الطبري:"يعني: هذه الآيات، آيات الكتب التي كانت قبل القرآن كالتوراة والإنجيل".

قال الزمخشري:"{تلك}، إشارة إلى ما تضمنته السورة من الآيات، والمعنى: تلك آيات الكتاب الكامل في كونه كتابا".

عن مجاهد:"{تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}، قال: التوراة والإنجيل".

عن قتادة، قوله:"{الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ}، قال: الكتُب التي كانت قبل القرآن".

قوله تعالى: {وَقُرْآنٍ مُبِينٍ} [الحجر: ١]، أي:"وهي آيات قرآن موضِّح للحقائق بأحسن لفظ وأوضحه وأدلِّه على المقصود".

أي: وقرآن بيّن واضح، لأن الله بيّنه وفصّله.

كما قال تعالى (لا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ. إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ).

وقال تعالى (كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ).

وأيضـًا من (أبان) المتعدي الذي معناه (بيّن) أي: أوضح ما يحتاج إلى بيان.

والمعنى على هذا: وقرآن مبيِّن للحق من الباطل، والحلال والحرام، والمشروع والممنوع.

كما قال تعالى (مَّا فَرَّطْنَا فِي الكِتَابِ مِن شَيْءٍ).

وقال تعالى (وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ).

-قال الآلوسي: وفي جمع وصفي الكتابية والقرآنية من تفخيم شأن القرآن ما فيه، حيث أشير بالأول إلى اشتماله على صفات كمال جنس الكتب الإلهية فكأنه

=

=

كلها، وبالثاني إلى كونه ممتازاً عن غيره، نسيجاً وحده، بديعاً في بابه، خارجاً عن دائرة البيان، قرآناً غير ذي عوج.

-قال البغوي: فإن قيل: لِمَ ذكر الكتاب ثم قال {وَقُرْآنٍ مُبِينٍ} وكلاهما واحد؟ قلنا: قد قيل كل واحد يفيد فائدة أخرى، فإن الكتاب: ما يكتب، والقرآن: ما يجمع بعضه إلى بعض.

وقيل: المراد بالكتاب: التوراة والإنجيل، وبالقرآن هذا الكتاب.

قال الطبري:"يقول: وآيات قرآن يُبِين من تأمله وتدبَّره رشدَه وهداه".

قال مقاتل:"يعني: بين ما فيه".

عن قتادة:"{وَقُرْآنٍ مُبِينٍ}، قال: تبين والله هداه ورشده وخيره".

قال الزمخشري: أي:"وأى قرآن مبين، وتنكير «القرآن»، للتفخيم".

قوله تعالى: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} [الحجر: ٢]

أي: ود الذين كفروا عند ما تنكشف لهم الحقائق، فيعرفون أنهم على الباطل، وأن المؤمنين على الحق، أن لو كانوا مسلمين، حتى ينجوا من الخزي والعقاب.

كما قال تعالى (وَلَوْ ترى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النار فَقَالُوا يا ليتنا نُرَدُّ وَلاَ نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنكُونَ مِنَ المؤمنين).

وقال تعالى (حتى إِذَا جَآءَتْهُمُ الساعة بَغْتَةً قَالُوا يا حسرتنا على مَا فَرَّطْنَا فِيهَا).

وقال تعالى (وَيَوْمَ يَعَضُّ الظالم على يَدَيْهِ يَقُولُ يا ليتني اتخذت مَعَ الرسول سَبِيلاً).

هذا، وللمفسرين أقوال في الوقت الذي ود فيه الكافرون أن لو كانوا مسلمين:

فمنهم من يرى أن ودادتهم هذه تكون في الدنيا.

ومنهم من يرى أنها تكون عند الموت.

ومنهم من يرى أنها تكون عند الحساب، وعند عفو الله عن عصاة المؤمنين.

=

=

والحق أن هذه الودادة تكون في كل موطن يعرف فيه الكافرون بطلان كفرهم، وفي كل وقت ينكشف لهم فيه أن الإسلام هو الدين الحق.

فهم تمنوا أن لو كانوا مسلمين في الدنيا، عند ما رأوا نصر الله لعباده المؤمنين، في غزوة بدر وفي غزوة الفتح وفي غيرهما.

فعن ابن مسعود - رضي الله عنه - ود كفار قريش ذلك يوم بدر حين رأوا نصر الله للمسلمين.

وهم تمنوا ذلك عند الموت كما حكى عنهم- سبحانه- ذلك في آيات كثيرة:

منها قوله تعالى (حَتَّى إِذا جاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قالَ رَبِّ ارْجِعُونِ. لَعَلِّي أَعْمَلُ صالِحاً فِيما تَرَكْتُ).

وهم يتمنون ذلك عند ما يعرضون على النار يوم القيامة.

قال تعالى (وَلَوْ تَرى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقالُوا يا لَيْتَنا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآياتِ رَبِّنا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ).

وهم يتمنون ذلك عند ما يرون عصاة المؤمنين، وقد أخرجهم الله -تعالى- برحمته من النار.

قال الطبري:"ربما يودّ الذين كفروا بالله فجحدوا وحدانيته لو كانوا في دار الدنيا مسلمين".

قال ابن كثير:"إخبار عنهم أنهم سيندمون على ما كانوا فيه من الكفر، ويتمنون لو كانوا مع المسلمين في الدار الدنيا".

-قال ابن عطية: "اختلف المتأولون في الوقت الذي يود فيه الكفار أن لو كانوا مسلمين:

فقالت فرقة: هو عند معاينة الموت في الدنيا - حكى ذلك الضحاك - وفيه نظر.

لأنه لا يقين للكافر حينئذ بحسن حال المسلمين.

=

=

وقالت فرقة: هو عند معاينة أهوال يوم القيامة - قاله مجاهد - وهذا بين، لأن حسن حال المسلمين ظاهر، فتود.

وقال ابن عباس وأنس بن مالك: هو عند دخولهم النار ومعرفتهم بدخول المؤمنين الجنة.

-قال البغوي: واختلفوا في الحال التي يتمنى الكافر فيها الإسلام.

قال الضحاك: حالة المعاينة. وقيل: يوم القيامة.

والمشهور أنه حين يخرج الله المؤمنين من النار.

قال الشوكاني: وكانت هذه الودادة منهم عند موتهم أو يوم القيامة. والمراد أنه لما انكشف لهم الأمر، واتضح بطلان ما كانوا عليه من الكفر، وأن الدين عند الله سبحانه هو الإسلام لا دين غيره، حصلت منهم هذه الودادة التي لا تسمن ولا تغني من جوع، بل هي لمجرد التحسر والتندم ولوم النفس على ما فرطت في جنب الله وقيل: كانت هذه الودادة منهم عند معاينة حالهم وحال المسلمين وقيل: عند خروج عصاة الموحدين من النار، والظاهر أن هذه الودادة كائنة منهم في كل وقت مستمرة في كل لحظة بعد انكشاف الأمر لهم.

وقال الشنقيطي: وأقوال العلماء في هذه الآية راجعة إلى شيء واحد ؛ لأن من يقول: إن الكافر إذا احتضر وعاين الحقيقة تمنى أنه كان مسلما، ومن يقول: إنه إذا عاين النار ووقف عليها تمنى أنه كان مسلما، ومن يقول: إنهم إذا عاينوا إخراج الموحدين من النار تمنوا أنهم كانوا مسلمين، كل ذلك راجع إلى أن الكفار إذا عاينوا الحقيقة ندموا على الكفر وتمنوا أنهم كانوا مسلمين.

قال ابن عباس:"ذلك يوم القيامة يتمنى الذين كفروا لو كانوا موحدين".

قال عبد الله:"هذا في الجهنميين إذا رأوهم يخرجون من النار".

قال أبو العالية:"نزلت في الذين يخرجون من النار".

=

=

قال مجاهد:"إذا فرغ الله من القضاء بين خلقه، قال: من كان مسلما فليدخل الجنة، فعند ذلك".

قال قتادة:"وذلك والله يوم القيامة، ودّوا لو كانوا في الدنيا مسلمين".

قال الزمخشري:"فإن قلت: متى تكون ودادتهم؟

قلت: عند الموت، أو يوم القيامة إذا عاينوا حالهم وحال المسلمين. وقيل: إذا رأوا المسلمين يخرجون من النار، وهذا أيضا باب من الودادة. فإن قلت: فما معنى التقليل؟

قلت: هو وارد على مذهب العرب في قولهم: لعلك ستندم على فعلك، وربما ندم الإنسان على ما فعل، ولا يشكون في تندمه، ولا يقصدون تقليله، ولكنهم أرادوا: لو كان الندم مشكوكا فيه أو كان قليلا لحق عليك أن لا تفعل هذا الفعل، لأن العقلاء يتحرزون من التعرض للغم المظنون، كما يتحرزون من المتيقن ومن القليل منه، كما من الكثير، وكذلك المعنى في الآية: لو كانوا يودون الإسلام مرة واحدة، فبالحرى أن يسارعوا إليه، فكيف وهم يودونه في كل ساعة لو كانوا مسلمين حكاية ودادتهم، وإنما جيء بها على لفظ الغيبة لأنهم مخبر عنهم، كقولك: حلف بالله ليفعلن. ولو قيل: حلف بالله لأفعلن، ولو كنا مسلمين، لكان حسنا سديدا. وقيل: تدهشهم أهوال ذلك اليوم فيبقون مبهوتين، فإن حانت منهم إفاقة في بعض الأوقات من سكوتهم تمنوا".

عن هشام بن حماد قال: "سألت إبراهيم عن هذه الآية: {ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين}؛ قال: حدثت أن أهل الشرك قالوا لمن دخل النار من أهل الإسلام: ما أغنى عنكم ما كنتم تعبدون، قال: فيغضب الله لهم فيقول الملائكة والنبيين: أشفعوا، قال: فيشفعون لهم فيخرجون حتى إن إبليس يتطاول ورجاء أن يخرج معهم، فعند ذلك {يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين}".

=

=

عن أبي موسى، قال: "بلغنا أنه إذا كان يوم القيامة، واجتمع أهل النار في النار ومعهم من شاء الله من أهل القبلة، قال الكفار لمن في النار من أهل القبلة: ألستم مسلمين؟ قالوا: بلى، قالوا: فما أغنى عنكم إسلامكم وقد صرتم معنا في النار؟ قالوا: كانت لنا ذنوب فأخذنا بها، فسمع الله ما قالوا، فأمر بكل من كان من أهل القبلة في النار فأخرجوا، فقال من في النار من الكفار: يا ليتنا كنا مسلمين، ثم قرأ رسول الله ﷺ {الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}".

عن ابن عباس، في قوله:" {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}، قال: يدخل الجنة ويرحم حتى يقول في آخر ذلك: من كان مسلما فليدخل الجنة، قال: فذلك قوله {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}".

وعن الضحاك في قوله:" {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}، قال: فيها وجهان اثنان، يقولون: إذا حضر الكافر الموت ودّ لو كان مسلما. ويقول آخرون: بل يعذّب الله ناسا من أهل التوحيد في النار بذنوبهم، فيعرفهم المشركون فيقولون: ما أغنت عنكم عبادة ربكم، وقد ألقاكم في النار، فيغضب لهم فيخرجهم، فيقول: {رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ}".

وأخرج ابن ابي حاتم بسنده عن ابن مسعود وناس من الصحابة في قوله: " {ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين}، قالوا: ود المشركون يوم بدر حين ضربت أعناقهم حين عرضوا على النار أنهم كانوا مؤمنين بمحمد ﷺ".

قرأت عامة قرّاء أهل المدينة وبعض الكوفيين «رُبَمَا» بتخفيف الباء، وقرأته عامة قرّاء الكوفة والبصرة بتشديدها.

قوله تعالى: {ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ} [الحجر: ٣]، أي:"اترك - أيها الرسول- الكفار يأكلوا، ويستمتعوا بدنياهم، ويشغلهم الطمع فيها عن طاعة

=

=

الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ذر يا محمد هؤلاء المشركين يأكلوا في هذه الدنيا ما هم آكلوه، ويتمتعوا من لذاتها وشهواتهم فيها إلى أجلهم الذي أجلت لهم، ويلههم الأمل عن الأخذ بحظهم من طاعة الله فيها، وتزوّدهم لمعادهم منها بما يقربهم من ربهم".

قال البغوي:"{ذرهم} يا محمد، يعني: الذين كفروا {يأكلوا} في الدنيا {ويتمتعوا} من لذاتهم {ويلههم} يشغلهم {الأمل} عن الأخذ بحظهم من الإيمان والطاعة".

قال الزمخشري:"يعنى: اقطع طمعك من ارعوائهم، ودعهم عن النهى عما هم عليه والصد عنه بالتذكرة والنصيحة، وخلهم يأكلوا ويتمتعوا بدنياهم وتنفيذ شهواتهم، ويشغلهم أملهم وتوقعهم لطول الأعمار واستقامة الأحوال، وأن لا يلقوا في العاقبة إلا خيرا".

قال ابن كثير:"تهديد لهم شديد، ووعيد أكيد، كقوله تعالى: {قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ} [إبراهيم: ٣٠] وقوله: {كُلُوا وَتَمَتَّعُوا قَلِيلا إِنَّكُمْ مُجْرِمُونَ} [المرسلات: ٤٦] ولهذا قال: {وَيُلْهِهِمُ الأَمَلُ} أي: عن التوبة والإنابة".

قال ابن عاشور: "والأمر بتركهم مستعمل في لازمه وهو قلة جدوى الحرص على إصلاحهم.

وليس مستعملا في الإذن بمتاركتهم لأن النبي ﷺ مأمور بالدوام على دعائهم".

قال ابن زيد:"هؤلاء الكفرة".

عن أبي مالك رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في قوله: " {ذرهم}، قال: خل عنهم".

قال القشيري:"قيمة كل امرئ على حسب همّته فإذا كانت الهمة مقصورة على الأكل والتمتع بالصفة البهيمية لا يحاسب، وعلى العقل لا يطالب فالتّكليف يتبعه

=

=

التشريف!".

قال الألوسي: ويلههم الأمل ويشغلهم التوقع لطول الأعمار، وبلوغ الأوطار، واستقامة الأحوال، وأن لا يلقوا إلا خيرا في العاقبة والمآل.

وقال القرطبي: وحقيقة الأمل: الحرص على الدنيا، والانكباب عليها، والحب لها، والإعراض عن الآخرة.

قوله تعالى: {فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [الحجر: ٣]، أي:"فسوف يعلمون عاقبة أمرهم الخاسرة في الدنيا والآخرة".

قال ابن كثير:"أي: عاقبة أمرهم".

قال الطبري:"فسوف يعلمون غدا إذا وردوا عليه. وقد هلكوا على كفرهم بالله وشركهم حين يُعاينون عذاب الله أنهم كانوا من تمتعهم بما كانوا يتمتعون فيها من اللذّات والشهوات كانوا في خسار وتباب".

قال الزمخشري: {فسوف يعلمون}، أي:"سوء صنيعهم. والغرض الإيذان بأنهم من أهل الخذلان، وأنهم لا يجيء منهم إلا ما هم فيه، وأنه لا زاجر لهم ولا واعظ إلا معاينة ما ينذرون به حين لا ينفعهم الوعظ، ولا سبيل إلى اتعاظهم قبل ذلك، فأمر رسوله بأن يخليهم وشأنهم ولا يشتغل بما لا طائل تحته، وأن يبالغ في تخليتهم حتى يأمرهم بما لا يزيدهم إلا ندما في العاقبة. وفيه إلزام للحجة ومبالغة في الإنذار وإعذار فيه. وفيه تنبيه على أن إيثار التلذذ والتنعم وما يؤدى إليه طول الأمل. وهذه هجيرى أكثر الناس ليس من أخلاق المؤمنين. وعن بعضهم: التمرغ في الدنيا من أخلاق الهالكين".

قال البغوي:"إذا وردوا القيامة وذاقوا وبال ما صنعوا، وهذا تهديد ووعيد. وقال بعض أهل العلم: "ذرهم" تهديد، وقوله: "فسوف يعلمون" تهديد آخر، فمتى يهنأ العيش بين تهديدين؟".

=

=

قال سهل بن عبد الله:"إذا اجتمعت أربعة في عبد قيل له: إنك لن تنال شيئا من هذا الأمر، إذا أحب أن يأكل شيئا طيبا، ويلبس ثوبا لينا، وينفذ أمره، ويكثر شيئه يقال: هيهات هذا الذي قطع الخلق عن الله تعالى.

وقد حكي أن الله أوحى إلى داود عليه السلام: حذر وأنذر أصحابك أكل الشهوات، فإن القلوب المعلقة بشهوات الدنيا عقولها عني محجوبة. وقال سهل: الأمل أرض كل معصية، والحرص بذر كل معصية، والتسويف ماء كل معصية، والقدرة أرض كل طاعة، واليقين بذر كل طاعة، والعمل ماء كل طاعة. قال: وكان سهل يقوى على الوجد سبعين يوما لا يأكل فيها طعاما، وكان يأمر أصحابه أن يأكلوا اللحم في كل جمعة مرة، كيلا يضعفوا عن العبادة، وكان إذا أكل ضعف، وإذا جاع قوي، وكان يعرق في البرد الشديد في الشتاء وعليه قميص واحد، وكان إذا سألوه عن شيء من العلم يقول: لا تسألوني فإنكم لا تنتفعون في هذا الوقت بكلامي. وفد عباس بن عصام يوما وهو يقول: أنا منذ ثلاثين سنة أكلم الله، والناس يتوهمون أني أكلمهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لسارية: «الجبل الجبل»".

وفي حكم الآية قولان: أحدهما: انها محكمة. وهو الصحيح.

الثاني: أنها منسوخة بآية السيف. قاله به ابن حزم الأنصاري في ناسخه ص: ٢٤٣، وابن سلامة في ناسخه (٥٨) وابن هلال في ناسخه المخطوط ورقة (٢٧)، وأعرض النحاس ومكي بن أبي طالب عن ذكر النسخ في هذه الآية، وهو الصواب.

قال ابن الجوزي:"والتحقيق أنها وعيد وتهديد، وذلك لا ينافي قتالهم فلا وجه للنسخ".

ويجدر القول بأن بعض العلماء توسعوا كثيرا في الحكم على كثير من آيات الصبر والمسالمة والإعراض عن المشركين وتهديدهم بالعذاب بالنسخ، وجعلوا آية

=

=

القتال أو آية السيف ناسخة لأكثر من مائة آية في القرآن الكريم. وفي هذا غلو في القول بالنسخ، وخروج به عن مفهومه الصحيح.

-قال الخازن: وهذا فيه تهديد ووعيد لمن أخذ بحظه من الدنيا، ولذاتها ولم يأخذ بحظه من طاعة الله، وقال بعض أهل العلم: ذرهم تهديد و فسوف يعلمون تهديد آخر فمتى يهنأ العيش بين تهديدين، وفي الآية دليل على أن إيثار التلذذ، والتنعم في الدنيا يؤدي إلى طول الأمل وليس ذلك من أخلاق المؤمنين.

-قال الشنقيطي: هدد الله تعالى الكفار في هذه الآية الكريمة بأمره نبيه ﷺ أن يتركهم يأكلون ويتمتعون، فسوف يعلمون حقيقة ما يؤول إليه الأمر من شدة تعذيبهم وإهانتهم. وهددهم هذا النوع من التهديد في مواضع أخر: كقوله (قل تمتعوا فإن مصيركم إلى النار). وقوله (كلوا وتمتعوا قليلا إنكم مجرمون) وقوله (قل تمتع بكفرك قليلا إنك من أصحاب النار) وقوله {فذرهم يخوضوا ويلعبوا حتى يلاقوا يومهم الذي يوعدون) وقوله (فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي فيه يصعقون) إلى غير ذلك من الآيات.

-وإنما أمره- سبحانه- بذلك، لعدم الرجاء في صلاحهم، بعد أن مكث فيهم الرسول ﷺ زمنا طويلا، يدعوهم إلى الحق، بأساليب حكيمة.

وفي تقديم الأكل على غيره، إيذان بأن تمتعهم إنما هو من قبيل تمتع البهائم بالمآكل والمشارب. قال تعالى (... والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم) كما أن فيه تعييرا لهم بما تعارفوا عليه من أن الاقتصار في الحياة على إشباع اللذات الجسدية، دون التفات إلى غيرها من مكارم الأخلاق، يدل على سقوط الهمة، وبلادة الطبع.

وفيه خطر طول الأمل.

وهو الحرص على الدنيا والانكباب عليها، والحب لها والإعراض عن الآخرة.

=

وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤).

{وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ} زَائِدَة {قَرْيَة} أُرِيدَ أَهْلهَا {إِلَّا وَلَهَا كِتَاب} أَجَل {مَعْلُوم} مَحْدُود لِإِهْلَاكِهَا.

مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) .

{مَا تَسْبِق مِنْ} زَائِدَة {أُمَّة أَجَلهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} يَتَأَخَّرُونَ عَنْهُ[1].

=

قال أبو السعود: الأمل التوقع لطول الأعمار وبلوغ الأوطار واستقامة الأحوال وألا يلقوا في العاقبة والمآل إلا خيرا.

(١) قوله تعالى: {وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ} [الحجر: ٤]

وإذا طلبوا نزول العذاب بهم تكذيبًا لك -أيها الرسول- فإنا لا نُهْلك قرية إلا ولإهلاكها أجل مقدَّر، لا نُهْلكهم حتى يبلغوه، مثل مَن سبقهم.

والمراد بالقرية أهلها.

والمراد بالكتاب المعلوم: الوقت المحدد في علم الله- تعالى- لهلاكها، شبه بالكتاب لكونه لا يقبل الزيادة أو النقص.

والمعنى: وما أهلكنا من قرية من القرى الظالم أهلها، إلا ولهلاكها وقت محدد في علمنا المحيط بكل شيء، ومحال أن تسبق أمة من الأمم أجلها المقدر لها أو تتأخر عنه.

قال تعالى (ولكل أمة أجل، فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون).

وقال تعالى (وكل شيء عنده بمقدار عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال).

قال ابن الجوزي:"أي: ما عذبنا من أهل قرية إلا ولها {كتاب معلوم}، أي: أجل موقت لا يتقدم ولا يتأخر عنه".

قال البغوي:"أي: من أهل قرية {إلا ولها كتاب معلوم} أي: أجل مضروب لا

=

=

يتقدم عليه، ولا يأتيهم العذاب حتى يبلغوه، ولا يتأخر عنهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره {وَمَا أَهْلَكْنَا} يا محمد {مِنْ} أهل {قَرْيَةٍ} من أهل القرى التي أهلكنا أهلها فيما مضى إلا ولها أجل مؤقَّت ومدة معروفة، لا نهلكهم حتى يبلغوها، فإذا بلغوها أهلكناهم عند ذلك، فيقول لنبيه محمد ﷺ، فكذلك أهل قريتك التي أنت منها وهي مكة، لا نهلك مشركي أهلها إلا بعد بلوغ كتابهم أجله، لأن مِنْ قضائي أن لا أهلك أهل قرية إلا بعد بلوغ كتابهم أجله".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: إنه ما أهلك قرية إلا بعد قيام الحجة عليها وانتهاء أجلها".

قال الزمخشري:"{كتاب معلوم}: مكتوب معلوم، وهو أجلها الذي كتب في اللوح وبين".

عن مجاهد:"{وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ}، قال: أجل معلوم".

قوله تعالى: {مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ} [الحجر: ٥]

لا تتجاوز أمة أجلها فتزيد عليه، ولا تتقدم عليه، فتنقص منه.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: ما يتقدّم هلاك أمة قبل أجلها الذي جعله الله أجلا لهلاكها، ولا يستأخر هلاكها عن الأجل الذي جعل لها أجلا".

قال البغوي:"أي: الموت لا يتقدم ولا يتأخر، وقيل: العذاب المضروب".

قال ابن كثير: أي:"وإنه لا يؤخر أمة حان هلاكها عن ميقاتها ولا يتقدمون عن مدتهم. وهذا تنبيه لأهل مكة، وإرشاد لهم إلى الإقلاع عما هم فيه من الشرك والعناد والإلحاد، الذي يستحقون به الهلاك".

عن مجاهد:"{مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ}، قال: لا مستأجر بعده".

عن الزهري، في قوله " {مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ}، قال: نرى أنه إذا حضر أجله، فإنه لا يؤخر ساعة ولا يقدّم. وأما ما لم يحضر أجله، فإن الله يؤخر ما

=

وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦).

{وَقَالُوا} أَيْ كُفَّار مَكَّة لِلنَّبِيِّ ﷺ {يأيها الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْر} الْقُرْآن فِي زَعْمه {إنك لمجنون}.

لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧).

{لوما} هَلَّا {تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْت مِنَ الصَّادِقِينَ} فِي قَوْلك إِنَّك نَبِيّ وَإِنَّ هَذَا الْقُرْآن من عند الله.

مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨).

قال تعالى {مَا نُنَزِّل} فِيهِ حَذْف إحْدَى التَّاءَيْنِ {الْمَلَائِكَة إلَّا بِالْحَقِّ} بِالْعَذَابِ {وَمَا كَانُوا إذًا} أَيْ حِين نُزُول الْمَلَائِكَة بِالْعَذَابِ {مُنْظَرِينَ} مُؤَخَّرِينَ(١).

=

شاء ويقدّم ما شاء".

-قال ابن عاشور: وإنما ذكر حال القرى التي أهلكت من قبل لتذكير هؤلاء بسنة الله في إمهال الظالمين لئلا يغرهم ما هم فيه من التمتع فيحسبوا أنهم أفلتوا من الوعيد.

-والآيتان الكريمتان تدلان بوضوح، على أن إمهال الظالمين ليس معناه ترك عقابهم، وإنما هو رحمة من الله بهم لعلهم أن يثوبوا إلى رشدهم، ويسلكوا الطريق القويم...

فإذا ما لجوا في طغيانهم، حل بهم عقاب الله- تعالى- في الوقت المحدد في علمه- سبحانه-.

(١) قوله تعالى: {وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} [الحجر: ٦].

أي: وقال مشركو مكة لمحمد على سبيل الاستهزاء والسخرية -لا على سبيل

=

=

الاعتراف- قالوا له: يا أيها الذى نزل عليه الذكر من السماء كما تزعم، إنك لمجنون بسبب هذه الدعوى، فإنها أكبر من قدره في تقديرهم الخاطئ، حيث إنهم زعموا أن النبوة تتبع الرياسة الدنيوية، إذ قالوا (وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم) والقريتان هما مكة والطائف، والرجل المقصود في مكة هو الوليد بن المغيرة المخزومي، والمقصود في الطائف حبيب بن عمرو بن عمير الثقفي كما روي عن ابن عباس. وقيل: عتبة ابن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل في الطائف -كما روى عن مجاهد، وقيل غير ذلك-.

والذكر في اللغة له عدة معان منها: الشرف، وقد أطلق هنا على القرآن كما أطلق عليه في نحو قوله تعالى في سورة الزخرف (وإنه لذكر لك ولقومك) وقوله سبحانه في سورة الحجر (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) لعلو شرفه، وقد عبر المشركون عنه بلفظ الذكر مجاراة للنص القرآني على سبيل الاستخفاف.

-قال الشنقيطي: قد يقال في هذه الآية الكريمة كيف يقرون بأنه أنزل إليه الذكر وينسبونه للجنون مع ذلك؟

والجواب: أن قولهم يا أيها الذي نزل عليه الذكر يعنون في زعمه تهكما منهم به، ويوضح هذا المعنى ورود مثله من الكفار متهكمين بالرسل عليهم صلوات الله وسلامه في مواضع أخر كقوله تعالى عن فرعون مع موسى قال (قال إن رسولكم الذي أرسل إليكم لمجنون) وقوله عن قوم شعيب (إنك لأنت الحليم الرشيد).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء المشركون لك من قومك يا محمد {يَا أَيُّهَا الَّذِي نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} وهو القرآن الذي ذكر الله فيه مواعظ خلقه".

قال البغوي:"{وقالوا} يعني: مشركي مكة {يا أيها الذي نزل عليه الذكر} أي: القرآن، وأرادوا به محمدا ﷺ {إنك لمجنون} وذكروا تنزيل الذكر على سبيل الاستهزاء".

=

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن كفرهم وعتوهم وعنادهم في قولهم: {يَا أَيُّهَا الَّذِي نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ} أي: الذي يدعي ذلك".

قال الزمخشري:"وكأن هذا النداء منهم على وجه الاستهزاء، كما قال فرعون: {إِنَّ رَسُولَكُمُ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ} [الشعراء: ٢٧]، وكيف يقرون بنزول الذكر عليه وينسبونه إلى الجنون، والتعكيس في كلامهم للاستهزاء والتهكم مذهب واسع. وقد جاء في كتاب الله في مواضع، منها: {فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيم} [آل عمران: ٢١/ التوبة:٣٤/ الإنشقاق:٢٤]، {إِنَّكَ لَأَنْتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ} [هود: ٨٧]، وقد يوجد كثيرا في كلام العجم".

قال السمعاني:"«الذكر»، هو القرآن".

عن الضحاك: " {نزلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ}، قال: القرآن".

قرأ الأعمش: «يا أيها الذي ألقى عليه الذكر».

قوله تعالى: {إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ} [الحجر: ٦]، أي:"إنك لذاهب العقل".

قال الطبري: أي: " في دعائك إيانا إلى أن نتَّبعك، ونذر آلهتنا".

قال ابن كثير:"أي: في دعائك إيانا إلى اتباعك وترك ما وجدنا عليه آباءنا".

قال الكَرَجي القصَّاب: " أي: أنت مجنون في ادعائك أن الذكر تنزل عليك من السماء أمره".

قال السمعاني: "قوله: {إنك لمجنون} خطابهم مع النبي".

قال الزمخشري:"المعنى: إنك لتقول قول المجانين حين تدعى أن الله نزل عليك الذكر".

قوله تعالى: {لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ} [الحجر: ٧]، أي:"هلا تأتينا بالملائكة لتشهد أن الله أرسلك".

قال ابن عباس: يريد لولا جئتنا بالملائكة حتى نصدقك".

=

قال مقاتل:"يعني: أفلا تجيئنا بالملائكة فتخبرنا بأنك نبي مرسل".
قال السمعاني:"أي: هلا تأتينا بالملائكة".
قال البغوي:"شاهدين لك بالصدق على ما تقول".
قال ابن كثير:"أي: هلا {تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ} أي: يشهدون لك بصحة ما جئت به".
قال الطبري:"قالوا: هلا تأتينا بالملائكة شاهدة لك على صدق ما تقول؟... والعرب تضع موضع «لوما»: «لولا» وموضع «لولا» «لوما»، من ذلك قول ابن مقبل:

لَوْما الحَياءُ وَلَوْمَا الدّينُ عِبْتُكما ... بِبَعْضِ ما فيكُما إذْ عِبْتُمَا عَوَرِي

يريد: لولا الحياء".
قوله تعالى: {إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ} [الحجر: ٧]، أي:"إن كنت صادقا في أن الله تعالى بعثك إلينا".
قال مقاتل:"بأنك نبي مرسل".
قال الواحدي: أي:"أنَّك نبي".
قال الطبري:"إن كنت صادقا في أن الله تعالى بعثك إلينا رسولا وأنزل عليك كتابا، فإن الربّ الذي فعل ما تقول بك، لا يتعذّر عليه إرسال ملك من ملائكته معك حجة لك علينا، وآية لك على نبوّتك، وصدق مقالتك.
-قال الشنقيطي: أن الكفار طلبوا من النبي ﷺ طلب تخصيص أن يأتيهم بالملائكة ليكون إتيان الملائكة معه دليلا على صدقه أنه رسول الله ﷺ، وبين طلب الكفار هذا في آيات أخر: كقوله عن فرعون مع موسى (فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جآء معه الملائكة مقترنين).
وقوله (وقال الذين لا يرجون لقآءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا).

=

=

وقوله (وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر).

وقوله (لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا).

وقوله (أو تأتي بالله والملائكة قبيلا).

-قال السعدي: وهذا من أعظم الظلم والجهل، أما الظلم فظاهر فإن هذا تجرؤ على الله وتعنت بتعيين الآيات التي لم يخترها وحصل المقصود والبرهان بدونها من الآيات الكثيرة الدالة على صحة ما جاء به، وأما الجهل، فإنهم جهلوا مصلحتهم من مضرتهم، فليس في إنزال الملائكة، خير لهم بل لا ينزل الله الملائكة إلا بالحق الذي لا إمهال على من لم يتبعه وينقد له.

قوله تعالى: {مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ} [الحجر: ٨]، أي:"أي: ما ننزل ملائكتنا إلا بالعذاب لمن أردنا إهلاكه".

قال أبو حيان: الحق هنا: العذاب، قاله الحسن، أو الرسالة، قاله مجاهد، أو قبض الأرواح عند الموت، قاله ابن السائب، أو القرآن، ذكره الماوردي. وقال الزمخشري: إلا تنزلا ملتبسا بالحكمة والمصلحة، ولا حكمة في أن تأتيكم عيانا تشاهدونهم، ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ؛ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار. وقال ابن عطية: والظاهر أن معناها: كما يجب ويحق من الوحي والمنافع التي أرادها الله تعالى لعباده، لا على اقتراح كافر، ولا باختيار معترض.

وقال السمعاني: الحق الذي تنزل به الملائكة هو الوحي، وقبض أرواح العباد، وإهلاك الكفار، وكتابة الأعمال، وما أشبه ذلك.

قال الواحدي:"أَيْ: بالعذاب".

قال الطبري: أي:"ما ننزل ملائكتنا إلا بالحقّ، يعني بالرسالة إلى رسلنا، أو بالعذاب لمن أردنا تعذيبه".

قال السمعاني:"الحق الذي تنزل به الملائكة هو الوحي، وقبض [أرواح] العباد،

=

=

وإهلاك الكفار، وكتبة الأعمال، وما أشبه ذلك".

عن مجاهد، قوله: " {مَا نُنزلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ}، قال: بالرسالة والعذاب".

وقرأ بعض قراء أهل الكوفة «مَا تُنزلُ المَلائِكَةُ»، برفع «الملائكة» والتاء في «تنزل» وضمها، على وجه ما لم يسمّ فاعله.

قوله تعالى: {وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ} [الحجر: ٨].

أي: ولو نزلنا الملائكة على الكفار- كما اقترحوا- فرأوا الملائكة عيانا ولم يؤمنوا؛ فلن يمهلهم الله، وسيعذبهم في الحال.

وممن اختار هذا المعنى: ابن جرير، وابن جزي، والخازن، والسعدي.

وممن قال بهذا القول من السلف: السدي.

أي: وفي هذه الحالة لا إمهال لهم ولا تأجيل، والغرض أن عادة الله تعالى قد جرت في خلقه، أنه لا ينزل الملائكة إلا لمن يريد إهلاكهم بعذاب الاستئصال، وهو لا يريد ذلك مع أمته، لعلمه تعالى أنه سيخرج من أصلابهم من يعبد الله، ففيه رد عليهم فيما اقترحوا.

-قال السعدي: (وما كانوا إذا) أي: حين تنزل الملائكة، إن لم يؤمنوا، ولن يؤمنوا بـ (منظرين) أي: بمهملين، فصار طلبهم لإنزال الملائكة تعجيلا لأنفسهم بالهلاك والدمار، فإن الإيمان ليس في أيديهم وإنما هو بيد الله، (ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون) ويكفيهم من الآيات إن كانوا صادقين، هذا القرآن العظيم.

وقيل المعنى: ولو نزلنا الملائكة على الكفار بالعذاب، فلن يؤخر الله عنهم العذاب حين نزوله، ولن تقبل لهم توبة.

وممن اختار هذا المعنى: القرطبي، وابن عاشور، والشنقيطي.

=

=

-قال الشنقيطي: بين جل وعلا في هذه الآية الكريمة أنه ما ينزل الملائكة إلا بالحق أي بالوحي وقيل بالعذاب.

وقال الزمخشري: " إلا تنزيلا متلبسا بالحكمة والمصلحة ولا حكمة في أن تأتيكم الملائكة عيانا تشاهدونهم ويشهدون لكم بصدق النبي ﷺ لأنكم حينئذ مصدقون عن اضطرار " قال: " ومثل هذا قوله تعالى (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهمآ إلا بالحق).

وبين تعالى في هذه الآية الكريمة أنهم لو نزلت عليهم الملائكة، ما كانوا منظرين وذلك في قوله (وما كانوا إذا منظرين) وتقدير المعنى ولو نزلت عليكم الملائكة ما كانوا منظرين أي ممهلين بتأخير العذاب عنهم.

وقد بين هذا المعنى في مواضع أخر كقوله (يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين) الآية وقوله (ولو أنزلنا ملكا لقضي الأمر ثم لا ينظرون).... (أضواء البيان).

قال السدي:"وما كانوا لو تنزلت الملائكة بمنظرين من ان يعذبوا".

قال البغوي:"أي: مؤخرين، وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عيانا فأجابهم الله تعالى بهذا. ومعناه: إنهم لو نزلوا أعيانا لزال عن الكفار الإمهال وعذبوا في الحال".

قال الواحدي:"أي: لو نزلت الملائكة لم يُنظروا ولم يُمهلوا".

قال الطبري: أي:"ولو أرسلنا إلى هؤلاء المشركين على ما يسألون إرسالهم معك آية فكفروا لم يُنظروا فيؤخروا بالعذاب، بل عوجلوا به كما فعلنا ذلك بمن قبلهم من الأمم حين سألوا الآيات فكفروا حين آتتهم الآيات، فعاجلناهم بالعقوبة".

قال السمعاني:"أي: مؤخرين، وقد كان الكفار يطلبون إنزال الملائكة عيانا، فأجابهم الله تعالى بهذا، ومعناه: أنهم لو نزلوا عيانا زال الإمهال عن الكفار وعذبوا

=

إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩).

{إِنَّا نَحْنُ} تَأْكِيد لِاسْمِ إِنَّ أَوْ فَصْل {نَزَّلْنَا الذِّكْر} الْقُرْآن {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} مِنْ التَّبْدِيل وَالتَّحْرِيف وَالزِّيَادَة وَالنَّقْص(١).

=

في الحال".

(١) قوله تعالى: {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ} [الحجر: ٩].

أي: إنا نحن -رب السموات والأرض- نزلنا القرآن الذي أنكروا أنه وحي من عندي، نزلناه عليك، وإنا نحن بعظم شأننا لحافظون هذا القرآن من التغيير والتبديل والضياع، ليبقى آية ديننا ودستور شريعتنا ما بقي الزمان، فلن يعتريه تحريف ولا تبديل ولا زيادة ولا نقصان.

قال ابن أبي زمنين والواحدي والبغوي:"يعني: القرآن".

قال مقاتل:"يعني القرآن على محمد- ﷺ-".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ}، وهو القرآن".

قال ابن كثير:"ثم قرر تعالى أنه هو الذي أنزل الذكر، وهو القرآن".

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ} [الحجر: ٩].

أي: لحافظون له من كل ما يقدح فيه، كالتحريف والتبديل، والزيادة والنقصان والتناقض والاختلاف، ولحافظون له بالإعجاز، فلا يقدر أحد على معارضته أو على الإتيان بسورة من مثله.

قال ابن الجوزي: الذكر: القرآن، في قول جميع المفسرين.

وقال الرازي: في تسمية القرآن بالذكر وجوه:

أحدها: أنه كتاب فيه ذكر ما يحتاج إليه الناس من أمر دينهم ودنياهم.

وثانيها: أنه يذكر أنواع آلاء الله تعالى ونعمائه، ففيه التذكير والمواعظ.

وثالثها: فيه الذكر والشرف لك ولقومك على ما قال (وإنه لذكر لك ولقومك).

=

=

قال الواحدي:"من أن يُزاد فيه أو يُنقص".

قال الطبري:"قال: وإنا للقرآن لحافظون من أن يزاد فيه باطل مَّا ليس منه، أو ينقص منه ما هو منه من أحكامه وحدوده وفرائضه".

قال ابن أبي زمنين:"حفظه الله من إبليس أن يزيد فيه شيئا، أو ينقص منه".

قال ابن كثير:"وهو الحافظ له من التغيير والتبديل. ومنهم من أعاد الضمير في قوله تعالى: {لَهُ لَحَافِظُونَ} على النبي ﷺ، كقوله: {وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة: ٦٧] والمعنى الأول أولى، وهو ظاهر السياق".

قال البغوي:"أي: نحفظ القرآن من الشياطين أن يزيدوا فيه، أو ينقصوا منه، أو يبدلوا، قال الله تعالى: {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه} [فصلت:٤٢]، و «الباطل»: هو إبليس، لا يقدر أن يزيد فيه ما ليس منه ولا أن ينقص منه ما هو منه. وقيل الهاء في {له} راجعة إلى محمد ﷺ أي: إنا لمحمد لحافظون ممن أراده بسوء كما قال جل ذكره: {والله يعصمك من الناس} [المائدة:٦٧]".

عن قتادة، قوله:"{إِنَّا نَحْنُ نزلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، قال في آية أخرى {لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ}، والباطل: إبليس {مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ}، فأنزله الله ثم حفظه، فلا يستطيع إبليس أن يزيد فيه باطلا ولا ينتقص منه حقا، حفظه الله من ذلك".

وقال قتادة:"وقيل: الهاء في قوله {وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ}، من ذكر محمد ﷺ بمعنى: وإنا لمحمد حافظون ممن أراده بسوء من أعدائه".

قال السمعاني:"{وإنا له لحافظون} فيه قولان: أحدهما: أنا نحفظ محمدا، والآخر: أنا نحفظ القرآن، وهو الأليق بظاهر اللفظ، ومعنى حفظ القرآن أنه يمنع من الزيادة فيه أو النقصان عنه، قال الله تعالى {لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه} والباطل هو إبليس، ومعناه: أن إبليس لا يقدر أن يزيد فيه ما ليس منه، ولا أن ينقص عنه ما هو منه".

=

=

(فائدة): قد حقق الله سبحانه وتعالى وعده في حفظ كتابه، ومن مظاهر ذلك:

أ- أن ما أصاب المسلمين من ضعف ومن فتن، ومن هزائم، وعجزوا معها عن حفظ أنفسهم وأموالهم وأعراضهم، هذا الذي أصابهم في مختلف الأزمنة والأمكنة، لم يكن له أي أثر على قداسة القرآن الكريم، وعلى صيانته من أي تحريف.

ومن أسباب هذه الصيانة أن الله تعالى قيض له في كل زمان ومكان من أبناء هذه الأمة - من حفظه عن ظهر قلب، فاستقر بين الأمة بمسمع من النبي ﷺ، وصار حفاظه بالغين عدد التواتر في كل مصر وفي كل عصر.

ب-أن أعداء هذا الدين - سواء أكانوا من الفرق الضالة المنتسبة للإسلام، أم من غيرهم - امتدت أيديهم الأثيمة إلى أحاديث النبي ﷺ، فأدخلوا فيها ما ليس منها، وبذل العلماء العدول الضابطون ما بذلوا من جهود لتنقية السنة النبوية مما فعله هؤلاء الأعداء، ولكن هؤلاء الأعداء لم يقدروا على شيء واحد، وهو إحداث شيء في هذا القرآن، مع أنهم وأشباههم في الضلال، قد أحدثوا ما أحدثوا في الكتب السماوية السابقة.

والخلاصة، أن سلامة القرآن من أي تحريف - رغم حرص الأعداء على تحريفه، ورغم ما أصاب المسلمين من أحداث جسام، ورغم تطاول القرون والدهور - دليل ساطع على أن هناك قوة خارجة عن قوة البشر قد تولت حفظ هذا القرآن، وهذه القوة هي قوة الله ﷻ، ولا يماري في ذلك إلا الجاحد الجهول.

-قال ابن جرير في وجه تسميته بالذكر: إنه محتمل معنيين:

أحدهما: أنه ذكر من الله جل ذكره، ذكر به عباده، فعرفهم فيه حدوده وفرائضه، وسائر ما أودعه من حكمه.

والآخر: أنه ذكر وشرف وفخر لمن آمن به وصدق بما فيه، كما قال جل ثناؤه

=

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠).

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلك} رُسُلًا {فِي شِيَع} فرق {الأولين}.

وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١).

{وَمَا} كَانَ {يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُول إلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} كاستهزاء قومك به وَهَذَا تَسْلِيَة لَهُ ﷺ.

كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢).

{كَذَلِكَ نَسْلُكهُ} أَيْ مِثْل إدْخَالنَا التَّكْذِيب فِي قُلُوب أُولَئِكَ نُدْخِلهُ {فِي قُلُوب الْمُجْرِمِينَ} أَيْ كفار مكة.

لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣).

{لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ} بِالنَّبِيِّ ﷺ {وَقَدْ خَلَتْ سُنَّة الْأَوَّلِينَ} أَيْ سُنَّة الله فِيهِمْ مِنْ

=

(وإنه لذكر لك ولقومك) يعني أنه شرف به شرف له ولقومه.

-وقال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله: وسمي القرآن ذكرا:

أولا: لما فيه من التذكير والموعظة.

ثانيا: لما فيه من الأخبار الماضية، وقصص الأنبياء الغابرة المفيدة للقلب، كما قال تعالى (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب).

ثالثا: لما فيه من ذكر أحوال الناس في الجزاء يوم القيامة، وأنهم ينقسمون إلى: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

رابعا: لما فيه من ذكر العرب ورفع شأنهم، كما قال تعالى (وإنه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون).

خامسا: ذكر شريعة الله وأحكامه من الأوامر والنواهي.

تَعْذِيبهمْ بِتكْذِيبِهِمْ أَنْبِيَاءَهُمْ وَهَؤُلَاءِ مثلهم[١].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ} [الحجر: ١٠]

ولقد أرسلنا من قبلك -أيها الرسول- رسلا في فِرَق الأولين، والخطاب للنبي ﷺ.

والشيع جمع شيعة وهي الطائفة من الناس، أي: في فرق الأولين وطوائفهم وجماعاتهم.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: ولقد أرسلنا يا محمد من قبلك في الأمم الأوّلين رسلا، وترك ذكر الرسل اكتفاء بدلالة قوله {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ} عليه، وعنى بـ «شيع الأوّلين»: أمم الأوّلين: واحدتها شيعة، ويقال أيضا لأولياء الرجل: شيعته".

قال ابن أبي زمنين:"أي: في قرن؛ يعني: قوم نوح وسائر الأمم".

قال الواحدي:"أَيْ: رسلاً {في شيع الأَوَّلين} أَيْ: فِرَقِهم".

قال ابن كثير:"يقول تعالى مسليًا لرسوله في تكذيب من كذَّبه من كفار قريش: إنه أرسل من قَبْله في الأمم الماضية".

قال السمعاني:"«الشيعة»: هم القوم المجتمعة المتفقة كلمتهم، ومعناه هاهنا: في أمم الأولين".

عن ابن عباس: " {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ}، يقول: أمم الأولين".

عن قتادة، قوله:"{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الأَوَّلِينَ}، قال: في الأمم".

قوله تعالى: {وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الحجر: ١١]

أي: إلا أن قابلت كل فرقة منهم رسولها بالسخرية والاستهزاء كما قابلك سفهاء قومك.

وهذه تسلية للنبي ﷺ، والمعنى: كما فعل بك هؤلاء المشركون، فكذلك فعل =

=

بمن قبلك من الرسل، فلا تحزن على سخريتهم واستهزائهم بك.

قال الطبري:"يقول: وما يأتي شيع الأوّلين من رسول من الله يرسله إليهم بالدعاء إلى توحيده، والإذعان بطاعته، إلا كانوا به يستهزءون: يقول: إلا كانوا يسخرون بالرسول الذي يرسله الله إليهم عتُوّا منهم وتمرّدا على ربهم".

قال ابن كثير:"وإنه ما أتى أمة رسول إلا كذبوه واستهزؤوا به".

قال الواحدي:"تعزية للنبي ﷺ".

قال السمعاني:"هذا تسلية للنبي، ومعناه: أنهم كما استهزءوا بك فقد استهزئ بالأنبياء من قبلك".

قوله تعالى: {كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ} [الحجر: ١٢].

والضمير المنصوب في (نسلكه) يعود إلى القرآن الكريم الذي سبق الحديث عنه.

والمراد بالمجرمين في قوله في قلوب المجرمين مشركو قريش ومن لف لفهم.

والمعنى: كما سلكنا كتب الرسل السابقين في قلوب أولئك المستهزئين نسلك القرآن في قلوب هؤلاء المجرمين من قومك يا محمد، بأن نجعلهم يسمعونه ويفهمونه ويدركون خصائصه دون أن يستقر في قلوبهم استقرار تصديق وإذعان لاستيلاء الجحود والعناد والحسد عليهم. (لا يؤمنون به) أي: أدخلنا القرآن في قلوبهم ففهموه، ولكنهم لا يؤمنون به عنادا وجحودا.

وعلى هذا التفسير يكون الضمير في (نسلكه) وفي (به) يعودان إلى القرآن الكريم، الذي سبق الحديث عنه في قوله- تعالى- إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون.

ومن اختار هذا المعنى المذكور أن الضمير في قوله تعالى (نسلكه) عائد على القرآن: الزمخشري، والرازي، وابن القيم، والشوكاني، والبقاعي، وابن عاشور.

قال ابن عاشور: أي هكذا نولج القرآن في عقول المشركين؛ فإنهم يسمعونه ويفهمونه؛ إذ هو من كلامهم، ويدركون خصائصه.

=

=

وقيل المعنى: أي كذلك نسلك الباطل والضلال والاستهزاء بأنبياء الله في قلوب المجرمين، كما سلكناه وأدخلناه في قلوب أولئك المستهزئين (لا يؤمنون به) أي لا يؤمنون بهذا القرآن.

وممن اختار هذا القول: ابن جرير، والبغوي، وابن الجوزي، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي.

قال النحاس: هذا القول [أي: نسلك التكذيب] هو الذي عليه أهل التفسير وأهل اللغة، إلا من شذ منهم.

قال ابن زيد:"هم كما قال الله، هو أضلهم ومنعهم الإيمان، يقال منه: سلكه يسلكه سلكا وسلوكا، وأسلكه يسلكه إسلاكا، ومن السلوك قول عديّ بن زيد:

وكنْت لِزَازَ خَصْمِكَ لَمْ أعرّدْ وَقَدْ سَلَكوكَ فِي يَوْم عَصِيبِ

ومن الإسلاك قول الآخر:

حتى إذَا أَسْلَكُوهُمْ فِي قُتَائِدَةٍ شَلا كَما تَطْرد الجَمالَة الشردَا".

قوله تعالى: {لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ} [الحجر: ١٣]، أي:"لا يُصَدِّقون بالذكر الذي أُنزل إليك".

قال الطبري:"يقول: لا يصدّقون بالذكر الذي أنزل إليك".

قوله تعالى: {وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ} [الحجر: ١٣]، أي:"وقد مضت سنَّة الأولين بإهلاك الكفار، وهؤلاء مِثْلهم، سَيُهْلك المستمرون منهم على الكفر والتكذيب".

أي: وقد مضت عادة الله – التي لا تتخلف – بإهلاك الكفار من الأمم الماضية ممن كذب الرسل.

كما قال تعالى: كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب).

=

وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤).

{وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاء فَظَلُّوا فِيهِ} فِي الْبَاب {يَعْرُجُونَ} يَصْعَدُونَ.

=

وأهل مكة إن استمروا على تكذيبهم، فسوف يحل بهم مثل ما حل ممن سبقهم جريا على سنة الله في المكذبين.

وممن ذهب إلى هذا المعنى المذكور: البغوي، والقرطبي، وابن كثير، والسعدي.

وقيل: المعنى: وقد مضت سنة الأولين بتكذيب رسل الله، وهؤلاء المشركون يقتفون آثارهم.

وممن اختار هذا المعنى: الزجاج، والنحاس، والواحدي.

قال قتادة:"وقائع الله فيمن خلا قبلكم من الأمم".

قال البيضاوي:"أي: سنة الله فيهم بأن خذلهم وسلك الكفر في قلوبهم، أو بإهلاك من كذب الرسل منهم فيكون وعيدا لأهل مكة".

قال الزجاج:"أي: وقد مضت سنة الأولين بمثل ما فعله هؤلاء، فهم يقتفون آثارهم في الكفر".

قال السعدي:"{سنة الأولين}، أي: عادة الله فيهم بإهلاك من لم يؤمن بآيات الله".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لا يؤمن بهذا القرآن قومك الذين سلكت في قلوبهم التكذيب {حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ}، أخذا منهم سنة أسلافهم من المشركين قبلهم من قوم عاد وثمود وضربائهم من الأمم التي كذّبت رسلها، فلم تؤمن بما جاءها من عند الله حتى حلّ بها سخط الله فهلكت".

قال القشيري:"أخبر أنه كانت عادتهم التكذيب، وأنه أدام سنّته معهم فى التعذيب".

لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ (١٥).

{لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ} سُدَّتْ {أَبْصَارنَا بَلْ نَحْنُ قَوْم مَسْحُورُونَ} يُخَيَّل إِلَيْنَا ذَلِكَ[١].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ} [الحجر: ١٤].

أي: ولو فتحنا على كفار مكة بابا من السماء، ومكناهم من الصعود فيه، فصاروا يعرجون ويصعدون فيه بآلة أو بغيرها، وهم يرون ما في السماء من الملائكة والعجائب في وضوح واستبانة.

-قال ابن كثير: يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق أنه لو فتح لهم بابا من السماء فجعلوا يصعدون فيه لما صدقوا بذلك.

قال مقاتل:"يعني: على كفار مكة {بابا من السماء} فينظرون إلى الملائكة عيانا كيف يصعدون إلى السماء".

قال البيضاوي:"أي: على هؤلاء المقترحين. {بابا من السماء}".

قال السعدي:"أي: ولو جاءتهم كل آية عظيمة لم يؤمنوا وكابروا {ولو فتحنا عليهم بابا من السماء}".

قوله تعالى: {فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ} [الحجر: ١٤]، أي:"فاستمروا صاعدين فيه حتى يشاهدوا ما في السماء من عجائب ملكوت الله".

قال مقاتل:"يقول: فمالوا في الباب يصعدون".

قال البيضاوي: أي:"يصعدون إليها ويرون عجائبها طول نهارهم مستوضحين لما يرون".

قال السعدي: أي:"فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه عيانا بأنفسهم".

قال الزمخشري:"وذكر «الظلول» ليجعل عروجهم بالنهار ليكونوا مستوضحين لما يرون. وقال: إنما، ليدل على أنهم يبتون القول بأن ذلك ليس إلا تسكيرا =

=

للأبصار".

وفي قوله تعالى: {فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ} [الحجر: ١٤]، وجهان:

أحدهما: فظل هؤلاء المشركون يعرجون فيه، قاله الحسن، وقتادة، ومقاتل.

قال الحسن:"لو فعل هذا ببني آدم فظلوا فيه يعرجون أي يختلفون".

قال الزمخشري:"«سكرت» من: السكر، أي: حارت كما يحار السكران. والمعنى: أن هؤلاء المشركين بلغ من غلوهم في العناد: أن لو فتح لهم باب من أبواب السماء، ويسر لهم معراج يصعدون فيه إليها، ورأوا من العيان ما رأوا، لقالوا: هو شيء نتخايله لا حقيقة له، ولقالوا قد سحرنا محمد بذلك".

الثاني: فظلت الملائكة فيه يعرجون وهم يرونهم، قاله ابن عباس، والضحاك.

والمعنى على هذا القول: "لو أريناهم الملائكة يصعدون في السماء عيانا لقالوا ذلك".

قال ابن عباس:"فظلت الملائكة يعرجون فيه يراهم بنو آدم عيانا".

وفي رواية:"قال ابن عباس: فظلت الملائكة تعرج فنظروا إليهم".

وقال ابن عباس:""لو فتح الله عليهم من السماء بابا فظلت الملائكة تعرج فيه، يقول: يختلفون فيه جائين وذاهبين".

قال الضحاك:"يعني: الملائكة: يقول: لو فتحتُ على المشركين بابا من السماء، فنظروا إلى الملائكة تعرج بين السماء والأرض".

قوله تعالى: {لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا} [الحجر: ١٥].

أي لقالوا - لفرط مكابرتهم وعنادهم - إنما سدت أبصارنا وخدعت بهذا الارتقاء والصعود.

قال الطبري:"يقول: لقال هؤلاء المشركون الذين وصف جلّ ثناؤه صفتهم: ما هذا بحقّ إنما سكِّرت أبصارنا".

=

=

قال السعدي: أي:"فصاروا يعرجون فيه، ويشاهدونه عيانا بأنفسهم".

قال ابن عباس:"لقالوا من ظلمهم وعنادهم منكرين لهذه الآية: {إنما سكرت أبصارنا} أي: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نر".

وفي رواية:"قريش تقوله".

قال الزجاج:"ثم أعلم تعالى أنهم إذا وردت عليهم الآية المعجزة قالوا سحر، وقالوا: {سكرت أبصارنا}، كما قالوا حين انشق القمر: هذا {سِحْرٌ مُسْتَمِر} [القمر: ٢]»".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن قوة كفرهم وعنادهم ومكابرتهم للحق: أنه لو فتح لهم بابًا من السماء، فجعلوا يصعدون فيه، لما صدّقوا بذلك، بل قالوا: {سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا}".

وفي قوله تعالى: {سُكِّرَتْ} [الحجر: ١٥]، قراءتان:

إحداهما: {سُكِّرَتْ} بتشديد الكاف. وهي قراءة أهل المدينة والعراق.

والثانية: «سُكِرَتْ». بتخفيف الكاف. قرأ بها مجاهد.

وفي اختلاف القرائتين، وجهان:

أحدهما: معناهما واحد، فعلى هذا وجوه من التفسير:

أحدها: سُدّت أَبْصَارُنَا، قاله مجاهد، والضحاك، ورواه ابن جريج عن ابن كثير، وبه قال مقاتل.

قال الطبري:"فكأن مجاهدا ذهب في قوله، وتأويله ذلك بمعنى: سدّت، إلى أنه بمعنى: منعت النظر، كما يُسكر الماء فيمنع من الجري بحبسه في مكان بالسكر الذي يسَّكر به".

الثاني: عميت، رواه عبدالوهاب بن عطاء عن الكلبي.

الثالث: أخذت أَبْصَارُنَا، قاله ابن عباس، وقتادة.

=

=

قال ابن عباس:"إنما أخذ أبصارنا، وشبَّه علينا، وإنما سحرنا".

قال الطبري:"وكأن هؤلاء وجَّهوا معنى قوله «سُكِّرَتْ» إلى أن أبصارهم سُحرت، فشبه عليهم ما يبصرون، فلا يميزون بين الصحيح مما يرون وغيره من قول العرب: سُكِّر على فلان رأيه: إذا اختلط عليه رأيه فيما يريد، فلم يدر الصواب فيه من غيره، فإذا عزم على الرأي قالوا: ذهب عنه التسكير".

الرابع: خدعت، قاله جويبر.

الخامس: تحيرت وسكنت عن أن تنظر. ذكره الزجاج.

السادس: أنه مأخوذ من «السكر»، ومعناه: غشي على أبصارنا فلا نبصر، كما يفعل السكر بصاحبه، فذلك إذا دير به وغشي بصره كالسمادير فلم يبصر. وهذا قول ابن زيد.

السابع: معناه حبست، قاله مجاهد، وأبو عبيدة، ومنه قول أوس بن حجر:

تُزَادُ ليَاليَّ في طُولِهَا فلَيْسَتْ بِطَلْقٍ ولا ساكِرِهْ

قال أبو عبيدة:"العرب: تقول: قد سكرت الريح إذا سكنت وركدت".

الثامن: غُشيت وغطيت، قاله أبو عمرو بن العلاء، ومنه قول الشاعر:

وطلعت شمسٌ عليها مغفر وجَعَلَتْ عين الحرور تسكر

قال أبو عبيدة:"فالغشاء والحيس قريب من السواء".

والوجه الثاني: أن معنى «سكرت» بالتشديد والتخفيف مختلف، وفي اختلافهما وجوه:

أحدها: أن معناه- بالتخفيف-: سُحِرَتْ، وبالتشديد: أخذت.

الثاني: أن «سُكِرَتْ» مخففة، يعني: سحرت، و {سُكِّرَتْ} مشددة: يعني: سدّت. قاله قتادة.

الثالث: أنه بالتخفيف من: سُكر الشراب، وبالتشديد مأخوذ من: سكرت الماء.

=

=

قال أبو عبيدة:"معناهما متقارب".

قال الطبري:"وأولى هذه الأقوال بالصواب عندي قول من قال: معنى ذلك: أخذت أبصارنا وسحرت، فلا تبصر الشيء على ما هو به، وذهب حدّ إبصارها، وانطفأ نوره، كما يقال للشيء الحارّ إذا ذهبت فورته، وسكن حدّ حرّه، قد سكر يسكر، قال المثنى بن جندل الطُّهوي:

جـاءَ الشِّتاءُ واجْثَأَلَّ القُبَّرُ ... واستَخْفَتِ الأَفْعَى وكانت تَظْهَرُ

وجَعَلَتْ عينُ الحَرُور تَسْكُرُ

أي: تسكن وتذهب وتنطفئ، وقال ذو الرّمَّة:

قَبْلَ انْصِداعِ الفَجْرِ والتَّهَجْرِ ... وخَوْضُهُنَّ اللَّيلَ حينَ يَسْكُرُ

يعني: حين تسكن فورته. وذُكر عن قيس أنها تقول: سكرت الريح تسكر سكورا، بمعنى: سكنت، وإن كان ذلك عنها صحيحا، فإن معنى سُكِرَت وسُكِّرَتْ بالتخفيف والتشديد متقاربان".

قال الراغب الأصفهاني:"السكر: حبس الماء، وذلك باعتبار ما يعرض من السد بين المرء وعقله، والسكر: الموضع المسدود، وقوله تعالى: {إنما سكرت أبصارنا} [الحجر: ١٥]، قيل: هو من السكر، وقيل: هو من السكر، وليلة ساكرة، أي: ساكنة اعتبارا بالسكون العارض من السكر".

قوله تعالى: {بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ} [الحجر: ١٥]، أي:"وما نحن إلا مسحورون في عقولنا من محمد".

قال السعدي:"أي: ليس هذا بحقيقة، بل هذا سحر، وقوم وصلت بهم الحال إلى هذا الإنكار، فإنهم لا مطمع فيهم ولا رجاء".

قال ابن عباس:"لقالوا من ظلمهم وعنادهم منكرين لهذه الآية: {إنما سكرت أبصارنا} أي: أصابها سكر وغشاوة حتى رأينا ما لم نر".

=

وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦).

{وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاء بُرُوجًا} اثْنَيْ عَشَر الْحَمْل وَالثَّوْر وَالْجَوْزَاء وَالسَّرَطَان وَالْأَسَد وَالسُّنْبُلَة وَالْمِيزَان وَالْعَقْرَب وَالْقَوْس وَالْجَدْي وَالدَّلْو وَالْحُوت وَهِيَ مَنَازِل الْكَوَاكِب السَّبْعَة السَّيَّارَة الْمِرِّيخ وَلَهُ الْحَمْل وَالْعَقْرَب وَالزُّهْرَة وَلَهَا الثَّوْر وَالْمِيزَان وَعُطَارِد وَلَهُ الْجَوْزَاء وَالسُّنْبُلَة وَالْقَمَر وَلَهُ السَّرَطَان وَالشَّمْس وَلَهَا الْأَسَد وَالْمُشْتَرِي وَلَهُ القوس والحوت وزحل له الجدي والدلو {وزيناها} بالكواكب {للناظرين}.

وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) .

{وَحَفِظْنَاهَا} بِالشُّهُبِ {مِنْ كُلّ شَيْطَان رَجِيم} مَرْجُوم.

إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) .

{إلَّا} لَكِنْ {مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْع} خَطَفَهُ {فَأَتْبَعَهُ شِهَاب مُبِين} كَوْكَب يُضِيء وَيُحْرِقهُ أَوْ يَثْقُبهُ أو يخبله[1].

=

قال الضحاك: "لقال المشركون: {نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ}، سحرنا وليس هذا بالحقّ. ألا ترى أنهم قالوا قبل هذه الآية {لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}".

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا} [الحجر: ١٦].

أي: ولقد خلقنا وأبدعنا منازل وطرقا في السماء، تسير فيها الكواكب بقدرتنا، وإرادتنا، وحكمتنا، دون خلل أو اضطراب.

كما قال تعالى (تبارك الذي جعل في السماء بروجا)، وقال تعالى (والسماء ذات البروج).

قال القرطبي: لما ذكر سبحانه كفر الكافرين، وعجز أصنامهم، ذكر كمال قدرته

=

=

ليستدل بها على وحدانيته.

وفي تفسير قوله تعالى: {وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا} [الحجر: ١٦]، وجوه:

أحدها: أنها بروج الشمس والقمر، أي: منازلهما، قاله ابن عباس، وأبو عبيدة، وعلي بن عيسى.

قال الطبري:"ولقد جعلنا في السماء الدنيا منازل للشمس والقمر، وهي كواكب ينزلها الشمس والقمر".

قال ابن قتيبة: "هي اثنا عشر برجًا".

الثاني: أنها قصور، روي عن ابن عباس -أيضًا-.

وعن عطية:"{ولقد جعلنا في السماء بروجا}، قال: قصورا في السماء فيها الحرس".

وقال ابن قتيبة: "أصل البرج: القصر والحِصْن".

الثالث: أنها الكواكب، قاله مجاهد، وقتادة، ومقاتل.

عن قتادة:"{ولقد جعلنا في السماء بروجا}، قال: الكواكب".

الرابع: أنها الكواكب العظام، يعني: السبعة السيارة. قاله أبو صالح.

عن أبي صالح قوله: " {ولقد جعلنا في السماء بروجا}، قال: الكواكب العظام".

الخامس: أنها النجوم، قاله الحسن، ومجاهد، وقتادة، وابن أبي نجيح.

قال قتادة:"وبروجها: نجومها".

قال قتادة: "سُميت بروجًا، لظهورها".

قال الشنقيطي: واختلف العلماء في المراد بالبروج في الآيات المذكورة:

فقال بعضهم: البروج: الكواكب، وممن روي عنه هذا القول مجاهد وقتادة.

وعن أبي صالح: أنها الكواكب العظام.

وقيل: هي قصور في السماء عليها الحرس. وممن قال به عطية.

=

=

وقيل: هي منازل الشمس والقمر، قاله ابن عباس. وأسماء هذه البروج: الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والسنبلة والميزان والعقرب والقوس والجدي والدلو والحوت.

قال تعالى (وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا).

الثالثة: علامات يهتدى بها.

قال الماوردي:"وأصل البروج: الظهور ، ومنه تبرجت المرأة إذا أظهرت نفسها".

قال السعدي:"أي: نجوما كالأبراج والأعلام العظام يهتدى بها في ظلمات البر والبحر".

قوله تعالى: {وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ} [الحجر: ١٦]، أي:"وزَيَّنَّا هذه السماء بالنجوم لمن ينظرون إليها، ويتأملون فيعتبرون".

قال ابن كثير:"يذكر تعالى خلقه السماء في ارتفاعها وما زَيَّنَها به من الكواكب الثواقب، لمن تأملها، وكرر النظر فيها، يرى فيها من العجائب والآيات الباهرات، ما يحار نظره فيه".

قال السعدي:"فإنه لولا النجوم لما كان للسماء هذا المنظر البهي والهيئة العجيبة، وهذا مما يدعو الناظرين إلى التأمل فيها والنظر في معانيها والاستدلال بها على باريها".

قوله تعالى: {وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ} [الحجر: ١٧]

وحفظنا السماء من كل شيطان مرجوم مطرود من رحمة الله؛ كي لا يصل إليها.

والشيطان: مشتق على الصحيح من شطن أي بعد، فالشيطان بعيد عن الخير وطباع البشر وعن كل معروف، وقيل: مشتق من شاط، لأنه مخلوق من نار، والأول أصح.

=

=

والرجيم: صفة للشيطان، فالرجيم فعيل بمعنى مفعول أي: إنه مرجوم مطرود عن الخير كله.

والرجم أصله الرمي بالحجارة، والشيطان مرجوم بالقول وبالفعل:

بالقول: بالسب والشتم والذم ويلحق به كل قول قبيح.

وبالفعل: أن رجمه الله أي طرده وأبعده من رحمته، ويرجم بالشهب كما قال تعالى (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوما للشياطين) وقال تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب وحفظا من كل شيطان مارد لا يسمعون إلى الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب دحورا ولهم عذاب واصب إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب).

وقيل: رجيم بمعنى راجم لأنه يرجم الناس بالوساوس. قال ابن كثير: والأول أشهر وأصح. [تفسير ابن كثير]

قال أبو الليث السمرقندي:"يعني: السماء من كل شيطان {رجيم}، أي: مرجوم، ويقال: ملعون مبعد من الرحمة".

قال ابن قتيبة:"يقول: حفظناها من أن يصل إليها شيطان، أو يعلم من أمرها شيئا".

قال السعدي:"إذا استرق السمع أتبعته الشهب الثواقب فبقيت السماء ظاهرها مجملا بالنجوم النيرات وباطنها محروسا ممنوعا من الآفات".

قال قتادة:"«الرجيم»، الملعون". وروي عن ابن جريج مثله.

قال ابن أبي زمنين: {رجيم}: " ملعون رجمه الله باللعنة؛ في تفسير الحسن".

وقال القاسم عن الكسائي: إنه قال: " «الرجم» في جميع القرآن: الشتم".

قال السمعاني:"ذكر الكلبي أن السموات لم تكن محفوظة من الشياطين قبل عيسى، فلما بعث عيسى - عليه السلام - حفظت ثلاثة من السموات، فلما بعث محمد حفظت السموات كلها".

=

=

قوله تعالى: {إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} [الحجر: ١٨].

إلا من اختلس السمع من كلام أهل الملأ الأعلى في بعض الأوقات، فأدركه ولحقه كوكب مضيء يحرقه، وقد يلقي الشيطان إلى وليه بعض ما استرقه قبل أن يحرقه الشهاب.

قوله تعالى: {إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ} [الحجر: ١٨]، أي:"إلا من اختلس السمع مِن كلام أهل الملأ الأعلى في بعض الأوقات".

قال ابن قتيبة: أي:"إلا استراقا".

قال البغوي:"لكن من استرق السمع".

قال الطبري:"يقول لكن قد يسترق من الشياطين السمع مما يحدث في السماء بعضها".

قال أبو الليث السمرقندي:"أي: لكن من اختلس السمع خلسة".

قال السعدي:"أي: في بعض الأوقات قد يسترق بعض الشياطين السمع بخفية واختلاس".

قال ابن أبي زمنين:"فإنها لم تحفظ منه إن تسمع الخبر من أخبار السماء، ولا تسمع من الوحي شيئا".

عن ابن عباس، قوله: " {إلا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْع} ، فأراد إن يخطف السمع كقوله: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} ".

عن الضحاك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في قوله: " {إلا من استرق السمع} ، قال: هو كقوله: {إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ} ".

قال السمعاني:"في الأخبار: أن الشياطين يركب بعضهم بعضا إلى السماء الدنيا، ويسترقون السمع من الملائكة؛ فترجمهم الكواكب فتقتل البعض وتخبل البعض". واختلف القول في أنهم متى يسترقون السمع؟ فأحد القولين: أنهم

=

=

يسترقون السمع من الملائكة في السماء، والقول الآخر: أنهم يسترقون السمع من الملائكة في الهواء. وأما معرفة ملائكة السماء بالأمر فباستخبارهم ملائكة أهل السماء الثانية، هكذا يستخبر أهل كل سماء من أهل السماء [التي] فوقهم، حتى يصلوا إلى حملة العرش فيخبرون بما قضاه الله تعالى من الأمر، ويرجع الخبر من سماء إلى سماء حتى يصل إلى السماء الدنيا، ثم الشياطين يسترقون على ما قلنا من قبل".

قوله تعالى: {فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ} [الحجر: ١٨]، أي:"فأدركه ولحقه كوكب مضيء يحرقه".

قال ابن الجوزي: (شهاب مبين) قال ابن قتيبة: كوكب مضيء. وقيل: مبين بمعنى: ظاهر يراه أهل الأرض. وإنما يسترق الشيطان ما يكون من أخبار الأرض، فأما وحي الله ﷻ فقد صانه عنهم.... (زاد المسير).

ممن اختار أن مبين بمعنى: ظاهر: الواحدي، والزمخشري، والبيضاوي، وأبو حيان، والشوكاني، والقاسمي، وابن عاشور

وممن اختار أن مبين بمعنى مضيء: مقاتل بن سليمان، وابن أبي زمنين.

وذهب ابن جرير إلى أن معنى مبين أي: يبين أثره فيه إما بإخباله وإفساده، وإما بإحراقه.

قال السعدي: (فأتبعه شهاب مبين) أي: بين منير يقتله أو يخبله.

قال ابن كثير: وجعل الشهب حرسا لها من مردة الشياطين لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى، فمن تمرد وتقدم منهم لاستراق السمع جاءه شهاب مبين فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه فيأخذها الآخر ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحا به في الصحيح.

كما قال البخاري في تفسير هذه الآية: عن أبي هريرة يبلغ به النبي ﷺ قال (إذا

=

=

قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله كأنه سلسلة على صفوان» قال علي وقال غيره صفوان ينفذهم ذلك، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: للذي قال الحق وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا واحد فوق آخر، ووصف سفيان بيده، وفرج بين أصابع يده اليمنى، نصبها بعضها فوق بعض، فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يرمي بها إلى صاحبه فيحرقه، وربما لم يدركه حتى يرمي بها إلى الذي يليه إلى الذي هو أسفل منه حتى يلقوها إلى الأرض، وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم الساحر أو الكاهن فيكذب معها مائة كذبة فيصدق، فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقا للكلمة التي سمعت من السماء)…. (التفسير).

وإذا استمع الشياطين إلى شيء ليس بوحي، فإنهم يقذفونه إلى الكهنة في أسرع من طرفة عين، ثم تتبعهم الشهب فتقتلهم أو تخبلهم.

وشبيه بهذه الآية قوله تعالى (إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظا من كل شيطان مارد. لا يسمعون إلى الملإ الأعلى ويقذفون من كل جانب. دحورا ولهم عذاب واصب. إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب).

قال بعض العلماء ما ملخصه: والمقصود منع الشياطين من الاطلاع على ما أراد الله عدم اطلاعهم عليه.. وربما استدرج الله- تعالى- الشياطين وأولياءهم، فلم يمنع الشياطين من استراق شيء قليل يلقونه إلى الكهان فلما أراد- سبحانه- عصمة الوحي منعهم من ذلك بتاتا..

وفي سورة الجن دلالة على أن المنع الشديد من استراق السمع كان بعد البعثة النبوية، وبعد نزول القرآن، إحكاما لحفظ الوحي من أن يلتبس على الناس بالكهانة..

=

=

قال تعالى (وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرسا شديدا وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع، فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا).

وعلى ذلك يكون ما جاء في بعض الأحاديث من استراق الجن السمع- وصفا للكهانة السابقة، ويكون قوله ﷺ (ليسوا بشيء...) وصفا لآخر أمرهم.

قال أبو الليث السمرقندي:"أي: لحقه نجم حار متوهج متوقد، لا يخطئه الشهاب أن يصيبه. فإما أن يأتي على نفسه، وإما أن يخبله، حتى لا يعود إلى الاستماع إلى السماء".

قال ابن قتيبة:"، ثم يتبعه {شهاب مبين} أي كوكب مضيء".

قال الطبري:"فيتبعه شهاب من النار مبين، يبين أثره فيه، إما بإخباله وإفساده، أو بإحراقه".

قال أبو عبيدة:"يقول: لا يخطنه، إما قتله وإما خبله".

قال الضحاك:"فأتبعه شهاب ثاقب [مبين]".

قال ابن أبي زمنين:"{مبين} مضيء".

قال السعدي:"أي: بين منير يقتله أو يخبله. فربما أدركه الشهاب قبل أن يوصلها الشيطان إلى وليه فينقطع خبر السماء عن الأرض، وربما ألقاها إلى وليه قبل أن يدركه الشهاب فيضمها ويكذب معها مائة كذبة، ويستدل بتلك الكلمة التي سمعت من السماء".

قال البغوي:"«الشهاب»: الشعلة من النار. وذلك أن الشياطين يركب بعضهم بعضا إلى السماء الدنيا، ويسترقون السمع من الملائكة، فيرمون بالكواكب فلا تخطئ أبدا، فمنهم من تقتله، ومنهم من تحرق وجهه أو جنبه أو يده أو حيث يشاء الله، ومنهم من تخبله فيصير غولا يضل الناس في البوادي... واعلم أن هذا لم يكن ظاهرا قبل مبعث النبي ﷺ ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي ﷺ، وإنما

=

=

ظهر في بدء أمره وكان ذلك أساسا لنبوته عليه السلام".

قال السمعاني:"«الشهاب» هو الشعلة من النار، فإن قال قائل: نحن لا نرى نارا، وإنما نرى نورا أو نجما ينقض.

والجواب: أنه يحتمل أنه ينقض نورا، فإذا وصل إليه صار نارا، أو يحتمل أنه يرى من بعد المكان أنه نجم وهو نار، وقيل: إن النجم ينقض فيرمي الشيطان ثم يعود إلى مكانه. واعلم أن هذا لم يكن ظاهرا في زمن الأنبياء قبل الرسول، ولم يذكره شاعر من العرب قبل زمان النبي، وإنما روي هذا في ابتداء أمر النبي، وكان ذلك أساسا لنبوته، وإنما ذكر الشعراء ذلك في زمانه، قال الشاعر:

كأنه كوكب في إثر عفرية مسوم في سواد الليل منقضب".

قال ابن عباس:"إن الشهب لا تقتل، ولكن تحرق وتخبل وتجرح من غير أن تقتل".

قال ابن كثير:"وجعل الشُهب حرسًا لها من مَرَدة الشياطين، لئلا يسمعوا إلى الملأ الأعلى، فمن تمرد منهم وتقدم لاستراق السمع، جاءه {شِهَابٌ مُبِينٌ} فأتلفه، فربما يكون قد ألقى الكلمة التي سمعها قبل أن يدركه الشهاب إلى الذي هو دونه، فيأخذها الآخر، ويأتي بها إلى وليه، كما جاء مصرحا به في الصحيح، كما قال البخاري في تفسير هذه الآية: حدثنا علي بن عبد الله، حدثنا سفيان عن عمرو، عن عكرمة، عن أبي هريرة، يبلُغُ به النبي ﷺ، قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله كأنه سلسلة على صَفوان". قال علي، وقال غيره: صفوان يَنفُذهم ذلك، فإذا فُزّع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا: الذي قال: الحق، وهو العلي الكبير. فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع، هكذا واحد فوق آخر - ووصف سفيان بيده فَفَرَّج بين أصابع يده اليمنى، نَصبَها بعضها فوق بعض - فربما أدرك الشهاب المستمع قبل أن يَرْمي بها إلى

=

=

صاحبه فيحرقَه، وربما لم يدركه حتى يَرْمي بها إلى الذي يليه، إلى الذي هو أسفل منه، حتى يلقوها إلى الأرض - وربما قال سفيان: حتى تنتهي إلى الأرض فتلقى على فم
الساحر - أو: الكاهن - فيكذب معها مائة كذبة فيقولون: ألم يخبرنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فوجدناه حقًّا؟ للكلمة التي سمعت من السماء»".
عن ابي هريرة أن نبي الله ﷺ قال: "إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله، كأنه سلسلة على صفوان، فإذا فزع عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربكم؟ قالوا للذي قال: الحق، وهو العلي الكبير، فيسمعها مسترقو السمع، ومسترقو السمع هكذا بعضهم فوق بعض -ووصف سفيان بكفه فحرفها وبدد بين أصابعه -فيسمع أحدهم الكلمة فيلقيها إلى من تحته، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته، حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، فربما أدركه الشهاب قبل أن يلقيها، وربما ألقاها قبل أن يدركه، فيكذب معها مائة كذبة فيقال: أليس قد قال لنا يوم كذا وكذا يكون كذا وكذا، فيصدق بتلك الكلمة التي سمعت من السماء".
عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ أنها سمعت النبي ﷺ يقول: "إن الملائكة تنزل في العنان، وهو السحاب، فتذكر الأمر الذي قضي في السماء فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان، فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم".
قال ابن عباس:"تصعد الشياطين أفواجا تسترق السمع، قال: فينفرد المارد منها فيعلو، فيرمى بالشهاب، فيصيب جبهته أو جنبه، أو حيث شاء الله منه، فيلتهب فيأتي أصحابه وهو يلتهب، فيقول: إنه كان من الأمر كذا وكذا، قال: فيذهب أولئك إلى إخوانهم من الكهنة، فيزيدون عليه أضعافه من الكذب، فيخبرونهم به، فإذا رأوا شيئا مما قالوا قد كان صدّقوهم بما جاءوهم به من الكذب".
قال ابن عباس:"أخبرني رجل من أصحاب النبي -ﷺ- من الأنصار: أنهم بينا هم
=

=

جلوس ليلة مع رسول الله -ﷺ- رمي بنجم واستنار، فقال لهم رسول الله - ﷺ- : ما كنتم تقولون في الجاهلية إذا رمي بمثل هذا؟ قالوا: الله ورسوله أعلم، كنا نقول: ولد الليلة رجل عظيم، ومات رجل عظيم، فقال رسول الله - ﷺ-: فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته، ولكن ربنا - تبارك اسمه - إذا قضى أمرا سبح حملة العرش، ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم، حتى يبلغ

أهل السماوات بعضا، حتى يبلغ الخبر هذه السماء الدنيا، فيخطف الجن السمع فيقذفون إلى أوليائهم، ويرمون، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون».

وفي رواية: «رجال من أصحاب رسول الله - ﷺ-» وزاد «وقال الله: {حتى إذا فزع عن قلوبهم قالوا ماذا قال ربكم قالوا الحق} [سبأ: ٢٣]. أخرجه مسلم والترمذي. و [للترمذي] في أخرى: أن ابن عباس قال: بينما [ص:٦٣] رسول الله - ﷺ- جالس... وذكر الحديث» ولم يذكر فيه «عن رجل من الأنصار».

قال الزجاج:"والشهب الكواكب المنقضة من آيات الله للنبي عليه السلام، والدليل على

أنها كانت انقضت بعد مولد النبي ﷺ أن شعراء العرب الذين كانوا يمثلون في السرعة بالبرق وبالسيل وبالأشياء المسرعة لم يوجد في أشعارها بيت واحد فيه ذكر «الكواكب المنقضة»، فلما حدثت بعد مولد النبي -عليه السلام- استعملت الشعراء ذكرها قال ذو الرمة:

كَأَنَّــــهُ كَوْكَــــبٌ فِي إِثْــــرِ عِفْرِيَـــةٍ مُــسَوَّمٍ فِي ســوادِ الليــلِ مُنْقَــضِبُ".

قال ابن عطية:"وفي الأحاديث ما يدل على أن الرجم كان في الجاهلية، ولكنه اشتد في وقت الإسلام، وحفظ السماء حفظا تاما".

وعن نافع بن جبير ومحمد بن كعب: "أمسكت في أيام الفترة، فلما بُعِث نبيّنا عاد

=

=

الأمر كهيئته".

(فائدة) ذكر بعض الأحكام الشرعية الخاصة بالسماء.

السماء في اللغة: اسم لكل ما ارتفع وعلا، وهو مأخوذ من السمو، وهو العلو، يقال: سما بصره، أي علا، وسما لي شخص: ارتفع حتى استثبته. وهي تذكّر وتؤنّث، وجمعها سماوات، وكل سقف فهو سماء، ومن هذا قيل للسحاب: السماء.

وفي الاصطلاح: منطقة فضائية مرئية من الأرض، تبدو كالقبة عليها، تحتوي على الغلاف الجوي.

وقد ورد لفظ السماء في القرآن في مائة وعشرين موضعـًا، وبلفظ الجمع في مائة وتسعين موضعـًا.

وذكر بعض المفسرين أن السماء في القرآن على خمسة أوجه:

- أحدها: السماء المعروفة. ومنه قوله تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، وقال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ}.

- والثاني: السحاب. ومنه قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا}.

- والثالث: المطر. ومنه قوله تعالى: {... يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا}.

- والرابع: سقف البيت. ومنه قوله تعالى: {مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ فَلْيَنْظُرْ هَلْ يُذْهِبَنَّ كَيْدُهُ مَا يَغِيظُ}.

- والخامس: سقف الجنة وسقف النار. ومنه قوله تعالى: {خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ

=

=

السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ}.

الدلائل العقدية للآية الكونية - السماء-:

قال ابن القيم -رحمه الله- مبيناً شأن هذه الآية الكونية: " ولهذا قل أن تجيء سورة في القرآن إلا وفيها ذكرها إما إخبارا عن عظمها وسعتها، وإما إقساما بها، وإما دعاءً إلى النظر فيها، وإما إرشادا للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وإما استدلالاً منه سبحانه بخلقها على ما أخبر به من المعاد والقيامة، وإما استدلالا منه بربوبيته لها على وحدانيته وأنه الله الذي لا إله إلا هو، وإما استدلالا منه بحسنها واستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته".

ثم قال: " فكم من قسم في القرآن بها كقوله تعالى: {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ)}، {وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ}، {وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا}، {وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الرَّجْعِ}،... ولم يقسم بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر".

أولاً: وجود الله: دلت هذه الآية الكونية على وجود الله، فإن خلقها ووجودها بعد العدم، وتسخيرها دليل قاطع على وجود الله -ﷻ-، وذلك لافتقار المخلوق إلى الخالق، واحتياج المحدَث إلى المحدِث، قال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ
وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ}.

والعناية بهذه الآية الكونية، والإتقان فيها يدل على وجود خالقها وكمال ذاته وصفاته، قال تعالى: {صُنْعَ اللهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ}، وقال تعالى: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ}.

ولما ذكر الله -ﷻ- استنكاره لمن كفر به في قوله تعالى: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللهِ

=

=

وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، ذكر من الأدلة على وجوده - مع ما هو مستقر في الفطر - خلقَ السماوات والأرض، فقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

ولما حصلت المجادلة بين الكفار ورسلهم في الله، قالت لهم رسلهم -ترشدهم إلى الدليل والطريق لمعرفة الله لمن حصل عنده شك أو اضطراب-: {قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} أي: أفي وجوده شك، فهو الذي خلقها وابتدعها

على غير مثال سبق، فإن شواهد الحدوث والخلق والتسخير ظاهر عليها، فلا بد لهما من صانع، وهو الله لا إله إلا هو، خالق كل شيء وإلهه ومليكه".

وفي جواب موسى -عليه السلام- لفرعون عندما سأله عن رب العالمين وكان يجحد الصانع ويعتقد أنه لا رب سواه: {قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} أي خالق جميع ذلك ومالكه هو رب العالمين، وهو الخالق.

ثم إن الله تعالى يدعو عباده إلى التفكر في مخلوقاته - ومنها السماوات- الدالة على وجوده وانفراده بخلقها، وأنه المعبود وحده، فيقول: {أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ لَكَافِرُونَ}.

ثانيًا: توحيد الربوبية:

بين الله -ﷻ- أن النظر في ملكوت السماوات والأرض والتأمل في خلقهما يدل على وحدانيته -ﷻ- في ملكه وخلقه، وأنه لا إله غيره ولا رب سواه، قال تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ}.

وأخبر الله -ﷻ- أن له ملك السماوات ومن فيهن، ويتصرف بها كيف شاء، لا

=

=

معقب لحكمه، ولا راد لقضائه، قال تعالى: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ}.

وأنه الحاكم فيهما كما أنه المالك لهما، قال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}.

وأخبر جل وعلا أن السماء والأرض تقوم بأمره لها، وتسخيره إياها، وأنه ممسك لها أن تقع على الأرض إلا بإذنه، قال تعالى: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ}، وقال تعالى: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ}، وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ}، فلا يقدر على ذلك إلا الله، وهذا من أدلة ربوبيته.

وقد أمر الله رسوله -ﷺ- أن يقول للكفار المشركين بالله، المكذبين لرسوله: أن الله هو رب السماوات والأرض، فقال: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}، فهو وحده الذي قهر كل شيء وغلبه. وهو المالك له المتصرف فيه، ولم ينكر ذلك المشركون، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللهُ}.

وأنه سبحانه وتعالى ليس معه في ذلك شريك ولا وزير، ولا مشير ولا نظير، كما قال: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ}.

ثالثًا: توحيد الأسماء والصفات:

١ - الثناء على الله: الله -ﷻ- يثني ويمدح نفسه ويحمدها لخلقه للسماوات والأرض، قال تعالى: {الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}.

=

=

ولما ذكر حُكْمه في المؤمنين والكافرين وجزائهم قال: {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٣٦) وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}، فله الحمد والثناء على ربوبيته لسائر الخلائق.

وعن ابن أبي أوفى -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: كان رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- إذا رفع ظهره من الركوع قال: «سمع الله لمن حمده، اللهم ربنا لك الحمد، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئت من شيء بعد».

٢ - التنزيه: أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن هذه الآية الكونية العظيمة أنها تسبحه وتقدسه، فقال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}.

وأن السماوات كادت تتفطر عند دعوة المشركين أنَّ لله ولداً، فقال تعالى: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَنْ دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا} "أي يكاد يكون ذلك عند سماعهن هذه المقالة من فجرة بني آدم، إعظامًا للرب وإجلالا؛ لأنهن مخلوقات ومؤسسات على توحيده، وأنه لا إله إلا هو، وأنه لا شريك له، ولا نظير له ولا ولد له، ولا صاحبة له، ولا كفء له، بل هو الأحد الصمد".

وعن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: «إن الشرك فزعت منه السماوات والأرض والجبال، وجميع الخلائق إلا الثقلين، فكادت أن تزول منه لعظمة الله».

وقال تعالى: {بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}. فمن خلق هذه السماوات وأوجدها على غير مثال سابق

كيف يكون له ولد؟!. وفي رد الله على أهل الكتاب في زعمهم أن لله ولدا قال تعالى: {يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا

=

=

الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا}.

وقال تعالى: {وَقَالُوا اتَّخَذَ اللهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ (١١٦) بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}.

ففي هذه الآيات رد على النصارى ومن أشبههم من اليهود ومن مشركي العرب، ممن نسب لله الولد، فأكذب الله جميعهم في دعواهم.

قال ابن جرير -رحمه الله-: " فمعنى الكلام: سبحان الله أنى يكون له ولد وهو مالك ما في السموات والأرض، تشهد له جميعا بدلالتها عليه بالوحدانية، وتقر له بالطاعة، وهو بارئها وخالقها، وموجدها من غير أصل، ولا مثال احتذاها عليه؟".

٣ - العدل والحكمة: أخبر الله -ﷻ- أنه خلق السماوات والأرض بالحق وللحق، وأنه لم يخلق ذلك عبثـًا ولا لعبـًا، وأن ذلك بالعدل والحكمة، فقال: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ}، وقال تعالى: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

٤ - بعض أسماء الله وصفاته: ورد في القرآن أسماءٌ لله وصفاتٌ مقيدة بالإضافة إلى السماء، قال تعالى: {اللهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}.

ومن ذلك اسم الله القيوم، ومن صفاته القيّم والقيّام، وقد ورد عن النبي -ﷺ- في دعاء الاستفتاح في صلاة الليل أنه يقول: «اللهم لك الحمد، أنت قيم السماوات والأرض ومن فيهن، ولك الحمد أنت نور السماوات والأرض ومن فيهن»، وفي لفظ: قيوم، وفي لفظ: قيام.

=

=

ومن ذلك أيضاً رب السماوات، قال تعالى: {إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ}.

وقال تعالى: {قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنْذِرٌ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (٦٥) رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ}.

وقال تعالى: {فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعَالَمِينَ}.

٥ - الصفات الفعلية الاختيارية لله: قد دلت هذه الآية الكونية على الصفات الفعلية الاختيارية المتعلقة بمشية الله، قال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}، وكان ذلك بعد خلق الأرض.

وأخبر الله -ﷻ- أنه يمسك السماء أن تقع على الأرض، وعلق ذلك بإذنه ومشيئته، فقال تعالى: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} "أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء

أن تقع على الأرض إلا بإذنه".

٦ - صفة القدرة: أمر الله -ﷻ- بالنظر في خلق السماء، وكيف رفعت، ففيه دلالة على قدرته وعظمته، فقال تعالى: {أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ (١٧) وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ}.

وقال تعالى: {أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ}.

وبين أن من آيات قدرته العظيمة خلق السماوات والأرض، فقال: {وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} كما أخبر الله سبحانه وتعالى عن كمال قدرته في خلق السماوات بغير عمد فقال: {خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ}.

=

=

٧ - صفة الغنى والقوة: دلت هذه الآية الكونية على غنى الله وفقر العباد إليه وعجزهم وضعفهم قال تعالى: {وَمَا أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ} فهذه السماء على عظمها وسعتها وكثرة من فيها فإن الله -ﷻ- لا يعجزه أهلها"بل هو القاهر فوق عباده، وكل شيء خائف
منه، فقير إليه، وهو الغني عما سواه".

وأخبر الله -ﷻ- عن كمال غناه، وأنه غني عن إيمان الطائعين، ولا يضره كفر الكافرين، وأن له ملك السماوات والأرض، فقال تعالى: {وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللهُ غَنِيًّا حَمِيدًا}.

وقال تعالى: {لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ} "فهو الغني عما سواه، فكل شيء خلقه وملكه، وكل شيء فقير إليه".

٨ - صفة الرحمة: لما أخبر الله تعالى أنه المالك للسماوات والأرض ومن فيهن، وهو الغني عن خلقه بين أنه كتب على نفسه الرحمة، فقال تعالى: {قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ}.

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر، فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه، ومن يستغفرني فأغفر له». ففي الحديث أن الله ينزل إلى السماء الدنيا ويستجيب
لمن يدعوه ويعطي من سائله، وهذا من رحمته -ﷻ- بعباده.

وقد جاء في الحديث أن النبي -ﷺ- قال: «من اشتكى منكم شيئا أو اشتكاه أخ له فليقل: ربنا الله الذي في السماء، تقدس اسمك، أمرك في السماء والأرض كما رحمتك في السماء فاجعل رحمتك في الأرض، اغفر لنا حوبنا وخطايانا، أنت رب

=

=

الطيبين، أنزل رحمة من رحمتك وشفاء من شفائك على هذا الوجع فيبرأ».

٩ - صفة العلم: أخبر الله -ﷻ- عن كمال علمه وأنه لا يخفى عليه مثقال ذرة ولو كانت في هذه السماء العظيمة، والأرض الوسيعة، فقال تعالى: {إِنَّ اللهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ}.

وقال تعالى: {وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ.

فهذا يدل على كمال صفاته سبحانه وتعالى، وسعة علمه، وأنه يعلم غيب السماوات والأرض، وما تكنه السرائر وتنطوي عليه الضمائر، وسيجازي كل عامل بعمله؛ فهو يعلم الأشياء كلها ظاهرها وباطنها، ولا يخفى عليه منها شيء في الأرض ولا في السماء.

كما أخبر جل وعلا أنه يعلم الأخبار الماضية عن القوم السابقين ولا يعلمها أحد غيره؛ لأنه سبحانه له غيب السماوات والأرض: {قُلِ اللهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}.

وبين الله -ﷻ- سعة علمه بعلمه غيب السماوات والأرض، وأن الخلق لا يعلمون ذلك، وأنه وحده لا شريك له هو المتفرد بعلم غيب السماوات والأرض، وأن غيره عاجز عن ذلك فقال: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ (٦٥) بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْهَا بَلْ هُمْ مِنْهَا عَمُونَ}.

كما أخبر تعالى بأنه عالم غيب السماوات والأرض، وأنه عالم الغيب والشهادة - وهو ما غاب عن العباد وما شاهدوه - فقال: {وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}، وقال تعالى: {أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ

=

=

إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللهِ يَسِيرٌ} .

١٠ - صفة الكلام لله -ﷻ-: من الأدلة التي استدل بها أهل السنة في إثبات صفة الكلام لله والرد على من زعم أن المتكلم لا بد أن يكون له لسان وجوف وشفتين، أن الله -ﷻ- أخبر أن السماء تكلمت، في قوله {قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فأثبت الله -ﷻ- للسماء كلاماً. فهل يثبتون لها لسان وجوف وشفتان؟!} .

١١ - نزول القرآن والشرائع من الله: بين الله -ﷻ- أن هذا القرآن منزل ممن خلق الأرض والسماوات العلى، القادر على كل شيء، فقال تعالى: {تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى} .

فالذي أنزل هذا القرآن هو رب السماوات والأرض وخالقهما ومالكهما وما فيهما، قال تعالى: {أَمْرًا مِنْ عِنْدِنَا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ} .

وقد كان أهل الكتاب يسألون النبي -ﷺ- أن ينزل عليهم كتاباً من السماء، قال تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ} .

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: انطلق النبي -ﷺ- في طائفة من أصحابه عامدين إلى سوق عكاظ، وقد حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأرسلت عليهم الشهب، فرجعت الشياطين إلى قومهم فقالوا: ما لكم؟ فقالوا: حيل بيننا وبين خبر السماء، وأرسلت علينا الشهب، قالوا: ما حال بينكم وبين خبر السماء إلا شيء حدث، فاضربوا مشارق الأرض ومغاربها فانظروا ما هذا الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فانصرف أولئك الذين توجهوا نحو تهامة إلى النبي -ﷺ- وهو بنخلة، عامدين إلى سوق عكاظ وهو يصلي بأصحابه صلاة الفجر، فلما سمعوا القرآن استمعوا له، فقالوا: هذا والله الذي حال بينكم وبين خبر السماء، فهنالك حين رجعوا إلى قومهم، فقالوا: {يَاقَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ} فأنزل الله على نبيه -

=

=

-ﷺ- {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ} وإنما أوحي إليه قول الجن".

وقال -ﷺ-: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحًا ومساءً».

ولما سئلت عائشة -رضي الله عنها- عن قيام النبي -ﷺ- قالت للسائل: «ألست تقرأ {يَاأَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ؟ قلت: بلى، قالت: فإن الله -عز وجل- افترض قيام الليل في أول هذه السورة، فقام نبي الله -ﷺ- وأصحابه حولاً، وأمسك الله خاتمتها اثني عشر شهراً في السماء حتى أنزل الله في آخر هذه السورة التخفيف، فصار قيام الليل تطوعا بعد فريضة»}.

وعن حذيفة -رضي الله عنه- قال: حدثنا رسول الله -ﷺ-: «أن الأمانة نزلت من السماء في جذر قلوب الرجال ونزل القرآن، فقرؤوا القرآن وعلموا من السنة».

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «بينما جبريل قاعد عند النبي -ﷺ- سمع نقيضا من فوقه، فرفع رأسه فقال: هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم، فنزل منه ملك، فقال: هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم، فسلم وقال: أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته».

ولما أنكر اليهود النسخ في الشرائع وأن ذلك مستحيل عقلاً، بين الله -عز وجل- أن له ملك السماوات والأرض، وأنه يتصرف فيهما بما يشاء، وأنه الفعال لما يريد، ولا راد لحكمه، وأنه يأمر بما يشاء، وينهى عما يشاء، وأنه ينسخ ويبدل في أحكامه التي يحكم بها بين عباده، وأن الخلق عليهم السمع والطاعة في ذلك كله، قال تعالى: {مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٠٦) أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}.

=

=

١٢ - صفة العلو: قد دلت هذه الآية الكونية على صفة العلو من عدة جهات:
أ- إخبار الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن نزول الأمر من السماء إلى الأرض، وهو يدل على علو الله، قال تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ}، وقال الله تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ
قَدِيرٌ وَأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا}.
وفي الحديث عن أبي هريرة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- يبلغ به النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة بأجنحتها خضعانا لقوله».
وعن عائشة -رَضِيَ اللهُ عَنْهَا- زوج النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: أنها سمعت رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «إن الملائكة تنزل في العنان -وهو السحاب- فتذكر الأمر قضي في السماء، فتسترق الشياطين السمع فتسمعه فتوحيه إلى الكهان فيكذبون معها مائة كذبة من عند أنفسهم».
وكانت زينب زوج النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- تفخر على أزواجه تقول: «زوجكن أهاليكن، وزوجني الله تعالى من فوق سبع سماوات».
ب- رفع الأعمال إلى السماء، وهذا أيضًا يدل على علو الله، قال الله تعالى: {إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ}.
ج- محاجة الكافرين بعض الأنبياء وطلبهم على سبيل العتو والتمرد تهيئة أسباب الصعود إلى الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن طريق أبواب السماء، قال تعالى: {وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَاهَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ كَاذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءُ عَمَلِهِ وَصُدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ}.
وقد كان المشركون يطلبون من النبي -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- على سبيل التحدي والتعجيز أن
=

=

ينزل عليهم كتاباً من السماء، وأنهم لن يؤمنوا حتى يرقى للسماء ويفعل ذلك، قال الله تعالى مخبراً عن حالهم: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا}.

د- رفع النبي -ﷺ- رأسه إلى السماء ينظر إليها ويدعو الله إشارة منه إلى علو الله تعالى.

عن أبي بردة عن أبيه -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قال: «صلينا المغرب مع رسول الله -ﷺ- ثم قلنا: لو جلسنا حتى نصلي معه العشاء، قال: فجلسنا، فخرج علينا فقال: ما زلتم ههنا؟ قلنا: يا رسول الله صلينا معك المغرب ثم قلنا نجلس حتى نصلي معك العشاء، قال، أحسنتم أو أصبتم، قال: فرفع رأسه إلى السماء وكان كثيرا ما يرفع رأسه إلى السماء، فقال: النجوم أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد، وأنا أمنة لأصحابي، فإذا ذهبت أتى أصحابي ما يوعدون، وأصحابي أمنة لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمتي ما يوعدون».

هـ- إخباره -ﷺ- أنه أمين من في السماء، قال -ﷺ-: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء، يأتيني خبر السماء صباحاً ومساءً».

وقد أقر النبي -ﷺ- قول الجارية حينما سألها أين الله؟ قالت: في السماء، بل شهد لها بالإيمان، ففي الحديث أن النبي -ﷺ- سأل الجارية: «أين الله؟ قالت: في السماء. قال: اعتقها فإنها مؤمنة».

و- العروج بالنبي -ﷺ- إلى السماء: فقد عرج بالنبي -ﷺ- إلى السماء، وكلمه ربه، وسمع صريف الأقلام، وفرضت عليه الصلاة.

=

=

ز- الإشارة بالأصبع إلى السماء: فقد كان -ﷺ- يشير بأصبعه إلى السماء يرفعها وينكتها إلى الناس عند ذكر الله في الدعاء حال الخطبة إشارة منه إلى علو الله تعالى.

ح- رفع اليدين إلى السماء عند الدعاء: عن أنس -رضي الله عنه- قال: رأيت رسول الله -ﷺ- يرفع يديه في الدعاء حتى يرى بياض إبطيه، وفي خطبة عرفة رفع النبي -ﷺ- يديه إلى السماء ثم قال: «اللهم اشهد عليهم، اللهم اشهد عليهم».

وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا، وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين فقال: {يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ}، وقال: {يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ}، ثم ذكر الرجل يطيل السفر، أشعث أغبر، يمد يديه إلى السماء يا رب يا رب، ومطعمة حرام، ومشربه حرام، وملبسه حرام، وغذي بالحرام، فأنى يستجاب لذلك؟».

١٣ - صفة الاستواء: حيث أخبر الله جل وعلا أن الاستواء على العرش كان بعد خلق السماوات والأرض فقال: {الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا}.

١٤ - صفة النزول: ورد في الحديث عن أبي هريرة -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الآخر فيقول: من يدعوني فأستجيب له، ومن يسألني فأعطيه ومن يستغفرني فأغفر له»، وفيه دليل على نزول الله سبحانه إلى السماء
الدنيا كل ليلة.

١٥ - العرش: بين الله -عز وجل- أن العرش كان موجوداً عند خلق السماوات فقال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ

=

=
لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا}.
وعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».
وأخبر -ﷺ- عن صفة العرش بالنسبة للسماء فقال: «إن عرشه على سمواته لهكذا» وقال بأصابعه مثل القبة عليه، فالعرش فوق السماوات وهو مثل القبة. قال ابن بشار في حديثه: "إن الله فوق عرشه، وعرشه فوق سمواته".
١٦ - عظم الكرسي: وفي بيان عظمة الكرسي أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- عنه أنه وسع السماوات والأرض، فقال: {وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ}، وقال رسول الله -ﷺ-: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في تُرْس».
١٧ - صفة اليمين لله تعالى: قال تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وعن أبي هريرة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- عن النبي -ﷺ- قال: «يقبض الله الأرض، ويطوي السماء بيمينه، ثم يقول: أنا الملك أين ملوك الأرض».
رابعًا: توحيد الألوهية: يقول تعالى منبهًا على قدرته التامة، وسلطانه العظيم في خلقه الأشياء، وقهره لجميع المخلوقات وأنه المالك المتصرف في هذه الآية الكونية العظمية، وهو المتفرد بذلك: {أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ}، وهذا مما يعترف به المشركون، قال تعالى: {وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ}، فكما أنهم يعترفون بذلك فيلزمهم أن يقروا ويعترفوا بأنه لا إله غيره.
وإذا كان هؤلاء المشركون لا يتصرفون في هذه السماوات، وليس لهم فيها شرك
=

فلماذا يعبدون معه غيره؟ قال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ}.

وفي رد الله تعالى على المشركين عبادتهم لغير الله بظنهم أن هؤلاء المعبودين شفعاء ووسائط عند الله، بين -ﷻ- أنه يعلم ما في السماوات والأرض، وأن عبادة هؤلاء من دون الله شرك وضلال، فقال تعالى: {وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللهِ مَا لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}.

فقرر تعالى أنه هو الذي خلق السماوات والأرض ويعلم ما فيها، وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، ويزعمون أنها تقربهم إلى الله كما قال تعالى: {مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى}، فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا ذلك، قال تعالى: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ}.

وقد ذكر الله -ﷻ- من الأدلة على تفرده بالإلهية تفرده بخلق السماوات، قال تعالى: {يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (٢١) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ}.

وفي الاستفهام التقريري الذي يعترف به المشركون وغيرهم يبين تعالى أنه المنفرد بالخلق فيقول: {أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا أَإِلَهٌ مَعَ اللهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ}

=

أي أإلـه مـع الله يعبـد. فكيـف تعبـدون معـه غيـره وهـو المـستقل المتفـرد بـالخلق والتدبير؟ كما قال تعالى: {أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ}.

والأنبيـاء -علـيهم الـصلاة والـسلام- يحتجـون علـى أقـوامهم بخلـق الـسماوات والأرض على وجوب إفراد الله -ﷻ- بالعبادة دون مـن سـواه، قـال تعـالى مخبرا عن نوح -عليه السلام- في دعوته قوهم: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} منبهـاً لهم على قدرة الله وعظمته في

خلق السماوات والأرض، فهو الذي يجب أن يعبد وحده ولا يشرك به أحد.

وفي محاجـة إبـراهيم -عليـه الـسلام- لقومـه اسـتدل علـيهم بربوبيـة الله الخـالق للسماوات وغيرها على وجوب إفراده بالعبادة، فقال: {بَلْ رَبُّكُمْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى

ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ}.

ويـأمر الله -ﷻ- نبيـه محمـداً -ﷺ- بـأن يقـول لقومـه: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ}، فيكون الجواب الفطري منهم: {سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ}، وفي هـذا يقـرر تعـالى وحدانيتـه، واسـتقلاله بـالخلق والتـصرف والملـك، ليرشـد إلـى أنـه الـذي لا إلـه إلا هـو، ولا تنبغـي العبـادة إلا لـه وحـده لا شريك له.

وفي خبر فتية الكهف أنهم قاموا واستدلوا على ربهـم الـذي يجـب أن يعبـد ويـدعى بقـولهم: {رَبُّنَا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا}، فالعبادة لا تنبغي إلا لله الذي خلق السماوات والأرض. فكثيـرًا مـا يقـرر تعالى مقام الإلهية بالاعتراف بتوحيد الربوبية.

١ - بعض أنواع العبادة القلبية:

قد دلت هذه الآية الكونية - السماء - على بعض أنواع العبادة القلبية، ومنها:

=

أ- الإخلاص: قال تعالى مخبرا عن إبراهيم -عليه السلام- أنه قال: {إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} "أي إنما أعبد الله مخلصا له فهو خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها، الذي بيده ملكوت كل شيء، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه".

ب- الخوف والخشية والمراقبة: أخبر الله -ﷻ- أنه يعلم السرائر والظواهر، وأن علمه محيط بالخلق في سائر الأحوال، وبجميع ما في السماوات والأرض، قال تعالى: {قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللهُ وَيَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}. "وهذا تنبيه منه لعباده على خوفه وخشيته، وألا يرتكبوا ما نهى عنه وما يبغضه منهم، فإنه عالم بجميع أمورهم"، وأن يراقبوه في كل أحوالهم فإن علمه محيط بكل شيء في السماوات والأرض.

ج- التوكل: إنَّ من له ملك السماوات والأرض هو الذي يجب أن يتوكل عليه ولا يتوكل على غيره، قال الله تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللهِ وَكِيلًا}.

وقال تعالى: {وَلِلَّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ}.

فالذي خلق السماوات والأرض هو الذي يجب أن يتوكل عليه فإنه عالم غيب السماوات والأرض، وإليه المرجع والمآب، وله الخلق والأمر، وهو كاف من توكل عليه وأناب إليه.

د- اليقين بالله والوثوق بوعده: حث الله عباده المؤمنين على اليقين به وبنصره والوثوق بوعده فإن له سلطان السماوات والأرض وملكهما، قال تعالى: {أَلَا إِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ}، وقال تعالى: {إِنَّ اللهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ

=

اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ}.

وعن حذيفة -رَضِيَ اللهُ عَنْهُ- قال سمعت رسول الله -صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- يقول: «تعرض الفتن على القلوب كالحصير عودا عودا، فأي قلب أشربها نكت فيه نكتة سوداء، وأي قلب أنكرها نكت فيه نكتة بيضاء، حتى تصير على قلبين، على أبيض مثل الصفا فلا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، والآخر أسود مربادا كالكوز مجخيا لا يعرف معروفا ولا ينكر منكرا إلا ما أشرب من هواه».

فأصبح قلب المؤمن مثل الصفا لا تضره فتنة ما دامت السماوات والأرض، وهي باقية إلى أن يبدل الله الأرض والسماوات يوم القيامة، وهذا يقين المؤمن ووثوقه بوعد الله.

هـ- الإنابة: الإنابة تكون للخالق المالك المتصرف، قال تعالى: {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللهِ ذَلِكُمُ اللهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذْرَؤُكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ} "أي فاطر السماوات والأرض هو ربي الذي أتوكل عليه، وأنيب إليه، وأفوض أمري إليه".

والمقصود أن هذه الآية العظيمة من دلائل توحيده،"فسبحان الواحد الأحد، خالق أنواع المخلوقات، المتفرد بالدوام والبقاء والصمدية ذي الأسماء والصفات".

٢ - القسم: قد أكثر الله -عَزَّ وَجَلَّ- من الإقسام بالسماء في كتابه الكريم، قال ابن القيم -رحمه الله-: " ولم يقسم في كتابه بشيء من مخلوقاته أكثر من السماء والنجوم والشمس والقمر، وهو سبحانه يقسم بما يقسم به من مخلوقاته لتضمنه الآيات والعجائب الدالة عليه، وكلما كان أعظم آية وأبلغ في الدلالة كان إقسامه به أكثر من غيره"...

=

=

ثم قال: "والمقصود أنه سبحانه إنما يقسم من مخلوقاته بما هو من آياته الدالة على ربوبيته
ووحدانيته".

ويقسم بها على أن القيامة حق، وعلى البعث والجزاء كما قال تعالى: {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ} فاقسم الله -ﷻ- بنفسه وبربوبيته للسماء على
أن ما وعدهم به من أمر القيامة والبعث والجزاء أنه حقٌّ لا مرية فيه.

وكان عمر -رضي الله عنه- إذا أقسم قال: «أنشدكم بالله الذي بإذنه تقوم السماء والأرض».

٣ - التوسل: قال الله تعالى: {رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ}، فيوسف الصديق -عليه السلام- دعا ربه -ﷻ- لما تمت النعمة عليه باجتماعه بأبويه وإخوته، وما مَنَّ الله به عليه من النبوة والملك، وسأل ربه -ﷻ- متوسلا إليه بربوبيته وخلقه لهذه المخلوقات العظيمة - والتي منها السماوات- أن يتوفه مسلماً، وأن يلحقه بالصالحين.

وكان من دعائه -ﷺ- إذا قام من الليل في افتتاح صلاته: «اللهم رب جبريل وميكائيل وإسرافيل، فاطر السماوات والأرض، عالم الغيب والشهادة، أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك، إنك تهدي من تشاء إلى صراط مستقيم».

خامساً: الإيمان بالغيب: قال تعالى: {قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ}، وقال تعالى: {وَتَبَارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ}، "فالله -ﷻ-

=

=

يبين سعة علمه وكمال قدرته في ملكه وعلمه غيب السماوات والأرض، واختصاصه بذلك، فلا اطلاع لأحد على ذلك إلا أن يطلعه الله تعالى على ما يشاء".

وأن العبيد لم يشهدوا خلق السماوات والأرض، ولا يعلمون الغيب، فقال تعالى: {مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا}.

فهو سبحانه الذي يعلم السر وأخفى، ولا يخفى عليه شيء في السماوات، وكذلك لا يخفى عليه ما في القلوب من الإيمان والنفاق وغير ذلك، قال تعالى: {قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللهَ بِدِينِكُمْ وَاللهُ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

سادساً: الإيمان بالملائكة: قال الله تعالى مبيناً أن الملائكة في السماء: {وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ}، وقال تعالى: {قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا}.

وعن أبي هريرة عن النبي -ﷺ- قال: «إذا أحب الله العبد نادى جبريل إن الله يحب فلانا فأحببه، فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء إن الله يحب فلانا فأحبوه، فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض».

وأن لكل سماء مقربوها من الملائكة كما في حديث البراء بن عازب -رضي الله عنهما-: «فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة».

وأن لكل سماء خازن كما جاء في حديث الإسراء: «قال جبريل -عليه السلام- لخازن السماء الدنيا: افتح»... ثم قال: «حتى أتى السماء الثانية فقال لخازنها افتح».

=

=

وأنهم من جنود الله في السماوات: {وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ جُنْدٍ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنْزِلِينَ}، وقال تعالى: {إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنْزَلِينَ}.

وعن ابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ -في غزوة بدر- يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه؛ إذ سمع ضربه بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم،

فنظر إلى المشرك أمامه، فخر مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- فقال: «صدقت ذلك مدد السماء الثالثة».

وأن عددهم في السماء كثير، ولا يعلمه إلا الله -عَزَّ وَجَلَّ- كما جاء في حديث الإسراء -بعد مجاوزته إلى السماء السابعة-: «ثم رفع بي إلى البيت المعمور، وإذا هو يدخله في كل يوم سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم».

وأن السماء تئط منهم فعن أبي ذر -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: قال رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: «إني أرى ما لا ترون، وأسمع ما لا تسمعون، أطت السماء، وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا وملك واضع جبهته ساجداً لله».

وأن من أعمالهم النزول بالوحي من السماء، قال تعالى: {مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ}.

وأنهم يصعدون بأعمال العباد وأرواحهم إلى السماء، قال تعالى: {يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ}.

وفي حديث البراء -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: «فيصعدون بها -أي روح الميت-، فلا يمرون -يعني

بها- على ملاء من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن

=

=

فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهى به إلى السماء السابعة».

وأن الملائكة شهداء الله في السماء، فعن أبي هريرة -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: «مروا بجنازة على النبي -ﷺ- فأثنوا عليها خيراً، فقال: النبي -ﷺ- وجبت، ثم مروا بجنازة أخرى فأثنوا عليها شراً، فقال النبي -ﷺ-: وجبت، قالوا: يا رسول الله، قولك الأولى والأخرى: وجبت، فقال النبي -ﷺ-: الملائكة شهداء الله في السماء، وأنتم شهداء الله في الأرض».

سابعـًا: الإيمان بالكتب: أخبر الله -عَزَّ وَجَلَّ- عن نزول الكتب من السماء فقال: {ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ نَزَّلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ}، وقال تعالى: {إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ}، بل إن أهل الكتاب كانوا يعلمون ذلك، وقد طلبوا من الرسول -ﷺ- أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى -عليه السلام- مكتوبة، قال تعالى: {يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَابًا مِنَ السَّمَاءِ}، فدل هذا على معرفة أهل الكتاب بأن الكتب تنزل من عند الله من السماء.

وكذلك قال كفار قريش: {وَقَالُوا لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنْبُوعًا (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الْأَنْهَارَ خِلَالَهَا تَفْجِيرًا (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا أَوْ تَأْتِيَ بِاللهِ وَالْمَلَائِكَةِ قَبِيلًا (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِنْ زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَنْ نُؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا نَقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنْتُ إِلَّا بَشَرًا رَسُولًا}.

ثامنـًا: الإيمان بالرسل: كان مما يستدل به النبي -ﷺ- على أنه رسول الله، وعلى وجوب إفراد الله بالعبادة قوله أن الذي أرسلني هو خالق كل شيء - ومن ذلك

=

=

السماوات- وربه ومليكه، الذي بيده الملك والإحياء والإماتة، وله الحكم، قال تعالى: {قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ}.

وعن أنس بن مالك -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- قال: نهينا أن نسأل رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- عن شيء، فكان يعجبنا أن يجئ الرجل من أهل البادية العاقل فيسأله ونحن نسمع، فجاء رجل من أهل البادية فقال: يا محمد، أتانا رسولك فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك، قال: «صدق». قال: فمن خلق السماء؟ قال: «الله». قال: فمن خلق الأرض؟ قال: «الله». قال: فمن نصب هذه

الجبال وجعل فيها ما جعل؟ قال: «الله». قال: فبالذى خلق السماء، وخلق الأرض، ونصب هذه الجبال، آلله أرسلك؟ قال: «نعم».

ومن دلائل نبوته -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- استدلاله عليهم بعلم الله للقول في السماء والأرض، وأنه لا يمكن أن يكذب عليه، فهو سبحانه لسعة علمه يعلم ما في السماء والأرض: {قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ}، وقال تعالى: {قُلْ كَفَى بِاللهِ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ شَهِيدًا يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَاطِلِ وَكَفَرُوا بِاللهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ}، حتى أن النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- كان يقول: «ألا تأمنوني وأنا أمين من في السماء».

وقد نبه الله على صدق رسله فيما جاءوا به بما أيدهم به من الآيات، ومنها خلقه للسماوات والأرض، فقال تعالى: {أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ}.

وقال موسى -عليه السلام- لفرعون مبينًا الحجة على رسالته، وأن هذه الحجج

=

=

لا تكون إلا من رب السماوات والأرض: {قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَـؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَافِرْعَوْنُ مَثْبُورًا}.

وفي حديث الإسراء بيَّن -ﷺ- أنه عرج به إلى السماء، ووجد فيها الأنبياء: آدم، ويحيى، ويوسف، وإدريس، وهارون، وعيسى، وموسى، وإبراهيم صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

ومن الإيمان بالرسل الإيمان بما جاءوا به، وأنه من عند الله، وقد نزل من السماء إلى الأرض، فعن ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- أنه كان يحدث: «أن رجلا أتى رسول الله -ﷺ-، فقال: يا رسول الله، إني أرى الليلة ظلة تنطف السمن والعسل، فأرى الناس يتكففون منها بأيديهم، فالمستكثر والمستقل، وأرى سببا واصلا من السماء إلى الأرض، فأراك أخذت به فعلوت، ثم أخذ به من بعدك فعلا، ثم أخذ به رجل آخر فعلا، ثم أخذ به رجل آخر فانقطع به، ثم وصل له فعلا، قال أبو بكر: يا رسول الله، بأبي أنت، والله لتدعني فلأعبرنها، قال رسول الله -ﷺ-: اعبرها، قال أبو بكر: أما الظلة فظلة الإسلام، وأما الذي ينطف من السمن والعسل فالقرآن حلاوته ولينه، وأما ما يتكفف الناس من ذلك فالمستكثر من القرآن والمستقل، وأما السبب الواصل من السماء إلى الأرض فالحق الذي أنت عليه تأخذ به فيعليك الله به، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ به رجل من بعدك فيعلو به، ثم يأخذ به رجل آخر فينقطع به، ثم يوصل له فيعلو به، فأخبرني يا رسول الله بأبي أنت أصبت أم أخطأت؟ قال رسول الله -ﷺ-: أصبت بعضا، وأخطأت بعضا، قال: فوالله يا رسول الله لتحدثني ما الذي أخطأت؟ قال: لا تقسم».

تاسعـًا: الإيمان باليوم الآخر: أقسم الله -عَزَّ وَجَلَّ- بربوبيته للسماء والأرض على أن ما وعد"به من أمر القيامة والبعث والجزاء، كائن لا محالة، وهو حق لا مرية فيه، فلا تشكوا فيه كما لا تشكوا في نطقكم حين تنطقون"، قال تعالى: {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ

=

وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ}.

واستدل الله -ﷻ- على البعث وإعادة الأجساد بقدرته في خلق السماوات والأرض، فقال: {أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنْ نَشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ}، قال ابن كثير -رحمه الله-: " أي إن في النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فطن لبيب رجّاع إلى الله، على قدرة الله على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه السماوات في ارتفاعها واتساعها، وهذه الأرضين في انخفاضها وأطوالها وأعراضها، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام".

وقال تعالى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}، فمن قدر على خلق السماوات والأرض ولم يعي بخلقهن، قادر على أن يحيي الموتى بطريق الأولى والأحرى.

وأخبر الله -ﷻ- أن السماء تطوى يوم القيامة فقال: {وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ}، وعن أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: «يقبض الله الأرض ويطوي السماء بيمينه ثم يقول أنا الملك أين ملوك الأرض».

وأخبر سبحانه أنه سيجازي كلا بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر، فهو مالك السماوات والأرض الغني عما سواه، قال تعالى: {وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى}.

ومن الإيمان باليوم الآخر الإيمان بالجنة والنار، وقد بين الله -ﷻ- صفة الجنة وأن عرضها عرض السماوات والأرض، فقال: {وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ

=

وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ}، وقال تعالى: {سَابِقُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أُعِدَّتْ لِلَّذِينَ آمَنُوا بِاللهِ وَرُسُلِهِ ذَلِكَ فَضْلُ اللهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشَاءُ وَاللهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ}.

وقد دعا النبي -ﷺ- هرقل إلى الجنة، ووصف له عرضها بأنه كعرض السماوات والأرض.

وفي غزوة بدر قال رسول الله -ﷺ-: «قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض، قال: يقول عمير بن الحمام الأنصاري -رضي الله عنه-: يا رسول الله، جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: نعم».

وأن الجنة درجات، وما بين كل درجة ودرجة كما بين السماء والأرض، عن أبى سعيد الخدري -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «يا أبا سعيد، من رضى بالله ربا وبالإسلام دينا وبمحمد نبيا وجبت له الجنة». فعجب لها أبو سعيد فقال: أعدها على يا رسول الله، ففعل، ثم قال: «وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة في الجنة، ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض». قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: «الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله».

عاشراً: الإيمان بالقدر: القدر أربعة مراتب: العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق. وأخبر الله -عز وجل- أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام، وأن عرشه كان على الماء قبل ذلك، قال تعالى: {وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ}.

وأنه قدر المقادير وكتبها قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله -ﷺ-: «كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

=

كما بين سبحانه أن الأمور لا تقع إلا بإذنه ومشيته ومن ذلك وقوع السماء على الأرض فقال تعالى: {وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ} "أي لو شاء لأذن للسماء فسقطت على الأرض، فهلك من فيها، ولكن من لطفه ورحمته وقدرته يمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه".

ولما يذكر الله -ﷻ- خلق السماوات والأرض وأنه هو المتصرف فيها يبين"أنه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وأنه يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، ولا مانع لما أعطى، ولا

معطي لما منع، وأنه يخلق ما يشاء"، قال تعالى: {لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ يَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ إِنَاثًا وَيَهَبُ لِمَنْ يَشَاءُ الذُّكُورَ (٤٩) أَوْ يُزَوِّجُهُمْ ذُكْرَانًا وَإِنَاثًا وَيَجْعَلُ مَنْ يَشَاءُ عَقِيمًا إِنَّهُ عَلِيمٌ قَدِيرٌ}.

وعن عثمان بن عفان -رضي الله عنه- قال: سمعت رسول الله -ﷺ- يقول: «من قال: بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم، ثلاث مرات؛ لم تصبه فجأة بلاء حتى يصبح، ومن قالها حين يصبح ثلاث مرات؛ لم تصبه فجأة بلاء حتى يمسى»، فمن فعل الأسباب الشرعية والحسية التي أمر الله بها؛ فلن يضره شيء في الأرض ولا في السماء إلا بإذن الله.

الحادي عشر: منهج الاستدلال:

١ - الاستدلال بالعقل: من منهج القرآن الاستدلال بالعقل في إثبات توحيد الربوبية والألوهية مستدلاً في ذلك بخلق السماوات، قال تعالى: {أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ (٣٥) أَمْ خَلَقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ}.

٢ - التصديق والتسليم: لما كان خلق السماوات من الأمور الغيبية كان الواجب على المسلم الإيمان بذلك والتصديق به، وعدم الخوض فيما لا علم له به، قال ابن عباس -رضي الله عنهما- في قوله تعالى: {اللهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ

=

مِثْلَهُنَّ} : "لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم وكفركم تكذيبكم بها"، ومعناه أن هذه الأمور قد لا تدركه عقول بعض الناس فيكذب بها، فالواجب التسليم للنصوص والتصديق بها.

٣ - ضرب الأمثلة: من منهج القرآن ضرب الأمثلة مستخدمًا في ذلك السماء لبيان حال المشركين وظلالهم وبعدهم عن الهدى، قال تعالى: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}.

وضرب الله مثلاً لقلب الكافر في شدة تضييقه إياه عن وصول الإيمان إليه كمن يصّعد في السماء، قال تعالى: {فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ}، "فكما لا يستطيع ابن آدم أن يبلغ السماء، فكذلك لا يستطيع أن يدخل التوحيد والإيمان قلبه، حتى يدخله الله في قلبه".

الثاني عشر: الوعد والوعيد: لما ذكر الله -ﷻ- وجوب إتباع الرسول -ﷺ-، ووبخ وهدد أهل الكتاب على عدم إتباعه بقوله: {لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ}، بين سبب ذلك فقال: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} "أي هو مالك كُل شيء، والقادر على كل شيء فلا يعجزه شيء، فهابوه ولا تخالفوه، واحذروا نقمته وغضبه، فإنه العظيم الذي لا أعظم منه، القدير الذي لا أقدر منه".

وأخبر الله -ﷻ- أنه الحاكم المالك المتصرف في أهل السموات والأرض فيغفر لمن يشاء، ويعذب من يشاء، فقال تعالى: {وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيمًا}.

=

=

وكان المشركون يسألون رسولهم العذاب من السماء، قال تعالى عنهم: {وَمَا أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا وَإِنْ نَظُنُّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ (١٨٦) فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِنَ السَّمَاءِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ}، أي: جانبا من السماء، أو عذابًا من السماء.

وقال تعالى عن المشركين أنهم قالوا: {وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِنْ كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ}.

وبين -ﷺ- أن الذنوب ولو عظمت وبلغت السماء فإن الله -عز وجل- يغفرها ولا يبالي، ففي حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- عن النبي -ﷺ- قال: «لو أخطأتم حتى تبلغ خطاياكم السماء ثم تبتم لتاب عليكم».

وبين كذلك عقوبة من تكلم بكلمة من سخط الله، وأنه ليقع منها أبعد من السماء، فعن أبي سعيد الخدري -رضي الله عنه- يرفعه قال: «إن الرجل ليتكلم بالكلمة لا يريد بها بأسا إلا ليضحك بها القوم، وإنه ليقع منها أبعد من السماء».

الثالث عشر: الولاء والبراء:

قد جاء في النصوص أن السماء تبكي عند فقد المؤمن، وأن أبوابها تفتح له، أما الكافر فلا تبكي عليه، ولا تفتح له أبوابها، قال تعالى عن حال الكافرين: {فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنْظَرِينَ}.

وفي حديث البراء بن عازب -رضي الله عنهما- في بيان حال روح المؤمن عند الموت، قال -ﷺ-: «فيصعدون بها فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون:

فلان بن فلان، بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا به إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له، فيفتح له، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى

ينتهي بها إلى السماء السابعة، فيقول الله، -عز وجل-: اكتبوا كتاب عبدي في عِلِّيين،

=

=

وأعيدوه إلى الأرض، فإني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى».

وفي بيان حال روح الكافر قال: «وإن الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزلت عليه ملائكة غلاظ شداد، فانتزعوا روحه، كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبتل، وتنزع نفسه مع العروق، فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وتغلق أبواب السماء، ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله: أن لا تعرج روحه من قبلهم، فإذا عرج بروحه، قالوا: رب فلان بن فلان عبدك، قال: أرجعوه، فإني عهدت إليهم أني منها خلقتهم، وفيها أعيدهم، ومنها أخرجهم تارة أخرى».

الرابع عشر: الإيمان بالجن: كانت الجن تتخذ المقاعد في السماء الدنيا تسترق السمع من السماء، ولما بعث الله محمداً -ﷺ- منعت من ذلك، ولهذا قال الجن: {وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْتَمِعِ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا}.

المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية -السماء-:

أولاً: إنكار وجود السماوات: من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية إنكار وجودها، وأن المراد بها الأفلاك أو الأجرام العلوية، وأن سعة الجو غير متناهية، وأن الكون" لا زال يتوسع حتى الآن"، استدلالاً بقوله تعالى: {وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ}، ومعنى هذا عندهم نفي وجود السماوات السبع.

وهذا القول هو قول متأخري الفلاسفة" فلا سماء عندهم بل الأجرام العلوية قائمة بالجاذبية؛ فإن الشمس وسائر الكواكب السيارات عليها بل وجميع الثوابت ليست مركوزة في جسم من الأجسام".

والحق الذي تدل عليه الآيات القرآنية، والأحاديث الصحيحة"أن هذا الفضاء

=

=

الذي نحن فيه يبتدي من الأرض، وينتهي إلى السماء الدنيا".

"والرسل -ﷺ- كلهم أخبروا بوجود السماوات، وهذا خاتمهم -ﷺ- قد ذكر ما ذكر مما رأى في معراجه في السماوات واستفتاحه لها بواسطة جبريل، كل ذلك يبطل تأويل من أول".

وقد أخبر الله -ﷻ- عن هذه السماء وأنها مبنية فقال: {أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا

(٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا}.

ومما يدل على وجود السماء" أن الله ذكر للسماء أحوالاً وأوصافًا لا يصح انطباقها على الفضاء، مثل قوله تعالى: {إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ}، وهذا يكون يوم القيامة والفضاء لا يوصف بالانشقاق، ومثله قوله تعالى: {وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ}، يعني يوم القيامة، فلولا أنها بناء لما وصفها بالتشقيق....

وفي مواضع يذكر الرب -ﷻ- السماء والأرض وما بينهما، فلولا أن للفضاء نهاية، وللسماء جرما لما قال الرب: وما بينهما".

ثانيًا: إنكار عدد السماوات السبع: ومن المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية إنكار عدد السماوات السبع، وأن المراد"بالسماوات السبع التي يرد ذكرها في كثير من الآيات هي على أرجح الأقوال الكواكب السبع السيارة المعروفة".

يقول الدكتور محمد جمال الفندي: " الغالب (والله أعلم) أنها - أي السماوات السبع- تحديد للنوع وليس للكم. وما السماوات السبع التي ترتفع فوق رؤوسنا سوى:

١ - الغلاف الجوي.

٢ - الشهب.

=

=

٣ - النيازك.

٤ - القمر.

٥ - الكواكب السيارة.

٦ - المذنبات.

٧ - الشمس".

وقال بعضهم أن: " الأفلاك تسعة وليست سبعة، والعدد سبعة في القرآن يراد به التعدد".

"فلم يثبتوا من السماوات سبعا ولا أكثر من ذلك ولا أنقص، والمتشرعون منهم قالوا: المراد من السماوات السبع أصناف أجرام الكواكب، فإنهم جعلوها على سبعة أصناف في المقدار".

وهذا الرأي لا يتفق مع قوله تعالى: {أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا}، فالآية تدل على أن السماوات السبع واحدة فوق واحدة.

وقال تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ} ،"أي أتم خلقهن من تلك المادة الدخانية، فجعلهن سبع سماوات تامات منتظمات الخلق".

وقال تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ}، قال ابن حزم -رحمه الله-: " وهكذا قام البرهان من قبل كسوف الشمس والقمر وبعض الدرارى لبعض على أنه سبع سماوات، وعلى أنها سبع طرائق".

وقال تعالى: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ}، فالشمس والقمر والنجوم معطوفة على السماوات والأرض، أي أنهن لسن بجزء من السماوات.

=

=

ثالثًا: إنكار خلق الله للسماوات والأرض في ستة أيام وأنها ست مراحل: ومن المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية إنكار خلق الله للسماوات في ستة أيام، وأن هذه الأيام الواردة في الآيات عبارة عن ست مراحل، أقام الله عليها الكون، وأسماها ستة أيام، وربط ذلك بالنظام السداسي، يقول الكتور جميل القدسي الدويك: "وأن الأيام هنا ليست كأيامنا هذه، إنما هي مراحل طويلة ، فإنشاء الكون كله وبنائه وتعميره من قبل الله وإصلاحه على أكمل وجه كان قائما على النظام السداسي فتأملوا ذلك في القرآن العظيم".

أما علماء الإسلام فيقولون أن الله خلق هذه السماوات والأرض في ستة أيام ولكنهم اختلفوا هل هذه الأيام من أيام الدنيا أو أيام الآخرة، كل يوم ألف سنة.

قال الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله-: " وخلقها الله -ﷻ- في ستة أيام، والأيام أطلقها الله -ﷻ- ولم يبين أن اليوم خمسين ألف سنة، أو أقل، أو أكثر، وإذا أطلق يحمل على المعروف المعهود وهي أيامنا هذه، وقد جاء في الحديث أنها الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، فالجمعة منتهى خلق السماوات والأرض ومبتدئه الأحد، والسبت ليس فيه خلق لا ابتداء ولا انتهاء.".

رابعًا: اعتقاد أن السماوات خلقت من غير مادة: ومن المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية القول بأن السماوات خلقت من غير مادة، وبأن مادة السماوات ليست مبتدعة، مما يلزم عليه القول بقدم العالم.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: " فأما قول الدهرية: بأن السماوات لم تزل على ما هي عليه ولا تزال فهذا تكذيب صريح وكفر بين بما في القرآن وما اتفق عليه أهل الإيمان وعلموه بالاضطرار أن الرسل أخبروا به وكذلك قول الجهمية، أو من يقول: منهم إن

السماوات والأرض خلقتا من غير مادة، ولا في مدة، وأنهما يفنيان أو يعدمان، أو

=

=

أن الجنة تفنى أيضا: كل ذلك مخالف لنصوص القرآن".

وهذا القول لم يقل به أحد من سلف الأمة، بل المتواتر عنهم أنهما خلقتا من مادة، وفي مدة، كما دل عليه القرآن قال الله تعالى: {قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ}، وقال تعالى: {هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ}.

وقد ثبت في صحيح مسلم عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «إن الله قدر مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، وكان عرشه على الماء».

وقد أخبر سبحانه أنه استوى إلى السماء الدنيا وهي دخان، فقال لها وللأرض: {ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}.

"وثبت عن غير واحد من الصحابة والتابعين وغيرهم من علماء المسلمين أنه خلق السماء من بخار الماء، ونحو ذلك من النقول التي يصدقها ما يخبر به أهل الكتاب عن التوراة وما عندهم من العلم الموروث عن الأنبياء. وشهادة أهل الكتاب الموافقة لما في القرآن أو السنة مقبولة"، كما في قوله تعالى: {قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ}، ونظائر ذلك في القرآن.

وفي صحيح البخاري عن عمران بن حصين عن النبي -صلى الله عليه وسلم- أنه قال: «كان الله ولم يكن شيء قبله، وكان عرشه على الماء، وكتب في الذكر كل شيء، وخلق

=

=

السماوات والأرض». وفي رواية صحيحة: «ثم خلق السماوات والأرض».
خامساً: اعتقاد التعب والإعياء لله بعد خلق السماوات والأرض: ومن المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية زعم اليهود أن الله تعالى استراح يوم السبت، بعد خلقه السماوات والأرض -تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيرا- فعن قتادة قال: قالت اليهود -عليهم لعائن الله-: خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في اليوم السابع، وهو يوم السبت، وهم يسمونه يوم الراحة، فأنزل الله تكذيبهم فيما قالوه وتأولوه: {وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ أي من إعياء ولا نصب ولا تعب، كما قال في الآية الأخرى: {أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى
بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ، وقال تعالى: {لَخَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ}.
سادساً: اعتقاد أن الله في جوف السماء: من المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية اعتقاد أن الله في جوف السماء، وأن قوله {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ} يقتضي أن يكون الله في جوف الأفلاك، ونحو ذلك، وظن أن هذه المعاني الفاسدة هي ظاهر القرآن، وأن مسماها ظاهره وحقيقته.
والجواب عن هذا أن السلف رحمهم الله لم يعتقدوا أن هذا المعنى الفاسد ظاهر هذه النصوص، ولا أنها تدل على ذلك.
"وقد أخبر الله -ﷻ- في القرآن أنه استوى على العرش، وأن كرسيه وسع السماوات والأرض، وأن الأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسماوات مطويات بيمينه، وأخبر بعلوه في غير موضع من كتابه، وهذه كلها نصوص تنفي أن تكون صفاته تشبه صفات خلقه، أو يكون حالا في المخلوقات، وأخبر بقوله: {لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ}، وبقوله: {وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ} ونحو ذلك أن يماثله العباد في

=

=

صفاتهم، فتكون صفاته كصفات خلقه".

فهو سبحانه وتعالى قد قال في كتابه: {أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا

هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ.

وثبت في الصحيح عن النبي -ﷺ- أنه قال للجارية: «أين الله؟، قالت: في السماء، قال: من أنا؟ قالت: أنت رسول الله. قال: أعتقها فإنها مؤمنة».

قال مالك بن أنس -رحمه الله-: إن الله في السماء، وعلمه في كل مكان.

وقيل لعبد الله بن المبارك -رحمه الله-: بماذا نعرف ربنا؟ قال: بأنه فوق سماواته على عرشه، بائن من خلقه.

وقال أحمد بن حنبل -رحمه الله- كما قال هذا وهذا.

وعلى هذا فالمراد بفي"إما أن تكون بمعنى «على»، كما في قوله: {وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ} أي على جذوع النخل، وكقوله: {فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ} أي عليها، فالمعنى أأمنتم من على السماء.

وإن كانت على بابها وهي الظرفية، فيكون المراد بالسماء العلو، فالله في العلو المطلق".

سابعًا: تحريف مخاطبة الله للسماء وتحريف اتيانها وقولها: من المخالفات المتعلقة بهذه الآية الكونية تحريف مخاطبة الله للسماء، وتحريف اتيانها وقولها في قوله تعالى: {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}.

فقالوا في مخاطبة الله للسماء في قوله: {فَقَالَ لَهَا} قولان:

أحدهما: أنه قول تكلم به.

=

=

الثاني: أنها قدرة منه ظهرت لهما فقام مقام الكلام في بلوغ المراد.

أما قول السماء فقيل فيه:

أنه ظهور الطاعة منهما حيث انقادا وأجابا فقام مقام قولهما.

وقيل أن هذا مجاز، وإنما المعنى أنها ظهر منها من اختيار الطاعة والخضوع والتذلل ما هو بمنزلة لقول {أَتَيْنَا طَائِعِينَ}.

وقيل: بل خلق الله فيهما الكلام فتكلمتا كما أراد تعالى.

ومنهم من جعل قول السماء هو الموجات الصوتية التي حدثت عند انفجار الكون، أو أنه ذبذبات كونية هادئة.

"بل إنهم يصورن ذلك في رسوم بيانية، ويزعمون من خلال تحليل العلماء لهذه الذبذبات

أن الكون كان هادئـًا ومطيعـًا، وانه يوافق قول الله تعالى عن السماء في بداية الخلق": {ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ}.

والجواب أن هذه التأويلات والتحريفات باطلة؛ فإن الله -عَزَّ وَجَلَّ- قادر على مخاطبة الجمادات، قال تعالى: {إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا}.

وما في نطق السماء من العجب؟ " والله تبارك وتعالى ينطق الجلود، والأيدي، والأرجل، ويسخّر الجبال والطير، بالتّسبيح. قال تعالى: {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ}، وقال: {يَاجِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ}، أي سبّحن معه، وقال: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}.".

وهذا القول لا شيء يدفعه، والعبرة به أتم والقدرة فيه أظهر.

كما أن الله -عَزَّ وَجَلَّ- خاطبهما خطاب من يعقل، وذكر جوابهما، وكان الجواب

=

=

لجمع العقلاء فقال: {طَائِعِينَ}، ولم يقل طائعتين على اللفظ، ولا طائعات على المعنى، لأنهما سماوات وأرضون، لأنه أخبر عنهما وعمن فيهما، ولما وصفهن بالقول والإجابة وذلك من

صفات من يعقل أجراهما في الكناية مجرى من يعقل.

أما الإتيان فإن معناه عندهم غير مراد" لأن السماء والأرض لا يتصور أن يأتيا، ولا يتصور منهما طواعية أو كراهية إذ ليستا من أهل العقول والإدراكات، ولا يتصور أن الله يكرههما على ذلك لأنه يقتضي خروجهما عن قدرته".

وفيه قولان:

"أحدهما: أنه قال ذلك قبل خلقها، ويكون معنى ائتيا أي كونا فكانتا، كما قال تعالى: {إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ}.

الثاني: قول الجمهور أنه قال ذلك لهما بعد خلقهما.

فعلى هذا يكون في معناها أربع تأويلات:

أحدها: معناه أعطيا الطاعة في السير المقدر لكما طوعـاً أو كرهـاً أي اختياراً أو إجباراً.

الثاني: ائتيا عبادتي ومعرفتي طوعـاً أو كرهـاً باختيار أو غير اختيار.

الثالث: ائتيا بما فيكما طوعـاً أو كرهـاً.

الرابع: كونا كما أمرت من شدة ولين، وحزن وسهل ومنيع وممكن".

ونقول -كما سبق- أن الله على كل شيء قدير، قال ابن عباس -رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا- في معنى ذلك: "قال الله -عَزَّ وَجَلَّ-: أما أنت يا سماء فأطلعي شمسك وقمرك ونجومك، وأنت يا أرض فشقي أنهارك وأخرجي ثمارك ونباتك، وقال لهما: افعلا ما آمركما طوعا وإلا ألجأتكما إلى ذلك حتى تفعلاه كرها فأجابتا بالطوع".

ثامنـاً: تحريف معنى تسبيح السماوات: ومن المخالفات المتعلقة بهذه الآية =

=

الكونية تحريف معنى تسبيح السماوات، وحمله" على معنى الانقياد والتسخير الذى يصدر عن طواعية على سبيل الاستعارة بالكناية"، أو أن تسبيحها هو"ما يظهر فيه من لطيف صنعة الله وبديع قدرته الذي يعجز الخلق عن مثله فيوجب ذلك على من رآه تسبيح الله وتقديسه".

وقد سبق الكلام على هذه المسألة في مبحث عبودية الكائنات، وأن السماء تسبح تسبيحـًا حقيقيـًا، الله أعلم بكيفيته، وأن هذا التسبيح زائد على ما فيها من الدلالة، قال تعالى: {تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا}.

تاسعـًا: تحريف معنى بكاء السماء: من المخالفات المتعلقة بهذه الآية الكونية تحريف معنى بكاء السماء، وأن المراد بذلك أنه" عمت مصيبته الأشياء حتى بكته السماء والأرض والريح والبرق، وبكته الليالي الشاتيات... وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه"...

أو أن"في الكلام إضمار، أي ما بكى عليهم أهل السماء والأرض من الملائكة".

وفي كيفية بكاء السماء ثلاثة أوجه: أحدها أنه كالمعروف من بكاء الحيوان.

وقيل: بكاؤهما حمرة أطرافها.

وقيل: بكاؤها أمارة تظهر منها تدل على أسف وحزن.

ومن المخالفات أيضـًا اعتقادهم أن بكاء السماء ناتج عن ولادة الكون، كما يقوله البروفيسور ويتل في خبر علمي: "يمكننا سماع البكاء الناتج عن ولادة الكون".

ثم يقول صاحب الكتاب: "وهذا الخبر العلمي يعطي إمكانية حدوث الصوت والبكاء وغير ذلك مما لم نكن نفهمه من قبل. وهذا يؤكد أن كل كلمة في القرآن هي الحق، بل لماذا لا يكون هذا الصوت الكوني هو امتثال لأمر الله تعالى؟".

والصواب أنها تبكي بكاء حقيقيا إذ لا استحالة في ذلك، وإذا كانت السماوات

=

=
والأرض تسبح وتسمع وتتكلم فكذلك تبكي، مع ما جاء من الخبر في ذلك.
وقال مجاهد -رحمه الله-: إن السماء والأرض يبكيان على المؤمن أربعين صباحا. قال أبو يحيى: فعجبت من قوله فقال: أتعجب! وما للأرض لا تبكي على عبد يعمرها بالركوع والسجود! وما للسماء لا تبكي على عبد كان لتسبيحه وتكبيره فيها دوي كدوي النحل!. وقال علي وابن عباس -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: إنه يبكي عليه مصلاه من الأرض ومصعد عمله من السماء.
عاشراً: إنكار معرفة ارتفاع السماء عن الأرض:
ومن المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية إنكار معرفة ارتفاع السماء عن الأرض، "فلم يعرف الإنسان مقدار ارتفاع السماء إلا بعد كشف العلم عن مواقع بعض النجوم، فعرفنا أن السماء مرتفعة، وليست قريبة كما يظن النظر المجرد".
وهذا مخالف لقول النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- الذي أخبر فيه أن ارتفاع السماء مسيرة خمسمائة سنة، فعن العباس بن عبد المطلب -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ- أن رسول الله -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- قال: «هل تدرون كم بين السماء
والأرض؟» قال: قلنا الله ورسوله أعلم، قال: «بينهما مسيرة خمسمائة سنة».
الحادي عشر: بعض الأدعية والأقوال المخالفة:
ومن المخالفات العقدية المتعلقة بهذه الآية الكونية -السماء- ذكر بعض الأدعية والأقوال المخالفة، منها:
١ - من ذلك الدعاء بقول: «اللهم بقدرتك التي قدرت بها أن تقول بها للسماوات والأرض ائتيا طوعًا أو كرهًا، قالتا أتينا طائعين، افعل كذا وكذا».
قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-: " هذه المسألة مبنية على مسألة كلام الله، ونحو ذلك من صفاته، هل هي قديمة لازمة لذاته لا يتعلق شيء منها بفعله
=

=

وبمشيئته ولا قدرته؟ أو يقال: إنه يتكلم إذا شاء ويسكت إذا شاء، وإنما مع ذلك صفات فعليه؟ وهذا فيه قولان لأصحابنا وغيرهم من أهل السنة." ثم بين -رحمه الله- أن هذا القول هو مذهب الكلابية، أما أهل السنة فلا يقال عندهم

قدر أن يتكلم، أو يقول، وقالوا لم يزل الله متكلماً إذا شاء، ومتى شاء، وكيف شاء، وكما شاء.

٢ - ذكر أحوال خاصة للسماء عند دعاء المكروب: عن أنس -رضي الله عنه- قال: «كان رجل من أصحاب النبي -ﷺ- من الأنصار يكني أبا معلق، وكان يتجر بمال له ولغيره يضرب به في الآفاق، وكان ناسكا ورعا، فخرج مرة فلقيه لص مقنع بالسلاح فقال له: ضع ما معك فإني قاتلك، قال: ما تريد إلا دمي؟ شأنك بالمال، قال: أما المال فلي فلست أريد إلا دمك.

قال: أما إذا أبيت فذرني أصلي أربع ركعات. قال: صل ما بدا لك. فتوضأ ثم صلى أربع ركعات وكان من دعائه في آخر سجدة أنه قال: يا ودود، يا ذا العرش المجيد، يا فعال لما تريد، أسألك بعزك الذي لا يرام، والملك الذي لا يضام، وبنورك الذي ملأ أركان عرشك أن تكفيني شر هذا اللص، يا مغيث أغثني ثلاث مرات، قال: دعا بها ثلاث مرات. فإذا هو بفارس قد أقبل بيده حربة. واضعها بين أذني فرسه، فلما أبصر به اللص: أقبل نحوه فطعنه فقتله. ثم أقبل إليه، فقال: قم، قال: من أنت بأبي أنت وأمي؟ فقد أغاثني الله تعالى بك اليوم. قال: أنا ملك من أهل السماء الرابعة.

دعوت الله بدعائك الأول فسمعت لأبواب السماء قعقعة. ثم دعوت بدعائك الثاني فسمعت لأهل السماء ضجيجا. ثم دعوت بدعائك الثالث فقيل: دعاء مكروب. فسألت الله ﷻ أن يوليني قتله. قال أنس: فاعلم أنه من توضأ وصلى أربع ركعات ودعا بهذا الدعاء استجيب له مكروبا كان أم غير مكروب» كرامات

=

=

أولياء الله لأبي القاسم هبة الله اللالكائي: ٩/ ١٦٦، وقال محقق الكتاب: سنده ضعيف، فيه ثلاثة أشخاص لم أجد تراجمهم.

٣ - عدالة السماء: قال الشيخ بكر أبو زيد -رحمه الله-: " هذا تعبير حادث في عصرنا، يريدون به: عدل الله - سبحانه - على معنى: {وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا} .

فالمراد إن كان كما ذكر فهو حق، والتعبير غير سديد، بل هو قريب من إطلاقات الكلاميين التي لم يأت بها كتاب ولا سنة، كما في قولهم: "قوة خفية" فليجتنب.

وسئل الشيخ بن عثيمين -رحمه الله- عن حكم مقولة: "عدالة السماء، ونور السماء" وما أشبه ذلك؟:

فأجاب: "هم يريدون بنور السماء وهداية السماء نور الله -ﷻ-؛ لأنه في السماء، ولكن الأفضل أن يعدلوا عن هذه الكلمات، وأن يقولوا: نور الله وهداية الله، كما قال النبي عليه الصلاة والسلام: «إلا كان الذي في السماء ساخطًا عليها»، قال: «كان الذي في

السماء» فإطلاق مثل هذه العبارات يجب على الإنسان التوقف فيها، وأن يقال: الأفضل أن تضيفوا الشيء إلى من هو له حقيقة؛ لأن مجرد السماء ليس فيها هداية وليس فيها نور وإنما هو نور الله -ﷻ- وهداية الله".

٤ - كراهة النظر إلى السماء: زعمًا منهم أن ذلك يدل على تحيز الله -ﷻ-، وأن" هذا الأدب مطلوب من كل الناس، وإن كان الحق تعالى لا يتحيز ولا تأخذه الجهات"، وزعم بعض الزهاد أنه لا ينبغي النظر إلى السماء تخشعًا وتذلاً.

وقد استدلوا بنهي النبي -ﷺ- عن رفع البصر في الصلاة، فقالوا: «أقرب ما يكون العبد إلى ربه في الصلاة، ونهي الرسول عليه الصلاة والسلام رفع البصر إلى السماء يدل على أن القرب من الله ليس بالتوجه إلى السماء، وهذا يدل على عدم التحيز والمكان، فلو كان الله في السماء لكان أولى التوجه في البصر إلى حيث الله،

=

وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩).

{وَالْأَرْض مَدَدْنَاهَا} بَسَطْنَاهَا {وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي} جِبَالًا ثَوَابِت لِئَلَّا تَتَحَرَّك بِأَهْلِهَا {وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلّ شَيْء مَوْزُون} مَعْلُوم مُقَدَّر.

وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠).

{وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِش} بِالْيَاءِ مِنْ الثِّمَار وَالْحُبُوب {وَ} جَعَلْنَا لَكُمْ {مَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} مِنْ الْعَبِيد وَالدَّوَابّ وَالْأَنْعَام فَإِنَّمَا يَرْزُقهُمْ الله(١).

=

ولما نهى الرسول عن ذلك... دل على عدم تحيز الله ووجوده في مكان».

وقد وردت السنة الصحيحة برد ذلك، وقد بوب البخاري -رحمه الله- في صحيحه بقوله: باب رفع البصر إلى السماء، وذكر بعض الأحاديث والتي فيها رفع النبي بصره إلى السماء، وفي هذا رد على من كره ذلك.

(١) قوله تعالى: {وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا} [الحجر: ١٩].

أي: ومن الأدلة- أيضا- على وحدانيتنا وقدرتنا، أننا مددنا الأرض وفرشناها وبسطناها، لتتيسر لكم الحياة عليها.

قال الطبري:"والأرض دحوناها فبسطناها".

قال ابن كثير:"ثم ذكر، تعالى، خلقه الأرض، ومده إياها وتوسيعها وبسطها".

عن قتادة، قوله:"{وَالأرْضَ مَدَدْنَاهَا}،وقال في آية أخرى {وَالأرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا}، وذُكر لنا أن أمّ القرى مكة، منها دُحيت الأرض".

قال ابن القيم: وإذا نظرت إلى هذه الأرض وكيف خلقت؟ رأيتها من أعظم آيات فاطرها وبديعها، خلقها سبحانه فراشا ومهادا وذللها لعباده.

قوله تعالى: {وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ} [الحجر: ١٩]، أي:"وألقينا فيها جبالا تثبتها".

قال تعالى (خلق السماوات بغير عمد ترونها، وألقى في الأرض رواسي أن تميد

=

=

بكم).

وقال تعالى (وألقى في الأرض رواسي أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون (١٥) وعلامات وبالنجم هم يهتدون).

وقال تعالى (وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا).

وقال تعالى (وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماء فراتا).

وقال تعالى (والجبال أرساها) أي: ثبت الجبال في الأرض، فهي مثبتة للأرض.

قال قتادة:"رواسيها: جبالها".

قال الزجاج:"«الرواسي»: الجبال".

قال الطبري:"يقول: وجعلنا فيها جبالا ثوابت، رست في الأرض".

قال ابن كثير: أي:"ما جعل فيها من الجبال الرواسي، والأودية والأراضي والرمال".

قال الشوكاني:"أي: جبال ثابتة لئلا تحرك بأهلها".

قوله تعالى: {وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ} [الحجر: ١٩].

أي: وأنبتنا في الأرض من كل شيء من أنواع النباتات من الزروع والحبوب والثمار والفواكه وسائر النباتات متاعا للعباد وأنعامهم.

كما قال تعالى (وهو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء).

وقال تعالى (والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها).

وقال تعالى (وأنزلنا من السماء ماء فأنبتنا فيها من كل زوج كريم).

وقال تعالى (وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقا لكم).

-قال ابن الجوزي: قوله تعالى (وأنبتنا فيها) في المشار إليها قولان:

أحدهما: أنها الأرض، قاله الأكثرون.

والثاني: الجبال، قاله الفراء.

=

=

(موزون) أي: مقدر بقدر معلوم مضبوط.

كما قال تعالى (وما ننزله إلا بقدر معلوم).

-قال ابن عطية: قال الجمهور: معناه مقدر محرر بقصد وإرادة، فالوزن - على هذا - مستعار.

-قال ابن عاشور: والموزون: مستعار للمقدر المضبوط.

قال القرطبي: ودلت هذه الآية على أن الله تعالى أغنى الإنسان عن كل مخلوق؛ ولهذا قال عليه السلام مشيرا إلى هذا المعنى (والله لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب على ظهره خير له من أن يسأل أحدا أعطاه أو منعه) أخرجه مسلم.

ويدخل في معنى الاحتطاب جميع الأشغال من الصنائع وغيرها؛ فمن أحوج نفسه إلى بشر مثله بسبب الحرص والأمل والرغبة في زخرف الدنيا فقد أخذ بطرف من جعل لله ندا.

قال الطبري:"يقول: وأنبتنا في الأرض من كلّ شيء: يقول: من كلّ شيء مقدّر، وبحدّ معلوم".

قال ابن كثير: أي: " ما أنبت فيها من الزروع والثمار المتناسبة".

قال الزمخشري:"{موزون}: وزن بميزان الحكمة، وقدر بمقدار تقتضيه، لا يصلح فيه زيادة ولا نقصان، أو له وزن وقدر في أبواب النعمة والمنفعة".

وفي قوله تعالى: {وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ} [الحجر: ١٩]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني مقدر معلوم، قاله ابن عباس، وسعيد بن جبير، وقتادة، والضحاك، وإنما قيل: «موزون»، لأن الوزن يعرف به مقدار الشيء. قاله الشاعر:

قَدْ كُنْتُ قَبْلَ لِقائِكُمْ ذَا مِرَّة عِنْدِي لِكُلِّ مُخاصِمٍ مِيزَانُهُ

قال ابن قتيبة:"{موزون} مقدر. كأنه وزن".

=

=

الثاني: معناه: بقدْر. قاله أبو مالك، وأبو صالح، وعكرمة، وأبو عبيدة.
وقال مجاهد:"مقدور بقدْر".
وقال أبو مخزوم والحسن:"من كلّ شيء مقدور".
الثالث: يعني به: الأشياء التي توزن، قاله الحسن، وابن زيد.
وقال الفراء:"يقول: من الذهب والفضة والرصاص والنحاس والحديد فذلك الموزون".
الرابع: ما أنبتت الجبال مثل الكحل وشبهه. قاله عكرمة.
الخامس معناه مقسوم، قاله قتادة.
السادس: معناه: معدود، قاله مجاهد.
السابع: أنه ما يوزن فيه الأثمان لأنه أجل قدراً وأعم نفعـاً مما لا ثمن له. أفاده الماوردي.
قال الطبري: والصواب هو" القول الأوّل، لإجماع الحجة من أهل التأويل عليه".
قال ابن عرفة:"قيل: يؤخذ من الآية فيمن حلف أن لَا يستقر في أرض أنه يستقر على الجبال ولا يحنث؛ لدلالة الآية على أنها ليست من الأرض؛ اعتبارا بمجرد اللفظ دون اعتبار العرف العادي".
قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ} [الحجر: ٢٠].
أي: وجعلنا وخلقنا وأوجدنا لكم في الأرض ما تعيشون وتحيون به وتصلح أحوالكم مما احتوت عليه الأرض من معادن وحجارة وما تخرجه من نبات وغير ذلك.
-قال البقاعي: جمع معيشة، وهي ما يحصل به العيش من المطاعم والملابس والمعادن وغيره.
-قال ابن الجوزي: والمعنى: جعلنا لكم فيها أرزاقا تعيشون بها.

=

=

-وقال الخازن: جمع معيشة، وهو ما يعيش به الإنسان مدة حياته في الدنيا من المطاعم والمشارب والملابس ونحو ذلك.

قال ابن كثير:"يذكر، تعالى، أنه صرفهم في الأرض في صنوف من الأسباب والمعايش، وهي جمع معيشة".

وفي قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ} [الحجر: ٢٠]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الملابس، قاله الحسن.

الثاني: أنها المطاعم والمشارب التي يعيشون فيها، ومنه قول جرير:

تكلفني معيشة آل زيدٍ ومَن لي بالمرقق والصنابِ

الثالث: أنها التصرف في أسباب الرزق مدة أيام الحياة، قال الماوردي:"وهو الظاهر".

وروى خارجة عن نافع، أنه قرأ: «معآئش»، ممدودة مهموزة، قال أبو بكر: وهو غلط.

قوله تعالى: {وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} [الحجر: ٢٠]، أي:"وجعلنا لكم من العيال والمماليك والأنعام من لستم له برازقين، لأننا نخلق طعامهم وشرابهم لا أنتم".

وفي قوله تعالى: {وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ} [الحجر: ٢٠]، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنها الدواب والأنعام، قاله مجاهد.

قال ابن قتيبة:"مثل الوحش والطير والسباع. وأشباه ذلك: مما لا يرزقه ابن آدم".

الثاني: أنها الوحوش، قاله منصور.

قال الطبري:"تأويل «مَنْ» في: {وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}، على هذا التأويل بمعنى ما، وذلك قليل في كلام العرب".

الثالث: العبيد والأولاد الذين قال الله فيهم: {نحن نرزقهم وإياكم} [الإسراء: ٣١]. حكاه االماوردي عن ابن بحر، وقال الفراء" العبيد والإماء".

=

=

قال الزمخشري:"أراد بهم العيال والمماليك والخدم الذين يحسبون أنهم يرزقونهم ويخطئون، فإن الله هو الرزاق، يرزقهم وإياهم، ويدخل فيه الأنعام والدواب وكل ما بتلك المثابة، مما الله رازقه، وقد سبق إلى ظنهم أنهم هم الرازقون".

قال ابن كثير:"القصد أنه، تعالى، يمتن عليهم بما يسر لهم من أسباب المكاسب ووجوه الأسباب وصنوف المعايش، وبما سخر لهم من الدواب التي يركبونها والأنعام التي يأكلونها، والعبيد والإماء التي يستخدمونها، ورزْقهم على خالقهم لا عليهم فلهم هم المنفعة، والرزق على الله تعالى".

قال الطبري:"وأولى ذلك بالصواب، وأحسن أن يقال: عني بقوله {وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}، من العبيد والإماء والدوابّ والأنعام. فمعنى ذلك: وجعلنا لكم فيها معايش. والعبيدَ والإماء والدوابَّ والأنعام، وإذا كان ذلك كذلك، حسن أن توضع حينئذ مكان العبيد والإماء والدوابّ "من"، وذلك أن العرب تفعل ذلك إذا أرادت الخبر عن البهائم معها بنو آدم. وهذا التأويل على ما قلناه وصرفنا إليه معنى الكلام إذا كانت "من" في موضع نصب عطفا به على معايش بمعنى: جعلنا لكم فيها معايش، وجعلنا لكم فيها من لستم له برازقين. وقيل: إنّ "من" في موضع خفض عطفا به على الكاف والميم في قوله {وَجَعَلْنَا لَكُمْ}، بمعنى: وجعلنا لكم فيها معايش {وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ}، وأحسب أن منصورا في قوله: هو الوحش قصد هذا المعنى وإياه أراد، وذلك وإن كان له وجه في كلام العرب، فبعيد قليل، لأنها لا تكاد تظاهر على معنى في حال الخفض، وربما جاء في شعر بعضهم في حال الضرورة، كما قال بعضهم:

هَلا سألْتَ بِذِي الجَماجِمِ عنهُمُ وأبي نَعِيمٍ ذي اللِّوَاءِ المُخْرَقِ

فردّ أبا نعيم على الهاء والميم في عنهم، وقد بيَّنت قبح ذلك في كلامهم".

وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١).

{وَإِنْ} مَا {مِنْ} زَائِدَة {شَيْء إِلَّا عِنْدنَا خَزَائِنه} مَفَاتِيح خَزَائِنه {وَمَا نُنَزِّلهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُوم} عَلَى حَسَب الْمَصَالِح.

وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢).

{وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاح لَوَاقِح} تُلَقِّح السَّحَاب فَيَمْتَلِئ مَاء {فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاء} السَّحَاب {مَاء} مَطَرًا {فأسقيناكموه وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} أَيّ لَيْسَتْ خَزَائِنه بأيديكم[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ} [الحجر: ٢١].

أي: ما من شيء من أرزاق الخلق والعباد ومنافعهم إلا عندنا خزائنه ومستودعاته لا يملكها أحد إلا الله، فخزائنها بيده، يعطي من يشاء، ويمنع من يشاء، بحسب حكمته ورحمته سبحانه.

-قال الواحدي: الخزائن جمع الخزانة، وهو اسم المكان الذي يخزن فيه الشيء أي يحفظ والخزانة أيضا عمل الخازن، ويقال: خزن الشيء يخزنه إذا أحرزه في خزانة.

-قال الرازي: وعامة المفسرين على أن المراد بقوله: {وإن من شيء إلا عندنا خزآئنه} هو المطر، وذلك لأنه هو السبب للأرزاق ولمعايش بني آدم وغيرهم من الطيور والوحوش، فلما ذكر تعالى أنه يعطيهم المعايش بين أن خزائن المطر الذي هو سبب المعايش عنده، أي في أمره وحكمه وتدبيره.

-قال ابن الجوزي: قوله تعالى (وإن من شيء) أي: وما من شيء (إلا عندنا خزائنه) وهذا الكلام عام في كل شيء.

=

=

وذهب قوم من المفسرين إلى أن المراد به المطر خاصة، فالمعنى عندهم: وما من شيء من المطر إلا عندنا خزائنه، أي: في حكمنا وتدبيرنا (وما ننزله) كل عام (إلا بقدر معلوم) لا يزيد ولا ينقص، فما من عام أكثر مطرا من عام، غير أن الله تعالى يصرفه إلى من يشاء، ويمنعه من يشاء.

-قال ابن القيم: وإن من شيء إلا عندنا خزائنه: متضمن لكنز من الكنوز وهو أن يطلب كل شيء لا يطلب إلا ممن عنده خزائنه ومفاتيح تلك الخزائن بيديه وأن طلبه من غيره طلب ممن ليس عنده ولا يقدر عليه.

قال مجاهد:"يعني: «الأنعام والدواب»".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وما من شيء من الأمطار إلا عندنا خزائنه".

قال الزمخشري:"ذكر «الخزائن» تمثيل. والمعنى: وما من شيء ينتفع به العباد إلا ونحن قادرون على إيجاده وتكوينه والإنعام به، وما نعطيه إلا بمقدار معلوم نعلم أنه مصلحة له، فضرب الخزائن مثلا لاقتداره على كل مقدور".

قوله تعالى: {وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} [الحجر: ٢١]، أي:"ولكن لا ننزله إلا على حسب حاجة الخلق إليه، وعلى حسب المصالح، كما نشاء ونريد".

قال الطبري: أي: " وما ننزله إلا بقدر لكل أرض معلوم عندنا حدّه ومبلغه".

قال الحكم بن عتيبة:"ما من عام بأكثر مطرا من عام ولا أقل، ولكنه يمطر قوم، ويُحرم آخرون، وربما كان في البحر، قال: وبلغنا أنه ينزل مع المطر من الملائكة أكثر من عدد ولد إبليس وولد آدم يحصون كلّ قطرة حيث تقع وما تُنبت".

قال عبد الله ابن مسعود: " ما من عام بأمطر من عام، ولكن الله يقسمه حيث شاء، عاما هاهنا وعاما هاهنا، ثم قرأ: {وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنزلُهُ إِلا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ} ".

عن جعفر بن محمد عن أبيه عن جده أنه قال: «في العرش مثال كل شيء خلقه الله

=

=

في البر والبحر. وهو تأويل قوله تعالى: {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه}».

روي عن الليث بن سعد أن عبيد الله بن عمر قال: "كنا نجالس يحيى بن سعيد، فيسرد كلاما مثل اللؤلؤ، فإذا طلع ربيعة قطع يحيى الحديث، إعظاما لربيعة، وبينا نحن يوما يحدثنا، تلا هذه الآية: {وإن من شيء إلا عندنا خزائنه وما ننزله إلا بقدر معلوم}، فقال له جميل بن نباتة العراقي، وهو جالس معنا: يا أبا محمد، أرأيت السحر من تلك الخزائن؟، فقال يحيى: سبحان الله، ما هذا من مسائل المسلمين، فقال عبد الله بن أبي حبيبة: إن أبا محمد ليس بصاحب خصومة، ولكن علي، فأقبل، أما أنا فأقول: السحر لا يضر إلا بإذن الله، أفتقول أنت ذاك؟، فسكت، فكأنما سقط عنا جبل".

قال ابن الوزير:"فإن كون الشر في خزائنه مثل كونه تحت قدرته، ولا معنى له سوى ذلك، وكونه تحت قدرته اسم مدحٍ وِفاقًا، لأنه من كمال الملك الذي يلزمه الخوف والرجاء، ولا يلزم منه أن يُسَمَّى شرِّيراً قطعـًا، وكذلك اسم الضارِّ ولم يلزم من كونه تحت قدرته ومشيئته.

وأين هذا من قول سيد الرسل المترجم عن محامده ﷺ بقوله في الأحاديث الصحاح المتقدمة: «الخير بيديك، والشر ليس إليك»، ولو لَزِمَ أن يشتق له اسمـًا مما كان تحت قدرته وتقديره، لزم مناقشة أسمائه الحسنى تعالى عن ذلك".

قوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} [الحجر: ٢٢]، أي:"وأرسلنا الرياح وسخرناها تُلَقِّح السحاب، فيدر بالماء ويمطر، وتلقح الشجر فيتفتح عن أوراقه وأكمامه، وتحمل المطر والخير والنفع".

قال ابن كثير:"أي: تلقح السحاب فتدر ماء، وتلقح الشجر فتتفتح عن أوراقها وأكمامها.

هذه "الرياح" ذكرها بصيغة الجمع، ليكون منها الإنتاج، بخلاف الريح العقيم فإنه

=

=

أفردهـا، ووصـفها بـالعقيم، وهـو عـدم الإنتـاج؛ لأنـه لا يكـون إلا مـن شـيئين فصاعدا".

وفي في وجه وصف «الرياح»: باللقح في قوله تعالى: {وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ} [الحجر: ٢٢]، وجهان:

أحدها: لواقح السحاب حتى يمطر، قاله عبد الله بن مسعود، والحسن وقتادة، والضحاك، وعبيد بن عمير، وإبراهيم النخعي.

قال الضحاك:"الرياح يبعثها الله على السحاب فتلقحه فيمتلئ ماء".

عن قتادة، قوله:"{وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ}، يقول: لواقح السحاب، وإن من الريح عذابا، وإن منها رحمة".

قال عبيد ابن عمير: "يبعث الله المبشرة، فتعم الأرض بماء، ثم يبعث المثيرة فتثير السحاب فـ {يَجْعَلُهُ كِسَفًا}، ثم يبعث المؤلفة فتؤلف بينه فـ {يَجْعَلُهُ رُكَامًا}، ثم يبعث اللواقح فتلقحه فتمطر".

قال الماوردي:"وكل الرياح لواقح. غير أن الجنوب ألقح".

الثاني: لواقح للشجر حتى يثمر، قاله ابن عباس.

قال الثعلبي:"قول العلماء في وجه وصف «الرياح»: باللقح، وإنما هي ملقحة لأنها تلقح السحاب والشجر".

وفي معنى «لواقح»، وجوه:

أحدها: حوامل، لأنها تحمل الماء والخير والنفع لاقحة كما يقال: ناقة لاقحة إذا حملت الولد، ويشهد على هذا قوله: {الرِّيحَ الْعَقِيمَ} [الذاريات: ٤١]، فجعلها عقيما إذا لم تلقح ولم يكن فيها ماء ولا خير. ذكره الفراء، والثعلبي.

فمن هذا التأويل قول ابن مسعود في هذه الآية قال: " ترسل الرياح، فتحمل الماء من السماء، ثم تَمْرى السحاب، حتى تدر كما تَدر اللَّقحَة".

=

=

قال الطرماح:

لأفنـــــان الريــــــاح للاقـــــح قـــــال منهـــــا وحائـــــل

الثاني: أراد: ذات لقح. حكاه الثعلبي عن الفراء.

الثالث: أراد: ملاقح، جمع «ملقحة» كما في الحديث «أعوذ بالله من كل لامة» أي ملمة. وهذا قول أبي عبيدة.

قال أبو عبيدة: "مجازها مجاز «ملاقح»، لأن الريح ملقحة للسحاب، والعرب قد تفعل هذا فتلقى «الميم»، لأنها تعيده إلى أصل الكلام، كقول نهشل بن حريّ يرثى أخاه:

ليبـــك يزيـــد بـــائس لـــضراعة وأشـــعث ممـــن طوّحتـــه الطّـــوائح

فحذف «الميم»، لأنها المطاوح، وقال رؤبة:

يخرجن من أجواز ليل غاض

أي: مغضى، وقال [العجّاج]:

تكشف عن جماته دلو الدّال".

قال زيد بن عمر: "يبعث الله المبشرة فتقم الأرض قما، ثم يبعث الله المثيرة فتثير السحاب، ثم يبعث الله المؤلفة فتؤلف السحاب، ثم يبعث الله اللواقح فتلقح الشجر، ثم تلا: {وأرسلنا الرياح لواقح}".

قال أبو بكر بن عياش: "لا يقطر قطرة من السحاب إلا بعد أن تعمل الرياح الأربع فيه: فالصبا تهيجه، والدبور تلقحه، والجنوب تدره، والشمال تفرقه".

وقرأ حمزة: «الريح»، على الواحد وهو في معنى الجمع أيضا وإن كان لفظها لفظ الواحد، لأنه يقال: جاءت الريح من كل جانب.

قوله تعالى: {فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ} [الحجر: ٢٢]، أي:"فأنزلنا من السحاب ماءً عذبًا، جعلناه لسقياكم ولشرب أرضكم ومواشيكم".

=

=

قال الثعلبي:"أي: جعلنا المطر لكم سقيا".

قال ابن كثير:"أي: أنزلناه لكم عَذْبًا يُمكنكم أن تشربوا منه، ولو نشاء لجعلناه أجاجًا. كما ينبه الله على ذلك في الآية الأخرى في سورة «الواقعة»، وهو قوله: {أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنزلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلا تَشْكُرُونَ} [الواقعة: ٦٨ – ٧٠] وفي قوله: {هُوَ الَّذِي أَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ} [النمل: ١٠]".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فأنزلنا من السماء مطرا فأسقيناكم ذلك المطر لشرب أرضكم ومواشيكم. ولو كان معناه: أنزلناه لتشربوه، لقيل: فسقيناكموه. وذلك أن العرب تقول إذا سقت الرجل ماء شربه أو لبنا أو غيره: سقيته بغير ألف إذا كان لسقيه، وإذا جعلوا له ماء لشرب أرضه أو ماشيته، قالوا: أسقيته وأسقيت أرضه وماشيته، وكذلك إذا استسقت له، قالوا أسقيته واستسقيته، كما قال ذو الرُّمَّة:

وَقَفْتُ على رَسْمٍ لِمَيَّةَ ناقَتِي فَمَا زِلْتُ أبْكي عِنْدَهُ وأُخاطِبُهْ
وأُسْقِيهِ حتى كادَ مِمَّا أبُثُّهُ تُكَلِّمُني أحْجارُهُ ومَلاعِبُهْ

وكذلك إذا وهبت لرجل إهابا ليجعله سقاء، قلت: أسقيته إياه".

قال المؤرخ:"ما تنال الأيدي والدلاء فهو السقي وما لا تنال الأيدي والدلاء فهو الإسقاء".

قوله تعالى: {وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} [الحجر: ٢٢]، أي:"وما أنتم بقادرين على خزنه وادِّخاره، ولكن نحفظه لكم رحمة بكم، وإحسانًا إليكم".

قال الطبري:"يقول: ولستم بخازني الماء الذي أنزلنا من السماء فأسقيناكموه. فتمنعوه من أسقيه، لأن ذلك بيدي وإليّ، أسقيه من أشاء وأمنعه من أشاء".

=

وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣).

{وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيت وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ} الْبَاقُونَ نَرِث جَمِيع الْخَلْق.

وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤).

{وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ} أَيْ مَنْ تَقَدَّمَ مِنْ الْخَلْق مِنْ لَدُنْ آدَم {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} الْمُتَأَخِّرِينَ إلَى يَوْم الْقِيَامَة.

وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥).

{وَإِنَّ رَبّك هُوَ يَحْشُرهُمْ إنَّهُ حَكِيم} فِي صُنْعه {عَلِيم} بِخَلْقِهِ(١).

=

قال الصابوني:"أي: لستم بقادرين على خزنه بل نحن بقدرتنا نحفظه لكم في العيون والآبار والأنهار، ولو شئنا لجعلناه غائراً في الأرض فهلكتم عطشاً كقوله {قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْراً فَمَن يَأْتِيكُمْ بِمَآءٍ مَّعِينٍ} [الملك: ٣٠]".

وفي قوله تعالى: {وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ} [الحجر: ٢٢]، وجهان:

أحدهما: بخازني الماء الذي أنزلناه. ذكره الماوردي.

قال ابن كثير:"ويحتمل أن المراد: وما أنتم له بحافظين، بل نحن ننزله ونحفظه عليكم، ونجعله معينا وينابيع في الأرض، ولو شاء تعالى لأغاره وذهب به، ولكن من رحمته أنزله وجعله عذبا، وحفظه في العيون والآبار والأنهار وغير ذلك. ليبقى لهم في طول السنة، يشربون ويسقون أنعامهم وزروعهم وثمارهم".

الثاني: بمعني الماء الذي أنزلناه. قاله سفيان.

(١) ذكر سبب النزول.

عن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: كانت امرأة تصلّي خلف النبي ﷺ حسناء من أجمل الناس، فكان ناس يصلون في آخر صفوف الرجال، فينظرون إليها، فكان أحدهم ينظر إليها من تحت إبطه إذا ركع، وكان أحدهم يتقدم إلى الصف الأول

=

=

حتى لا يراها؛ فأنزل الله ﷻ هذه الآية: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ} أخرجه الطيالسي (٢٧١٢)، وأحمد (١/ ٣٠٥)، والترمذي (٣١٢٢)، والنسائي (٢/ ١١٨)، وابن ماجة (١٠٤٦)، وابن خزيمة (١٦٩٦، ١٦٩٧)، والطبري في تفسيره (١٤/ ١٨)، وابن حبان (٤٠١)، والطبراني (١٢/ ١٣٣)، والحاكم (٢/ ٣٨٤)، والبيهقي (٣/ ٩٨)، والواحدي في الوسيط (٣/ ٤٣) وغيرهم، والحديث أعله الترمذي بالإرسال، وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره (٥/ ١٢): حديث غريب جدا وفيه نكارة شديدة، وقال الأرنؤوط ومن معه في تحقيق المسند: إسناده ضعيف ومتنه منكر، وسبق أن حسنا إسناد هذا الحديث في تعليقنا على صحيح ابن حبان وقد تبين لنا هنا أنه ضعيف لا يستحق التحسين فاقتضى التنبيه، أما الحاكم فقال: صحيح الإسناد، وأقره الذهبي وصححه الشيخ أحمد شاكر في تحقيق المسند، وكذا صححه العلامة الألباني في الصحيحة (٢٤٧٢).

وعن سهل بن حنيف؛ قال: أتدرون فيم أنزلت: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤)}؟ قلت: في سبيل الله، قال: لا، ولكنها في صفوف الصلاة.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٧٤)، و"لباب النقول" (ص ١٣١) ونسبه لابن مردويه.

* قوله تعالى: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ} [الحجر: ٢٣].

أي: هو وحده لا شريك له، الذي يحيى الخلق من العدم، بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا، ويميتهم لآجالهم التي قدرها، فالموت والحياة بيدنا.

-قال أبو حيان: نحيي: نخرجه من العدم الصرف إلى الحياة، ونميت: نزيل حياته. ونحن الوارثون الباقون بعد فناء الخلق.

=

=

-قال الشنقيطي: بين في هذه الآية الكريمة أنه هو الذي يحي ويميت وأوضح ذلك في آيات كثيرة:

كقوله (إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير).

وقوله تعالى (ربي الذي يحيي ويميت).

وقوله (لا إله إلا هو يحيي ويميت ربكم ورب آبآئكم الأولين).

وبين في ومواضع أخر أنه أحياهم مرتين وأماتهم مرتين.

كقوله (قالوا ربنآ أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين).

وقوله (كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم).

والإماتة الأولى هي كونهم نطفا وعلقا ومضغا والإماتة الثانية هي موتهم عند انقضاء آجالهم في الدنيا والإحياءة الأولى نفخ الروح فيهم وإخراجهم أحياء من بطون أمهاتهم والإحياءة الثانية بعثهم من قبورهم أحياء يوم القيامة.

-قال ابن عطية: هذه الآيات مع الآيات التي قبلها تضمنت العبرة والدلالة على قدرة الله تعالى وما يوجب توحيده وعبادته، فمعنى هذه: وإنا لنحن نحيي من نشاء بإخراجه من العدم إلى وجود الحياة، وبرده عند البعث من مرقده ميتا، ونميت بإزالة الحياة عمن كان حيا.

-وقال الخازن: يعني بيدنا إحياء الخلق وإماتتهم لا يقدر على ذلك أحد إلا الله سبحانه وتعالى، لأن قوله تعالى: وإنا لنحن يفيد الحصر يعني لا يقدر على ذلك سوانا.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي} من كان ميتا إذا أردنا، {ونُمِيتُ} من كان حيا إذا شئنا".

قال الثعلبي:"بأن نميت جميع الخلق فلا يبقى من سوانا".

قال النسفي:"أي: نحي بالإيجاد ونميت بالإفناء أو نميت عند انقضاء الآجال و

=

=

«نحي» لجزاء الأعمال على التقديم والتأخير إذ «الواو» للجمع المطلق".

قال السعدي:"أي: هو وحده لا شريك له الذي يحيي الخلق من العدم بعد أن لم يكونوا شيئا مذكورا ويميتهم لآجالهم التي قدرها".

قال ابن كثير:"إخبار عن قدرته تعالى على بدء الخلق وإعادته، وأنه هو الذي أحيا الخلق من العدم، ثم يميتهم ثم يبعثهم كلهم ليوم الجمع".

قوله تعالى: {وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ} [الحجر: ٢٣].

أي: ونحن الباقون بعد فناء الخلق، نرث الأرض ومن عليها، وإلينا يرجعون.

كما قال تعالى (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون).

وقال سبحانه (كل من عليها فان * ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام).

ومعنى كونه يرث الأرض من عليها أنه يبقى بعد فناء خلقه متصفا بصفات الكمال والجلال يفعل ما يشاء كيف يشاء.

والغرض من ذلك: الاستدلال بهذه الأمور على وحدانية الله وكمال قدرته، وأنه القادر على البعث والنشور والجزاء لعباده.

بين تعالى في هذه الآية الكريمة أنه الوارث ولم يبين الشيء الذي يرثه وبين في مواضع أخر أنه يرث الأرض ومن عليها:

كقوله (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون).

وقوله (ونرثه ما يقول ويأتينا فردا) ومعنى ما يقول أي نرثه الذي يقول إنه يؤتاه يوم القيامة من المال والولد كما ذكره الله عنه في قوله (أفرأيت الذي كفر بآياتنا وقال لأوتين مالا وولدا).

-قال الرازي: معناه أنه إذا مات جميع الخلائق، فحينئذ يزول ملك كل أحد عند موته، ويكون الله هو الباقي الحق المالك لكل المملوكات وحده فكان هذا شبيها بالإرث فكان وارثا من هذا الوجه.

=

=

-قال ابن عطية: أي لا يبقى شيء سوانا، وكل شيء هالك إلا وجهه لا رب غيره.
-قال القرطبي: أي الأرض ومن عليها، ولا يبقى شيء سوانا.
نظيره (إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون) فملك كل شيء لله تعالى. ولكن ملك عباده أملاكا فإذا ماتوا انقطعت الدعاوى، فكان الله وارثا من هذا الوجه.
-وقال الخازن (ونحن الوارثون) وذلك بأن نميت جميع الخلق، فلا يبقى أحد سوانا فيزول ملك كل مالك ويبقى جميع ملك المالكين لنا والوارث هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد ذهاب غيره والله سبحانه وتعالى هو الباقي بعد فناء خلقه الذين أمتعهم بما آتاهم في الحياة الدنيا لأن وجود الخلق.
قال الطبري:"يقول: ونحن نرث الأرض ومن عليها بأن نميت جميعهم، فلا يبقى حيّ سوانا إذا جاء ذلك الأجل".
قال النسفي: أي: "الباقون بعد هلاك الخلق كلهم، وقيل للباقي «وارث» استعارة من وارث الميت، لأنه يبقى بعد فنائه".
قال ابن كثير:"أخبر أنه، تعالى، يرث الأرض ومن عليها وإليه يرجعون".
قال سفيان:"الوارث، الباقي".
قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤)} [الحجر: ٢٤].
أي: أحطنا علما بالخلق أجمعين، الأموات منهم والأحياء، قال ابن عباس: المستقدمون كل من هلك من لدن آدم عليه السلام، والمستأخرون من هو حي ومن سيأتي إلى يوم القيامة.
وقد اختلف أهل التفسير في قوله تعالى: {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ

=

=

عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤)} [الحجر: ٢٤]، على وجوه:

أحدها: أن «المستقدمين»: من خلق ومن خلا من الأمم، و «المستأخرين»: من لم يخلق، قاله عكرمة.

الثاني: «المستقدمين»: الذين ماتوا، و «المستأخرين»: الذين هم أحياء لم يموتوا، قاله ابن عباس، والضحاك.

قال الضحاك:"يقول: علمنا من مات ومن بقي".

الثالث: «المستقدمين»:آدم عليه السلام ومن مضى من ذريته. و «المستأخرين»: من يقي في أصلاب الرجال. قاله ابن عباس، ومجاهد، وعكرمة، وقتادة.

وقال عكرمة:"إن الله خلق الخلق ففرغ منهم، فالمستقدمون: من خرج من الخلق، والمستأخرون: من بقي في أصلاب الرجال لم يخرج".

الرابع: «المستقدمين»: آدم ومن بعده، حتى نزول هذه الآية، و «المستأخرين»:: كلّ من كان من ذرّيته. قاله قتادة ايضا.

الخامس: «المستقدمين»: أول الخلق، و «المستأخرين»: آخر الخلق، قاله الشعبي.

السادس: «المستقدمين»: ما مضى من الأمم. و «المستأخرين»: أمة محمد ﷺ. قاله مجاهد.

السابع: «المستقدمين»: الذين مضوا في أوّل الأمم، و «المستأخرين»: الباقون. قاله ابن زيد.

الثامن: أن «المستقدمين»: في الخير، و «المستأخرين»: في الشر، قاله الحسن.

قال الحسن:"المتقدمون في طاعة الله، والمستأخرون في معصية الله".

وفي رواية عن الحسن:"المستقدمين في الخير، و «المستأخرين»: يقول: المبطئين عنه".

=

=

التاسع: «المستقدمين»: في صفوف الحرب، و «المستأخرين»: فيها، قاله سعيد بن المسيب، ومقاتل بن سليمان.

عن مقاتل بن سليمان في قوله: " {ولقد علمنا المستقدمين منكم...}، الآية، قال: بلغنا أنه في القتال. قال معتمر: فحدثت أبي فقال: لقد نزلت هذه الآية قبل إن يفرض القتال".

العاشر: «المستقدمين»: الميت والمقتول، و «المستأخرين»: من يلحق بهم من بعد. قاله محمد بن كعب القرظي.

عن أبي معشر، قال: "سمعت عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود يذاكر محمد بن كعب في قول الله {وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ}، فقال عون بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: خير صفوف الرجال المقدّم، وشرّ صفوف الرجال المؤخَّر، وخير صفوف النساء المؤخَّر، وشرّ صفوف النساء المقدّم، فقال محمد بن كعب: ليس هكذا، ولقد علمنا المستقدمين منكم: الميت والمقتول، والمستأخرين: من يلحق بهم مِن بعدُ، وإن ربك هو يحشرهم، إنه حكيم عليم، فقال عون بن عبد الله: وفقك الله وجزاك خيرا".

الحادي عشر: «المستقدمين»: في صفوف الصلاة، و «المستأخرين» فيها. قاله ابن عباس، ومروان بن الحكم، وأبو الجوزاء، وبه قال الفراء.

قال ابن جرير الطبري:"وأولى الأقوال عندي في ذلك بالصحة قول من قال: معنى ذلك: ولقد علمنا الأموات منكم يا بني آدم فتقدّم موته، ولقد علمنا المستأخرين الذين استأخر موتهم ممن هو حيّ ومن هو حادث منكم ممن لم يحدث بعدُ، لدلالة ما قبله من الكلام، وهو قوله {وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ}، وما بعده وهو قوله {وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ}، على أن ذلك كذلك، إذ كان بين هذين الخبرين، ولم يجر قبل ذلك من الكلام ما يدلّ على خلافه، ولا جاء بعد.

=

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦).

{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَان} آدَم {مِنْ صَلْصَال} طِين يَابِس يُسْمَع لَهُ صَلْصَلَة إذَا نُقِرَ {مِنْ حَمَإٍ} طِين أَسْوَد {مَسْنُون} مُتَغَيِّر.

=

وجائز أن تكون نزلت في شأن المستقدمين في الصفّ لشأن النساء والمستأخرين فيه لذلك، ثم يكون الله ﷻ عمّ بالمعنى المراد منه جميع الخلق، فقال جلّ ثناؤه لهم: قد علمنا ما مضى من الخلق وأحصيناهم، وما كانوا يعملون، ومن هو حيّ منكم، ومن هو حادث بعدكم أيها الناس، وأعمال جميعكم خيرها وشرّها، وأحصينا جميع ذلك ونحن نحشر جميعهم، فنجازي كلا بأعماله، إن خيرًا فخيًرا وإن شرًا فشرًا. فيكون ذلك تهديدًا ووعيدًا للمستأخرين في الصفوف لشأن النساء ولكلّ من تعدّى حدّ الله وعمل بغير ما أذن له به، ووعدا لمن تقدّم في الصفوف لسبب النساء، وسارع إلى محبة الله ورضوانه في أفعاله كلها".

قوله تعالى: {وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ} [الحجر: ٢٥]، أي:"وإن ربك هو يحشرهم للحساب والجزاء".

قال النسفي: " أي: هو وحده يقدر على حشرهم ويحيط بحصرهم".

عن قتادة:"{وإن ربك هو يحشرهم}، قال: الأول والآخر".

قال عكرمة:"يحشر هؤلاء وهؤلاء".

قال السدي:"يحشر المستقدمين والمستأخرين".

قوله تعالى: {إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الحجر: ٢٥]، أي:"إنه حكيم في تدبيره، عليم لا يخفى عليه شيء".

قال النسفي: " أي: باهر الحكمة واسع العلم".

قال السعدي:"{إنه حكيم} يضع الأشياء مواضعها، وينزلها منازلها، ويجازي كل عامل بعمله، إن خيرا فخير، وإن شرا فشر".

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧).

{وَالْجَانّ} أَبَا الْجَانّ وَهُوَ إبْلِيس {خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْل} أَيْ قَبْل خَلْق آدَم {مِنْ نَار السَّمُوم} هِيَ نَار لَا دُخَان لَهَا تَنْفُذ من المسام.

وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨) .

{و} اذكر {إذْ قَالَ رَبّك لِلْمَلَائِكَةِ إنِّي خَالِق بَشَرًا مِنْ صَلْصَال مِنْ حَمَإٍ مَسْنُون} .

فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩).

{فَإِذَا سَوَّيْته} أَتْمَمْته {وَنَفَخْت} أَجْرَيْت {فِيهِ مِنْ رُوحِي} فَصَارَ حَيًّا وَإِضَافَة الرُّوح إلَيْهِ تَشْرِيف لِآدَم {فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} سُجُود تَحِيَّة بِالِانْحِنَاءِ.

فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) .

{فَسَجَدَ الْمَلَائِكَة كُلّهمْ أَجْمَعُونَ} فِيهِ تَأْكِيدَانِ.

إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) .

{إلَّا إبْلِيس} هُوَ أَبُو الْجِنّ كَانَ بَيْن الْمَلَائِكَة {أَبَى} امْتَنَعَ مِنْ {أَنْ يَكُون مَعَ السَّاجِدِينَ} .

قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢).

{قَالَ} تَعَالَى {يَا إبْلِيس مَا لَك} مَا منعك {أ} ن {لا} زائدة {تكون مع الساجدين.

قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣).

{قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُد} لَا يَنْبَغِي لِي أن أسجد {لبشر خلقته من صلصال من حمأ مسنون} .

قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤).

{قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا} أَيْ مِنْ الْجَنَّة وَقِيلَ مِنْ السَّمَاوَات {فَإِنَّك رَجِيم} مَطْرُود.

وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥).

{وَإِنَّ عَلَيْك اللَّعْنَة إِلَى يَوْم الدِّين} الْجَزَاء[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦)} [الحجر: ٢٦]

ولقد خلقنا آدم مِن طين يابس إذا نُقِر عليه سُمع له صوت، وهذا الطين اليابس من طين أسود متغيِّر لونه وريحه؛ مِن طول مكثه.

قال الرازي: إشارة إلى ذلك الإنسان الأول، والمفسرون أجمعوا على أن المراد منه هو آدم - عليه السلام -.

قال الخازن: قوله تعالى (ولقد خلقنا الإنسان) يعني آدم - عليه السلام - في قول جميع المفسرين سمي إنسانا لظهوره وإدراك البصر إياه، وقيل من النسيان لأنه عهد إليه فنسي.

قال السعدي:"يذكر تعالى نعمته وإحسانه على أبينا آدم عليه السلام، وما جرى من عدوه إبليس، وفي ضمن ذلك التحذير لنا من شره وفتنته فقال تعالى: {ولقد خلقنا الإنسان} أي آدم عليه السلام {من صلصال من حمإ مسنون} أي: من طين قد يبس بعد ما خمر حتى صار له صلصلة وصوت، كصوت الفخار، والحمأ المسنون: الطين المتغير لونه وريحه من طول مكثه".

وفي معنى «صَلْصَالٍ»، أقوال:

أحدها: أنه الطين اليابس الذي لم تصبه نار، فإذا نقرته صل فسمعت له صلصلة، قاله ابن عباس، وقتادة، ومنه قول الشاعر:

وقاعٍ ترى الصَّلصال فيه ودونه   بقايا بلالٍ بالقرى والمناكبِ

=

=

قال الماوردي:"«الصلصة»: الصوت الشديد المسموع من غير الحيوان، وهو مثل القعقعة في الثوب".

قال أبو عبيدة:"«الصلصال»: الطّين اليابس لذى لم تصبه نار فإذا نقرته صلّ فسمعت له صلصلة فإذا طبح بالنار فهو فخّار وكل شئ له صلصلة، صوت فهو صلصال سوى الطين، قال الأعشى:

عنتريس تعدو إذا حرّك السّو ط كعدو المصلصل الجوال".

قال الزجاج:"الصلصال الطين اليابس الذي يصل ليبسه، ومعنى يصل يصوت، قال الشاعر:

رَجَعْتُ إِلى صَدْرٍ كجَرَّةِ حَنْتَمٍ إذا قُرِعَتْ صِفْراً من الماء صَلَّتِ".

وقال الضحاك:"طين صُلْب يخالطه الكثيب".

وقال مجاهد:"التراب اليابس".. وقال "الصلصال: الذي يصلصل، مثل الخَزَف من الطين الطيب".

الثاني: أنه طين خلط برمل، قاله ابن عباس ايضا، وعكرمة. وبه قال الفراء.

الثالث: أنه الطين المنتن، قاله مجاهد، مأخوذ من قولهم: «صَلَّ اللحمُ وأصَلَّ»، إذا أنتن، قال الشاعر:

ذَاكَ فَتًى يَبْذُلُ ذَا قِدْرِةٍ لَا يُفْسِدُ اللَّحْمَ لَدَيْهِ الصُّلُولُ

الرابع: أنه الطين تعصره بيدك فيخرج الماء من بين أصابعك. قاله ابن عباس ايضا. قال ابن جرير الطبري:"والذي هو أولى بتأويل الآية أن يكون الصلصال في هذا الموضع الذي له صوت من الصلصلة، وذلك أن الله تعالى وصفه في موضع آخر فقال {خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} فشبهه تعالى ذكره بأنه كان كالفخَّار في يُبسه. ولو كان معناه في ذلك المُنتِن لم يشبهه بالفخارِّ، لأن الفخار ليس بمنتن

=

=

فيشبَّه به في النتن غيره".

و «الحمأ»: "جمع حَمْأة، وهو الطين المتَغيِّر إلى السواد"".

وفي «مَسْنُونٍ»، سبعة أقوال:

أحدها: أن «المسنون»: المنتن المتغير، من قولهم قد أسن الماء إذا تغير، قاله ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، والضحاك، وبه قال ابن جرير الطبري، ومنه قول أبي قيس بن الأسلت:

سَقَتْ صداىَ رضاباً غير ذي أَسَنٍ كالمسكِ فُتَّ على ماءِ العناقيد

قال الفراء:"«المسنون»: المتغير والله أعلم أخذ من سننت الحجر على الحجر، والذي يخرج مما بينهما يقال له: السنين".

قال الزجاج:"«مسنون»: قيل فيه متغير. وإنما أخذ من أنه. على سنة الطريق، لأنه إنما تغير إذا قام بغير ماء جار".

الثاني: أن «المسنون» المنصوب القائم، من قولهم: وجه مسنون، حكاه الماوردي عن الأخفش.

الثالث: أن «المسنون» المصبوب، من قولهم سنيتُ الماء على الوجه إذا صببته عليه، قاله أبو عمرو بن العلاء، وابو عبيدة.

ومنه الأثر المروي عن عمر:"أنه كان يسن الماء على وجهه ولا يشنُّه، والشن تفريق الماء، والسن صبه".

الرابع: أن «المسنون»: المتغير، وهو الذي يحك بعضه بعضاً، أخذ من قولهم: سننت الحجر على الحجر إذا حككت أحدهما بالآخر، والذي يخرج مما بينهما يقال له: السنين، ومنه سمي المسَنّ لأن الحديد يسن عليه، قاله الفراء.

الخامس: أن «المسنون»: المنسوب.

السادس: أنه الرطب، قاله ابن عباس أيضا، وابن أبي طلحة.

=

=

السابع: أنه المخلص من قولهم: سن سيفك أي اجلهُ.

قال الشيخ الشنقيطي رحمه الله: "قوله تعالى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} [الحجر: ٢٦] الآية. ظاهر هذه الآية أن آدم خلق من صلصال: أي طين يابس، وقد جاء في آيات أخر ما يدل على خلاف ذلك كقوله تعالى: {مِنْ طِينٍ لازِبٍ} [الصافات: ١١] وكقوله: {كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ} [آل عمران: ٥٩].

الجواب: أنه ذكر أطوار ذلك التراب، فذكر طوره الأول بقوله: "من تراب"، ثم بل فصار طينًا لازبًا، ثم خُمِّر فصار حمأ مسنونًا، ثم يبس فصار صلصالاً كالفخار. هذا واضح، والعلم عند الله تعالى".

قال أبو الحسين المَلَطي العسقلاني:"وأما قوله لآدم عليه السلام: {خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ} [آل عمران: ٥٩]، وقال في آية أخرى: {خَلَقَ الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [الرحمن: ١٤]، وقال في آية أخرى: {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} [الحجر: ٢٦]، فكان هذا عند من يجهل التفسير ينقض بعضه بعضا وليس بمنتقض ولكن تفسيرهن في اختلاف الحالات مشتبه:

أما قوله لآدم {خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ} [آل عمران: ٥٩]، فإن بدء خلقه كان من تراب من أديم الأرض فذلك قوله: {خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ}، فحول التراب بالماء إلى الطين فذلك قوله: {وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ} [السجدة: ٧]، فصار طينا إذا قبض عليه انسل فذلك قوله {وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ} [المؤمنون: ١٢]، فترك حتى تغير ريحه، فذلك قوله: {مِنْ حَمَإٍ مَسْنُون} [الحجر: ٢٦، ٢٨، ٣٣]، يعني: من حمإ متغير الريح وكان طينا لاصقا جيدا فذلك قوله: {طِينٍ لَازِبٍ} [الصافات: ١١]، يعني: لاصقا جيدا ثم صوره فتركه مصورا حتى جف فإذا حرك صار له قعقعة بمنزلة الطين الجيد إذا ذهب عنه الماء تشقق وصار له

=

=

صوت كصوت الفخار فذلك قوله: {خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ} [الرحمن: ١٤]، ثم نفخ فيه الروح فصار لحما ودما فأراد أن ينهض قبل أن تتم الروح فيه فذلك قوله: {خُلِقَ الْإِنْسَانُ مِنْ عَجَلٍ} [الأنبياء: ٣٧]، ثم جعل نسله من ماء مهين يعني خلق ذريته من النطفة التي تنسل من الإنسان والمهين الضعيف".

قوله تعالى: {وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)} [الحجر: ٢٧]

وخلقنا أبا الجن، وهو إبليس مِن قَبْل خلق آدم من نار شديدة الحرارة لا دخان لها.

قال الطبري:"عني بالجانّ هاهنا: إبليس أبا الجنّ. يقول تعالى ذكره: وإبليس خلقناه من قبل الإنسان من نار السموم".

وفي «الجان»، ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه إبليس، خُلق قبل آدم. قاله الحسن، وقتادة، وبه قال ابن جرير الطبري.

قال قتادة:"وإنما خلق آدم آخر الخلق، فحسده عدوّ الله إبليس على ما أعطاه الله من الكرامة، فقال: أنا ناريّ، وهذا طينيّ، فكانت السجدة لآدم، والطاعة لله تعالى ذكره، فقال {اخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}".

الثاني: أنهم الجن. حكاه ابن شجرة.

الثالث: أنه أبو الجن. قاله الكلبي، فآدم أبو الإنس، والجان: أبو الجن، وإبليس أبو الشياطين.

قال ابن عباس:"كان إبليس من حي من أحياء الملائكة يقال لهم الجنّ، خُلقوا من نار السموم من بين الملائكة. قال: وخُلقت الجنّ الذين ذُكروا في القرآن من مارج من نار".

وقال ابن عباس: "الجان أبو الجن وليسوا شياطين، والشياطين ولد إبليس لا

=

=

يموتون إلا مع إبليس. والجن يموتون، ومنهم المؤمن ومنهم الكافر".

عن وهب بن منبه:"وسئل عن الجنّ ما هم، وهل يأكلون أو يشربون، أو يموتون، أو يتناكحون؟ قال: هم أجناس، فأما خالص الجنّ فهم ريح لا يأكلون ولا يشربون ولا يموتون ولا يتوالدون. ومنهم أجناس يأكلون ويشربون ويتناكحون ويموتون، وهي هذه التي منها السعالِي والغُول وأشباه ذلك".

وفي قوله تعالى: {مِنْ نَارِ السَّمُومِ} [الحجر: ٢٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: يعني: من لهب النار، قاله ابن عباس، والضحاك.

الثاني: أن «نار السموم»: الحارة التي تقتل. قاله ابن عباس أيضا.

الثالث: «السموم» التي خلق منها الجان جزء من سبعين جزءا من نار جهنم. قاله ابن مسعود.

عن ابن مسعود ﵁، عن النبي ﷺ قال: «رؤيا المؤمن جزء من سبعين جزءا من النبوة، وهذه النار جزء من سبعين جزءا من نار السموم التي خلق منها الجان»، وتلا هذه الآية: {والجان خلقناه من قبل من نار السموم}".

الرابع: يعني من نار الشمس، إذ خلق الجان والشياطين منها. قاله عمرو بن دينار.

الخامس: معناه: من حر السموم، و «السموم»: الريح الحارة. ذكره ابن عيسى.

السادس: أن «نار السموم»: نار الصواعق بين السماء وبين حجاب دونها، قاله الكلبي.

قال الماوردي:"وسمي سمومـًا لدخوله في مسام البدن".

قوله تعالى: {وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ} [الحجر:٢٨]، "أي اذكر يا محمد حين قال ربك للملائكة واقصص على قومك ذلك".

قال النسفي: أي:"واذكر وقت قوله {للملائكة...".

قال الصابوني:"أي: اذكر يا محمد وقت قول ربك للملائكة".

=

=

قال ابن عثيمين:"و"الملائكة" جمع "مَلْئَك"، وأصله "مألك"؛ لأنه مشتق من الأُلُوكة. وهي الرسالة؛ لكن صار فيها إعلال بالنقل. أي نقل حرف مكان حرف آخر؛ مثل أشياء أصلها: "شيئاء"؛ و "الملائكة" عالم غيبي خلقهم الله تعالى من نور، وجعل لهم وظائف، وأعمالاً مختلفة؛ فمنهم الموكل بالوحي كجبريل؛ وبالقطر، والنبات كميكائيل؛ وبالنفخ في الصور كإسرافيل؛ وبأرواح بني أدم كملَك الموت.. إلى غير ذلك من الوظائف، والأعمال".

قال ابن عطية:"وقال الجمهور: [أن «إذْ»] ليست بزائدة، وإنما هي معلقة بفعل مقدر تقديره: واذكر إذ قال".

قوله تعالى: {إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ} [الحجر:٢٨]، "أي: إني خالق إنسانًا من طين يابس، وهذا الطين اليابس من طين أسود متغيِّر اللون".

قال أبو الليث السرمقندي: يعني: "سأخلق خلقا من صلصال من حمإ مسنون".

قال الصابوني:"إني خالق بشراً من طين يابسٍ، أسود متغيّر".

قال ابن كثير:"يذكر تعالى تنويهه بذكر آدم في ملائكته قبل خلقه له".

قوله تعالى: {فَإِذَا سَوَّيْتُهُ} [الحجر: ٢٩]، أي:"فإذا سوَّيته وأكملت صورته".

قال الطبري:"يقول: فإذا صوّرته فعدَّلت صورته".

قال أبو الليث السرمقندي:"أي: جمعت خلقه".

قال الزمخشري:"واذكر وقت، قوله {سويته}، عدلت خلقته وأكملتها وهيأتها لنفخ الروح فيها".

قوله تعالى: {وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي} [الحجر: ٢٩]، أي:"ونفخت فيه الروح".

قال الطبري:"فصار بشرا حيا".

قال أبو الليث السرمقندي:"أي: جعلت الروح فيه".

قال الزمخشري:"ومعنى «ونفخت فيه من روحي»: وأحييته، وليس ثمة نفخ ولا

=

=

منفوخ، وإنما هو تمثيل لتحصيل ما يحيا به فيه".

عن الضحاك: " {ونفخت فيه من روحي}، قال: من قدرتي".

قوله تعالى: {فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ} [الحجر: ٢٩]، أي:"فخُرُّوا له ساجدين سجود تحية وتكريم".

قال أبو الليث السرمقندي:"أي: فخروا له سجدا".

قال الطبري: أي:"سجود تحية وتكرمة لا سجود عبادة".

و «السجود»، معناه في كلام العرب التذلل والخضوع، قال الشاعر:

يجمع تضل البلق في حجراته ترى الأكم فيها سجدا للحوافر

و «الأكم»: الجبال الصغار، جعلها سجدا للحوافر لقهر الحوافر إياها وأنها لا تمتنع عليها. وعين ساجدة، أي فاترة عن النظر، وغايته وضع الوجه بالأرض.

و «السجود» أصله: الانحناء والتذلل، وجعل ذلك عبارة عن التذلل لله وعبادته، وهو عام في الإنسان، والحيوانات، والجمادات، وذلك ضربان: سجود باختيار، وليس ذلك إلا للإنسان، وبه يستحق الثواب، نحو قوله: {فاسجدوا لله واعبدوا} [النجم:٦٢]، أي: تذللوا له، وسجود تسخير، وهو للإنسان، والحيوانات، والنبات، وعلى ذلك قوله: {ولله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها وظلالهم بالغدو والآصال} [الرعد:١٥]، وقوله: {يتفيأ ظلاله عن اليمين والشمائل سجدا لله} [النحل:٤٨]، فهذا سجود تسخير، وهو الدلالة الصامتة الناطقة المنبهة على كونها مخلوقة، وأنها خلق فاعل حكيم، وقوله: {ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون} [النحل:٤٩]، ينطوي على النوعين من السجود، التسخير والاختيار، وقوله: {والنجم والشجر يسجدان} [الرحمن:٦]، فذلك على سبيل التسخير، وقوله: {اسجدوا لآدم} [البقرة:٣٤]، قيل: أمروا بأن يتخذوه قبلة، وقيل: أمروا بالتذلل

=

=

له، والقيام بمصالحه، ومصالح أولاده، فائتمروا إلا إبليس، وقوله: {ادخلوا الباب سجدا} [النساء:١٥٤]، أي: متذللين منقادين، وخص السجود في الشريعة بالركن المعروف من الصلاة، وما يجري مجرى ذلك من سجود القرآن، وسجود الشكر، وقد يعبر به عن الصلاة بقوله: {وأدبار السجود} [ق:٤]، أي: أدبار الصلاة، ويسمون صلاة الضحى: سبحة الضحى، وسجود الضحى، {وسبح بحمد ربك} [طه:١٣٠] قيل: أريد به الصلاة، والمسجد: موضع الصلاة اعتبارا بالسجود، وقوله: {وأن المساجد لله} [الجن:١٨]، قيل: عني به الأرض، إذ قد جعلت الأرض كلها مسجدا وطهورا كما روي في الخبر عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: "نصرت بالرعب، وأوتيت جوامع الكلم، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، وبينا أنا نائم أتيت بمفاتح خزائن الأرض فتلت في يدي".

وقيل: «المساجد»: مواضع السجود: الجبهة والأنف واليدان والركبتان والرجلان، وقوله: {ألا يسجدوا لله} [النمل:٢٥] أي: يا قوم اسجدوا، وقوله: {وخروا له سجدا} [يوسف:١٠٠]، أي: متذللين، وقيل: كان السجود على سبيل الخدمة في ذلك الوقت سائغا، ومنه قول الشاعر:

وافى بها لدراهم الإسجاد ... من خمر ذي نطف أغن منطق

عنى بها دراهم عليها صورة ملك سجدوا له.

والإسجاد: إدامة النظر، قال أبو عمرو: وأسجد إذا طأطأ رأسه، قال:

فضول أزمتها أسجدت ... سجود النصارى لأحبارها

يقول: لما ارتحلن ولوين فضول أَزِمَّة جمالهن على معاصمهن أَسْجدت لهن.

قال أبو عبيدة: وأنشدني أعرابي من بني أسد:

وقلن له أسجد لليلى فأسجدا

يعني بعيرها أنه طأطأ رأسه لتركبه.

=

=

وأخرج الطبري: " عن قتادة، قوله: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ}، فكانت الطاعة لله، والسجدة لآدم، أكرم الله آدم أن أسْجَد له ملائكته".

عن الضحاك: " {فقعوا له ساجدين}، يقول: فاسجدوا له وخروا له سجدا".

قال ابن عباس:"لما خلق الله الملائكة قال: إني خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، فقالوا: لا نفعل. فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم، وخلق ملائكة أخرى، فقال: إني خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، فأبَوا، قال: فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة أخرى، فقال: إني خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، فأبوا، فأرسل عليهم نارا فأحرقتهم، ثم خلق ملائكة، فقال: إني خالق بشرا من طين، فإذا أنا خلقته فاسجدوا له، فقالوا: سمعنا وأطعنا، إلا إبليس كان من الكافرين الأوّلين".

وقد استدل من فضل آدم وبنيه بقوله تعالى للملائكة: {اسْجُدُوا لآدَمَ}، قالوا: وذلك يدل على أنه كان أفضل منهم، وهذا القول فيه نظر.

وحكى النقاش عن مقاتل: "أن الله إنما أمر الملائكة بالسجود لآدم قبل أن يخلقه". قال ابن عطية: "والقرآن يرد على هذا القول".

وقال قوم: "سجود الملائكة كان مرتين". قال ابن عطية: "والإجماع يرد هذا".

واختلف اهل العلم في كيفية سجود الملائكة لآدم بعد اتفاقهم على أنه لم يكن سجود عبادة، وذكروا وجوها في ذلك:

أحدها: كان هذا أمرا للملائكة بوضع الجباه على الأرض، كالسجود المعتاد في الصلاة، لأنه الظاهر من السجود في العرف والشرع، وعلى هذا قيل: كان ذلك السجود تكريما لآدم وإظهارا لفضله، وطاعة لله تعالى، وكان آدم كالقبلة لنا، ومعنى "لآدم": إلى آدم، كما يقال صلى للقبلة، أي إلى القبلة. وهذا قول الجمهور.

=

=

والثاني: لم يكن هذا السجود المعتاد اليوم الذي هو وضع الجبهة على الأرض، ولكنه مبقى على أصل اللغة، فهو من التذلل والانقياد، أي اخضعوا لآدم وأقروا له بالفضل، {فَسَجَدُوا} أي امتثلوا ما أمروا به.

قال ابن عطية: " وفي هذه الوجوه كلها كرامة لآدم عليه السلام".

واختلف أيضا هل كان ذلك السجود خاصا بآدم عليه السلام أم كان مباحا إلى عصر الرسول-ﷺ-، وفيه قولين:

أحدهما: أن ذلك السجود كان خاصا بآدم فلا يجوز السجود لغيره من جميع العالم إلا لله تعالى.

والثاني: أن ذلك السجود كان جائزا بعد آدم إلى زمان يعقوب عليه السلام، لقوله تعالى: {وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّداً} [يوسف: ١٠٠] فكان آخر ما أبيح من السجود للمخلوقين.

والصحيح: أن سجود التحية والإكرام كان مباحا إلى عصر رسول الله ﷺ، وكان مباحا في الشرائع السابقة إلى أن نسخ في شريعتنا، ومن المعلوم أن السجود لغير الله على وجه العبادة لم يكن مباحاً في أية شريعة فكل الأنبياء نهوا عن ذلك وبلغوا أقوامهم، روي عن عبد الله بن أبي أوفى أنه: لمَّا قدِمَ معاذٌ منَ الشَّامِ سجدَ للنَّبيِّ ﷺ قالَ ما هذا يا مُعاذُ قالَ أتيتُ الشَّامَ فوافقتُهُم يسجُدونَ لأساقفتِهِم وبطارقتِهِم فوَدِدْتُ في نَفسي أن نفعلَ ذلِكَ بِكَ فقالَ رسولُ اللهِ -ﷺ-:"فلا تفعَلوا فإنِّي لو كُنتُ آمرًا أحدًا أن يسجُدَ لغيرِ اللهِ لأمَرتُ المرأةَ أن تسجُدَ لزوجِها والَّذي نَفسُ محمَّدٍ بيدِهِ لا تؤدِّي المرأةُ حقَّ ربِّها حتَّى تؤدِّيَ حقَّ زوجِها ولو سألَها نفسَها وَهيَ علَى قتَبٍ لم تمنعْهُ".

ومعنى القتب أن العرب يعز عندهم وجود كرسي للولادة فيحملون نساءهم على القتب عند الولادة، وفي بعض طرق معاذ: ونهى عن السجود للبشر وأمر

=

=

بالمصافحة.

والذي عليه جمهور أهل العلم بلا خلاف ولا نزاع بينهم أن هذا السجود من معاذ -رضي الله عنه- كان سجود تحية لا عبادة إذ كيف يجهل هذا الصحابي الجليل أن سجود العبادة لا ينبغي إلا لله.

وتجدر الاشارة بأن السجود كان فيما مضى يستعمل تحية وإكراما كما فعل أبوا يوسف وإخوته وكما فعلت الملائكة لآدم هذا من باب التحية والإكرام وليس من باب العبادة، وأما في شريعة محمد عليه الصلاة والسلام فإن الله -عز وجل- منع من ذلك وجعل السجود لله وحده سبحانه وتعالى ولا يجوز أن يسجد لأحد لا للأنبياء ولا غيرهم، حتى محمد عليه الصلاة والسلام منع أن يسجد له أحد وأخبر أن السجود لله وحده سبحانه وتعالى، فعلم بهذا أن جميع أنواع العبادة كلها لله وحده سبحانه وتعالى، ومن أعظمها السجود فإنه ذلك وانكسار لله سبحانه وتعالى فهو من أفضل العبادات فلا يصرف لغيره من الناس لا للأنبياء ولا للجن ولا للإنس ولا لغيرهم، والله المستعان.

قوله تعالى: {فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠)} [الحجر: ٣٠]

فسجد الملائكة كلهم أجمعون كما أمرهم ربهم لم يمتنع منهم أحد.

قال مكي بن ابي طالب:"يعني: ملائكة السماوات والأرض".

قال ابن كثير:"فسمعوا كلهم وأطاعوا".

قال ابن عثيمين:"فـ «الفاء» هنا للترتيب، والتعقيب".

قال سيبويه والخليل: " «أجمعون» توكيد بعد توكيد، وقال محمد بنيزيد: «أجمعون» يدل على اجتماعهم في السجود، المعنى فسجدوا كلهم في حال واحدة".

قال الزجاج:"وقول سيبويه والخليل أجود، لأن أجمعين معرفة، فلا يكون حالا".

=

=

قوله تعالى: {إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١)} [الحجر: ٣١]
لكن إبليس امتنع أن يسجد لآدم مع الملائكة الساجدين.
قال الواحدي: أي:"امتنع".
قال مكي بن ابي طالب:"أي: تعاظم وتكبَّر عن السجود".
قال الزمخشري:"واستثنى إبليس من الملائكة، لأنه كان بينهم مأمورا معهم بالسجود، فغلب اسم الملائكة، ثم استثنى بعد التغليب كقولك: رأيتهم إلا هندا. و {أبى} استئناف على تقدير قول قائل يقول: هلا سجد؟ فقيل: أبى ذلك واستكبر عنه. وقيل: معناه: ولكن إبليس أبى".
قال الزجاج:"«إبليس» مستثنى وليس من الملائكة إنما هو من الجن كما قال ﷻ: {إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّه} [الكهف: ٥٠]، وهو منصوب استثناء ليس من الأول، كما قال: {فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِي إِلَّا رَبَّ الْعَالَمِينَ} [الشعراء: ٧٧] المعنى: لكن إبليس أبى أن يكون".
قال ابن عطية: "وتلك معصية كفر، لأنها عن معتقد فاسد صدرت".
قال القشيري:"يقال بخل بسجدة واحدة، وقال: أستنكف أن أسجد لغير الله. ثم من شقاوته لا يبالى بكثرة معاصيه، فإنه لا يعصى أحد إلّا وهو سبب وسواسه، وداعيه إلى الزّلّة.
وذلك هو عين الشّقوة وقضية الخذلان".
ولفظة «إبليس» لغة: أبلس الرجل قُطِع به، وأبلس سكت، وأبلس من رحمة الله يئس وندم ومنه سُمِّي إبليس لأنه أبلس من رحمة الله وقيل: إبليس لا ينصرف لأنه أعجمي معرفة، والمبلس الساكت من الحزن أو الخوف، والإبلاس الحَيْرة.
فيمكن القول بأن (إبليس) (إفعِيل)، من الإبلاس، وهو الإياس من الخير والندمُ والحزن، ومن ذلك قوله جل ثناؤه: (فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) [سورة الأنعام: ٤٤]، أي:
=

=

" أنهم آيسون من الخير، نادمون حزنًا"، كما قال العجَّاج:

يَا صَاحِ، هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسَا؟ قَالَ: نَعَمْ، أَعْرِفُهُ! وَأَبْلَسَا

وقال رؤبة:

وَحَضَرَتْ يَوْمَ الْخَمِيسِ الأَخْمَاسْ وَفِي الْوُجُوهِ صُفْرَةٌ وَإِبْلاسْ

يعني به اكتئابًا وكسوفًا.

وأخرج الطبري " عن السُّدّيّ، قال: كان اسم إبليس (الحارث)، وإنما سمي إبليس حين أبلس متحيِّرًا".

وقال ابن عباس:"إبليس، أبلسه الله من الخير كله، وجعله شيطانًا رجيمًا عقوبة لمعصيته".

وفي مفهوم الشرع لا يُوجد تعريف اصطلاحي لإبليس في الشرع، إذ هو مخلوق معروف لدى الأديان الأخرى، وهو رمزُ الشرّ عند كل شعب من الشعوب ودين من الأديان وطائفة من الطوائف، وعليه نعرّف إبليس بأنه: الجانّ الذي أبى السجود لآدم حين خلقه الله، فاستحق لعنته، وطُرِد من جنته، ووجبت له النار بعد إنظار الله له إلى يوم القيامة، وأُوتِي من وسائل الإغواء ما لم يُؤتَ أحد من العالمين.

وقد اختلف العلماء هل «إبليس» من الجن أم من الملائكة، على أربعة أقوال:

القول الأول: أنه كان من الملائكة: ذهب بعض أهل العلم إلى أن إبليس كان من الملائكة فلما عصى الله تعالى أخرجه من صف الملائكة، وقال به من العلماء: ابن عباس في رواية عنه وابن مسعود، وقتادة، ومحمد بن

إسحاق، وسعيد بن جبير وسعيد بن المسيب، ورجحه ابن جرير الطبري وانتصر له، ورجحه البغوي، ونسبه ابن عطية والقرطبي والشوكاني إلى أنه قول الجمهور.

واستدلوا أولئك بقول الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا

=

=

إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ} [البقرة: ٣٤]، فلو لم يكن إبليس من الملائكة لم يؤمر بالسجود ولم يؤاخذ بالعصيان.

وهذا الاستدلال ضعيف جداً، فتنوعت إجابات العلماء عن هذا الدليل:

- قال ابن تيمية عن إبليس: " كان منهم (أي من الملائكة) باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله".

- وقال ابن كثير: "وذلك أنه (أي إبليس) كان قد توسّم بأفعال الملائكة وتشبه بهم وتعبد وتنسك فلهذا دخل في خطابهم، وعصى بالمخالفة".

- وقال ابن عثيمين: "وإنما استثناه الله من الملائكة لأنه كان معهم وليس منهم يبين ذلك آية الكهف {وكان من الجن}.. ثم قال: وهذا الاستثناء يسمى استثناء منقطعا، كما تقول: «جاء القوم إلا حمارا» وهو كلام عربي فصيح فاستثنى الحمار من القوم وإن لم يكن منهم".

القول الثاني: أنه من الجن. قاله ابن عباس" -في رواية أخرى-، والحسن البصري" - صححه عنه ابن كثير- وسعد بن مسعود و شَهر بن حَوْشب وابن زيد، ورجحه ابن تيمية والسيوطي والزمخشري وابن كثير والشنقيطي ـ صاحب الأضواء ـ وابن عثيمين والشيخ أبو بكر الجزائري.

ولهذا ذهب عامة أهل العلم إلى أن إبليس وذريته لم يكونوا قط من الملائكة، ويدل على ذلك عدة أدلة:

١ - قول الله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: ٥٠]، فبين الله أن

سبب فسقه كونه من الجن، أي أنه من عنصر أو من جنس آخر غير الملائكة، أما الاستثناء في قوله تعلى: (فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ)، فإنه استثناء منقطع أي أن (إلا) هنا

=

بمعنى (لكن)، وهو كقوله تعالى: {لَا يَذُوقُونَ فِيهَا بَرْدًا وَلَا شَرَابًا (٢٤) إِلَّا حَمِيمًا وَغَسَّاقًا (٢٥)} [النبأ: ٢٤ – ٢٥]، هذا الاستثناء منقطع لأن الحميم والغساق ليس من البرد والشراب والمعنى: لكن يطعمون الحميم والغساق.

٢ – وقوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: ٥٠].

وهنا نص الله أن له ذرية يعني: «نسل» وهم الجن، والملائكة لانسل لهم. فلو كان ملكا لم يكن له نسل.

٣ – أن إبليس مخلوق من نار كما قال تعالى حاكيا عن إبليس: {قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ} [الأعراف: ١٢]، والملائكة مخلوقة من نور لما في صحيح مسلم عن عائشة رَضِيَ اللهُ عَنْهَا أن النبي ﷺ قال: "خلقت الملائكة من نور وخلق الجن من نار وخلق آدم مما وُصف لكم". ففرق الرسول ﷺ بين خلق الملائكة وخلق الجن.

٤ – قوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ} [التحريم: ٦]. فلو كان إبليس ملكا ماعصى الله.

٥ – أن الجن الذين هم ذرية إبليس، لهم شهوة للطعام والشراب وغيره، وليس للملائكة شهوة دل على ذلك عدة نصوص منها:

أ أن الجن سألوا الرسول ﷺ لما اجتمعو به عن طعامهم فقال: "كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في أيديكم أوفر مايكون لحما، وكل بعرة علف لدوابكم.. فلاتستنجو بهما فإنهما طعام إخوانكم الجن".

ب قوله تعالى: {وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ

=

فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا} [الكهف: ٥٠]، والذرية لابد لها من شهوة.

ت قوله تعالى: {فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنْسٌ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌّ} [الرحمن: ٥٦]

ث حديث: "فإن الشيطان يأكل بشماله ويشرب بشماله".

فالملائكة من صفتهم أنهم لا يعصون الله ما أمرهم ويسبحون الليل ولا يفترون، وما فعله إبليس يعد معصية ولا يتناسب مع صفات الملائكة.

القول الثالث: أن إبليس كان أصله من الملائكة فمسخه الله من الجن لما عصاه. قاله ابن عباس في رواية.

القول الرابع: أن الشيطان كان من الملائكة باعتبار صورته وليس منهم باعتبار أصله ولا باعتبار مثاله. وهذا قول شيخ الإسلام ابن تيمية، ولكن هذا القول ليس عليه دليل.

والراجح-والله أعلم-: أن إبليس لم يكن من الملائكة، وهو الصحيح، لقوة أدلته. وهو الذي عليه المحققون من أهل العلم.

قوله تعالى: {قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢)} [الحجر: ٣٢]

قال الله لإبليس: ما لك ألا تسجد مع الملائكة؟.

قال الطبري:"يقول: ما منعك من أن تكون مع الساجدين".

قال الزمخشري: معناه:"أيّ غرض لك في إبائك السجود. وأيّ داع لك إليه".

قال الزجاج:"المعنى أيّ شيء يقع لك في أن لا تكون مع الساجدين".

قال الزمخشري:"فإن قلت: لم سأله عن المانع من السجود، وقد علم ما منعه؟ قلت: للتوبيخ، ولإظهار معاندته وكفره وكبره وافتخاره بأصله وازدرائه بأصل آدم، وأنه خالف أمر ربه معتقدا أنه غير واجب عليه، لما رأى أن سجود الفاضل

=

=

للمفضول خارج من الصواب".

قوله تعالى: {قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)} [الحجر: ٣٣]

التفسير:

قال إبليس مظهرًا كبره وحسده: لا يليق بي أن أسجد لإنسان أَوجدْتَهُ من طين يابس كان طينًا أسود متغيرًا.

قال الطبري: يقول: "هو من طين وأنا من نار، والنار تأكل الطين".

قال الزمخشري: " اللام في «لأسجد» لتأكيد النفي، ومعناه: لا يصح منى وينافي حالى. ويستحيل أن أسجد لبشر".

قال ابن سيرين:"أوّل من قاس إبليس، وما عُبِدت الشمس والقمر إلا بالمقاييس". وروي عن الحسن نحو ذلك".

قال ابن عباس:"لما خلق الله آدم قال للملائكة الذين كانوا مع إبليس خاصة، دون الملائكة الذين في السموات: {اسجدوا لآدم}، فسجدوا كلهم أجمعون إلا إبليس استكبر، لما كان حدَّث نفسه، من كبره واغتراره،

فقال: لا أسجد له، وأنا خير منه، وأكبر سنًّا، وأقوى خلقًا، خلقتني من نار وخلقته من طين! يقول: إنّ النار أقوى من الطين".

قال ابو الحسن الأشعري:"وأجمعوا على أنه ليس لأحد من الخلق الاعتراض على الله تعالى في شيء من تدبيره، ولا إنكار لشيء من فعله إذْ كان مالكًا لما يشاء منها غير مملوك وأنه تعالى حكيم قبل أن يفعل سائر الأفعال، وأن جميع ما يفعله لا يخرجه عن الحكمة، وأن من يعترض عليه في أفعاله متبع لرأي الشيطان حين امتنع من السجود لآدم عليه السلام وزعم أن ذلك فساد في التدبير وخروج من الحكمة حين قال: {أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ}".

=

=

قوله تعالى: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤)} [الحجر: ٣٤]

قال الله تعالى له: فاخرج من الجنة، فإنك مطرود من كل خير.

قوله تعالى: {قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا} [الحجر: ٣٤]، أي:"قال الله تعالى له: فاخرج من الجنة".

قال البغوي: " أي: من الجنة".

قال النسفي: أي:"من السماء أو من الجنة أو من جملة الملائكة".

قال ابن كثير:"يقول آمرًا لإبليس أمرًا كونيًّا لا يخالف ولا يمانع، بالخروج من المنزلة التي كان فيها من الملأ الأعلى".

قال ابن عطية:"الضمير في «مِنْها» للجنة، وإن لم يجر ذكرها في القصة تتضمنها، ويحتمل أن يعود الضمير على ضيفة الملائكة".

قوله تعالى: {فَإِنَّكَ رَجِيمٌ} [الحجر: ٣٤]، أي:"فإنك مطرود من كل خير".

قال الزجاج:"معناه: مرجوم ملعون".

قال البغوي: أي:"طريد".

قال ابن كثير:"{رَجِيمٌ} أي: مرجوم. وإنه قد أتبعه لعنةً لا تزال متصلة به، لاحقةً له، متواترة عليه إلى يوم القيامة".

قال ابن عطية:"والـ «رَجِيمٌ»: المشتوم، أي: المرجوم بالقول والشتم".

قال الزمخشري: " «رجيم» شيطان من الذين يرجمون بالشهب، أو مطرود من رحمة الله، لأن من يطرد يرجم بالحجارة. ومعناه: ملعون، لأن اللعن هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها. والضمير في «منها» راجع إلى الجنة أو السماء، أو إلى جملة الملائكة".

قال النسفي:"مطرود من رحمة الله، معناه: ملعون، لأن اللعنة هو الطرد من الرحمة والإبعاد منها".

=

قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) .

{قَالَ رَبّ فَأَنْظِرْنِي إلَى يَوْم يُبْعَثُونَ} أَيْ الناس.

قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧).

{قال فإنك من المنظرين} .

إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨).

=

قال قتادة:"«الرجيم»: الملعون".

عن ابن جريج: " {فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ}، قال: ملعون. والرجم في القرآن: الشتم".

قال سعيد بن جبير: "لما لعن الله إبليس، تغيرت صورته عن صورة الملائكة، ورن رنةً، فكل رنة في الدنيا إلى يوم القيامة منها".

قوله تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَى يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)} [الحجر: ٣٥]

وإن عليك اللعنة والبعد من رحمتي إلى يوم يُبْعَث الناس للحساب والجزاء.

قال الطبري:"يقول: وإن غضب الله عليك بإخراجه إياك من السموات وطردك عنها إلى يوم المجازاة، وذلك يوم القيامة".

قال ابن عطية:"يَوْمِ الدِّينِ يوم الجزاء، ومنه قول الشاعر:

ولم يَبْقَ سوى العُدْوا ... نِ دِنَّاهم كما دَانُوا".

قال البغوي: " قيل: إن أهل السموات يلعنون إبليس كما يلعنه أهل الأرض، فهو ملعون في السماء والأرض".

قال النسفي:"ضرب «يوم الدين» حد اللعنة، لأنه أبعد غاية يضربها الناس في كلامهم والمراد به: إنك مذموم مدعو عليك باللعنة في السموات والأرض إلى يوم الدين من غير أن تعذب، فإذا جاء ذلك اليوم عذبت بما ينسى اللعن معه".

{إِلَى يَوْم الْوَقْت الْمَعْلُوم} وَقْت النَّفْخَة الْأُولَى.

قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) .

{قَالَ رَبّ بِمَا أَغْوَيْتنِي} أَيْ بِإِغْوَائِك لِي وَالْبَاء لِلْقَسَمِ وَجَوَابه {لَأُزَيِّنَن لَهُمْ فِي الْأَرْض} المعاصي {ولأغوينهم أجمعين}.

إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠).

{إلَّا عِبَادك مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ(١).

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦)} [الحجر: ٣٦]

قال إبليس: رب أمهلني وأخرني إلى اليوم الذي تبعث فيه عبادك وهو يوم القيامة.

قال النسفي: أي:"فأخرني {إلى يوم يبعثون}".

قال السمعاني:"أي: أمهلني، سأل المهلة إلى القيامة".

قال البغوي: " أراد الخبيث أن لا يموت".

قال القرطبي:"هذا السؤال من إبليس لم يكن عن ثقته منه بمنزلته عند الله تعالى، وأنه أهل أن يجاب له دعاء، ولكن سأل تأخير عذابه زيادة في بلائه، كفعل الآيس من السلامة. وأراد بسؤاله الإنظار إلى يوم يبعثون: ألا يموت، لأن يوم البعث لا موت فيه ولا بعده".

قال الطبري:"يقول: وإن غضب الله عليك بإخراجه إياك من السموات وطردك عنها إلى يوم المجازاة، وذلك يوم القيامة".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال إبليس: ربّ فإذ أخرجتني من السموات ولعنتني، فأخِّرني إلى يوم تبعث خلقك من قبورهم فتحشرهم لموقف القيامة".

قال أبو السعود:"أراد بذلك أن يجد فسحة لإغوائهم ويأخذ منهم ثأره وينجو من الموت لاستحالته بعد يوم البعث".

قال ابن كثير:"وإنه لما تحقق الغضب الذي لا مَرَدَّ له، سأل من تمام حسده لآدم =

=

وذريته النظرة إلى يوم القيامة، وهو يوم البعث".

وفي قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ} [الحجر: ٣٦]، وجهان:

أحدهما: أنه سأله الإنظار بالعقوبة إلى البعث وهو يوم القيامة.

والثاني: أنه سأله الإنظار بالحياة إلى يوم يبعثون وهو يوم القيامة لئلا يذوق الموت، فَأُجِيْبَ بالإنظار إلى «يوم الوقت المعلوم»، وهي النفخة الأولى ليذوق الموت بين النفختين، وهو أربعون سنة، قاله ابن عباس، والكلبي.

قال ابن عباس:"أراد إبليس إن لا يذوق الموت، فقيل: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. قال: فيموت إبليس أربعون سنة".

قوله تعالى: {قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ} [الحجر: ٣٧]، أي:"قال الله له: فإنك ممن أَخَّرْتُ هلاكهم".

قال الماوردي والقرطبي:"يعني: من المؤجلين".

قال الطبري:"قال الله له: فإنك ممن أُخِّر هلاكه إلى يوم الوقت المعلوم لهلاك جميع خلقي، وذلك حين لا يبقى على الأرض من بني آدم دَيَّار".

قال ابن كثير:"أجيب إلى ذلك استدراجًا له وإمهالا".

وقال ابن كثير:"أجابه تعالى إلى ما سأل، لما له في ذلك من الحكمة والإرادة والمشيئة التي لا تخالف ولا تمانع، ولا مُعَقِّبَ لحكمه، وهو سريع الحساب".

قال القرطبي:"وكان طلب الإنظار إلى النفخة الثانية حيث يقوم الناس لرب العالمين، فأبى الله ذلك عليه. وقال: {إلى يوم يبعثون}، ولم يتقدم من يبعث، لأن القصة في آدم وذريته، فدلت القرينة على أنهم هم المبعوثون".

قوله تعالى: {إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} [الحجر: ٣٨]، أي:"إلى اليوم الذي يموت فيه كل الخلق بعد النفخة الأولى".

=

=

قال الطبري: أي:"إلى يوم ينفخ في الصور، فيصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله".

قال مقاتل:"يعني: إلى أجل موقوت، وهي النفخة الأولى، وإنما أراد عدو الله الأجل إلى يوم يبعثون لئلا يذوق الموت لأنه قد علم أنه لا يموت بعد البعث".

قال ابن ابي زمنين:"يعني: النفخة الأولى التي يموت بها كل حي، وأراد عدو الله أن يؤخره إلى النفخة الآخرة التي يبعث بها الخلق".

قال البغوي: " أي: الوقت الذي يموت فيه الخلائق، وهو النفخة الأولى.. ويقال: لم تكن إجابة الله تعالى إياه في الإمهال إكراما له، بل كانت زيادة في بلائه وشقائه".

قال النسفي:"«يوم الدين» و «يوم يبعثون» و «يوم الوقت المعلوم» في معنى واحد، ولكن خولف بين العبارات سلوكا بالكلام طريقة البلاغة، وقيل: إنما سأل الإنظار إلى اليوم الذي فيه يبعثون لئلا يموت، لأنه لا يموت يوم البعث أحد فلم يجب إلى ذلك وانظر إلى آخر أيام التكليف".

قال ابن فورك:"الوقت: علامة لما يقع فيه الفعل، منه: مواقيت الحج، وهي علامات يحرم الناس عندها".

قال السدي:"فلم ينظره إلى يوم البعث، ولكن أنظره إلى الوقت المعلوم".

وفي «الوقت المعلوم» ثلاثة وجوه:

أحدها: معلوم عند الله تعالى، مجهول عند إبليس، فيموت إبليس ثم يبعث.

الثاني: إلى يوم النفخة الأولى يموت إبليس. وبين النفخة والنفخة أربعون سنة. فتكون مدة موت إبليس أربعين سنة، وهو قول ابن عباس، وسفيان، وبه قال مقاتل، وابن جرير الطبري.

قال ابن عباس:"أراد إبليس إن لا يذوق الموت، فقيل: فإنك من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم قال: النفخة الأولى يموت فيها إبليس، وبين النفخة والنفخة

=

=

أربعون سنة. قال: فيموت إبليس أربعون سنة".

الثالث: أن أمره كان إلى يوم بدر وأنه قتل يوم بدر. حكاه ابن عطية، وقال:"وهذا وإن كان روي فهو ضعيف".

وسمي «يوم الوقت المعلوم»، لموت جميع الخلائق فيه.

قال السمعاني:"هذا الإنظار إلى النفخة الأولى، كما قال.. مقيدا: {إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ} [الحجر: ٣٨، ص:٨١]، وأراد به: النفخة الأولى، فإن قيل: وهل يجوز أن يجيب الله دعوة الكافر؛ حيث أجاب دعوة اللعين؟ قيل: يجوز على طريق الاستدراج والمكر والإملاء لا على سبيل الكرامة".

فإن قال قائل: "فهل أَحَدٌ مُنْظَرٌ إلى ذلك اليوم سوى إبليس، فيقال له: «إنك منهم»؟

قيل: نعم، مَنْ لم يقبض الله روحه من خلقه إلى ذلك اليوم، ممن تقوم عليه الساعة، فهم من المنظرين بآجالهم إليه. ولذلك قيل لإبليس: {إنك من المنظرين}، بمعنى: إنك ممن لا يميته الله إلا ذلك اليوم".

قال الزمخشري:"فإن قلت: لم أجيب إلى استنظاره، وإنما استنظر ليفسد عباده ويغويهم؟

قلت: لما في ذلك من ابتلاء العباد، وفي مخالفته من أعظم الثواب، وحكمه حكم ما خلق في الدنيا من صنوف الزخارف وأنواع الملاذ والملاهي، وما ركب في الأنفس من الشهوات ليمتحن بها عباده".

وفي كلام الله تعالى لابليس، قولان:

أحدهما: كلمه على لسان رسوله.

الثاني- كلمه تغليظا في الوعيد لا على وجه التكرمة والتقريب.

قال ابن عاشور: وهذا الإنظار رمز إلهي على أن ناموس الشر لا ينقضي من عالم

=

=

الحياة الدنيا وأن نظامها قائم على التصارع بين الخير والشر والأخيار والأشرار، قال تعالى (بل نقذف بالحق على الباطل) وقال (كذلك يضرب الله الحق والباطل).

قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي} [الحجر: ٣٩]، أي:"قال إبليس: ربِّ بسبب ما أغويتني وأضللتني".

قال الطبري:"يقول: فبما أضللتني".

قال الزمخشري: أي:"فبسبب إغوائك إياى".

قال ابن كثير:"أي: كما أغويتني".

قال البغوي: أي:"أضللتني. وقيل: خيبتني من رحمتك".

قال القرطبي:"أي: فبما أوقعت في قلبي من الغي والعناد والاستكبار. وهذا لأن كفر إبليس ليس كفر جهل، بل هو كفر عناد واستكبار، قيل: معنى الكلام القسم، أي فبإغوائك إياي لأقعدن لهم على صراطك، أو في صراطك، فحذف. دليل على هذا القول قوله في «ص»: {فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [ص: ٨٢]، كأن إبليس أعظم قدر إغواء الله إياه لما فيه من التسليط على العباد، فأقسم به إعظاما لقدره عنده. وقيل: الباء بمعنى اللام، كأنه قال: فلإغوائك إياي. وقيل: هي بمعنى مع، والمعنى فمع إغوائك إياي. وقيل: هو استفهام، كأنه سأل بأي شي أغواه؟. وكان ينبغي على هذا أن يكون: فبم أغويتني؟".

ولأهل اللغة في معنى قوله تعالى: {قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي} [الحجر: ٣٩]، قولان:

أحدهما: أنه على معنى القسم، وتقديره: فبإغوائك لي {لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}.

قال الطبري:"وكأن قوله {بِمَا أَغْوَيْتَنِي}، خرّج مخرج القسم، كما يقال: بالله، أو بعزّة الله لأغوينهم".

=

=

قال الطبري:"وفي هذا بيان واضح على فساد ما يقول القدرية، من أن كل من كفر أو آمن فبتفويض الله أسبابَ ذلك إليه، وأن السبب الذي به يصل المؤمن إلى الإيمان، هو السبب الذي به يصل الكافر إلى الكفر. وذلك أنّ ذلك لو كان كما قالوا: لكان الخبيث قد قال بقوله: {فبما أغويتني}،فبما أصلحتني، إذ كان سبب «الإغواء» هو سبب «الإصلاح»، وكان في إخباره عن الإغواء إخبارٌ عن الإصلاح، ولكن لما كان سبباهما مختلفين، وكان السبب الذي به غوَى وهلك من عند الله. أضاف ذلك إليه فقال: {فبما أغويتني}".

قال محمد بن كعب القرظي: "قاتل الله القدريّة، لإبليس أعلمُ بالله منهم**!**".

والثاني: أنه على معنى المجازاة، تقديره: فلأنك أغويتني {لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ}.

وفي معنى قوله: {أَغْوَيْتَنِي} [الحجر: ٣٩]، أربعة أقوال:

أحدها: معناه أضللتني، قاله ابن عباس، وابن زيد.

قال القرطبي:"و «الإغواء»: الإضلال والإبعاد".

والثاني: معناه: خيبتني من جنتك، او من رحمتك، ومنه قول الشاعر:

فَمَنْ يَلْقَ خَيْرًا يَحْمَد النَّاس أمْرَهُ وَمَنْ يَغْوَ لا يَعْدَمْ على الغَيّ لائما

أي: ومن يخب.

والثالث: معناه: عذبتني، كقوله تعالى: {فَسَوْفَ يَلْقَونَ غَيًا} [مريم: ٥٩] أي عذابًا، قاله الحسن.

والرابع: معناه: أهلكتني بلعنك لي.

قال ابن فورك:"«الإغواء»: الدعاء إلى الغي بلتزيين والترغيب، والغي حلاف الرشد".

قال القرطبي:"و «الإغواء»: الإهلاك، قال الله تعالى: {فَسَوْفَ يَلْقَونَ غَيًا}

=

=

[مريم: ٥٩]، أي: هلاكا".

يقال: غوى الفصيل إذا أشفى على الهلاك بفقد اللبن، قال الشاعر:

مُعَطَّفَةُ الأَثْنَاءِ لَيْسَ فَصِيلُهَا بِرَازِئِهَا دَرًّا وَلا مَيِّتٍ غَوَى

وأصل «الإغواء» في كلام العرب: تزيين الرجل للرجل الشيء حتى يحسّنه عنده، غارًّا له، وقد حكي عن بعض قبائل طيئ، أنها تقول:"أصبح فلان غاويًا"، أي: أصبح مريضًا.

قوله تعالى: {لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ} [الحجر: ٣٩]، أي:"لأحسِّنَنَّ لذرية آدم معاصيك في الأرض".

قال الطبري: يقول:"لأحسننّ لهم معاصيك، ولأحببنها إليهم في الأرض".

قال البغوي: أي:"حب الدنيا ومعاصيك".

قال ابن أبي زمنين: " يزين لهم الدنيا في أمرهم بها، ويخبرهم أنه لا بعث ولا حساب ولا جنة ولا نار؛ يوسوس ذلك إليهم".

قال القرطبي:"تزيينه هنا يكون بوجهين: إما بفعل المعاصي، وإما بشغلهم بزينة الدنيا عن فعل الطاعة".

قوله تعالى: {وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر: ٣٩]، أي:"ولأضلنهم أجمعين عن طريق الهدى".

قال الطبري: " يقول: ولأضلَّنهم عن سبيل الرشاد".

قال ابن ابي زمنين والبغوي: " أي: لأضلنهم، {أجمعين} ".

قال القرطبي:"أي: لأضلنهم عن طريق الهدى".

وعن أبي سعيد، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: " إن الشيطان قال: وعزتك يا رب لا أبرح أغوي عبادك ما دامت أرواحهم في أجسادهم، فقال الرب تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني".

=

=

قوله تعالى: {إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)} [الحجر: ٤٠]

إلا عبادك الذين هديتهم فأخلصوا لك العبادة وحدك دون سائر خلقك.

قال الطبري: " يقول: إلا من أخلصته بتوفيقك فهديته، فإن ذلك ممن لا سلطان لي عليه ولا طاقة لي به".

قال ابن أبي زمنين: يعني: "الموحدين".

قال السمعاني:"أي: الذين أخلصتهم لنفسك".

قال مقاتل:"يعني: أهل التوحيد، وقد علم إبليس أن الله استخلص عبادا لدينه ليس له عليهم سلطان، فذلك قوله سبحانه: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر: ٤٢، الإسراء: ٦٥]، يعنى: ملك أن تضلهم عن الهدى {وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلًا} [الإسراء: ٦٥]، يعنى: حرزا ومانعا لعباده".

قال البغوي: أي:"المؤمنين الذين أخلصوا لك الطاعة والتوحيد، ومن فتح «اللام»، أي: من أخلصته بتوحيدك واصطفيته".

عن الضحاك: {إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}، يعني: المؤمنين".

عن قتادة:"{إِلا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ}، قال قتادة: هذه ثَنِيَّة الله تعالى ذكره".

قال ابن فورك:"استثنى إبليس {إلا عبادك منهم المخلصين} مع حرصع على إغواء الجميع؛ لأنه أيس ممن يعلم أنه لا يجيب، وليس له سلطان إلا بالإغواء".

قال القشيري:"«الإخلاص»: هو تصفية الأعمال عن الغين وعن الآفات المانعة من صالح الأعمال وقد علم اللعين أنه لا سبيل له إليهم بالإغواء لمّا تحقق من عناية الحقّ بشأنهم".

قال سهل بن عبد الله:"الناس كلهم أموات إلا العلماء، والعلماء كلهم نيام إلا العاملين، والعاملون كلهم مغترون إلا المخلصين، والمخلصون على خطر عظيم".

=

قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١).

{قَالَ} تعالى {هذا صراط علي مستقيم}.

إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢).

وَهُو {إِنَّ عِبَادِي} أَيْ الْمُؤْمِنِينَ {لَيْسَ لَك عَلَيْهِمْ سُلْطَان} قُوَّة {إِلَّا} لَكِنْ {مَنِ اتَّبَعَك مِنَ الْغَاوِينَ} الْكَافِرِينَ.

وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣).

{وَإِنَّ جَهَنَّم لَمَوْعِدهمْ أَجْمَعِينَ} أَيْ مَنْ اتَّبَعَك معك.

لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤).

{لَهَا سَبْعَة أَبْوَاب} أَطْبَاق {لِكُلِّ بَاب} مِنْهَا {منهم جزء} نصيب {مقسوم}[1].

=

وقرئ: «إلا عِبادَكَ مِنْهُمُ المُخْلِصِينَ»، يعني: إلا من أخلص طاعتك، فإنه لا سبيل لي عليه.

(١) قوله تعالى: {قَالَ هَٰذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١)} [الحجر: ٤١]

أي: مرجعكم كلكم إلي، فأجازيكم بأعمالكم إن خيرا فخير وإن شرا فشر، كقوله تعالى (إن ربك لبالمرصاد).

وممن اختار هذا المعنى: ابن جرير، وابن كثير.

وقيل المعنى: قال الله: طريق الحق والهدى والإخلاص طريق معتدل، لا اعوجاج فيه، يدل علي، ويوصل إلي، وإلى جنتي.

كما قال تعالى (إن ربي على صراط مستقيم).

وقال سبحانه (وعلى الله قصد السبيل).

وقال ﷻ (وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم).

=

=

وقيل المعنى: هذا طريق حق على أن أراعيه، وهو أن لا يكون لك سلطان على عبادي، إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته.

(إن عبادي ليس لك عليهم سلطان) أي: تصرف وتسلط.

قال السعدي:"أي: معتدل موصل إلي وإلى دار كرامتي".

قال الطبري: يقول:"هذا طريق مرجعه إليّ فأجازي كلا بأعمالهم، كما قال الله تعالى ذكره {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}، وذلك نظير قول القائل لمن يتوعده ويتهدده: طريقك عليّ، وأنا على طريقك، فكذلك قوله: {هَذَا صِرَاطٌ}، معناه: هذا طريق عليّ وهذا طريق إليّ".

وفي قوله تعالى: {قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ} [الحجر: ٤١]، وجوه من التفسير:

أحدها: معناه هذا صراط يستقيم بصاحبه حتى يهجم به على الجنة، قاله عمر رضي الله عنه.

الثاني: هذا صراط إليَّ مستقيم، قاله الحسن، فتكون «عليَّ» بمعنى: «إليَّ».

الثالث: أنه وعيد وتهديد، ومعناه: أن طريقه إليَّ ومرجعه عليَّ، كقول القائل لمن يهدده ويوعده: عليَّ طريقك، وهذا معنى قول مجاهد، وبه قال الفراء، والكسائي.

قال مجاهد:"الحق يرجع إلى الله، وعليه طريقه لا يعرج على شيء".

قال الكسائي: "هذا على الوعيد فإنه تهديد كقولك للرجل خاصمته وتهدده: طريقك علي، كما قال الله: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: ١٤]، فكان معنى الكلام: هذا طريق مرجعه إلي فأجازي كلا بأعمالهم.

الرابع: معناه: هذا صراط، أي: أنا ضامن لاستقامته بالبيان والبرهان، وقيل: بالتوفيق والهداية. ذكره الماوردي، وابن الجوزي.

وقال النسفي:"أي: هذا طريق حق علي أن أراعيه وهو أن لا يكون لك سلطان

=

=

على عبادي إلا من اختار اتباعك منهم لغوايته".

الخامس: أنه يعني بقوله هذا: الإخلاص، فالمعنى: إن الإخلاص طريق إلي مستقيم، و «علي» بمعنى «إلي». ذكره ابن الجوزي.

قال السمعاني:"أكثر أهل المعاني على أن الآية للتهديد والوعيد، كالرجل يقول لغيره: طريقك علي، مسيرك إلي، أي: لا تفلت مني. وهذا في معنى قوله تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ} [الفجر: ١٤]، أي: على طريق الخلق".

وقرأ الحسن، ومجاهد، وابن سيرين، والنخعي، وقتادة ،وحميد، ويعقوب: «عليٌّ مستقيم» برفع الياء وتنوينها، ومعناه: رفيع مستقيم، أي: رفيع أن ينال، مستقيم أن يمال.

قوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر: ٤٢]، أي:"إن عبادي الذين أخلصوا لي لا أجعل لك سلطانًا على قلوبهم تضلُّهم به عن الصراط المستقيم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن عبادي ليس لك عليهم حجة".

قال ابن كثير:"أي: الذين قدرت لهم الهداية، فلا سبيل لك عليهم، ولا وصول لك إليهم".

قال الثعلبي:"قال أهل المعاني: يعني على قلوبهم".

وسئل سفيان بن عيينة عن هذه الآية، فقال: "معناه ليس لك عليهم سلطان أن تلقيهم في ذنب يضيق عنه عبدي، وهؤلاء يثبت الله الذين رأى فيهم إحسانهم".

قال ابن عقيل في الفنون ١/ ٣٥٥: (فَصْلٌ في قوله تعالى: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} الحجر:٤٢]، ذهب كثير من الوعاظ والقصاص إلى أنها خاصة في صلحاء عباده والأنبياء، وليس على ما وقع لهم؛ لأن ظاهر القرآن يشهد بأنه لا سلطان له على الكفار، حيث قال سبحانه: {وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ

=

=

وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ} [إبراهيم:٢٢]، فأقر في آخر الأمر بنفي السلطان تصديقًا لقوله سبحانه في أول الأمر: {إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ} [الحجر:٤٢]، ولأن السلطان الذي نفاه يعم؛ إذ ليس كل مستجيب له يكون له عليه سلطان؛ لأن الشيطان يسوّل ويغيّر، ويخلف فيكذب، ومن كان أمره كذا لم يكُ سلطانًا، إنما السلطان من أَمَرَ وكَشَف أمْرَه وحرّمه فأُطِيع، دون أن يدلّس ويلبّس، فإن من سوّل كان متلصّصًا وخادعًا وغارًّا، لا سلطانًا). ا.هـ

والجمع في ذلك أن يقال: إن السلطان المثبت عليهم غير السلطان المنفي عنهم، وذلك من وجوه:

الأول: أن السلطان المنفي: هو سلطان الحجة والبرهان والإقناع وإخراجهم عن دينهم، والسلطان المثبت: هو وسوسته وتحسينه وتزيينه لهم ما فيه ضلالهم.

الثاني: أن السلطان المنفي: هو ابتداء التسلط فإن الله لم يثبت له عليهم السلطان ابتداء، ولكنهم هم الذين سلطوه على أنفسهم بطاعته ودخولهم في حزبه، فتسلط عليهم بإرادتهم واختيارهم، وهذا هو السلطان المثبت.

الثالث: أن السلطان المنفي: فيمن آمن بالله وتوكل عليه، وحفظه الله وأخلصه، والسلطان المثبت: فيمن تولاه وأشرك بالله وضل وغوى.

الرابع: أن السلطان المنفي: هو الأصل وفي أكثر الأوقات والأحوال، والسلطان المثبت: هو الطارئ ممن شذ وتنكب الصراط المستقيم.

قوله تعالى: {إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ} [الحجر: ٤٢].

استثناء منقطع، لأن الغاوين ليسوا من عباد الله المخلصين، والمعنى: لكن من غوى وضل ورضي بولايتك وطاعتك من الكافرين فلك عليهم تسلط، لأن الشيطان إنما يتسلط على الشاردين عن الله، كما يتسلط الذئب على الشاردة من

=

=

القطيع.

وممن اختار أن الاستثناء هنا منقطع بمعنى (لكن): ابن عطية، وابن تيمية، وابن كثير.

والغاوين جمع غاوي، وهو الضال الذي عرف الحق وتركه، وضده الراشد وهو من عرف الحق فاتبعه.

قال ابن كثير:"استثناء منقطع".

قال الطبري:"إلا من اتبعك على ما دعوته إليه من الضلالة ممن غوى وهلك".

قال السعدي:"فرضي بولايتك وطاعتك بدلا من طاعة الرحمن، والغاوي ضد الراشد، فهو الذي عرف الحق وتركه والضال الذي تركه من غير علم منه به".

قوله تعالى: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣)} [الحجر: ٤٣]

وإن النار الشديدة لَموعدُ إبليس وأتباعه أجمعين.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لإبليس: وإن جهنم لموعد من تبعك أجمعين".

قال السعدي:"أي: إبليس وجنوده".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: الغاوين".

قال الواحدي:"يريد: إبليس ومَنْ تبعه من الغاوين".

قال السمعاني:"يعني: موعد إبليس ومن تبعه للخلود فيها".

قال مقاتل:"يعني: كفار الجن والإنس وإبليس وذريته".

قال ابن كثير:"أي: جهنم موعد جميع من اتبع إبليس، كما قال عن القرآن: {وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ} [هود: ١٧]".

قوله تعالى: {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ} [الحجر: ٤٤]، أي:"لجهنم سبعة أبواب يدخلون منها لكثرتهم".

قال الطبري:"يقول: لجهنم سبعة أطباق".

=

=

قال الواحدي:"لجهنم سبعة أطباقٍ طبقٌ فوق طبقٍ".

قال السعدي:"كل باب أسفل من الآخر".

قال مقاتل:"بعضها أسفل من بعض كل باب أشد حرا من الذي فوقه بسبعين جزءا بين كل بابين سبعين سنة أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية، ثم سقر".

قال ابن أبي زمنين:"بعضها تحت بعض مطبقة؛ الباب الأعلى جهنم، ثم سقر، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم الجحيم، ثم الهاوية، وجهنم والنار يقدمان الأسماء".

قال ابن كثير:"أخبر أن لجهنم سبعة أبواب: {لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} أي: قد كتب لكل باب منها جزء من أتباع إبليس يدخلونه، لا محيد لهم عنه - أجارنا الله منها - وكل يدخل من باب بحسب عمله، ويستقر في دَرَك بقدر فعله".

عن عكرمة: قوله " {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ}، قال: لها سبعة أطباق".

عن ابن جريج، قوله " {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ}، قال: أولها جهنم، ثم لظى، ثم الحطمة، ثم السعير، ثم سقر، ثم الجحيم، ثم الهاوية، والجحيم فيها أبو جهل".

عن هبيرة، عن عليّ، قال: "أبواب جهنم سبعة بعضها فوق بعض، فيمتلئ الأوّل، ثم الثاني، ثم الثالث، ثم تمتلئ كلها".

عن حطان بن عبد الله، قال: "قال عليّ: تدرون كيف أبواب النار؟ قلنا: نعم كنحو هذه الأبواب، فقال: لا ولكنها هكذا، فوصف أبو هارون أطباقا بعضها فوق بعض، وفعل ذلك أبو بشر".

وعن حِطان، قال: سمعت عليا وهو يخطب، قال: "إن أبواب جهنم هكذا، ووضع شُعبة إحدى يديه على الأخرى".

قوله تعالى: {لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} [الحجر: ٤٤]، أي:"لكل جماعة من

=

=
أتباع إبليس بابٌ معينٌ معلوم".
قال الطبري: أي: "لكلِّ طَبَق منهم: يعني من أتباع إبليس {جزء}، يعني: قسما ونصيبا مقسوما".
قال السعدي:"أي: من أتباع إبليس {جزء مقسوم} بحسب أعمالهم قال الله تعالى {فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ (٩٤) وَجُنُودُ إِبْلِيسَ أَجْمَعُونَ} [الشعراء: ٩٤ - ٩٥]".
قال مقاتل:"يعني: عدد معلوم من كفار الجن والإنس يعني الباب الثاني يضعف على الباب الأعلى في شدة العذاب سبعين ضعفا".
قال الفراء:"{لكل باب منهم}، يعنى: من الكفار، {جزء مقسوم}، يقول: نصيب معروف. والسبعة الأبواب أطباق بعضها فوق بعض. فأسفلها الهاوية، وأعلاها جهنم".
عن قتادة، قوله " {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ}، وهي والله منازل بأعمالهم".
وقال جويبر، عن الضحاك: " {لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ} قال: باب لليهود، وباب للنصارى، وباب للصابئين، وباب للمجوس، وباب للذين أشركوا - وهم كفار العرب - وباب للمنافقين، وباب لأهل التوحيد، فأهل التوحيد يُرجى لهم ولا يُرجى لأولئك أبدًا".
وفي رواية الثعلبي عن أبي سنان عن الضحاك في قول الله: " {لكل باب منهم جزء مقسوم}، قال: للنار سبعة أبواب هي سبعة أدراك بعضها على بعض: فأولها: أهل التوحيد يعذبون على قدر أعمالهم وأعمارهم في الدنيا ثم يخرجون. والثاني: فيه اليهود. والثالثة: فيه النصارى. والرابع: فيه الصابئون. والخامسة: فيه المجوس. والسادس: فيه مشركوا العرب. والسابع: فيه المنافقون. فذلك قوله: {إِنَّ
=

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥).

{إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّات} بَسَاتِين {وَعُيُون} تَجْرِي فيها.

ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦).

ويقال لَهُمْ {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ} أَيْ سَالِمِينَ مِنْ كُلّ مَخُوف أَوْ مَعَ سَلَام أَيْ سَلِّمُوا وَادْخُلُوا {آمِنِينَ} مِنْ كُلّ فَزَع.

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧).

{ونزعنا ما في صدورهم من غل} حقد {إِخْوَانًا} حَال مِنْهُمْ {عَلَى سُرُر مُتَقَابِلِينَ} حَال أَيْضًا أَيْ لَا يَنْظُر بَعْضهمْ إِلَى قَفَا بَعْض لِدَوَرَانِ الْأَسِرَّة بِهِمْ.

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨).

{لَا يَمَسّهُمْ فِيهَا نَصَب} تَعَب {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} أَبَدًا.

نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩).

{نَبِّئْ} خَبِّرْ يَا مُحَمَّد {عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُور} لِلْمُؤْمِنِينَ {الرَّحِيم} بِهِمْ.

وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠).

{وَأَنَّ عَذَابِي} لِلْعُصَاةِ {هُوَ الْعَذَاب الْأَلِيم} الْمُؤْلِم(١).

=

الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ} [النساء: ١٤٥] الآية".

قال القشيري:"اجتمعوا اليوم فى أصل الضلالة، ثم الكفر ملل مختلفة، ثم يجتمعون غدا فى العقوبة وهم زمر مختلفون، لكلّ دركة من دركات جهنم قوم مخصّون".

(١) ذكر سبب النزول.

عن علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قال: فينا والله أهل بدر نزلت: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ

=

=

إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}.

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٤/ ٢٥) من طريق سفيان بن عيينة عن إسرائيل عن أبي موسى عن الحسن؛ قال: قال علي. وهذا إسناد ضعيف؛ لانقطاعه؛ فالحسن لم يسمع من علي.

وعن عبد الله بن مليل عن علي؛ قال: نزلت في ثلاثة أحياء من العرب: في بني هاشم وبني تميم وبني عدي، وفي أبي بكر وفي عمر.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٨٤) ونسبه لابن مردويه.

وعن علي بن الحسين: أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ}، قيل: وأي غل؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تميم، وبني عدي، وبني هاشم كان بينهم في الجاهلية عداوة، فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا، فأخذت أبا بكر الخاصرة، فجعل عليّ يسخن يده فيكمد بها خاصرة أبي بكر؛ فنزلت هذه الآية.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٨٥)، و"لباب النقول" (ص ١٣٢) ونسبه لابن أبي حاتم وابن عساكر من طريق كثير النواء؛ قال: قلت لأبي جعفر: إن فلانًا حدثني عن علي بن الحسين (فذكره). وهذا إسناد ضعيف؛ فيه علل: الأولى: كثير هذا هو ابن إسماعيل النواء؛ ضعيف؛ كما في "التقريب" (٢/ ١٣١). والثانية: جهالة الرجل الذي لم يسم. والثالثة: الإرسال.

وعن عبد الله بن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قال: نزلت في علي وطلحة والزبير.

ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٥/ ٨٥) ونسبه لابن مردويه.

وعنه -أيضًا- قال: نزلت في عشرة: في أبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وطلحة، والزبير، وسعد، وسعيد، وعبد الرحمن بن عوف، وابن مسعود.

أخرجه الشيرازي في "الألقاب"، وابن مردويه في "تفسيره"، وابن عساكر في

=

=

"تاريخه"؛ كما في "الدر المنثور" (٥/ ٨٥) من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس. والكلبي كذاب، ونحوه شيخه.

وعن سلمان؛ لما سمع قوله -تعالى-: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣)} فرّ ثلاثة أيام هاربًا من الخوف لا يعقل، فجيء به للنبي ﷺ، فسأله فقال: يا رسول الله! أنزلت هذه الآية: {وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣)} فوالذي بعثك بالحقّ لقد قطعت قلبي؛ فأنزل الله: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)}.

ذكره السيوطي في "لباب النقول" (ص ١٣١) ونسبه للثعلبي.

وعن عبد الله بن الزبير: أن النبي ﷺ مر بقوم يضحكون، فقال: "أتضحكون وذكر الجنة والنار بين أظهركم؟ "، قال: فما رئي أحد منهم ضاحكًا حتى مات، قال: ونزلت فيهم: {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)}.

أخرجه البزار في "البحر الزخار" (٦/ ١٧٤ رقم ٢٢١٦)، والطبراني في "المعجم الكبير" (ص ٢٦، ٢٧ رقم ١٤ - قطعة من المجلد ١٣) من طريق موسى بن عبيدة عن مصعب بن ثابت عن عبد الله بن الزبير به. وهذا إسناد ضعيف؛ فيه ثلاث علل:

الأولى: موسى بن عبيدة متفق على تضعيفه. والثانية والثالثة: مصعب بن ثابت ضعيف، وروايته عن جده عبد الله بن الزبير مرسلة.

ثم إن الحافظ ابن كثير ذكره في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ٥٧٣) ونسبه لابن أبي حاتم في "تفسيره" من طريق موسى بن عبيدة عن مصعب به مرسلًا، دون ذكر ابن الزبير، ثم قال: "وهو مرسل". وفيه موسى بن عبيدة، وهو ضعيف -أيضًا-.

وخالف موسى بن عبيدة ابنُ المبارك؛ فرواه عن مصعب بن ثابت، قال: ثنا عاصم بن عبيدة عن عطاء بن أبي رباح عن رجل من أصحاب النبي ﷺ؛ قال: طلع علينا

=

=

رسول الله ﷺ من الباب الذي يدخل منه بنو شيبة، فقال: "ألا أراكم تضحكون؟"، ثم أدبر حتى إذا كان عند الحجر رجع إلينا القهقرى، فقال: "إني لما خرجت جاء جبريل ﷺ، فقال: يا محمد! إن الله يقول: لم تقنط عبادي؟ {نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩) وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)}".

أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٤/ ٢٧)، وأبو نعيم الأصبهاني في "معرفة الصحابة" (٦/ ٣١٦٠ رقم ٧٢٧٤)، وابن مردويه؛ كما في "الدر المنثور" (٥/ ٨٦)، و"لباب النقول" (ص ١٣٢)، وابن منده في "معرفة الصحابة"؛ كما في "أسد الغابة" (٥/ ٤٣٦).

وعاصم ذا ضعيف؛ كما في "التقريب"، وبعضهم ترك حديثه وضعفه جدًا.

* قوله تعالى: {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)} [الحجر: ٤٥]

إن الذين اتقوا الله بامتثال ما أمر واجتناب ما نهى في بساتين وأنهار جارية.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن الذين اتقوا الله بطاعته وخافوه، فتجنبوا معاصيه في جنات وعيون".

قال مقاتل: " {المتقين} الشرك {في جنات وعيون}، يعني: بساتين وأنهار جارية".

قال السعدي:"يقول تعالى: {إن المتقين} الذين اتقوا طاعة الشيطان وما يدعوهم إليه من جميع الذنوب والعصيان {في جنات وعيون} قد احتوت على جميع الأشجار وأينعت فيها جميع الثمار اللذيذة في جميع الأوقات".

قال ابن كثير:"لما ذكر تعالى حال أهل النار، عطف على ذكر أهل الجنة، وأنهم في جنات وعيون".

قال الزمخشري:"المتقى على الإطلاق: من يتقى ما يجب اتقاؤه مما نهى عنه".

قال سهل:"المتقي في الدنيا في جنات الرضى يتقلب، وفي عيون الأنس يسبح، هذا

=

=

باطن الآية".

قال الماتريدي:"إن كان أهل الكبائر في قوله: {لها سبعة أبواب}، فيكون قوله: إن المتقين الذين اتقوا الكبائر؛ وإن كان أصحاب الكبائر لم يدخلوا في قوله: {لها سبعة أبواب}، فيكون قوله: {إن المتقين}، للذين اتقوا الشرك، وقوله ﷻ: {في جنات}، أي: في: بساتين، والبساتين: هي التي التفت بالأشجار والنخيل، والعيون قد تكون جارية في الدنيا، وقد تكون غير جارية، فأخبر في آية أخرى بأن عيون الآخرة تكون جارية؛ بقوله: {فِيهِمَا عَيْنَانِ تَجْرِيَانِ} [الرحمن: ٥٠].

{وعيون}: قال بعضهم: ذكر العيون؛ ليعلم أن مياه الجنة - ليست تكون من الثلوج والأنهار العظام - على ما تكون في الدنيا - ولكن تنبع فيها.

وقال بعضهم: ذكر العيون؛ لأنه ينبع في بستان كل أحد عين على حدة، لا يأتي بستانه من ملك آخر، ومن بستان آخر، على ما يكون في الدنيا؛ ولكن تنبع في جنة كل أحد عين على حدة، على ما أراد الله، ليس أنها تتصل بالأرض؛ كما ذكر في قصة بني إسرائيل: {فَانْفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا} [البقرة: ٦٠]، أنشأ الله في ذلك الحجر ما يخرج لهم على غير اتصاله بالأرض، ولكن بلطفه ينشئ فيه ماء، فعلى ذلك في الجنان التي وعد.

ويشبه أن يكون ذكر هذا لما يختلف رغائب الناس في الدنيا: منهم من يرغب في العين؛ ويتلذذ بالنظر إليها، ومنهم من يرغب في النهر الجاري، فذكر مرة العيون، ومرة الأنهار؛ كقوله: {تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ}، على ما ذكر مرة الخيام، والقباب، والغرف، وأنواع الفرش والبسط، والكيزان والأكواب، والجواري والغلمان، وغير ذلك على ما يرغب الناس في الدنيا: منهم من يرغب في نوع لا يرغب في نوع آخر؛ فذكر فيها كل ما يرغبون في الدنيا؛ ليبعثهم ذلك على العمل الذي به يوصل إلى ذلك".

=

=

وقرأ نبيح والجراح وأبو واقد ويعقوب في رواية رويس: «وعيون» بكسر العين، مثل: بيوت وشيوخ.

قوله تعالى: {ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦)} [الحجر: ٤٦]

أي: يقال لهم على وجه التكريم والترحيب (بسلام) أي: سالمين من الآفات ومن كل سوء.

وأيضا تسلم عليهم الملائكة، ويسلم بعضهم على بعض (آمنين) من الموت والنوم والنصب، واللغوب وانقطاع شيء من النعيم الذي هم فيه أو نقصانه ومن المرض، والحزن والهم وسائر المكدرات.

قال الطبري:"إن الذين اتقوا الله بطاعته وخافوه، فتجنبوا معاصيه في جنات وعيون، يقال لهم: {ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ} من عقاب الله، أو أن تُسلبوا نعمة أنعمها الله عليكم، وكرامة أكرمكم بها".

قال البغوي:"أي: يقال لهم ادخلوا الجنة {بسلام} أي: بسلامة {آمنين} من الموت والخروج والآفات".

قال ابن كثير:"أي: سالمين من الآفات، مسلمًا عليكم، {آمِنِينَ} من كل خوف وفزع، ولا تخشوا من إخراج، ولا انقطاع، ولا فناء".

قال ابن عطية:"«السلام» هاهنا يحتمل أن يكون السلامة، ويحتمل أن يكون التحية".

قال قتادة:"سلموا من عذاب الله وسلم الله عليهم".

قال ابن القيم:... فإنها دار السلامة من كل بلية وآفة ومكروه، وهي دار الله، واسمه سبحانه وتعالى السلام، الذي سلمها وسلم أهلها، وتحيتهم فيها سلام، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم، والرب تعالى يسلم عليكم من فوقهم كما قال تعالى (لهم فيها فاكهة ولهم ما يدعون سلام قولا من رب

=

=

رحيم).

قرأ الجمهور «ادخلوها» على الأمر، بمعنى: يقال لهم: «ادخلوها»، وقرأ رويس عن يعقوب «أدخلوها» على بناء الفعل للمفعول.

قوله تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧)} [الحجر: ٤٧].

هذا من جملة ما ينعم الله به على أهل الجنة، أن ينزع الله ما في قلوبهم من الغل على بعضهم بعضا، حتى تصفو قلوبهم ويود بعضهم بعضا، فإن الغل لو بقي في صدورهم كما كان في الدنيا، لكان في ذلك تنغيص لنعيم الجنة، لأن المتشاحنين لا يطيب لأحدهم عيش مع وجود الآخر.

عن أبي سعيد الخدري - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - قال: قال رسول الله ﷺ (يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقص لبعضهم من بعض، مظالم كانت بينهم في الدنيا، حتى إذا هذبوا ونقوا أذن لهم في دخول الجنة، فوالذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا) رواه البخاري.

قال تعالى (ونزعنا ما في صدورهم من غل إخوانا على سرر متقابلين).

والغل: الحقد الكامن في الصدور.

وهذا من أعظم اللذات: حيث يكون الإنسان خالدا مخلدا، وحيث يكون هو ورفقاؤه في ذلك النعيم ليس بين اثنين منهم شحناء ولا عداوة ولا حقد ولا حسد.

- والحكمة من ذلك:

قيل: حتى يكونوا إخوانا متحابين، وأخلاء متصافين.

وقيل: أن المراد منه أن درجات أهل الجنة متفاوتة بحسب الكمال والنقصان، فالله تعالى أزال الحسد عن قلوبهم حتى أن صاحب الدرجة النازلة لا يحسد صاحب

=

الدرجة الكاملة.

وقيل: قال ابن عطية: هذا إخبار من الله ﷻ أنه ينقي قلوب ساكني الجنة من الغل والحقد، وذلك أن صاحب الغل متعذب به ولا عذاب في الجنة.

قال الطبري:"يقول: وأخرجنا ما في صدور هؤلاء المتقين الذين وصف صفتهم من حقد وضغينة بعضهم لبعض".

قال ابن أبي زمنين:"يعني: ما كان بينهم في الدنيا من الحسد والضغائن".

قال البغوي: أي:"وأخرجنا، {ما في صدورهم من غل} من غش وعداوة كانت بينهم في الدنيا".

وفي قوله تعالى: {وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ} [الحجر: ٤٧]، أقوال:

أحدها: الأهواء والبدع، قاله سهل بن عبد الله.

والثاني: التباغض والتحاسد.

والثالث: الحقد.

والرابع: العداوة. قاله علي، والضحاك، وابن عيينة.

والخامس: نزع من نفوسهم أن يتمنوا ما لغيرهم.

السادس: أخرج ما في قلوبهم من الغش الذي كان في الدنيا بعضهم لبعض فصاروا متحابين. قاله مقاتل.

قال الزمخشري:"«الغل»: الحقد الكامن في القلب، من انغل في جوفه وتغلغل، أى: إن كان لأحدهم في الدنيا غل على آخر نزع الله ذلك من قلوبهم وطيب نفوسهم".

وفي نزعه وجهان:

أحدهما: أن الله نزع ذلك من صدورهم بلطفه.

والثاني: ان ما هداهم إليه من الإيمان هو الذي نزعه من صدورهم.

=

وفي هذا «الغل» قولان:

أحدهما: أنه غل الجاهلية، قاله الحسن، وأبو جعفر.

والثاني: أنهم لا يتعادون ولا يتحاقدون بعد الإيمان.

قال ابن عطية:"ذكر الله تعالى في هذه الآية أن ينزع الغل من قلوب أهل الجنة، ولم يذكر لذلك موطنا، وجاء في بعض الحديث أن ذلك على الصراط، وجاء في بعضها أن ذلك على أبواب الجنة، وفي لفظ بعضها أن الغل ليبقى على أبواب الجنة كمعاطن الإبل، وهذا على أن الله تعالى يجعل ذلك تمثيلا بلون يخلقه هناك ونحوه، وهذا كحديث ذبح الموت، وقد يمكن أيضا أن يسل من الصدور، ولذلك جواهر سود فيكون كمبارك الإبل، وجاء في بعض الأحاديث أن نزع الغل إنما يكون بعد استقرارهم في الجنة، والذي يقال في هذا أن الله ينزعه في موطن من قوم وفي موطن من آخرين".

قال أبو أمامة:"يدخل أهل الجنة الجنة على ما في صدورهم في الدنيا من الشحناء والضغائن، حتى إذا توافوا وتقابلوا نزع الله ما في صدورهم في الدنيا من غلّ، ثم قرأ {وَنزعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ}".

قال السدي:"إن أهل الجنة إذا سيقوا إلى الجنة فبلغوا، وجدوا عند بابها شجرة في أصل ساقها عينان، فشربوا من إحداهما، فينزع ما في صدورهم من غل، فهو «الشراب الطهور»، واغتسلوا من الأخرى، فجرت عليهم"نضرة النعيم"، فلم يشعثوا ولم يتسخوابعدها أبدا".

قال الحسن:"بلغني أن النبي ﷺ قال: يحبس أهل الجنة بعد ما يجوزون الصراط حتى يؤخذ لبعضهم من بعض ظلامتهم في الدنيا، فيدخلون الجنة وليس في قلوب بعضهم على بعض غل".

عن أبي نضرة قال:"يحبس أهل الجنة دون الجنة حتى يقضى لبعضهم من بعض،

=

=

حتى يدخلوا الجنة حين يدخلونها ولا يطلب أحد منهم أحدا بقلامة ظفر ظلمها إياه. ويحبس أهل النار دون النار حتى يقضى لبعضهم من بعض، فيدخلون النار حين يدخلونها ولا يطلب أحد منهم أحدا بقلامة ظفر ظلمها إياه".

قال القشيري:"أمر الخليل عليه السلام ببناء الكعبة وتطهيرها فقال: {وَطَهِّرْ بَيْتِيَ} [الحج:٢٦]، وأمر جبريل عليه السلام حتى غسل قلب المصطفى- ﷺ- فطهّره. وتولّى هو- سبحانه- بنفسه تطهير قلوب العاصين، فقال: {وَنَزَعْنا ما فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ} وذلك رفقا بهم، فقد يصنع الله بالضعيف ما يتعجّب منه القوى، ولو وكل تطهير قلوبهم إلى الملائكة لاشتهرت عيوبهم، فتولّى ذلك بنفسه رفقا بهم، ويقال قال: {ما فِي صُدُورِهِمْ} ولم يقل ما فى قلوبهم لأن القلوب فى قبضته يقلبها، وفى الخبر: «قلب المؤمن بين إصبعين من أصابع الرحمن»: يريد بذلك قدرته، فاستعمل لفظ «الإصبع» لذلك توسعا. وقيل بين إصبعين أي نعمتين".

قوله تعالى: {إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧]، أي:"حال كونهم إخوةً متحابين لا يكدّر صفوهم شيء، على سررٍ متقابلين وجهًا لوجه".

قال القرطبي:"أي: لا ينظر بعضهم إلى قفا بعض تواصلا وتحاببا".

قال البغوي: أي:"يقابل بعضهم بعضا، لا ينظر أحد منهم إلى قفا صاحبه، وفي بعض الأخبار: إن المؤمن في الجنة إذا ود أن يلقى أخاه المؤمن سار سرير كل واحد منهما إلى صاحبه فيلتقيان ويتحدثان".

وفي قوله تعالى: {مُتَقَابِلِينَ} [الحجر: ٤٧]، وجوه من التفسير:

أحدها: متقابلين بالوجوه يرى بعضهم بعضاً فلا يصرف طرفه عنه تواصلاً وتحابياً، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"لا ينظر أحدهم في قفا صاحبه".

=

=

قال ابن عباس:"أهل الجنة لا ينظر بعضهم في قفا بعض ثم قرأ {متكئين عليها متقابلين}".

الثاني: متقابلين بالمحبة والمودة، لا يتفاضلون فيها ولا يختلفون، قاله علي بن عيسى.

الثالث: متقابلين في المنزلة لا يفضل بعضهم فيها على بعض لاتفاقهم على الطاعة واستهوائهم في الجزاء، قاله أبو بكر بن زياد.

الرابع: متقابلين في الزيارة والتواصل، قاله قتادة.

وقال مقاتل:"فى الزيارة يرى بعضهم بعضا متقابلين على الأسرة يتحدثون".

الخامس: متقابلين قد أقبلت عليهم الأزواج وأقبلوا عليهم بالود، حكاه القاسم.

السادس: أن الأسرة تدور كيفما شاءوا، فلا يرى أحد قفا أحد. حكاه القرطبي.

قال ابن عطية:"{مُتَقابِلِينَ}، الظاهر أن معناه في الوجوه، إذ الأسرة متقابلة فهي أحسن في الرتبة".

قال ابن عباس: "على سرر مكللة بالياقوت والزبرجد والدر، السرير ما بين صنعاء إلى الجابية وما بين عدن إلى أيلة".

قال الماوردي:"قيل: إن هذه الآية نزلت في العشرة من قريش".

أخرج ابن مردويه من طريق عبد الله بن مليل عن علي في قوله: " {ونزعنا ما في صدورهم من غل} قال: نزلت في ثلاثة أحياء من العرب: في بني هاشم وبني تيم وبني عدي وفي أبي بكر وفي عمر".

وأخرج ابن أبي حاتم وابن عساكر عن كثير النواء قال: "قلت لأبي جعفر: إن فلانا حدثني عن علي بن الحسين أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وعمر وعلي: {ونزعنا ما في صدورهم من غل} قال: والله إنها لفيهم أنزلت وفيمن تنزل إلا فيهم، قلت: وأي غل هو؟ قال: غل الجاهلية، إن بني تيم وبني عدي وبني هاشم كان بينهم في

=

=

الجاهلية فلما أسلم هؤلاء القوم تحابوا وأخذت أبا بكر الخاصرة فجعل علي يسخن يده فيكوي بها خاصرة أبي بكر فنزلت هذه الآية".

عن إبراهيم، قال: "جاء ابن جرموز قاتل الزبير يستأذن على عليّ، فحجبه طويلا ثم أذن له فقال له: أما أهل البلاء فتجفوهم، قال عليّ: بفيك التراب، إني لأرجو أن أكون أنا وطلحة والزبير ممن قال الله: {وَنزعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}".

عن أبي حبيبة مولى لطلحة، قال: "دخل عمران بن طلحة على عليّ بعد ما فرغ من أصحاب الجمل، فرحَّب به وقال: إني لأرجو أن يجعلني الله وأباك من الذين قال الله {إِخْوَانًا عَلَى سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ}، ورجلان جالسان على ناحية البساط، فقالا الله: أعدل من ذلك، تقتلهم بالأمس وتكونون إخوانا؟ فقال: عليّ: قوما أبعد أرض وأسحقها. فمن هم إذن إن لم أكن أنا وطلحة؟".

عن زيد بن أبي أوفى قال: خرج علينا رسول الله ﷺ فتلا هذه الآية: {إخوانا على سرر متقابلين}: المتحابين في الله في الجنة ينظر بعضهم إلى بعض".

قوله تعالى: {لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ} [الحجر: ٤٨]، أي:"لا يصيبهم فيها تعب ولا إعياء".

قال الزجاج:"أي: لا ينالهم تعب".

قال أبو الليث:"يقول: لا يصيبهم في الجنة تعب، ولا مشقة".

قال ابن الجوزي:"أي: لا يصيبهم في الجنة إعياء وتعب".

قال ابن كثير:"يعني: المشقة والأذى، كما جاء في الصحيحين: «إن الله أمرني أن أبشر خديجة ببيت في الجنة من قصَب، لا صخب فيه ولا نصب»".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: لا يَمسّ هؤلاء المتقين الذين وصف صِفتهم في الجنات تَعَب".

=

=

قال القشيري:"أي: لا يلحقهم تعب لا بنفوسهم ولا بقلوبهم. وإذا أرادوا أمرا لا يحتاجون إلى أن ينتقلوا من مكان إلى مكان".

عن السدي في قوله: " {لا يمسهم فيها نصب}، قال: المشقة والأذى".

قال ابن عباس: "مِثْلُ نصب الدنيا، إذا مشى نصب، وإذا جامع نصب".

قال ابن عطية:"«النصب» التعب، يقع على القليل والكثير، ومن الكثير قول موسى عليه السلام لَقَدْ لَقِينا مِنْ سَفَرِنا هذا نَصَباً [الكهف: ٦٢] ومن ذلك قول الشاعر:

كِلِينِي لِهَمٍّ يَا أُمَيْمَةَ نَاصِب".

قال أبو حيان:"ولما كانت الدنيا محل تعب بما يقاسى فيها من طلب المعيشة، ومعاناة التكاليف الضرورية لحياة الدنيا وحياة الآخرة، ومعاشرة الأضداد، وعروض الآفات والأسقام، ومحل انتقال منها إلى دار أخرى مخوف أمرها عند المؤمن، لا محل إقامة، أخبر تعالى بانتفاء ذلك في الجنة بقوله: {لا يمسهم فيها نصب}، وإذا انتفى المس، انتفت الديمومة".

قوله تعالى: {وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ} [الحجر: ٤٨].

وهذا من أعظم نعيم الجنة، أنهم لا يخرجون منها، بل هم فيها خالدون، أبد الآبدين ودهر الداهرين.

وهذا من أعظم النعيم وبه يتم النعيم، لأن أكبر ما ينكد اللذائذ، وينغص اللذات، أن يعلم صاحبها أنه زائل عنها، وأنها زائلة عنه، فكل نعيم بعده موت فليس بنعيم، والنعيم إذا تيقن صاحبه الانتقال عنه صار غما.

فالفكرة بالزوال تكدر اللذات الحاضرة، ولذا كان النبي ﷺ يأمرهم أن يكثروا من ذكر الموت، ويقال للموت: هاذم اللذات، لأن من تذكره ضاعت عليه لذته التي هو فيها، لأنه يقطعها، ولهذا قال (خالدين فيها) لا يزول عنهم ذلك النعيم

=

=

فتتكدر غبطتهم.

قال ابن عباس:"يريد خلودًا لا زوال فيه".

قال أبو الليث:"أي: من الجنة".

قال الطبري:"يقول: وما هم من الجنة ونعيمها وما أعطاهم الله فيها بمخرجين، بل ذلك دائم أبدا".

قال السمعاني والبغوي:"قوله: {وما هم منها بمخرجين}، هذا أنص آية في القرآن على الخلود؛ هكذا قال أهل العلم".

وفي الحديث:"يقال لأهل الجنة يا أهل الجنة خلود لا موت ولأهل النار يا أهل النار خلود لا موت".

قوله تعالى: {نَبِّئْ عِبَادِي} [الحجر: ٤٩].

أي: أخبرهم خبرا جازما مؤيدا بالأدلة.

(أني أنا الغفور الرحيم) فإنهم إذا عرفوا كمال رحمته، ومغفرته سعوا في الأسباب الموصلة لهم إلى رحمته وأقلعوا عن الذنوب وتابوا منها، لينالوا مغفرته.

ومع هذا فلا ينبغي أن يتمادى بهم الرجاء إلى حال الأمن والإدلال، فنبئهم: (وأن عذابي هو العذاب الأليم) أي: لا عذاب في الحقيقة إلا عذاب الله الذي لا يقادر قدره ولا يبلغ كنهه نعوذ به من عذابه، فإنهم إذا عرفوا أنه (لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد) حذروا وأبعدوا عن كل سبب يوجب لهم العقاب.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أخبر عبادي يا محمد".

قال الواحدي:"أخبر أوليائي".

قال ابن كثير:"أي: أخبر يا محمد عبادي".

قوله تعالى: {أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ} [الحجر: ٤٩]، أي:"أني أنا الغفور للمؤمنين التائبين، الرحيم بهم".

=

=

قال ابن كثير:"أني ذو رحمة".

قال القاسمي:"أي: لمن تاب وآمن وعمل صالحا".

قال الطبري:"أني أنا الذي أستر على ذنوبهم إذا تابوا منها وأنابوا، بترك فضيحتهم بها وعقوبتهم عليها، الرحيم بهم أن أعذّبهم بعد توبتهم منها عليها".

قال البيضاوي:"في ذكر المغفرة دليل على أنه لم يرد بالمتقين من يتقي الذنوب بأسرها كبيرها وصغيرها، وفي توصيف ذاته بالغفران والرحمة دون التعذيب ترجيح الوعد وتأكيده".

قال أبو حيان:"وفي قوله: «نبئ» الآية، ترجيح جهة الخير من جهة أمره تعالى رسوله بهذا التبليغ، فكأنه إشهاد على نفسه بالتزام المغفرة، والرحمة. وكونه أضاف العباد إليه فهو تشريف لهم، وتأكيد اسم أن بقوله: «أنا»، وإدخال «ال» على هاتين الصفتين وكونهما جاءتا بصيغة المبالغة والبداءة بالصفة السارة أولا وهي «الغفران»، واتباعها بالصفة التي نشأ عنها الغفران وهي «الرحمة»... وناسب ذكر «الغفران والرحمة» اتصال ذلك بقوله: {إن المتقين}. وتقديما لهذين الوصفين العظيمين اللذين وصف بهما نفسه".

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لما خلق الله الخلق كتب في كتاب فهو عنده فوق العرش: إن رحمتي تغلب غضبي».

قال قتادة:"بلغنا أن نبي الله ﷺ قال: «لو يعلم العبد قدر عفو الله، لما تورع من حرام. ولو يعلم قدر عذابه، لجمع نفسه»".

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قدم على رسول الله ﷺ بسبي فإذا امرأة من السبي تبتغي إذ وجدت صبيا في السبي فأخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله ﷺ: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها في النار؟»، قلنا: لا والله، فقال: «لله أرحم بعباده من هذه بولدها».

=

=

عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: " لو يعلم المؤمن ما عند الله ﷻ من العقوبة، ما طمع بجنته أحد، ولو يعلم الكافر ما عند الله من الرحمة، ما قنط من رحمته أحد".
قال القرطبي:"وهكذا ينبغي للإنسان أن يذكر نفسه وغيره فيخوف ويرجي، ويكون الخوف في الصحة أغلب عليه منه في المرض.. فالقنوط إياس، والرجاء إهمال، وخير الأمور أوساطها".
قوله تعالى: {وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠)} [الحجر: ٥٠]
وأن عذابي هو العذاب المؤلم الموجع لغير التائبين.
قال الواحدي: أي:"لأعدائي".
قال القاسمي:"أي: لمن لم يتب من كفره".
قال الطبري:"يقول: وأخبرهم أيضا أن عذابي لمن أصرّ على معاصيّ وأقام عليها ولم يتب منها، هو العذاب الموجع الذي لا يشبهه عذاب. هذا من الله تحذير لخلقه التقدم على معاصيه، وأمر منه لهم بالإنابة والتوبة".
قال ابن كثير: أي:"وذو عقاب أليم، هذه الآية الكريمة، دالة على مقامي الرجاء والخوف، وذكر في سبب".
قال المراغي:"أي: وأخبرهم أيضا بأن عذابى لمن أصر على معاصى وأقام عليها ولم يتب منها- هو العذاب المؤلم الموجع الذي لا يشبهه عذاب آخر، وفى هذا تهديد شديد وتحذير لخلقه أن يقدموا على معاصيه، ومن الأمر لهم بالإنابة والتوبة، والخلاصة- إن الله جمع لعباده بين التبشير والتحذير، ليكونوا على قدمى الرجاء والخوف، وحال الأنس والهيبة".
قال أبو العالية:"الأليم: الموجع في القرآن كله"، وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك، والضحاك، وقتادة، وأبي عمران الجوني، نحو ذلك.
قال قتادة:"بلغنا أن نبيّ الله ﷺ قال: "لَوْ يَعلمُ العبدُ قَدْر عَفْوِ اللهِ لما تورّعَ من

=

وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١).

{وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْف إبْرَاهِيم} وَهُمْ الْمَلَائِكَة اثْنَا عَشَر أَوْ عَشْرَة أَوْ ثَلَاثَة مِنْهُمْ

=

حرام، وَلَو يَعلم قَدْر عَذَابِهِ لَبخَع نفسَه".

قال أبو حيان:"جاء قوله: {وأن عذابي}، في غاية اللطف إذ لم يقل على وجه المقابلة: وأني المعذب المؤلم، كل ذلك ترجيح لجهة العفو والرحمة".

قال الشوكاني:"أمره بأن يذكر لهم شيئا مما يتضمن التخويف والتحذير حتى يجتمع الرجاء والخوف، ويتقابل التبشير والتحذير ليكونوا راجين خائفين فقال: {وأن عذابي هو العذاب الأليم}، أي: الكثير الإيلام، وعند ما جمع الله لعباده بين هذين الأمرين من التبشير والتحذير صاروا في حالة وسطا بين اليأس والرجاء، وخير الأمور أوساطها، وهي القيام على قدمي الرجاء والخوف، وبين حالتي الأنس والهيبة".

-قال ابن عاشور: وإنما قدم الأمر بإعلام الناس بمغفرة الله وعذابه ابتداء بالموعظة الأصلية قبل الموعظة بجزئيات حوادث الانتقام من المعاندين وإنجاء من بينهم من المؤمنين لأن ذلك دائر بين أثر الغفران وبين أثر العذاب.... وقدمت المغفرة على العذاب لسبق رحمته غضبه.

- قال الرازي: اعلم أنه سبحانه وتعالى ما ذكر في القرآن آية في الوعيد إلا وذكر بجنبها آية في الوعد، وذلك لفوائد:

أحدها: ليظهر بذلك عدله سبحانه، لأنه لما حكم بالعذاب الدائم على المصرين على الكفر وجب أن يحكم بالنعيم الدائم على المصرين على الإيمان.

وثانيها: أن المؤمن لا بد وأن يعتدل خوفه ورجاؤه.

وثالثها: أنه يظهر بوعده كمال رحمته وبوعيده كمال حكمته فيصير ذلك سببا للعرفان.

جِبْرِيل.

إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢).

{إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا} أَيْ هَذَا اللَّفْظ {قَالَ} إِبْرَاهِيم لَمَّا عَرَضَ عَلَيْهِمْ الْأَكْل فَلَمْ يَأْكُلُوا {إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ} خَائِفُونَ.

قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣).

{قَالُوا لَا تَوْجَل} لَا تَخَفْ {إِنَّا} رُسُل رَبّك {نُبَشِّرك بِغُلَامٍ عَلِيم} ذِي عِلْم كَثِير هُوَ إِسْحَاق كَمَا ذَكَرْنَا فِي سُورَة هُود.

قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) .

{قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي} بِالْوَلَدِ {عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَر} حال أي مع مسه إياي {فبم} فبأي شيء {تبشرون} استفهام تعجب.

قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥).

{قَالُوا بَشَّرْنَاك بِالْحَقِّ} بِالصِّدْقِ {فَلَا تَكُنْ مِنَ القانطين} الآيسين.

قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦).

{قَالَ وَمَنْ} أَيْ لَا {يَقْنَط} بِكَسْرِ النُّون وَفَتْحهَا {مِنْ رَحْمَة رَبّه إِلَّا الضَّالُّونَ} الْكَافِرُونَ[1].

---

(١) قوله تعالى: {وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١)} [الحجر: ٥١]

يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ (ونبئهم عن ضيف إبراهيم) أي: عن تلك القصة العجيبة فإن في قصك عليهم أنباء الرسل وما جرى لهم ما يوجب لهم العبرة والاقتداء بهم، خصوصا إبراهيم الخليل، الذي أمرنا الله أن نتبع ملته، وضيفه هم الملائكة الكرام أكرمه الله بأن جعلهم أضيافه.

-قال القرطبي: ضيف إبراهيم: الملائكة الذين بشروه بالولد وبهلاك قوم لوط.

=

=

-وقال ابن عاشور: و (ضيف إبراهيم) الملائكة الذين تشكلوا بشكل أناس غرباء مارين ببيته.

كما قال تعالى في هود (ولقد جآءت رسلنآ إبراهيم بالبشرى قالوا سلاما قال سلام فما لبث أن جآء بعجل حنيذ).

-قال البقاعي: والضيف هو المنضم إلى غيره لطلب القرى، فهؤلاء سموا بهذا الاسم لأنهم على صورة الضيف، فهو من دلالة التضمن.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: وأخبر عبادي يا محمد عن ضيف إبراهيم: يعني الملائكة الذين دخلوا على إبراهيم خليل الرحمن حين أرسلهم ربهم إلى قوم لوط ليهلكوهم".

قال ابن كثير:"يقول تعالى: وخبرهم يا محمد عن قصة {ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ} والضيف: يطلق على الواحد والجمع، كالزور والسَّفْر".

قال الثعلبي:"يعني الملائكة الذين أرسلهم الله ليبشروا إبراهيم بالولد ويهلكوا قوم لوط".

قال أبو الليث:"أي: عن أضياف إبراهيم، إلا أن هذا اللفظ مصدر، والمصدر لا يثنى ولا يجمع، وذلك حين بعث الله تعالى جبريل في اثني عشر من الملائكة".

قال الماتريدي:"أي: نبئهم بتمام ما فيه من الزجر والموعظة؛ لأن في ذلك أخبار ما نزل بالمكذبين؛ بتكذيبهم الرسل، وهو الإهلاك، ونجاة من صدق الرسل، ففيه تمام ما يزجرهم، ويعظهم، من الترهيب والترغيب، فإن فيهم آية لرسالتك ونبوتك؛ لأنه يخبرهم على ما في كتبهم لم يشهدها هو، فيدلهم أنه إنما عرف ذلك بالله، أو نبئهم؛ فإن ذلك ما يزجرهم عن مثل صنيعهم، وفيه ذكر نعم الله؛ لأنهم جاءوا بالبشارة؛ بشارة الولد، وجاءوا بإهلاك قوم مجرمين، فذلك بالذي يزجرهم عن مثله، والبشارة ترغبهم في مثل صنيع إبراهيم، فنبئهم فإن فيه ما ذكرنا. ودل

=

=

قوله: {ضيف إبراهيم}، أن الضيف اسم لكل نازل على آخر، طعم عنده أو لم يطعم، وكان نزله للطعام أو لا".

وفي اسم «إبراهيم»، وجهان:

أحدهما: أنه اسم أعجمي، وهذا قول الأكثرين. وقيل معناه: «أب رحيم».

الثاني: أنه عربي مشتق من «البرهمة» وهي: إدامة النظر.

قال الفخر:"اعلم أنه تعالى لما بالغ في تقرير أمر النبوة ثم أردفه بذكر دلائل التوحيد، ثم ذكر عقيبه أحوال القيامة وصفة الأشقياء والسعداء، أتبعه بذكر قصص الأنبياء عليهم السلام ليكون سماعها مرغبا في الطاعة الموجبة للفوز بدرجات الأنبياء، ومحذرا عن المعصية لاستحقاق دركات الأشقياء، فبدأ أولا بقصة إبراهيم عليه السلام، والضمير، في قوله: ونبئهم راجع إلى قوله: عبادي والتقدير: ونبئ عبادي عن ضيف إبراهيم، يقال: أنبأت القوم إنباء ونبأتهم تنبئة: إذا أخبرتهم، وذكر تعالى في الآية أن ضيف إبراهيم عليه السلام بشروه بالولد بعد الكبر. وبإنجاء المؤمنين من قوم لوط من العذاب وأخبروه أيضا بأنه تعالى سيعذب الكفار من قوم لوط بعذاب الاستئصال، وكل ذلك يقوي ما ذكره من أنه غفور رحيم للمؤمنين، وأن عذابه عذاب أليم في حق الكفار".

فإن قيل: "كيف سماهم ضيفا مع امتناعهم عن الأكل؟

قلنا: لما ظن إبراهيم أنهم إنما دخلوا عليه لطلب الضيافة جاز تسميتهم بذلك. وقيل أيضا: إن من يدخل دار الإنسان ويلتجئ إليه يسمى ضيفا وإن لم يأكل".

قوله تعالى: {إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا} [الحجر: ٥٢]، أي:"حين دخلوا عليه فقالوا: سلامًا".

قال الطبري: يقول" فقال الضيف لإبراهيم: سلاما".

قال أبو الليث:"أي: [دخلوا] على إبراهيم، فسلموا عليه".

=

=

قال الفخر:"أي: نسلم عليك سلاما أو سلمت سلاما".

وفي قوله تعالى: {فَقَالُوا سَلَامًا} [الحجر: ٥٢]،، وجهان:

أحدهما: تحية من الملائكة لإبراهيم عليه السلام فحياهم بمثله فدل على أن السلام تحية الملائكة والمسلمين جميعاً.

الثاني: سلمت أنت وأهلك من هلاك قوم لوط.

قال الزمخشري:"«سلاما»، أي: نسلم عليك سلاما، أو سلمت سلاما".

واختلف في «السلم» و «السلام» على وجهين:

أحدهما: أن السلم من المسالمة والسلام من السلامة.

الثاني: أنهما بمعنى واحد، قال الشاعر، وقد أنشده الفراء لبعض العرب:

مَرَرْنَا فَقُلْنَا إِيهِ سِلْمٌ فَسَلَّمَتْ كَمَا اكْتَلَّ بِالبَرْقِ الغَمَامُ اللَّوَائِحُ

حكي الماتريدي عن أبي بكر الأصم، قال: "السلام جعله الله أمانا بين الخلق، وعطفا فيما بينهم، وسببا لإخراج الضغائن من قلوبهم".

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ} [الحجر: ٥٢].

أي: خائفون، لأنه لما دخلوا عليه وحسبهم ضيوفا ذهب مسرعا إلى بيته فأحضر لهم ضيافتهم، عجلا حنيذا فقدمه إليهم، فلما رأى أيديهم لا تصل، إليه خاف منهم أن يكونوا لصوصا أو نحوهم.

كما قال تعالى (فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة).

لم يبين تعالى في هذ الآية الكريمة هل رد إبراهيم السلام على الملائكة أولا لأنه لم يذكر هنا رده السلام عليهم وإنما قال عنه إنه قال لهم إنا منكم وجلون وبين في هود والذاريات أنه رد عليهم السلام بقوله في هود (قال سلام فما لبث أن جآء بعجل حنيذ).

وقوله في الذاريات (إذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام قوم منكرون فراغ إلى

=

=

أهله فجآء بعجل سمين).

-قال البقاعي: الوجل: اضطراب النفس لتوقع ما يكره.

-قال ابن عطية: وإنما وجل إبراهيم عليه السلام منهم لما قدم إليهم العجل الحنيذ فلم يرهم يأكلون، وكانت عندهم العلامة المؤمنة أكل الطعام، وكذلك هو في غابر الدهر أمنة للنازل والمنزول به.

قال الطبري: " يقول: قال إبراهيم: إنا منكم خائفون".

قال الزمخشري: أي: "خائفون، وكان خوفه لامتناعهم من الأكل. وقيل: لأنهم دخلوا بغير إذن وبغير وقت".

قال ابن كثير:"أي: خائفون. وقد ذكر سبب خوفه منهم لما رأى أيديهم لا تصل إلى ما قربه لهم ضيافة، وهو العجل السمين الحنيذ".

قال الفخر:"وكان خوفه لامتناعهم من الأكل. وقيل: لأنهم دخلوا عليه بغير إذن وبغير".

قال الكلبي: "فأنكرهم إبراهيم في تلك الأرض، لأنهم لم يطعموا من طعامه".

قال الماتريدي:"يقول بعض أهل التأويل: إنما خاف؛ لأنه ظن أنهم لصوص وأهل ريبة، لكن هذا لا يحتمل أن يخاف منهم؛ ويظن أنهم لصوص وأهل ريبة، وقد سلموا عليه وقت ما دخلوا عليه، واللصوص وأهل الريبة إذا دخلوا بيت آخر لا يسلمون عليه، لكنه إنما خافهم إذ رأى أيديهم لا تصل إليه؛ كما قال: {فلما رأى أيديهم لا تصل إليه نكرهم وأوجس منهم خيفة}، عند ذلك خافهم؛ فلما رأى ذلك ظن إبراهيم أنهم ملائكة؛ إنما جاءوا لأمر عظيم؛ حيث لم يتناولوا مما قرب إليهم؛ وبين إبراهيم وبين المكان الذي يرتحل منه - مكان يقع لهم الحاجة إلى الطعام".

قال السدّي: "لما بعث الله الملائكة لقوم لوط أقبلت تمشي في صُور رجال شبان

=

=

حتى نزلوا على إبراهيم فتضيفوه، فلما رآهم إبراهيم أجَلَّهم، {فَرَاغَ إِلَى أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ} فذبحه ثم شواه في الرضف، فهو الحنيد حين شواه، وأتاهم به فقعد معهم، وقامت سارة تخدمهم فذلك حين يقول: «وامرأته قائمة وهو جالس» في قراءة ابن مسعود: "فلما قَربه إليهم قال ألا تأكلون قالوا: يا إبراهيم إنا لا نأكل طعاما إلا بثمن. قال فإن لهذا ثمنا. قالوا: وما ثمنه؟ قال: تذكرون اسم الله على أوله، وتحمدونه على آخره فنظر جبريل إلى ميكائيل فقال: حُق لهذا أن يتخذه ربه خليلا"، {فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ} يقول: فلما رآهم لا يأكلون فزع منهم، وأوجس منهم خيفة، فلما نظرت إليه سارة أنه قد أكرمهم وقامت هي تخدمهم، ضحكت وقالت: عجبا لأضيافنا هؤلاء، إنا نخدمهم بأنفسنا كرامة لهم، وهم لا يأكلون طعامنا".

روي عن نوح بن قيس عن عثمان بن مِحْصن -في ضيف إبراهيم- قال: "كانوا أربعة: جبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ورفائيل. قال نوح بن قيس: فزعم نوح بن أبي شداد أنهم لما دخلوا على إبراهيم، فقرب إليهم العجل، مسحه جبريل بجناحه، فقام يدرج حتى لحق بأمه، وأم العجل في الدار".

قوله تعالى: {قَالُوا لَا تَوْجَلْ} [الحجر: ٥٣]، أي:"قالت الملائكة له: لا تفزع".

قال الطبري: " يقول: قال الضيف لإبراهيم: لا تخف".

قال ابن كثير:"أي: لا تخف".

عن عكرمة:"{قالوا لا توجل}، قالوا: لا تخف".

قرأ الحسن: «لا توجل»، بضم التاء من: أوجله يوجله إذا أخافه. وقرئ: «لا تأجل». و «لا تواجل»، من: واجله، بمعنى: أوجله.

قوله تعالى: {إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ} [الحجر: ٥٣]، أي:"جئنا نبشرك بولد كثير العلم بالدين، هو إسحاق".

=

=

قال مجاهد:"يعني: إسماعيل".

وقال ابن كثير:"وهو إسحاق، عليه السلام".

قال الزمخشري:"{إنا نبشرك}، استئناف في معنى التعليل للنهى عن «الوجل»، أرادوا: أنك بمثابة الآمن المبشر فلا توجل".

قال الماتريدي:"وقال في آية أخرى: {فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ} [الصافات: ١٠١]، «الحلم»: هو الذي ينفي عن صاحبه كل أخلاق دنية، و «العلم»: هو الذي يدعو صاحبه إلى كل خلق رفيع؛ ليعلم أنه اجتمع فيه جميع الخصال الرفيعة، ونفى عنه كل خلق دنيء".

قوله (نبشرك بغلام عليم) وهو إسحاق عليه الصلاة والسلام، تضمنت هذه البشارة بأنه ذكر لا أنثى عليم أي: كثير العلم، وفي الآية الأخرى (وبشرناه بإسحاق نبيا من الصالحين).

-قال الشنفيطي: وهذا الغلام بين تعالى أنه هو إسحاق كما يوضح ذلك قوله في الذاريات (وبشروه بغلام عليم فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم) لأن كونها أقبلت في صرة أي صيحة وضجة وصكت وجهها أي لطمته قائلة إنها عجوز عقيم يدل على أن الولد المذكور هي أمه كما لا يخفى.

ويزيده إيضاحا تصريحه تعالى ببشارتها هي بأنها تلده مصرحا باسمه واسم ولده يعقوب وذلك في قوله تعالى في هود في القصة بعينها (وامرأته قآئمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن ورآء إسحاق يعقوب قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا إن هذا لشيء عجيب).

وقد حكى- سبحانه- هنا أن البشارة كانت له، وفي سورة هود أن البشارة كانت لامرأته، ومعنى ذلك أنها كانت لهما معا، إما في وقت واحد، وإما في وقتين

=

=

متقاربين بأن بشروه هو أولا، ثم جاءت امرأته بعد ذلك فبشروها أيضا، ويشهد لذلك قوله تعالى (وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب).

وقرئ: «نبشرك»، بفتح النون والتخفيف.

قوله تعالى: {قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ} [الحجر: ٥٤]، أي:"قال إبراهيم أبشرتموني بالولد على حالة الكبر والهرم".

قال الطبري: " قال إبراهيم للملائكة الذين بشَّروه بغلام عليم: فبأي شيء تبشرون".

قال الماتريدي:"أبشرتموني أن يولد لي، وأنا على الحال التي أنا عليها، أو يرد إلي شبابي وشباب امرأتي".

قال الزمخشري:"يعنى: أبشرتموني مع مس الكبر، بأن يولد لي. أى: أن الولادة أمر عجيب مستنكر في العادة مع الكبر".

قال ابن كثير:"ثم قال متعجبًا من كبره وكبر زوجته ومتحققًا للوعد: {أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ}".

عن مجاهد: " {عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ}، ومعناه: لأن مسني الكبر وبأن مسني الكبر".

والاستفهام للتعجب. كأنه عجب من أن يرزقه الله- تعالى- بغلام عليم بعد أن مسه الكبر، وبلغ سن الشيخوخة، و «على» بمعنى مع.

أي: قال إبراهيم للملائكة، بعد أن بشروه بالولد، أبشرتموني بذلك مع أن الكبر قد أصابني، والشيخوخة قد اعترتني فبأي شيء عجيب قد بشرتموني.

وتعجب إبراهيم إنما هو من كمال قدرة الله- تعالى- ونفاذ أمره، حيث وهبه هذا الغلام في تلك السن المتقدمة بالنسبة له ولامرأته، والتي جرت العادة أن لا يكون

=

=

معها إنجاب الأولاد.

وقد حكى القرآن هذا التعجب على لسان امرأة إبراهيم في قوله تعالى (قالت يا ويلتى أألد وأنا عجوز وهذا بعلي شيخا، إن هذا لشيء عجيب).

وصرح في هود بأن امرأته أيضا قالت إنه شيخ كبير في قوله عنها (وهذا بعلي شيخا) كما صرح عنها هي أنها وقت البشرى عجوز كبيرة السن وذلك كقوله في هود (يا ويلتى أألد وأنا عجوز) الآية، وقوله في الذاريات: (فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم).

وبين في موضع آخر عن نبيه إبراهيم أنه وقت هبة الله له ولده إسماعيل أنه كبير السن أيضا وذلك قوله تعالى (الحمد لله الذي وهب لي على الكبر إسماعيل وإسحاق إن ربي لسميع الدعآء).

فإن قيل: كيف استبعد قدرة الله تعالى على خلق الولد منه في زمان الكبر وإنكار قدرة الله تعالى في هذا الموضع كفر. قال القاضي: أحسن ما قيل في الجواب عن ذلك أنه أراد أن يعرف أنه تعالى يعطيه الولد مع أنه يبقيه على صفة الشيخوخة أو يقلبه شابا، ثم يعطيه الولد، والسبب في هذا الاستفهام أن العادة جارية بأنه لا يحصل الولد حال الشيخوخة التامة وإنما يحصل في حال الشباب.

قال ابن الجوزي رحمه الله: وهذا استفهام تعجب كأنه عجب من الولد على كبره.

قال القشيري:"وإنّ الكبير قد فاته الوقت الذي يفرح فيه من الدنيا بشئ".

قوله تعالى: {فَبِمَ تُبَشِّرُونَ} [الحجر: ٥٤]، أي:"فبأي شيء تبشروني؟".

قال القشيري: أي:"بماذا تبشروني وقد طعنت فى السنّ، وعن قريب أرتحل إلى الآخرة؟".

قال الماتريدي: أي:"على الحال التي أنا عليها وامرأتي، أو يرد الشباب إلينا، وإلا لا يحتمل أن يخفى عليه قدرة الله هبة الولد في حال الكبر، لكنه لم ير الولد يولد في

=

=

تلك الحال، فاستخبرهم أنه يولد في تلك الحال، أو يرد إلى حالة أخرى حالة الشباب".

قال الزمخشري:"{فبم تبشرون}، هي «ما» الاستفهامية، دخلها معنى التعجب، كأنه قال: فبأى أعجوبة تبشروني. أو أراد: أنكم تبشرونني بما هو غير متصور في العادة، فبأى شيء تبشرون، يعنى: لا تبشرونني في الحقيقة بشيء، لأن البشارة بمثل هذا بشارة بغير شيء. ويجوز أن لا يكون صلة لبشر، ويكون سؤالا عن الوجه والطريقة يعنى: بأى طريقة تبشرونني بالولد، والبشارة به لا طريقة لها في العادة".

قال الصابوني:"قال ذلك على وجه التعجب والاستبعاد".

وفي قوله تعالى: {فَبِمَ تُبَشِّرُونَ} [الحجر: ٥٤]، وجهان:

أحدهما: أنه قال ذلك استفهاماً لهم، هل بشروه بأمر الله؟ ليكون أسكن لنفسه.

الثاني: أنه قال ذلك تعجباً من قولهم، قاله مجاهد.

قال مجاهد:"عجب من كبره، وكبر امرأته".

وقرئ: «تبشرون»، بفتح النون وبكسرها على حذف نون الجمع، والأصل «تبشرونن»، و «تبشرون» بإدغام نون الجمع في نون العماد.

والأصل في «تبشرون»: "تبشرونني؛ فحذفت أحد النونين؛ لاستثقال جمعهما هذا فيمن قرأها بكسر النون".

قوله تعالى: {قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ} [الحجر: ٥٥]، أي:"قالوا: بشَّرناك بالحق الذي أعلمَنا به الله".

قال الطبري: " قال ضيف إبراهيم له: بشرناك بحقّ يقين، وعلم منَّا بأن الله قد وهب لك غلاما عليما".

قال البغوي: {بِالْحَقِّ}، " أي: بالصدق".

=

=

قال الواحدي: {بِالْحَقِّ}، أي: "بما قضاه الله أن يكون".

قال السمعاني: "«الحق»: وضع الشيء في موضعه على ما تدعو إليه الحكمة.. ومعنى «الحق» -هاهنا- هو: الصدق".

قال الزمخشري: "قوله: {بشرناك بالحق}، يحتمل أن تكون الباء فيه صلة، أى: بشرناك باليقين الذي لا لبس فيه، أو بشرناك بطريقة هي حق وهي قول الله ووعده، وأنه قادر على أن يوجد ولدا من غير أبوين، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر".

قوله تعالى: {فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ} [الحجر: ٥٥]، أي: "فلا تكن من اليائسين أن يولد لك،

الذين يستبعدون وجود الخير، بل لا تزال راجيا لفضل الله وإحسانه، وبره وامتنانه".

قال ابن عاشور: فقالوا: (فلا تكن من القانطين) ذلك أنه لما استبعد ذلك استبعاد المتعجب من حصوله: كان ذلك أثرا من آثار رسوخ الأمور المعتادة في نفسه، بحيث لم يقلعه منها الخبر الذي يعلم صدقه، فبقي في نفسه بقية من التردد في حصول ذلك، فقاربت حاله تلك حال الذين ييأسون من أمر الله، ولما كان إبراهيم عليه السلام منزها عن القنوط من رحمة الله: جاءوا في موعظته بطريقة الأدب المناسب، فنهوه عن أن يكون من زمرة القانطين، تحذيرا له مما يدخله في تلك الزمرة، ولم يفرضوا أن يكون هو قانطا، لرفعة مقام نبوءته عن ذلك، وهو في هذا المقام كحاله في مقام ما حكاه الله عنه من قوله: (أرني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) البقرة/ ٢٦٠، وهذا النهي كقول الله تعالى لنوح عليه السلام: (إني أعظك أن تكون من الجاهلين) هود/ ٤٦ ا.هـ

وقال الشنقيطي: ولا ينافي كون استفهام إبراهيم للتعجب من كمال قدرة الله: قول الملائكة له فيما ذكر الله عنهم: (قالوا بشرناك بالحق فلا تكن من القانطين)

=

=

الحجـر/ ٥٥، بـدليل قولـه: (قـال ومـن يقـنط مـن رحمـة ربـه إلا الـضآلون) الحجر/ ٥٦، لأنه دليل على أن استفهامه ليس استفهام منكر، ولا قانط ا.هـ

فإبراهيم عليه السلام لم يقنط من رحمة الله، ولا يجوز أن ينسب ذلك إلى الأنبياء، فهم أكمل البشر علما وعملا.

بل لا يجوز لأحد من المؤمنين أن ييأس ويقنط من رحمة الله.

عن السدي:"{من القانطين}، قال: الآيسين".

قال الطبري: " فلا تكن من الذين يقنطون من فضل الله فييأسون منه، ولكن أبشر بما بشرناك به واقبل البُشرى".

قال الماتريدي:"الأنبياء قد نهوا عن أشياء قد عصموا عنها ما لا يحتمل أن يكون منهم ما نهوا عنه؛ نحو قوله: {فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ} [آل عمران: ٦٠]، {وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [يونس: ١٠٥]، و {مِنَ الظَّالِمِينَ}، {الكافرين}، وأمثاله، وذلك مما لا يتوهم كونه منهم؛ وذلك لما ذكرنا أن العصمة لا ترفع المحنة؛ لأنها لو رفعت لذهبت فائدة العصمة؛ لأنها إنما يحتاج إليها عند المحنة، وأما إذا لم يكن محنة فلا حاجة تقع إليها، فعلى ذلك إبراهيم لم يكن قنط من رحمة ربه؛ أنه لا يهب له الولد في حال كبره".

قال الزجاج:"«القنوط» بمعنى: اليأس".

وقرأ يحيى بن وثاب: «القَنِطِينَ».

قوله تعالى: {قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦)} [الحجر: ٥٦]

الذين لا علم لهم بربهم، وكمال اقتداره وأما من أنعم الله عليه بالهداية والعلم العظيم، فلا سبيل إلى القنوط إليه لأنه يعرف من كثرة الأسباب والوسائل والطرق لرحمة الله شيئا كثيرا، ثم لما بشروه بهذه البشارة، عرف أنهم مرسلون لأمر مهم.

قال ابن كثير:"فأجابهم بأنه ليس يقنط، ولكن يرجو من الله الولد، وإن كان قد كبر

=

=

وأسنَّت امرأته، فإنه يعلم من قدرة الله ورحمته ما هو أبلغ من ذلك".

قال السمعاني:"يعني: إلا الكافرون، والقنوط من رحمة الله كبيرة من الكبائر كالأمن من مكر الله".

قال البغوي:"{الضالون}، أي: الخاسرون".

قال الزمخشري:"أراد: ومن يقنط من رحمة ربه إلا المخطئون طريق الصواب، أو إلا الكافرون، كقوله: {لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ} [يوسف: ٨٧]، يعنى: لم أستنكر ذلك قنوطا من رحمته، ولكن استبعادا له في العادة التي أجراها الله".

قال الماتريدي:"أخبر أن القنوط من رحمة الله هو ضلال، والإياس من رحمته كفر، فعندهم تضيق رحمته حتى لا يسع فيها الكبائر، والمعتزلة يقنطون من رحمة ربهم؛ لقولهم في أصحاب الكبائر ما يقولون".

-قال البيضاوي: وكان تعجب إبراهيم - عليه السلام -، باعتبار العادة دون القدرة، فإن الله تعالى قادر على أن يخلق بشرا من غير أبوين، فكيف من شيخ فان وعجوز عاقر؟ ولذلك أجابهم بذلك الجواب.

-وفي هذا تحريم القنوط من رحمة الله، لأنه سوء ظن بالله، وذلك من وجهين:

الوجه الأول: أنه طعن في قدرته سبحانه.

الوجه الثاني: أنه طعن في رحمته سبحانه.

عن ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر، فقال: (الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله). رواه البزار والطبراني بسند حسن

-قال الرازي: هذا الكلام حق، لأن القنوط من رحمة الله تعالى لا يحصل إلا عند الجهل بأمور:

أحدها: أن يجهل كونه تعالى قادرا عليه.

=

=

وثانيها؛ أن يجهل كونه تعالى عالما باحتياج ذلك العبد إليه.
وثالثها: أن يجهل كونه تعالى منزها عن البخل والحاجة والجهل فكل هذه الأمور سبب للضلال، فلهذا المعنى قال (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضآلون).
-قال الخازن: فيه دليل على أن إبراهيم عليه السلام لم يكن من القانطين، ولكنه استبعد حصول الولد على الكبر فظنت الملائكة أن به قنوطا فنفى ذلك عن نفسه، وأخبر أن القانط من رحمة الله تعالى من الضالين لأن القنوط من رحمة الله كبيرة، كالأمن من مكر الله ولا يحصل إلا عند من يجهل كون الله تعالى قادرا على ما يريد، ومن يجهل كونه سبحانه وتعالى عالما بجميع المعلومات فكل هذه الأمور سبب للضلالة.
عن السدي:"{ومن يقنط من رحمة ربه}، قال: من ييأس من رحمة ربه".
روى ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر؟ فقال: "الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله".
عن ابن مسعود قال: "أكبر الكبائر الشرك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من روح الله".
عن سفيان بن عيينة قال: "من ذهب يقنط الناس من رحمة الله، أو يقنط نفسه فقد أخطأ، ثم نزع بهذه الآية: {ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون}".
عن موسى بن علي، عن أبيه قال: بلغني إن نوحا عليه السلام قال لابنه سام: يا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الشرك بالله فإنه من يأت الله عز وجل مشركا فلا حجة له. ويا بني، لا تدخل القبر وفي قلبك مثقال ذرة من الكبر فإن الكبر رداء الله، فمن ينازع الله رداءه يغضب الله عليه. ويا بني، لا تدخلن القبر وفي قلبك مثقال ذرة من القنوط فإنه لا يقنط من رحمة الله إلا ضال".
قال الطحاوي: "الأمن والإياس ينقلان عن ملة الإسلام، وسبيل الحق بينهما
=

قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧).

{قال فما خطبكم} شأنكم {أيها المرسلون}.

قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨).

{قَالُوا إِنَّا أُرْسِلنَا إِلَى قَوْم مُجْرِمِينَ} كَافِرِينَ أَيْ قَوْم لُوط لِإِهْلَاكِهِمْ.

إِلَّا آَلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩).

{إِلَّا آل لُوط إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ} لِإِيمَانِهِمْ.

إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠).

{إِلَّا امْرَأَته قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ} الْبَاقِينَ فِي الْعَذَاب لِكُفْرِهَا.

فَلَمَّا جَاءَ آَلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١).

{فلما جاء آل لوط} أي لوطا {المرسلون}.

=

لأهل الإسلام، فيجب أن يكون العبد خائفا راجيا، فإن الخوف المحمود الصادق: ما حال بين صاحبه وبين محارم الله، فإذا تجاوز ذلك خيف منه اليأس والقنوط. والرجاء المحمود: رجاء رجل عمل بطاعة الله على نور من الله، فهو راج لثوابه، أو رجل أذنب ذنبا، ثم تاب منه إلى الله، فهو راج لمغفرته. أما إذا كان الرجل متماديا في التفريط والخطايا، يرجو رحمة الله بلا عمل، فهذا هو الغرور والتمني والرجاء الكاذب. وقد مدح الله تعالى أهل الخوف والرجاء بقوله: {أمن هو قانت آناء الليل ساجدا وقائما يحذر الآخرة، ويرجو رحمة ربه {[الزمر:٩]، وقال: {تتجافى جنوبهم عن المضاجع يدعون
ربهم خوفا وطمعا} [السجدة:١٦}، فالرجاء يستلزم الخوف، ولولا ذلك لكان أمنا، والخوف يستلزم الرجاء، ولولا ذلك لكان قنوطا ويأسا. وكل أحد إذا خفته، هربت منه، إلا الله".

قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢).

{قَالَ} لَهُمْ {إِنَّكُمْ قَوْم مُنْكَرُونَ} لَا أَعْرِفكُمْ.

قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣).

{قَالُوا بَلْ جِئْنَاك بِمَا كَانُوا} أَيْ قَوْمك {فِيهِ يَمْتَرُونَ} يَشُكُّونَ وَهُوَ الْعَذَاب.

وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤).

{وَآتَيْنَاك بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} فِي قَوْلنَا.

فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥).

{فَأَسْرِ بِأَهْلِك بِقِطَعٍ مِنَ اللَّيْل وَاتَّبِعْ أَدْبَارهمْ} امْشِ خَلْفهمْ {وَلَا يَلْتَفِت مِنْكُمْ أَحَد} لِئَلَّا يَرَى عَظِيم مَا يَنْزِل بِهِمْ {وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ} وهو الشام.

وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦).

{وَقَضَيْنَا} أَوْحَيْنَا {إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْر} وَهُوَ {أَنَّ دَابِر هَؤُلَاءِ مَقْطُوع مُصْبِحِينَ} حَال أَيْ يَتِمّ اسْتِئْصَالهمْ فِي الصَّبَاح.

وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧).

{وَجَاءَ أَهْل الْمَدِينَة} مَدِينَة سدوم وَهُمْ قَوْم لُوط لَمَّا أُخْبِرُوا أَنَّ فِي بَيْت لُوط مُرْدًا حِسَانًا وَهُمْ الْمَلَائِكَة {يَسْتَبْشِرُونَ} حَال طَمَعًا فِي فِعْل الْفَاحِشَة بِهِمْ.

قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨).

{قَالَ} لُوط {إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ}.

وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩).

{وَاتَّقُوا الله وَلَا تُخْزُونِ} بِقَصْدِكُمْ إِيَّاهُمْ بِفِعْلِ الفاحشة بهم.

قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠).

{قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَك عَنِ الْعَالَمِينَ} عَنْ إضَافَتهمْ.

قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١).

{قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ} مَا تريدون من قضاء الشهوة فتزوجوهن قال تعالى

لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)

{لَعَمْرُك} خِطَاب لِلنَّبِيِّ ﷺ أَيْ وَحَيَاتك {إنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتهمْ يَعْمَهُونَ} يَتَرَدَّدُونَ.

فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣)

{فَأَخَذَتْهُمْ الصَّيْحَة} صَيْحَة جِبْرِيل {مُشْرِقِينَ} وَقْت شُرُوق الشمس.

فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤).

{فَجَعَلْنَا عَالِيهَا} أَيْ قُرَاهُمْ {سَافِلهَا} بِأَنْ رَفَعَهَا جِبْرِيل إلَى السَّمَاء وَأَسْقَطَهَا مَقْلُوبَة إلَى الْأَرْض {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَة مِنْ سِجِّيل} طِين طُبِخَ بالنار.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥).

{إن في ذلك} المذكور {لآيات} دلالات على وَحْدَانِيَّة الله {لِلْمُتَوَسِّمِينَ} لِلنَّاظِرِينَ الْمُعْتَبِرِينَ.

وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦).

{وَإِنَّهَا} أَيْ قُرَى قَوْم لُوط {لَبِسَبِيلٍ مُقِيم} طَرِيق قُرَيْش إلَى الشَّام لَمْ تَنْدَرِس أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ بِهِمْ.

إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) .

{إن في ذلك لآية} لعبرة {للمؤمنين}[1].

---

(١) قوله تعالى: {قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧)} [الحجر: ٥٧]

أي: قال إبراهيم: ما شأنكم وما أمركم الذي جئتم من أجله؟ أيها الملائكة الكرام؟

قال بعض العلماء: إنه علم أنه لو كان كمال المقصود إيصال البشارة لكان الواحد من الملائكة كافيا، فلما رأى جمعا من الملائكة علم أن لهم غرضا آخر سوى إيصال البشارة فلا جرم قال (فما خطبكم أيها المرسلون).

قال الطبري: " قال إبراهيم للملائكة: فما شأنكم: ما أمرُكم أيُّها المرسلون؟".

قال الماتريدي:"فما خبركم، وما قصتكم، وما شأنكم؟ والخطب: الشأن؛ أي: على أي أمر وشأن أرسلتم".

قال القشيري:"فلما فرغ قلبه من هذا الحديث، وعرف أنه لن يصيبه ضرر منهم سألهم عن حالهم: قال ما شأنكم؟ وإلى أين قصدكم؟".

قال ابن كثير:"يقول تعالى إخبارًا عن إبراهيم، عليه السلام، لما ذهب عنه الروع وجاءته البشرى: إنه شرع يسألهم عما جاؤوا له".

قال السدي:"قال: ما خطبُكم أيها المرسلون؟ قالوا: إنا أرسلنا إلى قوم لوط، فجادلهم في قوم لوط قال، أرأيتم إن كان فيها مائة من المسلمين أتهلكونهم؟ قالوا: لا! فلم يزل يحُطَّ حتى بلغ عشرة من المسلمين، فقالوا: لا نعذبهم، إن كان فيهم عشرة من المسلمين، ثم قالوا: "يا إبراهيم أعرض عن هذا إنه ليس فيها إلا أهل بيت من المؤمنين " هو لوط وأهل بيته، وهو قول الله تعالى ذكره: {يجادلنا في قوم لوط}. فقالت الملائكة: {يا إبراهيم أعرض عن هذا إنَّه قد جاء أمر ربك وإنهم آتيهم عذاب غير مردود}".

عن أبي المثني ومسلم أبو الحبيل الأشجعي قالا:"... قال إبراهيم: أتعذب عالمًا

=

=

من عالمك كثيرًا، فيهم مائة رجل؟ قال: لا وعزتي، ولا خمسين! قال: فأربعين؟ فثلاثين؟ حتى انتهى إلى خمسة. قال: لا! وعزتي لا أعذبهم ولو كان فيهم خمسة يعبدونني! قال الله ﷻ: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [سورة الذاريات:٣٦]، أي لوطًا وابنتيه، قال: فحلّ بهم من العذاب، قال الله ﷻ: {وَتَرَكْنَا فِيهَا آيَةً لِلَّذِينَ يَخَافُونَ الْعَذَابَ الأَلِيمَ} [سورة الذاريات:٣٧]، وقال: {فلما ذهب عن إبراهيم الروع وجاءته البشرى يجادلنا في قوم لوط}".

قوله تعالى: {قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ} [الحجر: ٥٨].

أي: أرسلنا ربنا إلى قوم مشركين ضالين لإهلاكهم، يعنون قوم لوط.

وإنما اقتصروا على هذا القدر لعلم إبراهيم عليه السلام بأن الملائكة إذا أرسلوا إلى المجرمين كان ذلك لإهلاكهم واستئصالهم وأيضا فقولهم (إلا ءال لوط إنا لمنجوهم أجمعين) يدل على أن المراد بذلك الإرسال إهلاك القوم.

قال الطبري: " قالت الملائكة له: إنا أرسلنا إلى قوم قد اكتسبوا الكفر بالله".

قال ابن كثير:"يعنون: قوم لوط".

قوله تعالى: {إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ} [الحجر: ٥٩]، أي: إلا لوطًا وأهله المؤمنين به، فلن نهلكهم وسننجيهم أجمعين".

فالمراد من آل لوط أتباعه الذين كانوا على دينه.

قال الطبري: " يقول: إلا اتباع لوط على ما هو عليه من الدِّين، فإنا لن نهلكهم بل ننجيهم من العذاب الذي أمرنا أن نعذّب به قوم لوط".

قال ابن كثير:"أخبروه أنهم سينجون آل لوط من بينهم".

قال الزمخشري:"لا يخلو من أن يكون استثناء من «قوم»، فيكون منقطعا، لأن «القوم» موصوفون بالإجرام، فاختلف لذلك الجنسان وأن يكون استثناء من الضمير في «مجرمين»، فيكون متصلا، كأنه قيل: إلى قوم قد أجرموا كلهم إلا آل

=

=

لوط وحدهم، كما قال: {فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ} [الذاريات: ٣٦]، فإن قلت: فهل يختلف المعنى لاختلاف الاستثناءين؟ قلت: نعم، وذلك أن آل لوط مخرجون في المنقطع من حكم الإرسال، وعلى أنهم أرسلوا إلى القوم المجرمين خاصة، ولم يرسلوا إلى آل لوط أصلا، ومعنى إرسالهم إلى «القوم المجرمين»، كإرسال الحجر أو السهم إلى المرمى. في أنه في معنى التعذيب والإهلاك، كأنه قيل: إنا أهلكنا قوما مجرمين، ولكن آل لوط أنجيناهم. وأما في المتصل فهم داخلون في حكم الإرسال، وعلى أن الملائكة أرسلوا إليهم جميعا ليهلكوا هؤلاء وينجوا هؤلاء، فلا يكون الإرسال مخلصا بمعنى: الإهلاك والتعذيب كما في الوجه الأول، قوله إنا لمنجوهم بم يتعلق على الوجهين؟ قلت: إذا انقطع الاستثناء جرى مجرى خبر «لكن» في الاتصال بآل لوط، لأن المعنى. لكن آل لوط منجون، وإذا اتصل كان كلاما مستأنفا، كأن إبراهيم عليه السلام قال لهم: فما حال آل لوط، فقالوا: إنا لمنجوهم".

وقرئ: «لمنجوهم»، بالتخفيف والتثقيل.

قوله تعالى: {إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ} [الحجر: ٦٠].

أي: إلا امرأة لوط، فقد قدر الله بقاءها في العذاب مع الكفرة الهالكين.

قدرنا: قضينا وحكمنا. والغابر: الباقي.

-قال القرطبي: استثنى من آل لوط امرأته، وكانت كافرة، فالتحقت بالمجرمين في الهلاك.

-وقال الخازن: يعني لمن الباقين في العذاب.

كما قال تعالى في هود (قالوا يالوط إنا رسل ربك لن يصلوا إليك فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك).

وقوله في العنكبوت (وقالوا لا تخف ولا تحزن إنا منجوك وأهلك إلا امرأتك).

=

=

وقوله (فأنجيناه وأهله إلا امرأته كانت من الغابرين).

وقوله (فنجيناه وأهله أجمعين إلا عجوزا في الغابرين).

-قال الآلوسي: الظاهر أن قوله تعالى (إلا امرأته قدرنا...) من كلام الملائكة، وأسندوا التقدير إلى أنفسهم- وهو فعل الله- سبحانه- لما لهم من القرب والاختصاص، وهذا كما يقول أحد حاشية السلطان: أمرنا بكذا.. والآمر في الحقيقة هو السلطان. وقيل- ولا يخفى بعده-: هو من كلام الله- تعالى- فلا يحتاج إلى تأويل، وكذا لا يحتاج إلى تأويل إذا أريد بالتقدير العلم.

(تنبيه): قوله تعالى في هود (فأسر بأهلك بقطع من الليل ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك).

قرأه جمهور القراء إلا امرأتك، بالنصب، وعليه فالأمر واضح ؛ لأنه استثناء من الأهل، أي أسر بأهلك إلا امرأتك فلا تسر بها، واتركها في قومها فإنها هالكة معهم.

ويدل لهذا الوجه قوله فيها في مواضع (كانت من الغابرين)، والغابر: الباقي، أي من الباقين في الهلاك.

ويحتمل أن يكون من قوله (ولا يلتفت منكم أحد إلا امرأتك) أي: فإنها ستلتفت فيصيبها ما أصابهم.

قال ابن كثير: والأظهر أنها لم تخرج من البلد، ولا أعلمها لوط، بل بقيت معهم.

قال مقاتل:"يعني: الباقين في العذاب".

قال الطبري: يقول:"سوى امرأة لوط قضى الله فيها إنها لمن الباقين، ثم هي مهلكة بعد".

قال ابن كثير:"أي: الباقين المهلكين".

قال القشيري:"لمشاركتها معهم في الفساد، وكانت تدل قومه على أضافه،

=

=

فاستوجبت العقوبة".

قال الزمخشري:"فإن قلت: فلم أسند الملائكة فعل التقدير- وهو لله وحده- إلى أنفسهم، ولم يقولوا: قدر الله؟ قلت: لما لهم من القرب والاختصاص بالله الذي ليس لأحد غيرهم، كما يقول خاصة الملك: دبرنا كذا وأمرنا بكذا، والمدبر والآمر هو الملك لا هم، وإنما يظهرون بذلك اختصاصهم وأنهم لا يتميزون عنه".

وفي قوله تعالى: {إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا} [الحجر: ٦٠]، وجهان:

أحدهما: معناه: قضينا، قاله النخعي.

الثاني: معناه: كتبنا، قاله علي بن عيسى.

وفي قوله تعالى: {إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ} [الحجر: ٦٠]، وجهان:

أحدهما: أي: من الباقين في العذاب مع المجرمين.

الثاني: من الماضين بالعذاب.

عن قتادة: {إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ}،، قال: «ممن غبر فهلك»".

قال أبو عوسجة: "الغابرون: الباقون، والغابرون: الماضون أيضا؛ يقال: غبر يغبر غبرا: إذا بقي، وإذا مضى أيضا".

قال معمر: "بلغنا أنه كان في قرية لوط أربعة آلاف ألف إنسان، أو ما شاء الله من ذلك".

وقرئ: «قدرنا»، بالتخفيف.

قوله تعالى: {فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ} [الحجر: ٦١]، أي:"فلما وصل الملائكة المرسلون إلى لوط".

والآية الكريمة معطوفة على كلام محذوف يفهم من السياق، والتقدير: وخرج الملائكة من عند إبراهيم- بعد أن بشروه بغلامه، وبعد أن أخبروه بوجهتهم-

=

=

فاتجهوا إلى المدينة التي يسكنها لوط - عليه السلام - وقومه.

قال الطبري:"فلما أتى رسلُ الله آل لوط".

قال ابن كثير:"جاءته الملائكة في صورة شباب حسان الوجوه، فدخلوا عليه داره".

قوله (فلما جاء آل لوط المرسلون...) مع أن المجيء كان للوط - عليه السلام - والخطاب كان معه، تشريفا وتكريما للمؤمنين من قوم لوط، فكأنهم كانوا حاضرين ومشاهدين لوجود الملائكة بينهم، ولما دار بينهم وبين لوط - عليه السلام -.

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ} [الحجر: ٦٢]، أي:"قال لهم: إنكم قوم غير معروفين لي".

قال مجاهد:"أنكرهم لوط".

قال الطبري:"أنكرهم لوط فلم يعرفهم، وقال لهم: نُنْكركم لا نعرفكم".

قال الزمخشري:"أي: تنكركم نفسي وتنفر منكم، فأخاف أن تطرقوني بشر، بدليل قوله {بل جئناك بما كانوا فيه يمترون}".

قال القشيري:"فلمّا وافى المرسلون من آل لوط أنكرهم لأنه لم يجدهم على صورة البشر، وتفرّس فيهم على الجملة أنهم جاءوا لأمر عظيم".

-قال الخازن: وإنما قال هذه المقالة لوط لأنهم دخلوا عليه وهم في زي شبان مردان حسان الوجوه، فخاف أن يهجم عليهم قومه فلهذا السبب قال هذه المقالة.

-قال الشنقيطي: بين تعالى في هذه الآية الكريمة أن لوطا عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام لما جاءه الملائكة المرسلون لإهلاك قومه قال لهم إنكم قوم منكرون. وصرح في مواضع أخر أنه حصلت له مساءة بمجيئهم وأنه ضاق ذرعا بذلك:

كقوله في هود (ولما جآءت رسلنا لوطا سياء بهم وضاق بهم ذرعا وقال هذا يوم

=

=

عصيب).

وقوله في العنكبوت (ولماّ أن جآءت رسلنا لوطا سيء بهم وضاق بهم ذرعا).

قوله تعالى: {قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣)} [الحجر: ٦٣]

أي قالوا له: بل نحن رسل الله، جئناك بما كان فيه قومك يشكون فيه، وهو نزول العذاب الذي وعدتهم به.

قال الطبري: "فقالت الرسل: بل نحن رسل الله جئناك بما كان فيه قومك يشكون أنه نازل بهم من عذاب الله على كفرهم به".

قال الزجاج: "أي: جئناك بالعذاب الذي كانوا يشكون في نزوله".

قال القشيري: "قالوا: بل جئناك بما كان قومك يشكّون فيه من تعذيبنا إياهم، وآتيناك بالحق، أي: بالحكم الحق".

قال ابن كثير: "يعنون: بعذابهم وهلاكهم ودمارهم الذي كانوا يشكون في وقوعه بهم، وحلوله بساحتهم".

قال ابن أبي زمنين: "{يمترون} يشكون، من العذاب؛ كانوا يقولون: لا نعذب؛ حين كان يخوفهم بالعذاب إن لم يؤمنوا".

قال الزمخشري: "أى: ما جئناك بما تنكرنا لأجله، بل جئناك بما فيه فرحك وسرورك وتشفيك من عدوك، وهو العذاب الذي كنت تتوعدهم بنزوله، فيمترون فيه ويكذبونك".

عن مجاهد: "{بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ}، قال. بعذاب قوم لوط".

قوله تعالى: {وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ} [الحجر: ٦٤]، أي: "أتيناك بالحق اليقيني من عذابهم، وإنا لصادقون فيما نقول".

قال ابن أبي زمنين: "يعني: بعذابهم".

قال الطبري: "قالت الرسل للوط: وجئناك بالحق اليقين من عند الله، وذلك الحقّ

="

=

هو العذاب الذي عذب الله به قوم لوط".

قال الزمخشري:"{بالحق}، باليقين من عذابهم".

قال ابن كثير:"كما قال تعالى: {مَا نُنزِلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ} [الحجر: ٨]".

قوله تعالى: {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} [الحجر: ٦٤]، أي:"إنا لصادقون فيما أخبرناك به يا لوط من أن الله مهلك قومك".

قال الزمخشري:"في الإخبار بنزوله بهم".

قال ابن كثير:"قوله: {وَإِنَّا لَصَادِقُونَ} تأكيد لخبرهم إياه بما أخبروه به، من نجاته وإهلاك قومه".

قوله تعالى: {فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ} [الحجر: ٦٥]، أي:"سرْ بأهلك في طائفةٍ من الليل".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مخبرا عن رسله أنهم قالوا للوط، فأسر بأهلك ببقية من الليل".

قال ابن أبي زمنين:"أي: في طائفة من الليل؛ والسرى لا يكون إلا ليل".

قال الزجاج:"أي: بظلمة من الليل. يقال: معنى قطع من الليل أي قطعة صالحة، وكذلك مضى عنك من الليل، وسعو من الليل".

قال ابن كثير:"أمروه أن يَسري بأهله بعد مضي جانب من الليل".

وقال ابن كثير:"أمروه أن يسري بأهله من آخر الليل".

قال القرطبي:"فإن قيل: السرى لا يكون إلا بالليل، فما معنى: {بقطع من الليل}؟ فالجواب: أنه لو لم يقل:"بقطع من الليل" جاز أن يكون أوله".

وفي قوله تعالى: {بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ} [الحجر: ٦٥]، وجوه من التفسير:

أحدها: بسواد من الليل. قاله ابن عباس، وحكاه الماوردي عن قتادة.

الثاني: بآخر الليل، قاله الكلبي، وبه قال السمعاني.

=

=

ويؤيد هذا التفسير قوله تعالى {إِلَّا آلَ لُوطٍ نَجَّيْنَاهُمْ بِسَحَرٍ} [القمر: ٣٤]، لأن السحر آخر الليل وأشده ظلمة. والله أعلم.

الثالث: بالسحر الأول. قاله أبو صخر.

الرابع: ببعض الليل، قاله ابن زيد.

وقال مقاتل: "«بقطع»، يعني: بعض، وهو السحر من الليل".

الخامس: بظلمة الليل، قاله قطرب.

السادس: بطائفة من الليل. قاله قتادة، وحكاه القرطبي عن ابن عباس.

السابع: ببقية من الليل. قاله الضحاك.

الثامن: بعد مضي صدر من الليل. قاله قتادة.

التاسع: بعد جنح من الليل. قاله الأخفش.

العاشر: بساعة من الليل. قاله ابن الأعرابي.

الحادي عشر: بعد هدء من الليل. حكاه القرطبي.

الثاني عشر: هزيع من الليل. حكاه القرطبي.

الثالث عشر: إنه نصف الليل، مأخوذ من: قطعه نصفين، حكاه الماوردي، وأنشد قول الشاعر:

ونائحةٍ تَنُوْحُ بِقِطْعِ ليلِ على رَجُلٍ بقارعةِ الصعيد

قال القرطبي: وكلها متقاربة".

وقرئ: «فأسر»، بقطع الهمزة ووصلها، من: أسرى وسرى. وروى صاحب الإقليد: فسر، من السير والقطع في آخر الليل.

قوله تعالى: {وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ} [الحجر: ٦٥]، أي: "كنْ من ورائهم وسرْ خلفهم لتطمئنَّ عليهم".

قال ابن كثير: "[أمروه] أن يكون لوط، عليه السلام، يمشي وراءهم، ليكون أحفظ

=

=

لهم".

وقال ابن كثير:"[أمروه] أن يتَّبع أدبارهم، أي: يكون ساقة لأهله".

قال قتادة:"أُمِر أن يكون خلف أهله، يتبع أدبارهم في آخرهم إذا مشوا".

عن ابن زيد:"{وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ}: أدبار أهله".

قال الزمخشري:"فإن قلت: ما معنى أمره باتباع أدبارهم؟ قلت قد بعث الله الهلاك على قومه، ونجاه وأهله إجابة لدعوته عليهم، وخرج مهاجرا فلم يكن له بد من الاجتهاد في شكر الله وإدامة ذكره وتفريغ باله لذلك، فأمر بأن يقدمهم لئلا يشتغل بمن خلفه قلبه، وليكون مطلعا عليهم وعلى أحوالهم".

قوله تعالى: {وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ} [الحجر: ٦٥]، أي:"لا يتلفتْ أحد منكم وراءه لئلا يرى عظيم ما ينزل بهم فيرتاع".

قال ابن عباس:"ولا يتخلف منكم أحد".

قال مجاهد:"لا ينظر وراءه أحد". وفي رواية:"لا يلتفت وراءه أحد، ولا يُعَرِّج".

قال ابن كثير:"أي: إذا سمعتم الصيحة بالقوم فلا تلتفتوا إليهم، وذروهم فيما حل بهم من العذاب والنكال".

قال القرطبي:"أي: لا ينظر وراءه منكم أحد".

قال القشيري:"لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب".

قال الزمخشري:"نهوا عن الالتفات لئلا يروا ما ينزل بقومهم من العذاب فيرقوا لهم، وليوطنوا نفوسهم على المهاجرة ويطيبوها عن مساكنهم، ويمضوا قدما غير ملتفتين إلى ما وراءهم كالذي يتحسر على مفارقة وطنه فلا يزال يلوى إليه أخادعه، كما قال:

تلفت نحو الحى حتي وجدتنى   وجعت من الإصغاء ليتا وأخدعا

أو جعل النهى عن الالتفات كناية عن مواصلة السير وترك التواني والتوقف، لأن

=

=

من يلتفت لا بد له في ذلك من أدنى وقفة".

-قال ابن عطية: ونهوا عن النظر مخافة العقلنة وتعلق النفس بمن خلف، وقيل بل لئلا تتفطر قلوبهم من معاينة ما جرى على القرية في رفعها وطرحها.

-قال أبو السعود (ولا يلتفت منكم) أي منك ومنهم (أحد): فيرى ما وراءه من الهول فلا يطيقه، أو يصيبه ما أصابهم، أو ولا ينصرف منكم أحد ولا يتخلف لغرض فيصيبه العذاب، وقيل: نهوا عن ذلك ليوطنوا أنفسهم على المهاجرة، أو هو نهي عن ربط القلب بما خلفوه، أو هو للإسراع في السير فإن الملتفت قلما يخلو عن أدنى وقفة.

قوله تعالى: {وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ} [الحجر: ٦٥]، أي:"سيروا حيث يأمركم الله ﷻ".

قال ابن كثير:"كأنه كان معهم من يهديهم السبيل".

قال القشيري:"فلكم السلامة ولقومكم العقوبة".

قال السدي:"أخرجهم الله إلى الشام".

قوله تعالى: {وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَلِكَ الْأَمْرَ} [الحجر: ٦٦]، أي:"وأوحينا إلى لوط".

قال ابن زيد:"وأوحينا إليه".

قال القشيري:"أي: علّمناه وعرّفناه".

قال ابن كثير:"أي: تقدمنا إليه في هذا".

قوله تعالى: {أَنَّ دَابِرَ هَؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ} [الحجر: ٦٦]، أي:"أن قومك مستأصَلون بالهلاك عن آخرهم عند طلوع الصبح".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وفرغنا إلى لوط من ذلك الأمر، وأوحينا أن آخر قومك وأوّلهم مجذوذ مستأصل صباح ليلتهم".

قال القشيري:"أي: أنهم مهلكون ومستأصلون بالعقوبة".

=

=

قال ابن كثير:"أي: وقت: الصباح كما قال في الآية الأخرى: {إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ} [هود: ٨١]".

قال ابن عباس:"يعني: استئصال هلاكهم مصبحين".

قال الزمخشري:"فسر ذلك الأمر بقوله: {أن دابر هؤلاء مقطوع}، وفي إبهامه وتفسيره تفخيم للأمر وتعظيم له.. و {دابرهم}: آخرهم، يعنى: يستأصلون عن آخرهم حتى لا يبقى منهم أحد".

وقرأ الأعمش: «إن»، بالكسر على الاستئناف، كأن قائلا قال: أخبرنا عن ذلك الأمر، فقال: إن دابر هؤلاء. وفي قراءة ابن مسعود: «وقلنا إن دابر هؤلاء».

قوله تعالى: {وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧)} [الحجر: ٦٧]

أي: المدينة التي فيها قوم لوط (يستبشرون) أي: يبشر بعضهم بعضا بأضياف لوط وصباحة وجوههم واقتدارهم عليهم وذلك لقصدهم فعل الفاحشة فيهم فجاءوا حتى وصلوا إلى بيت لوط فجعلوا يعالجون لوطا على أضيافه ولوط يستعيذ منهم.

وهذا التعبير الذي صورته الآية الكريمة، يدل دلالة واضحة على أن القوم قد وصلوا إلى الدرك الأسفل من الانتكاس والشذوذ وانعدام الحياء... إنهم لا يأتون لارتكاب المنكر فردا أو أفرادا، وإنما يأتون جميعا- أهل المدينة- وفي فرح وسرور، وفي الجهر والعلانية، لا في السر والخفاء... ولأى غرض يأتون؟ إنهم يأتون لارتكاب الفاحشة التي لم يسبقهم إليها أحد من العالمين.

وقال تعالى في سورة هود (وجاءه قومه يهرعون إليه) أي: وجاء قوم لوط يسرعون المشي إليه لطلب الفاحشة.

قوله: يهرعون، أي: يسرعون ويهرولون من فرحهم بذلك.

ومرادهم فعل الفاحشة: كما قال تعالى في سورة هود (ومن قبل كانوا يعملون

=

=

السيئات) أي: كانوا من قبل مجيئهم يأتون الرجال شهوة دون النساء.

وقد ذكر الله تعالى أن قوم لوط كانوا أول من ارتكب هذه الفعلة القبيحة.

قال تعالى (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٨٠) إنكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم مسرفون).

وقد كانوا يتجاهرون بها:

قال تعالى في سورة النمل (ولوطا إذ قال لقومه أتأتون الفاحشة وأنتم تبصرون (٥٤) لتأتون الرجال شهوة من دون النساء بل أنتم قوم تجهلون).

وقال تعالى في سورة العنكبوت (ولوطا إذ قال لقومه إنكم لتأتون الفاحشة ما سبقكم بها من أحد من العالمين (٢٨) أئنكم لتأتون الرجال وتقطعون السبيل وتأتون في ناديكم المنكر...).

-قال الرازي: اعلم أن المراد بأهل المدينة قوم لوط، وليس في الآية دليل على المكان الذي جاؤوه إلا أن القصة تدل على أنهم جاؤوا دار لوط.

قيل: إن الملائكة لما كانوا في غاية الحسن اشتهر خبرهم حتى وصل إلى قوم لوط.

وقيل: امرأة لوط أخبرتهم بذلك، وبالجملة فالقوم قالوا: نزل بلوط ثلاثة من المرد ما رأينا قط أصبح وجها ولا أحسن شكلا منهم فذهبوا إلى دار لوط طلبها منهم لأولئك المرد والاستبشار إظهار السرور.

قال الطبري:"وجاء أهل مدينة سَدُوم وهم قوم لوط لما سمعوا أن ضيفا قد ضاف لوطا مستبشرين بنزولهم مدينتهم طمعا منهم في ركوب الفاحشة".

قال ابن كثير:"يخبر تعالى عن مجيء قوم لوط لما علموا بأضيافه وصباحة وجوههم، وأنهم جاءوا مستبشرين بهم فرحين".

قال مقاتل:"{يستبشرون}، بدخول الرجال منزل لوط".

=

=

قال الزمخشري:"أهل المدينة أهل سدوم التي ضرب بقاضيها المثل في الجور، مستبشرين بالملائكة".

قال قتادة:"استبشروا بأضياف نبيّ الله ﷺ لوط، حين نزلوا لما أرادوا أن يأتوا إليهم من المنكر".

قوله تعالى: {قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨)} [الحجر: ٦٨]

أي: هؤلاء ضيوفي فلا تقصدوهم بسوء، فتلحقوا بي العار وتفضحوني أمامهم.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال لوط لقومه: إن هؤلاء الذين جئتموهم تريدون منهم الفاحشة ضيفي، وحقّ على الرجل إكرام ضيفه، فلا تفضحون أيها القوم في ضيفي، وأكرموني في ترككم التعرّض لهم بالمكروه".

قال ابن الجوزي:"فقال لهم لوط: إن هؤلاء ضيفي فلا تفضحون أي: بقصدكم إياهم بالسوء، يقال: فضحه يفضحه: إذا أبان من أمره ما يلزمه به العار".

قال الزمخشري: أي: " {فلا تفضحون} بفضيحة ضيفي، لأن من أساء إلى ضيفه أو جاره فقد أساء إليه، كما أن من أكرم من يتصل به فقد أكرم".

وفي قوله تعالى: {فَلَا تَفْضَحُونِ} [الحجر: ٦٨]، وجهان:

أحدهما: معناه: فلا تفضحوني في ضيفي؛ فإنهم إنما نزلوا بنا على أمن منا؛ فلا تفضحوني عندهم، وهو ما قال في آية أخرى: {وَلَا تُخْزُونِ فِي ضَيْفِي} [هود: ٧٨].

والثاني: معناه: لا تفضحوني في الخلق، يقولون: إن في أهل بيت لوط يفعل بالأضياف كذا، وإنما عرف أهل بيتي عند الخلق بالصلاح والأمن فلا تفضحوني في الخلق.

قال ابن كثير:"وهذا إنما قاله لهم قبل أن يعلم بأنهم رسل الله كما قال في سياق سورة هود، وأما هاهنا فتقدم ذِكرُ أنهم رسل الله، وعطف بذكر مجيء قومه

=

=

ومحاجته لهم. ولكن الواو لا تقتضي الترتيب، ولا سيما إذا دل دليل على خلافه".

وأثبت يعقوب «الياء» في قوله: «تفضحون» في الوصل والوقف".

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩)} [الحجر: ٦٩]

خافوا الله أن يحلَّ بكم عقابه، ولا تهينوني بالتعرض لهم بالمكروه.

قوله تعالى: {وَاتَّقُوا اللهَ} [الحجر: ٦٩]، أي:"خافوا الله أن يحلَّ بكم عقابه".

قال الماتريدي: أي:"صنيعكم بالرجال".

قال الطبري:"يقول: وخافوا الله فيّ وفي أنفسكم أن يحلّ بكم عقابه".

قوله تعالى: {وَلَا تُخْزُونِ} [الحجر: ٦٩]، أي:"ولا تهينوني بالتعرض لضيوفي بالمكروه".

قال الماتريدي: أي:"عند الخلق؛ قيل: هو من الهوان".

قال الطبري:"يقول: ولا تذلوني ولا تهينوني فيهم، بالتعرّض لهم بالمكروه".

قال الزمخشري: أي:"ولا تهينونى ولا تفضحوني، من الخزي. أو ولا تخجلوني، من الخزاية وهي الحياء في ضيفي في حق ضيوفى فإنه إذا خزى ضيف الرجل أو جاره فقد خزى الرجل، وذلك من عراقة الكرم وأصالة المروءة".

قال وهب بن منبه: "فدخلوا على لوط -يعني: الملائكة- فلما رأتهم امرأته أعجبها حسنهم وجمالهم فأرسلت إلى أهل القرية أنه قد نزل بنا قوم لم نر قوما أحسن منهم ولا أجمل، فتسامعوا بذلك، فغشوا دار لوط من كل ناحية تسوروا عليهم الجدران، فلقيهم لوط، فقال: يا قوم لا تفضحوني في ضيفي، وإني أزوجكم بناتي، فـ {هن أطهر لكم}، فقالوا: لو كنا نريد بناتك لقد عرفنا مكانهم، ولكن لا بد لنا من هؤلاء القوم الذين نزلوا بك، خل بيننا وبينهم".

وأثبت يعقوب «الياء» في قوله: «تخزون» في الوصل والوقف.

=

=

قوله تعالى: {قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠)} [الحجر: ٧٠]

قالوا ألم نمنعك عن ضيافة أحد؟

قال قتادة:"ألم ننهك أن تضيف أحدا؟".

قال ابن كثير:"أي: أو ما نهيناك أن تضيف أحدًا؟".

قال ابن الجوزي:"أي: عن ضيافة العالمين".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال للوط قومه: أو لم ننهك أن تضيف أحدا من العالمين".

قال القشيري:"قال قومه: ألم ننهك عن أن تحيى أحدا، وأمرناك ألا تمنع منّا أحدا؟".

قال الرازي: المعنى ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من الناس إذا قصدناه بالفاحشة؟

-قال الخازن: قوله تعالى (أولم ننهك عن العالمين) يعني أولم ننهك عن أن تضيف أحدا من العالمين.

وقيل: معناه أو لم ننهك أن تدخل الغرباء إلى بيتك، فانا نريد أن نركب منهم الفاحشة.

وقيل: معناه ألسنا قد نهيناك أن تكلمنا في أحد من العالمين إذا قصدناه بالفاحشة.

قوله تعالى: {قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١)} [الحجر: ٧١]

قيل: المراد بناته من صلبه، وقيل: المراد نساء قومه، لأن رسول الأمة يكون كالأب لهم وهو كقوله تعالى (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) وفي قراءة أبي وهو أب لهم.

-قال ابن كثير: يرشد لوطا- عليه السلام- قومه إلى نسائهم فإن النبي للأمة بمنزلة الوالد، فأرشدهم إلى ما هو أنفع لهم، كما قال تعالى في آية أخرى: أتأتون الذكران

=

=

من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون.
ورجحه الرازي وقال: وهذا القول عندي هو المختار، ويدل عليه وجوه:
منها: أنه قال هؤلاء بناتي.. وبناته اللاتي من صلبه لا تكفي هذا الجمع العظيم، أما نساء أمته ففيهم كفاية للكل.
ومنها: أنه صحت الرواية أنه كان له بنتان وهما: نتا وزاعورا، وإطلاق لفظ البنات على البنتين لا يجوز، لما ثبت أن أقل الجمع ثلاثة.
والمعنى: أن لوطا - عليه السلام - لما رأى هيجان قومه، وإصرارهم على ارتكاب الفاحشة مع ضيوفه، قال لهم على سبيل الإرشاد إلى ما يشبع الفطرة السليمة: يا قوم هؤلاء نساؤكم اللائي هن بمنزلة بناتي، فاقضوا معهن شهوتكم إن كنتم فاعلين لما أرشدكم إليه من توجيهات وآداب.
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قال لوط لقومه: تزوّجوا النساء فأتوهنّ، ولا تفعلوا ما قد حرّم الله عليكم من إتيان الرجال، إن كنتم فاعلين ما آمركم به، ومنتهين إلى أمري".
قال الزمخشري:"{هؤلاء بناتي}، إشارة إلى النساء، لأن كل أمة أولاد نبيها رجالهم بنوه ونساؤهم بناته، فكأنه قال لهم: هؤلاء بناتي فانكحوهن، وخلوا بنى فلا تتعرضوا لهم إن كنتم فاعلين شك في قبولهم لقوله، كأنه قال: إن فعلتم ما أقول لكم وما أظنكم تفعلون. وقيل: إن كنتم تريدون قضاء الشهوة فيما أحل الله دون ما حرم".
قال قتادة:"أمرهم نبيّ الله لوط أن يتزوّجوا النساء، وأراد أن يَقِيَ أضيافه ببناته".
قال ابن كثير:"فأرشدهم إلى نسائهم، وما خلق لهم ربهم منهن من الفروج المباحة، هذا كله وهم غافلون عما يراد بهم، وما قد أحاط بهم من البلاء، وماذا يُصبحهم من العذاب المستقر".

=

=

وقوله تعالى: {هَؤُلَاءِ بَنَاتِي} [الحجر: ٧١]، فيهن قولان:

أحدهما: أنه أراد نساء أمته ولم يرد بنات نفسه. قاله مجاهد.

قال مجاهد:"لم يكن بناته ولكن كن من أمته وكل نبي أبو أمته".

وقال سعيد بن جبير:"إنما دعاهم إلى نسائهم قال: وكل نبي هو أبو أمته وكان في بعض القراءة: «النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم»".

الثاني: أنه أراد بنات نفسه وأولاد صلبه لأن أمره فيهن أنفذ من أمره في غيرهن، وهو معنى قول حذيفة بن اليمان، ومقاتل.

قال حذيفة بن اليمان:"عرض بناته عليهم تزويجا وأراد نبي الله ﷺ إن يفي بتزويج بناته".

قال مقاتل:"فعرض عليهم ابنتيه من الحياء تزويجا واسم إحداهما ريثا والأخرى زعوثا".

عن كعب:"{هَؤُلَاءِ بَنَاتِي هُنَّ أَطْهَرُ لَكُم}، قال: تزوجوهن".

فإن قيل: كيف يزوجهم ببناته مع كفر قومه وإيمان بناته؟

قيل عن هذا ثلاثة أجوبة:

أحدها: أنه كان في شريعة لوط يجوز تزويج الكافر بالمؤمنة، وكان هذا في صدر الإسلام جائزاً حتى نسخ، قاله الحسن.

قال الزمخشري:"أراد أن يقي أضيافه ببناته، وذلك غاية الكرم، وأراد: هؤلاء بناتي فتزوجوهن وكان تزويج المسلمات من الكفار جائزا، كما زوج رسول الله ﷺ ابنتيه من عتبة بن أبى لهب وأبى العاص بن وائل قبل الوحى وهما كافران، وقيل كان لهم سيدان مطاعان، فأراد أن يزوجهما ابنتيه".

الثاني: أنه يزوجهم على شرط الإيمان كما هو مشروط بعقد النكاح. ذكره

=

=

الماوردي.

الثالث: أنه قال ذلك ترغيباً في الحلال وتنبيهاً على المباح ودفعاً للبادرة من غير بذل نكاحهن ولا بخطبتهن، قاله ابن أبي نجيح.

قال الزمخشري:"يجوز أن يكون عرض البنات عليهم مبالغة في تواضعه لهم وإظهارا لشدة امتعاضه مما أوردوا عليه، طمعا في أن يستحيوا منه ويرقوا له إذا سمعوا ذلك، فيتركوا له ضيوفه مع ظهور الأمر واستقرار العلم عنده وعندهم أن لا مناكحة بينه وبينهم".

وقال الشنقيطي:... القول الثالث: أن المراد بالبنات: جميع نساء قومه.

لأن نبي القوم أب ديني لهم.

كما يدل له قوله تعالى في نبينا ﷺ (النبي أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم) وفي قراءة أبي بن كعب: «وأزواجه أمهاتهم وهو أب لهم» وروي نحوها عن ابن عباس، وبهذا القول قال كثير من العلماء.

قال تعالى عنه أنه قال لهم (أتأتون الذكران من العالمين. وتذرون ما خلق لكم ربكم من أزواجكم بل أنتم قوم عادون).

-قال أبو حيان: والظاهر أن هذا المجيء ومحاورته مع قومه في حق أضيافه، وعرضه بناته عليهم، كان ذلك كله قبل إعلامه بهلاك قومه وعلمه بأنهم رسل الله، ولذلك سماهم ضيفان خوف الفضيحة، لأجل تعاطيهم ما لا يجوز من الفعل القبيح.

وقد جاء ذلك مرتبا هكذا في هود، والواو لا ترتب.... قال ابن عطية: ويحتمل أن يكون المجيء والمحاورة بعد علمه بهلاكهم، وحاور تلك المحاورة على جهة التكتم عنهم، والإملاء لهم، والتربص بهم. انتهى.

ونهاهم عن فضحهم إياه لأن من أساء إلى ضيفه أو جاره فقد أساء إليه.

=

=

قوله تعالى: {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)} [الحجر: ٧٢]
جمهور المفسرين أنه كلام معترض بين أجزاء قصة لوط - عليه السلام - مع قومه، لبيان أن الموعظة لا تجدى مع القوم الغاوين، ولتسلية الرسول ﷺ عما أصابه من سفهاء قومه.
فالخطاب فيه للنبي ﷺ واللام في «لعمرك» لام القسم، والمقسم به حياته ﷺ.
(إنهم لفي سكرتهم يعمهون) والمعنى: بحق حياتك- أيها الرسول الكريم- إن هؤلاء المكذبين لك، لفي غفلتهم وغوايتهم يترددون ويتحيرون، شأنهم في ذلك شأن الضالين من قبلهم كقوم لوط وقوم شعيب وقوم صالح، وغيرهم من المتكبرين في الأرض بغير الحق.
قوله تعالى: {لَعَمْرُكَ} [الحجر: ٧٢]، أي:"وحياتك يا محمد".
قال الطبري:"يقول تعالى لنبيه محمد ﷺ".
قال ابن كثير:"أقسم تعالى بحياة نبيه، صلوات الله وسلامه عليه، وفي هذا تشريف عظيم، ومقام رفيع وجاه عريض".
قال القشيري:"أقسم بحياته تخصيصا له فى شرفه، وتفضيلا له على سائر البرية، فقال وحياتك- يا محمد-، ويقال: أقسم بحياته لأنه لم يكن فى وقته حياة أشرف من حياته".
وفي قوله تعالى: {لَعَمْرُكَ} [الحجر: ٧٢]، وجوه:
أحدها: أن معناه: وحياتك يا محمد، رواه أبو الجوزاء عن ابن عباس.
قال ابن عباس:"ما خلق الله وما ذرأ وما برأ نفسا أكرم على الله من محمد ﷺ، وما سمعت الله أقسم بحياة أحد غيره، قال الله تعالى ذكره {لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}".
وقال ابن عباس:"ما حلف الله تعالى بحياة أحد إلا بحياة محمد ﷺ، قال:
=

=

وحياتك يا محمد وعمرك وبقائك في الدنيا {إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}".

والثاني: لَعَيْشُكَ، رواه ابن أبي طلحة عن ابن عباس، وبه قال الأخفش

قال ابن الجوزي:"وهو يرجع إلى معنى الأول".

والثالث: أن معناه: وحقك على أمتك، تقول العرب: لعمر الله لا أقوم، يعنون: وحق الله، ذكره ابن الأنباري.

والرابع: أنها كلمة من كلام العرب. قاله قتادة، ومقاتل.

الخامس: أنها كلمة ليس معناها القسم، وإنما معناها العدة من الله بإطالة عمر لوط عليه السلام بعد إهلاك قومه، في الوقت الذي يخبر الله أنه سينقذ في قوم لوط العذاب والهلاك عاجلاً.

قال إبراهيم: "كانوا يكرهون أن يقول الرجل: لعمري، يرونه كقوله: وَحَيَاتِي".

وقال الزمخشري:"{لعمرك} على إرادة القول، أى: قالت الملائكة للوط عليه السلام: لعمرك.. وقيل: الخطاب لرسول الله ﷺ، وأنه أقسم بحياته وما أقسم بحياة أحد قط كرامة له، والعمرو العمر واحد، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإيثار الأخف فيه، وذلك لأن الحلف كثير الدور على ألسنتهم، ولذلك حذفوا الخبر، وتقديره: لعمرك مما أقسم به، كما حذفوا الفعل في قولك: بالله".

قال ابن العربي في "أحكام القرآن" (٣/ ١١١٨)، فقال: "قال المفسرون بأجمعهم: أقسم الله هنا بحياة محمد ﷺ؛ تشريفا له؛ إن قومه من قريش في سكرتهم يعمهون، وفي حيرتهم يترددون ... ثم قال: وهذا كلام صحيح؛ ولا أدري ما الذي أخرجهم عن ذكر لوط إلى ذكر محمد وما الذي يمنع أن يقسم الله بحياة لوط، ويبلغ به من التشريف ما شاء، فكل ما يعطي الله للوط من فضل، ويؤتيه من شرف = فلمحمد ضعفاه، لأنه أكرم على الله منه. أو لا تراه قد أعطى لإبراهيم الخلة، ولموسى التكليم، وأعطى ذلك لمحمد؛ فإذا أقسم الله بحياة لوط فحياة

=

=

محمد أرفع، ولا يخرج من كلام إلى كلام آخر غيره لم يجر له ذكر لغير ضرورة".
وقال ابن القين في التبيان في أيمان القرآن (ص٦٤٩): ومن ذلك قوله - تعالى - في قصة لوط عليه السلام، ومراجعة قومه له: {قالوا أولم ننهك عن العالمين (٧٠) قال هؤلاء بناتي إن كنتم فاعلين (٧١) لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون (٧٢)} [الحجر: ٧٠ - ٧٢].
أكثر المفسرين من السلف والخلف - بل لا يعرف عن السلف فيه نزاع - أن هذا قسم من الله بحياة رسوله ﷺ. وهذا من أعظم فضائله؛ أن يقسم الرب ﷻ بحياته، وهذه مزية لا تعرف لغيره.
ولم يوفق الزمخشري لذلك، فصرف القسم إلى أنه بحياة لوط عليه السلام، وأنه من قول الملائكة له، فقال: "هو على إرادة القول، أي: قالت الملائكة للوط عليه الصلاة والسلام: لعمرك إنهم لفي سكرتهم يعمهون" وليس في اللفظ ما يدل على واحد من الأمرين، بل ظاهر اللفظ وسياقه إنما يدل على ما فهمه السلف الطيب لا أهل التعطيل والاعتزال.
قال ابن عباس رضي الله عنهما: ""لعمرك" أي: وحياتك". قال: "وما أقسم الله - تعالى - بحياة نبي غيره".
و"العمر" و"العمر": واحد، إلا أنهم خصوا القسم بالمفتوح لإثبات الأخف، لكثرة دوران الحلف على ألسنتهم.
وأيضا: فإن "العمر" حياته خصوصة، فهو عمر شريف عظيم، أهل أن يقسم به، لمزيته على كل عمر من أعمار بني آدم.
ولا ريب أن عمره ﷺ له مزية على عمر كل من سواه، والآيات التي كانت في عمره وحياته من أعظم الآيات، بل عمره وحياته من أعظم النعم والآيات، فهو أهل أن يقسم به، والقسم به أولى من القسم بغيره من المخلوقات.

=

=

وقوله تعالى: {يعمهون (٧٢)}؛ أي: يتحيرون.

وإنما وصف الله - سبحانه - اللوطية بالسكرة؛ لأن العشق له سكرة مثل سكرة الخمر وأشد، كما قال القائل:

سكران: سكر هوى، وسكر مدامة ... ومتى إفاقة من به سكران؟ ا.هـ

قوله تعالى: {إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ} [الحجر: ٧٢]، أي:"إن قوم لوط لفي ضلالهم وجهلهم يتخبطون ويترددون".

قال الطبري:"إن قومك من قريش لفي ضلالتهم وجهلهم يتردّدون".

قال مقاتل:"يعنى: لفي ضلالتهم يترددون".

قال السعدي:"هذه السكرة هي سكرة محبة الفاحشة التي لا يبالون معها بعذل ولا لوم".

قال الزمخشري:"أي: غوايتهم التي أذهبت عقولهم وتمييزهم بين الخطإ الذي هم عليه وبين الصواب الذي تشير به عليهم، من ترك البنين إلى البنات {يعمهون} يتحيرون، فكيف يقبلون قولك ويصغون إلى نصيحتك".

قال القشيري: أي:"إنهم فى خمار سكرهم، وغفلة ضلالتهم لا يترقبون عقوبة، ولا يخافون سوءا".

عن قتادة، قوله:"{لَفِي سَكْرَتِهِمْ}، أي: في ضلالتهم، {يَعْمَهُونَ}: أي يلعبون".

قال الأعمش:"لفي غفلتهم يتردّدون".

عن مجاهد: {(يَعْمَهُونَ}، قال: يتردّدون".

عن ابن عباس، قوله:"{إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ}، قال: يتمادَوْن".

وقرئ: «في سكرهم» و «في سكراتهم».

قوله تعالى: {فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣)} [الحجر: ٧٣]

فأخذتهم صيحةُ العذاب المهلكة المدمرة وقت شروق الشمس.

=

=

قال الحسن: "الصيحة: العذاب".

قال السدي:"صيحة جبريل {مشرقين} حين أشرقت الشمس".

قال ابن جريج:"حين أشرقت الشمس ذلك: {مشرقين}".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فأخذتهم صاعقة العذاب، -وهي الصيحة- إذ أشرقت الشمس".

قال مقاتل:"يعني: صيحة جبريل- عليه السلام- حين طلعت الشمس".

قال ابن كثير:"وهي ما جاءهم من الصوت القاصف عند شروق الشمس، وهو طلوعها، وذلك مع رفع بلادهم إلى عَنان السماء ثم قلْبها، وجعل عاليها سافلها، وإرسال حجارة السجيل عليهم".

قال الزجاج:"أي: أخذت قوم لوط الصيحة بالعذاب مشرقين، يقال أشرقنا فنحن مشرقون، إذا صادفوا شروق الشمس، وهو طلوعها، كما تقول أصبحنا إذا صادفوا الصبح. يقال: شرقت الشمس إذا طلعت وأشرقت بمعنى واحد، إلا أن معنى «مشرقين» في معنى: مصادفين لطلوع الشمس".

قال السعدي:"{مشرقين}، أي: وقت شروق الشمس حين كانت العقوبة عليهم أشد".

قال الزمخشري:"«الصيحة»: صيحة جبريل عليه السلام مشرقين داخلين في الشروق وهو بزوغ الشمس".

قال ابن جريج:"حين أشرقت الشمس ذلك: {مشرقين}".

قوله تعالى: {فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا} [الحجر: ٧٤]، أي:"فقلبنا قُراهم فجعلنا عاليها سافلها".

قال السعدي:"أي: قلبنا عليهم مدينتهم".

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: فجعلنا عالي أرضهم سافلها".

=

=

قال مقاتل: أي:"المدائن الأربع عاليها سافلها".

قال مجاهد: "أخذ جبريل عليه السلام قوم لوط من سَرْحهم ودورهم، حملهم بمواشيهم وامتعتهم حتى سمع أهل السماء نباح كلابهم ثم أكفأهم".

قال قتادة:"بلغنا أن جبريل عليه السلام أخذَ بعُرْوة القرية الوُسْطى، ثم ألوَى بها إلى السماء، حتى سمع أهل السماء ضَواغِي كلابهم، ثم دمَّر بعضها على بعض فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعهم الحجارة، قال قتادة: وبلغنا أنهم كانوا أربعة آلاف ألف".

عن محمد بن كعب القرظي قال: حدثت أن نبي الله ﷺ قال: "بعث الله جبريل عليه السلام إلى المؤتفكة قرية لوط عليه السلام التي كان لوط فيهم، فاحتملها بجناحه، ثم صعد بها حتى إن أهل السماء الدنيا ليسمعون نُباح كلابها وأصوات دجاجها، ثم كفأها على وجهها، ثم أتبعها الله بالحجارة، يقول الله: {جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل}، فأهلكها الله وما حولها من المؤتفكات، وكنّ خمس قريات، "صنعة" و"صعوة" "وعثرة"، و"دوما" و"سدوم" -وسدوم هي القرية العظمى -ونجى الله لوطًا ومن معه من أهله، إلا امرأته كانت فيمن هلك".

قوله تعالى: {وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ} [الحجر: ٧٤]، أي:"وأمطرنا عليهم حجارة من طين متصلب متين".

قال السعدي:"تتبع فيها من شذ من البلد منهم".

قال مقاتل: أي:"سدوم، ودامورا، وعاموا، وصابورا، وأمطرنا على من كان خارجا من المدينة حجارة من سجيل، ولعل الرجل منهم يكون في قرية أخرى فيأتيه الحجر فيقتله «من سجيل» يعني: الحجارة خلطها الطين".

وفي قوله تعالى: {مِنْ سِجِّيلٍ} [الحجر: ٧٤]، أقوال:

=

=

أحدها: أنه فارسي معرب وهو: «سنك وكيل»، فالسنك: الحجر، و «الكيل» الطين، قاله ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وعكرمة، ووهب.

قال الزجاج:"قال الناس في سجيل أقوالا، ففي التفسير أنها من جل وحجارة. وقال أهل اللغة: هو فارسي معرب، والعرب لا تعرف هذا. والذي عندي أنه إذا كان هذا التفسير صحيحا فهو فارسي أعرب لأن الله - جل وعز - قد ذكر هذه الحجارة في قصة قوم لوط، فقال: {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ} [الذاريات: ٣٣]، فقد تبين للعرب ما عني بـ «سجيل»، ومن كلام الفرس ما لا يحصى مما قد أعربته العرب، نحو: جاموس وديباج. فلا أنكر أن هذا مما أعرب".

الثاني: فارسية ونبطية: «سج»، «إيل». قاله سعيد بن جبير.

قال الطبري:"فذهب سعيد بن جبير في ذلك إلى أن اسم الطين بالفارسية "جل " لا "إيل"، وأن ذلك لو كان بالفارسية لكان "سِجْل " لا "سجيل"، لأن الحجر بالفارسية يدعى "سج "والطين "جل"، فلا وجه لكون الياء فيها وهي فارسية".

الثالث: أنه طين قد طبخ حتى صار كالأرحاء، ذكره ابن عيسى.

الرابع: أنه الحجارة الصلبة الشديدة، قاله أبو عبيدة، وأنشد قول ابن مقبل:

وَرَجْلَةً يَضْرِبُونَ البَيْضَ عَنْ عُرُض ... ضَرْبًا تَوَاصَى بِهِ الأَبْطَالُ سِجِّيلا

إلا أن النون قلبت لامـًا.

الخامس: {من سجيل}، يعني: من سماء الدنيا، والسماء الدنيا اسمها «سجيل»، قاله ابن زيد.

السادس: {من سجيل} من جهنم، واسمها «سجين» فقلبت النون لامـًا.

السابع: أن «السجيل»: من «السجل»، وهو «الكتاب»، وتقديره من مكتوب الحجارة التي كتب الله تعالى أن يعذب بها أو كتب عليها. وهذا قول الزجاج.

قال الزجاج:"معنى «من سجيل» من طين عليه كتاب. واشتقاق ذلك من السجل،

=

=

ودليل هذا التفسير قوله: {حِجَارَةً مِنْ طِينٍ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ} [الذاريات: ٣٣ - ٣٤]، فأعلم أنها من طين وأنها مسومة، أي: معلمة لعلامات الكتاب".

الثامن: أنه «فِعِّيل» من السجل وهو الإرسال، يقال: أسجلته، أي: أرسلته، ومنه سمي الدلو سجلاً لإرساله فكان السجل هو المرسل عليهم. حكاه الطبري عن آخرين.

التاسع: أنه مأخوذ من «السجل» الذي هو «العطاء»، يقال: سجلت له سجلاً من العطاء، فكأنه قال سُجلوا البلاء، أي: أعطوه. حكاه الطبري عن آخرين.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندنا ما قاله المفسرون، وهو أنها حجارة من طين، وبذلك وصفها الله في كتابه في موضع، وذلك قوله: {لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ طِينٍ مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ} [سورة الذاريات: ٣٣، ٣٤]".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥)} [الحجر: ٧٥]

إن فيما أصابهم لَعظاتٍ للناظرين المعتبرين.

قال ابن كثير:"أي: إن آثار هذه النقم ظاهرة على تلك البلاد لمن تأمل ذلك وتوسَّمه بعين بصره وبصيرته".

قال الطبري:"يقول: إن في الذي فعلنا بقوم لوط من إهلاكهم، وأحللنا بهم من العذاب لَعَلامات ودلالات للمتفرّسين المعتبرين بعلامات الله، وعبره على عواقب أمور أهل معاصيه والكفر به. وإنما يعني تعالى ذكره بذلك قوم نبيّ الله ﷺ من قريش، يقول: فلقومك يا محمد في قوم لوط، وما حلّ بهم من عذاب الله حين كذّبوا رسولهم، وتمادوا في غيهم، وضلالهم، مَعْتَبَر".

قال السعدي:" {للمتوسمين} ، أي: المتأملين المتفكرين، الذين لهم فكر وروية وفراسة، يفهمون بها ما أريد بذلك، من أن من تجرأ على معاصي الله، خصوصا

=

=

هذه الفاحشة العظيمة، وأن الله سيعاقبهم بأشنع العقوبات، كما تجرأوا على أشنع السيئات".

عن ابن عباس في قوله: " {إن في ذلك لآيات}، قال: علامة. أما ترى الرجل يرسل بخاتمه إلى أهله فيقول هاتوا كذا وكذا؟ فإذا رأوه عرفوا أنه حق".

وفي تفسير قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ} [الحجر: ٧٥]، وجوه:

أحدها: للمتفرّسين، قاله مجاهد، وبه قال الزجاج.

قال الزجاج:"وحقيقته في اللغة المتوسمون النظار المتثبتون في نظرهم حتى يعرفوا حقيقة سمة الشيء، تقول: توسمت في فلان كذا وكذا، أي: عرفت وسم ذلك فيه".

قال القشيري:"«الفراسة»: خاطر يحصل من غير أن يعارضه ما يخالفه عند ظهور برهان عليه، فيخرج من القلب عين ما يقع لصاحب الفراسة. مشتق من فريسة الأسد إذ لفريسته يقهر. والحق- سبحانه- يطلع أولياءه على ما خفى على غيرهم، وصاحب الفراسة لا يكون بشرط التفرس فى جميع الأشياء وفى جميع الأوقات بل يجوز أن تسدّ عليه عيون الفراسة فى بعض الأوقات كالأنبياء عليهم السلام فنبيّنا- ﷺ- كان يقول لعائشة- رضى الله عنها- فى زمان الإفك: «إن كنت فعلت فتوبى إلى الله». وكابراهيم ولوط- عليهما السلام- لم يعرفا الرسل".

الثاني: للناظرين. قاله ابن عباس، وقاله الضحاك. قال زهير بن أبي سلمى:

وفيهنّ مَلْهًى للَّطِيفِ ومنظَرٌ أنيقٌ لعَيْنِ النَّاظِرِ المُتَوَسِّمِ

الثالث: للمعتبرين، قاله قتادة.

الرابع: المتفكرون والمعتبرون الذين يتوسمون الأشياء، ويتفكرون فيها ويعتبرون. قاله ابن زيد.

الخامس: المتبصرين المتثبّتين، قاله أبو عبيدة.

=

قال الحسن: "هم الذين يتوسمون الأمور فيعلمون أن الذي أهلك قوم لوط قادر على أن يهلك الكفار".

قال الشنقيطي:"أصل «التوسم»: تفعل من «الوسم»، وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها. يقال: توسمت فيه الخير إذا رأيت ميسمه فيه، أي علامته التي تدل عليه... وللعلماء فيه أقوال متقاربة يرجع معناها كلها إلى شيء واحد".

قال ابن القيم:"المتوسمون: هم المتفرسون الذين يأخذون بالسيماء، وهي العلامة، قال مجاهد رحمه الله: المتوسمين المتفرسين. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: للناظرين. وقال قتادة: للمقرين، وقال مقاتل: للمتفكرين.

ولا تنافي بين هذه الأقوال. فإن الناظر متى نظر في آثار ديار المكذبين ومنازلهم، وما آل إليه أمرهم، أورثه فراسة وعبرة وفكرة. وقال تعالى في حق المنافقين: {وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ}، فالأول فراسة النظر والعين. والثاني فراسة الأذن والسمع".

قال ابن العربي:"التوسم: وهو تفعل من الوسم، وهو العلامة التي يستدل بها على مطلوب غيرها. قال الشاعر يمدح النبي ﷺ:

إِنِّي تَوَسَّمْتُ فيك الخيرَ أَعْرِفُه ... والله يَعلم أني ثابتُ البَصَرِ

وفي «الفراسة» أيضا، يقال: تفرست وتوسمت. وحقيقتها الاستدلال بالخلق على الخلق، وذلك يكون بجودة القريحة، وحدة الخاطر، وصفاء الفكر. يحكى أن الشافعي ومحمد بن الحسن كانا جالسين بفناء الكعبة، ودخل رجل على باب المسجد، فقال أحدهما: أراه نجارا، وقال الآخر: بل حدادا، فتبادر من حضر إلى الرجل فسألوه، فقال لهم: كنت نجارا، وأنا الآن حداد، وهذه زيادة على العادة، فزعمت الصوفية أنها كرامة".

قوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦)} [الحجر: ٧٦].

=

وإن قراهم لفي طريق ثابت يراها المسافرون المارُّون بها.

قال الطبري: "يقول تعالى ذكره: وإن هذه المدينة، مدينة سَدُوم، لبطريق واضح مقيم يراها المجتاز بها لا خفاء بها، ولا يبرح مكانها، فيجهل ذو لبّ أمرها، وغبّ معصية الله، والكفر به".

قال ابن كثير: "أي: وإن قرية سدوم التي أصابها ما أصابها من القلب الصوري والمعنوي، والقذف بالحجارة، حتى صارت بحيرة منتنة خبيثة لبطريق مَهْيَع مسالكه مستمرة إلى اليوم، كما قال تعالى: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ وَبِاللَّيْلِ أَفَلا تَعْقِلُونَ} [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]".

قال الزمخشري: "وإن هذه القرى يعنى آثارها {لبسبيل مقيم} ثابت يسلكه الناس لم يندرس بعد، وهم يبصرون تلك الآثار، وهو تنبيه لقريش كقوله: {وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ} [الصافات: ١٣٧]".

قال السعدي: "أي: مدينة قوم لوط {لبسبيل مقيم} للسالكين، يعرفه كل من تردد في تلك الديار".

وفي قوله تعالى: {وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ} [الحجر: ٧٦]، وجوه:

أحدها: لهلاك دائم، قاله ابن عباس.

الثاني: لبطريق واضح، قاله مجاهد، وقتادة، وبه قال الزجاج.

الثالث: لبطريق معلم. قاله مجاهد، والضحاك.

قال ابن زيد: "السبيل: الطريق".

قال أبو عبيدة: "«وَإِنَّها لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ»، أي: بطريق".

قال الماوردي: "يعني بقوله: {وإنها}، أهل مدائن قوم لوط وأصحاب الأيكة قوم شعيب".

قوله تعالى: {إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧)} [الحجر: ٧٧]

=

=

إن في إهلاكنا لهم لَدلالةً بيِّنةً للمصدقين العاملين بشرع الله.

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: إن في صنيعنا بقوم لوط ما صنعنا بهم، لعلامة ودلالة بينة لمن آمن بالله على انتقامه من أهل الكفر به، وإنقاذه من عذابه، إذا نزل بقوم أهل الإيمان به منهم".

قال أبو الليث:"أي: في هلاك قوم لوط لآية أي لعلامة وعبرة للمؤمنين".

قال الواحدي:"لعبرةً للمصدِّقين يعني: إنَّ المؤمنين اعتبروا بها".

قال ابن كثير:"أي: إن الذي صنعنا بقوم لوط من الهلاك والدمار وإنجائنا لوطا وأهله، لدلالة واضحة جلية للمؤمنين بالله ورسله".

قال مقاتل:"يعني: إن في هلاك قوم لوط لعبرة {للمؤمنين} ،يعني: للمصدقين بتوحيد الله- ﷻ- لمن بعدهم فيحذرون عقوبتهم، يخوف كفار مكة بمثل عذاب الأمم الخالية".

عن ابن عباس:" {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} ، قال: أما ترى الرجل يرسل بخاتمه إلى أهله فيقول: هاتوا خذي، هاتوا خذي، فإذا رأوه علموا أنه حقّ".

عن سعيد بن جبير، في قوله:" {إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَةً} ، قال: هو كالرجل يقول لأهله: علامة ما بيني وبينكم أن أرسل إليكم خاتمي، أو آية كذا وكذا".

الفهرس

فَلَمَّا دَخَلُوا عَلَىٰ يُوسُفَ آوَىٰ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ادْخُلُوا مِصْرَ إِنْ شَاءَ اللهُ آمِنِينَ (٩٩). ... ٥
وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَاأَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (١٠٠). ٥
رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ (١٠١).........١٥
ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ (١٠٢)..٣٠
وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ (١٠٣)............................٣٣
وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ (١٠٤). ٣٤
وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ (١٠٥)..٣٧
وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ (١٠٦). ٤٠
أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١٠٧)...٤٥
قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٠٨)..٤٧
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَدَارُ الْآخِرَةِ خَيْرٌ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا أَفَلَا تَعْقِلُونَ (١٠٩)..٧٩
حَتَّىٰ إِذَا اسْتَيْأَسَ الرُّسُلُ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا جَاءَهُمْ نَصْرُنَا فَنُجِّيَ مَنْ نَشَاءُ وَلَا يُرَدُّ

بَأْسُنَا عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ (١١٠). ٨٣
لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَىٰ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ (١١١)..................٩٢
سُورَة الرَّعْد ١٠٥
بسم الله الرحمن الرحيم ١١٠
المر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ (١). ١١٠
اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ (٢). ١١٢
وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣).......... ١١٧
وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤). ١١٨
وَإِنْ تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ (٥)...... ١٢٨
وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦). ١٣٣
وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧).١٤١
اللهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ

(٨). ١٤٥
عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩). ١٤٥
سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ
(١٠). ١٤٥
لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا
مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَالٍ (١١)...... ١٥٧
هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢). ١٧١
وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ
وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣). ١٧١
لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَىٰ
الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ (١٤). ١٩١
وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ
(١٥). ١٩٦
قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُمْ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لَا يَمْلِكُونَ
لِأَنْفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ
وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ
وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦). ٢٠١
أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ
فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ
فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنْفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ
(١٧). ٢١١

لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ٢٢١

أَفَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ (١٩) ٢٢٤

الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللهِ وَلَا يَنْقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) ٢٢٧

وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) ٢٢٧

وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَىٰ الدَّارِ (٢٢) ٢٢٧

جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ (٢٣) ٢٢٧

سَلَامٌ عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَىٰ الدَّارِ (٢٤) ٢٢٧

وَالَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ٢٣٩

اللهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ (٢٦) ٢٤٢

وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) ٢٤٦

الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُمْ بِذِكْرِ اللهِ أَلَا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) ٢٤٧

الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩) ٢٤٧

كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهَا أُمَمٌ لِتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠). ٢٥٨

وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَنْ لَوْ يَشَاءُ اللهُ لَهَدَىٰ النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللهِ إِنَّ اللهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١). ٢٦٢

وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢). ٢٧٣

أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ أَمْ بِظَاهِرٍ مِنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣). ٢٧٦

لَهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مِنْ وَاقٍ (٣٤). ٢٨١

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَىٰ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَعُقْبَىٰ الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥). ٢٨٤

وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الْأَحْزَابِ مَنْ يُنْكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللهَ وَلَا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦). ٢٩٩

وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ (٣٧). ٢٩٩

وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِنْ قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَنْ يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ (٣٨). ٣٠٤

يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ (٣٩). ٣٠٤

وَإِنْ مَا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠). ٣١٨
أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١). ٣٢٠
وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَىٰ الدَّارِ (٤٢). ٣٢٧
وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣). ٣٣٠
سورة إبراهيم بسم الله الرحمن الرحيم ٣٥٢
الر كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ (١). ٣٥٥
اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَوَيْلٌ لِلْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ شَدِيدٍ (٢). ٣٥٥
الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَىٰ الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللهِ وَيَبْغُونَهَا عِوَجًا أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ (٣). ٣٥٥
وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ فَيُضِلُّ اللهُ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (٤). ٣٦٦
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَىٰ النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ (٥). ٣٧٠
وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إِذْ أَنْجَاكُمْ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ وَيُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَلِكُمْ بَلَاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ

(٦) ٣٧٥
وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ (٧). ٣٨٧
وَقَالَ مُوسَىٰ إِنْ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ (٨). ... ٣٨٨
أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا
اللهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِي أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ
وَإِنَّا لَفِي شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ (٩). ٣٩٣
قَالَتْ رُسُلُهُمْ أَفِي اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ
وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى قَالُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ
يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ (١٠). ٤٠٤
قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا
كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (١١). ٤٠٥
وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَىٰ مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللهِ
فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (١٢). ٤٠٥
وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَىٰ إِلَيْهِمْ
رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ (١٣). ٤١٧
وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ (١٤). ٤١٧
وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ (١٥) ٤١٧
مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمُ وَيُسْقَىٰ مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ (١٦). ٤١٧
يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسِيغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ
غَلِيظٌ (١٧). ٤١٨
مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لَا يَقْدِرُونَ

مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ (١٨). ٤٣٥
أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللهَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ (١٩) ٤٤٠
وَمَا ذَٰلِكَ عَلَىٰ اللهِ بِعَزِيزٍ (٢٠). ٤٤٠
وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ (٢١). ٤٤٤
وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الْأَمْرُ إِنَّ اللهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِ مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢) ٤٤٩
وَأُدْخِلَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ تَحِيَّتُهُمْ فِيهَا سَلَامٌ (٢٣). ٤٤٩
أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ (٢٤). ٤٥٩
تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥). ٤٥٩
وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ اجْتُثَّتْ مِنْ فَوْقِ الْأَرْضِ مَا لَهَا مِنْ قَرَارٍ (٢٦). . ٤٦٠
يُثَبِّتُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ وَيُضِلُّ اللهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَلُ اللهُ مَا يَشَاءُ (٢٧). ٤٧٠
أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ (٢٨). ٤٧٥

جَهَنَّمَ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْقَرَارُ (٢٩).. ٤٧٥
وَجَعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلُّوا عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعُوا فَإِنَّ مَصِيرَكُمْ إِلَى النَّارِ (٣٠). ... ٤٧٥
قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خِلَالٌ (٣١).. ٤٨٥
اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ (٣٢)....... ٤٩٤
وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ (٣٣)............ ٤٩٤
وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ (٣٤).. ٤٩٤
وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (٣٥). ٥٣٧
رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٣٦).. ٥٣٧
رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧).
.... ٥٣٧
رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ (٣٨).. ٥٣٨
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ (٣٩).. ٥٣٨
رَبِّ اجْعَلْنِي مُقِيمَ الصَّلَاةِ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي رَبَّنَا وَتَقَبَّلْ دُعَاءِ (٤٠). ٥٣٨
رَبَّنَا اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِلْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ يَقُومُ الْحِسَابُ (٤١)................ ٥٣٨

وَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ غَافِلًا عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الْأَبْصَارُ (٤٢). ٥٧٠
مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ (٤٣). ٥٧٠
وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَىٰ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ (٤٤). ٥٧٥
وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ (٤٥). ٥٧٦
وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ (٤٦). . ٥٧٦
فَلَا تَحْسَبَنَّ اللهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللهَ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ (٤٧). ٥٨٥
يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨). ٥٨٥
وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ (٤٩)........ ٥٨٥
سَرَابِيلُهُمْ مِنْ قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠)........ ٥٨٥
لِيَجْزِيَ اللهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١)........ ٥٨٦
هَذَا بَلَاغٌ لِلنَّاسِ وَلِيُنْذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)........ ٥٩٩
سورة الحجربسم الله الرحمن الرحيم........ ٦٠٩
الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ (١). ٦١٤
رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ (٢). ٦١٤
ذَرْهُمْ يَأْكُلُوا وَيَتَمَتَّعُوا وَيُلْهِهِمُ الْأَمَلُ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (٣). ٦١٥
وَمَا أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ إِلَّا وَلَهَا كِتَابٌ مَعْلُومٌ (٤). ٦٢٦
مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ (٥) ٦٢٦

وَقَالُوا يَاأَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ (٦). ٦٢٨
لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلَائِكَةِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (٧).......................... ٦٢٨
مَا نُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ (٨).......................... ٦٢٨
إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ (٩).................................. ٦٣٥
وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي شِيَعِ الْأَوَّلِينَ (١٠). ٦٣٨
وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١١).......................... ٦٣٨
كَذَلِكَ نَسْلُكُهُ فِي قُلُوبِ الْمُجْرِمِينَ (١٢). ٦٣٨
لَا يُؤْمِنُونَ بِهِ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ (١٣).................................. ٦٣٨
وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ (١٤). ٦٤٢
وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ (١٦).......................... ٦٤٨
وَحَفِظْنَاهَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ (١٧) ٦٤٨
إِلَّا مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُبِينٌ (١٨) ٦٤٨
وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ (١٩).... ٧٠٢
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ (٢٠).......................... ٧٠٢
وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ (٢١). ٧٠٨
وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ (٢٢).. ٧٠٨
وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ (٢٣).......................... ٧١٤
وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلِمْنَا الْمُسْتَأْخِرِينَ (٢٤). ٧١٤
وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٢٥).......................... ٧١٤
وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٦). ٧٢١

وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ (٢٧)........................ ٧٢٢
وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٢٨)...... ٧٢٢
فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٢٩)..................... ٧٢٢
فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٣٠) ٧٢٢
إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ أَنْ يَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣١) ٧٢٢
قَالَ يَاإِبْلِيسُ مَا لَكَ أَلَّا تَكُونَ مَعَ السَّاجِدِينَ (٣٢)......................... ٧٢٢
قَالَ لَمْ أَكُنْ لِأَسْجُدَ لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ (٣٣)........... ٧٢٢
قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٣٤)................................ ٧٢٢
وَإِنَّ عَلَيْكَ اللَّعْنَةَ إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٣٥)............................. ٧٢٣
قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٣٦) ٧٤٢
قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٣٧).................................... ٧٤٢
إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٣٨)..................................... ٧٤٢
قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) ٧٤٣
إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠)................................. ٧٤٣
قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ (٤١)................................ ٧٥١
إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (٤٢)............ ٧٥١
وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ (٤٣)................................. ٧٥١
لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ (٤٤)....................... ٧٥١
إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥)................................. ٧٥٨
ادْخُلُوهَا بِسَلَامٍ آمِنِينَ (٤٦)....................................... ٧٥٨
وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُتَقَابِلِينَ (٤٧)............... ٧٥٨

لَا يَمَسُّهُمْ فِيهَا نَصَبٌ وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ (٤٨). ٧٥٨
نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (٤٩). ٧٥٨
وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ (٥٠). ٧٥٨
وَنَبِّئْهُمْ عَنْ ضَيْفِ إِبْرَاهِيمَ (٥١). ٧٧٤
إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقَالُوا سَلَامًا قَالَ إِنَّا مِنْكُمْ وَجِلُونَ (٥٢). ٧٧٥
قَالُوا لَا تَوْجَلْ إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ (٥٣). ٧٧٥
قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ (٥٤) ٧٧٥
قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ (٥٥). ٧٧٥
قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ (٥٦). ٧٧٥
قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٥٧). ٧٨٩
قَالُوا إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَىٰ قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (٥٨). ٧٨٩
إِلَّا آلَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ (٥٩). ٧٨٩
إِلَّا امْرَأَتَهُ قَدَّرْنَا إِنَّهَا لَمِنَ الْغَابِرِينَ (٦٠). ٧٨٩
فَلَمَّا جَاءَ آلَ لُوطٍ الْمُرْسَلُونَ (٦١). ٧٨٩
قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (٦٢). ٧٩٠
قَالُوا بَلْ جِئْنَاكَ بِمَا كَانُوا فِيهِ يَمْتَرُونَ (٦٣). ٧٩٠
وَأَتَيْنَاكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (٦٤). ٧٩٠
فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِنَ اللَّيْلِ وَاتَّبِعْ أَدْبَارَهُمْ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ وَامْضُوا حَيْثُ تُؤْمَرُونَ (٦٥). ٧٩٠
وَقَضَيْنَا إِلَيْهِ ذَٰلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰؤُلَاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ (٦٦). ٧٩٠
وَجَاءَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ يَسْتَبْشِرُونَ (٦٧). ٧٩٠

قَالَ إِنَّ هَؤُلَاءِ ضَيْفِي فَلَا تَفْضَحُونِ (٦٨). ٧٩٠
وَاتَّقُوا اللهَ وَلَا تُخْزُونِ (٦٩). ٧٩٠
قَالُوا أَوَلَمْ نَنْهَكَ عَنِ الْعَالَمِينَ (٧٠). ٧٩٠
قَالَ هَؤُلَاءِ بَنَاتِي إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ (٧١). ٧٩١
لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢) ٧٩١
فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ (٧٣) ٧٩١
فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ (٧٤). ٧٩١
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ (٧٥). ٧٩١
وَإِنَّهَا لَبِسَبِيلٍ مُقِيمٍ (٧٦). ٧٩١
إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ (٧٧) ٧٩١
الفهرس ٨٢٣

